قلب ينبض في صدر الزمن

الطّبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧/٢/٤٠٤)

813.9
دروزة، رانيا رياض
قلب ينبض في صدر الزمن/رانيا رياض دروزة_عمان: المؤلف، ٢٠٠٧.
(٥٩٦) ص
ر.إ: (٢٠٠٧/٢/٤٠٤).
الواصفات: /الروايات العربية //العصر الحديث /

❖ يتحمّل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

تدقيق: فاطمة إدريس

تصميم الغلاف: غسان دروزة

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

قلب ينبض في صدر الزمن

رانيا رياض دروزة



الإهداء

إلى كلِّ شخص اختار روايتي وقرّر أن يدخل عالمها ويعيش مع أبطالها.

- إلى كلِّ شخص لمستْ أحداث الرّواية أحداثاً مشابهة من حياته.
- إلى كلِّ مَنْ يُسابق الزّمن ويسعى وراء الخيال حتّى... يستيقظ.
- إلى كلِّ مَنْ أحبَّ بصدق، لكن...
- إلى كلِّ هَدّام وقفَ في طريق إنجاح الرّواية، ليرى أنَّ السعي وراء النّجاح لن يوقفه وجود شخص مُـــحْبِط.
- أُهديها للزّمن لِتبقى عملاً روائياً يصدح صداه مع التّـــاريخ.
- أُهديها إلى كلِّ من ساهم بنجاح هذا العمل الرّوائيّ من أصدقاء وأقارب وأهل، ومن قدَّم النّصح والمشورة، ومن قدَّم التشجيع والدّعم والحبّ.
- كما وأهديها لنفسي بعد تعب المشوار الطّويل... فهل أستحقّ؟

رانيا دروزة

الأسماء الواردة في الرواية غير حقيقية
وقد تتشابه بالواقع من باب المصادفة

المقدمة

بدأت بكتابة الرواية منذ مطلع عام ٢٠٠٤، فعشتها عامين متواصلين وكنت أشخاصها حتى نهاية عام ٢٠٠٦. حلمت بها كأي رواية مطبوعة وعلى رفوف المكتبات، لكن عقبات كثيرة بدأت تحارب حلمي، وبكل عام أنوي أنه عامها، إلى أن مضت عشر سنوات كلمح البصر...وكأن هناك سر خفي وراء العشر، فما أن مضت كل هذه الأعوام حتى بدأ كل شيء من حولي يسهل لي ولادة هذه الرواية البكر لترى النور، فسبحان الله كل شي مقدر سلفاً والخيرة فيما اختاره الله.

فكيفما أدرت وجهك في هذه الحياة تلتقط عيناك صوراً تعيش داخل عقلك وتترك بصمة بقلبك...فالمصوّر يلتقطُ صوراً تحمل معنى وتروي حكايا وتبقى لك ذكرى.

والكاتب يرسم صوراً ينقُلك من يوميّاتك لتعيش مع يوميّات مجتمع دَخَلْتُه غريباً...لكن سرعان ما أصبحت واحداً من أفراد هذه الرّواية تتنفّس هواءهم وتتأثّـر بهم.

الرّواية تطوي بين صفحاتها صوراً واقعيّـة من هذه الدّنيا، تطرحُها وتعالجُها بطريقة المجتمع نفسه، لنرى أنَّ تجارب الآخرين وسيطرتهم تُؤثِّر على حياة الأفراد وربّما تُغيّر سير حياتهم.

عندما تخلع الأمُّ ثوب الأمومة بحجّـة الأمومة، تصبح أمل مجرد اسم...

عندما يفقد الإنسان الحبَّ طيلة حياته ويجدُه بطريق الصّدفة...

عندما تشعر أنكَّ مرفوض ...

عندما يُسيطر الحقد على المشاعر...

عندما تُصبح الصّداقة بوّابة للغيرة....

عندما يكتشف أنَّ الشّخص قلبه ينبض لغيره...

عندما تنتهي من قراءة الرّواية وتصبح جزءاً منك...

حينها يصبح " قلب ينبض في صدر الزّمن ".

رانيا دروزة

قائمة المحتويات

الفصل الأول

كانت ليلة طويلة وعقارب السّاعة تدور ببطء شديد، وهي تنتظرُ قرص الشّمس بأن يكشف عينه وتمتلئ السّماء بالنور. هذا اليوم انتظرَتْه بفارغ الصّبر منذ سنين. وها قد بزغ الفجر، اشتمّت رائحة الصّبح يتنفّس، فدعت الله أن تكتمل سعادتها هذا اليوم. وقفت على الشّرفة لتداعب نسمات الهواء الرّطبة أحاسيسَها، توقظ فيها ذكريات ما كانت لتذكرها، أخذت نفساً عميقاً تخلّل الهواء لأعماقها فاقشعرَّ بدنُها، وقالت في قلبها: "وأخيراً جاء الموعد بعد طول سنين، لأضمّك يا حبيبي إلى قلبي، كم اشتقت إلى وجودك".

وفجأة، سمعت صوت أقدام زوجها (أبي يزيد) قادماً نحو الشّرفة.

–"أأنتِ مستيقظة يا علياء؟"

– بالي مشغول يا عزيزي.

– وما الذي يشغل بالكِ؟ يجب أن تكوني هادئة البال اليوم، بل ومرتاحة نفسياً أيضاً، أمشغول بالكِ على أمين؟ هَاهو سيعود اليوم بعد طول غياب وقد أصبح شاباً قوياً، فأين القلق في ذلك؟ قومي... قومي وأعدّي لنا فنجانيّ قهوة ريثما أتوضّأ وأصلّي الفجر.

فتنهّدت علياء وعينيها الحارّتين مُعلّقتان بأبي يزيد، فقالت له: "كلامك صحيح، ولكنّي أفكّر بأمور أخرى".

فأجابها بمرح: "هيّا... هيّا، نريد أن نشرب القهوة".

توجّهت علياء إلى المطبخ لتُعدَّ القهوة، وعندما بدأت بتحريك القهوة تحرّكت معها بحيرة الذّكريات الراكدة.

تذكّرت أمين طفلاً، تلاعبه وتسهر على راحته، وفجأة سُرق من بين يديها فتلوم نفسها.

تبعها أبو يزيد إلى المطبخ ليُساعدها، فتفاجأ: "لا...لا أنتِ لستِ طبيعيّة اليوم أبداً ! انتبهي...! القهوة ستفور على الغاز... ما بالكِ يا حبيبتي؟ "

فصبّت القهوة وذهبا ليجلسا في الشّرفة.

– أتعرف يا عزيزي، أشعر بالذّنب اتّــجاه أمين، نحن بأيدينا حرمناه العيش معنا، لقد عاش مسكيناً كالأيتام، تربّى وحيداً، محروماً من الحنان الحقيقي.

نظر أبو يزيد إلى علياء قائلاً:"أتفكّرين بشيء مضى عليه عشر سنوات، وتحاسبين نفسكِ عليه الآن! لقد كان ما كان...ونحن لا دخل لنا، قدّمنا استطاعتنا وحاولنا إحضاره لكن بلا جدوى!"

– صدّقني أنَّ العشر سنوات التي مضت أحاسب نفسي عليها يومياً، وعلى ذاك الوعد الذي أخلفته... ولُمتك أحياناً، أرجوك لا تغضب مني.

– ولماذا؟... ما الذّنب الذي فعلتهِ أنتِ... وما هو الجرم الذي ارتكبته!؟ لِــمَ كلُّ هذا اللّوم؟ كما أنكِ لم تخلفي وعدكِ، بل هذا هو القدر.

سكتت علياء وتنهّدت: "آه... يا عزيزي أتذكر عندما كنّا عروسين، ونريد الذّهاب لقضاء

شهر العسل! أتذكر ماذا اقترحتَ عليّ يومها؟"

***

كان أمين في الثامنة عندما تزوّجت خالته، وأرادت أن تذهب شهر العسل، حيث كان يعيش مع خالته علياء.

أما أُمُّ أمين (أمل) بعثر الزّمن شبابها، وطارت صفحات كتابها، فلملمتها بغير تسلسلها الصّحيح، فأصبحت حياتها عشوائية.

تزوّجت أمل من شاكر لمدّة لا تتجاوز عشر أشهر فقط، وبعد ميلاد أمين انفصل الزوجان، لقد كان زواجهما من أفشل العلاقات الزّوجية، والسبب يعود لأخلاق شاكر السيّئة، كان بفترة الخطبة يُمثّل دور الزّوج الرّائع، وبعد الزّواج بشهر واحد (ذاب الثّلج وبان المرج) كما يُقال.

كان يخرج ليلاً ولا يعود حتّى الفجر، ويحتسي الخمر ويثمل، ويبعثر ماله بالمحرّمات، إضافة إلى مزاجه الصّعب وطبيعته العصبيّـــة.

حملت أمل بعد زواجها بشهر واحد، فجُنَّ جنونه.

"ما هذا الذي فعلتيه أيتها البلهاء؟ لماذا حملتِ الآن؟"

– لا ذنب لي بما حصل، كلُّ الأمور بيد الله، لماذا تحاسبني؟ نحن متزوّجان... فما المشكلة أن يكون لدينا صغيراً يملأ حياتنا فرحاً؟

فتح شاكر عينيه الواسعتين الخضراوتين بعصبيّة، فأصبحتا مُخيفتين، وكأنّ الشرر يخرج منهما! واشتدَّ وجهه حمرة، وبدأ يصرخ بصوت عال: "أأنتِ مجنونة! لا نريد أطفالاً الآن يزعجوننا، يحوّلون حياتنا إلى جحيم". فأجابته أمل وهيً ترتجف من الخوف: "عزيزي، أنت لا تربط نفسك بأحد سأربّي وأسهر وأتولّى أموره بنفسي، يجب أن تفرح لهذا الخبر السّار، فالأطفال زينة الحياة الدّنيا".

سحبها من شعرها بيده الضّخمة، وقال لها بعصبيّة: "كلامكِ لا يُعجبني ولا يهمّني، عليكِ أن تتخلّصي من الجنين فوراً، وإلا خسرتِ كلّ شيء، اذهبي إلى الطّبيب غداً، وليغيّر ما حدث، وننتهي من الأمر"

باتت أمل تبكي طوال تلك اللّيلة، لا تعرف ماذا تفعل أتذهب إلى الطّبيب أم تبقى تتحمّل الإهانات القاسية! تريد أن تصرخ لكنها لا تستطيع، وكأنَّ شيئاً ما أغلق فمها، تشعر أنها عصفورٌ بلا أجنحة، وأنَّ كفّتي الميزان غير متعادلتين، فواحدة تطفو والأخرى تغرق.

في الصّباح ذهبت إلى الطّبيبة لتنفّذ أمر زوجها، وهي تعلم كلَّ العلم أنَّ الذي ستقوم به أمرٌ محرّم، وليس باليد حيلة.

دخلت عيادة الطّبيبة النّسائية وهي خائفة ومتوتّرة، جلست في غرفة الانتظار تنتظر دورها ما يُقارب نصف ساعة، وهي مشدودة الأعصاب، تُقَلّب صفحات مجلّة وجدتها على المقعد الذي تجلس عليه، لا ترى أيَّ شيء في هذه المجلّة، وكأنها صفحات فارغة، لا تدري ما بها، وبعد ذلك دخلت غرفة الطّبيبة، وجلست على المقعد المقابل لطاولة مكتب الطّبيبة، والدّمع يترقرق في عينيها، والكلمة تغصُّ في حلقها.

فسألتها الطّبيبة "أهلاً يا أمل... كيف حالكِ؟ وكيف هي حالة الحمل معكِ اليوم؟ أتشعرين

بشيء؟"

تمتمت:"جيّدةلكن زوجي لا يريد الطّفل، وطلب مني أن أتخلّص منه اليوم قبل الغد، لا أعرف ماذا أفعل".

فقالت الطّبيبة مندهشة: "ما الذي تقولينه هذا محرّم! ومخالف للقانون أيضاً، لا... لا أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، اذهبي وأفهمي زوجكِ أنّ كلَّ الأطباء لن يساعدوكِ على فعل شيء حرام، ويجب عليه أن يخاف الله، فهذه هديّة بعثها الله لكما لتنعما بالسّعادة، وليس ليتخلّص منها، الأزواج يبذُلون أقصى جهدهم ليكون عندهم أطفال، يملؤون عليهم الحياة محبّة وسعادة، وأناس يأتونني يتمنّون ولو طفلاً واحد، يقومون بالمستحيل لإنجابه".

– أرجوكِ يا دكتورة ساعديني، ففعلاً زوجي ربّما يضربني إذا رجعت والجنين في أحشائي.

– لا يا أختي، أنا لا أفعل هذا، اتّقي الله أنتِ وزوجكِ، ماذا تقولين! ألا يخاف زوجكِ الله أبداً...؟ ألا يعرف أن الله سريع الانتقام...؟ ألا يخاف أن يحرمه من الأطفال مدى الحياة لرفضه هذه النعمة؟!

خرجت أمل من عند الطّبيبة وهي تبكي حالها، تبكي على الموقف الذي وضعت به أمام الطّبيبة، وتبكي خوفاً من زوجها، وقلبها يتفطّر على الجنين الذي في بطنها، وتتألـَم خوفاً من الله عز وجل.

حتّى عادت إلى البيت ولم تدري كيف قطعت هذه المسافة كلّها، وأوّل شيء فعلته ألقت نفسها على السّرير وغطّت بنوم عميق. بعد ساعة استيقظت راجفة القلب على صوت زوجها المزعج الذي لم يحترم سلطان نومها، وهو يقول: "أذهبتِ إلى الطّبيب يا أمل؟ أمل... أمل...؟ ماذا فعلتِ بخصوص الجرثومة التي في أحشائكِ؟"

قامت أمل وقلبها يخفق بشدّة فقد ذُعِرَت من صوت زوجها الغليظ وسؤاله الاستفزازيّ، وأجابته بتردّد: "لا شيء... لا أحد يستطيع أن يخلّصني من الجنين".

فقال لها وهو في أسوأ حالات الغضب: "أنا سأخلّصكِ منه بسهولة ولا نريد مساعدة أحد"، فحمل الكرسيّ الذي بجانبه في غرفة النّوم، وأراد أن يهوي به عليها، فصرخت بصوت عالٍ وهربت إلى غرفة الجلوس، وإذا بأحدٍ يطرق الباب، فقال لها شاكر بعصبيّة: "لا تفتحي... "

لم تهتمَّ لكلامه وفتحت الباب بسرعة. كانت أختها سهاد قادمة لزيارتها والاطمئنان على صحّتها، فكانت المنقذة للموقف، خرج شاكر من المترل بعصبيّة ولازال يصرخ بأمل ويقول لها: "عندما أعود في المساء سنتفاهم".

شرحت أمل لأختها ما يجري بالتّفصيل، فاقترحت عليها أن تطلب منه الطّلاق، لأنَّ الحياة معه لا تطاق، أو أن يُـــحسِّن حاله.

في المساء عاد شاكر حوالي السّاعة التّاسعة، كانت أمل تنتظره على العشاء فحاولت أن تكون لطيفة معه، لعلّه يُـــحسِّن من أخلاقه وأفكاره قليلاً.

وعندما رآها قال لها مستهزئاً: "اسمعي يا أمل يا حبيبتي... قلت لكِ مسبقاً مئة مرّة لا نريد أطفالاً الآن، وما عليكِ فعله هو كما أقول لكِ لتتخلّصي من الجنين يجب أن تقفزي وتلعبي لعبة

قفز الحبل، التي كنّا نلعبها ونحن صغار، أتذكرين؟؟ يجب أن تحملي سلّة الغسيل وتصعدي درج البناية التي نسكنها، وتنشري الغسيل على السّطح، ولا تستعملي المصعد أبداً، هذه التمارين لكلِّ يوم، ولا تنسي الأعمال المترلية الشاقّة، هكذا سيترل الجنين وحده، وإياكِ أن أراكِ حاملاً بعد الآن، أفهمتِ...؟".

***

ركضت أمل لغرفة نومها ورمت بنفسها على السّرير، وهي تبكي من القهر، وتمنّت الموت على أن تفعل شيئاً من الذي قاله زوجها، وأصبحت تدعو الله أن يخرجها من المأزق الذي هي فيه الآن، وأدركت مدى جهالة زوجها وكم كانت مغشوشة به.

أثناء تواجد شاكر في البيت يرغمها على القفز لإجهاضها، وأحياناً كانت تفعل ما يأمرها به وأمامه فقط وخوفاً منه. لكن المشيئة الإلهية تحكم ببقاء الطّفل داخل رحم أمه.

أصبحت أمل في الشهر الخامس، ولم تعد تحتمل الإهانات والأوامر التي كان يفرضها عليها زوجها، وفوق ذلك كلّه يعود أوّل الفجر ثملاً، فتركت لشاكر البيت وذهبت إلى بيت أهلها، البيت الذي تسكن فيه أختاها علياء وسهاد. فكان أن عادت إلى أختيها طالبة الطّلاق، هاربة من العيش المهان.

وافق شاكر على الطّلاق وقال لها:"هو الحلُّ الأفضل... لكن بشرط أن لا أتكفّل أبداً بمصروف هذا الطّفل، ولا تحمليني أيّ عبء أو مسؤولية، فلا دخل لي به على الإطلاق؟".

وافقت أمل على هذه الشروط القاسية، لتتخلّص من مدينة الأشباح التي تعيش فيها، وأنها ستفعل المستحيل حتّى تقوم على تربية طفلها أفضل تربية، وتوفّر له عيشاً كريماً إلى أن يكبُر، وستكون الأب والأم معاً.

وهنا بطبيعة الحال كان الطّلاق بعد مرور عشرة أشهر من زواج لا يُحتمل بعد ولادتها.

وضعت الأم طفلها بصحّة جيدة، وقالت بأنها ستسمّيه (أمين) لتشعر بحياة آمنة وأمينة، يخلو منها جوُّ الخوف والرّعب الذي كانت تعيشه. سُرّت أُختاها بالمولود الجديد وقالتا لها أنه سيكون لعبتهنَّ الصغيرة، ويعاونَّها على تربيته، لقد كان طفلاً رائع الجمال يُرقّق القلوب عند النّظر إليه.

اتّفقت الأخوات على تربية الطفل، حيث أنَّ أمه ستعمل لتوفّر مصروفه رغم أنها في بحبوحة العيش، وستتولّى سهاد شؤون المترل، بينما أخذت علياء على عاتقها الاعتناء بأمين وتربيته.

أطفأ أمين ثلاث شمعات وأصبح يسأل عن أبيه ويقارن نفسه بابن الجيران الذي يُحضر له والده ألعاباً، فلم تجد والدته حجّة تتوافق ومنطق الطّفولة سوى أنَّ والده يعمل في مكان بعيد. حزنت الأم على طفلها المسكين ووعدته برؤية والده قريباً. كانت تُقنع نفسها بالتواصل مع شاكر لتكلّمه عن طفله، لكن تردّدها كان يُدفن الفكرة بعد ولادتها خوفاً من صدّه لها وعدم اكتراثه، لكن تحت شدّة إلحاح أمين رضخت أمل لأمومتها واتّصلت هاتفياً بشاكر.

فردّ شاكر على الهاتف:"أمل ؟ أهذه أنتِ؟ لم يتغيّر صوتكِ، ماذا تريدين منّي بعد هذه المدّة!!

قالت:"لا... لا...، لست أنا التي أريد، إنه أمين".

فقال مستغرباً: "من أمين هذا؟ "فأجابت وهي متردّدة: "إنه ابنك! آسفة أقصد ابني، إنه يسأل باستمرار عن أبيه، وأين هو، وما هو شكله؟ "فأجاب شاكر بكلِّ برود: "حسناً... وماذا

عليّ أن أفعل، وأنتِ تعرفين أنني لا أريد الطّفل منذ أن كان في رحمكِ؟"

فقالت أمل متوسّلة: "أرجوك يا شاكر لا تشوّه سمعة الأبوّة بنظر الطّفل، تعال وقم بزيارة الطفل ولو مرّة واحدة كلّ شهر، لا أريد منك شيئاً آخراً... حرام أن يكون للطفل أبٌ حيٌّ يرزق وهو محروم من كلمة بابا، أرجوك افعل ما بوسعك، فهو بالنهاية طفلنا معاً، وربّما يحنُّ قلبك عندما ترى وجهه الرائع، وكم هو يشبهك ".

فردَّ بغرور: "أهو وسيم مثلي فعلاً؟"

فقالت أمل: "نعم، رائع عيناه خضراوتان، تتلألآن براءة وطيبة"، وقالت في قلبها: عكس عينيك اللّتان تشعّان كراهية".

– "حسناً سأحاول في الأسبوع القادم المجيء، ولكن ذكّريني أنتِ مرّة أخرى". كان يقولها باستخفاف وليس بمحمل الجدّ، لكن أمل فرحتْ ببصيص الأمل هذا. وذهبت على الفور وقالت لطفلها: "يا أمينو... والدك سيأتي الأسبوع القادم يا عزيزي"، فسألها أمين "كم يوم يا أمي يعني أسبوع" فحملتْ الأم الطّفل وأجلسته في حضنها، وقالت له: "أعطني يديك الجميلتين" فناولها أمين كفّيه الصّغيرتين كأنه يدعو الله راجياً، فأمسكت يديه وقالت: "أسبوع يعني يا ماما واحد اثنان... سبعة، وهي تعدُّ على أصابعه الصغيرة.

فقال لها: "كثيراً هذا يا أمي"

– لا يا حبيبي، ستمضي الأيام بسرعة"

– ما هي الهديّة التي سيجلبها معه؟

– لا أدري يا حبيبي.

فأجابها أمين:"ابن الجيران عندما يسافر والده، يحضر له هدايا دائماً وألعاباً وملابس جميلة".

فأحسّت أم أمين بالقهر وقالت في نفسها يجب أن أحضر هديّة جميلة وأعطيها لشاكر عندما يأتي، على أساس أنه هو الذي أحضرها، فهي لا تريد أن تطلب منه إحضار أيَّ شيء.

كان أمين كلّ يوم يستيقظ صباحاً يسأل أمه: "هل سيأتي أبي ومعه الهديّة الكبيرة اليوم؟"

فكانت تجيبه: "ليس اليوم يا أمينو". فأدركت الأم أنَّ الطّفل همّه الهديّة أكثر فعلياً من أن يرى والده، هو حتماً صغير ولا يدرك معنى إنه يريد رؤية أبيه، بل أنه متشوّقاً لرؤية هديّة رائعة ترضي طفولته البريئة. وما كان إلا أنّ اشترت الأم هديّة جميلة لطفلها، وخبّأتها لتعطيها لشاكر ويقدّمها لابنه، وبعد ذلك اتّصلت أمل بشاكر على الفور لتحدّد معه موعداً.

– "مرحباً شاكر... كيف الحال؟ "

– "أنا جيّد، ماذا تريدين مني أيضاً؟ "

– لا شيء... أنسيت موضوعَ أمين؟ (وهي متضايقة من استخفافه).

– اسمعي أنا مشغولٌ، وليس لديّ وقت في هذه الأيام.

فأجابت أمل بحزن: "أرجوك يا شاكر لقد وعدتُ الطفل، وهو كلّ يوم يسأل عنك، تعال ولو ربع ساعة... ولو عشر دقائق، ولكن لا تجعلني أخلف بوعدي أمام طفلي المسكين".

فأجابها بعصبية: "سأحاول غداً بعد الظّهر حوالي السّاعة الرّابعة، ولكن فقط ربع ساعة

وأذهب، ولا تجبريني على المجيء مرّة أخرى، أو تتكلّمي معي بخصوص هذا الطّفل، اتّفقنا منذ البداية أنّه لا علاقة لي بالموضوع، لا أريد إحراجاً ولا أريد أن يتعلّق بي أحد مهما كان".

– حسناً... أجابت أمل وقالت له: "لا تنسَ أرجوك". من ثمّ أغلقت الهاتف وحمدت الله أن خلّصها من العيش مع هذا الرّجل، ذي العقل المعوج.

وفي صباح اليوم التالي قالت أمل لولدها: "والدك سيأتي اليوم ومعه هديّة كبيرة جميلة، أريدك يا أمين أن تركض إليه وتعانقه وتشكره على الهديّة"وقالت في سرّها (ربّما عندما يرى طفله يرقُّ قلبه، ويندم على فراقه وإهماله كلّ هذه المدّة).

وها قد أصبحت السّاعة الرابعة مساءً، فكان أمين الصغير جاهزاً يلبس أجمل ما لديه، وينتظر أباه والهديّة بشوق كبير، فأخذته أمه إلى غرفة الجلوس، وقالت له: "انتظر هنا ولا تخرج" فأدارت له التلفاز كي لا يشعر بالملل وينشغل عن السؤال.

كان قلب الأم ينبض بسرعةٍ، وتخشى من اللّقاء، فهي لا تعلم كيف يمكن أن يتعامل شاكر مع ابنه، أو حتى أمين كيف سيستقبل أباه لأوّل مرّة.

السّاعة الرابعة والنصف وحَضْرَةُ السيّد شاكر لم يحضر بعد، قام أمين من غرفة الجلوس وقال لأمه "ماما لقد مللت وأنا أنتظر، متى سيأتي أبي إلينا؟... قولي".

فأجابت: "بعد قليل يا عزيزي، اذهب وأكمل متابعة برامج الأطفال".

ذهب الطفل إلى غرفة الجلوس فأحسَّ بالنّعاس من طول الانتظار، مدّد جسده الصغير على الأريكة ونام كالعصفور.

ثار غضب أمِّ أمين من مواعيد شاكر الكاذبة، لقد أصبحت السّاعة الخامسة، وللآن لم يأتِ بعد، فقالت علياء لأمل: "ماذا تنتظرين، اذهبي واتّصلي به هاتفياً!"

قالت أمل: "أنا خائفة... لا أريد أن يحرجني بكلامه السخيف، ويقول لي أنه لن يأتي هذا التّـــافه".

علياء: هيّا...لا تهتمّي لشيء، اذهبي واتّصلي لكي لا تبقى أعصابك متوتّرة.

ذهبت أمل لتكلّم شاكر في منزله، فلم تجد أحداً، ثمَّ اتّصلت بمنزل والدته فوجدته هناك. "ما هذه المواعيد الدّقيقة يا شاكر...نحن ننتظرك وأنت تجلس هنا!"

ردَّ شاكر بكلِّ برود: "ما بكِ عصبيّة المزاج؟ سآتي بعد قليل، فأنا أتناول طعام الغداء، سأنتهي وبعدها أكون عندكم"

مرّت ساعة أخرى قبل أن يطرق شاكر الباب، ففتحت له أمل الباب راسمةً ابتسامة مزيّفة، وهي تشعر بأنها تريد أن تضربه على رأسه، فقالت له: "تفضّل... تفضّل" وأدخلته غرفة الضيوف، وقالت في سرّها: "كما توقّعت يداه فارغتان". فجاءت بالهديّة وقالت له: "هذه لعبة لأمين اشتريتها، على أنك أنت من أحضرها".

فقال شاكر وهو منزعج وكأنه مشمئزٌّ من شيء ما..."أنا لا أريد أن أقدّم للطفل شيئاً، ولو أردت ذلك لأحضرت هديّة معي، ولا أريد منكِ فضلاً، لا أرغب أن يتعلّق الطّفل بي، هيّا...هيّا قولي أين الولد؟ وأبعدي هذه الهديّة من هنا".

توجّهت أمل إلى غرفة الجلوس لتوقظ أمين وهي تتمتم: "حسبي الله ونعم الوكيل يحمل عقلاً في رأسه من العصر الحجريّ ".

– حبيبي أمينو قم يا صغيري لقد جاء والدك، يا أمين... استيقظ.

فاستيقظ أمين منزعجاً من نومه، فقالت له:"هيّا يا حبيبي لنذهب ونرى بابا".

حملت أمل ابنها ودخلت إلى غرفة الضيوف، وهي تقول يا ليته لم يأتِ (في سرّها طبعاً). وقالت لأمين: "هيّا اذهب وقبّل أباك يا أمين"رفض أمين وبقي متعلّقاً بأمه، فقال شاكر: "تعال يا ولد وسلّم عليّ" فبقي أمين متمسكّاً بثوب أمه واختبأ وراءها، فقال له شاكر مرّة أخرى: "ما بك يا ولد... لم تعلّمك أمك الأدب، يجب أن تسلّم على الضيوف؟ تعال... هيّا وسلّم عليّ ".

فقالت له أمل: "أمين كان نائماً، وهو لم يتأقلم مع الجوّ بعد، دعه قليلاً وسترى كم هو رائع ولطيف وبشوش...، سأقوم وأعمل لك فنجان شاي بالنعناع".

فقال لها: "لا بأس بالشّاي". وحاول أن يلاطف أمين قليلاً من غير نفس.

– تعال يا أمين قل لي كم عمرك؟ وماذا تحبّ أن تلعب؟

بقي أمين الصّغير يقف صامتاً مستغرباً، حتى جاءت أمل ومعها الشاي فقدّمته لشاكر وحملت أمين، وأجلسته جانب أبيه، ولكن شاكراً لم يحرّك ساكناً، كأنه قطعة أثاث من غرفة الضّيوف، أشعل سيجاره وشرب الشّاي دون أن يتفوّه بكلمة، ثمَّ قام وقال للطّفل: "يبدو أنك غير اجتماعيّ لذلك إلى اللّقاء أيها الصغير، وشكراً على الشّاي اللّذيذ، ها قد تعرّفت على الطّفل، وكما قلت لكِ لا أريد مضايقات... تفهميني طبعاً؟

وفتح باب المنزل وخرج، وأغلق الباب وراءه بقوّة.

بقيت أم أمين واقفة بلا حِراك، صامتة أمام الباب وأمين إلى جانبها وقال لها بصوته الطفوليّ الرّقيق: "أمي...أمي لم أحبّ هذا الرّجل، لا أريده أن يأتي عندنا، لا أريده أباً لي، وأيضاً لم يعطني هديّة".

فقالت له أمه: "يا حبيبي هذا هو والدك، ولقد أحضر لك هديّة. أنت كنت نائماً لذلك أعطاني إياها، فخبّأتها بالغرفة وسأحضرها لك حالاً".

فقال أمين: "هيّا يا أمي أريني إياها...ولكن يا أمي لماذا ذهب بسرعة؟" فقالت له أمل: "يريد أن يسافر يا حبيبي، إنه مشغول دائماً، فقط جاء ليعطيك الهدية ويذهب".

فقدّمت أمل الهديّة لطفلها، كانت سيّارة كبيرة تعمل بالبطاريّات، لها أضواء جميلة وتصدر أصواتاً ملفتة لأسماع الأطفال، فسُرَّ أمين الصغير باللّعبة كثيراً، وقال لأمه: "عندما يأتي أبي المرّة القادمة، سأقبّـــله على هذه الهديّة الجميلة".

* * *

الفصل الثاني

ومضت الأشهر تلو الأخرى وأصبح أمين في الرّابعة من عمره، ألحقته أمه في روضة للأطفال. وفي تلك الفترة تقدّم عريس لأمل، وطلب يدها للزواج، كان قد تعرّف عليها أثناء العمل فرفضت بشدة، ولكنَّ أختاها علياء وسهاد ظلّتا تلحّان عليها لإقناعها.

قالت لها سهاد: "أنتِ يا أختي امرأة جميلة، وما زلتِ في مقتبل العمر فلا تضيّعي شبابكِ هدراً، أنتِ تستحقّين الرجل المناسب ليحميكِ ويقف معكِ، لقد عانيتِ بما فيه الكفاية، وأرى أنَّ هذا الرجل يحبكِ ويحترمكِ فما المانع من الارتباط".

– لا، كيف أرتبط برجل وأنا لديّ طفل صغير بحاجة إلى رعاية؟ وأنا لا أضيع حياتي هدراً، بل أنا أضحّي من أجل طفلي لأربيه، لا... لا أتصوّر هذا سيحصل معي أبداً.

– ما بكِ يا أمل، الرّجل يعرف أنّ لديكِ ولد، وقال أنه سيعتبره مثل ابنه وسيربى بينكما، ولا مانع لديه أبداً، لأنّ الرّجل يحبكِ فعلاً.

أجابت أمل والحيرة في عينيها: "لا أدري أنا أخاف من الحبِّ، ولا أؤمن بالرّجال، لقد خُدعتُ مرة ولا أريد أن أخدع مرتين، لقد تعبت بما فيه الكفاية، و لا أستطيع أن أواجه مشاكل أخرى في حياتي، يكفيني ما بداخلي من أوجاع الماضي التي ما زالت تؤلمني".

فقالت سهاد:" أمل يا حبيبتي أنتِ بحاجة لرجل بجانبكِ لتستطيعي مواجهة الحياة، لن تقدري على السير بوجه تيار الحياة وحدكِ. وهذا الرجل سيسعدكِ ويكون لكِ سنداً وعوناً، فكّري يا أختي، الحياة ما زالت أمامكِ وما زلت في ربيع العمر، فلماذا تدفنين نفسكِ، انظري إلى نفسكِ بالمرآة، أتريدين أن تمرَّ عليكِ السنين وأنتِ جالسة مكانكِ، وبعدها تستيقظين وتقولين أين ذهب شبابي، لقد ضحّيت بعمري ولم أنل شيئاً سوى التعب والوحدة، ونحن إن شاء الله سنتزوّج وتبقي وحدكِ أنتِ وأمين فالحياة تتغيّر ولا تبقى على حال".

وقالت لها علياء: "يا عزيزتي...على كلِّ الأحوال سيربى أمين ويكبر، وأنتِ ستكبرين معه لا تجعلي الحياة تُغلق أبوابها أمامكِ، بل افتحيها وتعايشي معها، فاليوم الذي يذهب لا يعود".

وبقيت الأختان تقنعان أمل كل يوم بالزواج، وكانت أمل تسمع وتفكّر، ولا تجيب...

ما كان يُقلقها هو أنَّ الشاب سيستقرُّ بعد زواجه في أمريكا للعمل، هو مستعدٌّ لعمل كل الأوراق اللازمة وسريعاً لها ولابنها، لكن كانت فكرة الاغتراب تُفزعها.

وبعد الإقناع اليومي وإلحاح الشاب المستمر، اقتنعت أمل أخيراً بالفكرة، حتى أنها بدأت تشعر بالارتياح اتّـــجاه الشاب أحمد.

وتمـّـت خطبة أحمد على أمل، ونجح أحمد في استمالة أمين بالحلوى والهدايا والألعاب التي كان يحضرها له.

دامت الخطبة ثلاثةَ أشهر، وبعد ذلك قال أحمد لأمل: آن الأوان لعقد القران، لأتمكنَّ من تجهيز أوراق السفر والمعاملات اللازمة، ولا أستطيع المباشرة بالمعاملة إلا بعد زواجنا رسمياً وبأوراق ثبوتية".

وافقت أمل ولم تتردّد، فتمَّ عقد قران العروسين عند القاضي الشرعيّ في المحكمة، وبعدها أخذ أحمد جميع الأوراق اللازمة بما فيها أوراق أمين ليبدأ بالمعاملات. سُرَّت أمل لهذا التطوّر الجيد الذي حصل في حياتها، وشعرت أنَّ الحياة فتحت لها أبواباً جميلة هذه المرّة.

وبدأ فعلاً أحمد بالمعاملات، كان يسأل كلَّ يوم عن سيرهم ويستعجلهم، لكن ما لم يكن بالبال، هو شيء واحد أنَّ الطفل لا يستطيع الخروج من البلد، إلا إذا وقّع والده شاكر على المعاملات جميعِها، حاول أحمد كلَّ المحاولات لتسيير أوراق أمين دون موافقة شاكر لكن بلا جدوى.

كان ردّهم في السفارة: "نحن نخدمك بكلِّ شيء، لكن موضوعِ الطّفل صعب جداً، ولن توافق السفارة الأمريكية على خروجه ولا دخوله للبلد هكذا أصلاً، ولا نرضى بالأم كبديل عن الوالد".

ذهب أحمد إلى بيت أمل، وهو حزين ويريد إخبارها بالموضوع، لكنه خائف من الردّ وبقي متوتّر الأعصاب، جلس حول مائدة الغداء ولم يأكل كالمعتاد بشهية، بقي صامتاً لا يتكلّم أو يمازحهم كما يفعل بالعادة، فلاحظت عليه أمل وقالت له وهي تتساءل في قلبها منذ اللّحظة الأولى التي دخل فيها إلى البيت:"ما بك يا حبيبي؟ أنت لست على طبيعتك، هل حصل معك شيء؟"

- أريد أن أخبرك بشيء ربّما نجد له حلاً، وربّما يكون معقّداً بعض الشيء، ولكن إن شاء الله تتيسر الأمور.
- أرجوك ماذا جرى؟ لا تخيفني...!
- أين أمين قبل كل شيء؟
- تناول الغداء ونام، لماذا تسأل؟

أحمد متردداً: "يا حبيبتي... لا أعرف... ربّما... أو... ممكن، إنّ معاملة أمين من الصعب أن تكتمل إلا بموافقة أبيه شاكر، وتوقيع بخط يده، وأنا وأنتِ لن نحلَّ محلّ الوالد أبداً بنظر السفارة".

أجابته أمل بتفاؤل: "وأين المشكلة يا عزيزي؟ سنكلّم شاكر ونأخذه معنا ليوقّع على الأوراق، من المؤكّد أنه لن يمانع من سفر أمين، فهو لا يهتم به ولا يريد رؤيته ولا أن يعرف مكانه".

ـــ إن كنتِ تعتقدين ذلك ممكناً، إذن هيّا نتّصل به الآن.

توجّهت أمل للهاتف فوراً، ورفعت السمّاعة والقلق يعصر دماغها، فاتّصلت بشاكر وسلّمت عليه، وأخذت تسأله عن أحواله، أو إن كان قد تزوّج؟

فأجابها: "هل أنا مجنون لأتزوّج وأربط نفسي مرة أخرى! كلا... لا يوجد بعد الحريّة شيء فحسْناوات العالم ملكي".

– حسناً...حسناً... أريدك بموضوع وأرجوك أن تساعدني.

– ماذا؟ هل تريديني أن أرى الطفل مرة أخرى، كما في السنة الماضية؟

– كلاّ الموضوع هذه المرّة مختلف، أريدك أن تأتي معي للسفارة لتوقّع على بعض الأوراق.

قال لها باستغراب: "ماذا؟...أوقّع؟ على ماذا تريديني أن أوقّع!! وإلى أيِّ سفارة سنذهب؟ كم أنتِ كثيرة الطلبات".

– أرجوك اسمعني قليلاً، أنا تزوّجت من رجل عمله في الخارج، ونريد أن نستقرَّ في أمريكا، وجميع المعاملات جاهزة، لكن المشكلة بمعاملة أمين، لم تكتمل إلا بموافقتك الرسميّة على سفره.

فأجاب شاكر بأنانية وغيظ "لا مشكلة، اتركا الطّفل هنا..."

جُنَّ جنون أمل، كانت تتمنّى لو أنه أمامها لتضربه على هذه الإجابة، فتمالكت أعصابها وقالت له: "يا شاكر، لا مشكلة لدينا أبداً، إذا أتيت غداً معنا ووقعّت على الأوراق".

فقال شاكر بكلِّ برود: "لا، أنا مشغول جداً هذه الأيام، لا أستطيع"

فقالت له أمل والدّمعة محبوسة في عينها: "من فضلك يا شاكر، لن نأخذ من وقتك الكثير، نصف ساعة لو سمحت".

– لا أستطيع، وأنا يا أمل ليس لديّ ولد، وأنتِ تعرفين أنه لا علاقة لي بأمين منذ مولده، هكذا اتفقنا وقلت لكِ منذ البداية، لا أريد مضايقات".

– ولكن الطفل طفلك يا شاكر، وهو في شهادة الميلاد باسمك فهو أمين شاكر، يعني بالنهاية الطفل لك، ولا نريد منك إلا توقيع لا أكثر... أرجوك، إنّ الجهات الرسميّة لا شأن لها بهذا الأمر.

فقال شاكر: "حسناً... بما أني أنا المسؤول، وأنا والد الطفل، فلا أريد أن يسافر أمين خارج البلد، ولست موافقاً على سفره، يعني لن أذهب إلى السفارة للتوقيع على الموافقة والمعاملات، سافري أنتِ وزوجكِ، وسآخذ الطفل وأضعه عند أمي، فهي جدّته".

صرخت أمل بصوت عالٍ بعد أن استفزّها شاكر وأثار غضبها فقالت له:"أنت رجل مجنون مريض نفسياً... أنت حقير، الآن أصبح أمين طفلك؟ أين كنت في تلك الأيام عندما كان بحاجة أبيه... يا لك من رجل كاذب أناني تافه"، وأغلقت السمّاعة وجلست تبكي وتبكي بصوت عالٍ وترتجف، حتى أنَّ أمين استيقظ من نومه على صوتها، وأصبح يبكي هو الآخر، في هذه الأثناء كانَ أحمد صامتاً لا يدري ماذا يُعلّق على الموقف الاستفزازيّ الحزين، ثمَّ قال لأمل:"أوّل مرّة في حياتي أرى رجلاً قاسياً لهذه الدرجة، وأنانياً فعلاً، كيف كنتِ زوجته لا أدري!

ـــ يا أحمد، اذهب أنت إليه وأقنعه بالذّهاب للسفارة، أرجوك...أتوسّل إليك.

ـــ حسناً... حسناً، أعطني العنوان ورقم الهاتف وسأذهب عنده غداً مساءً لأتفاهم معه، وإن شاء الله سأقنعه.

جلست أم أمين في المساء حزينة تارة تبكي، وتضحك تارة أخرى على حظها. جاءت أختها سهاد وقالت لها: "لا تحزني يا أمل، إن شاء الله ستحلُّ الأمور، وتسافرين أنتِ وزوجكِ و أمينو الصغير".

– أنا لا أرى سوى ليالٍ مظلمة، وأيام سوداء بلا قمر، خائفة يا أختي، لقد أغلق الزّمن عليّ قضبانه الحديديّة، فلا أَستطيع الهروب من المكتوب.
– لماذا أنتِ متشائمة هكذا، انتظري وبعدها احكمي.
– بما أنَّ القضية أصبحت بيد شاكر، انسي الموضوع فهو مثل السجّان، قاسي القلب لا يهمّه أحد مهما كان.

وفي مساء اليوم التالي ذهب أحمد عند شاكر وحاول إقناعه، لكن دون جدوى، كان ردُّ شاكر الوحيد أنه لا يريد أن يخرج ابنه خارج البلد ولا يوافق على سفره، وبقي على عناده، لن يتنازل عن قراره أبداً.

حزن أحمد كثيراً، أما أم أمين فقد جُنَّ جنونها، أصبحت الدّمعة لا تفارق عينيها، والبسمة هربت من شفتيها، حتى نسيت طعم النوم وأصبحت لا تريد أن تكلّم أحداً، ولا حتى أحمد، حيث كان يأتي كل يوم وتبقى في غرفتها جالسة حزينة، حتى العمل لم تعد تذهب إليه.

ومرة دخل أحمد لغرفتها رغماً عنها، وقال لها: "يا أمل... هذا الذي تفعلينه بنفسكِ لا يعقل، انظري لحالتكِ لقد تفاقم الموضوع، تعالي نفكّر سوياً بحلٍّ يرضي جميع الأطراف، ولا تخافي ستكونين راضية إن شاء الله، لقد مرَّ أسبوعان ولم نجلس مع بعضنا ونتكلّم... ما بكِ؟ لا تهربي مني، فأنا زوجكِ وحبيبكِ ولن أفعل إلا ما يرضيكِ".

– "حسناً هات ما عندك".
– "لقد سألت عن الموضوع بعض الأصدقاء في أمريكا، وقالوا لي من الممكن حل مثل هذا الموضوع من هناك، حيث أنَّ الأم تسافر إلى أميركا وتقدّم المعاملات، وبعد فترة تطلب الطفل من هناك لحضانتها، ويذهب عند أمه للعيش معها بأمريكا، ونكون قد حللنا المشكلة".
– "هل يعني سنسافر دون أخذ أمين؟ سأتركه هنا؟"
– عزيزتي فقط لفترة محدودة، ثمَّ نرسل له التأشيرة اللازمة وسيأتي، أو سنرجع نحن لأخذه،هذا الحلُّ الوحيد لدينا، ما رأيكِ؟ ولن تشعري بهذه الفترة ستمضي بسرعة، ونحن هنا نتركه بأيدٍ أمينة، خالتاه تحبّانه وهو معتاد عليهما كثيراً.
– يا أحمد دعني أفكّر، وغداً عندما تأتي سنتكلّم بالموضوع....قلبي لا يحتمل فراق أمين الصغير.

جلست أم أمين طيلة اللّيل تفكّر، وأفكار تأخذها وأفكار تطير من دماغها، فكأنها غريقة في بحر تعلوه الأمواج، ولا تستطيع السباحة، لقد تعبت أعصابها من التفكير حتى غفت على الكنبة قُبيل الفجر.

وفي الصّباح استيقظت أمل وذهبت إلى المطبخ، فوجدت أختها تعدُّ الشطيرة والحليب لأمين ليذهب إلى المدرسة، فقالت لأختها علياء: "لماذا لم توقظيني من النوم يا علياء".

– "يا حبيبتي، أنتِ لم تنامي جيّداً، اذهبي إلى الفراش وأنا سأرسل أمينو للروضة لا تقلقي".

بقيت أمل واقفة أمام باب المطبخ شاردة الذّهن، قالت لها علياء: "يا أختي يا حبيبتي ما بكِ؟ ما هذه الوقفة التي لا معنى لها؟ آه... صحيح، ما نتيجة تفكير ليلة البارحة؟ هل وصلتِ لنتيجة؟

فقالت أمل: "نعم، سأسافر مع أحمدوأباشر بالمعاملة في أمريكا فور وصولي، فأحمد لا ذنب له أيضاً، فهو زوج رائع لم يقصِّر في شيء، ولا يستطيع أن يتأخّر عن عمله الجديد أكثر من ذلك، وليس من العدل أن أنفصل عن أحمد... سأصبر بضعة أشهر، وأحضر أمين فيما بعد، وأنتِ وسهاد أوصيكما بأمين، هذا هو الحلُّ الوحيد بنظري لإتمام هذه المرحلة المعقّدة، فلا نريد مشاكل بعد الآن أريد أن أريح دماغي...أو الخيار الثاني انفصالي عن أحمد حتى لا أترك أمينو هنا.

– لا،لا.. يا أمل، انفصال لا..!

– طيّب، هل أبقى على الخيار الأول؟

فرح أحمد بقرار أمل الجريء، وقال:"أنا بدوري سأفعل ما بوسعي ليكون معنا لا تقلقي يا حبيبة قلبي".

تمَّ الاستعداد للسفر وبدأت التحضيرات الجديّة، فتمَّ تجهيز الحقائب بأكملها، وكل لوازم السفر، كان كلّما اقترب موعد السفر تسارعت دقات قلب أمل، وشعرت أنَّ روحها ستنزع من جسدها، وتفقد الحياة طعمها، فهي قلقة لدرجة لا توصف، والتوتّر أصبح يلازمها، ما إن تمسك شيئاً حتى يسقط منها، وإن تكلّمت تلعثمت، تريد أن توصل لأمين فكرة السفر وأنها ستتركه لفترة قصيرة وتعود لتأخذه، لكن كلما أرادت محادثته بالأمر تغرق عيونها بالدّموع، والكلمات تغصُّ في حلقها كما تَعلَق الصنارة في حلْق السمكة، فتركت الموضوع لسهاد ولعلياء وأحمد ليفهموه فهو طفل ذكيّ يستوعب ما يُقال له بسرعة.

جلست الأخوات وأحمد ومعهم أمين حول مائدة طعام الغداء، فتوجّه أحمد بالحديث لأمين: "هل تحبُّ يا أمين أن تركب طائرة كبيرة، وتطير في السمّاء وترى الغيوم؟"فقال له: أمين: "نعم أحب...أحب كثيراً، وأحب أن أطير مثل النسر الكبير، وأجلس على الغيمة، كما في الرّسوم المتحرّكة".

فقال له أحمد: "حسناً سنأخذك لتطير بالطّائرة كالنسر الكبير القويّ". فقفز أمين يهتف فرحاً:"هيه... هيه... هيه سأطير للسماء"

– "لكن يا حبيبي ليس الآن، عندما يصبح عمرك خمسة سنوات، لكي لا تخاف من ركوب الطائرة"

– "كلا يا عمو أحمد... أنا لا أخاف، أنا بطل ولست صغيراً، أعرف كلَّ شيء وأعرف أن أطير، وأقود الطّائرة... ألا تعرف؟"

فقالت له سهاد:"أنت فعلاً بطل، ولكن يا حبيبي الصغير، في البداية سيذهب العم أحمد وماما إلى أمريكا، ويسافران بالطائرة لكي يسألا الطّيار كيف يستطيع أمين أن يطير بالطائرة كالنسر، ويشتريا لك بيتاً جميلاً فيه ألعاب وحلويات، ثمَّ تأتي ماما وتأخذك لهذا البيت الجميل، الذي يمتلئ بالألعاب والبالونات الملوّنة".

فقال أمين: "حسناً... رائع، متى ستذهبين يا ماما إلى أمكيرا؟"

ضحك الجميع بصوت عال، فقال أحمد، أمريكا وليست أمكيرا يا أمينو"فضحك أمين وقال وهو يقفز: "هيّا... يا ماما سافري بسرعة أنتِ وأحمد... أريد بيت الألعاب "

فقالت له أمل: "حسناً حبيبي بعد يومين إن شاء الله"

أجابها أمين بحماس: "كلا الآن... الآن"وهو يشدُّ أمه فرحاً.

فقال له أحمد: "بعد يومين يا أمينو، وسنتّصل بك كلَّ يوم، لكي نطمئن عليك أنا وماما، وأنت ستبقى ولد بطل لن يزعج خالتيه.

فقال أمين وهو مسرور: "حسناً سأنتظركما لا تتأخّران عليّ، أريد كلَّ البيت ألعاب".

أصبحت أمل مرتاحة البال بعض الشيء لأنَّ أمين لم يتزعج من الموضوع ولم يبكِ، وقالت له: "لن نتأخّر عليك يا حبيب قلبي"وقبّـــلته.

وجاء اليوم الموعود بالسفر وساعة الرّحيل هي الواحدة صباحاً يوم الاثنين بعد منتصف اللّيل..

الفصل الثالث

اليوم الموعود بالسفر،ساعة الرّحيل الواحدة صباحاً من يوم الاثنين بعد منتصف اللّيل..
في نهار يوم الأحد كان يوماً مرهقاً شاقّـــاً وحزيناً بالنسبة لأمل لكن كان يوماً رائعاً مسلّياً بالنسبة لأمين، لقد ذهبا منذ الصّباح واشترت له أمه لعبة جديدة ليتسلّى بها أثناء غيابها، وبعدها أخذته للمطعم وقد تناولا طعام الغداء برفقة أحمد، لقد تناولوا مشاوي اللّحم والدّجاج المحمّر، وجميع السلَطات الطازجة بالإضافة إلى العصائر الطّبيعيّة، والخبز الطريّ السّاخن ذي الرائحة الزكيّـــة.

بعدها ذهبوا إلى مدينة الألعاب الترفهيّة، وركبوا ثلاثتهم، كان أمين في غاية السرور، وعادوا إلى البيت بعد يوم حافل بالنشاطات، أمينو الصغير متعب من كثرة اللّعب وجائع، مع أنه أكل على الغداء جيداً، يريد فقط النوم لكن أمه أخذته للحمّام وغسّلت له يديه ووجهه وأقدامه بالماء الدافئ بما أنه رفض الاستحمام، وألبسته ملابس النّوم الناعمة، وكانت الخالة علياء قد حضّرت له طعام العشاء، بيضة وكأس حليب وحبّة طماطم مقطّعة.

فأجلسته أمه على حضنها وقامت بإطعامه، وهي تنظر إليه وتتأمّله، وكأنها تراه للمرّة الأولى فكانت تقبّل يديه، وتتمتم: "أحبك يا صغيري...أحبك كثيراً يا أميني"وأمين الصغير يقول: "وأنا يا ماما". ثمَّ تعود أمه وتقبّـــله وتدمع.

انتهى الصغير من طعامه وغسل فمه وأسنانه واستعدَّ للنوم، فحملته أمه ووضعته في سريره واستلقت بجانبه، وأخذت تغنّي له لينام، وبدأ قلبها يبكي، فسجنت بكاؤها في الحنجرة وشعرت كأنها تختنق، أما دموعهافلم تستطع أن تحبسها، كانت تجري على وجهها كنهر جار، حزينة هي قلقة كثيراً،فعادت وحدّثت نفسها: "يجب أن أكون قويّة، الأيام المقبلة ربّما ستكون المرحلة الأصعب". وقبّلت جبهة أمين ووجهه النّاعم الصغير الدّافئ و يديه، وقامت من سريره وأغلقت الباب بعدما غرق في نوم هادئ كالملائكة.

خرجت لتجلس مع أختيها في غرفة الجلوس، لكنها بدلاً من أن تحدّثهما وتقضي معهما وقتاً جميلاً جلست تبكي، وأخذت أختاها تمازحانها للتخفيف عنها قليلاً، فكانت تارّة تبكي وتارة تضحك، وبقيت هكذا حتّى موعد الانطلاق إلى المطار. أصبحت السّاعة الحادية عشر ليلاً، فجاء أحمد ومعه أخوه، لكي يوصلهما إلى المطار، فدقَّ أحمد الباب، فتحت له سهاد وقالت له: "تفضّل بالدّخول واجلس".

فقال لها: "أين أمل ألم تجهز بعد! أخي ينتظر في السيّارة،لا أستطيع الجلوس".
– أمل جاهزة، خذ أنت حقائبها للسيّارة وستلحق بك.

أختا أمل ودّعتا أحمد، ثمَّسأل بدوره عن أمين فقالت له علياء إنه نائم، قال لها: "حسناً لا أريد أن أزعجه، قبّلوه عني"وأخذ الحقائب وخرج، فركضت سهاد إلى غرفة أمل لتستعجلها،

فوجدتها تجلس على سرير أمين تنظر إليه بتأمّل شديد. فقالت لها: "لقد ودّعته مئة مرّة... هيّا قومي بسرعة، فأحمد وأخوه ينتظرانكِ خارجاً بالسيّارة"

- دعيني قليلاً أشبع منه، وأملأ ناظري منه، لن يحدث شيئاً إذا انتظراني قليلاً، إني أشعر أنها المرّة الأخيرة التي سأراه، أرجوكِ يا سهادانتبهي إليه كثيراً أنتِ وعلياء، ولا تُهملانه أبداً.
- لا تخافي يا أختي، فأمين في عيوننا.

جاءت علياء وقالت لها: "اطمئني وكوني على علم أننا لن نشعره أبداً أنكِ بعيدة، بل سنحيطه بكلِّ الحبِّ والحنان في كلِّ الأوقات وطول الأيام، وهذا وعد منّي كوني مسرورة".

وقبَّلت أمل ابنها للمرّة الأخيرة، ثمَّ خرجت من الغرفة وأغلقت الباب، وشعرت بأنها تركت جزءاً كبيراً من جسدها وروحها في الداخل.

ودّعت أختيها بالعناق الشديد والدّموع المنهمرة، وخرجت مسرعة كأنها هاربة من شيء ما، ركبت السيّارة وانطلقوا إلى المطار، وصلا وجلسا ما يقارب ساعة ونصف، وبعدها صعدا الطائرة وأُغلق بابها وحلَّقت في السّماء الصافية، التي ينيرها ضوء القمر الأبيض الساطع، وكأنها عصفورة بيضاء طارت عن عشّها، تاركة كتاكيتها في العشِّ يزقزقون خوفاً وجوعاً، لكن دون رجعة، هذا ما شعرت به أمل، وهي تطير محلّقة في وسط السماء.

استيقظ أمين في الصّباح ليذهب إلى روضته، فوجد خالته علياء نائمة بجانبه، فأيقظها وقال لها: "خالتي...خالتي، استيقظي"

- صباح الخير يا أمينو... كيف أصبحت؟"
- جيد، ولكن أين ماما؟ ولماذا أنتِ تنامين بجانبي؟
- لا تريدني أن أنام بجانبك؟
- كلا، أريد أن تنام ماما.
- يا حبيبي ماما ذهبت هي وأحمد، ليشتريا البيت الصغير ويضعان به ألعاباً كثيرة، وعندما ينتهيان، تعود ماما وتأخذك إلى بيت الألعاب، أما الآن تعال يا حبيبي نشرب الحليب ونتناول الفطور، ونلبس ونذهب للمدرسة.

وبعد يومين تقريباً على وصول أمل وأحمد، ذهبا ليباشرا بأوراق أمين، لكن المشكلة ذاتها واجهتهما في أمريكا، لقد طلبوا والد أمين، وخصوصاً أنَّ الأم لا تحمل جنسيّة أمريكية فلا تستطيع سحب طفلها، أخبرتهم أنَّ والده ليس بهذه البلد، فطلبوا منها أن على الأب إرسال فاكس بموافقته شخصياً، ومختومة ومصدّقة من دائرة الأحوال المدنية وباللّغة الإنجليزية وموقّع بخط يده أنه لا يمانع من إرسال ابنه إلى الولايات المتّحدّة الأمريكية، وهذا ربما ينفع إذا وافقت الحكومة الأمريكية على إدخاله بالبداية، ولم يكن هناك بديل!!

عادت الأم إلى حزنها كما في السابق، بل وهذه المرّة حزنها أكبر وأشدّ، لأنها أصبحت بعيدة عن ابنها ومتزوّجة، ولم يعد بيدها أيَّ شيء آخر.

قال لها أحمد: "لا تحزني عزيزتي، سأعمل ما بوسعي في السفارة، ربّما وجدنا حلاً في النهاية"كانت أمُّ أمين تتّصل بأختيها لتطمئنَّ عليه يوماً بعد يوم، وكان الحمد لله لا يشكو ولا يبكي، ولكن يسأل باستمرار، متى ستأتي ماما؟ وأحياناً في منتصف اللّيل يستيقظ مفتقداً والدته.

طبعاً أحمد لم يستطع فعل شيء، فشلت كلّ المحاولات وبالتالي خرج الموضوع من يده، كان أحمد حزيناً على أمل لابتعادها عن ولدها، لكن ليس باليد حيلة، لقد شعرت بأنها فقدت طفلها وللأبد، فهو بالشّرق وهي بالغرب، ومسافات طويلة تفصل بين قلبيهما.

قالت أمل لزوجها أحمد:"هذا يعني أنني فقدتُ طفلي للأبد، لقد باتت كلُّ محاولاتنا بالفشل، ومضى على غيابنا ثلاثة أشهر، وأمين الصغير ما زال ينتظر".

-لا حبيبتي أمل، طفلكِ سيبقى طفلكِ، وهو سيعيش بأمان، لا تقولي أنكِ فقدته ما هذا التشاؤم؟ وستذهبين لترينه من فترة إلى أخرى.

طيلة الأيام التي مضت كانت تحترق أمل شوقاً لأمين، وفي اللّيل تبكي بحرقة على فراقه فهي تعلم أنه لم يعد باستطاعتها تقبيل خدّه الناعم كلّ ليلة قبل نومه. وكلُّ يوم تستذكر كيف كانت توقظه في الصّباح ليذهب للروضة، وتطعمه طعام الإفطار وهو يهرب ويلعب ويضحك وهو يأكل، آه... كانت ذكريات جميلة مؤلمة، وعندما تصبح السّاعة الواحدة ظهراً، تجلس أمل وتبكي، وتقول حان موعد عودة أمين من روضته، كان ينتظرني بفارغ الصبر وبشوق كبير لآتي وأصطحبه للبيت، ويركض عليَّ بلهفة ويقبّلني، يا إلهي أين أنا الآن؟ وأين أمينو حبيبي؟ ماذا فعلت بنفسي؟

وترجع قليلاً بذاكرتها للوراء وتدعو: "الله لا يسامحك يا شاكر على كلِّ شيء فعلته بنا، أنا وهذا الطفل المسكين، آه... يا رب لا تجعله يهنأ بشيء، كما نكّد علينا حياتنا وشتّـــتنا".

وتعود وتذكر وجه أمين الصغير وعيونه التي تلمع براءة وطيبة، وتقول: "كم أشفق عليك وعلى نفسي، الحمد لله أنك ستبقى في أيدٍ آمنة، فهذا ما يريح قلبي نوعاً ما".

لقد تكلّمت أمل هاتفياً مع أختيها سهاد وعلياء، وقالت لهم:لا أمل من سفر أمين لأمريكا، وأنَّ الموضوع باء بالفشل بسبب عناد شاكر...وعادت للبكاء على الهاتف.

فسألتها علياء: "لماذا لا تحاولون مع شاكر مرّة أخرى؟ "قالت لها أمل: "لقد تحدّثت معه مرة أخرى من أمريكا مطوّلاً، وتوسلّت أن يبعث الفاكس المطلوب لكن دون جدوى، لقد كان يقول لي أنه لا يريد إخراج ابنه من البلد، وكلامه هذا استفزّني، وأفقدني أعصابي، طيلة عمره لا يريد أن يعترف بالولد، والآن يقول لي ابنه!!".

– لا تحزني يا أختي سأنتبه إلى أمين جيّداً، أعدكِ ولن أخلف وعدي، لا تقلقي أبداً فهو ابني الآن وأنا لن أستطيع العيش بدونه، أنتِ لا تقلقي وحسب.

– أرجوكِ يا علياء، بلّغي تحياتي لسهاد وقولي لها أن تتعاونا على أمين.

– يا أمل... يا حبيبتي سأبلّغها تحياتكِ، لكن سهاد ستتزوّج قريباً وتسافر إلى غزّة، وكما تعلمين لقد وافقت على العريس الذي تقدّم لخطبتها في الشهر الماضي".

أجابت أمل مندهشة: "ماذا؟ آه... لقد تذكّرت، أخبرتني مرّة عندما تكلّمت معها، إذاً مبارك، ولكن أنتِ ستقومين على رعاية أمين وحدكِ؟ ربّما سيكون الوضع صعباً عليكِ يا أختي؟".

– لا... لا أبداً، فأنا وأمين أصدقاء جدّاً، وأنا أحبّه من أعماق قلبي، والآن يا عزيزتي أرعاه وحدي؛ لأنَّ سهاد مشغولة بخطيبها وعملها، فهي تعود من العمل فوراً للخروج مع خطيبها، ولتحضير أمور حفل الزّفاف وباقي الاحتياجات. وأنا لا أواجه مشاكل مع أمين أبداً، كل ما هناك نقطة واحدة ربما أنتِ لم تنتبهي لها يا أمل".

فسألتها أمل باستغراب: "ما هي يا علياء قولي؟"

فقالت لها علياء: "المصروف يا عزيزتي الذي تركتيه لأمين قارب على الانتهاء، وأنتِ يا أختي تعلمين، أنّ مصـــ...."قاطعتها أمل: "نعم، أعرف يا علياء لم أنسَ الأمر، بل سأبعث لكِ كلَّ شهر مبلغاً من المال، لتصرفيه على أمين، لا تقلقي يا أختي، وسأصرف لكما حصّتي من ورثة المرحوم والدي- رحمه الله – سأخصّص هذا المال لأمين ودراسته، لقد وجدتُ عملاً ممتازاً في حضانة أطفال، وفيه مزايا جيّدة وراتب ممتاز، كما أنني أشعر براحة مع الأطفال وأشعر أنَّ أمين قربي.

***

بعد فترة تزوّجت الخالة سهاد وودّعت أمين وعلياء، وسافرت للسكن بغزّة، شعر أمين بفراغ كبير في المترل خاصّة أنّ أمه غير موجودة، وخالته سهاد هي الأخرى تزوّجت وسافرت، كما أنَّ علياء أصبحت تشعر بوحدة كبيرة، وصارت تفكّر بالمستقبل، وما سيخبِّئ لهما الزّمن هي وأمين من أقدار كتبها الله عليهما بعدما أصبحا وحدهما في المترل، فهي قلقة جدّاً، وأحياناً خائفة من الوحدة المؤلمة.

أم أمين أصبحت حاملاً، وسُرَّت جداً لهذا التطوّر؛ لأنَّ زوجها أحمد كان ينتظر المولود بفارغ الصبر، فهو يحبُّ الأطفال، ويحب أمل ويشعرها بالرّاحة والأمان دائماً.

كانت أمل تسأل عن أمين من فترة إلى أخرى، وأمين دائماً يسأل عن أمه ومتى ستعود، وتارة يجلس ويبكي يريد أمه، وتارة أخرى لا يريد النوم حتى تأتي أمه، لكن مع الوقت والأيام خفَّ بكاؤه، أصبح يسأل عن موعد عودتها فقط، وفي الفترة الأخيرة ظلَّ يذكر أن أمه مسافرة وستعود يوماً ما لتأخذه، وأصبح يتساءل أين هي بالضبط، لكن ليس بالاستمرارية نفسها والإلحاح في السؤال، كأنه بدأ يعتاد على بُعدها.

أما أمه فهي في الظاهر تُشعر من حولها أنها مسرورة لأنَّ أمين لم يعدْ حالياً يسأل عنها كثيراً، ولكن بالحقيقة تعيسة بسبب الجفاء الكبير الذي حصل بينها وبينه وكأنها ميّتة بالنسبة له.

مضت الأيام يوماً وراء يوم، حتى أصبحت الأشهر تسابق بعضها، والسنين قفزت فمضت أربع سنوات، وها هي الخالة علياء تُحضر الآن أمور زفافها، لأنها بعد أسبوع واحد ستتزوّج وتذهب لشهر العسل. فثوب الزّفاف الأبيض أصبح جاهزاً، وتفاصيل الزفاف الصغيرة من بطاقات الدّعوة إلى قائمة الطعام والحلويات التي ستقدّم أصبحت في طريقها للانتهاء.

أختاها أمل وسهاد لن تستطيعا حضور حفل زفافها، أمل يصعب عليها أخذ إجازة من عملها وترك أسرتها. طيلة الأربع سنوات لم تفكّر بالمجيء لترى أمين فلديها أطفال وأسرة وانشغالات، وسهاد لا تستطيع الخروج من غزّة بسبب إجراءات أمنية وسياسيّـــة وفترة حصار.

أمين الصغير ذو الثماني سنوات ولد متفهّم ويحبُّ خالته حباً شديداً، وكأنها أمه الآن، وهو يعلم أيضاً أنَّ أمه ستعود يوماً ما من سفرها، ولكن يبقى دائماً يتساءل، لَم كلُّ هذه المدّة يا أمي؟!!



الفصل الرابع

جلس الطّفل والحيرة في عينيه البرّاقتين البريئتين يفكّر هل خالته ستتخلّى عنه بعد زواجها أم سيسكُن معها؟ هو خائف، لا يريد أن يسألها خوفاً من الإجابة، كما أنها للآن لم تقل له شيئاً عن الموضوع، ولم يخطر ببالها أبداً أنَّ هذا الطّفل الصغير من الممكن أن يفكّر بموضوع كهذا، فهي منذ أن تقدّم العريس لخطبتها كان شرطها أن يبقى أمين معها حتى بعد الزّواج، وأن يسكن معهما كأنه ولدهما. وافق العريس على هذا ولم يرَ أنه سيؤثّر أو يعرقل عليهما زواجهما، واتفقا على ذلك. لكن اقترح عليها العريس– الذي يُدعى عبد الرّحمن– أن يتركا الطّفل عند أحد الأقارب، على الأقل في فترة شهر العسل.

فقال عبد الرّحمن لعلياء: "يا حبيبتي ما رأيكِ لو تركنا أمين عند أبيه في فترة غيابنا لشهر العسل، لأنه من الصّعب أن نأخذه معنا، بالإضافة إلى أنه لا يستطيع التغيّب عن المدرسة، فأبوه حالياً أولى به، ونعود بعدها ونرجعه ليسكن معنا".

كانت علياء متردّدة، لكنّها تكلّمت مع أمل لأخذ رأيها، فأجابتها أمل بأنها لا تفضّل ذلك أبداً، وتركت الخيار لعلياء بالنهاية لكي لا تضيّق عليها.

جلست الخالة علياء مع أمين وشرحت له الموضوع، وأخبرته أنه سيبقى عند أبيه فترة أسبوع فقط، وأنها ستعود وتأخذه ليعيش معها هي وعبد الرّحمن.

حزن أمين في البداية، ولكن فكّر بأنه لا يريد مضايقة خالتَهُ بل سيُساعدها مثلما تساعده وتعتني به، فوافق وقال لها: "حسناً يا خالتي سافري وسأنتظر عودتكِ، لا تتأخّري عليّ، ولا تفعلي مثل ماما".

فقالت له الخالة: "لا يا حبيبي، لن أتأخّر عنك ولا يوم واحد زيادة".

لكن...هل وَعْدُها لأمين شبيه بوعد أمه له قبل أن تسافر؟!!

تكلّمت الخالة على الفور مع شاكر، وشرحت له القصّة كاملة.

فأجاب شاكر: "اسمعي يا علياء أنا سأسافر أيضاً في بحر الأسبوع القادم، فإذا أردتِ إحضار الطفل وكنت مُصِرَّة فسأكلّم أمي وأقول لها بأنني سأحضر أمين حفيدكِ، ليبقى عندها أسبوع، وإذا وافقت لا مانع".

فقالت الخالة: "حسناً اسألها اليوم، فأنا أريد جواباً سريعاً، سأعود واتّصل بك في المساء". وفي سرّها قالت "ربّما بقاؤه عند الجدّة أمر جيّد، فهي ستعتني به أفضل من شاكر".

بقيت الخالة تفكّر "إذا لم يوافق أبا أمين في أخذ أمينو، أين من الممكن أن أضعه؟ لا مكان، لا أعرف أحداً مقرّباً جداً، أو من الأفضل إلغاء الرّحلة العسلية... أو... لا يوجد لي سوى جارتي هذه النكديّة، سأحاول معها، لا...لا أعوذ بالله لن أبقيه عندها...لا أعرف! "

عادت علياء في المساء واتّصلت مع شاكر فكان جوابه: "لا بأس... أحضريه، فأمي سترعاه حتى تعودا".

كانت الجدّة أم شاكر لا تريد أيّ أطفال عندها في البيت، ولا تحبُّ إزعاجاتهم، وهي دائماً تقول أنا لا أقدر على أصوات وطلبات الأولاد الصغار، لكن شاكر سيضع الطفل عند أمه رغماً عنها، وقال لها "لا بأس ببضعة أيام تقضينها مع أمين، يبقى هذا الولد في الأوّل والآخر ابني وحفيدكِ". (إنه فعلاً رجل متناقض في كلِّ شيء)! سكتت الجدّة قليلاً ثم قالت: "حسناً يا شاكر، ولكن إن كان هذا الولد مزعجاً فستعيده حالاً من حيث جئت به، وإلا سأرميه خارجاً، لأني لا أطيق إزعاج الأطفال".

علياء تعرف بقرارة نفسها أنَّ اختيارها لشاكر ليس بالمكان المناسب لإبقاء أمين عنده.

وبعد انتهاء حفل الزّفاف وعند ظهر اليوم الثاني، أخذت علياء أمين وأوصلته إلى أبيه، ليأخذه إلى بيت جدّته، فكان شاكر بالانتظار.

أمين خائف لا يريد البقاء مع والده، لكن لا يستطيع قول شيء، لقد وعد خالته بأن يزور هذا الأسبوع جدّته، وأن يكون ولداً حَسن الأخلاق. فودّعته خالته وهي تعتصر حزناً على فراقه، وهو في نفس الوقت فاضت دموعه ووجهه أصبح محمرّاً، وبكى من قلبه الصغير بصمت، وكأنَّ البكاء لقمة حارقة قد بلعها دون أن يتكلّم. وذهبت الخالة واعدة أمين بالعودة السريعة.

قال شاكر لأمين: "كيف حالك يا ولد... أتريد أن ترى جدّتك؟".

فأجاب أمين: "نعم... لكن لماذا تسكن أنت بعيد عني يا أبي... ألست أبي؟"

فقال شاكر: "أنا دائماً مشغول وأسافر كثيراً، وأنا وأمك لم نتّفق أبداً، لهذا ابتعدت وانفصلنا، كما أنَّ سفري الدائم لعملي يجعلني لا أستطيع أن أراك، وها أنا غداً مسافر لديَّ أعمال كثيرة، لذا ستكون ولداً مطيعاً عند جدّتك، فهي لا تحبُّ الإزعاج أبداً".

أخذ شاكر ابنه وذهبا إلى بيت الجدّة، فدخل أمين إلى بيت جدّته متوتّراً يتلفت حوله ويتأمّل كلّ زوايا البيت، فهو أوّل مرّة يدخل بيتها، فسلّم على جدّته وهي تجلس مقابل المدفئة، وقال لها: "مرحباً... يا جدّتي".

وقال شاكر: "ها هو أمين، يقول أنه ولد مطيع ولن يزعجكِ".

فقالت الجدّة وهي تنظر لأمين نظرة فيها نوع من عدم الرضا على وجوده: "أهلاً، ادخل وضع أغراضك في هذه الغرفة المقابلة". وأشارت بإصبعها إلى غرفة منزوية بالبيت، كانت غرفة صغيرة فيها فرش ووسادة على الأرض، مع غطاء وخزانة خشبية صغيرة تبدو قديمة جداً؛ لكي يضع أغراضه فيها، إضافة إلى أنَّ هذه الغرفة تضع الجدّة فيها كلّ الأغراض التي لا تريدها، من كراسٍ... وصناديق... وسجاد...ومكنسة، كلّه مصفّف بجانب بعضه على جدارٍ من جدران الغرفة الصغيرة.

حمل أمين حقيبة ملابسه وحقيبة كتبه المدرسية، وفتح باب الغرفة ودخل، لم تعجبه الغرفة، لكن قال في نفسه ليست مشكلة أسبوع وسيمضي. فوضع حقائبه وخرج ليجلس مع جدّته، فجلس أمامها على كرسي وبدأ يتأمّل بها، فقالت له: "اسمع يا ولد أنا سيّدة كبيرة بالسنّ ولا أحبُّ الإزعاج ولا الأصوات العالية، لا أريدك أن تكثر أسئلة، وعليك أن تكون ولداً مطيعاً، هذا بالإضافة إلى أنك ستساعدني في أعمال المنزل، فأنا لا أستطيع أن أخدمك".

قال لها أمين: "حسناً يا جدّتي، سأكون كما تريدينني".

قام أمين وأخذ يمشي في أرجاء المنزل ليتعرّف على أقسامه، ففتح باب إحدى الغرف، إذ هي غرفة الجدّة، خرج مسرعاً وأغلق الباب خوفاً من أن توبّخه، ففتح غيرها ووجد غرفة فيها سريران مرتّبان، فسأل نفسه: "لمن هذه الأسِرَّة...؟ الجدّة تسكن وحدها! ولماذا لم تعطني سريراً لأنام عليه بل وضعتني في تلك الغرفة الصغيرة! "فذهب إلى جدّته وسألها نفس السؤال الذي دار في نفسه، فكان جواب الجدّة قاسياً نوعاً ما، وقالت له: "ألم أقل لك يا أمين أنني لا أحبُّ الأسئلة الكثيرة، وما شأنك بهذا ؟ أضعك حيثما أشاء". ترك أمين الجدّة ودخل على غرفته الصغيرة، وجلس فوق فراشه على الأرض وعاد للبكاء، لقد كانت لهجة جدّته قاسية وهي تكلّمه، وهو حسّاس في وضعه هذا، ويشعر كأنَّ الدّنيا أغلقت عليه قضبانها وحرمته من الأمان، فهو بعيد عن أمه، بعيد عن خالته، خارج بيته وأوّل مرة يدخل هذا المكان، عند جدّةٍ لا يشعر معها بالاطمئنان.

ففتح أمين حقيبته المدرسية وأخرج كتبه، وبدأ يدرس، لم يخرج من غرفته حتى شعر بالجوع، لقد قاربت السّاعة على الرّابعة عصراً، فذهب إلى المطبخ فلم يجد شيئاً ليأكله، ذهب لجدّته فوجدها نائمة، فعاد للغرفة ينتظر حتى تستيقظ من نومها، وبعد ساعة سمع صوت أقدام جدّته ذاهبة إلى المطبخ، خرج مسرعاً وقال لها: "يا جدّتي أنا جائع، وأريد أن أتناول طعام الغداء".

فقالت الجدة: "الجبن في الثلاجة والخبز في سلّة القشِّ الموجودة على الطاولة، فكُلْ ما شئت". فأخرج أمين الصغير الجبن ووضعها في خبزة، وأصبح يأكل، فسأل جدّته مرّة أخرى: "أريد مع الشطيرة يا جدّتي كوباً من الحليب، فقالت الجدّة: "لا يوجد حليب، أنا لا أشرب الحليب". قال لها أمين: "ماذا أشرب يا جدّتي؟" فقالت له: "اشرب كوباً من الماء" فأحضر أمين الكوب وشرب ماء وهو حزين يريد خالته... ويقول في نفسه أريد العودة لبيتي...!

مضت ثلاثة أيام على أمين وهو في بيت جدّته وكأنها ثلاثة أشهر، وكلُّ يوم كان ينام وهو يبكي، لقد كانت الجدّة قاسية عليه، تجعله ينظّف الأواني والأطباق التي يأكل بها أو يستعملها، وأحياناً تخرج وتنساه من دون طعام حتى المساء، ودائما تصرخ في وجهه إذا رأته يلعب في غرفة الجلوس ببعض الألعاب التي أحضرها معه، كانت تقول له: "هنا ليس مكاناً للعب، ستكسر الزهريّات". فكان يجيبها: "جدّتي أنا أجلس وألعب على الأرض ولا أتحرّك، وألعب في زاوية بعيدة عن كلِّ الأشياء" فكانت تعود وتصرخ في وجهه، وتقول له: "إلعب في غرفتك، فصار يشعر وكأنه محبوس في قفص لا يستطيع الحراك فيه براحة، وقلبه الصغير مكتوم.

وفي مساء إحدى اللّيالي، توجّه أمين للمطبخ ليتناول شيئاً ويأكله، ففتح الثلاجة ووجد آنية زجاجية مغطّاة فيها أرز بالبازلاء والجزر، فسحبها ليضع لنفسه منها القليل، لقد كانت ثقيلة جداً على يديه الصغيرتين، ولم يستطع أن يحملها جيّداً، فسقطت منه على الأرض محدثة صوتاً عالياً وسط هدوء بيت الجدّة القاتم المميت، وتناثرت قطع الزّجاج في كل أرجاء المطبخ، وانتهى أمر الطّعام. وما حدث كانت الفاجعة بالنسبة للجدّة، قفزت من مكانها متوجّهة للمطبخ، تصرخ بأمين غاضبة: "ماذا كسرت أيها القرد؟" وعندما وصَلَت للمطبخ ورأت المنظر ازداد غضبها!!

كان أمين يقف أمام الإناء المكسور ينظر إليه، وملامح وجهه تدلُّ على أنه خائف جداً، اقتربت منه بغضب وسحبته من أذنه بشدّة، وكأنها ستنزعها من مكانها، فصار أمين يبكي بقهر، وقالت له بصوت مُخيف: "سأخنقك الآن إن لم تقم بتنظيف المكان حالاً! جئتني لتدمّر بيتي؟ متى سأرتاح من منظرك، وترحل عن وجهي؟"

حاول أمين الصغير تنظيف المكان بكلِّ إمكانياته وقدراته، واستغرق منه وقتاً طويلاً، وجرح إصبعه وهو يلتقط قطع الزجاج، وبقي يبكي بشدة، وفي نهاية التنظيف، الجدّة لم تُعجبها النتائج. وقالت لأمين: "أبله لا تفهم حتى معنى النظافة، اغسل يدك بالماء البارد، ولفّها بمنديل نظيف. ومن ثمَّ خذ قطعة خبز وجبن وكُلْ بسرعة، ثمّ نَم".

وفي صباح اليوم التالي، جاءت إليه الجدّة باكراً لتقترح عليه اقتراحاً، أوبالأحرى هو أمر، فقالت له: "ماذا تفعل يا أمين؟"

قال لها: "إنني أجهّز نفسي للذّهاب إلى المدرسة".

وقفت بجانبه وقالت: "اسمع يا أمين عندي اقتراح لك وفكرة رائعة". فنظر إليها أمين باستغراب وقال: "ما هي؟"

– ما رأيك أن آخذك إلى مدرسة جميلة، فيها أولاد من عمرك وفيها ألعاب وأشياء مختلفة، وأيضاً فيها غرف رائعة للنوم، فجميع الأطفال في تلك المدرسة أصدقاء وأخوة يلعبون في النّهار وينامون ليلاً في تلك المدرسة؟ فهي بمثابة بيتهم...كما أنهم يقدّمون لهم الطعام اللّذيذ والحلويات.

فأجابها أمين بحيرة: "لكن مدرستي...؟ أنا أحبّها، ولا أريد أن أغيّرها؟"

– لا تقلق سنذهب سوياً إلى مدرستك ونأخذ كل الأوراق اللازمة، ونقول لهم أنك ستنتقل إلى مدرسة أخرى، ثمَّ نذهب إلى تلك المدرسة الجميلة.

– لا أعرف...وخالتي... ألم تقولي لها عن الموضوع شيئاً؟

– يا ولد... خالتك عندما تعود ستكون مسرورة جداً عندما تراك في تلك المدرسة الجميلة، وإن لم يعجبها ستأخذك وتعيدك إلى مدرستك الصغيرة تلك، هيّا... هيّا بنا قبل أن نتأخّر، وهات حقيبتك المدرسية وحقيبة ملابسك أيضاً.

أحضر أمين جميع أغراضه رغماً عنه، وذهبا فوراً إلى محطّة الحافلات لحجز تذكرتين للمدينة التي تقع فيها المدرسة.

سأل أمين جدته: "لماذا نحن في محطة الحافلات هذه يا جدّتي؟"

– اسمع يا أمين... المدرسة تبعد عنا ثلاث ساعات تقريباً بالحافلة، فهي ببلدة بعيدة شمال مدينتنا.

– لكن ألم تقولي أننا سنذهب بالبداية إلى مدرستي ونأخذ الأوراق؟

صمتت قليلاً ثمَّ قالت: "نعم... لكن لا يوجد معنا الوقت الكافي، سنتأخّر عن الحافلة. سأذهب أنا مرّة أخرى وأرسل الأوراق للمدرسة الجديدة".

كان أمين حزيناً يشعر بالغربة، كما أنه يهاب من موضوع المدرسة الجديدة هذه، وطوال الطّريق يقول لجدّته: "أرجوكِ يا جدّتي أريد أن أعود إلى مدرستي، لا أريد أن أغيّرها، فهذه بعيدة عن بيتنا وأنا لا أعرف طريق العودة".

فأجابته الجدة: "لا مشكلة...عندما تريد العودة، ستأتي خالتك وتصطحبك إلى البيت، كما أنَّ المدرسة ستصبح بيتك الثاني، أقصد بيتك الأصلي، لا أريدك أن تضايق خالتك خاصّة أنها متزوّجة الآن".

فقال أمين: "كيف ستكون بيتي الأصلي!"

– يا ولد... ألم أقل لك أنك ستأكل وتشرب وتلعب وتنام هناك؟ أُف... كم أنت مزعج!! اهدأ وسترى.

نظر أمين إلى جدّته بحزن شديد، يريد أن يقول لها لا أريد أرجعيني، أريد خالتي...لكن لا يستطيع فهو أولاً يخاف من نقاشها، وثانياً هو بطبيعته خجول ولا يعرف كيف يرفض بإصرار، كل ما هنالك أنه أصبح يذرف دمعه دون صوت، ويبكي في داخله.

وبعد ثلاث ساعات من الجلوس في الحافلة والانتظار...وصلا وأصبح الرّكاب يترلون بهدوء، ليأخذوا حقائبهم.

نزل أمين وجدّته وأخذ حقائبه، وذهبا ليركبا سيّارة أجرة للذّهاب للمدرسة الداخلية.

سأل أمين جدّته: "ألم نصل بعد للمدرسة يا جدّتي"؟

– فقط خمس دقائق بالسيّارة، ونكون عند باب المدرسة.

وقالت الجدّة لسائق السيّارة: "من فضلك إلى (دار الأفق الداخليّة)". كان أمين ينظر من نافذة السيّارة إلى هذه البلدة لكي يتعرّف عليها وعلى معالمها.

ثمَّ وصلا إلى المدرسة، قرعت الجدّة الجرس الموجود قرب باب المدرسة الحديديّ العالي، فخرج الحارس وقال لهما: "هل أستطيع أن أخدمكما بشيء؟"

أجابت الجدة: "نعم، نريد قسم التسجيل"، فقام الحارس وفتح لهما الباب وأدخلهما إلى مبنى الإدارة العامّة للمدرسة. فاستقبلتهما السكرتيرة بالابتسامة، ومن ثمَّ دخلا عند المديرة المسؤولة عن الأطفال والتسجيل. فرحّبت بهما المديرة وعَرَّفت بنفسها، وقالت لهما: "أهلاً وسهلاً تفضّلا...أنا رشيدة مديرة المدرسة ومسؤولة عن إدخال الأطفال وتسجيلهم في سكننا، كيف لي أن أخدمكما؟"

نظرت الجدّة بتفاؤل وقالت: "يا سيّدة رشيدة أنا جدّة هذا الطّفل أمين، وهو الآن يعيش عندي، وأنا سيّدة كبيرة، ولا أستطيع الاعتناء به وبأموره، وتعلمين أنَّ الاعتناء بالأطفال صعب، وأريد أن أُلحقه بمدرستكم في القسم الداخليّ ".

قالت السيّدة رشيدة: "عفواً! هل لي أن أعرف أين والداه؟"

فأجابت الجدّة: "أمه وأبوه انفصلا منذ زمن، وأمه الآن متزوّجة، وهي مستقرة في أمريكا، وتركت طفلها هنا، أما أبوه فهو دائم السفر بسبب أعماله ولا يستطيع الاعتناء به".

فقالت رشيدة وهي تنظر للطّفل: "كيف حالك يا جميل؟ اسمك أمين... أليس كذلك؟"

هزَّ أمين رأسه وقال: "ولكن أريد العودة إلى خالتي... أنا لم أحب هذا المكان!".

فقالت رشيدة: "خالتك! وما قصّة خالته أيتها الجدّة؟".

أجابتها بثقة: "لقد عاش فترة عند خالته، لكن هي الآن تزوّجت وسافرت، وهو معتاد عليها"

فجلست رشيدة وقالت: "يا صغيري!...حسناً لا مشكلة، سنقوم بتسجيل الطفل لكن لدينا بعض الإجراءات الضروريّة واللازمة والتحريّات عن حياة الطفل. "ثمَّ مسكت السيّدة رشيدة يد أمين وقالت له: "نحن هنا سنكون أصدقاء ونلعب سوياً، وستتعرّف على أصدقاء جدد، وستحبّهم ويحبّونك، والآن سنأخذك في جولة حول أرجاء المدرسة والسكن لترى كم هي جميلة، ستحبُّ المكان والأطفال".

وقالت المديرة للجدّة: "أما الآن أريد شهادة ميلاد الطّفل وصورة عن جواز السفر أو الهوية الشخصية لحضرتكِ، وصورة عن جواز سفر الوالد – إذا أمكن– وبعض الأوراق من المدرسة السابقة".

فأجابتها الجدّة:"هل أستطيع القيام بتسجيل الطفل، ومن ثمَّ أحضر الأوراق اللازمة فيما بعد، تعلمين المسافة طويلة جداً، وأخذت ثلاث ساعات للوصول إلى بلدة الشمال، لكن خذي صورة عن هوّيتي فهي معي".

– حسناً لا بأس... إذا كنتِ تعرفين رقم هاتف المدرسة السابقة سأكلّمهم، وأطلب منهم أن يرسلوا لي صوراً عن الأوراق المطلوبة بالفاكس، ونحن نقوم بعمل أوراق الانتقال من مدرسة إلى أخرى، وباقي الإجراءات، والآن أريد منكِ تعبئة هذه الأوراق ببعض البيانات المطلوبة، وسأرسل أمين جولة حول المدرسة مع المربيّة كوثر.

طلبت السيّدة رشيدة من كوثر الحضور لأخذ أمين جولة، فعرّفته بنفسها واصطحبته، حيث بدأت تشرح له عن أقسام المدرسة، لقد شاهد الملاعب والساحات والمسبح الكبير، وغرف الدّراسة، وأخذته ليشاهد المطبخ وغرفة الطّعام، ومن ثمّ السّكن وغرف النوم، والحمّامات، لقد أعجبه كلّ شيء واندهش لكبر المكان واتساعه، وعادا إلى الجدّة بعد غياب نصف ساعة من التجوال، سألته جدّته: "هل أعجبتك المدرسة يا أمين".

فأجابها بتردّد:"نعم..."

قالت رشيدة "هل تعطيني الأوراق لو سمحتِ لأقرأها وأختمها بختم المدرسة؟ "وأكملت رشيدة "حسناً نحن سنكمل إجراءات الانتقال، وإذا أحببت يُسمح لأمين أن يبقى من اليوم عندنا، لكن ما نريده منكِ الآن خمسين دينار فقط لا غير، قسطاً رمزياً لدخول الطّالب الجديد للسّكن والمدرسة".

فقالت الجدّة بفرح: "حسناً، ومبارك يا أمين... ها أنت الآن في هذه المدرسة الجميلة، سأتركك مع السيّدة رشيدة لتأخذك إلى غرفتك، وتعرّفك على أصدقائك الجدد".

مدرسة دار الأفق الداخلية من المدارس التي خصّصها أحد المحسنين الأغنياء للأيتام أو اللّقطاء، وتقوم بتكفّل مصاريف الأطفال الذين فقدوا ذويهم أو أحد والديهم، والأطفال الذين لا تقدر أسرهم على إعالتهم، وفيها قسم داخليّ مخصّص لأطفال العائلات التي ترغب أُسرهم أن تضعهم بسكن داخليّ لعدم التفرّغ، هذا القسم فقط بقسط سنويّ ربحي ويشرفُ عليه أحد القطاعات الخاصّة. ويتمّ دمج الأطفال مع بعضهم بالسّاحات وجميع النشاطات

وحتّى بمقاعد الدّراسة، وتعمل المدرسة على إنشاء علاقة طيّبة بين الأطفال على حدٍ سواء، فهم جميعاً إخوة وأصدقاء في هذه الدّار ولا فرق بينهم في أيّ شيء.

وتستقبل المدرسة الدّعم المادّي من التبرّعات وصناديق الزّكاة هذا بالإضافة إلى الأقساط السنويّة من أهالي ذوي الدّخل الجيّد، لكن هم قلّة ولا يُعتمد عليهم كثيراً.

قبَّلت الجدّة أمين قُبلة تقليديّة بدون أيّ حرارة أو حنان، وقالت له: "إلى اللّقاء، أريدك ولداً هادئاً ومؤدّباً". وذهبت تاركة الطفل ورائها دون ضمير.

الفصل الخامس

كان أمين يخرج من حزن ويدخل بحزن آخر، فقلبه يبكي كلَّ يوم لا يعرف بالضبط ما الذي يجري حوله، فهو في بلدة بعيدة وكأنه نُفي إلى مكان بعيد عن وطنه، فأصبح يتسائل في قلبه "أين أمي؟ أين خالتي وبيتي.. أريد غرفتي! إلى متى أنا هنا يا ترى؟ لماذا أمي تزوّجت وتركتني كما قالت جدّتي؟ وخالتي قالت إنها لن تتأخّر – أتمنّى ذلك – وسأعود لبيتنا" وبقي هذا القلب الصغير ينبض ليواجه الحياة لوحده بعدما شعر بالبُعد عن الجميع.

لقد مضى الأسبوع المقرّر لقضاء فترة العسل، وعادت الخالة من سفرها مسرورة ومشتاقة كثيراً لأمينو الصغير، وفور وصولها ذهبت إلى بيت الجدة أم شاكر لتأخذ أمين وتعيده إلى البيت. الفرحة تغمر الخالة فهي بأول لحظة ترى أمين ستركض إليه وتغمره بحنانها... ولا تعرف ما ينتظرها...!

***

طرقت باب بيت الجدّة ففتحت لها بعد فترة انتظار طويل عند الباب، وكانت الجدة تعبة وشاحبة المنظر، فقالت الجدّة: "أهلاً... تفضّلي علياء، حمداً لله على السلامة".

– كيف حالكِ يا أم شاكر، تبدين متعبة؟

– نعم... فأنا تعبت منذ يومين وأشعر أنني أزداد سوءاً.

– سلامتكِ...وربّما أزعجناكِ بأمين، أين هو؟ أريد أن أراه وآخذه لقد اشتقتُ إليه كثيراً؟

– أمين ليس هنا...

اندهشت علياء وقالت: "لماذا...! أين ذهب؟"

– كما تعلمين أنا سيّدة كبيرة ومن الصعب الاعتناء بالطّفل وأنا وحدي لا... وقفت علياء باستغراب وقاطعت الجدّة: "حسناً... حسناً أين الطّفل؟ أين أرسلتيه؟" وكانت متوتّرة.

– ما بكِ لا تقلقي... أمين بأيدٍ آمنة، اجلسي وسأشرح لكِ.

جلست وقالت: "أرجوكِ قولي هيّا!".

– لقد وجدت صعوبة كبيرة في الاعتناء بأمين وحدي، لذلك خطر ببالي فكرة جيّدة لي ولكِ، حيث أنني أرسلت الطّفل إلى مدرسة داخليّة وهو...

قفزت علياء من مكانها: "ماذا فعلتِ؟ مدرسة داخلية...!!! من المؤكّد أنني لم أفهم" وببرود أعصاب أجابت الجدّة: "اسمعي يا علياء واهدئي، نعم هو بالمدرسة الداخلية".

– كيف ترسلين الولد إلى مدرسة داخلية؟ وأين هي هذه المدرسة؟

– أنتِ الآن متزوّجة من الصعب عليكِ التوفيق بين الزّوج وابن أختكِ، كما أنك عروس جديدة ولا تستطيعين أخذ حريّتكِ في البيت والطّفل يجلس بينكما... تفهمين قصدي.... وأنا...

فقاطعتها علياء بعصبية: "وأنتِ ما شأنكِ بهذا الموضوع...؟ أمين بمثابة ابني، وزوجي لم يمانع، أنتِ تحشرين أنفكِ الطّويل بأمور غيركِ أيتها العجوز".

– أولاً أنا لست عجوزاً... وثانياً سأقولُ لكِ ما دخلي... اسمعي أيتها الجميلة أنا لا أحبُّ الأطفال، كما أنني لا أتحمّل أن ترسلي لي الطفل كي ينام عندي من يوم ليوم لأنكِ مشغولة أو تريدين السّفر مع زوجكِ، فمن المؤكّد أنَّ هذا سيتكرر.

– أرسل لكِ الطفل... ما هذه التافهات؟ كانت هذه المرّة الأولى والأخيرة، لأنني سافرت شهر العسل، وقد كان أسبوعاً لا غير، ولن تتكرر لقد اضطررت لهذا، لا يوجد مكان أضع فيه أمين المسكين، كيف تسمحين لنفسكِ بفعل مثل هذا العمل القاسي؟ أنتِ بلا قلب، لقد كُنْتُ بلهاء عندما سمحتُ لنفسي بوضع الطفل عندكِ هذا الأسبوع.

– لا تخطئي بحقّي، فأنا لا أتحمّل الأطفال، وها أنا مريضة الآن، وأجد صعوبة في النهوض من السرير، وكما قلت لكِ أنا أحفظ خطَّ الرجعة، لا أحبُّ أن يُحمّلني أحداً مسؤولية أطفاله، ومن يدري ربّما يُعجبكِ الحال فتقومين بإرسال الطفل أسبوع تلو الآخر، لذلك أرحتكِ منه، ويجب عليكِ أن تشكريني على هذه الفكرة الرائعة.

– فعلاً أنتِ عجوز غبية، أريد الطفل حالاً... حالاً، هيّا قولي أين المدرسة.

– أنتِ غير مهذّبة، لا تتفوّهي بكلام غير منطقي، الطّفل الآن بعيد جداً من هنا.

– أرجوكِ قولي، أريد أن أراه... وأريد أن أعيده لبيتي".

– اسمعي يا علياء، المدرسة تقع في بلدة الشمال، وعليكِ أن...

– ماذا؟... أرسلته إلى هناك... إلى بلدة الشمال.

– نعم، إنها مدرسة قويّة وجيّدة ومشهورة، ودار للرّعاية ممتازة جداً.

– أتقصدين دار الأفق الدّاخلية للأيتام... لا تقولي أنه هناك!!

– نعم، أرأيتِ... إنها مدرسة معروفة، وهي المدّرسة الداخلية الوحيدة في الشّمال.

– يا حرام... مسكين يا أمين....! وكيف يقبلون الطّفل من دون موافقة أهله للالتحاق في المدرسة؟

– وأين أهل الطفل... هل تقولين لي؟ أين أمه... أين أبوه؟ هو بمثابة الأيتام كلُّ واحد في بلد... يُنجبون ويرمون!

– أنا أمه وأبوه وكلّ شيء، أمين ليس بالطّفل اليتيم، وأنا التي أرعاه.

– حسناً، اذهبي إلى المدرسة واسترجعيه لا مشكلة.

***

عادت علياء إلى البيت حزينة ومقهورة من تصرّف الجدة الغبيّ، وأخبرت زوجها بالقصّة، وهي تشعر بتأنيب الضّمير اتّـــجاه أمين.

قال عبد الرحمن لعلياء: "اسمعي يا عزيزتي، غداً اذهبي إلى محطّة الحافلات، وتوجّهي إلى بلدة الشمال، وأرجعي أمين معكِ".

فأجابت علياء: "ولماذا غداً ؟... سأذهب الآن".

قال عبد الرحمن: "الآن الوقت متأخّر وطريق الذّهاب تأخذ معكِ ثلاث ساعات والإياب كذلك، ستعودان متأخّرين، هذا بالإضافة إلى أنَّ المدرسة تكون قد أغلقت أبوابها، ولا تستقبل أحداً، لذلك انتظري للغدِ أفضل، يوم واحد زيادة لا يؤثّر، لا تقلقي إن شاء الله الولد بأمان".

– آه... كيف عليَّ أن أتحمّل للغد؟"

– كما تحمّلت عندما تركته هنا عند جدّته وذهبنا أسبوعاً.

– كنتُ بلهاء... وكنتُ أعتقد أنه سيكون بأمان، فأنا أعرف الجدّات يوصفن بالطيّبات، ولسنَ مثل هذه الجدّة الخبيثة، آه... لو كنت أعرف... كيف لي أن أعرف أنها كابنها شاكر أو بالأحرى شاكر مثلها... آآآه ونعم التربية.

وفي الصّباح الباكر، ذهبت علياء إلى محطّة الحافلات لتحجز مقعداً وتذهب لبلدة الشّمال. توقفت عند شبّاك التذاكر، وكان أمامها طابوراً طويلاً، وبعد نصف ساعة انتظار وصل الدّور عندها، وقالت لصاحب الشّباك: "لو سمحت أريد أن أحجز الآن مقعداً إلى بلدة الشمال، إذا كان بالإمكان."

فأجابها الرجل صاحب شبّاك التذاكر: "لا يا سيّدتي لا تستطيعين الآن، ولا حتى اليوم فجميع الحافلات المتّجهة إلى بلدة الشمال محجوزة، ولا يوجد مقاعد فارغة".

– أرجوك حاول أريد أن أذهب لأمر ضروري ومُستعجل.

فأجابها: "يا سيّدتي لا أستطيع أبداً، ها هو دفتر الحجوزات أمامي ولا ويوجد مقاعد، واليوم هو عطلة نهاية الأسبوع، لذا تحجز الناس قبل يومين، وليس الآن للذهاب اليوم".

– وماذا عليَّ أن أفعل؟

أستطيع أن أحجز لكِ لرحلة بعد غد هو أقرب موعد، لأنني كما قلت لكِ في عطلة نهاية الأسبوع يكون لدينا ضغط كبير على الحجوزات".

– هل سأنتظر يومين؟

– نعم... نعم يا سيّدتي هذا الحلُّ الوحيد لديّ، هل أقوم بالحجز؟

– نعم أرجوك، لا يوجد لديَّ خيار.

وبعد يومين من الانتظار ذهبت الخالة مسرعة إلى محطة الحافلات، واستقلَّت مقعدها وفي نفسها مشاعر فرح وقلق مختلطة بآن واحد. وصلت الخالة إلى البلدة ومضت الساعات الثلاث على خير والحمد لله.

سألت عن عنوان المدرسة من أهل البلدة، فاهتدت للطريق.

دقّت باب المدرسة، ودقّات قلبها كانت تتصاعد، فتح الحارس الباب، وقال لها: "هل لي أن أخدمكِ يا سيّدتي"؟

دخلت علياء إلى قسم الإدارة العامة، أدخلوها إلى السيّدة المسؤولة فاستقبلتها السيّدة رشيدة، وقالت لها: "تفضّلي، كيف أساعدكِ".

– لو سمحتِ... أريد أن أسأل عن طفل يُدعى أمين شاكر، أحضرته جدّته إلى هنا قبل حوالي أسبوع.

أجابت السيّدة رشيدة: "نعم... نعم، إنه عندنا، وهو ولد ممتاز، عفواً... ما صلة القرابة بينكِ وبين الطفل".

– أنا يا سيّدتي خالة الطفل، وأريد أن أراه وأصطحبه معي.

– نعم، يا سيّدة... ما اسمك عفواً؟

– اسمي علياء...

– يا سيّدة علياء، أمين الآن طالب مسجّل رسميّ في مدرستنا، ونحن مسؤولون عنه الآن، ولا نستطيع إعطاءك إياه، تستطيعين فقط زيارته من فترة إلى أخرى.

– يا سيّدتي أرجوكِ فأنا بمثابة أمٍّ للطّفل، وأنا وأمين لا نستطيع أن نفترق، أحضريه وسأريكِ أنه سيتعلّق بي ويذهب معي.

– لا أستطيع أن أُخرج أيَّ طالب من المدرسة أو من السكن حتى ولو...

قاطعتها علياء: "يا سيّدتي أرجوكِ أريد الطّفل ولن أستغني عنه أبداً، وجدّته هي التي..."

– اسمعي يا سيّدة... الوضع ليس بهذه السهولة، فنحن عندما نستلم أيَّ طفل نكتب تعهّداً أننا استلمنا الطّفل ولن نعطيه لأيٍّ كان إلا بإذن وموافقة الشخص الأوليّ المسؤول عنه سابقاً، أي الذي أحضره إلى هنا، ونحن الآن مسؤولون عنه، والمسؤولية تقع على عاتقنا ونخاف على الأطفال أكثر من أيِّ أحد آخر، ولاتنسي أنَّ من أحضره هنا هي جدّته أم والده الوصيّة الأولى عليه قانونياً بعد غياب الوالد والوالدة.

– يا سيّدة رشيدة أنا المسؤولة الأولى عن الطفل، لكن ظروفي هي التي جعلتني أترك أمين فترة صغيرة عند جدّته، فقامت الجدّة بإرساله إلى هنا.

– لا يا عزيزتي... هذه الأمور الخارجيّة الخاصّة لا يكترث لها قانون مدرستنا وسكننا، أنا لا أستطيع أن أخلَّ بقوانين المدرسة، فسأحاسب حساباً عسيراً إذا حصل أيَّ مكروه للطفل، فهو الآن تحت مسؤولية المدرسة، ويا عزيزتي للمرّة الأخيرة أقول لكِ لا أستطيع تغيير القانون من عندي أنا، الآن نحن المسؤولين عن الطّفل وهو بعهدتنا.

– وماذا أفعل؟ أريد الطفل... أمين بمثابة ابني فعلاً.

– يا سيّدة علياء اذهبي إلى الجدّة، وأحضري منها موافقة خطّية موقّعة ومبصومة أنها موافقة على إعطائكِ الطّفل، فنقوم بعمل الإجراءات اللازمة لإخراج الطّفل وتسليمكِ إياه، الموضوع بسيط جداً.

– يا إلهي... أوووف ماهذه الدوامةّ!! حسناً سأذهب وأعود ومعي الموافقة، سننتظر شفقة أم شاكر علينا الآن! لكن من فضلكِ أريد أن أرى أمين لقد اشتقت له كثيراً، هل لي بهذه الخدمة؟

– نعم، يا عزيزتي، سأكلّمهم لكي يحضروه لكِ الآن، انتظري قليلاً.

وبعد عشرة دقائق دخل أمين الصغير إلى غرفة المديرة، فوجد خالته تجلس في غرفة المكتب، فركض إليها متفاجئاً ومندهشاً، وعلامات السرور والبهجة تشتعل في قلبه من

جديد، بعدما كان قد خيّم الحزن على قلبه طيلة الفترة الماضية، فقال أمين لخالته: "خالتي علياء أحبّكِ اشتقتُ إليكِ، لماذا تأخّرتِ عليّ ؟"

– يا عزيزي الصغير ليس بيدي فأنا لم أعرف أنك هنا، كما أنَّ البلدة بعيدة وتأخذ وقتاً طويلاً للوصول إليها، لا تحزن حبيبي أمينو.

– لقد أرسلتني جدّتي إلى هنا وقالت لي أنكِ ستأخذينني عندما تعودي.

– نعم يا حبيبي ستأتي معي، ولكن ليس الآن، هناك بعض الإجراءات يجب أن أجريها لكي أخرجك من هذه المدرسة، ثم أصطحبك معي.

– وهل سيأخذ هذا وقتاً ؟

– كلا يا عزيزي، ربّما غداً ستكون في بيتك يا أمين، وكيف هي المدرسة ألم تعجبك؟ حدّثني عنها.

– يا خالتي إنها مدرسة جيّدة وجميلة، ولكن أنا مشتاق إليكِ، أريد بيتي... أريدكِ بجانبي... وأريد سريري، وأحياناً أفكّر بأمي ولماذا تركتني، ولم تعدْ تتّصل بي هاتفياً منذ زمن؟

– لا يا حبيبي إن شاء الله ستعود للبيت، ولكن من قال لك أنَّ أمك تركتك؟

– جدّتي...كانت دائماً تقول لي أنَّ أمك لا تريدك، رمتك لخالتك لتربيك، وها هي خالتك ترميك عندي.

– لا يا عزيزي، ظروف أمك الصّعبة هي التي جعلتها تتركك والموضوع خارج عن إرادتها، وبكت كثيراً عندما سافرت وتركتك، كما أنها دائماً تكلّمني هاتفياً وتطمئنَّ عليك، ولكنك تكون نائماً، وأما أنا يا حبيبي فمستحيل أن أرميك، فأنت كلُّ عمري وأنا أحبك يا صغيري.

ثمَّ ودّعته الخالة على أمل أن تعود غداً وتصطحبه معها. استقلَّت الحافلة وعادت لبيتها متعبة من الطريق، فاستقبلها زوجها: "الحمد لله على سلامتكِ، لقد قلقت عليكِ، لا أرى أمين معكِ؟".

جلست على الكنبة وهي حزينة جدّاً وقالت: "آه... يا عبد الرّحمن، كم أنا مرهقة وأشعر أنَّ رأسي سينفجر، كما أنني لم أتناول سوى قطعة بسكويت وفنجان قهوة منذ الصّباح، وها نحن قاربنا على السّاعة السّادسة مساءً، ولم أستطع فعل شيء.

– ماذا؟ لم أفهم... ولماذا لم تحضريه معكِ؟

فشرحت علياء لزوجها المشكلة التي واجهتها، والصعوبة في استعادة أمين وأنَّ الجدّة أم شاكر قد وقّعت على بند من بنود التسجيل ينصُّ على عدم إخراج الطفل من الدّار نهائياً إلا بموافقتها شخصياً، وعدم السماح لأيِّ أحد أن يأخذه حتى ولو كان له صلة قرابة به.

أشرقت شمس الصّباح، ولبست الخالة علياء ملابسها مسرعة إلى بيت الجدّة أم شاكر، وطرقت الباب، وانتظرت ثمَّ عادت وطرقت مرّة أخرى، ولم يجب أحداً. وبقيت تنتظر أمام الباب نصف ساعة وهي تطرق وتنتظر.

عادت إلى بيتها حزينة تبكي، لأنها لم تجد الجدّة، وفور عودتها أخذت سمّاعة الهاتف، وحاولت الاتّصال بشاكر، فلم يجب أحد بمنزله ولا بمكتبه، فأيقنت أنه ما زال مسافراً، وحاولت

الاتّصال مرّة أخرى ببيت الجدة فلم يجب أحد على الهاتف، فازدادت توتّراً وقلقاً. وبقيت تحاول حتى المساء ولكن دون جدوى.

بقيت الخالة ثلاثة أيام تتردّد إلى بيت الجدة، فلا أحد يجيب، ومرّة كانت تطرق الباب إذ بجارة الجدّة تدخل إلى بيتها، فرأت علياء وقالت لها: "يا آنسة أتريدين أمَّ شاكر؟

فأجابت بلهفة: "نعم... أرجوكِ هل تعرفين أين هي؟"

أجابت الجارة: "نعم، إنها للأسف في المستشفى منذ حوالي أربعة أيام، وهي متعبة جداً، وها أنا قادمة من عندها الآن".

تفاجأت علياء: "يا إلهي، أرجوكِ أريد اسم المستشفى وأذهب لأراها"

ذهبت الخالة إلى المستشفى مسرعة، وتوجّهت للقسم الذي توجد فيه الجدّة، إذ هي في العناية الحثيثة، سألت عن حالتها فقالوا لها أنَّ وضعها حرج، وهي الآن فاقدةً للوعي، والسبب أنها سقطت من أعلى السلّم وهي تُعلّق نبتة وتمدّها على الجدار، فارتطم رأسها بالأرض، مما سبب لها نزيفاً داخلياً وسبب سقوطها هو دوار شديد بسبب هبوط نسبة السكر في الدّم.

كادت علياء أن تجنّ، الأمور تزداد سوءاً وتعقيداً بدل أن تحلّ، كما أنها حزنت على منظر الجدّة والمصيبة التي حلّت بها، ودعت الله أن يشفيها. وكالمعتاد عادت حزينة لا تعرف سوى القلق، وتعلم أنها حالياً سترضى بالأمر الواقع رغماً عنها. أصبحت الخالة علياء تعيسة، حياتها كئيبة لا تعرف الابتسامة، وأنّ الموضوع أثّر سلباً على حياتها مع زوجها، فدائماً تسمعه: "يا ليتنا لم نتركه ونذهب شهر العسل"، وتارة تقول: " كلُّ الحقُّ عليّ أنا، لم أكن على قدر من المسؤولية وأردت أن أُسعد نفسي على حساب براءة طفل المسكين". وتارة أخرى تُحمّل الذّنب لعبد الرّحمن، هذا مما جعل عبد الرّحمن يغضب منها، وقال لها:

"يا علياء أرجوكِ لا نريد أن نبدأ حياتنا هكذا بالمشاحنات. أنا وأنتِ لا ذنب لنا بالموضوع، قد خرج من أيدينا، سنبقى نحاول إعادة الطّفل إلينا، لا نريد أن نحوّل حياتنا إلى جحيم، فنحن ما زلنا في أوّل حياتنا ولا يجوز أن نُحمِّل الذّنب لبعضنا، نريد أن نحيا بأمان دون مشاكل، وأريد الابتسامة والفرح يعودان لحياتنا الزّوجية... الذّنب من البداية ذنب والدا الطّفل".

نظرت علياء لعبد الرّحمن بحزن وقالت له: "أنت تعلم مدى حبّي لأمين، من الصعب عليّ فقدانه بسهولة، ولكن يا عزيزي لا تغضب مني، أنا آسفة لما حصل وأعدك أن أتابع الموضوع بهدوء، دون أن أضع اللّوم على أحد، صدّقني أنا لم أقصد مضايقتك ".

بقيت الخالة علياء تسأل عن أحوال الجدّة، لكن دون تطور يُذكر، وخلال هذه الأيام كانت تتّصل هاتفياً مع أمين لتطمئنه أنها لم تنساه، وتأخيرها هذا ليس بيدها، وشرحت له القصّة كاملة ففهم سبب تأخّرها، حتى أنَّ والد أمين اختفى ولم يعد موجوداً، ثمّ سمعت علياء مؤخّراً أنه باع مكتبه وسافر للعمل بالخارج لفترة طويلة.

كان موضوع خروج أمين من المدرسة الداخلية يزداد تعقيداً، والسيّدة رشيدة ما زالت تريد موافقة من الجدّة...لكنها في غيبوبة، وعلياء لا تستطيع فعل شيء، وكلُّ المحاولات باتت بالفشل، وبعد فترة ليست بالبعيدة فارقت الجدّة الحياة لتدهور حالتها الصّحيّة.

وكأنَّ باب المدرسة المقفل على أمين قد ضاع مفتاحه، وبصيص الأمل الذي تنتظره علياء قد انطفأ، ولأنَّ قانون المدرسة ينصُّ على أنّ هذا الطفل الآن هو تحت عهدة المدرسة... فالقدر أن يبقى أمين ابناً من أبناء المدرسة الداخلية دون الخروج إلى العالم الخارجي، وعلياء تعيش مع زوجها بعيدة عن أمين الصغير تحت الأمر الواقع الذي فرضته الحياة.

جلست علياء تحدّث زوجها بالهم الذي يُـــقطِّع قلبها... فقال لها ليخفّف عنها: "ربما يا عزيزتي من الأفضل على أمين العيش هناك بدل أن يسكن معنا، فهذه ترتيبات من الله عز وجل، لا أحد يعلم بالغييب، وكما قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ربّما يكون الحلُّ الأفضل للجميع يا علياء، الخيرة فيما اختاره الله".

– حسناً يا عزيزي أنا رضيت بما قسم الله، ولكن أنا خائفة من ردّة فعل أمِّ أمين... أخاف أن لا تتفهّم الموضوع، وتعتقد أنّي تركت الطّفل، كما أنني وعدتها أن أقوم برعايته مدى العمر.

– يا علياء... لا يا حبيبتي، أختكِ ستتفهم الموضوع؛ لأنكِ صادقة معها منذ البداية، اتّصلي الآن معها وأفهميها.

الفصل السادس

لم يعجب أم أمين موضوع المدرسة الداخلية هذه، وقلقت جداً. لكن عندما طمأنتها علياء وشرحت لها عن وضع المدرسة، وكم هي مرتّبة ونظيفة و محافظة و و و....

في النهاية تفهمّت الوضع ووافقت أن يبقى ولدها في هذه الدار. وإن لم توافق فليس باليد حيلة!! والخالة علياء أصبحت تزور أمين مرّة في الأسبوع وتعود، وكانت دائماً تسأله عن أحواله في المدرسة، ومرّة سألته: "أأنت مسرور يا حبيبي في المدرسة والسكن،أم هناك شيء يزعجك؟".

– لا شيء يزعج، كلُّ الأمور جيّدة.

– ولماذا تقولها بحزن؟ قل يا حبيبي لا تخف سنخبر السيّدة رشيدة إذا كان هناك شيء يزعجك، فهي سيّدة طيبة ومتفهّمة.

– يا خالتي كلُّ شيء جيّد، لكنهم متشدّدون كثيراً ويفرضون علينا نظاماً قاسياً، فلكلِّ شيء وقت محدّد، نلعب قليلاً... ندرس أكثر... ووقت الطّعام محدّد لا نستطيع تغييره، وننام بوقت مبكّر، أشعر كأنني محبوس، ممنوع أن نخرج خارج المدرسة أبداً، فقط داخل السّاحات، أريد أن أخرج إلى خارج سور المدرسة العالي، أريد أن أرى الشّارع والنّاس، فهم لا يخرجوننا لأيِّ مكان آخر، يقولون إنهم سيأخذوننا رحلات مختلفة لكن لا أعرف متى؟

***

كانت أم أمين تسأل عنه هاتفياً من فترة إلى أخرى لكن بفترات متباعدة، كما أنها لم تأتِ ولا مرّة واحدة إلى البلد لترى طفلها، لقد سرقتها الغربة وانشغلت ببيتها وشغلها وزوجها وأطفالها، لقد مرَّت السنين ولديها الآن طفلتان، أختان لأمين (أماني وأمان) ولم يعرف بهما أمين أبداً، وحتى أمه لم يَـــعُـــد يسأل عنها.

وفي يوم من الأيام اتّصلت أمل بعلياء ودار بينهم هذا الحوار: "كيف حالكِ يا علياء؟"

– الحمد لله جيّدة؟ لماذا طالت مدّة اتصالكِ هذه المرّة! لقد قلقنا عليكِ ما هذا الغياب؟

– لا يا عزيزتي، لا تقلقي، أنا فقط مشغولة جدّاً.

– ألا تأتين لزيارتنا وزيارة أمين؟ لقد أصبح ولداً قويّاً ويُشرف على مرحلة الشّباب.

– ماذا أقول لكِ؟ إنني لا أستطيع المجيء! صدّقيني هذه هي الحقيقة... ظروفي صعبة.

– لماذا؟ ماذا دهاكِ...أين شوقكِ وحنينكِ لولدكِ؟ ما سرُّ غيابكِ كلّ هذه السنين؟ لا أفهم...! كلّما قلت لكِ تعالي تبدئين بالمبرّرات لحججكِ، ماذا فعلتْ بكِ الغربة؟ولماذا لا تكلّمين أمين هاتفياً منذ مدّة طويلة؟

– آه... يا أختي، انســـي موضوعي! وأريد أن أطلب منكِ شيئاً... أرجو أن توافقي عليه ولا تفهميني خطأ.

– قولي...ماذا؟

قالت أمل وهي مترددة وفي صوتها رجفة: "تعرفين يا أختي يا أختي بُعدي عن أمين يزيدني تعاسة،لا يمكنني المجيء ولا هو يستطيع أن يأتي لحضني والموضوع سبّب لي كآبة وتشويش والحقيقة أني لن أعود للبلد، حياتي هنا في أمريكا، عملي... مدارس أطفالي... عمل زوجي..أنا هاجرت بكلِّ مشاعري."

– لم أفهم ماذا تقصدين؟ ما معنى كلامكِ؟ أسرقتكِ الغربة؟

– بصراحة وبدون أن يُدهشكِ كلامي، وبعد تفكير عميق اتــخذت القرار التالي، أريد أن تقولي لأمين أنني... مت، والآن أنا لست موجودة على قيد الحياة.

اندهشت علياء وسألتها بغضب: "ما هذا الجنون؟ لماذا تقولين هكذا؟ ألا يكفي أنكِ بعيدة جدّاً عن الولد! وتريدين أيضاً أن تموتي بنظره وأنتِ حيّة؟ من أين لكِ بهذه الأفكار السلبيّة؟ اتّــقي الله".

أمل بصوت غاضب ومنفعلة:"يا علياء أرجوكِ، أنا ميّتة حقّاً بنظره، أتعتبرينني أمه هكذا؟؟ لا أريد أن يظلَّ أمين يسأل متى ستأتي أمي؟ ويقول في نفسه لماذا تركتني كلَّ هذه المدّة ويحقد عليّ، وأنا أيضاً أتعذّب لأنني أعلم أنه ينتظرني، وأنا من الصعب عليِّ القدوم، فسأريحه من الانتظار وأرتاح أنا عندما ينسى ولا يسأل عني، فسيعلم أني غير موجودة أبداً، هكذا سنرتاح نحن الاثنان...كفانا عذاب أنا أموت باليوم مئة مرة وأنا أفكّر".

– هو إجمالاً يا أمل لا يسأل كثيراً مثلما كان صغيراً؟ والموضوع بنظره مُنتهٍ، لا يسأل عن قدومكِ، بل يسأل عن أخباركِ بشكل عام، لا تحزيني من كلامي هذه الحقيقة.

– لذا يا عزيزتي قولي له أنني مت لننهي الموضوع، ولا أريد أن أشعر بتأنيب الضمير، فالوضع موجع وابني ما زال ينتظرني هكذا سينسى كلياً، كما أنني أريد أن أورثه كل أموالي.

ضحكت علياء وقالت: "تورثيه، وكيف؟" فأجابت أمل: "سأكتب العمارة السكنية باسمه التي ورثتها عن أبي –رحمه الله– فهي عمارةٌ جميع بيوتها مؤجّرة، والأجر كما تعلمين يتحوّل إلى رصيدي في البنك، وهكذا أكون قدّمت لأمين خدمة صغيرة يستطيع أن يبني مستقبله بها عندما يصبح شاباً".

– أتعتقدين هذا سيعوّضه عنكِ وعن حنانكِ؟ بالأموال ستريحين ضميركِ يا أمل؟ بأيِّ قلب تفكّرين؟

– لا يا أختي... أنا أفكّر بعقلي...أنا أعلم أنه لا يعوّض شيء حنان الأم، ولكن هذه الأموال على الأقل ليشعر أمين أنَّ أمه لم تنساه، بل تركت له ولو شيئاً بسيطاً ليستفيد منه في المستقبل.

– حالياً ألستِ ترسلين مصروفه وأنا بدوري أرسله لأمين ؟ هذا جيّد ولا أحبِّــذ فكرة الموت أبداً، لأنها ربّما تضرُّ بدل أن تنفع، ولا تتّخذي قرارات سيّئة بسرعة مثل هذا القرار.

– أرجوكِ يا علياء،ما الضرر؟ بل بالعكس أرى ذلك أنسب تصرّف.. لقد فكّرت كثيراً... ربّما يكون القرار مؤلماً، لكن هذا هو الحلُّ الوحيد لي ولأمين، أرجوكِ أريد أن أرتاح، افعلي ما قلته لكِ ولا أريد نقاشاً بالموضوع.
– حسناً،، وإذا أردتِ العودة... كيف ستقابلين أمين... بأيِّ وجه؟
– لن أعود أبداً صدّقيني، فكلُّ حياتنا أصبحت في أمريكا، ولا نستطيع العودة وترك أعمالنا و مدارس أطفالي هذا صعب.
– آه... يا أمل ستندمين على هذا الخيار بكلِّ تأكيد.
– لا تخافي، لا يوجد شيء أندم عليه أكثر من الذي مضى، أنا فقدت طفلي من اليوم الذي قرّرت أن أسافر به إلى أمريكا... وليس من هذا القرار.

بعد إلحاحٍ شديد من أمل، ذهبت الخالة علياء إلى المدرسة لزيارة أمين، وقالت له: "أمين حبيبي أتيتك اليوم بزيارة مستعجلة وكلّي حزن وأسف".

فسألها أمين بقلق: "يا خالتي، أرى ملامح وجهكِ حزينة ما بكِ؟"

فأجابت بتردّد وخوف: "أنت تؤمن بالموت وها قد أصبحت شاباً متفهّماً وناضجاً، أليس كذلك؟"

– بلى خالتي، قولي ماذا حدث لقد سقط قلبي من مكانه.

أصبحت الخالة تتلعثم وخائفة وتشعر بالذّنب وكادت تبكي من الموقف المخزي... وقالت: "آسفة...لـ...لأقول لك... أنَّ أمك...تو...توفّيت في أمريكا!! أنا آسفة جدّاً على هذا الخبر الحزين، فهذا الذي حصل، وأرجوك يا حبيبي أن تتفهّم، وتعرف أنَّ الحياة ليست باقية لنا". وأخذت علياء تبكي بشدّة من الكذبة التي تلفّظت بها وقلبها يرجف خوفاً من الله عز وجل.

دمعت عيون أمين وقال لخالته: "أمي ماتت؟... كيف؟"

– في حادثة، لا تحزن يا عزيزي ادعُ لها بالرحمة. وقالت في قلبها (ما أقسى قلبكِ يا أمل...! أنتِ لستِ أختي ولا أماً لأمين).

فقال أمين وهو يبكي وعينيه فاضت من الدّموع: "لن تعود أبداً، كنت أنتظرها منذ سنين على أمل العودة... ولكن ذهبت بلا رجعة... أنا أحبّها... أريدها... من سيُخرجني من هنا؟"

– أتبكي يا حبيبي؟ أتحبُّ أمك... تذكرها حقّاً؟ اعتقدت أنك نسيتها.
– أذكر يا خالتي أنَّ لي أماً ذهبت منذ زمن وقالت إنها ستعود، وكنت أحبّها وما زلت، مع أنها بعيدة جدّاً، ويكفي أنها أمي لذا أنا أحبّها.
– يا أمين أنت الآن ولد كبير، وتعرف أنَّ الموت حقٌّ علينا، لقد أصبح عمرك ثلاث عشرةسنة، أي أنت شاب يُعتمد عليه الآن، لا أريد أن أرى دموعك الحزينة هذه أرجوك امسحها وكن قوياً...لا تبكي.

وقال أمين وهو يمسح دموعه: "إجمالاً يا خالتي لن يتغيّر شيئاً في حياتي، سوى الأحلام، فسأبقى هنا في السكن، وأحلامي ستتغير لتصبح مدفونة في هذه الدّار، بدلاً من أن أحلم للسّفر إلى أمي كما وعدتني، وكما أذكر أنكم وعدتوني يوماً.

- لا حبيبي لا تيأس، وكن متفائلاً... فأنت عندما تنهي المرحلة الدراسية الثانوية فإنك ستخرج من هذه المدرسة. ولن تبقى محبوساً هنا إلى الأبد، فهي مرحلة وتنتهي وستحقق أحلامك.

فأجاب بتنهّد وحسرة: "وأين سأذهب يا خالتي؟"

- ستلتحق بالجامعة لتكمل تعليمك وتصبح رجلاً مهمّـــاً في هذه البلد فالحياة أمامك، و أمك تركت لك ورثتك من المال، لتستطيع بناء مستقبلك يا بني. وأنا معي الوكالة لأكون أمينة على مالك ريثما تصل للسنِّ القانوني.

بقي أمين حزيناً على وفاة والدته، لقد كان يبكي بين فترة إلى أخرى، يعرف أنَّ مكانه ليس بهذه المدرسة، لقد حاول التأقلم في المدرسة ونجح وأحبَّ الأولاد وأحبوه، وجميع الأساتذة كانوا يشكرون منه دائماً ومن أخلاقه ودراسته، كان من المتفوّقين في صفه، ودائماً كان يتخيّل أنه سيخرج من السكن ويعود إلى بيت خالته، فيبقى الخيال هو الخيال، والحقيقية من الصعب أن تتبدّل.

مازالت أم أمين تسأل عن ابنها من فترة إلى أخرى ولم تنسه، لكنها لا تريده أن يعرف أنها موجودة، كما أوصت علياء أن ترسل كلَّ سنة مبلغاً جيّداً من المال إلى مدرسة الأفق، تبرّعاً للأطفال، من المبلغ الموجود في البنك من حساب أمين، ليكون ردّاً لجميل المدرسة على رعاية أمين وباقي الأطفال.

العشر سنوات التي كُتبت على أمين في هذه الدّار منذ سنّ الثامنة حتّى الثامنة عشر قد مضت كما مضت السنوات التي قبلها بالطّول والعرض، لقد قُسم له العيش بحياة مشتّتةٍ منذ يوم ولادته، وهاهو اليوم يتجهّز لحفل تخريجه من المدرسة هو وزملاؤه، والفرحة في عينيه لا توصف.

أما إذا عدنا للخالة علياء وجدناها تتناقش هي وأبو يزيد (عبد الرّحمن) وهما يجلسان في الشّرفة يشربان القهوة بعد صلاة الفجر،عن موضوع أمين الذي مضى عليه عشر سنوات، فأنهى أبو يزيد الموضوع الذي فتحته علياء عن أمين، وقال لها مبتسماً لكي يمحو حزنها: "هيّا يا علياء قومي لا نريد أن نقلب صفحات الماضي لتظهر الأوجاع. أيقظي الأطفال وجهزيهم للمدرسة، ريثما أكون قد تجهّزت للخروج لإيصالهم".

لقد أصبح عند علياء بنتان وولد، البنت الكبرى تُدعى (دالا) وعمرها تسع سنوات، أما (رشا) فعمرها سبع سنوات، والولد الصغير يُدعى (يزيد) وعمره أربع سنوات.

أكملت الخالة نهارها كالمعتاد، لكن مع بعض القلق والتوتّر، فهي متحمّسة لعودة أمين بعد غياب إلى بيتها، لقد جهّزت له غرفة جيّدة ليستقرَّ فيها. وكانت تقول في نفسها:"يا ليتني أستطيع الذّهاب لحضور حفل تخرّج أمين. لكن الموضوع معقّداً، فحفل التخريج يبدأ السّاعة السّابعة مساءً وينتهي في العاشرة، فطول المسافات وضياع الوقت بالطريق يُعيق كلَّ الأمور أمام علياء، فما كان عليها إلا أن تنتظر وصوله بعد حفلة التخرّج؛ لأنه وعدها بالمجيء في هذا اليوم.

الفصل السابع

الخالة بغاية السّعادة ومتلهفة لرؤية أمين، لقد حضّرت العشاء لأطفالها، وقالت لهم هيّا بعد العشاء إلى النوم. قالت لها دالا:"يا أمي نريد أن نرى أمين ونتعرّف عليه، دائماً كنتِ تحدّثينا عنه نريد أن نراه.

لم تأخذ الخالة علياء بناتها أو ابنها لزيارة أمين ولا مرّة واحدة بسبب مشقة الطريق ذهاباً وإياباً، كما أنَّ أبا يزيد ذهب لزيارة أمين مرتين فقط في العشر سنين الماضية، لقد كان يبقى عند أطفاله في غياب أمهم، إضافة إلى أنه لا يستطيع أخذ إجازة من عمله دائماً للذّهاب إلى بلدة الشمال.

السّاعة الواحدة والنصف بعد منتصف اللّيل إذ بهاتف منزل الخالة علياء يرن، فقفزت الخالة من مكانها لتردّ على الهاتف، مع أنها تجلس بجواره تنتظر مكالمة من أمين حال وصوله، فأجابت: "ألو... نعم؟"

كان أمين: "مرحباً خالتي أنا أمين... ها أنا قد وصلت محطّة الحافلات الآن، لكن أريد عنوان المنزل بالتّفصيل لآخذ سيّارة أجرة وأصل للبيت".

وصل أمين لمنزل خالته، هو المنزل القديم ذاته الذي كان يعيش فيه. علياء لم ترغب أبداً أن تخرج من البيت وتتركه فارغاً بلا حياة، فهو يعزُّ عليها، وكأنه شخص تحنُّ وتشتاق إليه، كما أنه حصّتها من الميراث، بجانب قطعة أرضٍ صغيرة، لذا أقنعت عبد الرّحمن بالعيش فيه بدلاً من أن يستأجر بيتاً آخراً وهذا موجود، وكان هذا الاتفاق منذ بداية حياتهما إلى الآن.

أنزل أمين حقائبه من صندوق (التاكسي) عند باب البناية الصغيرة، ووقف يتأمّلها بشدّة، هو لم يأتِ منذ زمن. رأته الخالة من النافذة وهو يتقدّم نحو مدخل العمارة. هي لم تره منذ حوالي سنتين، لقد اندُهشتْ جداً لرؤيته، لقد أصبح شاباً ناضجاً مختلفاً، جذّاباً يختلف اختلافاً كليّاً عن الشّاب الذي رأته قبل سنتين منذ آخر زيارة لها للمدرسة، ومع هذا بقي أمين يحتفظ بنظرات البراءة الجميلة، التي كانت مرسومة على وجهه منذ طفولته، تلّونها عيونه الخضراء اللاّمعة وملامحه الهادئة البشوشة، هو وسيم بقدر كبير، والوحدة والحزن لم يقتلا الطّفل المزروع بداخله، بل بقي مرحاً كالأطفال وروحه روح الشباب. فركضت الخالة إلى الخارج تحضنه وتقبّـــله شوقاً، وترحّب به بشدّة، وكذا أمين أيضاً لكن مع بعض الفتور، لقد قبَّل خالته وحضنها، ولكن ليس بالقوّة والشوق التي كانت الخالة تتمسّك بهما، فالبُعد لا يولِّد إلا جفاءً بعد مدّة لأنَّ معظم الأوقات تصبح الأشواق ذكريات.

دخلا إلى المنزل وكان أمين في شدّة من الاندهاش والشّوق والحنين لمنزله، الذي كانت به أولى خطواته وأولى أيام طفولته، فلقد قضى أوّل ثماني سنوات من حياته في هذا البيت.

استقبله أبو يزيد في غرفة الجلوس وقال له: "أهلاً وسهلاً يا أمين بك في بيتنا، تفضّل وخذ راحتك كاملة، وحمداً لله على سلامتك".

نظر إليه أمين وقال: "شكراً يا عمّي، سَلَّمك الله وعافاك" ثمَّ في نفسه: (كيف يقول تفضّل في بيتنا...نسي أنه بيتي أنا وخالتي قبل أن يكون بيته، هل يعني أني سأكون ضيفاً هنا وحسب؟).

قالت الخالة لأمين: "ما رأيك أن تبدّل ملابسك يا عزيزي لتناول العشاء".

فأجابها أمين: "أريد يا خالتي أن آخذ حمّاماً ساخناً من فضلكِ، من ثمَّ نتناول العشاء".

– حسناً إنَّ الماء ساخن،اذهب فوراً إلى الحمّام، هل تريد أيَّ شيء أو أيَّ غرض؟

– فقط يا خالتي أريد مِنشفة وصابون الاستحمام.

– نعم، الصابون والشامبو في الحمام... وسأحضر لك منشفة انتظر قليلاً.

جلس أمين في غرفة الجلوس يتأمّل ما حوله، وترجع به ذكريات الطّفولة إلى الوراء، فنظر إلى تلك الزاوية، فتذكّر كيف كان يجلس على سجّادة صغيرة حمراء، ومعه كيس كبير فيه ألعابه، كان يفتح الكيس ويفرد كلَّ الألعاب على الأرض، ويلعب دون الشعور بالملل، وفي الزاوية الأخرى كان يجلس عند طاولة صغيرة يُذاكر دروسه هو وخالته وعلى نفس الطاولة كانت خالته تحضر له طعام الفطور قبل أن يذهب للمدرسة، شعر أمين أنه لايزال طفلاً يريد أن يفتح كيس ألعابه، ويجلس على سجّادته الصغيرة، وينسى نفسه بين الألعاب.

جاءت الخالة بالمنشفة وقالت "أمين ما بك... أين شرد ذهنك؟"

– آه يا خالتي، أريد كيس ألعابي.

– ماذا؟ كيس ألعابك! ضحكت الخالة من كلِّ قلبها. وقالت له:"لم يبق لا كيس ألعاب ولا شي كهذا، إذا أردتَ فعلاً أن تلعبادخل إلى غرفة يزيد، فعنده ألعاب مختلفة".

– عندما عدتُ إلى منزلنا هذا شعرت أنني صغرت الآن عشر سنوات وعدتُ طفلاً، أريد أن ألعب... أريد أن تطعميني كما في السابق، أين غرفتي وسريري، أبقيا كما هما؟

– يا حبيبي أمين لقد تغيّر كلُّ شيء، غرفتك الآن أصبحت غرفة الأطفال، وأنت ستأخذ الغرفة المجاورة لقد وضعت لك فيها سرير جديد وخزانة ومكتب للدّراسة، كلُّ شيء مريح سيعجبك يا حبيبي.

– أشكركِ يا خالتي، سأذهب وآخذ حمّاماً ساخناً، وبعدها نكمل حديثنا.

دخل أمين للاستحمام وبعد عشر دقائق سمع أبو يزيد يتحدّث بصوت عالٍ لعلياء ويقول: "اذهبي يا علياء واطرقي الباب على أمين، لقد تأخّر في الاستحمام، سينفذ الماء في الخزّان إذا بقي يستحمُّ لمدّة أطول... ما به هل أخذ غفوة في الحمام؟"

فأجابت علياء: "يا عزيزي، ماذا تقول دعه يستحم ويأخذ راحته، فهو قادم من سفر وطريق طويلة متعبة".

كان أمين قد أنهى استحمامه وسمعهما يتحدّثان، وهو يرتدي ملابسه في الحمّام، فشعر أنّ وضعه حرج في البيت، وأنَّ زوج خالته لا يرحِّب به كثيراً، فقال أمين في نفسه: "هذا بيتي أيضاً... لماذا يتصرّف هذا الرّجل هكذا، من حقّي أن آخذ راحتي في منزلي، ثمّ إني لم أتأخّر في الاستحمام كما قال، ما به؟" خرج أمين من الحمّام، فقالت له خالته: "نعيماً يا أمين، هيّا تعال وتناول العشاء لتنام وترتاح، لأنَّ الوقت متأخّر جدّاً".

لقد تناولوا العشاء، وحدّثهما أمين عن حفلة التخرّج وعن أصدقائهِ بالمدرسة، لكن سرعان ما غلبهم النعاس، فذهب أمين إلى غرفته ووضع حقيبته جانباً ورمى نفسه على السّرير ثمَّ غرق في النوم، دون أن يفكّر بشيء سوى أمه، لقد ذكرها وتنهّد في قلبه وترحّم عليها، وغطَّ في نوم عميق.

في الصّباح استيقظ أمين قرابة السّاعة العاشرة صباحاً فلم يجد بالبيت سوى خالته علياء، كانت تنظّف البيت وترتّبه، فرأته وقالت له: "صباح الخير يا أمين، أنمت جيّداً؟"

– نعم يا خالتي، أين الجميع؟

– الأطفال في المدرسة فلديهم نادٍ صيفيّ، وعبد الرّحمن في العمل، ما رأيك بتناول الفطور على طاولتك المفضّلة؟ كما كنت طفلاً يا أمينو؟

– حسناً يا خالتي أشكركِ، وبعد الفطور سأساعدكِ في أعمال البيت.

– يا عزيزي أنت فقط استرح ولا تُتعب نفسك.

أصبح أمين يساعد خالته دائماً في أعمال البيت، وفي تحضير الطعام ومعظم الأمور، وخاصّة في وقت الصّباح والظهيرة، لكن بعد العصر يذهب لصديقه كان معه في نفس المدرسة الداخلية، يُدعى هاني من أعزِّ أصدقائه، وهو صديق الطّفولة منذ أن دخل إلى تلك المدرسة حتى تخرّجا معاً، كما وهناك شاب آخر يُدعى أسامة لقد كان صديقهما أيضاً.

يرجع أمين من عند أصدقائه حوالي السّاعة الحادية عشرةَ كلَّ ليلة، الأمر الذي أدّى إلى غضب أبي يزيد، فكان يعاتبه دائماً عند عودته ويقول له: "لِمَ كلُّ هذا التأخير يا أمين؟ يجب ألا تتأخّر بعد السّاعة التاسعة". فيردّ أمين بقوله: "يا عمّي... أنا أسهر مع أصدقائي في بيت أحدهم وأياماً أخرى نذهب ونتمشّى في أرجاء البلدة، لنتعرّف عليها أكثر وعلى أسواقها ومحلاتها، فأنا لا أعرفها جيّداً، لأشعر أني ابن المنطقة ولست غريباً عنها، أرجوك يا عمي لا تُضيّق علي، ودعني آخذ حريّتي قليلاً، لقد كنت مثل المحبوس في المدرسة الداخلية"

– حاول ألا تتأخّر، اذهب إلى أيِّ مكان تشاء لكن دون تأخير.

بقي أمين على حاله يذهب وقت العصر ولا يعود حتى السّاعة الحادية عشرة، وأبو يزيد لا يحُب أن يُكسر كلامه، ويجب أن يكون النّظام موجوداً في البيت، فعند عودة أمين متأخّراً ذات مرّة قال له بصوت عالٍ وكأنه يوبّخه: "ألم أقل لك أن تعود مبكّراً، لماذا تكسر كلامي أيها الولد؟ لابد أنك لا تفهم ولا تحترم ما يقال لك".

لم يردّ أمين على أبي يزيد، فقد ذهب مسرعاً إلى غرفته وأغلق الباب وراءه، نادته خالته: "أمين... أمين"، فلم يجب. وقالت لأبي يزيد: "كأنك أسأت إليه هكذا، لقد غضب ".

– اتركيه إنه ولد طائش، لا يفهم مصلحته وهو غير مؤدّب أيضاً تركني وأنا أكلّمه... نحن في أوّل الطّريق وأصبح لا يُطيع الأوامر".

كان أمين يستمع لحديثهما لأنّ أصواتهما عالية.

فأجابت علياء: "اتركه يا عزيزي... إنه يخرج بعد العصر قرابة المغرب، وفي النهار يساعدني في أعمال البيت، فالمتنفّس الوحيد له حالياً خروجه مع أصدقائه، ريثما تبدأ الدّراسة في الجامعة، أرجوك لا تضغط عليه، فهو لا يفعل ما يُغضب".

– أنا لا أراه أبداً حتى أضغط عليه، فقط أطلب منه العودة باكراً، أرجوكِ أفهميه بطريقتكِ الخاصّة، كما أنني أريد أن أفاتحكِ بموضوع يخصُّ أمين.

– حسناً قل يا عبدو... لكن أخفض صوتك قليلاً ربّما يسمعك وأنت تتكلّم.

– اسمعي يا علياء أخاف أن يُشكِّل أمين عائقاً على حياة ابنتيَّ في البيت.

– ماذا تقول يا عبد الرّحمن؟ عائق! وكيف هذا؟

مع أنَّ عبد الرحمن حاول خفض صوته لكنَّ أمين سمع كلّ ما دار من حديث وراء باب غرفته.

فأجابها: "سأقول لكِ كيف، الآن ابنتانا صغيرتان لكن بعد ثلاث أو أربع سنوات ستصبحان فتاتين في عزِّ الصّبا، فربّما يُسبّب لهما حرجاً وجود شاب في بيتهما، وهما في هذا العمر ولا تأخذان راحتهما، وأنا لا أدري إلى متى سيبقى عندنا أمين.

– لماذا تفكّر بهذه الطريقة، أمين بمثابة يزيد، ولا أعتقد أنه يُشكّل حرجاً، كما أنَّ البنتان أحببنه كثيراً، فهو يجلس ويحكي لهما القصص ويلعب معهما، ومع يزيد أيضاً، فلماذا تريد أن تخلق تفرقة بين أطفالنا وبين أمين.

– يا علياء يا حبيبتي أمين بمثابة يزيد، هذا من ناحيتكِ لأنكِ قمتِ بتربيته وهو صغير، أما بالنسبة لابنتيكِ فهو غريب عنهما، لم يعرفانه إلاّ من أسابيع قليلة، أنا لا أريد خلق تفرقة ولا أيّ مشكلة، لكن أنا أتكلّم المنطق.

– لكن لا مكان يأوي إليه غيرنا يا عبد الرّحمن، لا أستطيع أن أُخرجه من البيت بعد ما عاد إليه متشوّقاً، مستحيل أن أقول له اذهب إلى مكان آخر، فهو مسكين لا أهل له غيرنا.

– طيب... حاولي أن تُفهميه الموضوع بطريقة غير مباشرة لكي لا يتحسّس من الكلام، أنتِ خالته ويجب أن تفكّري كيف توصلي له المعلومة، وأن تخافي على مستقبل البنات، إضافة إلى أننا لا نعرف ما هي طبيعة أخلاق هذا الشّاب، فهو تربّى بعيداً عن أم وأب، لا أعتقد أنَّ شخصيّته متّزنة كما يعيش أيّ طفل ويتربّى مع أسرته الأصلية لينشأ ذو شخصيّة سليمة متكاملة، أنا بصراحة أخشاه.

– أتُشكّك في أخلاق ابن أختي؟ أظنُّ أنَّ أخلاقه واضحة من السّاعة الأولى التي حضر بها إلى هنا، لم يفعل شيئاً سيّئاً –لا قدّر الله– حتى الآن، وأنا بصراحة لا أرى أيَّ ممسك يُبين أنَّ أخلاقه سيّئة. وهو تربّى بمدرسة معروفة بسمعتها الحسنة في تربية الأجيال.

– أنا لا أقول أنَّ أخلاقه سيّئة، لكن نحن لا نعرفه جيّداً حتى الآن، لقد كان ابن أختكِ، لكن الآن هو غريب عنّا جميعاً، حتى عنكِ فأنتِ لا تعرفينه حقّ معرفة، لقد عاش بعيداً خالط أشكالاً مختلفة من البشر، لا نعرف ما الذي اقتبسه من عالمه حتّى الآن، ربما يُمثّل علينا الطيبة والأخلاق الحسنة لكن بعد فترة تخرج أنيابه، ألم تلاحظي كيف تجاهلني وذهب للغرفة وكأنني رِجْلُ كرسيّ؟

- لا تشكّكني بأمين، أنا أراه إنساناً رائعاً، كلّه أخلاق حسنة، يُساعدني بالبيت وفي تحضير الطعام وحتّى في تدريس دالا ورشا، لم أرَ شاباً متعاوناً مثله، أرجوك أبعد أفكارك السيّئة هذه.
- يا علياء هذا خوفي على ابنتيَ، والمنطق والشريعة يُـــحرّمان وجود شاب في منزل فيه بنات، ولا أعلم إذا كان طيّباً مثل أمه وخالته، أم أنه يحمل جذراً من جذور الشرّ والأخلاق السيّئة، فالعرق دسّاس كما يقولون.
- لا أعرف يا عزيزي...لا أظن ما تظن، والأفضل أن نتروّى قليلاً قبل أن نتصرّف أيّ شيء ونقول لأمين، فأنا لا أرى فيه سوى كلُّ خير.

بالطّبع لقد سمع أمين كلَّ الحديث الذي دار بين الخالة وزوجها، كانا يعتقدان أنه نام، لأنَّ ضوء الغرفة مُطفأ، لكنّه كان واقفاً وراء الباب يسمع الحديث الذي يدور عنه، حزن حزناً شديداً وشعر بالظّلم، أراد أن يخرج ويبرّر لهما عن طبيعة أخلاقه لكن كتم مشاعره، وحبس ظُلمه وذهب إلى فراشه لينام لكنهُ لم يستطع، لقد كانت كلمات زوج خالته تلفُّ وتدور في دماغه، وأصبح يفكّر بحلٍّ يريحهم ويرتاح هو أيضاً من الشّكوك التي تدور حوله.

استيقظ أمين في الصّباح متأخّراً بعد أن ذهب الجميع إلى أشغالهم، والخالة علياء كانت في المطبخ تحضّر لطعام الغداء، فدقَّ أمين باب المطبخ وقال:" صباح الخير يا خالتي؟ كيف حالكِ؟"
- كيف حالك أنت يا أمين؟ تأخّرت اليوم كثيراً في الاستيقاظ... لقد شُغل بالي عليك". تنهّد أمين وقال لخالته:"الحمد لله جيّد...لم أستطع النوم جيّداً، لقد غفوت بعد السّاعة الثانية فجراً".
- لماذا يا حبيبي ما الذي شغلك؟
- سأذهب إلى الحمّام لأغسل وجهي وأعود إليكِ يا خالتي نكمل حديثنا ونحن نشرب فنجاني قهوة من يديكِ الحنونتين، لكي أشعر أني مستيقظ.
- حسناً سأعدُّ القهوة.

خرج أمين من الحمّام وعاد للمطبخ عند خالته، وهو ينوي أن يفاتحها بالموضوع وهو بكامل الجديّة فقال لها: "خالتي أنجلس ونتحدّث قليلاً وبعدها نكمل تحضير الغداء؟
- نعم عزيزي ها هي القهوة جاهزة، سنحتسيها ونتحدّث... هيّا إلى الشّرفة.

جلسا بالشّرفة ليتحدّثا، وأخذ أمين فنجانه وبدأ يحتسي القهوة وهو صامت، فقالت له خالته: "بماذا تريد أن نتحدّث، قل لي أراك صامتاً؟"

نظر إليها أمين نظرة حزن وأجابها: "لا شيء خالتي...لا يوجد شيء محدّد في بالي، لكن أخبريني هل تشعرون أني عبء عليكم؟"

استغربت الخالة من السؤال وقالت في بالها (ربّما سمع أمين أبا يزيد وهو يتكلّم البارحة)، فأجابته بحماس: "كلا على العكس يا حبيبي... نحن مسرورون جدّاً بوجودك معنا، لكن تأخّرك فقط هو الذي يقلق عبد الرّحمن".

نظر أمين إلى خالته وضحك ضحكة صفراويّة وقال لها: "حسناً خالتي فهمت... لن أزعجكم بتأخّري بعد الآن"، ثمَّ شرب فنجان القهوة وعاد إلى غرفته وأغلق الباب لا يريد

الخروج منها، فهو يشعر أنه مكتئب حزين لا يرغب برؤية أحد، وتذكّر الأيام القليلة التي قضاها في بيت جدّته، وكيف تخلّصت منه، جلس يفكّر... ويفكّر.

استغربت الخالة جدّاً من عدم خروجه من الغرفة، حتى أنه لم يساعدها -كالمعتاد- في أعمال البيت وتحضير الطّعام، لقد شعرت بالقلق عليه، ووقت الغداء نادته لكي يتناول الطعام، فأجابها أنه يريد النّوم لأنه يشعر بالتعب.

الفصل الثامن

طرقت الخالة علياء باب غرفة أمين قرابة المغرب، وقالت له:"أتسمح لي بالدّخول يا أمين؟"أجابها أمين: "تفضّلي"فجلست بجانبه على طرف السّرير وسألته"لماذا تحبس نفسك هكذا منذ الصّباح؟ أنا معتادة على وجودك في البيت ومساعدتك لي".

أجاب أمين "آسف خالتي... سأساعدكِ غداً إن شاء الله، فأنا حقّاً أشعر بالتّعب"

– لا يا حبيبي... لا أقصد أنني أريد المساعدة، بل افتقدتك معي فأنت ونيسي بالبيت؟ ولماذا لم تخرج وتذهب مع أصدقائك؟

أنزل أمين رأسه وقال لخالته:"أريد أن أريح عمي عبد الرّحمن من خروجي وعودتي متأخّراً".

– لا يا أمين، عبد الرّحمن لا يقصد شيئاً بكلامه، قم هيّا وغيّر ملابسك واخرج لِتُرفِّه عن نفسك، فأنت طوال اليوم تحبس نفسك في هذه الغرفة.

نظر أمين لخالته وأجابها "لا يا خالتي لا أريد الخروج فأنا حقّاً أشعر بتعب وإرهاق"

خافت الخالة وسألته بقلق "أحقّاً؟ وبماذا تشعر؟ هل أعطيك مسكّناً!"

وضع أمين يده على صدره وقال لها "لا أريد مسكّناً، فأنا أشعر بضيق بسيط في صدري، ضغط على أضلُعي ".

– منذ متى يا أمين؟ فأجابها "منذ أن استيقظت يا خالتي".

– أتريد الذّهاب إلى الطّبيب؟

– لا... لا يا خالتي سيزول الألم بعد قليل.

– هل أتركك لترتاح؟

– لا يا خالتي، ابقي معي قليلاً... أريد أن أقول لكِ شيئاً.

– ماذا يا عزيزي.

– خالتي... خطر ببالي فكّرة جيّدة، مريحة لكم ولي أيضاً.

– ما هي الفكرة المريحة؟ وبخصوص ماذا؟

– بخصوص موضوع البارحة.

استغربت علياء: "البارحة! ما قصدك؟ آه... أغضِبتَ من عبد الرّحمن عندما تكلّم معك بصوت عالٍ عن موضوع التأخير؟ "

– يا خالتي... أنا لا أغضب من عمي عبد الرّحمن هو بمثابة والدي، وربّما يتكلّم كلاماً جوهريّاً، ويخاف عليّ من التأخير خارجاً. لكن أنا أتأخّر لعدّة أسباب أريد أن تُفهميها لعمّي ولكي لا يظنّ بي أيّ سوء، السبب الأوّل لخروجي والتأخير هو أنه بعد العصر لا يوجد شيء أفعله في البيت، فأشعر بالملل الشديد، فأذهب مع رفاقي لنتسلّى، والسبب الثاني وهو الأهم أنني لا أريد أن أبقى في البيت ساعات متواصلة لكي لا أسبّب إحراجاً لأيٍّ منكم، فأنا جديد في البيت عندكم ولم تعتادوا على وجود شابٍ بينكم طوال الوقت بلا فائدة، فأخرج لأخفف

قليلاً ولتأخذي راحتكِ أنتِ وعمّي عبد الرّحمن ربّما تريدان التحدّث بمواضيع سريّة، أو تحبّان أن تجلسان مع أطفالكما دون أيِّ أحد غريب... لا أدري!

– لماذا تقول هذا الكلام يا أمين؟ نُحْرَج نحن منك؟ أنت منّا وفينا يا حبيبي.

– أرجوكِ خالتي... أنا أعرف وأشعر بمدى الإحراج الذي تعيشونه بسببي، هذا بالإضافة للمصروف الزّائد الذي أصبح يتزايد بوجودي... أريد أن أسألكِ سؤالاً، أنتِ قلتِ أنَّ أمي – رحمها الله – تركتْ لي رصيداً بالبنك، وعمارة فيها شقق للإيجار، أليس كذلك؟

– بلى... صحيح، ماذا تقصد بسؤالك؟

– أيوجد يا خالتي شقّة فارغة في هذه العمارة؟ أريد أن أستفيد من ذلك؟

– نعم... يوجد شقّتان في الطّابق الأخير، لا أحد يحبُّ أن يستأجرهما، لأنَّ السطح دائماً يسيل من ماء الشّتاء على أسقف الشقق الأخيرة، ممّا يؤدّي إلى العفونة الدّائمة والرّطوبة.

– حسناً لا مشكلة، سنعمل صيانة للسّطح وأسقف الشقّتان من الدّاخل، وأسكن أنا في إحداهما، وهكذا سأريح عمّي من تأخيري ومن تساؤلاته.

– أعوذ بالله... أتتركنا وتسكن وحدك؟ أتريد أن تبتعد عن خالتك مرّة أخرى يا أمين؟

– خالتي أرجوكِ... لن أتركَكِ، سأزوركم كلَّ يوم هذا أكيد، فأنتم أهلي وليس لي غنى عنكم أبداً، ولكن هذا الحلُّ الأفضل للجميع.

– لا يا أمين لن أبعدك مرّة أخرى، وكيف لك أن تعيش في شقّة وحدك، من سيهتم بأمورك؟ لا... لن أوافق!

تنهّد أمين وقال:"أرجوكِ خالتي... لا يهم، لا أريد أحداً يهتمُّ بي، فأنا طيلة عمري أدّبر أموري وحدي منذ طفولتي، أما الآن فلن يؤثّر هذا الموضوع عليّ، سأهتمُّ بكلِّ شيء، فأنا شاب وسأعتمد على نفسي، لا فرق... فالسنوات الماضية علّمتني الكثير". فسكت وهو حزين على مرارة الوحدة التي عاشها في أولى حياته، ولقد استرْجعتها ذاكرته سريعاً.

– لا يا أمين، لا تقل أنك وحيد فأنا سأكون معك حتّى بقية العمر، أنت بمثابة يزيد يا حبيبي، كيف ستبتعد وأنا ماذا أفعل؟

– حسناً يا خالتي... ما رأيكِ أن نأخذ الشقّتين المتقابلتين، واحدة أسكن بها أنا، والثانية لكِ ولعائلتكِ، وهكذا نبقى قريبين من بعضنا، ولن أضايق أحداً ولن أحرج أيَّ شخص، ولا أحد يراقب دخولي وخروجي ويتأثّر. كلٌّ واحد له منزله الخاص.

– وهذا البيت ماذا نفعل به؟ إنه بيت العمر يا حبيبي.

– سيبقى ولن نفعل به شيئاً، أقفليه وحسب وزوري البيت من فترة إلى أخرى، فأنا أيضاً أحبّه وهو بيتي الذي ولدت فيه.

– حسناً سأفكّر وأسأل عبد الرّحمن.

وفعلاً ذهبا في صباح اليوم التالي إلى البناية المؤجّرة، وفتحا الشقّتين اللّتين في الطابق الأخير، كانتا تماماً مهجورتين، فالأسقف متعفّنة والجدران متآكلة من الرّطوبة، فأقنع أمين خالته بعمل صيانة كاملة للمنزلين، وبعدها يسكنون بأمان، وفعلاً ذهب أمين إلى البنك وعمل كشفاً لحسابه

وكان خمسين ألف دينار تقريباً، فذُهل من المبلغ الكبير، وذهب إلى خالته ليسألها عن سرِّ المبلغ، فشرحت له كيف كانت تذهب كلّ سنة إلى المستأجرين وتأخذ الإيجار منهم، وتضعه في حسابه بالبنك، هذا بالإضافة إلى أنَّ الحساب كان فيه أربعة آلاف دينار قبل أن تبدأ الخالة بكفالة ورثة أمين، كما أنها كانت تأخذ فقط قيمة الزّكاة سنوياً، وتدفعها تبرّعاً للمدرسة الداخلية التي كان أمين يسكن فيها، وهذه وصيّة من أمه كردٍّ لجميل المدرسة التي اعتنت بالطّفل.

فسُرَّ أمين جداً وشعر أنَّ بإمكانه تدبير أموره جيّداً، والالتحاق بالجامعة ودفع كامل أقساطها، فشكر خالته، وبعدها أخذ مبلغاً من المال وباشر بعمل الصّيانة اللاّزمة للشقّتين، وبعد ثلاثة أسابيع أصبحتا شقّتين من أروع الشقق، وأصبح السطح معزولاً تماماً لا يؤثّر فصل الشتاء على الأسقف، وما هي إلا أياماً معدودة حتّى بدأت الخالة ترتّب أثاث البيت في شقتها، أما أمين فقد ذهب إلى الأسواق واشترى مجموعة أثاث من الطّراز الحديث والجميل لشقّته، وكان مسروراً جدّاً بها وبالتّطور الذي حصل له، لقد شعر أنه يملك الدّنيا، وشعر أنه حقّق أوّل شيء في حياته من اختياره هو، لقد اختار مكان سكنه بمفرده، ووضع لمساته وأفكاره بحريّة تامّة، ولأوّل مرّة أحسّ أنّ الحياة تبتسم أمامه ابتسامة لطيفة بعدما شتّته مرّات عدّة، فهو مستقر في بيت يملكه هو، قالت له خالته: "لأوّل مرّة أراك مسروراً لهذه الدّرجة يا أمين!".

- نعم يا خالتي الجميلة، إنني أشعر أنَّ الحياة الآن بالألوان قد كانت بالنسبة لي أبيضَ وأسودَ، وغداً سأذهب لأقدّم طلب الالتحاق بالجامعة مثل صديقي هاني، وأدرس ما أحلم به إن شاء الله، اعتقدت في البداية أنني غير قادر على الالتحاق بالجامعة للأسباب المادّية، ولم أنتبه إلى ورثة والدتي رحمها الله.
- ماذا تحبّ أن تدرس الآن؟
- أريد أن ألتحق بكليّة الهندسة وأدرس الهندسة المعماريّة، أظن أنَّ معدّلي في الدّراسة الثانوية يسمح بدخولي كلية الهندسة.
- طبعاً أكيد، فأنت من المتميّزين ومعدّلك عالٍ يؤهّلك لدراسة الهندسة.
- إن شاء الله خالتي، وسأبدأ في تحقيق أحلاّمي كاملة من الآن فصاعداً، لقد حان الوقت للخروج من القفص والتحليق عالياً، سأرى العالم وأتعرّف على الناس جيّداً، وأدخل في تفاصيل الحياة السّهلة والصّعبة، وبيتي هذا كان حُلماً بعيداً، أنا مسرور..."
- حمداً لله يا أمين، افعل كلّ ما تراه مناسباً وتحلم به، لكن أرجوك دون تهوّر.
- تهوّر؟... خالتي ماذا تقصدين؟ أحلامي بعيدة كلَّ البعد عن التهوّر أحلام بسيطة، بعد أن ألتحق بالجامعة، أريد أن أتعلّم قيادة السيّارة وأن أشتري سيّارة جميلة وبسيطة، وأريد أن أمارس رياضة بناء الأجسام في نادٍ ممتاز... أشعر أني بحاجة لبُنية جسديّة قويّة نوعاً ما، وبعدها أتخرّج من الجامعة وأعمل... وهكذا!
- أنت شاب لطيف وطموح يا أمين...
- ما دام قلبي ينبض سأبقى أحلم يا خالتي؛ لأنَّ الأحلام الجميلة لا تنتهي، وسأحلم وأحقق بإذن الله.

لم يعد أبو يزيد يسأل عن خروج أمين وتأخّره، لأنه لم يعد يراقبه كالسابق بل بالعكس أصبح يهتم ويوصي علياء به، ويسألها دائماً: "أتذهبين يا علياء عند أمين وتطمئنّين عليه؟ أترسلين له الطّعام عندما تطهين للغداء...أتنظّفين له البيت؟".

أجابته علياء: "يا عزيزي لا تقلق، أمين عندما يخرج إلى الجامعة يترك المفتاح معي دائماً، وقرّر أن يعطيني نسخة من المفتاح لتبقى معي للاحتياط، فأدخلُ كلَّ يوم في الصّباح لبيته لأرى إن كان يحتاج أيّ شيء، ولكن أمين لا خوف عليه، أرى كلَّ شيء نظيفاً ومرتّباً حتى أنَّ غرفته مرتّبة، وكلُّ شيء مصفّفاً في مكانه...ثمَّ أَذهب إلى المطبخ فأرى جميع الأواني نظيفة ولا شيء متّسخ".

– أيُعقل! ربّما يا حبيبتي لا يستعمل أيَّ شيء من أغراض البيت، أو لا يجلس في البيت حتّى أنَّ كلَّ شيء يبقى في مكانه.

– كلا يا عبد الرّحمن فبعد الجامعة لا يخرج من البيت أبداً، فقد أصبح يستقبلُ أصحابه في بيته بدلاً من السّهر عندهم، ويعدّلهم الطّعام، ويرتّب كلَّ شيء بعد ذهابهم.

التحق أمين بكلية الهندسة، وصديقه هاني كذلك، بداية دراستهما استُهلّت بكلِّ جدٍّ وحماس واجتهاد، أما أسامة فقد التحق بكلية الآداب.

اعتاد أمين يوميّاً على الدّراسة في مكتبة الجامعة، فيذهب كلّ يوم إلى هناك بعد انتهاء محاضراته بدلاً من عودته إلى البيت، فجوّها هادئ والكلُ ممعنٌ النّظر بكتابه، فبالتالي محصّلة دراسته في المكتبة أفضل من أن يدرس في البيت بجوِّ الوحدة.

في يوم كان يجلس يذاكر بعض المواد الدراسيّة، إذ تسلّلت نظراته بدون استئذان للطّاولة المقابلة له... هناك تجلس هي، ترتدي قميصاً أبيضاً وتضع حول عُنقها عقداً من أحجار كريمة ناعمة ملونة بألوان ترابية. تكتب موضوعاً ويظهر أنه مهمٌ لأنها لم ترفع رأسها عن الدّفتر والكتاب، أمين ينظر إليها بين الحين والحين دون أن تنتبه، لم يعرف من هذه، وفي أيِّ كلية تدرس...لكن مجرّد هي...

فقال في نفسه:"ما بالي أكرّر النّظر بهذه الفتاة؟ هل أُعجبتِ ياعيني بها؟ لا... لا يا عيني، عليكِ بغضِّ البصر، لم نعتد يوماً على ذلك، ولم تكوني لتفعلي هكذا. سأغيّر مكاني أفضل".

في اليوم الثاني كان أمين مع هاني بالاستراحة المخصّصة للجامعة، والاستراحة كبيرة ممتلئة بالطّاولات التي تعجُّ بالطّلبة، يجلسون جماعات على كلِّ طاولة، فمنهم من يضحك بصوت عالٍ، ومنهم من يتناقش بمواضيع حماسيّة، وبعضهم يوزّع نظرات وابتسامات، والمعظم يأكل أو يشربُ شيئاً، فالاستراحة مفعمة بالحيويّة والنشاط. والضّجيج ليس له مثيل هناك، إضافة إلى صوت المذياع العالي، الذي يصدر أنغاماً بألوان مختلفة.

إذ رأى أمين الفتاة مرّة أخرى تجلس مع صديقة لها، تشربان المرطّبات، فعلقّ أمين نظره بها من غير قصد، انتبه إليه هاني وقال له: "أأعجبتك تلك الفتاة حتّى تنظر إليها بتمعّن؟".

فأجاب أمين بتردّد:"لا...لا.. ربّما لا أدري! لقد رأيتها البارحة في المكتبة وأنا أدرس، لذلك أتأكّد إن كانت هي أم لا؟

– هل تكلّمت معها البارحة؟
– كلا، لقد كانت غارقة في الكتابة، ولا يوجد هناك مناسبة لأكلّمها... ولماذا أكلّمها؟
هاني وهو يضحك:"لا يُرِدْنَ الفتيات مناسبة حتّى تكلّمهن، اذهب وتكلّم معها من باب أنك تريد التعرّف عليها كزميلة لك بالجامعة أو بالمكتبة وهكذا، نحن هنا يا أمين لنعيش حياتنا، لقد خرجنا من السّجن الدّاخليّ أنسيت؟ ألم نتّـفق أن نعيش حياتنا هيّا؟
– أعوذ بالله ماذا تقول!! نعيش حياتنا نعم...لكن ليس هكذا.... اذهب عني.
– لن أتركك وحدك يا أمين.



الفصل التاسع

أمين بطبعه خجول محافظ على دينه ويحاول الالتزام قدر المستطاع، طبعه هادئ منذ الطفولة، كما أنه لا يشعر بالجرأة الكافية للتحدّث مع الفتيات، وإن لم يحادثنه الزّميلات في الجامعة لا يتكلّم معهنّ أبداً.

الأجواء ما زالت غريبة عليه، فشهر مضى له في الجامعة لن يغيّر ما حفرت به السنين في مدرسته الداخلية، المدرسة الملتزمة والمحافظة على تعاليم الدّين..البعيدة كلِّ البعد عن الاختلاط.

كل يوم في نفس الوقت كانت الفتاة هي وصديقتها تجلسان في الاستراحة، وكان أمين وهاني ينتهيان من المحاضرة الأولى، يدخلان للاستراحة ليأكلا شيئاً، فيرى أمين هذه الفتاة جالسة في مكانها.

مرّة أخذ ينظر إليها فلاحظت الفتاة، وأصبحت تتفادى نظراته، فانتبه أنه ربّما يزعجها من دون قصد، فقام وخرج مسرعاً خارج الاستراحة وحاسب نفسه على فعلته، ومرّة أخرى كان أمين وهاني يجلسان يأكلان الشطائر في الاستراحة، فقال هاني لأمين: "انظر هاهي فتاتك المفضّلة قادمة تريد الجلوس، لا تحدّق الآن بها كالأبله".

فأجاب أمين: "هي ليست فتاتي... وأنا لست كالأبله يا هاني! حسناً قل لي ماذا أفعل... ولا تتركني محتاراً، لا أخفيك ربّما أُعجبت بها، لكن ما عساي فاعل وأنا لا أُحبِّـــذ الخوض بهذه الأمور لكي لا أقع بالشبهات ومن ثمَّ المُحرّمات!"

وبكلِّ استهتار وسخرية أجاب هاني: "أيِّ شُبهات وأيِّ محرّمات؟؟ سنذهب ونجلس معهما ونتعرّف عليهما، هكذا يكون الكلام التمام.

– لا...لا أستطيع أن أكلّمها، ولا يوجد أيَّ شيء أقوله لها، لا ينفع اقتراحك السيّء، أنا فقط أريد أن أعرف اسمها... وفي أيِّ كلية تدرس؟ لا أريد أن أخوض تفاصيل أخرى.

– أنت أبله فعلاً، أيوجد شاب يفكّر مثلك! تريد اسمها فقط؟ وماذا تفعل باسمها يا حبيبي؟ ... تغليه وتشربه دواءً للإعجاب؟

– ماذا أفعل إذن؟ أريد أن أعرف اسمها لأتقدّم لخِطبتها.

فوقف هاني وقال: "أبهذه السرعة!! أتخطب الآن؟ أنت بلا شكّ مجنون رسميّ، هيّا بنانجلس معهما لنتعرّف عليهما أوّلاً...."

– لا لا... لا أريد أن أتعرّف على أحد، غيّرت رأيي.

– يا لك من جبان – وقام هاني وذهب إلى طاولة الفتاتين – وقال لهما:"مرحباً... أنا هاني، وذاك صديقي أمين عند تلك الطاولة، أحببنا فقط أن نستأذنكما في الجلوس معكما لنتعرّف عليكما، فنحن زملاء في نفس الجامعة ونرى بعضنا كلَّ يوم ولا نعرف بعضاً، أتسمحان لنا؟"

إحدى الفتاتين قالت:"نعم تفضّلا... بكلِّ سرور، أنا منال وهذه صديقتي ريم".

فأدار هاني رأسه لينادي أمين فلم يجده على الطّاولة، فاستغرب! ألقى نظرة للمكان، فوجده يجلس مع زملاء آخرين، فذهب إليه وأحضره رغماً عنه، فقدّمه لمنال وريم:"هذا صديقي العزيز أمين شاكر منذ أيام الطفولة، نحن في كلية الهندسة وندرس الهندسة المعمارية... هذه ريم وهذه منال يا أمين".

فقالت منال: "تفضّلا واجلسا"

جلس هاني وبقي أمين واقفاً متردّداً، فنظرت له ريم وقالت له: "تفضّل واجلس؟"

فأجابها أمين: "لا... لا أريد أن أسبب إحراجاً لكما".

قالت منال:"كلا تفضّل".

فسألهما هاني: "وفي أيِّ كلية تدرسان".

أجابته ريم وهي مبتسمة: "في كلية الآداب".

وظلّوا يتبادلون الأحاديث حوالي ربع ساعة من الزّمن، حتى استأذنتهما ريم وقالت لهما: "اسمحوا لنا الآن بالمغادرة، لدينا محاضرة".

وأضافت منال: "نراكما فيما بعد، فرصة سعيدة سررنا بمعرفتكما". وقامت الفتاتان وذهبتا.

نظر هاني بأمين وقال له: "هااا...ما رأيك بالفتاة عن قرب؟" وهو ينظر لأمين نظرة مكر وابتسامة شريرة.

فابتسم أمين بهدوء وقال: "ريم... اسم جميل... لم أعرفها جيّداً، ولم تتكلّم معي كثيراً بل كانت تكلّمك!.

ضحك هاني: "ربما أُعجبت بي، ولم تلتفت إليك أبداً".

عبس أمين وقال: "ماذا؟ أحقاً ما تقول؟ فأجابه هاني: "لا... أمازحك، لقد كانت تكلّمني لأنني كنت أسألها وأحادثها هي وصديقتها، وأنت تجلس كالمشاهد الذي يرى برنامجاً على التلفاز، لماذا لم تتكلّم يا أخي؟"

– لقد تكلّمت!

فردَّ هاني مستهزئاً:"أحقّـــاً!... عندما كنت تُسأل فقط!".

– يا هاني كنت متردّداً من الجلوس، وأشعر بتأنيب الضمير ولا أشعر بالارتياح، هذه بداية طريق غير مسموحة، ونحن بغنى عنها، لن أجاريك في المرّات القادمة.

– من أيِّ عصر أنت؟! نحن بالجامعة، لا تكن معقّداً، نحن نجلس باحترامنا والفتيات كذلك، ولسنا في مقهى أو نادٍ ليليّ. أنظر حولك الكلُّ يجلس مجموعات يضحكون ويمرحون، هيّا...هيّانحن زملاء...وسأحاول أن أكسب صداقتهما فهما حقّاً متميّزتان.

***

جوُّ الجامعة لا يترك أحداً بحاله وربّما ينساق الشخص لأهوائه، ويوماً بعد يوم أصبحت علاقتهم أقرب للصّداقة من الزّمالة، لقد عَرّف هاني الفتاتين على مجموعة طلاب الهندسة فأصبحوا مجموعة أصدقاء من طلاب الهندسة المعمارية و طلاب الآداب، إضافة إلى ذلك، فإنَّ أسامة صديقهم هو طالب بنفس كلية الآداب مع ريم و منال مما زاد معرفتهم ببعضهم.

دائماً كانوا يجلسون في فترة الاستراحة معاً كمجموعة فريق واحد تجمعهم روح الصداقة والاحترام المتبادل.

لكن بالنظر لمثل هذه الصورة الملتقطة بألة تصوير أذهاننا والموجودة حقّاً بالمجتمع وبكثرة في الجامعات، كيف يُحلّلها مختبر الحياة بعد زمن وما نتيجة تحاليل هذه العلاقات؟

***

اختارت المجموعة لكلِّ شخص منهم لقباً، ينطبق على شخصية حامل اللّقب، وما هذه الألقاب إلا نتيجة تعاملهم مع بعضهم واندماجهم معاً في روح الفريق، فكان هاني مثلاً يلّقب (بزعيم الشلّة)، لأنه دائماً يحبُّ أن يفرض رأيه ويأمرهم بتنفيذه وإطاعته، وأسامة كان يُدعى (حزب المعارضة)، دائماً له اعتراضات منفردة عن كلِّ أعضاء المجموعة، أما رامي فهو يدرس في كلية الهندسة المعمارية أيضاً، إضافة إلى ذلك أنه أخٌ لمنال عرّفتهم عليه، فتفاجأوا بأنه أخوها، رامي يكبر منال بسنة واحدة وهو بالسنة الجامعية الأولى كباقي الفريق، لأنه أعاد الثانوية العامّة لإصراره على تحصيل مجموع عالٍ والدّخول كلية الهندسة، وهم يلقّبونه (بالطّالب النّجيب)، أما أمين فكانوا يلقّبونه (بالحكيم المتردّد)، فهو بعيد عن الطّيش، ويحب أن يتصرّف بعد تفكير عميق بكلِّ أمر بحكمة وعقلانية.

أما باقي المجموعة فَهُنَّ الفتيات، وكانوا يكرهون أن يلقّبهنَّ أحد بألقاب أخرى غير أسمائهن الأصلية، ريم مثلاً لقبوها (بالحسّاسة)، لأنها لا تتحمّل المزاح وتبكي فوراً، وتغضب إذا قال لها أحدهم يا حسّاسة، ومع ذلك كانت تُعجب أمين جدّاً بحساسيتها التي لا يُطيقها الجميع، فقد كان يتعاطف معها ولا يحبُّ أحداً أن يُثْــقل عليها بالمزاح والنقد أو بالكلام، ولديهم صديقة تدعى ديالة فلقبها (محامية الدّفاع)...كانت تحبُّ أن تدافع عمَّن يكون مظلوماً من أعضاء الفريق (الشّلة). وديالة هي صديقة ريم من أيام المدرسة، هي في كلية الهندسة أيضاً، وهناك منال صديقتهم في كلية الآداب، كانوا يلقّبونها (بالتّــفاحة)، لأنها كل يوم تحضر معها تفّــاحة، وتتناولها في فترة الاستراحة، ووجهها دائم الاحمرار كالتفّاح، وصديقتهم الأخيرة هي نسرين فهي الملقّبة (بالهادئة)، لأنها تفعل كلَّ شيء بهدوء، حتى أنها تتكلّم بهدوء ونبرة صوتها منخفضة، فهي خجولة نوعاً ما، ومحبوبة من زميلاتها، وهي تدرس الهندسة المعمارية، وهي الوحيدة في المجموعة من الفتيات التي ترتدي الحجاب ودائماً تحاول وتبذل جهدها بإقناع صديقاتها بارتداء الحجاب وسحبهم للصلاة في المصلّى.

***

كان أمين عندما ينظر في وجه ريم يشعر بالرّاحة والاطمئنان، متفاجئاً من هذا الاحساس الذي ينتابه ولا يرى له تفسيراً إلا الحيرة، وكلّما أراد الحديث مع ريم كان الكلام يهرب ويتحوّل لصديقتها منال، فقليلاً ما يتحدّثان... وكثيراً ما تأتي عيناه خاطفةً بعينها، وكأنَّ كلّ واحد منهما يريد أن يقول للآخر شيئاً مهماً، لكن لا كلمات تُسعف الموقف، ولا تجربة سابقة تساعد في خوض هذه العلاقة، والأهم يبقى أمين خائفاً من الانجراف بتيّار الحبِّ، ومخافة الله بين عينيه تجعله

يتراجع إلى الوراء، كان أمين يكتفي ويسعد عندما تجمعهما الصدفة عند بوّابة الجامعة في الصّباح، أو عندما يكون الكرسيّ فارغاً بجانبه في الاستراحة، لتجلس هي عندما تأتي من محاضراتها، لكن قلبه يحترق ويدقُّ ويتسارع، يريد أن يمسك طرف الخيط ويبدأ لعلَّ الله يجمعهما بعلاقة شرعيّة، ولكن يتساءل دائماً: "كيف لي أن أعرف إذا كانت تحبّني أم لا، ولطفها معي على ماذا يدل؟ على حبّها لي؟ أم هي لطيفة هكذا مع الجميع؟"ويعود ويقول:"لا... لا أريد أن أعرف، أخاف أن أفقد لذّة الوهم الذي أعيشه، فأنا أصبحت أحبُّ الحياة وأتفاءل جداً كلّ صباح، من أجل أن أرى وجهها كلَّ يوم، أشعر أنني أذهب إلى الجامعة من أجلها، وأدرس وأجتهد من أجل ألا أصغر في عينها، هل يعني أنني سجين لحبّها؟ هل هذا حرام يا الله؟ ماذا يجري لي؟

في الاستراحة يجلس أمين وهاني يتحدّثان، دائماً كان أمين يشتكي لهاني عن الظّروف الوهميّة التي يعيشها بحبِّ ريم، ويسأله: "هل ريم تحبّني...هل تلاحظ عليها أنها تحبّني؟ ألا يظهر ذلك يا هاني؟"فهاني يجيبه: "لا أدري... لا أعرف، يجب أن تشعر أنت وليس أنا، فالموضوع يخصّك، لا أقدر أن أجاملك وأقول لك إنها تحبّك".

فأجاب أمين بيأس: "صدّقني لا أستطيع أن أتأكّد، لكن أشعر أنها تبادلني الشعور" ردَّ هاني بعصبيّة: "قلت لك مئة مرة اذهب وصارحها لكي ترتاح، إما أن تكمل المشوار... أو أن تُنهي الموضوع بينك وبين نفسك، فأنت تعيش في دوّامة وتمشي في حلقة مغلقة، وطريقك غير واضح، استفسر وامشِ بطريق مضمون، ولا تهلك نفسك أو تغرقها بحبٍّ ربما يكون مبنيّــاً على الأوهام".

أنزل أمين رأسه وعيناه تنظران إلى الأرض، وقال بحزن شديد:"كلا لن أحاول أخاف...!"

صرخ به هاني: "تخاف أيها الجبان! من ماذا تخاف؟"

– لا تصرخ في وجهي، قال أمين وهو عابس وأكمل: "أخاف من شيئين اثنين، الأوّل أخاف من مواجهة الموقف لا أستطيع البوح... بأيّ أسلوب أبدأ الكلام معها؟...لا أدري لا أريد أن تفهمني خطأً، والشيء الثاني أخاف من ردّة الفعل، لا أعرف كيف سيكون جوابها، هل سينتهي الحبُّ مجرّد أنني صارحتها وهي رفضتني؟ لا أريد أن أخسرها، أتفهم؟ وبعدها كيف سيكون موقفي أمامها؟ كيف سأجلس معكم وأراها يومياً وهي لا تحبّني؟صدّقني سيكون موقفي حرجاً".

غضب هاني من أمين وأصبح يوجّه له كلاماً قاسياً يجرح:"أنت جبان وأحمق، وساذج أيضاً، لا أعرفك هكذا، ما بك؟ ماذا يجري لعقلك، إن لم تذهب غداً وتحلُّ الموضوع سأذهب أنا وأفضحك".

لقد أثار هاني غضب أمين وعلا صوت أمين وقال: "لقد تماديت يا هاني... لماذا تُخطئ في حقّي هكذا؟ نحن أصدقاء ونعرف بعضنا جيداً، وتعلم أنت كيف كنّا مخنوقين داخل تلك المدرسة، لا خروج ولا حتّى علاقات مع الناس في الخارج، ولم نكلّم فتاةً في حياتنا وفوق هذا كلّه أخاف من الله عزَّ وجل، أرجوك الموضوع صعب بالنسبة لي".

قال له هاني بغرور: "نعم أحسنت... الموضوع صعب بالنسبة لك فقط، أما أنا مختلف عنك تماماً، أنا لم أكن محبوساً، كنت أقضي عطلة الصّيف في بيت أهلي.. أتذكر؟ أخرج ثلاثة أشهر وأرى الناس والفتيات وكلَّ شيء، أمي وأبي كانا يأتيان بالصّيف ويأخذاني، فأنت تعلم جيداً طبيعة عملهما تتطلّب السفر المتكرّر، ولهذا السبب كنت أنا في تلك المدرسة الداخلية، وليس لأنّ أهلي رموَا بي في الشّارع".

نظر أمين إلى هاني بصمت شديد ونظرة غضب، وأخذ يحاول أن يتمالك أعصابه وقال بكلِّ هدوء:"قم واذهب من هنا يا هاني لا أريد أن أراك، لا يجدر بك أن تجلس معي أصلاً، فأنا ابن شوارع... صدقت بكلامك، لا أم... لا أب". هزَّ أمين رأسه وقال: "أنت من عائلة مرموقة وتربّيت على الدّلال، هيّا قم واتركني وحدي، سأتصرّف بموضوعي كما يحلو لي".

أزاح هاني الكرسي الذي يجلس عليه بغضب شديد وقام من مكانه بسرعة وذهب. شاهدت ريم ومنال الموقف وهما قادمتان، وتفاجأتا لأنهما تعلمان أنَّ أمين وهاني صديقان لا يختلفان، فسألت ريم أمين عندما وصلتا لطاولته: "ما بال هاني، لماذا قام هكذا بعصبيّة وترك الاستراحة وخرج؟ لقد رأيناه من بعيد يتصرّف بعصبيّة، أحصل شيء بينكما؟"

أجاب أمين: "لا..."ووقف هو الآخر وذهب.

فسألته منال بصوت عالٍ: "إلى أين؟"فلم يجب أمين ولم يلتفت للوراء وخرج.

جلست ريم ومنال حول الطاولة نفسها وقالت ريم لمنال:"ما بهما... هل أصابتهما عين بحسد؟"

– قال منال: "أتدرين يا ريم ... أنا معجبة بأمين، فهو شاب مهذّب وأنيق ومحترم ".

أكملت ريم قائلة: "ووسيم... ومعظم فتيات كليّته مُعجبات به"

– وأنتِ يا ريم؟ لا تقولي أنه لا يعجبكِ!"سألت منال.

– لا أدري، عندما أنظر في عينيه أشعر بشيء ما بداخله يريد التعبير عنه، أنا أراه مريحاً حسّاساً... لطيفاً، ربّما هذا هو الإعجاب؟"

– إذاً نحن الاثنتان معجبتان بنفس الشخص، أيـُعقل ذلك!!

– "هههه نعم يُعقل"أجابت ريم وهي تضحك، ثمَّ أكملت: "نعجب نحن الاثنتان أو واحدة لا فرق، فهو لن يشعر بنا ولن يعرف أننا معجبتان به."

– وهل يا ريم من الممكن أن يكون قد أحبَّ إحدانا؟

– لا أدري ولا أعتقد ذلك، هو لا يحبُّ الجلوس معنا كبقية الزّملاء... ولكن إذا أحبّني لن أتنازل لكِ عنه.

– "وأنا أيضاً لن أتنازل إذا كان العكس أيتها الجميلة هههههه"أجابتها منال وأخذتا تضحكان.

في هذه الأثناء ركب أمين سيّارة أجرة وعاد للمنزل، فهو انتهى من محاضراته لليوم، كان حزيناً لما حصل بينه وبين هاني صديق عمره، وصل أمين للمنزل كان جائعاً ومتوتّراً، ففتح الثلاجة وأغلقها ثلاث مرّات، نظر إلى الرفِّ الأوّل وقال: "هل آكل جبناً وخبزاً مع كأس شاي؟"وفي الرفِّ الثاني للثلاجة نظر للبنة وعلبة حمص، أما في الرفِّ السفليّ كان يوجد صحن أرز وعلبة لبن زبادي وثلاث حبّات طماطم، فأغلق باب الثلاجة وخرج من المطبخ وجلس في غرفة التلفاز

يُفكّر، ثمَّ خرج من المترل ودقَّ الباب على خالته، ففتحت له الخالة علياء: "أهلاً أمين تفضّل لقد عدتَ مبكّراً اليوم".

– "نعم خالتي" (أجابها أمين بملل).

– ألا تريد الدّخول؟.. تفضّل.

– خالتي أريد فقط أن أسألكِ إذا أعددتِ طعاماً للغداء، فأنا جائع ولا أريد أن أعدَّ شيئاً لنفسي أشعر بالملل والإحباط.

– نعم... نعم طبعاً يا حبيبي لقد طبخت دجاجاً محمّراً بالفرن مع البطاطا المحمّرة، لكن لمَ الملل والإحباط؟"

– هكذا بلا سبب...ألا تضعين لي بعض الطعام؟

– ماذا تقول يا أمين! ادخل سنأكل سوياً، وأخذت تشدّ بيد أمين إلى الدّاخل.

– حسناً...حسناً، سأدخل...

بعد أن تناول أمين طعام الغداء خرج إلى مترله ليدرس قليلاً، فوجد أسامة يطرق باب بيته، فقال مندهشاً:"أسامة؟ منذ متى وأنت هنا عند الباب؟".

فأجاب أسامة: "لا ليس كثيراً، أتيت الآن للتو وطرقت الباب... وأنتظر الإجابة إذ بك تخرج من مترل خالتك".

– نعم ذهبت لأتناول طعام الغداء"، وفتح باب مترله وأدخل أسامة "تفضّل يا أسامة ".

جلسا في غرفة الجلوس ونظر أسامة لأمين وقال له: "يا أمين أريد أن أكلّمك بموضوع"

فقال أمين: "عن الكلام الذي دار بيني وبين هاني في الجامعة؟"

– نعم يا أمين، هاني معه حقٌّ في كل كلمة قالها، فهو غاضب منك وثارت أعصابه بسبب قلقه الشديد عليك وحيرتك الدائمة، يريد أن يساعدك ولكن أنت لا تفهمه.

– لا... لا يا أسامة، الموضوع ليس كذلك، ما أغضبني وزاد المشكلة تماديه بالكلام معي، وفضّل نفسه عني وأنه هو من عائلة وأنا من الشارع، ألم يقل لك ما دار بيننا من حديث؟

– نعم يا أمين، لكن كلٌّ ذلك بغير قصد منه، إنها لحظة غضب ويجب عليك أنت أن تتحرّك لا تترك الأمور هكذا، أليس قصدك شريف وتريد خطبتها؟ مع أنّ الوقت ليس مناسباً الآن للزّواج فالدّراسة أولى، لكن أتكون مسروراً إذ جاء أحد آخر وأخذها منك وسبقك؟

أجاب أمين بحيرة: "أنا لا أحسن التصرّف بمثل هذه الأمور"

– يا أمين الحياة مسابقة على كلِّ شيء والشاطر الذي يسبق بالنهاية، وعليك أن تتحرّك قبل فوات الأوان، أتعرف المثل الذي يقول: "الطائر المُبَكِّر يفوز بالدّودة "

– لا يُعجبني هذا الكلام يا أسامة فالحياة قسمة ونصيب...

وقف أسامة وقال لأمين: "أركض أنت وراء نصيبك... لكن أوّل شيء أريدك يا أمين أن تفعله هو أن تتصالح مع هاني وتفكّر بكلامه وكلامي. الآن اسمح لي أريد أن أذهب".

– لم نشرب شيئاً بعد، ولم نجلس الوقت الكافي".

– أرجوك أنا مستعجل جداً لديّ مقابلة عمل، ادعُ لي بالتوفيق، يجب أن أحصل على وظيفة لأتمكّن من الصرف على نفسي، فالحياة لا ترحم والمصاريف تزداد". وتوجّه أسامة إلى الباب يريد مغادرة بيت صديقه... فقال له أمين: "بالتوفيق يا أسامة...أشكرك...ومع السلامة".

فكّر أمين جيّداً بكلام أسامة وذهب لمترل هاني لمصالحته، وهاني أيضاً بدوره اعتذر لأمين لأنه شعر أنه هو المخطئ وليس أمين.

ثمَّ قرر أمين أن يذهب للجامعة غداً صباحاً في وقت مبكّر، ليجلس مع ريم ويبدأ بحياكة معطفٍ لها من الحُبِّ كالذي يرتديه. هو يعلم أنَّ ريم تأتي كلَّ يوم مبكّراً للجامعة حوالي التاسعة، قبل موعد محاضراهّا بساعة، فقال:" ساعة تكفي لكي أرتّب كلامي وأقول ما أريد وأحسم الأمر".

وفي صباح اليوم التالي استيقظ أمين باكراً وأخذ حمّاماً وحلق ذقنه، ثمَّ وقف أمام خزانة ملابسة ليختار شيئاً يلبسه فأخرج حوالي ثلاثة سراويل وأربعة قمصان، فهو يحب دائماً أن يرتدي ملابس مرتبة وأنيقة، فكيف لا وهو يريد أن يخطو خطوة جديدة في حياته؟ فمن المؤكد أنَّ مثل هذه المناسبة تحتاج إلى ملابس خاصّة وأنيقة. في النهاية استقرَّ على بنطالٍ أسود من الكتّان وقميص زيتيّ اللّون ذي النصف كُم، ووضع عطره المعتاد الذي لا يحب أن يغيّره، فهو يؤمن أنَّ العطر جزء من شخصيته الثابتة، لا يستطيع تغييرها أو تبديلها، فيتمسّك به كمبدأ، ثم سرّح شعره القصير البنيّ الغامق، وخرج مسرعاً للجامعة.

***

دقّات القلب تتسارع والنفَس قد تغيّر حين وصل أمين إلى باب استراحة الجامعة من الخارج، ولدى دخوله الاستراحة استغرب من منظرها العام، فهو لم يعتد أن يراها فارغة، ففيها عدد قليل من الطلبة، والطّاولات مرتّبة بأماكنها، دون أن تكون قد انتقلت من مكان لمكان وهي تعجُّ بالطلبة في وقت الظّهيرة، فالوقت مبكّر و إشراقة الشمس الجميلة، تمدُّ خيوطها الدافئة وتتخلّل نوافذ الاستراحة، فتشعُّ الطاولات نوراً جميلاً يُنبـــّئ بقدوم نهار سعيد. فأخذ أمين نفساً عميقاً ودخل ببطء...لكن عينيه كانتا مسرعتين قبله بالدّخول، صارت عيونه تمرُّ من بعيد بجانب كلِّ طاولة للبحث عن ريم فلم يجدها جالسة، فألقى بنظرة بعيدة إلى زاوية تقديم طلبات الطّعام والشّراب، فوجدها واقفة تطلب شيئا ما، فَسُرَّ لأنه وجدها، وذهب ليطلب شيئاً يشربه، وقف بجانبها وقال لها:"صباح الخير يا ريم، كيف حالكِ؟"نظرت له ريم بسرور وقالت له: "أهلاً أمين...! أراك جئت باكراً اليوم؟"

– نعم لقد استيقظت مبكّراً، ولم أجد شيئاً أقوم به في الصّباح، فقلت أحسن شيء أن أذهب للجامعة ما دمت أجلس دون فائدة في المترل.

أخذت ريم كوب القهوة الذي طلبته مع البسكويت، وقالت لأمين: "أنا ذاهبة لكي أجلس هناك"وأشارت إلى الطّاولة التي تضع عليها أغراضها"

ردَّ عليها أمين وقال لها:"أتمانعين من الجلوس معكِ؟"

– كلا تفضّل... فأنا أشعر بملل دائم وحدي في الصّباح... سأسبقك إلى الطاولة.

– حسناً يا ريم، سآخذ كأس الشاي وألحق بكِ"ردَّ أمين بكلِّ تفاؤل وأخذ كأس الشاي وذهب إلى طاولة ريم وهو يدعو أن تكتمل فرحته ويستطيع الكلام معها بكلِّ شجاعة، وكان خوفه أن يأتي أحد الأصدقاء أو الزّملاء ويجلس معهما، فيفسد عليه ما يحلم به.

سحب أمين الكرسيّ الذي بجانب ريم على جهة اليمنى من الطّاولة وجلس، وقال لها: "وأنتِ يا ريم، أعلم أنكِ تأتين كلَّ يوم مبكّراً، لماذا؟"

– لأنَّ أمي توصلني إلى الجامعة وهي في طريقها إلى العمل، شركتها قريبة من الجامعة، ويجب أن تكون في عملها بوقت مبكّر، فأضطر للوصول قبل ساعة من موعد المحاضرة وأحياناً قبل ذلك.

– ولماذا لا تجلسين مع أحدهم لكي لا تشعرين بالملل؟سألها أمين وهو يريد أن يعرف إذا كانت تهتمُّ بأمر أحد.

أجابت ريم بكلِّ هدوء: "لا أحد يأتي مبكّراً، فكلُّ الأصدقاء يأتون وقت المحاضرة تماماً، أحياناً أجلس وأُحضّر بعض المواد المهمّة قبل المحاضرات، وأحيانا أخرى أقرأ الصّحيفة لكي لا أشعر بالملل".

يريد أمين أن يبدأ بكلامه لكن الصمت أقوى في مثل هذا الصراع الذي يدور في نفسه، يبقى الكلام على طرف اللّسان، والكلمات لا تستطيع الخروج، شعوره بالإرباك هو الذي يؤخّر انبعاث الكلام من داخله، منظره العامّ وهو يشرب الشّاي بهدوء يدلُّ على أنه بارد الأعصاب، لكن هو بداخله يغلي كحمم بداخلِ بركان، الوقت يمضي والسّاعة تمرّ.

قال أمين في نفسه:"سأبدأ الكلام بأيِّ موضوع، فحديث يجرُّ حديث، لأصل لما بداخلي من تعابير تساعد على بوح ما بقلبي بطريقة أو بأخرى، وربّما أصبحتُ بعد برهة أجرأ على الكلام".

فبادرت ريم بالكلام وسألت أمين: "هل تحبُّ مادّة الهندسة، أم تدرسها كرهاً؟"

أجابها أمين باستغراب:"أحبها...لا بل أعشقها، ما هذا السؤال الغريب؟"

– "لا ليس بالغريب"وأكملت:"كثير من الطّلاب يدرسون اختصاصاتهم كُرهاً عنهم يكونون مجبرين من أهلهم، أو أنَّ معدّلهم في الثانوية هو الذي يحكم".

– قطعاً كلا!... لم يجبرني أحد على دراسة الهندسة فهي حلمي منذ زمن والحمد لله أسعى لتحقيقه.

– أنا يا أمين أدرس في كلية الآداب كُرهاً... لا أحبها، لقد كان حلمي أن أدرس الفنون، لكن أمي وأبي رفضا بشدّة، وقالا لي لا مستقبل لكِ في الفنون.

– لا مشكلة، كلُّ مجال يوجد فيه شيءٌ جميلٍ إذا حاولتِ أن تبحثي في داخله، ستجدين النقطة التي تحبّينها، ومن ثمَّ تنطلقين من هذه النقطة وتكملين طريقكِ فتحبّين المادة التي بين يديكِ، وتجتهدين فيها لتصبح بعد فترة هي كلُّ حياتكِ فتعشقينها، لأنك ستكونين قد تعايشتِ وتكيّفتِ معها، ولاتنسي فالأدب فنٌّ أيضاً.

– أتعتقد هذا يا أمين؟ هل سأحبّ...

– هل أحببتِ شيئاً لدرجة العشق؟" ... مقاطعاً كلام ريم.

– نعم أحبُّ غرفتي لدرجة كبيرة، بحيث أنني أقضي معظم وقتي بها وأستقبل صديقاتي فيها.
– وتحاولين أن ترتّبيها وتنظّفيها بنفسكِ؟
– نعم، كيف عرفت؟ فأنا لا أسمح لأحد ولا حتى أمي بترتيب أغراضي وتنظيف غرفتي، فأنا أحبُّ أن أكون المسؤولة الوحيدة عنها، وأشعر بالاستقلال فيها.
– هذا لأنكِ تحبّينها ولكِ خصوصيّات لا تسمحين لأحد أن يعبث بها.
– نعم... بالضّبط!
– لذا يا ريم عندما يعشق الإنسان شيئاً ما في الحياة، فإنه يخاف عليه ولا يحب أن يعبث به أحد، أو يأخذه منه، لذا عليكِ أن تعشقي المادّة التي بين يديكِ، لتشعري أنكِ تملكين الدّنيا وتتفوّقي، ولا تجعلي أحداً يأخذ التفوّق منكِ، واشعري أنه ملكاً لكِ لتكوني من المجتهدين، وكلّ يوم استيقظي قولي لنفسكِ أنا أحبُّ الآداب، بعد فترة ستجدين أنكِ من محبّي هذه المواد ومتفوّقة بها.
– كلامك رائع، عرفت لماذا يلقّبونك بحكيم الشلّة، لقد رَفعت من معنوياتي، سأحاول بذل جهدي، وأحبُّ المادة أعدك... وسأحبُّ..."
– وستحبّين ماذا؟...سألها وهو يضحك.
ابتسمت ريم وقالت: "سأحبُّ التفوق أيضاً".

شعر أمين بالرّاحة النفسية الشديدة مع ريم، وقال في نفســـه:"يا ليتني أشرح لكِ عن عشقي وليس عن عشق المادّة الدراسيّة، كيف سأصل لما أريد؟ كيف يستطيع الشّاب أن يتقدّم لخطبة فتاة.. الموضوع صعب...يا إلهي خفّف عني".

وعمَّ الصّمت مرّة أخرى، فأصبح أمين يزداد توتّراً وأخذ يراقب عقرب الثّواني وهو يدور وشعر أنّ الوقت يُهدر كصنبور ماء مفتوح تُهدر مياهه دون أن يستفيد منها أحد.

– لماذا تراقب السّاعة يا حكيم أتنتظر أحداً أم وراءك شيء مهم؟
– لا...نعم... نعم أنا أنتظر هاني لقد حان موعد قدومه وقدوم الجميع... أليس كذلك؟
– بلى... بقي ربع ساعة للمحاضرة، ربّما سيتوجّهون إلى القاعات فوراً، ولن يأتوا إلى الاستراحة، هل مللت من الجلوس معي؟
– ما هذا الكلام؟ قطعياً لا... بل على العكس سررت بالجلوس معكِ، هيّا بنا ليتوجّه كلُّ واحد منا إلى كليّته، فالمسافة طويلة من هنا إلى كلية الهندسة، ستأخذ مني وقتاً بالمشي لأصل لقاعة المحاضرات.

وقف أمين وأخذ يرتّب ملابسه ويهندمها، ثمّ حمل أغراضه، "هيّا يا ريم ما بكِ جالسة ألا يوجد لديكِ محاضرة الآن؟ "

– نعم يوجد... هيّا بنا، ولكن هل تسير معي إلى كليّتي، فهي في طريقك قبل الهندسة.
– "نعم بالتأكيد، ولكن ما هذا الكتاب الضّخم الذي معكِ؟"وحمل أمين الكتاب لريم، وكان بغاية السرور.

– هذا كتاب تاريخ الأدب العربيّ. ثقيل جداً ومتعب وأشعر أنَّ ذراعي تكسّرت بعد أن أمشي به إلى كلية الآداب.

– لا مشكلة، هذه المرّة سأحمله عنكِ، إذن ستصبحين فيلسوفة في الأدب بعدما تنتهين من هذا الكتاب.

ضحكت ريم وقالت: "لا أعتقد، ربّما رافعة أثقال مع هذا الكتاب"

خرجا من الاستراحة متوجّهين لمحاضراتهما. أمين كان عابساً في نفسه وانتابه شعور بالفشل، وريم مسرورة مكتفية بالسير بجانبه للوصول إلى كليتها فهي تشعر بالانتصار، وما إن تصل وترى منال ستخبرها بما جرى معها بالتحديد، فهي ترى أنَّ هذا بالنسبة لها نقلة نوعية جيدة، فهي تحبُّ أمين وتعتقد أنَّ الصدفة هي التي جمعت بينهما في الصّباح.

أوصلها أمين على باب كليّتها وسألها:"متى ينتهي دوامكِ اليوم؟"وهو مُصِرٌّ على أن ينهي الموضوع في هذا اليوم ليرتاح.

– لديَّ محاضرة أخرى بعد انتهاء هذه المحاضرة بنصف ساعة.

– إذن ستنتهي حوالي السّاعة الثانية والنصف، وكيف تعودين للمنزل؟

– أركب في الحافلات التي توصل إلى أقرب نقطة إلى منزلي، فأنا أسكن في شارع المتنزه.

– رائع، قريب من المنطقة التي أسكن بها، هل تسمحين لي أن أرافقكِ ونركب في نفس الحافلة عند المغادرة.

– نعم بكلِّ سرور، وسنتحدّث ولن نشعر بطول المسافة.

– حسناً إلى اللّقاء الآن.

ومشى أمين إلى كليّة الهندسة وهو يفكّر، "ماذا أفعل؟ أأواعد الفتاة؟ أبدأتُ أسير مع خطى الشيطان؟ هل انجرفت؟ لا.. نيّتي صافية وهدفي واضح"، وفجأة قفز هاني أمامه، وبحماس وبصوت عالٍ قال لأمين: "مرحباً و صباح الخير"

– أهلاً هاني... قالها أمين بعدم الرضا وبنبرة حزن.

– أهلاً هاني...!! ما بك تقولها بيأس وحزن، و منذ حوالي نصف ساعة وأنا أراقبك وأنت في كامل السرور والفرح، ولم آتِ وأقطع عليك نسج أحلامك.

– أشكرك.

– هل أقل مبروك؟ متى اتفقتما على حفلة الزّفاف؟

– زفاف...هههه؟ بعد محاضرة السّاعة الثانية والنصف.

– لا...لا أرجوك، قل لي ماذا حصل بالتّــفصيل، هيّا يا أمين.

– الآن وصلنا للقاعة، بعد المحاضرة ربّما أقول لك ما جرى.

دخلت ريم القاعة فوجدت منال جالسة تنتظرها. وعندما رأتها منال سألتها على الفور"أين كنتِ؟ أنتِ دائماً تكونين في القاعة قبلي؟"

– آه يا منال...استنشقت نسيم الصّباح بطريقة مختلفة اليوم.

– ماذا؟ لم أفهم...ما بكِ؟

- رائحة الصّباح رائعة العطر، ما زالت داخل أنفي وأصبحت تجري مع دمي.
- ريم... !! أحدث معكِ شيئاً اليوم... أو مكروه لا سمح الله؟
- لا... لا سمح الله! ماذا تقولين يا منال!
- لم أعتد عليكِ فرحة هكذا في الصّباح، وكأن شيئاً حصل لدماغكِ؟
- نعم، غسيل دماغ، سأبقى مسرورة لآخر النهار، كما أنني أصبحت أعشق الأدب، وجميع المواد الأدبيّـــة والأدباء.
- فعلاً غسيل دماغ! وكيف غسلتِ دماغكِ، البارحة كنتِ حاقدة على المواد جميعها، ما الذي جرى؟
- لقد جلست مع حكيم، أما عطر الحكيم فهو الذي غسل دماغي، عندما شممت رائحته دخلت من أنفي إلى رأسي بل قلبي.
- حيكم؟ ومن حكيم هذا؟
- حكيم أيتها الغبيّـــة...حكيم ومن غيره.
- آه... حكيم الشلّة، أتقصدين أمين؟
- نعم يا حبيبتي أمين.
- أيـــُعقل...كيف؟ أفعل كلُّ هذا التغيير بكِ؟
- انتهينا، لقد جاء الدّكتور الآن، بعد أن تنتهي المحاضرة سأحدّثكِ بالتفصيل.
- حسناً يا ريم، هذه خطّتكِ الجديدة إذن، دون علمي تريدين أن تتسابقي على أمين، وقبل أيِّ واحدة وتستولي عليه.
- يا الله ما أهبلكِ !! ما هذا الكلام جلوسنا كان مجرّد صدفة.

ها هو دوام الجامعة اليوم انتهى بعد طول انتظار من الطّرفين، فتوجّهت ريم إلى موقف الحافلات مسرعة لترى أمين، فهي تعلم أنه ينتظرها هناك.

الفصل العاشر

تحت مظلّة الحافلات كانت درجة الحرارة لا بأس بها والطّقس معتدل، وكان الموقف يعجُّ بالطلاب، فأحدهم واقفاً يشرب مشروباً غازياً وآخر يُدخّن بسجائره ذي الرّائحة الخانقة، وآخرون يتحدّثون بصوت عال، وهناك من يتكلّم بالهاتف النقّال بصوت مزعج، أما أمين كان يحمل كتبه ويقف دون حراك، وعيناه سارحتان في الحديث الذي سيحاول أن يقوله لريم بالحافلة، فوصلت إليه بعد أن مرّت من بين هذه المجموعات الطلابيّــــة.

– أمين، لقد وجدتك أخيرا".

دخلت ريم ووراءها أمين وجلسا، وما إن امتلأت المقاعد حتى سارت الحافلة في اتّــــجاهها المعتاد،الطريق تستغرق إلى منطقة المنتزه السكنيّــــة حوالي نصف ساعة.

ابتسمت ريم بوجه أمين وقالت له: "لم تقل لي في أيِّ منطقة بالتّحديد تسكن أنت؟"

– على بعد شارعين من شارع المتنزه، بجانب المخبز الكبير، تجدين العمارة التي أسكن فيها، ويوجد بجانبنا صيدليّــــة صغيرة.

– آه... نعم لقد عرفت... إنك قريب – نوعاً ما – من منطقتنا.

كان صوت المسجّل في الحافلة عالياً جداً، وكانت الأغاني مزعجة لدرجة التشتّت...فحدّث أمين نفسه: "سأقول وأتحمّل النتيجة، أفضل من أن أبقى صامتاً كأني بلعت لساني، لن يحصل شيئاً، هيّا... هيّا أمين استخدم لسانك" وكان قلبه ينبض بسرعة رياضيّــــة...ثمّ قال:"يا ريم؟ هل أسألكِ سؤالاً؟"

– نعم تفضّل... وما نوع السؤال؟

– غريبا نوعاً ما!

نظرت له ريم باستغراب وقالت:"لنجرّب، لكن بشرط ألا يكون غريباً من نوع الإحراج".

– لا...لا تقلقي، عندما يموت أحد الأشخاص جرّاء اصطدامه بسيّارة، ماذا يكتب الطّبيب الشرعيّ في التّــــقرير سبب الوفاة؟

– أمين...؟

– نعم!

– ما هذا الموضوع المأساوي؟ أهذا هو السؤال؟

– نعم... ألم أقل لكِ سؤالاً غريباً؟

– أدري، ولكن لماذا؟

– أرجوكِ أجيبي دون أن تسألي، لأنَّ أمامكِ أسئلة أخرى شبيهة!

– حسناً، ربّما يكتب الطّبيب... مات دهساً.

– أحسنتِ، أأنتقل للسؤال الآخر؟

– أنحن في امتحان؟ أم هي مجرّد لعبة؟

– لا تخافي، هي لعبة تعبّر عن حقيقة، لنصل إلى هدف... هل أكمل؟
– يا سلام! ما هذه اللّعبة الغريبة؟ أكمل أنا معك لنهاية اللعبة.
– إذا مات أحد الأشخاص جرّاء تناوله للسُمِّ ماذا يكتب الطّبيب الشرعيّ في التّـــقرير؟
– يكتب أنه مات من السمّ أو انتحر.
– أحسنتِ يا ريم.
– أهي هكذا اللّعبة جميع الأسئلة عن الأموات.
– نعم... لكي نصل إلى هدفنا، أأكمل؟
– طيّب...، أكمل.
– إذا مات أحد الأشخاص جرّاء جلوسه في البرد القارس؟
– حسناً... يكتب الطّبيب الشرعي في التقرير مات من البرد، أليس كذلك؟
– بلى، لقد حفظتِ أصول اللعبة.
– نعم، ولكن أريد أن أعرف نهايتها، يا لها من لعبة غريبة!!
– لا تستعجلي و دعيني أكمل، إذا مات أحد الأشخاص بسبب انعدام الطّعام؟
– يكتب الطّبيب مات من الجوع، أيموت أشخاص آخرون أيضاً من جرّاء أمور أخرى حتّى نهاية اللّعبة؟
– نعم، بقي واحد وهو السؤال الأخير، إذا مات أحد الأشخاص جرّاء التفكير الشديد والقلق في اللّيل والحيرة وهو يفكّر بأحدٍ ما يحترمه ويحبّـــه، ماذا يكتب الطّبيب الشرعي؟
– يكتب أنه مات من التفكير؟ لا.. لا ربّما مات من الحبِّ؟
– أحسنتِ مات من الحبّ.
– ماذا بعد؟
– لا شيء انتهت اللّعبة.
– كم أنت غريب أهذه لعبة! هذه مأساة.

شعر أمين أنه لم يوصل المعلومة بالطّريقة الصّحيحة، فخاب أمله وجلس حزيناً. ثمَّ قالت له ريم: "لكن يا أمين ألم تقل لي أنَّ اللّعبة تعبّر عن حقيقة، لنصل إلى هدف؟"

– نعم، هكذا انتهت لعبتي بإيصال الحقيقة، والوصول للهدف.

فهمت ريم مقصد أمين، ابتسمت بسكون باردوكان بداخلها فرحة، لكنها شعرت بالإحراج نوعاً ما، فبقيت صامتة دون أن تردّ على سؤال أمين المقصود من اللّعبة، وهو السؤال الحقيقي.

بالتالي عرف أمين أنَّ ريم قد فهمت قصده؛ لأنَّ صمتُها كان أقوى دليل على معرفتها الحقيقة، بالإضافة إلى ابتسامتها الخجولة وكلام همست به عينها.

وصلت ريم إلى أقرب نقطة من بيتها، فقامت ونظرت لأمين نظرة سريعة، ورفعت يدها لتقول له إلى اللّقاء بلغة الإشارة، دون التفوّه بكلمة واحدة ونزلت مسرعة.

نظر أمين في نفسه نظرة حول الموضوع، فوجده يزداد تعقيداً، هو واثق أنَّ ريم وصلتها الصفحة الأولى من كتاب الحبِّ، لكن المشكلة الأكبر هو أن تُبقي ريم الموضوع مركوناً على

رفوف الحياة بين كتب و قصص الحبِّ، دون أن تبدأ بقراءتها والتعليق على موضوعاتها، وندم جداً لأنه لم يستطع أن يقول لها أنه يريد التقدّم لخِطبتها.

أصبح أمين يفكّر ويكلّم نفسه، ما هي يا ترى الخطوة الثانية،كيف لي يا ريم أن أعرف وجهة نظركِ من الموضوع، هل أنتِ أخذتِ أقوالي بجدٍّ أم بسخافة؟ أم كان كلُّ كلامي لا يعنيكِ... أم أنا مجرّد ساذج بالنسبة لكِ أتفوّه بكلام لا معنى له، وطريقة سخيفة للتعبير عن الحبّ؟ لا أدري يا ريم... كيف سأحاول أن أفتح الموضوع مرّة أخرى؟ وأنا في المرّة الأولى كنت محرجاً أشدَّإحراج؟ واعتقدت أنّ المرّة الثانية ستكون أسهل! لكن كلُّ الحقّ عليَّ...أنا الجاهل، لو أنني عرضتُ الموضوع بطريقة مباشرة دون اللّف والدوران لعرفتُ جوابها في اللّحظة ذاتها، لا أريد أن تُفكّر أنني أستخفّ بها أو بعواطفها، أريد أن تفهمني على حقيقتي الصادقة. ازداد الوضع تعقيداً بالنسبة لي، وأنا كشاب ليس له أبسط التّجارب بالحياة... فعلاً أشعر أني أجهل طبيعة العالم وحقيقته، و هناك نقص ما لا أعرف كيف أمليه؟".

عندما وصلت ريم إلى بيتها كانت سعيدة تشعر أنها تخوض تجربة جديدة في الحياة، وحاولت أكثر من مرّة أن تقول لأمها ماذا جرى، لكنها كانت خائفة من ردّة فعلها.

وبينما هي تحضّر نفسها للنوم ليلاً، دخلت أمّ ريم (السيّدة هند) إلى غرفتها، فقالت لها: "أتريدين النّوم الآن يا ريم؟".

"نعم يا أمي، ويجب أن أستيقظ نشيطة".

"حسناً تصبحين على خير"وأرادت أن تغلق الباب وتخرج إلى غرفة الجلوس.

– أمي، انتظري أريد أن أقول لكِ شيئاً.

– نعم قولي أنا أسمع.

– لا، ادخلي أمي واجلسي عندي على السرير، أريدكِ بموضوع.

– حسناً...ها أنا جلست تفضّلي قولي ما عندكِ.

– أمي أنتِ تعرفين أنني أنا أحدّثكِ بكلِّ صغيرة وكبيرة عني، وأخبركِ دائماً ما يجري معي ومع أصدقائي أوّلاً بأوّل.

– نعم يا ريم، أحصل معكِ شيء؟ أشعر بكلام ثقيل في فمكِ صعب عليكِ إخراجه.

– لا يا أمي ليس بالشيء الكثير، لكن بصراحة يوجد شاب في جامعتنا حاول أن يعبِّر لي عن حبّه بطريقة مبهمة قليلاً، دون أن يفصح لي مباشرة، لكن أنا فهمت من كلامه، وأنا بصراحة...

– يا ريم لا تجعلي مثل هذه المواضيع تؤثّر عليكِ بالجامعة، لأنها ستؤثّر على دراستكِ سلباً ومعظم الشّباب هدفهم التّسلية فقط مع بنات الجامعة.

– أمي لا أدري، أشعر أنه صادق ولا أشعر أنه مخادع، طيّب مع الجميع، لم يُظهر لنا سوء نواياه أبداً، و جميع الأصدقاء يشكرون به.

– أتجلسين معه بما أنكِ تعرفين عنه هذه الصفات؟

– أمي نحن نجلس مجموعة زملاء وأصدقاء، وأنا قبل فترة قلت لكِ عن زملائي وصديقاتي وسمّيت لكِ أسماءهم جميعاً، حتّى أرقام هواتفهم لقد دوّنتها لكِ في دفتر الهاتف للضرورة.

- وما اسم هذا الشّاب؟
- يُدعى أمين.
- هل رقم هاتفه مدوّنٌ أيضاً.
- كلاّ، هو الوحيد الذي لا أعرف رقمه، لأننا نادراً ما نكلّم بعضنا، فهو خجول نوعاً ما دون أصدقائه، ومع هذا الخجل فهو مرح وبشوش.
- هل هو معكِ في كليّـــة الآداب؟
- كلاّ يا أمي، إنه في كليّة الهندسة المعمارية ولكن تعرّفنا على بعضنا نحن الآداب وبعض طلاب وطالبات الهندسة، وأصبحنا مجموعة واحدة متعاونة ومُـــحبّـــة، أقصد أصدقاء...وأنا قلت لكِ هذا من قبل.
- لكن يا ريم مهما كان الشّاب جيداً، لا أريدكِ أن تبني علاقات بينكِ وبين أيّ شاب في الجامعة، لأنَّ نهاية هذه العلاقة حتماً الفشل، وإن كنتِ ترسمين للزّواج، فالشباب لا يفكّرون هكذا، أنتِ ما زلتِ صغيرة على كلام العشق والزّواج... أمامكِ مستقبل ودراسة، والحياة لم تعلّمكِ منها شيئاً بعد، ولا أحبُّ أن تكوني مصدراً للشبهات.
- وماذا أقول له في حال فتح الموضوع مرّة أخرى معي؟
- قولي له وبجديّة، لا وقت لديَّ للحبِّ وأنا آتي للجامعة فقط للدّارسة، وبعدها لن يكلّمك بالموضوع إن كان خجولاً ومؤدّباً كما تقولين، لأنه سيخجل من نفسه.
- حسناً يا أمي.
- والآن تصبحين على خير، فكّري فقط بدروسكِ يا ريم ولا نريد أيَّ إشكالات؟

وضعت ريم رأسها على الوسادة وهي تفكّر بكلام أمها، وتعلم أنَّ كلامها منطقي مئة بالمئة، وأنَّ والدتها تعلم مصلحتها أكثر من نفسها، ولكن الحاجة النفسية والاضطراب العاطفي الذي يمر به الفرد بمثل هذا العمر سمح لها بأن يتسلل كلام أمين مشاعرها، وجعلها تفكّربما قاله لها في الاستراحة و بالحافلة، فشعرت أنَّ كلامه دخل إلى قلبها، فهي تشعر منذ فترة في حبّه، لكن لا تستطيع أن تظهر إحساسها، لأنها كانت لا تعرف حقيقة مشاعره، والسبب الثاني أنها من المستحيل أن تصارح شاباً بحبّها، لكن كان إحساسهما الثنائي صادقاً اتّـــجاه الآخر. فبقيت ريم في حيرة.. هل أمين يتظاهر بالحب ويستهزئ بأحاسيسها كما قالت لها أمها؟ أم هو صادق كما هي تشعر؟أم تنسى الموضوع كليّـــاً وتلتفت فقط لدراستها مهما كان الشعور؟

فسألت نفسها: "كيف لي أن أعرف حقيقة مشاعر أمين؟ سأحاول أن آخذ رأي منال أو ديالة، لا... ديالة أفضل من منال، هي تعرف أمين أكثر من منال لأنها معه دائماً في نفس الكلية، أما منال ربّما ستشعر بالغيرة مني، لأنها هي الأخرى تحبُّ أمين، وأخاف ألا تنصحني بصدق، وفي الصّباح رباح. دخلت لأنام مبكراً ولي ساعتين وأنا أفكّر بالموضوع، لقد تأخّر الوقت، يجب أن أنام... يجب أن أنااااام".

وأغمضت ريم عينيها وغرقت في النوم بعد حيرة وتفكير.

***

"سأصل حتماً على موعد المحاضرة، ولا أريد أن آتي مبكّراً أبداً، حتى لا أجلس مع ريم، إجمالا فور وصولي إلى الجامعة سأذهب إلى القاعة مباشرةً ولا أريد أن أرى أحداً، وليس لديَّ رغبة بأن أكلّم أحداً "...وصل أمين إلى الجامعةفأخذ يسير بجديّة وهو يتظاهر بأنه لا يرى أحداً خوفاً أن يلمح ريم، فرأته منال من بعيد، فقالت في نفسها:"ها هو أمين... سأذهب وأتكلّم معه ولن أجعل ريم تسحره بجمالها المعتدل، فأنا أجمل منها بالتأكيد وسأحاول استدراجه بالكلام حول موضوع ريم البارحة، فهي لم تشرح لي التفاصيل".

– مرحباً أمين، كيف حالك؟

التفت إليها وقال: "أهلاً يا منال، جيّد."

– إنني أبحث عن ريم منذ وقت هل رأيتها؟

– كلا، فأنا وصلت للتوّ إلى الجامعة ولم أرَ أحداً بعد.

– طيب سأسير معك حتى نصل إلى كلية الآداب، وسأترك لك باقي الطريق لتصل إلى كلية الهندسة.

– لا آسف لن أذهب إلى الآداب، فأنا مستعجل وأريد أن أسير بسرعة لأصل إلى كليّتي.

– ولكن بقي ربع ساعة للمحاضرة وكما أنَّ كلية الآداب في طريقك، وربّما نرى ريم في طريقنا وندعوها للسير معنا، بدلاً من أن تسير وحدها للكلية.

– منال أرجوكِ اذهبي أنتِ وابحثي عن ريم كما يحلو لكِ فأنا سأتوجّه فوراً إلى كلية الهندسة فلا وقت لديَّ.... إلى اللّقاء.

– ما به مستعجل هكذا؟ لديه وقت كافٍ، آه... نعم الحقيقة واضحة ولم الحيرة؟ لو أنَّ أمين يهتمُّ بأمر ريم لذهب معي بسرعة لكي يراها، لكنه لم يعطِ للموضوع أهمية، كما أنه يتكلّم بجدية كبيرة، ما الذي يجري يا ترى؟ هو لا يهتم بأحد أصلاً..! "

بعد الانتهاء من المحاضرات طلبت ريم من ديالة أن ترافقها قليلاً لكي تتحدّثا، فوافقت ديالة على الفور، وجلستا في منطقة بعيدة في إحدى ساحات الجامعة، لكي تكلّم ريم بسريّة حول موضوعها الذي بدأ يقلقها، وخوفاً من أن تعلم منال عن الموضوع شيئاً، فريم تخاف أن تُغضب منال؛ لأنها هي أيضاً معجبة بذلك الشّاب.

– اجلسي يا ديالة، هذا المكان مناسب لكي أطلعكِ على سرٍّ في داخلي يقلقني"وجلستا على حافّة رصيف.

–هيّا قولي ما عندكِ، لقد أتعبتيني من كثرة المشي، وفي النهاية تجلسيني على حافَّة الرّصيف لتقولي لي سرّاً".

"أرجوكِ ديالة كوني صبورة، واحتفظي بسرّي".

– هيّا بدون مقدّمات لقد تشوّقت وقلقت في نفس الوقت.

– اسمعي يا ديالة يوجد شاب في الجامعة أنتِ تعرفينه جيداً، لّمح عن حبّه لي بطريقة غير واضحة وأفهمني أنه يموت من الحبِّ لأجلي، وأنا أخاف أن يستخفَّ بي أو بعواطفي، أريد مساعدتكِ ونصيحتكِ، بما أنكِ صديقتي.

– قبل أن أسألكِ من هو الشّاب يا ريم... إنَّ الإنسان الذي يحبُّ بصدق يظهر عليه أعراض الحبّ ومهما خبّأ لن ينجح، هل شعرتِ قبل أن يصارحكِ بشيء من هذا القبيل اتّــجاهكِ؟
– نعم... ربّما كنت أشعر به... لا أعرف، أحسَّه لطيف نحوي لكن لا أفهمه، ونظراته هادئة لا تدلُّ على أيِّ خبث أو ما شابه.
– طيّب من هو؟
– بصراحة، هو... هو أمين.
– أمين...؟ أأنتِ جادّة في كلامكِ؟
– نعم، لماذا أنتِ مستغربة هكذا؟
– لأنني تخيّلتُ من الممكن أن يكون أيَّ شاب آخر في الجامعة باستثناء أمين.
– ولماذا؟ وما المشكلة إن كان أمين الذي يحبّني؟
– لا يظهر عليه أيّ ملامح أنه يحبكِ أو مهتم بكِ، فهو لا يحاول الجلوس معكِ، وليس الجلوس فحسب بل هو نادراً ما يكلّمكِ... أنا أعتقد أنه معجب بنسرين، هما أقرب لبعضهما البعض في الطّباع والصفات، فهي هادئة جدّاً مثل أمين، متأنّية بكلِّ الأمور ملتزمة بأدبها وأخلاقها ودينها وهو كذلك، فكيف يعترف لكِ عن حبّه لا أفهم وبطريقة غير واضحة؟ ربّما يا عزيزتي أنتِ فهمتِ قصده خطأ بما أنَّ طريقته غير واضحة بالتعبير.
– لا يا ديالة، أنا أحسست بإعجابه لي من أوّل مرّة جاء هو وهاني وتعرّفا علينا في استراحة الجامعة، كنّا نجلس أنا ومنال، كما أنه هو من النّـــاس الذين لا يعبّرون عمَّ بداخلهم بسهولة، أو أنه هو خجول لدرجة يصعب عليه التعبير بصراحة.
– لا أعرف...! أشعر أنَّ بالموضوع شيئاً غريباً، كيف يموت في حبكِ ولم يكن لكِ صديقاً قريباً ولا زميلاً في نفس الكلية، فهو بعيد عنكِ جدّاً، أيعقل أن يموت حبّاً هكذا من بعيد ...لا أعتقد!!
– يالله يا ديالة كلامكِ أحبطني! وربّما يا ديالة لأنكِ لم تحبّي يوماً، فلم تشعري بالموضوع مثلي، فأنا أشعر به وبحبّه، وكأنه قريب مني.
– آآآه ...نعم... نعم، فهمت... إذن أنتِ تحبّينه، أليس كذلك؟
– هل أقول بلى، لا فأنا أخاف. وأنتِ لم تعطني رأيكِ بالموضوع بصراحة، ولا حتّى نصيحة أخويّة.

شردت ديالة بأفكارها ثمَّ قالت: "وما رأي منال بالموضوع؟"

– ولماذا منال... وأنتِ هنا؟ أنا هاربة من منال؛ لأنها لو عرفت أنَّ أمين يحبّني لحزنت، لأنها تعتقد أنه هو معجب بها وليس بي، فهي تحبّه.
– هي تحبّه أيضاً! ماذا أصابكما أنتما الاثنتان؟ رفقاً بالشّاب!! بصراحة يا ريم أرى وجهة نظر منال أحسن من وجهة نظركِ، لأنَّ أمين يُكلّم منال أكثر ما يكلّمكِ.
– انسي الآن منال، ولنفرض أنه يحبّني، كيف أتصرّف؟ كيف عليَّ أن أردّ عليه لو فتح لي الموضوع مرّة أخرى؟ سأحاول أن أتحاشاه أو أهرّب.

– حاولي أن تكوني لبقة، ولا ترمي نفسكِ عليه بل كوني ثقيلة، و حاولي ألاّ تجعلي الموضوع يأخذ اهتماماً كبيراً من كلامكِ، وأنا لا أعتقد أنَّ أمين يستخفّ بعواطفكِ، فهو ليس من هذه النّوعيّـــة من الشباب، إنّه مؤدّب وربّما يكون صادقاً، وخذي رأي منال بالموضوع فهي صديقتكِ أيضاً، وبالنهاية ستعرف كلَّ شيء، وتلومكِ إذا كانت تجهل كلَّ هذه الأمور... يا ريم ادرسي الموضوع جيّداً، ولا تجعليه يؤثّر على دراستكِ سلباً.

– نعم بالتأكيد، ومنال سأقول لها القصّة وآخذ رأيها... مع أني خائفة.

قامت ديالة من مكانها وقالت: "هيّا دعينا نذهب لبيوتنا، فالوقت أصبح متأخّراً، كما أنَّ الحبّ مبكّر عليكِ الآن، ما زلنا في بداية الطريق".

عاد الجميع إلى بيوتهم وجلس أمين في منزله دون حراك، لقد كان يشعر بضيق في صدره، وشيئاً يضغط على أنفاسه كالثّقل، هو لا يعلم سبب هذا الألم الشديد، لكنه منزعج ومتألّم، و يشعر أنه منهك حتى ملابسه لم يقم بتغييرها، وحذاءه لم يخلعه، فقد تمدّد على الكنبة في غرفة الجلوس وأشعل المروحة مع أنَّ الطقس ليس بالحار، والمروحة أيضاً لم تكن تفيد، فأنفاسه كأنها تتقطّع. بعد فترة طرقت خالته باب منزله لقد أحضرت له طعام الغداء، فلم يجب، فتحت الباب ودخلت كان الباب غير مقفول، فوجدت أمين على حالته هذه، خافت عليه جداً، قالت له بقلق: "أمين... ما بك يا حبيبي، أأنت مريض؟"

– لا...خالتي، أشعر بثقل على صدري... ولا أستطيع التنفّس... أنا متعب جداً.

(كان كلامه يخرج ببطء وثِقل).

– لماذا يا حبيبي، ماذا جرى لك اليوم...؟ قم لنذهب إلى الطّبيب.

– لا أريد...، فقط كنت منزعجاً اليوم قليلاً...، لكن هذه الحالة ليست بأوّل مرّة تحصل معي، أرجوكِ خالتي دوائي في المطبخ بالخزانة، أحضريه لي من فضلكِ، لون العلبة خضراء ليس بمقدرتي الحراك سامحيني.

ذهبت للمطبخ وعادت مسرعة وأحضرت له حبّة دواء مع كوب ماء، فأخذ أمين حبّة الدّواء، وبعد ربع ساعة شعر بالتحسّن واستطاع أن يتكلّم دون تعب، لأنَّ أنفاسه عادت طبيعيّة.

– أأصبحت أفضل الآن؟

– نعم خالتي أشكركِ.

– لكن قل لي من ماذا تعاني؟ ولـــمَ تخفي عليَّ مرضك؟ وماهذا الدّواء الذي تناولته؟ لقد قلقت عليك كثيراً، وقبل هذه المرّة شكوت من ضغط على صدرك...أنا أذكر تماماً !

– لا...لا أخفي شيئاً خالتي، أنا بصراحة لا أعرف ما هي علّتي، عندما كنت في المدرسة الداخلية وكنت أمارس ألعاباً رياضيّة مجهدة كان يحصل معي هذا، وبنفس الألم، وعندما كنت أحزن بشدّة أو أغضب من شيء ما، كان يأتي نفس الوجع. ذهبتُ لعيادة طبيب المدرسة المقيم، وأجرى لي بعض الفحوصات وقال لي أنَّ عضلة القلب لديَّ ضعيفة ووصف لي هذا الدّواء، عندما آخذه أشعر بتحسّن بسيط، ونصحني بالنوم؛ لأنه يريح عضلة القلب من الإجهاد أو من الغضب، ووصف لي دواءً للنوم لكي أستطيع النوم بسرعة.

– لكن يا أمين يجب أن تعرف سبب ضعف عضلة القلب عندك، وتباشر بعلاج المرض، ويجب ألا تتهاون بأمور صحتك يا بنيّ.
– لا ياخالتي... لا تقلقي، الألم لا يتكرر دائماً لكن بفترات متباعدة.
– أمين لا يجوز أن تتغاضى عن نفسك هكذا يجب أن تعالجها حالاً، وأنا سآخذك بنفسي غداً للمستشفى، لعمل جميع الفحوصات اللازمة، وعند طبيب مختصٍ بأمراض القلب.
والآن سأتركك تنام لكي تريح قلبك، ولكن يجب أن تتناول طعام الغداء الذي أعددته لك أوّلاً، وبعدها سأعود لأطمئنَّ عليك في المساء، تكون قد استيقظت.

أما ريم فاتّصلت هاتفياً بمنال وقالت لها أن تأتِ عندها في المساء، لأنها تريديها بموضوع مهم، فما كان على منال إلا أن طلبت من والدها أن توصلها عند ريم.

رحّبت ريم بصديقتها، وأدخلتها إلى غرفتها وأغلقت الباب.
– كيف حالكِ يا منال؟
– قبل كيف حالكِ، قولي لي أين كنتِ وأين اختفيتِ بعد الانتهاء من المحاضرات.
– تمشّيت أنا وديالة قليلاً ثمَّ ذهبنا إلى بيوتنا.
– حسناً، سامحتكِ هذه المرّة... وما الموضوع المستعجل والسريّ؟
– بصراحة وبدون مقدّمات أريد نصيحتكِ لأنك صديقتي، وقولي لي ماذا تتصرّفين لو كنتِ مكاني؟
– نعم.. أكملي أسمعكِ وأعدكِ أن أقدّم مساعدتي بصدق إن أمكن.
– أمين يحبّني...
– ماذا...هههههه؟ أمين يحبّكِ ! وماذا بعدلم أفهم...وكيف لي أن أساعدكِ؟ ومن قال لكِ مثل هذه السّخافة؟
– أرجوكِ...كيف لي أن أتحقّق من صدق مشاعره نحوي، وكيف يجب أن أتصرّف؟
– إذا كنتِ تهتمين بأمره، يجب أن تتحقّقي لكي لا تُخدعي، أما إذا كان أمره لا يهمّكِ أبداً، فدعي حبّه لي، فأنا سأتصرّف، أتذكرين المثل الذي أخذناه بالأدب الإنجليزيّ؟
(Make hay while the sun shines)
– نعم... ماذا تعني بكلامكِ؟
– سأغتنم الفرصة يا ريم والشّمس مشرقة، هههههه!
– ما بكِ يا منال!! أنا أطلب منكِ النصح وأنتِ تستخفّين بي؟ما هذا الهُراء؟ عن أيِّ فرصة تتكلّمين؟
– لا عليكِ يا ريم أنا أمازحكِ، إن كان يحبكِ فأنا لا أستطيع أن أجبره على تحويل حبّه لي، فالقلب وما يهوى، لكن... كيف عرفتِ أنه يحبكِ؟
– عندما كنّا بالحافلة أصبح يسألني أسئلة...وأكملت ريم كلامها لمنال كيف أمين صرَّح لها عن حبّه بطريقة غير مباشرة، عن طريق اللعبة... ومع ذلك بقيت منال تحاول إقناع ريم أنه ربّما لا يحبّها، وهي تشعر بالغيظ.

- اسمعي يا ريم ليس واضحاً من لعبة أمين السخيفة هذه أنه يموت من الحبِّ، بل إنه يُسلّيكِ بالحافلة، ربّما حقيقة اللّعبة وهدفها هو فقط التسلية، ولكي يمضي الوقت فحسب، وأيضاً ليس كل من قال أحبكِ ستقعين في حبّه، وتشغلين نفسكِ هكذا به.
- يا منال أنا فعلاً أحبّه، لذا أنا فهمت الموضوع، وأريد أن أتأكّد لكي لا أصدم.
- إذن دعيه هو يعود ويفاتحكِ بالموضوع بجديّة، أما أنتِ فلا تفتحي معه أيَّ حديث، وحاولي أن تتجنّبيه لكي تعرفي هل هو يركض ورائكِ مُـــحبّاً ويحاول عدّة مرات أن يقول لك شيئاً، أم ييأس بسرعة ويحاول أن يجذب فتاة أخرى، إذا كان كذلك فستعلمين أنه يخدعكِ.
- حسناً يا منال، فعلاً أنتِ صديقتي الصدوقة، هيّا قومي معي للمطبخ لأُعدّ الشّاي، وسأقدّم لكِ قطعة لذيذة من كعكة التفاح، لقد أعدّها أمي اليوم وأرجوكِ لا نريد أن نتكلّم بالموضوع في المطبخ؛ لأنَّ أمي ربّما تسمعنا فتغضب مني (وخرجتا من الغرفة إلى مطبخ يمرّان بممر طويل بين الغرف).
- ألم تخبري أملكِ عن أمين شيئاً.
- نعم، أخبرها بلمحة سريعة...

في صباح اليوم التالي أخذ أمين يرتدي ملابسه كالعادة بكلِّ أناقة وترتيب، ليذهب إلى الجامعة، إذ بباب منزله يُطرق فاستغرب وذهب لفتح الباب.

- أهلاً خالتي، ما هذه المفاجأة الصّباحية الباكرة؟ ولماذا أنتِ مستيقظة في هذا الوقت؟
- ليست مفاجأة، بل أريد أن أطمئنَّ عليك، كيف أصبحت؟
- أفضل اليوم والحمد لله، لقد نمت جيّداً واستيقظت نشيطاً، كما أنكِ جئتِ في المساء واطمأننت عليَّ، وكنت أحسن حالاً.
- نعم، لكن أريد أن أعرف حالتك في الصّباح أيضاً.
- لا تقلقي يا خالتي الحلوة أنا جيّد، وسأذهب بعد قليل.
- إلى أين؟!
- إلى جامعتي، ما بكِ خالتي؟
- لا... لن تذهب اليوم، أنسيت أني أخذت لك موعداً عند طبيب القلب؟
- وجامعتي... ومحاضراتي! لا أستطيع التغيّب اليوم، لنذهب بعد الظّهر.
- كلاّ، فموعدنا في تمام السّاعة العاشرة والنصف ولا نريد التأخير، أنا قلقة على وضعك الصّحيّ، كيف لشاب صغير بعمرك ويتعرّض لأعراض مشابهة بأزمة قلبية -لا قدر الله- هذا ليس وضعاً طبيعياً، ويجب أن نتحقّق من حالتك.
- خالتي أرجوكِ لا داعي...
- أمين... أرجوك أنت، اسمع كلامي اليوم ولا تجعلني أغضب منك.
- حسناً... حسناً، لا داعي للغضب، سأذهب معك وآخذ المحاضرات من هاني.

أما ريم فهي كالمعتاد تكون بوقت باكر في الجامعة، لقد توقّعت أن ترى أمين بالاستراحة، وأن يكون قد جاء بوقت مبكّر ليراها، لكنها شعرت بخيبة أمل وأصبحت الأفكار تأخذها:"لو أنَّ

أمين يحبّني لجاء مبكّراً لنجلس سوياً، فهو يعلم أني هنا. لماذا أقول لو أنه يحبّني، هو يحبّني حقاً، هو قال ذلك... قال جملة: "يموت من الحبّ" أكان يا ترى يقصدها... أم كما قالت منال إنه يلعب ويتسلّى ليُمضي الوقت في الحافلة...لا أدري؟ في الحقيقة تعبت من التفكير، أنا أيقنت أنه يحبّني، لكن منال وديالة تظنّـــان العكس، لقد جعلتاني أفكّر بطريقة أخرى وأنا لم أفهم قصده يا ترى... أين الحقيقة؟ أهو مشغول لذلك لم يأتِ مبكّراً؟"

بقيت ريم تحدّث نفسها وهي جالسة على إحدى طاولات الاستراحة، إلى أن جاء وقت المحاضرة فذهبت لكليتها.

أما بعد انتهاء المحاضرة الأولى وفي وقت الفراغ جلست مجموعة الأصدقاءبالاستراحة ليتناولوا بعض الشّطائر والعصير، فوجدت ريم الجميع موجود باستثناء أمين، فسحبت الكرسي وجلست بجانب ديالة، وقالت:"كيف حالكم يا جماعة؟"

أجابها الجميع: "بخير يا ريم هل تريدين شطيرة؟ "سألتها ديالة

أجابت ريم: "لا شكراً بعد قليل"، وسألت ديالة بصوت منخفض: "أين أمين لماذا لا يجلس معنا".

– إنه غائب اليوم يا ريم، ولم يأتِ.

– لماذا؟

– لا أعرف السبب صراحةً، قال هاني أنه سيكلّمه ويطمئنّ عليه...أشعر أنكِ حزينة!

– لا، أنا جيّدة.

– ريم... قلت لكِ البارحة ألاّ تعطي للموضوع أهمية، فيؤثّر سلباً على حياتكِ الدراسيّة والاجتماعية أيضاً.

– كلا، فأنا لا أفكّر بشيء صدّقيني، الوضع طبيعيّ بالنسبة لي. (محاولةً إخفاء مشاعرها).

– آه... أنا لاحظت ذلك أيضاً، كلُّ الأمور طبيعيّة!

وبعد برهة غيّرت ريم مكانها وجلست بجانب هاني وسألته: "هل اتّصلت بهاتفك مع أمين واطمأننت عليه؟".

– أيهمّك أمره لهذه الدّرجة يا ريم؟... سألها هاني وهو يبتسم ابتسامة ماكرة.

– لا، ولكن أنا مستغربة من عدم مجيئه اليوم، هو لم يتغيّب ولا مرّة، فهذا أمر ملحوظ وأنا أحببت أن أطمئن.

– آه... لو تعرف يا أمين من سأل عنك اليوم! (قال هاني وهو ينظر لريم)

بحساسيّة شديدة أجابت ريم:"ماذا تقصد يا هاني؟ أرجوك لا تفهم الموضوع بطريقتك، لا تجعلني أندم على الحديث معك".

– لا يا ريم أمازحكِ فقط، بدون حساسيّة وابقي هادئة أرجوكِ، سترتفع درجة حرارتكِ إن بقيتِ على مزاجكِ السيّء هذا.

– أسكت أرجوك، أشتهي لو مرّة واحدة أن تأخذ الأمور بجديّة، وكفاك هراء.

تدخّل أسامة بالكلام: "لا تُغضب ريم يا هاني فنحن في كلية واحدة نناصر بعضنا".

– حسناً... حسناً سأخرج أنا من اللّعبة... وقفتما ضدي إذن.

وقفت ريم وقالت: "أنا ذاهبة الآن إلى المكتبة أطالع بعض التقارير، هل تأتين معي يا منال؟".
– هيّا ريم، نعم سأرافقكِ.

ومشت ريم ومنال في طريقهما إلى مكتبة الجامعة، الطريق إلى المكتبة متعبة لأنها تقع على تلّةوالطّريق إليها غير مريح للسير، كأنهم يصعدون للأعلى.
– ياه... لقد تعبت يا منال... وأصبحت... ألهث؟
– وأنا كذلك... لياقتنا البدنية سيّئة... صحيح لقد اتّصل هاني بمترل أمين، لكن لم يردّ أمين على الهاتف ربّما كان خارجاً، حتى أنه اتّصل أيضاً على بيت خالته ولم يجب أحد، وبصراحة هاني شعر بالقلق.
– ولماذا لم يقل لي عندما سألته؟
– لأنكما أصبحتما تتجادلان بأمور تافهة، ونسيتما الموضوع الأصلي.

انتهى دوام الجامعة وركبت ريم الحافلة للذّهاب للمترل، وأخذت تفكّر في نفسها، "كيف سأطمئن على أمين اليوم، لماذا يا ترى هو غائب... ولا يوجد أحد بمترله، ولا مترل خالته؟ هل سافر هو وأهله وبيت خالته؟... بصراحة لم أسمعه يذكر يوماً ما شيئاً عن أمه وأبيه أو إخوته مثلاً... كيف لم يسبق لي أن حاولت وعرفت عن حياته الخاصّة شيئاً، يا إلهي هل هو غامض لهذه الدرجة! أم الحقُّ عليَّ وعليه لأننا لا نجلس كثيراً مع بعضنا كباقي الأصدقاء؟ لا ليس الحق عليَّ، فأنا لا أقصد الجلوس مع أحد هم يأتون ويجلسون معي، أما أمين فأشعر أنه يتحاشى الجلوس معي... ربّما! كم هو غريب... أنا فعلاً لا أفهمه، هل هو يحبّني أم يجاملني؟"

وصلت ريم إلى مترلها الذي تحبّه فهي تعشق بيتها... بيت أهلها، ما إن تصل عتبة الباب وتفتح لها أمها، حتى ترمي نفسها بحضنهاباشتياق ولهفة، وتخلع معطفها وتعلّقه بجانب الباب، حيث تخلع معه تعب النهار وأعبائه، وبدخولها يمتلئ البيت فرحة وضحكات، فتذهب لتغسل يديها ووجهها وتغيّر ملابسها، ثمَّ تتوجّه فوراً للمطبخ لتساعد أمها في تحضير مائدة الغداء، المائدة إجمالاً تكون محضّرة وجاهزة، لكن ريم تُشعر أمها أنها موجودة للمساعدة وتضع لمساها الأخيرة على المائدة، وتبدأ ريم بسرد قصص الجامعة اليوميّة، والمغامرات المضحكة بين الأصدقاء، وأمها تفرح كثيراً بحديثها، وتستمتع بالاستماع لمواضيعها الجامعيّة، وفي نفس الوقت تحبُّ أن تسمعها لتعرف ما يدور ببالها وطريقة تفكيرها، فتدرس أفكارها لتقدّم لها المشورة والنصيحة، دون أن تشعرها بأنها تتدخّل بعلاقاها مع صديقاها وزملائها، وريم تسمع من أمها وتحب أن تأخذ مشورها.

ريم عكس أختها رندة التي تصغرها بسنة واحدة، فرندة عندما تأتي للبيت تشعرك بأنك يجب أن تراعي الهدوء في المترل؛ لأنَّ بيتها للرّاحة فتدخل صامتة لا تحب الكلام، خصوصاً أنّها هذه السنة في المرحلة الثانوية النهائية من المدرسة. أما أخت ريم الصغيرة رنيم هي شعلة من الحياة عمرها لا يتجاوز الثماني سنوات، فهي مرحة مفعمة بالحيوية، تحبُّ اللّعب أكثر من أيّ شيء آخر في الدّنيا، حيث تفضّله عن الطعام والشراب، أما والد البنات فهو يأتي في المساء بعد السّاعة السّادسة من عمله ولسوء حظهم لا يتناول معهم طعام الغداء، إلا يوم الإجازة، ونادراً ما يأتي ليشاركهم الغداء في وقته.

والمهم بعد الطّعام تذهب كل واحدة إلى غرفتها لكي تدرس، فريم وأختها الصغيرة رنيم هما في غرفة واحدة، أما رندة فغرفتها مستقلّة هذه السنة؛ لأنها تدرس للثانوية العامّة، فأمها أخرجت رنيم الصغيرة من الغرفة ووضعتها مع ريم في نفس الغرفة، مما جعل ريم تشعر بفقدانها لغرفتها الخاصة واجتياح حريّتها، وهذا كلّه لكي لا يحدث أيّ تشويش على دراسة رندة. أمها تحاول أن توفّر لها جوّ الدّراسة الهادئ والجيّد لكي تنجح وتتفوّق في الثانوية، فحالها كحال جميع طلاب الثانوية، حالة طوارئ في المنزل عندما تسمع أنَّ هناك طالب أو طالبة ثانوية عامّة في البيت، لا أدري لماذا الأهل لا يُبقون وضع البيت على حاله، فيُشعرون الطالب أنَّ هذه السنة هي حرب بالنّسبة للطلاب. أهي حرب على المواد الدراسية؟ أم حرب على الامتحانات؟ أم حرب على المدرسة بشكل عام؟ والملاحظ هو أنَّ هذه الحرب أهليّة بين الطّالب وأهله.

خرجت ريم من غرفتها تنادي: "أمي... أمي"فوجدت رندة في المطبخ، سألتها: "ماذا تفعلين يا رندة"؟

– أعدُّ كوباً من عصير البرتقال، لأستعيد نشاطي... وأنتِ لَمَ الصّراخ؟

– أين ماما؟

– أمكِ نائمة، اخفضي صوتكِ، ماذا تريدين؟

– كنت أريد أن أسألها إذا كانت تستطيع أن توصلني إلى بيت منال...لا مشكلة بعد فترة أوقظها.

– هي قالت لي قبل ربع ساعة من مجيء بابا أن أوقظها لتحضّر له الطّعام.

– حسناً...سأنتظر، أعدّي لي كوباً أيضاً لأستعيد نشاطي.

– نعم... نعم؟! أعدّي أنتِ...آسفة أنا مستعجلة وأريد أن أكمل دروسي، هذا بدلاً من أن تقومي أنتِ يا ريم بنفسكِ وتحضّري لي كوب العصير.

– شكراً... لا أريد أن أشرب شيئاً، وآسفة لأنني أزعجتكِ يا أختي المجتهدة، سأذهب إلى غرفتي.

وبعد ساعة تقريباً ذهبت ريم إلى غرفة والدتها لتوقظها، حيث أعدّت لها كوباً من عصير البرتقال وجلست بجانبها على السّرير:"أمي...أمي، ألا تريدين الاستيقاظ؟" السّاعة السّادسة إلاّ ربع هيّا يا أمي أعددتُ لكِ كوب برتقال طازج لكي تشعري بالنّشاط، فهو لذيذ وطعمه رائع لا حامض ولا حلو، هيّا أمي، استيقظي".

فقامت أمها وجلست في السّرير وأخذت الكوب من ريم.

– ما أروعه، فعلاً لذيذ... شكراً يا ريم سلمت يداكِ، أين رنيم لا أسمع صوتها، ليس من عادتها الهدوء؟

– طلبت مني أن تذهب وتلعب مع ابنة الجيران في بيتهم، فسمحت لها بالذّهاب.

– هل أنهت دروسها؟

– هي تقول نعم، ولكن أنا أشكّ بالموضوع، لا أدري... استفسري أنتِ منها.

– حسناً... بعد قليل أرى الموضوع بنفسي.

– أمي؟ إذا سمحتِ لي... أريد أن أطلب منكِ طلباً صغيراً.

- تفضّلي ماذا؟
- هل توصليني إلى بيت صديقتي منال؟
- منال؟ كانت البارحة عندكِ، واليوم رأيتها بالجامعة... أَشتقتِ لها بهذه السرعة؟
- أمي... أشعر بالملل، أريد أن أذهب عندها ساعة من الزّمن، أرجوكِ يا أمي. لأناقشها بموضوع هام يخصّ الجامعة.
- الآن قاربت السّاعة من السّادسة، ولا يوجد وقت للخروج و العودة.
- أمي أرجوكِ ساعة واحدة فقط.
- لا...آسفة، غداً صباحاً ستقابلينها بالجامعة وتتحدّثان، لا أظن أنَّ النِّـــقاش لا يحتمل التأجيل!!
- أمي... من فضلكِ؟؟
- "انتهينا، ومن فضلكِ أنتِ يا ريم". أزاحت ريم بوجهها واستدارت لتعود لغرفتها وهي عابسة، وقالت بملل:"حسناً أمي... كما تشائين".

كانت تريد الاستفسار من منال عن أهل أمين، وقالت في نفسها من المؤكّد أنها تعرف ولو نبذة عن حياة أمين وأهله، فرامي صديقه وسيخبر أخته، لكن الزّيارة... فشلت.

الفصل الحادي عشر

مهما مرّت على القلب أيام تعب أو ضعف سيبقى شاباً، لأنَّ القلب أبداً لا يستسلم للعجز بل يبقى يدُقّ وينبض معلناً أنَّ الحياة يجب أن تستمر ولا لليأس، فيُـــثبت لصاحبه أن لابدَّ من الاستمرار لمواجهة الزّمن وصعوبات الحياة، فيستمر ويستمر بعظمة وقدرة الله عزَّ وجل سبحانه، فهو الجنديُّ المجهول الذي لا يأخذ راحة من عمله أبداً إلا بإذنٍ إلهيّ، حتى يأمره بالتوقّف، فيتوقّف معلناً وقتها انتهاء فترة عمله المتواصلة.

مقدّمة ربّما تكون غريبة وسط قصّتنا ونرى فيها بعض التفاؤل، وبعض التشاؤم، لكن من مغزاها سننطلق.

لقد كان يوماً شاقاً على أمين وخالته علياء، عندما ذهبا للمستشفى عند أخصائيّ القلب، فحص الطبيب أمين فحصاً روتينياً، ولم يسأله سوى بعض الأسئلة العادية، لكن ما طلبه من أمين كان هو المُتْعِبُ خلال هذا النهار، طلب منه إجراء تخطيط قلبي وفحوصات مخبريّة، وصور للقلب وفحص للجهد، وقسطرة شرايين القلب والأوعية، فأجروا له جميع الإجراءات المطلوبة واللازمة ولم ينتهوا منها إلا بعد المغرب، لكن الطّبيب المختصّ كان قد غادر عيادته ولم يستطيعا مراجعته، فقاما بأخذ موعد لليوم التالي، ليقوم بتشخيص الحالة وإعطاء العلاج اللازم.

أما بعد المغرب، فأمضياه بأمور أخرى. فور عودهما للبيت طلب أمين من خالته أن يدعوها هي وبناها وأخوهم الصغير يزيد إلى مطعم ليتناولوا الطعام، لأهما منذ الصّباح لم يتناولا شيئاً، فرفضت الخالة في البداية بحجّة أنّها متعبة جداً من مشوار النهار، لكن حجّة أمين كانت الأقوى، فقال لها:"إننا يا خالتي جائعان، نريد أن نأكل وأنتِ لم تعدّي لنا شيئاً اليوم بسبب خروجنا منذ الصّباح، إذن هيّا بنا إلى المطعم"، فقبلت الخالة الدّعوة هي وبناها، فخرجوا وتناولوا طعاماً لذيذاً، وقد أعجبهم المكان، فجلسته هادئة ورائعة، فبقوا فيه ما يقارب ثلاث ساعات، وبعد الطّعام لعب يزيد بالألعاب المخصّصة للأطفال بالمطعم، وفي النهاية أخذوا سيّارة أجرة، وعادوا إلى المترل مسرورين على الرّغم من الإرهاق والتّعب الشديدين اللّذين رافقاهما طيلة النهار.

وبعد برهة سمع أمين طرقاً فنهض وفتح، وجد هاني وأسامة عند باب مترله!

– أين كنت؟... سألاه بصوت عالٍ واستغراب.

– ما هذا الهجوم...لَمَ كلُّ هذه العصَبيّة؟ ادخلا أوّلاً وسنتكلّم.

دخلا وجلسا في غرفة الجلوس.

– نعم... هيّا تكلّم نحن ننتظر إجابتك، وأرجو أن تشتري هاتفاً خلوياً كباقي العالم، لكي لا نقلق.

– كنت يا هاني بالمستشفى منذ الصّباح، أما بعد المغرب...

– في المستشفى...؟! أسامة قاطع أمين مندهشاً.

– طمئنا لماذا الذّهاب للمستشفيات يا أمين؟ أعاد لك ضيق النفس مرّة أخرى والوجع بالصدر؟ (سأل هاني وهو يعلم أنَّ أمين كان يعاني القليل أيام المدرسة).

– بالضّبط يا هاني، لكن الألم زاد عن حدّه لدرجة أني لم أستطع أن أذهب للمطبخ لتناول الدّواء، لكن جاءت خالتي وأنا على حالتي السيّئة هذه، فساعدتني وأحضرت لي الدّواء، خافت عليّ وقلقلت وأصرّت أن نذهب لطبيب مختصٍّ ونعرف السّبب، طيلة النهار وأنا أُجري صوراً وفحوصات وتخطيط قلب.

– وماذا قال لك الطبيب بعد هذا كلّه؟

– المشكلة يا أسامة أنَّ الطبيب غادر، فأخذنا موعداً آخر غداً بعد الظهيرة.

– يا ترى، ما سبب هذه العلّة يا أمين؟ (أسامة يسأل أمين وهو حزين عليه).

– لا أدري،غداً إن شاء الله ستتضح الأمور عند الطبيب.

وقف هاني وقال بكلِّ جرأة وكأنه الطّبيب: "ألا تدري ما سبب الوجع في صدر أمين؟ ألا تعرف يا أمين؟".

– كلا، هل لديك فكرة أيها الطّبيب؟... أجاب أمين باستهزاء.

– وجعك يا عزيزي في القلب، والمرض هو الحبُّ، فأنت مسكين تترف حبّاً قد ضيَّقَ على أنفاسك من كثرة التفكير، ومن إهمال الحبيب أيضاً، أما العلاج فهو أن تبتعد عن رؤية المحبوبة فترة لكي تتعافى، لأنَّ الوصول إليها صعب.

– هاني... أرجوك ارحمني قليلاً من كلامك المفيد، فمرضي لا دخل له بالحبّ.

– أنت حرّ، أنا نصحتك فقط، آه... لقد تذكّرت... تَوقَّع من سأل عنك اليوم بلهفة شديدة؟

– من؟ أتقصد ريم؟

– نعم يا عزيزي... بدأتْ تشعر بك وأخيراً.

– ماذا تستنتج؟ (أمين يسأل هاني، وهو سعيد ورفع حاجبيه باندهاش).

– لا أستنتج شيئاً، قم واعمل لنا شيئاً لنشربه، هيّا يا أمين... هيّا قم، وكفاك أحلاماً.

فقام أمين للمطبخ ليعدَّ الشاي بالنعناع.

***

ها هو اليوم التالي من أيام الجامعة، ريم ذاهبة بكلِّ شوق، ومنال تجهّز نفسها للجامعة، لكنَّ قلبها مليء بالغيرة، وأمين يشعر أنَّ الحياة تبتسم له بتفاؤل.

وصلت ريم إلى استراحة الجامعة مبكّراً كالمعتاد وانتظرت وتأمّلت، لكن شعرت بخيبة أمل لأنَّ أمين لم يأتِ ليجلس معها، كما فعل قبل يومين، وشعرت أنَّ كلّ هذا تخيّلٌ فقط وهو لا يحبّها، وذهبت إلى محاضرتها،جلست بجانب منال كالمعتاد.

سألتها منال: "هل رأيتِ أمين هذا الصّباح في الاستراحة يا ريم؟".

– كلا، لم أرَ أحداً، ربّما هو غائب اليوم أيضاً.

وبعد ساعتين انقضتا في محاضرة طويلة خرجت ريم ومنال للاستراحة ومعهما أسامة، وما إن وصلوا إلى استراحة الجامعة إذ بقلب ريم تزداد نبضاته ويخفق بسرعة، وشعرت أنها إذا رأت أمين ربّما لا تستطيع أن تكلّمه، أو أن تقول له الحمد لله على سلامتك، فدخل ثلاثتهم، وكانت الصالة مليئة جدّاً بالطّلاب والطّالبات، و بدأوا يبحثون عن باقي رفاقهم من المجموعة.

– قالت ريم: "يا إلهي... كم هي مكتظّة الاستراحة اليوم...!لماذا؟"
– لا أستطيع رؤية أحد، أين يا ترى باقي الرفاق؟... منال تتساءل!

لمحهم أسامة وأشار بيده ليدلّ منال وريم، وقال:"ها هم يجلسون عند الطّاولة التي في الزّاوية، آخر الاستراحة... هيّا بنا".

ازدادت نبضات قلب ريم وشعرت أنه الحبّ فعلاً، فهي أوّل مرّة تشعر برهبة هكذا، ربّما أيقنت أنَّ أمين يحبّها حقاً، وأنَّ بينهما الآن إحساس مشترك لا يظهر أمام أحد، فقط العيون التي تفهم لغتهما، وصارت تقول في نفسها: "حين أصل إلى الطاولة لا أريد أن أنظر إلى عيون أمين... أنا خائفة لن أكلّمه...، ولن أبدي اهتماماً، لأني بالضّبط أشعر بالحيرة الشديدة اتّـجاه قلبه وحبّه!"

وصل الثلاثي عند طاولة الأصدقاء، وألقت ريم نظرة سريعة خاطفة على أمين، فوجدته يكتب شيئاً ما ولم ينتبه لوصولهم، إلى أن قالت منال: "مرحباً يا أصدقاء".

فرفع أمين رأسه، نظر إلى ريم فرآها لا تنظر إليه أبداً، بل جلست على الفور بجانب ديالة ونسرين وبدأت الحديث معهما، أما منال فذهبت لأمين عند الطّرف الثاني من الطّاولة، وقالت له: "الحمد لله على سلامتك، لـمَ كنت غائباً يا أمين؟ قلقنا جميعاً عليك"فأرسلت ريم سمعها إليهما لتسمع سبب غيابه، لكن دون أن تلتفت أو تغيّر مكانها.

فأجاب أمين: "لا تقلقي يا منال ذهبتُ وأجريت بعض الفحوصات في المستشفى، بسبب ضيق في التنفّس، ولم يبقَ وقت لأراجع الطبيب لمعرفة السبب".

– لا... سلامتك يا أمين، طمئنا عليك بعد مراجعتك للطبيب.
– إن شاء الله، وشكراً لاهتمامكِ.

قالت ريم في نفسها: "كم أنا غبيّة، لماذا تعمّدت أن لا أقول لأمين سلامتك؟ كيف لي أن أنظر في وجهه الآن؟ أفضل حلٍّ أن أذهب من الجلسة كلّها، سأذهب إلى المكتبة وأبتعد"ثمَّ قالت لمنال:"أنا ذاهبة للمكتبة يا منال... أتريدين الذّهاب معي؟ "

– لا... البارحة كنّا بالمكتبة، لا يوجد تقارير أخرى لإخراجها من المكتبة؟ ما بكِ؟
– كلاّ... بل يوجد، أنا ذاهبة وحدي.

وقامت ريم مسرعة ومنزعجة للمكتبة تشعر بالقهر، لأنَّ أمين أيضاً لم يكلّمها وهي جالسة على الطّاولة، ولم يبدِ أيَّ اهتمام.

وما إن خرجت ريم من الاستراحة، حتى قام أمين بعد دقائق وأراد أن يلحق بها، فتوجّه إلى المكتبة هو أيضاً. فسار مسرعاً لأنه يريد أن يكلّمها قبل دخولها المكتبة، فوجدها داخل المبنى عند الدّرج، ولم تصعد بعد.

– ريم...؟ ناداها أمين بصوت معتدل.

التفتت ريم للوراء فوجدت أمين ورائها يبعد عنها حوالي ستة أمتار، فرجعت إليه وقالت: "تركتك بالاستراحة، ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

– جئت لأقول لكِ حمداً لله على سلامتكِ.

ضحكت ريم وقالت له: "آسفة يا أمين، حمداً لله على سلامتك أنت، بصراحة..."

- لا عليكِ، أنا جئت لكي أراكِ لا لأُعاتبكِ، هل فعلاً أنتِ ذاهبة للمكتبة لعمل بعض التقارير، أم أنتِ تتهرّبين من شيء ما؟
- أنا بصراحة هربت من الاستراحة، فجوّها مزعج جدّاً، فهي مزدحمة بالطّلبة.
- طيّب... أتريدينَ الجلوس بأيّ مكان آخر هادئ، بعيداً عن جوِّ الإزعاج؟
- لا تعتقد أني سأعطيك فرصة للجلوس منعزلين، لأني أبحث عن الهدوء، لا أريد أيّ شبهات.
- منعزلين! يا ريم لا أقصد أن نكون منعزلين أو أن ونجلس وحدنا، كلاّ، أريد فقط أن...أن
- ماذا تريد...؟ تلحق بي إلى هنا، وتقول تريد أن تراني... ونجلس بمكان آخر، وتسألني أسئلة غريبة بالحافلة... ماذا تقصد بكلِّ هذا؟! أهزأ بي أم تُمثّل عليّ بأنك مختلف عن باقي الشباب! (تحدّثت ريم بعصبيّة وحساسيّـــة).

فطأطأ أمين رأسه وقال: "لا... لا يا ريم ما بكِ؟ على كلِّ حال أنا آسف، لم أقصد مضايقتكِ...ربما أنتِ فهمتِ قصدي خطأً، لكن أنا حقاً المخطئ، سأعود للاستراحة ما كان عليّ اللّحاق بكِ، أكرر لكِ أسفي، وأتمنّى أن تسامحيني".

غادر أمين على الفور وشعر أنّه قد أساء التصرّف مع الفتاة، أو أنَّ أسلوبه غير لبق، وعاد ليجلس مع باقي الأصدقاء. لكن ريم وقفت بمكانها دون حراك سارحة بكلامها... "لقد كنتُ قاسية معه، لا أعرف لماذا تصرّفت هكذا، ما الذي جرى لي؟ سيعتقد الآن أني أكرهه، أو أنّ هذا ردّي على لعبة الأسئلة التي لعبناها بالحافلة، يا إلهي ماذا أفعل؟

كيف سأصلح غلطتي...أنا غبيّة سأركض لألحق به وأطيّب خاطره".

فعادت ريم مسرعة إلى الاستراحة، وجدت أمين جالساً مكانه، فذهبت إليه وقالت له:"ممكن دقيقة يا أمين من فضلك"؟

نظر لها أمين نظرة تعجّب وتساؤل، وقام من مكانه دون أن يتكلّم، وقف بجانبها ثمَّ قال: "نعم تفضّلي... أتريدين إضافة شيء على الكلام الذي قلته قبل قليل"؟

- أمين، أنا آسفة جداً، لم أقصد إزعاجك بالكلام، ربّما توتّرت قليلاً، عندما رأيتك ورائي، لقد فاجأتني و أربكتني بطلبك أن نجلس بمكان ما... حقاً أنا آسفة.
- لا تقلقي، لا مشكلة لن أتضايق من كلامكِ، وأنا الذي يجب أن يعتذر، وصدّقيني لم أطلب منكِ أن نجلس سوياً، أنا سألتكِ إذا كنتِ تريدين الجلوس بمكان هادئ.
- حسناً، أتسمح لي أن أدعوك على فنجان شاي في الاستراحة، بشرط أن نجلس هناك عربون مصالحة (وأشارت إلى طاولة صغيرة لا يجلس عليها أحد).
- كنت ترفضين الفكرة.
- لا بأس....

فجلست ريم على الطاولة وذهب أمين لإحضار الشّاي. كانت ريم مسرورة وأمين كذلك، لم يعتقد أنَّ الأمور ستسير جيّداً بعد هذا الكلام القاسي،جلس أمين وقدّم الشاي لها.

- تفضّلي يا ريم الشّاي... لكن قولي لي، لماذا غيّرتِ رأيكِ وجئتِ لتجلسي بالاستراحة؟ مع أنها مزدحمة، أليست لأنها المكان الوحيد الذي نشعر فيه بالرّاحة؟
- نعم نجلس مع كلِّ الطلبة، ولن نكون بموقع شبهة وحدنا.
- نعم... فهمت، لأجل هذا تحسّستِ من كلامي، لكن فعلاً أنا لم...

قاطعته ريم قائلة: "على كلِّ حال أعتذر عن كلامي القاسي يا أمين ".
- لا تتأسّفي، أنا المخطئ في تعبيري، ولم أوضّح كلامي.

وعاد الصمت ليخيّم على الجلسة التي بدأت بالتبريرات، ومنال كانت تراقب الوضع من بعيد، فعيناها لم تبتعد لحظة واحدة عن طاولة أمين وريم، وفي قلبها غيرة وحيرة ولكن ليس باليد حيلة، فريم صديقتها لا تستطيع أن تغضبها، وأمين بالأصل لا يهتم بمنال أبداً.

عاد أمين وفتح موضوع اللّعبة التي لعبها هو وريم بالحافلة، فسألها: "ما رأيكِ يا ريم باللّعبة التي لعبناها بالحافلة".
- بصراحة... لا أريد أن ألعبها مرّة أخرى.
- لماذا؟ لم تعجبكِ؟
- لعبة جيّدة ولكن بقيت أفكّر بنهايتها ليل نهار، فتعبت أعصابي من كثرة التفكير.
- وما المشكلة بنهايتها؟ النهاية واضحة وقلت لكِ الهدف واضح بالنهاية.
- بصراحة... الأمور اختلطت عليّ، هل النهاية حقيقية ومقصودة أم هي مجرّد لعبة للتسلية.
- وأنتِ ما هو إحساسكِ اتّـــجاه نهاية اللّعبة.

ابتسمت ريم بخجل وقالت:"إحساسي أنها نهاية مقصودة ومدروسة... ولا أدري!"
- إحساسكِ صادق... مدروسة، فهذه هي الحقيقة.
- لكن توصيلكَ للحقيقة بطريقة غير مباشرة هي التي جعلتني أفكّر مئة مرة قبل أن أعرف المقصود، وللآن أتساءل ما المقصود حقاً؟
- يا ريم، دائماً أوّل إحساس يصلكِ في البداية يكون هو الصّادق، إذن لا تفكّري بعد ذلك بتشعّب في الموضوع؛ لأنَّ كثرة التفكير هي التي ستشوّه لكِ الصّورة الأولى الأصلية التي وصلتكِ بصدق، لكي لا يظهر لكِ أموراً أخرى كاذبة وستدخلين بمتاهات، لذا يجب أن تبقي على إحساس اللّحظة الأولى بكلِّ شيء، لأنه مؤكّد يكون صادقاً، كما أنني بالحافلة شعرت أنَّ المعلومة وصلتكِ صحيحة على الفور، أليس كذلك؟
- بلى، لهذا السبب لم أستطع الردّ عليك بعدها بالكلام، لقد رُبط لساني وبقيت صامتة، لم أتصور أن نهاية هذه اللعبة حقيقة تنتظرني، فتفاجأت.
- هل حقيقة اللّعبة أزعجتكِ؟ أو تعتبرين نهايتها سخيفة؟ أم ماذا؟
- كلاّ، بل من أجمل الألعاب التي لعبتها في حياتي، و نهايتها لم أتوقّعها.

أضحك الجواب أمين وسرَّ به جداً، لأنه اطمأنَّ أنها لا ترفضه.
- كم بقي من الوقت يا ريم للمحاضرة؟
- بقي حوالي ربع ساعة، ألا تلبس ساعة في يدك؟

– نعم، لكن نسيت ساعتي.
– هل ستأخذ نفس حافلة المرّة الماضية بعد المحاضرة.
– بصراحة لا، اليوم لن ينتهي دوامي بعد هذه المحاضرة، فبعدها لدينا ساعتين في المرسم.
– آه.. نعم، إذن سأذهب وحدي.
جاء هاني لطاولة أمين وقال: "هيّا ما بكما؟ لا وقت الآن للأحاديث، سيفوتكما وقت المحاضرة".
– هيّا، وذهب مع رفاقه إلى كلية الهندسة.
أما منال وقفت بجانب ريم وقالت لها:هكذا تفعلين بي يا ريم!! (منال تعيسة ولا يعجبها الوضع).
– ماذا فعلت بكِ يا منال؟
– يقول المثل من لقي أحبابه نسي أصحابه، أليس كذلك؟
– كلا، يا منال لا تكوني سخيفة.
– إذن ما هو تبريركِ... تتركيني كل فترة الاستراحة، وتجلسين مع ذاك الشَّاب.
– ذاك الشّاب؟ ما هذا الأسلوب الجديد يا منال؟ أتشعرين بالغيرة.
– كلا، أمره لا يهمّني، لقد تركته لكِ، ولكن أتمنّى أن تهتمّي بصديقتكِ أيضاً.
– لا يا منال أرى أنّكِ تغيرتِ، لستِ صديقتي التي أعهدها، لَم تتكلمين معي بهذه الطريقة القاسية؟ انظري إلى ديالة لم تأتِ وتعاتبني مثلكِ أبداً، وهي صديقتي من أيام المدرسة.
– آه... تُفضّلي ديالة عني أيضاً!
– منال أرجوكِ قلت لكِ لا نريد أن نخسر صداقتنا من أجل مواضيع تافهة، ولا تشبكي الأمور معاً، ضعي كلَّ موضوع على حدة، أنتِ صديقتي وأنا أحبكِ، ولا أفضّل شخصاً عن آخر، هيّا ادخلي إلى القاعة قد وصلنا، لا نريد شجاراً الآن فالدّكتور سيأتي.

***

انتهى الدوام وأصبحت ريم في المنزل، كلاماً كثيراً تريد أن تقوله لوالدها ولا تعرف كيف تبدأ، فهي متأكّدة أنَّ أمها ستكون غير راضية عن الموضوع، لكن مهما يكن ستقول لأمها ما دار اليوم من حديث فهي لا تحبُّ أن تخفي شيئاً عنها، ومضى النهار كالمعتاد، مشاحنات قليلة بين ريم وأختها رندة مع بعض المشاركة من رنيم الصغيرة، ومعظم الوقت انقضى بالدراسة، لكن في المساء وبالتحديد بعد العشاء، طلبت ريم من أمها هند أن تأتي لغرفتها لتكلّمها بموضوع.
– ادخلي أمي واجلسي هنا، أريد أن أخبرك سرّاً (قالت ريم).
– نعم، ما هو السرّ الكبير الذي تريديني أن أسمعه وأغلقتِ الباب بالمفتاح من أجله، ماهذا التكتّم...؟
– أمي... يا حبيبتي، أتذكرين عندما قلت لكِ عن الشّاب الذي لمـّح لي أنّه يحبّني.
– يا ريم أعدنا لنفس الموضوع، ألم أقل لكِ أن تنتبهي لنفسكِ ولدروسكِ.
– أمي أرجوكِ دعيني أكمل، لو سمحتِ لي.
– نعم، أكملي أنا أسمع، ماذا يريد؟

– لا شيء، لكن حقاً أرى أنه شاب رائع وجيّد، لا بأس من أن تكون علاقتنا معاً بكلِّ حدود الأدب، فنحن زملاء منذ البداية.
– علاقة بين شاب وفتاة مستحيلة، وما نهاية هذه العلاقة؟
– بما أنه يحبّني من المؤكّد سيطلب يدي للزّواج.
– هذا مبكّر عليكِ أمامكِ ثلاث سنوات دراسيّة، ضعي عقلكِ برأسكِ يا ريم، كما أنَّ الشّاب لم ينضج بعد، ليصبح رجلاً بكلِّ معنى الكلمة ويتحمّل المسؤوليّة.
– أمي، ما معنى كلامكِ؟
– أتكلّم لغة واضحة ألم تفهمي قصدي، علاقات بالجامعة لا... زملاء دراسة لا بأس، لكن تقولي لي حب وغرام هذا ممنوع وغير مشروع، وإياكِ أن تفعلي شيئاً من وراء ظهري، يا ريم أريدكِ كما عهدتكِ، المشاكل لا تأتي إلا من الشّباب!

وخرجت والدة ريم من الغرفة وهي منزعجة جداً من ريم، ولم تعجبها الفكرة أبداً، لا بل رافضة كل الرّفض.

وجلست ريم تحدّث نفسها:"يا ترى ماذا أفعل؟ هل أقف في وجه الشّاب؟ لا... لأنَّ قلبي سيتحطّم وستشمت منال بي، وتحاول أن تسحبه إليها، فهي مؤكّد تنتظر مثل هذه الفرصة لتنقضَّ على الفريسة، أنا أحبّه، ورويداً رويداً أمي ستتقبّل الوضع، أكيد... فهي لا تحب أن تراني حزينة، وأنا بعد فترة سأعود وأكلّمها بالموضوع نفسه، وغداً سأفهم من أمين ما معنى الحبّ بالنسبة له، وماذا يقصد بصراحة؟

وفي اليوم الثاني جاء أمين مبكّراً تمام السّاعة التاسعة فوجد ريم جالسة تقرأ الصّحيفة، فوقف عند طاولتها:"صباح الخير، أتسمحين لي بالجلوس؟"
– طبعاً تفضّل.
– كيف حالكِ اليوم؟... قالها وهو سعيداً جداً وسيطير من الفرح.
– تقريباً... جيّدة.
– لماذا تقريباً؟... شعر أمين بالإحباط.
– قبل أن أقول لك لماذا، أريد أن أطمئنّ على صحّتك، أذهبت البارحة للطّبيب؟
– كلا، لقد أجّلت الموعد لليوم.
– لماذا؟
– لأني رجعت من الجامعة حوالي السّاعة الرابعة والنصف وموعدي السّاعة الخامسة، فلم يكن هناك وقت كافٍ لأستريح قليلاً وأتناول طعامي، أما اليوم ينتهي دوامي السّاعة الثانية، فمعي وقت كافٍ.
– نعم، فهمت.
– هيّا قولي ما بكِ؟
– بصراحة يا أمين، جلست لأخبر أمي عنك فغضبت مني، فربما يا أمين لا يوجد داعٍ ليكون بين الشاب والفتاة علاقة في الجامعة خارج حدود الزّمالة، لذا يجب أن ننهي قبل أن نبدأ.

– ريم! أرجوكِ ما هذا الكلام؟ لن تكون علاقتي بكِ مجرّد صداقة بالجامعة لا تجعلي تفكيركِ سلبياً.

وصمت أمين دون أن يضيف على جملته هذه كلمة واحدة. وأخفض نظره إلى الطاولة يريد أن يخبرها أنه سيتقدّم لخطبتها لكن وقف الكلام بحلقه، وهو يفكّر بكلام ريم.

– أمين أنا آسفة، لم أقصد إزعاجك، لكن قل لي أنت، كيف عليّ أن أتصرّف؟ إذا كان لديك حلٌّ أنا مستعدّة لكي أسمعه...، أما أمي لن أستطيع إغضابها.

– أتذكرين أوّل شهر في الجامعة، عندما تعرّفنا عليكِ أنا وهاني، وكانت بجانبكِ منال؟ منذ تلك اللّحظة تولّد عندي الشعور بالإعجاب، لا بل من قبل... مرّة رأيتكِ بالمكتبة كانت أوّل مرة أراكِ فيها... وأصبح يوماً بعد يوم يتحوّل الإعجاب إلى حبٍّ صامت، وازداد مع الأيام حتى قارب السنة الدراسية الأولى على الانتهاء، بقي لنا في هذه السنة شهران، وانظري متى تجرّأت أن أخبركِ وكيف، بطريقة غير مباشرة، أتدرين لماذا؟ لأنني كنت خائفاً من ردّة فعلكِ، وكنت خائفاً من شعوركِ اتّـــجاهي، والسبب الأهم أنني محرج يا ريم وأخاف أن أقع بالحرام وأن أغضب الله تعالى، لم أعرف كيف أعترف لكِ، لم يسبق لي أن جلست مع فتاة ولا مرّة واحدة في حياتي، فكان الموضوع صعباً عليِّ، وكلّما كان الوضع يزداد صعوبة يزداد قلبي تعلّقاً.

– وكيف عليَّ إقناع أمي... وما نهاية علاقتنا هذه؟ من المؤكّد أنها ستسألني هذا السؤال؟

– يا ريم أللحب نهاية؟ وهل علاقتنا إذا كانت ناجحة سيكون لها نهاية أيضاً؟ لا أظن، فالعلاقة المتكلّلة بالحبّ لا تنتهي بل تدوم للأبد.

– حسناً، وكيف ستدوم؟

– مؤكّد إذا بقيت العلاقة والمحبة صادقة وتمّ الله لها بالخير والنجاح، سنكملها نحن بالزّواج، ومن هنا سنبدأ وإلى ما لا نهاية، نيّتي صافية وصادق مع الله أولاً، ومع نفسي ومعكِ ثانياً.

– بدأت تقنعني.

ابتسمت ريم بطريقتها الناعمة التي كلّما ابتسمتها سقط قلب أمين من مكانه، ثمَّ أرادت أن تغيّر الموضوع.

– أمين؟ هل أستطيع أن أسألك سؤالاً، ربّما يكون من خصوصيّاتك؟

– هاتِ ما عندك.

– لقد سمعت أكثر من مرّة، أنّك تسكن وحدك في المترل، أين هم أهلك؟

– آه... يا ريم، لقد وضعتِ يدك على الوجع.

– آسفة إذا كان سؤالي يحرجك...أو أنك لا تريد الكلام عنه... فالموضوع سرّ؟

– لا يا ريم...! لا يوجد عندي ما أخفيه والحقيقة ستبقى ذاتها، إن أخفيتها أو قلتها لن تتبدّل، فتاريخ الإنسان يبقى محفوراً على مرّ السنين في صدر الزّمن.

– إذن، ماذا عنهم، وعنك؟

– منذ ولادتي يا ريم، وأنا كنت كرة القدم التي يركلها الجميع في ملعب الحياة.

– كرة القدم؟ لم أفهم قصدك!

- سآتيك بالكلام، كما فهمت من خالتي أنَّ أمي وأبي بعدما تزوّجا،أصبحت علاقتهما سيّئة جداً مع بعضهما، فحملت أمي، وما إن أنجبتني إلى هذه الدّنيا، حتّى انفصلت عن أبي بطلب منها، يقال أنَّ والدي كان صعباً ولا يحتمل، إضافة أنه لا يحبُّ الأطفال... فكانت الرّكلة الأولى من أبي، حين رمى بي إلى أمي، وقال لها أنه لا يريد أن يراني، ولا حتى يريد أن يعترف أن له ولد، هو مجرّد والدي بالاسم،على شهادة الميلاد.
- ياه... أيعقل؟ إذن لم تره ولا مرّة واحدة أو تعرفه؟
- لا عليكِ...المهم جاء حكم القدر أن تتزوّج أمي وتسافر للخارج (لأمريكا)، يُقال حاولت أن تأخذني معها لكن دون جدوى، عملت المستحيل لكن بلا فائدة أيضاً، السفارة كانت معترضة، فكانت الرّكلة الثانية من أمي لخالتي، فما كان إلا لهذه الكرة أن تطير لحضن الخالة.
- كم كان عمرك في ذلك الوقت؟
- كنت ما يقارب ثلاث سنوات عندما سافرت أمي.
- يا أمين كنت صغيراً جداً! وبقيت عند خالتك؟
- نعم، لكن خالتي لن تبقى لي للأبد فهي الأخرى جاء النصيب وأرادت الزّواج، هي تحبّني كثيراً، وهي التي قامت برعايتي بعد غياب أمي، فكانت تلعب معي دور الأم والأب، لكن خالتي أيضاً شاركتهم في لعبة كرة القدم من دون قصد، فركلتني إلى جدّتي أم أبي عندما كان عمري ثماني سنوات.
- لا يا أمين هذا كثير... فعلاً كنت كالكرة! صدقت التشبيه.
- لكن من باعتقادك الذي كان الهدّاف الذي رمى بالكرة فدخلت بالمرمى وعلقت؟
- مَنْ؟
- جدّتي، التي لم أرها من قبل ولا مرّة واحدة في حياتي، أم أبي تصوّري! أبي الذي كان وما زال لا يعترف بي، أرسلتني خالتي عند أمه– جدتي – التي هي لم تعرفني أبداً، فكانت قاسية جدّاً عليّ ولم تحبّني يوماً، فركلتني ركلة قوية جعلتْ هذه الكرة هدفاً في المرمى، مع أنها سيّدة عجوز لكن مهارتها في اللّعب عالية، فإلى أين ركلتني؟
- إلى أين؟
- إلى مدرسة داخلية، (ثمَّ صمت أمين فعادت به الذّاكرة إلى ذاك المكان).
- لا يعقل... لا، إنهم جميعاً بلا رحمة، كيف يفعلون بطفل صغير كلَّ هذا! كم أنت مسكين يا أمين، لقد عانيت الكثير.
- لقد عشت بشتات دائم، لم أشعر يوماً بالأمان، كنت كلّ مرّة أشعر بأنّي سأغيّر مكان عيشي، أشعر بأنَّ الجميع يريد إبعادي، طفولتي تنقصها الطّفولة، لم أرَ السّعادة يوماً وأنا طفل لا أذكر سوى أحزاناً ودموعاً.
- وفي المدرسة الداخلية ألم تشعر بالاستقرار؟ وإلى متى بقيتَ فيها؟
- بقيت فيها إلى أن تخرّجتُ من الثانوية...ألم أقل لكِ علقت الكرة بالمرمى، فكان هدفاً.
هزّت ريم رأسها متأثّرة من كلام أمين وعن طفولته البائسة.

وأكمل أمين: "أما في المدرسة الداخلية بقيت حوالي السنة وأنا كلّ يوم أنام والدّموع تغمر وجهي، وتبلّل وسادتي".

– وماذا كانوا يقولون لك عندما يرونك تبكي؟

– لا أحد يراني، يأمروننا بالنّوم فيراقبوننا حتى نذهب لنغسل وجهنا وأيدينا وأقدامنا، وننظّف أسنانا ونلبس ملابس النّوم، ومن ثمّ يذهب كلُّ طفل إلى سريره فيطفئون علينا الأضواء، وإذا سمعوا صوت طفل يتكلّم أو مستيقظ كان يُعاقب، وأنا أبدأ بالبكاء بدون صوت، لا يوجد من يسمع صوت الدّموع، والحنان المتوفّر بالمدرسة لا يكفي كل الأولاد، فدموعي تشهد على أيامي الصّعبة التي قضيتها في تلك المدرسة، كنت أشعر أني سجين هناك ينتظر وقت الإفراج عنه.

وعاد الصمت يخيّم على أمين، فنظرت ريم لوجهه، فوجدت عيناه تتلألآن بالدّموع، وبياض عينيه يميل للحُمرة.

– أمين! ما هذه الدّموع...أتبكي؟(كادت ريم تشارك أمين بالبكاء من شدّة حزنها عليه).

– لا... لا أبكي، لقد بكيت كثيراً فيما مضى، ربّما هذه دموع قديمة كانت عالقة منذ أيام الطفولة وتريد أن تخرج الآن لتلحق بباقي الدمعات التي انهمرت منذ زمن... لا عليكِ، لم أعد طفلاً، وربما عليَّ أن أُمسك نفسي جيّداً، ومن المــَعيب أن أذرف دمعاً على شيء انقضى!

– دمعك يا أمين أغلى من الشيء الذي تنهمر دموعك من أجله... الحق عليّ أنا التي فتحت لك باب الماضي البائس، آسفة.

– لا يا ريم، لا دخل لكِ... الباب موجود، إن كان مفتوحاً أو مغلقاً، فطفولتي أذكرها ولا أنساها ولن تتغيّر.

– أشعر أنّك أوّل مرّة في حياتك تحكي لأحد عن طفولتك.

– نعم...بالضبط، لم يسألني أحد هذا السؤال قبلكِ يا ريم.

– لكن السؤال كان جوابه عمراً مضى.

– آه... عمراً مضى، وطفولة ضاعت بين صفحات الزّمن التي طواها النّسيان.

– أمك يا أمين، لم تعد تسأل عنك؟

– أمي... توفّيت منذ فترة أيضاً في حادث، وقالت لي خالتي أن لي أختين (أماني، وأمان)، أمي أسمتهما بأسماء قريبة من اسمي لكي تعوّض عن فقدان أمين. لكن لم أرهما أبداً في حياتي فهما في أمريكا. وتركت لي ورثة جيّدة لا بأس بها، مبلغاً جيداً من المال أعيش منه الآن وأدفع أقساط الجامعة، وعمارة فيها شقق للإيجار، وجميع الشقق مؤجّرة، ما عدا التي أعيش فيها أنا والشقّة المقابلة لشقّتي التي تعيش بها خالتي وعائلتها.

– هذا كلام جيّد.

– نعم، فقد عوّضني الله بالمال لأستطيع أن أكمل حياتي، وإلا بقيت مشرّداً لا مكان ألجأ إليه بعد تخرّجي من المدرسة الداخلية، ولا أستطيع دفع أقساط الجامعة، لكن الله يبقى أرحم الرّاحمين على عباده، وأرحم من الأب والأم.

– هاني وأسامة كانا معك بالمدرسة أليس كذلك؟ أيعرفان قصّتك؟

– نعم، يعرفان القصّة منذ أن كنت صغيراً، وليس بالوقت الحاضر، لكن أسامة له أب يهتمُّ به ويرعاه، لقد وضعه أبوه بهذه المدرسة لأنّ أمه متوفّية، و كان كلّ أسبوع تقريباً يأتي ويزوره، وأحياناً يأخذه إلى خارج المدرسة، وهاني كذلك فوالداه موجودان فهو يعيش معهما الآن، لكن ما جعله يأتي للمدرسة هذه هو أنَّ والديه يسافران كثيراً، طبيعة عملهما هكذا.

– نعم أعرف، أبوه طيّار، وأمه مضيفة طيران.

– أجل ونحن أصدقاء منذ الطفولة، لكن الفرق بيني وبينهما هو وجود الأهل، هما كانا يخرجان من المدرسة، لكن أنا لم أخرج، أنا كنت في القسم الداخليّ قسم الأيتام...وهم في السكن الداخليّ للمدرسة وليسا تحت مسمّى أيتام. وأنا لم أتخطَّ حدود سورها إلا بعد حفلة التخرّج.

– وكيف كانت المدرسة والدّراسة والمعاملة؟

– المدرسة بشكل عام جيّدة نظيفة مرتّبة، تدريسها قويّ، كما أنهم يشدّدون علينا ويبذلون كلّ جهدهم ليُخرّجوا من المدرسة رجالاً يُعتمد عليهم يتحمّلون المسؤولية، كانوا يعلّموننا كلّ شيء الطّهي، والغسيل، والتّنظيف، والميكانيكا و كل ما يخطر ببالكِ، هذا كلّه بجانب الدّروس التعليميّة بجميع المواد الأكاديمية، كما أنها مدرسة محافظة على الدين والعادات والتقاليد، فنحن في كلِّ صلاة كنّا نذهب لمسجد المدرسة، ونصلّي الفجر حاضراً وباقي الصلوات في وقتها، ونصوم شهر رمضان، كان هذا إجباريّ على جميع الطّلاب، ومن يخلّ بالفروض يعاقب، لذا أحمد لله دائماً على التربية الدينية السليمة التي خرجتُ بها، فالدّين هو أساس العبد الصالح.

– أمازلت تواظب على الصّلاة للآن يا أمين.

– نعم طبعاً... لكن صلاة الفجر أحياناً أتقاعس في الاستيقاظ مبكّراً، بسبب دواء معين آخذه، فأقضيها عندما أستيقظ، إن شاء الله سأحاول أن أشدّ على نفسي وأواظب أكثر، فهذا لا يجوز، هل أنتِ تصلّي ياريم؟

– والله أقطّع يا أمين بالصّلاة.. أتمنّى أن أواظب عليها، لكن لا أحد يُصلِّي عندنا في البيت.

– لا أملكِ ولا أباكِ!!!

– كلا، للأسف.

– عديني أن تبدئي أنتِ بالصلاة وتكونين قدوة حسنة لهم جميعاً وبعدها نتكلّم عن الحجاب.

– الحجاب؟ إن شاء الله...أمين انظر إلى السّاعة بقي ثلاث دقائق لبدء محاضراتنا.

– هيّا... هيّا بنا، لقد سرقنا الحديث، يجب أن نركض لنصل.

فخرج أمين ومعه ريم من الاستراحة مسرعين جداً لمحاضراتهما، "هاتِ كتابك الثقيل لكي أحمله عنكِ، لتستطيعي الجري، أخذ كتابها وحمله.

"وأنت كيف ستركض؟ "سألته ريم وهي تهرول.

– لا عليكِ، أسرعي.

– لقد شعرت أنني خرجت من السينما.

– لماذا يا ريم؟

- وكأني كنت أرى فيلماً غريباً، فأحداث طفولتك ما تزال في ذهني.
- أأزعجتكِ؟
- كلا، بل أنا من أزعجتك... وحزينة لأجلك.
- لا عليكِ، ها أنتِ الآن تعرفين عني كلّ شيء في حياتي، وأصبحتُ أمامكِ كالكتاب المفتوح، ولم أخفِ عنكِ شيئاً، في المرة القادمة دوركِ. ها قد وصلنا الآن...إلى اللّقاء.

الفصل الثاني عشر

الغرفة ممتلئة بالنّاس ولا يوجد مقاعد فارغة للجلوس، وجوُّ الغرفة لا بأس به، مع أنّ المكان مكتظ لكن حرارة الغرفة جيّدة، لأنَّ المكيّــف يعمل بدرجة حرارة باردة، يضفي على المكان جوّ الانتعاش.

– أموجود الطّبيب في العيادة؟ سأل أمين السكرتيرة.

– نعم، ألديكم موعد؟

– موعدي كان أمس السّاعة الخامسة، لكنّي اتصلت معكِ لأغيّره لليوم.

– ما الاسم لو سمحت؟

– أمين شاكر.

– نعم... نعم، موعدك بعد ربع ساعة، أحضرت الفحوصات اللازمة؟

– أجل، ها هم في الملف.

– أعطني الملف، وانتظر قليلاً.

– حسناً، أشكركِ.

ووقف أمين وخالته ينتظران وقت دخولهما للطّبيب، ولم يكن هنالك أيَّ مقعد فارغ، وبالضّبط بعد نصف ساعة جاءت السكرتيرة، وقالت: "تفضّل يا أستاذ أمين بالدخول نعتذر عن التأخير، الطّبيب بانتظارك".

فدخل هو وخالته وكان قلبه يخفق قلقاً.

– تحيّاتي دكتور معاذ (قال أمين وهو يسلّم على الطّبيب باليد).

– تفضّل أمين، تفضّلي سيّدتي.

جلس أمين وخالته أمام طاولة مكتب الطبيب.

– كيف حالك يا أمين؟

– الحمد لله جيّد الآن.

– أما زال الوجع يلازمك أم أنه خف؟

– لا يوجد وجع، لكن شعرت البارحة في ضيق خفيف بصدري.

– في الحقيقة يا أمين، لقد اطَّلعت على جميع الفحوصات والتّخطيط والقسطرة، وموضوعك لن أعتبره مُعقَّد، أنت شاب واعٍ ولا أريدك أن تخاف مما سأقوله لك، مشكلتك لها حلّ بإذن الله، وأنتِ يا خالة لا داعي للقلق، لكي لا تؤثّري سلباً على أمين، سنعالج مرضه ببساطة. ومن دراستي للأعراض التي كانت تظهر عليك فإنها بالحقيقة أعراض مشابهة تماماً لمرض تصلّب الشرايين، الذي يؤدّي إلى نوبة قلبيَّة، ولكن...

– الموضوع خطير لهذه الدّرجة؟ (سألت علياء بقلق).

– من فضلكِ لا تستعجلي بالأسئلة، ودعيني أكمل... أريد أن أشرح لكما شرحاً تفصيلياً، لكي تفهمان الحالة بالضّبط... والوضع ليس بالخطير، لا تستبقي الأحداث.
– آسفة أيها الطّبيب.
– قلنا إنها أعراض نوبة قلبيّة، لكن ما تبيَّن عندي بالقسطرة وصور القلب وباقي الفحوصات أنَّ أمين لا يعاني أبداً من تصلّب الشرايين الذي يؤدّي للنوبة، بل إنَّ شرايينه نظيفة ولا يوجد عليها أيَّ ترسب دهنيّ أو انسداد، لكن هذه النوبة القلبيّة التي تحصل لك تُعتبر نوبة قلبيّـة خفيفة، لأنها لو كانت قوية لأدَّت إلى غيبوبة –لا سمح الله– سببها هو شريان متضيّق بشدّة لدرجة الالتصاق، هكذا من دون ترسّبات، نعتبرها نحن بالطّب (عاهة) أو تشوّه في شرايين القلب سببه ربّما سخونة شديدة منذ الطفولة إثر مرضٍ ما كالإنفلونزا، فضربت السّخونة من شدّتها أحد شرايين القلب، وبسبب عدم انتباه الأهل له وهو صغير ارتفعت حرارتهمما أدى إلى تضيّق ونتج ما نتج. أما الاحتمال الآخر بعض الاطفال يُـخلقون بهذه العاهة فتبدأ تظهر الأعراض مع النموّ.
– هل يعني ذلك أنَّ هذا الشريان يؤثّر على عمل عضلة القلب؟ (أمين يسأل).
– نعم، وأريد أن أعرف منذ متى بالضّبط وأنت تمرُّ بنفس هذه الحالة والأعراض؟
– تقريباً أيها الطّبيب من عمر الثالثة عشر من أيام المدرسة، كنت عندما أركض مع الأولاد أو أمارس لعبة كرة القدم أوعندما كنت أحزن وأتضايق، كانت تصيبني نفس الحالة.
– وما العلاج الذي كنتَ تأخذه؟
– طبيب المدرسة وصف لي أقراصاً مهدّئة، فكنت أنام وأستيقظ مرتاح. ومنعوني من الرّكض وممارسة الرّياضة التي فيها جهد، لقد حزنت لعدم استطاعتي اللّعب مثل باقي الأولاد، وأحياناً كنت أشعر بالكسل.

فوجّهت علياء سؤالاً للطّبيب: "وكيف لم ينتبه أحد على علّة أمين؟ أيعقل أنه كان يُعاني منذ الصغر...!"
– من المؤكّد أنَّ أمين لم يعانِ منذ أنّ كان طفلاً صغيراً من هذه الأعراض إلا الشيء البسيط، لأنَّ عضلة القلب كانت صغيرة، أي عضلة قلب طفل، والشريان هذا الرّفيع الملتصق كان يفي بالغرض نوعا ما لضخِّ الدّم لعضلة قلبه، لكن عندما صار كبيراً أصبح يأخذ قلبه قلب شاب، بقي هذا الشريان صغيراً ورفيعاً فيه التصاقات أو تضيّقات، لا يضخّ ويغذّي القلب بالدّم والأكسجين الكافي لعضلة قلب شاب، فأصبح يشعر بهذه الأعراض المشابهة تماماً لأعراض تصلّب الشرايين التي تؤدّي لمثل هذه النوبة، فمن الطبيعيّ أن يزداد الألم عليه، لأنه لم يأخذ العلاج الصّحيح. فهو الآن يعيش بشريان طفل وقلب شاب...

أضاف الطّبيب مستفسراً، قبل الثالثة عشر يا أمين، ألم تشعر بأيّ شيء؟
– بصراحة كنت أحياناً أعاني ضِيقاً في صدري وأنا صغير، أذكر هذا جيّداً، لكن كان ضِيقاً أحتمله، ودائماً كنت أحاول إخفاءه وأتحايل على نفسي بأني قويّ.
– لماذا لم تقل لأحد عن الضّيق، عند حدوثه؟

– عشت فترة من الوحدة وعدم الاستقرار وكنت دائماً أشعر بالحزن، لهذا السبب كنت أعتقد أنَّ هذا الألم أو الضيق ناتج عن الضغوطات النفسيّة التي كنت أمرّ بها، وكما أخبرتكَ كنت أحاول دائماً أن أتحايل على نفسي لأشعر أني سعيد، ولم يخطر ببالي أبداً أنَّ هذا الضيق ناتج عن تضيّق أو عاهة في شريان، أو أنَّ لديَّ علّة ما، وبما أني كنت طفلاً صغيراً، لم أدرك سبب الألم.

– أتستطيع أن توضّح سبب وحدتك في أيام طفولتك يا أمين؟ لأني أرى موضوعاً معقّداً آخر أمامي، هذا إذا سمحت لي أن أطّلع على خصوصيّاتك.

شرح أمين باختصار للطّبيب سبب وحدته فيما مضى. ثمَّ طلب من الطّبيب أن يشرح له عن عمل هذا الشّريان بالتفصيل، ليعرف وضعه العام.

– هذا أكيد، كنت سأشرح لك من دون أن تطلب لكي تعرف كلّ صغيرة وكبيرة يا عزيزي أمين، يعمل القلب على ضخِّ الدّم إلى جميع أنسجة الجسم، عبر شبكة من الأوعية الدموية يبلغ طولها ستين ألف ميل، ويزوّد الدّم الأنسجة بالأكسجين والمغذيّات الضرورية للصّحة. وعادة المشاكل التي تحدث للقلب كثيرة منها ضعف بالعضلة القلبيّة، وضيق الصمّامات، ومشاكل بجهاز التوصيل الكهربائي، وأحياناً غلاف القلب وانسداد الشرايين التاجيّة (وهي الشرايين الأساسيّة التي تزوّد عضلة القلب نفسها بالدم المحمّل بالأكسجين) وهي شبيهة بالمشكلة التي تعاني منها أنت.

وقلنا أنه تضيّق والتصاقات وليس انسداداً ما تعاني منه، لكن هي ذاتها أعراض النوبة القلبية، فعندما لا تتلقّى عضلة القلب كفايتها من الدّم، يشعر المصاب بألم أو ضغط نسمّيه بالطّب (الذّبحة الصدريّة)، وعندما يُـــحتجز الدّم طويلاً في الشّريان من ثلاثين دقيقة إلى ساعتين فإنَّ هذا الجزء الذي يغذّيه الشريان في العضلة يموت، ولكن في مثل حالتك لن يُـــحتجز الدم في الشريان، لأنَّ الشريان لديك غير مسدود كليّا، لذا يبقى الدم يتدفّق لكن ببطء شديد جداً، وفي حالة الضغوطات النفسيّة أو الجهد الجسديّ، فإنه من المؤكّد ستشعر بضيق وألم بالصّدر، ومن الطبيعيّ أن تتسارع دقّات القلب، فيحتاج القلب إلى ضخِّ كميّة دم أكبر وأسرع، فالشريان الضيّق لن يستطيع توفير كميّة ضخٍّ لازمة للعضلة التي تحاول أن تتماشى مع الجهد الذي يُبذل، فتشعر بأعراض مثل ألم في الصدر يكون عادة متركّز في الوسط مع انتشاره إلى الذراع الأيسر أو الأيمن، وأحياناً يصل إلى الرّقبة، ويكون على شكل ضغط أو ثقل، ويأتي الألم عند بذل جهد أو توتّر نفسيّ، ويزول الألم عادة بتوقّف الجهد أو بزوال أسباب التوتّر، وعند زيادة الحالة يحصل دوار أو إغماء وتعرّق وغثيان وقِصَر بالتّنفس.

لا أريد أن أسبّب لكم القلق بكلامي، لكن يجب أن يكون المريض على دراية ومعرفة كاملة حول مرضه وما يعاني منه، لكي لا يحصل معك أيَّ مفاجآت تُـــخيفك فيما بعد أو مضاعفات، لكن كما قلت لكما... مرضك أبسط من أن يصل إلى الحالة المتقدّمة هذه إذا حافظت على صحّتك.

– لكن أيها الطّبيب، كيف عليك أن توسّع له الشريان، لكي يعيش حياته طبيعيّة؟

– أيتها الخالة القلقة سأكتب له الآن دواءً، يعمل على توسيع الشريان، ودواءً آخر يعمل على تقليل حاجة العضلة إلى الدّم، ودواء آخر عند الحاجة مهدّئاً ومنوّماً، وكلُّ دواء له وقته، أما أنت يا أمين عليك اتّباع التعليمات التالية بدقّة متناهية.
– حسناً دكتور تفضّل أنا أسمعك.
– أولاً: عدم التدخين والامتناع عنه نهائياً.
– أنا لست مدخّناً، لم أمسك سيجارة في حياتي أبداً.
– هذا رائع، طيّب لا تحاول... وثانياً: عليك المحافظة على وزنك ثابتاً دون أن يزداد، لأنَّ السمنة ليست من مصلحتك، وتجنَّب أكل اللّحوم بكثرة، والأطعمة الغنيّة المشبعة بالدّهون مثل السمن لكي لا يترسّب أيَّ شيء على الشريان، مما يؤدّي إلى زيادة التَضيّق ومن ثمَّ الانسداد...، ثالثاً: عليك قياس ارتفاع ضغط الدّم من فترة إلى أخرى. رابعاً: ممارسة رياضة المشي يومياً؛ لأنها تنشّط الدورة الدّموية، وخامساً: وهي الأهم الابتعاد عن التوتّرات والضغوطات النفسيّة، يجب أن تبقى هادئاً وتأخذ الأمور ببساطة، أما سادساً وأخيراً: الإقلال من شرب القهوة والشّاي؛ لأنَّ زيادتهما تعمل على تسريع ضربات القلب فيسبّب لك الاضطراب، أمفهوم كلامي؟
– أشكرك أيها الطّبيب على هذه النصائح المفيدة... نعم سأعمل بها.
– إذن يا أمين يجب أن تقوم بزيارة دوريّة للعيادة، ومع الأدوية التي سأكتبها لك والتعليمات هذه، تسير على خطوات النّجاة من مشاكل وأمراض القلب وتعيش حياة طبيعيّة بإذن الله.
(وبدأ يكتب الطّبيب وصفة الأدوية لأمين).
– تفضّل هذه ورقة الوصفات الدوائية، اصرفها الآن وتناول الأدوية حسب التعليمات، وإياك أن تخطئ بمواعيد الأدوية، لكي لا يتضارب دواء مع الآخر.
– شكراً دكتور، ومتى سيكون موعد المراجعة؟
– بعد أسبوع تماماً، سلامتك...

خرج أمين من عند الطّبيب هو وخالته، لكنّه حزين ومندهش من غرابة المرض، أما خالته فبقيت طيلة الطّريق صامتة، ولا تعرف كيف تواسي أمين على مرضه العجيب هذا، لأنها تشعر إذا تكلّمت معه حول المرض فإنها ستحبطه، هي نفسها تشعر بالقلق والخوف اتّجاه أمين المسكين.

وعند وصولهم إلى المنزل، قالت الخالة لأمين: "تعال أمين، ادخل واسترح عندي في البيت".
– لا شكراً، أريد أن أجلس وحدي قليلاً، ثمَّ أنام ساعة وبعدها سأجلس لأدرس الامتحان.
– حسناً عزيزي، إذا أردت شيئاً، لا تتردّد... سأقوم بالمساعدة.
– أعرف خالتي، أنتِ لا تقصّرين معي بشيء سلمت يداكِ، اذهبي وارتاحي قليلاً.

دخلت الخالة بيتها وهي تكلّم نفسها:"مسكين يا أمين، لَم كلُّ هذه المشاكل تلحق بك منذ طفولتك، لقد عانيت بما فيه الكفاية وأنت طفل! والآن اعتقدت أنَّ الزّمن سيفتح لك أبواب الفرح لكن يظهر أنَّ الحياة أصبحت بلا ضمير، ترمي المشاكل عليك من كلِّ الاتّجاهات، ويا

ترى هل قلبك الصغير سيتحمّل صدر الزّمن؟ الحمد لله على كلِّ حال، أعلم يارب أنَّ هذا نصيبه ومُقدّر له، آمنت بحكمتك".

أما أمين فقفل باب بيته بالمفتاح ومن ثمَّ عاد للباب وفتح القفل، وقال في نفسه: "لن أقفل الباب ربّما يحصل لي مكروه ولن يستطيع أحد الدخول لإنقاذي، لا أعرف ما هي مفاجآتك يا قلبي، ربّما أحتاج لمساعدة أو ربّما أوهام فقط ".

فبدّل أمين ملابسه وصلّى صلاة المغرب وتمدّد على سريره يفكِّر بنفسه:"يا ترى إذا عرفت ريم بِعلَّتي أتبقى تحبّني وتوافق عليَّ كزوج أم أنها تريد شاباً سليماً؟ لا أدري... أنا لا أرى أنَّ الموضوع صعب لدرجة أنَّ الفتاة لن تقبل بي، آه... يا قلبي، أَأعيش بشريان طفل؟ كيف... أيعقل؟ يا إلهي أنا جداً مندهش! سبحانك يا الله! يا رب أنا عبدك الضعيف، وأنت القويّ يا الله... فمدَّني بقوّتك يا عزيز يا قويّ". وبدأت دموع أمين تملأ عينيهِ، فقام وجلس على السّرير، وأكمل دعاءه: "اللّهم إني أسألك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وعيناً دامعة، اللّهم يا نور السموات والأرض نوّر قلبي بالإيمان، يا رب إني أسألك قلباً خاشعاً مؤمناً صادقاً، اللّهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، الحمد لله على كلِّ الأحوال يا الله". وأخذ أمين الدّواء وأراد النّوم ساعة للرّاحة. إذ بالهاتف يرن، فقام من سريره، وذهب ليجيب:

"ألو... نعم" أجاب أمين.

– كيف حالك أمين طمئني؟ (كان هاني على الهاتف) .

– جيّد، الحمد لله.

– ماذا قال لك الطبيب؟

– لديَّ عاهة في قلبي.

–"هههههههه" ضحك هاني وأكمل: "ماذا قال لك الطبيب؟"

– أتضحك يا هاني؟ أقول لك عاهة في قلبي وتضحك؟ نعم شر البليَّة ما يضحك!

– اعتقدتك تمزح.

شرح أمين شرحاً تفصيليّــاً لهاني ما قال له الطّبيب، فتفاجأ هاني وشعر بالدّهشة من غرابة المرض، وأنهى أمين المكالمة وذهب غرقاً بالنوم، فهو أخذ نصف حبّة للنوم كما كتب له الطّبيب على الوصفة.

بعد عطلة نهاية الأسبوع، في صباح نهار جامعيّ، دخل أمين للاستراحة، ووقف عند طاولة أصدقاءه، كان يجلس حول الطّاولة كلٌّ من (هاني، منال، ديالة، رامي وأسامة)، فقال لهم: "صباح الخير شباب، كيف حالكنّ يا فتيات؟" وقد أجابه الجميع بأصوات مختلفة، أهلاً... صباح النّور... كيف حالك يا أمين.... طمئنا عليك! وسحب أمين كرسيَّه، وجلس بجانب هاني وبقي صامتاً.

فقالت منال: "أما سمعناه من هاني صحيح، يا أمين؟"

– وماذا سمعتِ من هاني؟

أجاب هاني: "لقد سألوني عن صحّتك، فشرحت لهم عن مرضك الغريب".

فقال له أمين مستهزئاً: "أشكرك لسرعة تناقل الخبر أرحتني من الشرح المطوّل والإعادة، وما سمعتم صحيح إذا لم يبالغ هاني بالأمر طبعاً".

– لا لم أبالغ، لقد قلت لهم ما أخبرتني به بالضّبط.

– فقالت منال: "من دون أن يبالغ، قد دهشنا من غرابة هذا الشريان الضيِّق يا أمين، لكن حمداً لله على سلامك".

أما نسرين أضافت: "المهم أنك الآن بألف خير".

"أين ريم؟ غريب أنها ليست معكنَّ!" سأل أمين.

أجابته منال: "لم تأت بعد، أعتقد أنها متأخّرة فقط لأنها ستأتي وحدها اليوم، دون أن توصلها والدهّا. "وبقيت منال تسترق نظرات مُفعمة الإعجاب بأمين، وصارت تحدّث نفسها وتتبادل أفكارها المستهترة وحدها "يا لك من وسيم يا أمين، كم تعجبني أكثر من أيِّ شاب آخر، لكن أيعقل كلُّ هذه الوسامة في داخلها خلل؟ كم أنت مسكين، ليست مشكلة... سأظلُّ معجبة بك جدّاً، وأكره أن أراك تسأل عن ريم".

ثمَّ وقفت نسرين وقالت: "هيّا إلى المحاضرات يا شباب لم يبقَ وقت.

لم يتمكّن أمين من رؤية ريم بين المحاضرات اليوم، لكن عند موقف الحافلات توقّع أن يراها، وفعلاً وجدها واقفة بين الزّحام، فجاء من ورائها وقال لها: "مرحباً ريم".

التفتت ريم بسرعة كأنها لم تصدّق أن تسمع صوته، فسُرَّت والابتسامة ملأت وجهها: "أهلاً أمين، لم أتوقّع رؤيتك، بحثت عنكَ كثيراً لكي أراك اليوم، لكن بلا فائدة؟"

– وما المشكلة... ها قد رأيتني.

– هناك أسئلة كثيرة كنت أريد أن أسألك إياها، وتوقّعت أن نجلس سوياً لنتحدّث أكثر ونتعرّف على بعضنا أكثر.

– بالنسبة لكِ من المفروض أنكِ عرفتيني جيّداً، فالمرة الماضية شرحت لكِ شرحاً تفصيلياً عن حياتي منذ ولادتي حتّى الآن، أما أنا بالنسبة لي فأنا أحبكِ كما أنتِ، ومع الأيام سأزداد معرفة بكِ وأشعر أنني أعرفكِ جيداً، ومعنا نصف ساعة بالطّريق، نتحدّث بها إذا أردتِ.

– حسناً، هيّا لنركب الحافلة.

وجلسا الاثنان وأصبحا يتحدّثان، أما الحافلة فلم تتحرّك بعد، السّائق ينتظر أن تمتلئ وبعدها ينطلق.

– صحيح أذهبتَ للطبيب يا أمين؟ طمئني.

– نعم ذهبت، ألم تقل لك منال.

– منال؟ سألتها قالت لي لا تعرف، لأنها لم تشاهدك في الصّباح.

قال أمين في نفسه: "يالكِ من كاذبة يا منال". وأكمل قائلاً لريم: "اعتقدتُ أنها تعرف، لأنَّ هاني نشر خبر مرضي بالجامعة".

– أرجوك قل لي، ماذا قال الطّبيب؟

– قال لي أنَّ قلبي صغير على الحبِّ لا يتحمل نبضات الحبِّ القوية، فإنها تُتعب قلبي.

ابتسمت ريم ابتسامتها الساحرة، وقالت لأمين:"أمين... كفاك هراء، قل لي ماذا قال".
– صدّقيني هذا ما قاله، لأنَّ في قلبي عاهة، فلا تُتعبي قلبي يا ريم.
– أعدنا للهراء! هيّا... تكلَّم بواقعية يا أمين لم أعهدك لعوب.
– ههههه آسف أمازحكِ، حسناً بصراحة يا ريم بعد كلِّ الفحوصات والصور والقسطرة تبيّن..
– القسطرة؟ ما المقصود بالقسطرة... إشرح؟
– القسطرة، هي عبارة عن إبرة فيها سلك رفيع جداً، يتمّ إدخاله في منطقة الفخذ إما من جهة اليمين أو اليسار إلى الشريان المراد رؤيته، مع ضخٍّ مادّة ملوّنة بالإبرة ليتمّ معرفة التضيّق أو الانسداد بالشّرايين.
– يا إلهي هل هي صعبة أو مؤلمة؟
– كلا، لقد أعطوني مادّة مخدّرة ولم أشعر بشيء، كما أنها استغرقت ثلث ساعة، ولم تأخذ وقتاً طويلاً.
ثمّ أكمل لريم عن نتيجة الفحوصات، وعن حالته المرضية ونصائح الطبيب.
– سلامتك ألف سلامة يا أمين، اهتمَّ بنفسك ولا تهملها، واتَّبع تعليمات الطّبيب، لقد أقلقني قلبك هذا، مسكين أنت يا أمين...
– لا تقلقي فأنا بخير، إلا إذا كنتِ لا تريدين زوج المستقبل بعاهة. ولا تقولي مسكين فلا أحبّ الشعور بالشفقة.
– لا يا أمين ما هذا الكلام، سأكون معك وبجانبك وأساندك ولن أتخلّى عنك، ولا أقصد أن أشعرك بالشفقة، أنا آسفة.
– أشكركِ يا ريم، لكن لا تحملي الموضوع أكبر من طاقته... ما هي أخبار أمكِ؟ هل بقيت ترفض الفكرة، وغاضبة من الموضوع؟
– نعم... هذا مؤكَّد، لكن لن أبقي الموضوع هكذا سأحاول إقناعها، لأنني لا أريد أن أشعر وكأنني أخدعها أو أكذب عليها، فأنا قلت لها سأنهي العلاقة... لكن لا أدري، ولا أعرف كيف أتصرَّف أشعر بالحيرة، يجب عليكَ أن ترى لي طريقة سليمة لأستطيع إقناع أمي بك.
– بصراحة لا أعرف، لكن إذا أحببتِ خذي لي موعداً مع والديكِ ليتعرّفا عليّ، هكذا لن تقلق أمكِ من الموضوع.
– يا سلام...! بمناسبة ماذا ستأتي وتتعرّف على والديّ.
– على أساس أنني أريد أن أخطبكِ، ما بكِ يا ريم؟
– الوضع مخيف... لكن في البداية، دعني أمهّد لأمي الموضوع.

***

وصل أمين ودخل منزله، فوجد خالته داخل البيت.
– خالتي! السّلام عليكم، أراكِ هنا!
– نعم، جئت لكي أرى إذا كان بيتك يحتاج إلى تنظيف، لكن وجدته مرتّباً ونظيفاً.
– لقد نظّفته البارحة في الإجازة.
– كم أنت رائع، كلُّ شيء مرتّب وأنيق حتّى زجاج النوافذ لا يوجد عليه غبار.

– نعم خالتي... أنا أعجبكِ لا تستهيني بقدراتي أنا دائماً أُنظّف المنزل، لمَ أنتِ متفاجئة؟
– لا لست متفاجئة أعرف هذا، لكن اعتقدت أنك مجهد أو متعب... كما أنَّ الطّبيب قال لك لا تجهد نفسك.
– التنظيف ليس جهداً بالنسبة لي، بل أنا أمضي وقتاً بدلاً من أن أجلس بدون فائدة، كما أنَّ هذا المنزل منزلي وأنا المسؤول الأوّل والأخير عنه.
– أحسنت يا بنيّ، تعال لتناول طعام الغداء.
– هل تضعي لي الطّعام في طبق، أريد أن آكل هنا.
– لماذا؟ ألا تريد أن تأكل عندي؟
– أنتِ تعرفين خالتي، أشعر أنَّ عمّي أبا يزيد، يتضايق من وجودي.
– قلت لك مئة مرة لا يتضايق، بل هو هكذا يحبُّ أن يستفسر ويسأل كثيراً ويتدخّل بكلِّ كبيرة وصغيرة ويُعلِّق على كلِّ شيء، لشعوره أنه المسؤول عنك فيتدخل في أمورك، وأنت تعتقد أنه لا يحبّك ويضايقك.
– خالتي أرجوكِ أحب أن أجلس في بيتي، لا تلّحي عليَّ بالمجيء، وبعد الغداء سأذهب إلى مدرسة لتعليم قيادة السيّارة، أريد أن أتعلّم القيادة، وبعدها أشتري سيّارة صغيرة.
– لا يا أمين أخاف عليك.
– تخافين عليَّ! من ماذا؟
– ربّما وضعك لا يسمح بقيادة السيَّارات.

تضايق أمين من كلام خالته وقلقها الزائد وحاول أن يتمالك أعصابه، فقال لها بتوتّر "لا... لا تُحملي الموضوع أكثر من طاقته، أنا سأعيش حياتي طبيعيّـــةً كباقي البشر، لا تشعروني أنَّ لديَّ نقص ما، ولا أريد أيَّ أحد يُشفق عليَّ، الحمد لله أني لا أعاني من مرض عضال يتفشّى بجميع أنحاء جسدي".

– لا قدّر الله يا حبيبي!!
– خالتي علّتي هذه لن تهمّني أبداً، أريد أن أشعر بحريَّة من دون قيود، أو ضغوطات... وأكرر لا تقلقي عليَّ، فأنا أعرف وضعي جيّداً، وأراعي جميع الأمور اللازمة، وسأتماشى وفق الأصول بكلِّ شيء.
– حسناً... حسناً، لم يكن هناك داعٍ لكلِّ هذه المحاضرة التي أسمعتني إياها، فأنا أشعر معك قبل أيِّ أحد وأكثر من أيِّ أحد.
– أعرف، لكن خوفكِ الشديد عليّ هو الذي يقلقني، دائماً تشعريني بالقلق.
– حبيبي أمين، هذا حرصي عليك لا تغضب مني، وخوفي من أن أفقدك مرّة أخرى.
– خالتي لن تفقديني أنا هنا بقربكِ، وشكراً على اهتمامكِ، وأنا لا أغضب منكِ، لكن أنا أتضايق من كثر التخوّفات وبصراحة لم أعتد عليها في طفولتي، ولا أحب الإلحاح بكلِّ شيء.
– سأذهب لأحضر لك الغداء وأعود،ثمَّ تذهب لمدرسة تعلّم القيادة، هل أذهب معك؟

ضحك أمين ببرود وقال: "لا خالتي شكراً، أستطيع تدبُّر أمري وحدي...لا تقلقي".

***

أما ريم فكانت متوتّرة من أوّل دقيقة دخلت بها للمنزل، وتتناقش هي وعقلها، وترتِّب الكلام الذي ستقوله لأمها حول موضوع أمين وهي قلقة من ردَّة فعلها كثيراً، لكن لم تنتظر إلى المساء لتكلّم أمها، بل بعد الغداء مباشرة، نادت أمها للغرفة وطلبت منها أن تسمعها.

– أمي أرجوكِ، اسمعيني وبعدها أعطيني جوابكِ، أريدك بموضوع.

– أعدنا لموضوع الشّاب ذاته؟

– أمي بصراحة نعم، لا أستطيع إزالة الفكرة من رأسي.

– فكرة ماذا يا ريم؟

– فكرة أنني معجبة به، وهو شاب جيّد مهذّب ولطيف، إضافة إلى وسامته...

– يا ابنتي لا تجعلي المظاهر تأخذكِ إلى طريق المشاكل الوعرة، فهذا الدّرب صعب وأنتِ صغيرة.

– أمي، بصراحة أريدكِ أن تتعرّفي عليه.

– ماذا! أأنتِ مجنونة...؟

– لماذا يا أمي؟ تعرّفي عليه على أنه يريد خطبتي.

– الشّباب لا تبحث عن الزّواج في مثل هذا العمر، وقلت لكِ أنهي معه فوراً.

– قلت له أن ننهي هذه العلاقة قبل أن نبدأ، وأنني لا أرى داعياً لها، فكان جوابه أنه يريد خِطبتي وقال لي أن أرتّب معكِ ومع والدي موعداً لتتعرّفا عليه، وهذا دليل صدقه، وإذا حصل قبول مبدئي سنرتّب تدريجياً لأمر الخطبة، ونحدّد موعداً للزّواج ربّما بعد التخرّج لا أدري.

– أيعقل أن تبقي مخطوبة ثلاث سنوات قادمة؟ ريثما تتخرَّجا!

– أنتِ يا أمي مبدئياً وافقي على مقابلته، وإذا لم يعجبكما سننهي كلَّ شيء، مع أنني متأكدة أنه سيعجبكِ من جميع النواحي.

– ياه...أواثقة به كلَّ هذه الثّقة؟ أهو حُبّ أعمى أم ماذا؟ وإذا وافقت أنا يا ريم، أبوكِ لن يوافق على هذه الأساليب.

– أمي عليكِ أن تحاولي معه وتقنعيه يا أمي أرجوكِ...

– عندما أقتنع أنا في البداية، سأحاول إقناعه.

وبقيت ريم تلحُّ على أمها بشدّة وترجوها، وكأنها طفلة تعلَّقت بدمية تريد شرائها.

وبالنهاية قالت لها والدتها لإسكاتها: "حسناً، مبدئياً سأرى الشّاب وحدي، دون أبيكِ لكي أحكم عليه. إذا لم يعجبني لن أجعله يقابل أباكِ، لا نريد أن نُكبِّر القصة.

– أمي..يا حبيبتي شكراً لكِ، كيف ستقابلينه؟

– أنتِ مرَّة طلبت مني أن تدعين زملاءك وزميلاتك على الغداء كما هم دَعَوْكِ، وأنا لم أوافق، أليس كذلك؟

– بلى، أذكر وما زلت أريد أن أدعوهم، لأردَّ لهم دعواتهم.

– ما رأيكِ أن تدعيهم لتناول الغداء عندنا بعد غدٍ جميعاً، وسأتعرّف عليهم كلّهم ومن ضمنهم أمين، وتقولي لهم أنا وأمي ندعوكم لتناول طعام الغداء عندنا، بمناسبة قرب انتهاء العام

الدراسي، ولتتعرّف أمي على جميع زملائي وصديقاتي في الجامعة، وهكذا سأرى الشاب على طبيعته، وأحكم عليه من تصرّفاته مع أصدقائه وتصرّفاته على الطّعام وكلِّ الأمور، أفضل من أن يأتي وحده متصنّعاً لأنه يعلم أننا نريد أن نقابله ونختبره، وأنتِ بدورك لا تقولي له السبب الأصليّ للدعوة، لكي يكون الشّاب على طبيعته، ولكي لا يشعر بالإحراج، ولا تخبريه أنكِ قلت لي.

– أمي، صحيح لديه مشكلة واحدة، نسيت أن أخبركِ إياها؟

– آه...نعم، بدأنا بإخراج المشاكل؟ وإظهار الأمور على حقيقتها!!

– لا...لا، فقط... يعاني... من... مرض بسيط، (ريم متردّدة بالكلام).

– ماذا؟ مرض! وليس عليه غبار!... أليس كذلك؟

– أمي... لا، هو لديه شريان في قلبه ضيّق، فأحياناً يشعر بضيق في صدره، لكن هو يأخذ دواء الآن، وأصبح جيداً.

– لا يا ريم انسي موضوع الدعوة.

– لا... لا... أمي أرجوكِ أنا قلت لكِ لأكون صادقة، وليس لإلغاء الدعوة، لقد طمأنه الطّبيب وقال له أنه يستطيع أن يعيش حياة طبيعيّة، فهذا الشريان الضيّق ليس بالمشكلة الكبيرة.

– وما سبب ضيق الشريان، أهو سمين جداً هذا الشّاب؟

ضحكت ريم وقالت: "كلا، فهو متناسق طولاً وعرضاً".

– كيف يعيش هكذا بشريان ضيّق! أهي عاهة في شرايين القلب؟

– لا أعرف... ربّما، هو يتناول الدّواء وتسير أموره على ما يرام.

– مع أنَّ الموضوع أصبح يقلقني لكن سنرى فيما بعد، وكما قلت لكِ إذا لم يعجبني ستلغي الموضوع من بالكِ على الفور.

قفزت ريم من الفرح وقبّلت أمها، وشكرتها: "أشكركِ أمي حبيبتي كم أنتِ حنونة، هكذا أستطيع أن أذاكر دروسي، سوف أدعوهم إلى الغداء بعد غدٍ... شكراً أمي... شكراً كم هذا رائع، يا سلام.

– عفواً... وخرجت هند من الغرفة وهي قلقة من شِدَّة تمسُّك ريم بهذا الشّاب.

الفصل الثالث عشر

الحيرة والغيرة تكاد تدمّر منال، ما زالت تحبّ أمين وريم هي التي استولت على قلبه باعتقادها، لكن ما هو الحلّ بالنسبة لها؟ فهي جالسة تريد أن تجد حلاً لحبّها العقيم، لكن من دون جدوى، تجلس في غرفتها بجوٍّ قاتم، لقد أسدلت الستائر التي تضفي لوناً أزرقاً غامقاً على جوّ الغرفة، وكأنها تجلس في أعماق البحر، والفوضى تعمُّ المكان لقد فردت جميع كتبها ودفاترها على السّرير محاولة البدء بالدّراسة، لكن أفكاراً تحملها تجعلها تتمايل كأمواج البحر، أحياناً تريد الانتقام لنفسها وأحياناً تحاول أن تتذكّر أنَّ ريم صديقتها ولا يجب خداعها.

طرق أخوها رامي باب غرفتها، ففتحت له ودخل: "ما هذه الكآبة في غرفتكِ؟ لماذا تغلقين النوافذ والسّتائر بهذه الطّريقة؟"

– لا أعرف أشعر بالوحدة والحزن ولا أستطيع الدراسة، ليس لي رغبة أن أرى ضوء الشمس وهو يغرب، لأنني وقت الغروب أشعر بالجمود والكآبة، هذه السّاعة مملّة لا أحبها.
– رويداً... رويداً! ما بك أراكِ ناقمة اليوم على الغروب والتّعاسة تشعُّ من غرفتكِ بدلاً من نور الشّمس الأحمر الذي يغرب! هل تريدين التحدّث بشيء؟ ربّما أستطيع أن أساعدكِ.
– لا يا رامي شكراً، هكذا أنا حزينة وحدي، غاضبة من نفسي أشعر أنني حمقاء.
– منال... قولي لي ماذا بكِ! هيّا أنا أخوكِ وصديقكِ، ونحن دائماً نحلُّ مشاكل بعضنا البعض، أعدكِ أنني سأساعدكِ إذا كان بوسعي.
– أعرف، لكن يا رامي لن تستطيع فعل شيء، أرجوك فقط أُخرج، فأنا الآن أشعر بالغضب والغيرة ولا تثير أعصابي...، لأنَّ لديَّ رغبة بأن أضرب أيَّ أحدٍ اليوم.
– لا لن أخرج قبل أن أعرف ما بكِ؟ لقد شعرت من كلامكِ أنَّ هناك شيئاً يضايقكِ، ربّما من الجامعة.. أليس كذلك؟ واضربيني إذا أردتِ... هيّا قولي أنا أسمعكِ.
– إن قلت ستسمعني كصديق؟ لا أريدك كأخ الآن، لأنك كأخ ربّما ستوبّخني، أما الصّديق سيقف بجانبي.
– يا منال، إن كنت أخاً أو صديقاً صالحاً فمن واجبي أن أقف مع الصّواب، لكي لا تقعي بالخطأ وتلوميني على مشورتي الفاشلة فيما بعد.
– سأقول لك، لكن مهما يكن الموضوع الذي سأكلّمك به، لا أريدك أن تأخذ الموضوع بعصبيّة، ولا تخبر أحداً أرجوك.
– منال حبيبتي ألهذه الدّرجة مشكلتكِ مُعقَّدة؟ أوقعتي بمصيبة لا سمح الله! سقط قلبي!!
– لا، أين تذهب بأفكارك؟ ليست مصيبة... بل أنا في حيرة من أمري. وبصراحة واضحة ودون أن أزيد في الكلام، أنا أحبُّ صديقك!
– أوووف صديقي...! من هو؟
– أتستطيع أن تحزر؟

- ممكن أن يكون هاني؟
- كلا كلا... إنه أمين.
- يا إلهي... ماهذه التفاهة!! إذا كنتِ تقصدين أمين حقاً... فأنتِ فعلاً في وضع حرج! كما لابدَّ لكِ أن تنتبهي لنفسكِ ودراستكِ ما هذه السخافات..حبٌّ وعلاقات!!؟

سحبت منال الكرسي الذي في غرفتها وجلست عليه وهي عابسة الوجه، وقالت له بحزن: "نعم أحبُّ أمين... صدّقني كُنت أنا أحبّه قبل ريم، وهي التي خطفته مني؟"

- أكنتما ترسمان وتخطّطان على الشّاب حتى وقع في حبٍّ إحداكما؟
- لا... والله أبداً، كنّا معجبتين به، لكنَّ قلبه المعتوه اختار ريم.
- إياكِ يا منال أن تخطئي وتقولي قلبه المعتوه مرّة أخرى، لأنَّ هذه النقطة حسّاسة جدّاً عند أمين بسبب علَّته، ربّما يصدف ويسمعكِ، أو أحداً يوصل له الكلام فسيشعر بالإهانة.
- لا تخف... أحادثك أنت، ولم أقصد علّته المرضية بل أقصد كيف اختار قلبه غيري؟
- نصيحتي لكِ كأخ وكصديق انسي أمره، لأنكِ تتعذّبين بلا فائدة مرجوّة، ولأنه مغرم بريم ولا يرى غيرها بالدّنيا، يحلم ليل نهار بها وباقي الفتيات بالنسبة له مجرّد خيالات، وأمين بدأ يحبّها منذ الأشهر الأولى له بالجامعة، وكفاكِ فلسفة وعشق ليس له داعٍ الآن، ماذا جرى لتفكيركِ!
- لكن قل لي كيف عليَّ أن أمحوه من قلبي؟
- يجب أن تكوني قويّة، أقوى من نفسكِ وتسيطري على عواطفكِ، ولا داعي للغضب والغيرة، لا تخسري صديقتكِ ريم، فهي صديقة جيّدة وتحبكِ أيضاً، ولا تفكّري بالحبِّ الآن فلم يحنْ وقته.
- سأحاول، أرجوك لا تخبر أحداً، وبالذّات أمين.
- لا تقلقي، أريم تعرف؟
- نعم تعرف، وتحاول ألا تتحدّث عن أمين أمامي، لكي تداري مشاعري...
- ههههه مجنونتان!!!

***

وفي اليوم التالي في الجامعة، جاءت ريم سعيدة جداً وفرحة، مع أنها في الصّباح لم تجلس مع أمين، فقد رأته من بعيد وسلَّمت عليه بلغة الإشارة، وفي وقت الفراغ بين المحاضرات وجدت ريم كلَّ الأصدقاء جالسين بالاستراحة، فقالت سأنتهز الفرصة وأدعوهم على الغداء في بيتنا.

- يا رفاق انتبهوا (قالت ريم بصوت عالٍ).

أجاب أسامة وهو يأكل شطيرة الفلافل: "نعم...نعم؟؟

أما أمين فقط نظر لريم دون التفوّه بكلمة واحدة، وأعارها اهتمامه ليسمع كلامها. وديالة وهاني بقيا يتكلّمان بموضوع يظهر أنه مهمٌّ لانشغالهما الشديد من أوّل الجلسة.

نسرين قالت: "هيّا يا ريم قولي ماذا تريدين؟"

ضحكت منال وقالت: "تريد أن تعلن لنا عن موعد خِطبتها."

- لا...(أجابت ريم باستهزاء وابتسامة باردة)... غير صحيح... وأكملت... أين رامي؟

– أجاب أسامة:"ذهب ليشتري شطيرة وشاي".
– حسناً لا مشكلة سأخبره فيما بعد.
– قالت نسرين:"هيّا تكلّمي لقد مللنا ماذا تريدين؟".
– أريد أن أدعوكم على الغداء غداً بعد دوام الجامعة ستأتون جميعاً معي إلى المترل، لا أريد أحداً أن يعتذر عن الدّعوة... سأكرهه بشدَّة.
– ياه... كم أنتِ رائعة، نريد دجاجاً محشوّاً، وشوربة الخضار (هاني يشترّط).
– إذن سمعتَ الدّعوة وبقيتَ مشغولاً بالكلام مع ديالة!
– نعم أنا أسمع كلَّ شيء يَخُصّ الطّعام والدّعوات، وسآتي بكلِّ تأكيد.
– ستأتون جميعاً؟ أليس كذلك؟... أرجوكِ يا منال بلّغي رامي نيابة عنّي.
– نعم هذا مؤكّد... أجابت منال.

وخرجت ريم من الاستراحة محاولة تفادي الحديث مع أمين، ليقلّل من تساؤلاته حول الدّعوة وحول موعد المقابلة مع والديها، كما أنها تريد أن تضع خطوطاً حمراء خفيفة بينه وبينها لتحفظ خطَّ الرّجعة إذا تمَّ رفض الشّاب من قبل أهلها.

وفور خروجها لحق أمين بها ليكلّمها، وناداها: "ريم.. ريم... ريم".

حاولت ريم أن تمثِّل عليه بأنها لا تسمعه، لكن أمين ظلَّ مُصرّاً، فأسرع بسيره ليصل إليها ويكلّمها، فوصل وقال: "ريم ألا تسمعين، أم تتجاهلين ما بكِ؟ لقد ناديتكِ بأعلى صوتي".

– آسفة لم أسمع، لقد كنت شاردة الذّهن.
– إلى أين ذاهبة؟
– ذاهبة إلى قاعة الحاسوب لإرسال (e-mail) لعمّتي. ومن ثمَّ أريد أن أبحث عن بعض أسماء كتب الأدب العربيّ في الإنترنت.
– هل أساعدكِ؟
– كلا... شكراً، أحبُّ أن أعتمد على نفسي.
– نعم، أفهم من كلامكِ أنكِ لا تريديني أن أرافقكِ؟
– لا.. لا أقصد، بل سأكون سعيدة برفقتك، هيّا تعال إن شئت.
– لا شكراً سأعود للاستراحة.
– أرجوك أمين... أأزعجك كلامي؟ لا تكنْ حسّاساً، ما بك واقفاً؟... هيّا.
– حسناً لن أتردّد، لأني بصراحة أريد أن أسألكِ حول موضوع مقابلة والديكِ.
– سنذهب إلى القاعة وأكلّمكِ هناك.

دخلا لقاعة الحاسوب وجلس أمين وريم أمام جهاز واحد، فتحت ريم الجهاز وشبكت على الإنترنت.

– نعم يا ريم أراكِ صامتة، لا تريدين الكلام؟ أنا قلق وأنتِ باردة الأعصاب!
– عن ماذا تتكلّم؟

– أرأيتِ! كم أنتِ باردة الأعصاب! أريد أن أعرف ردّة فعل أملكِ عن موعد مقابلتي، أم أنكِ لم تقولي لها بعد؟

– بصراحة نعم، لم أخبرها للآن عن فكرتنا، لأنّها جاءت وقالت لي: "سمحت لكِ يا ريم بدعوة زملائكِ وزميلاتكِ المقرَّبين على الغداء"، فسررت جدّاً لأنني منذ فترة بعيدة وأنا أرجوها بدعوة أصدقائي لأرُدَّ لهم دعواتهم، فمنال ورامي دعونا على الغداء في منزلهما مرّة... أتذكر؟ وأسامة وهاني أيضاً مرَّة اشتركا على إحضار طعام لنا من المطعم القريب.

لذلك قلت في نفسي أنّ أمي مبدئياً ستتعرّف عليك مع باقي الشباب، وتكون بهذه الحالة مقابلة طبيعيّة، وفي المرّة القادمة سأقول لها أنَّ أمين الذي تعرَّفت عليه بدعوة الغداء، سيأتي لمقابلتكِ أنتِ وبابا لخِطبتي.

– جيّد، ستكون غداً مقابلة تمهيدية.

– بالضّبط، وأرجوك لا تعتذر عن المجيء.

– لا سآتي بالتأكيد إن شاء الله، فأنا متحمّس جداً للتعرّف على والدتكِ.

– هل محاضراتكم يا هندسة، تنتهي مع محاضراتنا غداً؟

– غداً...؟ نعم السّاعة الثانية تنتهي المحاضرة الأخيرة.

– رائع، سنتجمّع بالاستراحةونذهب سويّاً للبيت.

***

في المساء بعد دوام الجامعة يأخذ أمين دروس قيادة السيّارة، لقد شعر أنه يتعلّم بسرعة وأنه خلال فترة قصيرة سيأخذ شهادة القيادة (الرّخصة).

وفي اليوم التالي من الجامعة وبعد انتهاء المحاضرات تجمَّع الأصدقاء حول طاولة الاستراحة ينتظرون ريم للذّهاب معها للدّعوة.

كان أمين جالساً ومترقّباً، وتبدو عليه الأناقة الكاملة بجانب وسامته اللَّطيفة، أما هاني فكان كلُّ حديثه عن الطّعام، وبدأ يتصوّر ما هي الاحتمالات المتوقّعة من أصناف وأطباق على المائدة، أما رامي كان يشعر بصداع في رأسه ولا يريد أن يكلّم أحداً، وديالة ونسرين تتحدّثان عن طريقة تحضير قالب الشكولاته المحشوّ بالبوظة. فوصل كلٌّ من ريم ومنال وأسامة للاستراحة فور خروجهم من المحاضرة.

– لقد تأخّرتم، متنا جوعاً. (قال هاني).

– أجابه أسامة: "كان دكتور تاريخ الأدب العربي مندمجاً بالشّرح فأطال المحاضرة عشر دقائق، ونحن كنا سننفجر من الملل".

– هيّا يا أصدقائي الأعزاء، لنتوجّه إلى مقرِّ الحافلات للذهاب إلى الغداء (قالت ريم بكلِّ سرور) فأخذوا يتمشَّون إلى الحافلة ويتحدّثون عن دوامهم لهذا اليوم حتى صعدوا للحافلة.

أصبحت ريم تحدّث نفسها بصمت:"يا إلهي هل أُمي ستحبُّ أمين؟ هل سيدخل قلبها كما دخل قلبي؟ نعم من وَجْهِهِ الطيّب هذا ستُعجب به في البداية، لــمَ أنا خائفة هكذا... وكأنني سأذهب لامتحان؟"

وصلوا لبيت ريم فطرقت الباب، وجاءت أمها وفتحت لهم.

– مرحباً أمي....(ريم بكلِّ فرح وانشراح)

– أهلاً يا ريم... ما شاء الله مجموعة زملاء كبيرة، تفضّلوا... أهلاً وسهلاً.

دخلت ريم ورامي ومنال وراءها والباقي بالخلف.

– أنتِ منال أعرفكِ، وأخاكِ رامي أعرفه أيضاً، أهلاً وسهلاً تفضّلا (أم ريم ترحّب بهما) وأنتَ من؟

– أنا هاني، خالتي.

– أهلاً... أهلاً يا هاني، تفضّل بالدّخول.

– وأنا أسامة يا سيّدتي...

– أهلاً أسامة... أهلاً وسهلاً تفضّل. (كانت هند ترحّب بزملاء ريم أشدَّ ترحيب وبابتسامة سعيدة).

– أنا نسرين تعرفيني يا خالة، لقد زرت ريم أكثر من عشر مرّات هذه السّنة.

– بالتأكيد أعرفكِ يا حلوة، تفضّلي واجلسي ومن لا يعرف نسرين النّـــاعمة.

– وأنا أمين سيّدتي.

– أهلاً... نعم أمين تفضّل. (كانت أم ريم جافَّة التّرحيب بأمين، عندما رأته حاولت إخفاء معالم البرود بالتّرحيب به، لكن ظهر ذلك واضحاً في ترحيبها وابتسامتها الصفراويّـــة).

– مرحباً خالتي، لا داعي أن أعرّف بنفسي، فأنا من أهل البيت (ديالة تدخل آخر واحدة).

– أهلاً وسهلاً... أهلاً ديالة حبيبتي، نعم أنتِ صديقة ريم من أيام المدرسة ومن أهل البيت.

وأغلقت السيّدة هند الباب ورحّبت بهم مرة أخرى وذهبت للمطبخ لتكمل تحضير الطعام، أصبح الأصدقاء يتحدّثون ويضحكون ويُمازحون بعضهم، بينما شرد فكّر أمين بالترحيب البارد الذي رُحِّب به من قبل السيّدة هند. وقال في نفسه:"يا ترى لِمَ رحَّبت بالجميع بحرارة، إلا أنا عندما رأتني شعرتُ أنَّ مِزاجها تعكَّر أو تفاجأتْ من أمر ما؟

هل يا ترى إنني غير مناسب، أم منظري غريب مثلاً؟ أم هي ردّة فعل غير مقصودة! ربّما لأنَّ ريم كلّمت أمها مسبقاً عني، فظهرت وكأنها تعرفني... لا أعرف... ربّما؟ لكن أنا أشعر بالإحباط المبدئيّ وليس بالتفاؤل".

عادت ريم وجلست بجانب أمين، وسألته بابتسامتها اللّطيفة: "ما بك يا أمين لِمَ تجلس صامتاً هكذا وكأنك وحدك بالغرفة؟ الكلُّ يضحك فرحاً ويتحدّثون معاً، وأنت ما بك؟"

– لا شيء ريم، أنا أستمع لهم فقط.

– لا... أنا أعرفك عندما تكون منزعجاً، هذا هدوء زائد اليوم ولستَ على طبيعتك... أين ذهب مرحك؟

– صدّقيني... لا شيء.

– حسناً أمين أرجوك... لا تُحرج من شيء، وكن على طبيعتك الرّائعة، سأذهب للمطبخ لأساعد أمي.

وذهبت ريم للمطبخ عند أمها: "أمي، بماذا أساعدكِ؟"
– أَخرجي المعجّنات من الفرن، ونسِّقيها بطبق كبير.
– حاضر أمي، وبدأت ريم تُخرج المعجّنات من الفرن، وأكملت كلامها مع أمها "أمي...كيف رأيتِ أمين"؟
– لا أستطيع أن أحكم عليه من عند الباب... وأكملت هند تحضير الطّعام، دون إبداء أيَّ اهتمام أو إضافة كلمة واحدة.
– أمي، لا أريد رأيكِ كاملاً، لكن مبدئياً... أقصد ما رأيكِ من الوهلة الأولى فقط، يعني ما هو انطباعكِ الأوّل؟
– ما اسم أبيه.
– أبو أمين؟ إنه شاكر، واسم العائلة أيضاً شاكر، إنه أمين شاكر، لكن ما دخل هذا بانطباعكِ الأوّل يا أمي؟ لم تجيبي على سؤالي...
– أبوه شاكر إذن، والعائلة شاكر!... (قالت أم ريم بانزعاج).
– نعم... ما المشكلة في هذا، وكأنَّ اسم الأب أزعجك... (قالت ريم بقلق لأنَّها شعرت أن أمها لم تهتم لأمر أمين أبداً).
– لأنني أعرف أباه يا ريم.
– أأنتِ متأكدة؟ تعرفين أبا أمين؟ مستحيل... أمين نفسه لا يعرف أباه!
– لا يعرف أباه؟ وكيف لا يعرفه...؟
– أمي إنها قصة طويلة، سأحيكها لكِ فيما بعد.
– لكن قولي لي ما اسم والدته، لأتأكّد من أنَّه هو المعروف لديَّ أم لا؟
– لا أعرف... لم أسأله مثل هذا السؤال من قبل.
– إذا كانت أمه تُدعى أمل إذن هو ابن أمل وشاكر، وأنا أعرفهما جيّداً، اذهبي واسأليه الآن لكي أتأكّد، مع أني واثقة أنَّ أمه أمل، وإن لم تكن أمل فأنا لا أفهم شيئاً من الدّنيا.
– أمي ما هذا الكلام... لـــمَ أنتِ متأكّدة هكذا؟ لن أسأله الآن، لا يوجد مناسبة للسّؤال.
دخلت منال وديالة ونسرين المطبخ لمساعدة ريم ووالدتها، فقالت ديالة: "ما بكما تتهامسان؟ أهو موضوع خطير؟".
– أجابت ريم: "لا ديالة، نحن نتناقش حول الطّعام" .
– جئنا للمساعدة والتحضير معكما، ماذا نفعل؟
– خذوا الأطباق والأواني، وضعوها على مائدة الطعام في غرفة الضّيوف، هيّا يا فتيات. (قالت أم ريم).
وتمَّ تحضير المائدة وجلس الأصدقاء بالإضافة إلى أمِّ ريم وأختيها رندة ورنيم حول المائدة ليأكلوا معاً، ولكي تصل أم ريم لمعرفة الأمور الشخصيّة عن أمين، بدأت تسأل الشّباب واحداً تلو الآخر، أسئلة مختلفة عن حياتهم وشخصيتهم، لتصل عند أمين بالأسئلة الدّسمة. فبدأت بهاني وقالت له: "ماذا يعمل أبوك يا هاني؟"

– إنه طيّار سيّدتي، وأمي كانت مضيفة طيران، لكن تقاعدت منذ ثلاث سنوات.
– نعم رائع، وأنت يا أسامة ماذا يعمل أبوك؟
– أبي كان يعمل بتجارة الخضار والفواكه، وكان لديه شاحنة براد لاستيراد وتصدير الخضار والفواكه، لكن أُرهق كثيراً من كثرة السّفر وطول المسافات، فقام ببيع الشاحنة وفتح محلَّ خضار وفواكه، إنه محلٌّ متواضع لكن يفي بالغرض، يستطيع أن يطعمنا لقمة العيش. وأمي متوفِّية منذ أن كنت صغيراً.
– وماذا عنك يا أمين؟ ماذا يعمل أبوك؟
– أنا يا سيّدتي بصراحة... لا أعرف، لأنني لم أره بحياتي سوى مرّتين وأنا صغير، ولا أتذكّر ما هو عمله، كل ما أعرفه عنه أن سافر خارجاً للعمل، ولا أعرف شيئاً آخراً.
– وما اسم أمك؟
– اسمها أمل.

فنظرت ريم إلى أمها مندهشة جداً من كيفيّــة معرفتها لاسم والدة أمين (أمل)، وأيقنت أنَّ أمها حتماً كانت تعرف والد ووالدة أمين.

– إذن أمك أمل؟ وكيف حالها أمل؟
– سيّدتي، أمي متوفّية منذ أن كنت فتى صغيراً.
– متوفِّية؟ رحمها الله...! بدأت أم ريم تسأل أسئلة تُــحرج بها أمينوكانت أسئلتها قاسية نوعا ما... فقالت له: "اسمع يا أمين، بما أننا جلسنا وأصبحنا نتكلّم، ما رأيك أن نتكلَّم بصراحة ومن دون غموض، كلّهم أصدقاؤك لا يوجد أحد غريب بيننا، ريم طبعاً كلّمتني عنك قليلاً، وأنا بطبيعة الحال أريد أن أتعرّف عليك أكثر لأعرف مع من تجلس ابنتي في الجامعة، وما قصّة هذا الحبِّ الذي اخترعتموه... أليس كذلك؟"
– بلى، من حقّكِ يا سيّدتي.
– بما أنك لا تعرف أباك؟ وأمك متوفّية منذ أن كنت صغيراً؟ لم أفهم أين كنت تعيش ومن ربّاك؟
– باختصار يا سيّدتي ودون أن أطيل عليكِ، كنت في مدرسة داخليَّة للأيتام.
– أنا أفهم معنى ذلك... بدون أم ولا أب... هل أصبحت متشرّداً بالشّوارع، ومن ثمَّ أخذوك لمدرسة الأيتام؟
– هههههه لا...لا أبداً يا سيّدتي، لم أكن متشرّداً لقد أرسلتني جدّتي أم شاكر لتلك المدرسة.
– والآن مع من تعيش؟
– وحدي في منزلي الخاص، وخالتي تسكن مقابلي تدعى علياء.
– نعم... نعم أعرفها.
– تعرفين خالتي!
– أعرف... أمك وأباك... وجدّتك... وخالتك علياء، وسهاد أيضاً.
– أحقاً يا سيّدتي، منذ متى وكيف؟
– هي قصة طويلة سأقصّها لريم، ومن ثمَّ ريم تقصّها لك فيما بعد.

– وما قصّة مرضك هذا؟

شرح أمين للسيّدة هند عن طبيعة مرضه، وبقيت تسأله أسئلة كثيرة عن مرضه، ومن ثمَّ عن الجامعة وعن دراسته، وأسئلة أخرى عن طفولته أيام المدرسة الداخلية، حتى أنه لم يأكل سوى ثلاث لقمات من الطّعام، ولم يستطع أن يكمل طعامه من كثرة الأسئلة، والجميع أكل وشبع وهم يستمعون للتحقيق الذي فتحته السيّدة هند مع أمين، حتى أنهم قاموا عن مائدة الطعام لأنهم أنهوا طعامهم وبقي أمين جالساً هو والسيّدة هند وريم، لتكمل هند تحقيقها معه، فقالت له بالنهاية: "ما المقصود يا أمين أنَّك تحبُّ ريم؟ أنا لا أفهم ما هذا الحبِّ الذي تدَّعيه وأنتم ما زلتم صغاراً وفي مقتبل العمر؟"

فأجابها أمين بعدما ملّ من كثرة الأسئلة التي تلحقها إجابات مطوَّلة ومتعبة: "يا سيّدتي أنا لا أدَّعي الحبّ ولا أتظاهر بأنني أحبّ، بل أنا صادق بمشاعري، صادق بكلامي، وحقاً أشعر أنَّ ريم هي الوحيدة التي تعيد الفرح لحياتي ووحدتي الشديدة، وبما أنني أسكن وحدي دائماً أشعر بالملل، آكل لوحدي، أجلس مع نفسي، فراغ عميق يسكن داخلي... وبما أننا نتكلَّم بصراحة سأكمل كلامي بوضوح أكثر، أنا يا سيّدتي عندما أرى ريم وأجلس معها، أشعر أنَّ نقصاً ما أُعاني منه في داخلي قد امتلأ، وقوة تمدّني بها طوال النهار لأكمل يومي بكلِّ نشاط وحيوية، صدّقيني شعور لم أشعر به ولا مرّة في حياتي، فقط عندما تعرَّفت على ريم... وابنتكِ فتاة ولا أروع، وسأتقدّم لخِطبتها بعد موافقتكِ...

قاطعت السيّدة هند أمين وقالت: "اسمع يا أمين، كفاك فلسفة للأمور، ما معنى أنك تزداد نشاطاً وحيوية، أابنتي أقراصاً منشطة مثلاً؟ ما هذه السّخافة! أتستغلُّ ابنتي لتسدَّ النقص الذَّي تعاني منه بشخصيتك وعُقدك من أيام الطفولة؟ هذا ليس حبّاً بنظري إنَّه استغلال أو حبّ مراهقة وربّما طيش ويختفي بعد فترة.

صُدم أمين من جواب السيّدة هند القاسي فحاول التماسك وأجابها: "لا يا سيّدتي لا تقولي هذا، أعوذ بالله أن أستغلَّ ريم فأنا حقاً أحبّها، وإن قلت لكِ هذا الكلام لا أقصد أنّ لديَّ عقد في شخصيتي، ربّما فقط أريد أن أشعر بوجود أحد يؤنس وحدتي وهذا ليس بالاستغلال، فأيَّ إنسان يجب أن يكون لديه أنيس بجانبه، يشكي له ويخبره عمّا بداخله ليشعر بالرّاحة، وليشعر أيضاً أنه موجود على وجه الأرض، من الرّائع أن يُحِبَّ الانسان ويُــحَب.

– وما الفائدة المرجوَّة التي ستجنيها ريم عندما تشكي لها همَّك؟ وتجلس بجانبك أنيساً، أو ربّما تريدها ممرضة لك في حال ازداد مرضك هذا.

نظر أمين لريم، كانت عيناها تتلألأ قلقاً.... وكان يشعر بغضب في داخله وكأنــّـه بركان سينفجر من كثرة الأسئلة التي لا معنى لها، والتي تتحوَّل إلى أسئلة استفزازية.

وقف ليحاول أن ينهي هذا الحوار وقال:"يا سيّدتي أنا واضح بكلامي منذ البداية، وأظن أنكِ أخذتِ مني كلّ ما تريدين معرفته وزيادة، ومطلبي شريف".

وباستخفاف وتمثيل الطيبة قالت هند: "منظرك يدلّ أنك منزعج من كلامي يا أمين؟ أَأَنت هكذا تضجر بسرعة؟ لم نكمل حديثنا بعدما زال لديَّ الكثير من الاستفسارات، اجلس!"

– لم يبق للحديث شيئاً، لقد قلنا بما فيه الكفاية، ولم نتحدَّث سوى بالتّحقيق عن أموري الشخصيّـــة، هذا الذي يُضجر... صرتُ واضحاً أمامكِ وأمام الجميع كعين الشَّمس.

– طيّب يا أمين، قل لي ماذا ستفعل مثلاً إذا منعتُ ريم من مقابلتك والحديث معك، ولم أوافق عليك، كيف تتصرّف؟

ابتلع أمين كلَّ الكمات، وسكن عن الحِراك... فأضافت هند قائلة: "على كلِّ حال، انتهى الكلام ولم يعد هناك أسئلة، سأعطيك نتيجة هذه الجلسة أو التحقيق كما أردت أن تسمّيه، وسأبقى على وضوحي وصراحتي... أنا لا أوافق على هذا الحبِّ اللا منطقي، وابنتي هي زميلة لك فقط بالجامعة لا أريد تطوّراً بالعلاقة أكثر من ذلك... ولا أريد أن أسمع موضوعاً كهذا أساساً الآن ولا بعد ذلك، والسبب هو عدم التوافق بينكما من جميع النواحي.

وبدون تعليق بقيت ريم صامتة لم تستطع الكلام، لقد رُبط لسانها... أما أمين فانسحب بكلِّ هدوء، مع أنَّ في داخله انفجاراً، ودون أن يتكلّم ذهب عند الباب وقال لأصدقائه وهم يجلسون في غرفة الجلوس: "إلى اللّقاء يا شباب سأراكم غداً" ثمَّ خرج ولم يقل شيئاً لريم، فلحقه هاني خارجا وشدَّهُ من يده: "إلى أين أنت ذاهب ما زلنا جالسين".

– ذاهب للبيت.

– أبهذه السرعة يا أمين، لم نجلس معاً بعد؟

فأجابه أمين بصوت منخفض وبغضب شديد: "أتركني أذهب وابتعد عني أرجوك... لا داعي للجلوس كلّ شيء انتهى من هذه اللّحظة، كما أنني لا أستطيع رؤية السيّدة هند".

وذهب إلى بيته والحزن يغمر قلبه، كما أنه يشعر بضيق في صدره من كثرة الأسئلة، والضّغط النفسيّ الذي وضعته به هند.

الفصل الرابع عشر

بعد ساعة غادر الجميع بيت ريم بعدما تناولوا الشاي وقطعاً من قالب الحلوى. ثمَّ جاءت ريم لوالدها وقالت لها: "أمي لماذا كنتِ قاسية هكذا على أمين؟ لم نتَّفق على هذا أبداً، ألم تقولي زيارة تمهيديَّة؟

– لا أريد هذا الشّاب أن يدخل بيتنا مرّة أخرى، ولا أن تُكلِّميه في الجامعة.

جُنَّ جنون ريم وقالت لأمها بانزعاج: "أمي لماذا؟ لم يَبْدُ منه أيَّ شيء... بل كان صريحاً معكِ، وكان يجيبكِ بكلِّ صدق، وأنتِ لم تتركي أيَّ سؤال إلا وسألتيه إيّاه، وفي النهاية تقولين له إنكِ لست موافقة! أمي أنتِ جريئة جدّاً ومتسرّعة، لقد أحرجتني".

– تكلَّمي معي بأدب، لا تنسي أنا أمكِ!! إنّه يُمثِّل عليكِ الحبّ وهو كاذب لا يعرف معنى الحبِّ أصلاً، هو فقط يعاني من عقد داخليّة، قالها بلسانه ألم تسمعي؟ قال أنَّ لديه نقص... هذه وحدها عقدة تكفي بأن لا أوافق عليه... هو ينقصه الحنان من أيّام طفولته، فيرى أنه من الممكن أن يستعيد الحنان من عندكِ، كما أنه لا يستطيع أن يعطيكِ حناناً لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه كما هو معروف، يريدكِ يا غبيّة أنيسة وممرّضة له فقط.

– يا أمي من أين لكِ بهذه الأفكار؟ بل هو يحبّني أنا أشعر به، وما المشكلة إن كان يريد حناناً قد فقده بالطّفولة ويحاول أن يجده الآن... أيُحرم منه مرّتين، مرة في طفولته ومرّة في شبابه، بدلاً من أن نساعده ونُقدِّم له الحنان لكي لا يبقى محروماً على مدى العمر!

– يا حرام كم أنتِ حسَّاسة وحنونة!!! – قالت هند باستهزاء – لا علاقة لنا يا ريم، لسنا جمعية خيريَّة لتوزيع الحنان، أريدكِ أن تتزوّجي رجلاً ناضجاً لا ينقصه شيئاً، ولا يوجد عنده عقد تحاولين أن تُداريها، أما هذا الشّاب فلم تري منه شيئاً بعد، هو كتلة عقد تمشي على الأرض.

– كيف حلّلتِ هذا يا أمي؟

– هو محروم الأم والأب مشتّت بطفولته، ماذا تعتقدين أن تكون شخصيّة هذا الشّاب؟

– أمي خلال هذه السّنة لم أرَ منه أيَّ شيء، ولا أي عقدة، هو شاب رائع ولا أشعر أنَّه معقّد.

– يا ابنتي لا تستطيعين أن تحكمي على الشّخص إلا عندما تعاشريه.

– وكيف حكمتِ أنتِ عليه؟

– أنا حكمتُ عليه من قصّة حياته التي سردها لنا، وكما أنني أكبر منكِ سناً أستطيع أن أقيّم الأمور جيّداً، ولست معميّة من الحب مثلكِ... الآن اذهبي لغرفتكِ وكفاكِ نقاشاً وجدلاً، أمين نفسه فهم عليَّ وانسحب وخرج دون أن يناقش لأنَّ كلامي واضحاً.

– لقد كنتِ قاسية عليه يا أمي، لقد أحزنتِ قلبه وقلبي أيضاً.

– ريم اذهبي لغرفتكِ، ولا أريد كلاماً آخر عن هذا الموضوع، قابلته كما أردتِ وانتهينا.

ركضت ريم لغرفتها وهي حزينة تبكي، وبدأت الدّموع تغسل وجهها، وأصبحت تكلّم نفسها: "لماذا حكمتِ عليه هكذا يا أمي، لم أتخيّل أنَّه لم يعجبكِ، لا أرى فيه أيّ عيب، أنا أحبّه

من كلِّ قلبي، لا أريد أن ينتهي الحبّ هكذا... يا تُرى ما انطباعك يا أمين عن أمي؟ أكيد أخذت صورة عنها أنَّها قاسية...، يا إلهي سيكون حزينا أو متعباً من الأرق الذي أحاط به، أتمنّى لو أكلّمه"

ثمَّ تذكّرت"يا إلهي صحيح! لم تقل لي أمي كيف عرفت والد ووالدة أمين؟ سأذهب لأسألها".

فذهبت ريم لغرفة والدها وطرقت الباب: "أمي أتسمحين لي بالدّخول؟"

– تفضّلي يا ريم... أنتهيتِ من البكاء وأخيراً؟

– كلا... لكن أخذت استراحة، وسأعود لغرفتي وللبكاء، لكن تذكّرت شيئاً.

– ما هو؟

– لم تقولي لي كيف عرفتِ شاكر وأمل، والدي أمين، قبل أن تسأليه عنهما؟

– سأقول لكِ يا ريم، لكن هل تعديني بأن تبتعدي عن أمين، عندما تعرفي القصّة؟

– وهل للقصّة دخل بعلاقتي مع أمين؟

– نعم، هذه القصّة هي السبب الأول والأخير لابتعادكِ عنه، وأعيد وأكرر أريد يا ريم إنهاء هذه العلاقة وبأسرع وقت، قبل أن تتطوّر.

هيّا يا أمي، أريد أن أعرف القصّة، لقد قلقت وأشعر بالرغبة الشديدة لمعرفة تفاصيل القصة.

***

أمين صاحب القلب الطفوليّ والإحساس الدافئ، شعر بالانكسار، وكأنّه كان في مباراة كرة قدم، وخرج منها مهزوماً عشرة مقابل صفر، لم يستطع تحصيل القوة التي كانت تتمتّع بها السيّدة هند، لأنَّ المباراة ليست عادلة، فالفريق الأول قويّ، أما الثّاني فهو ضعيف من جميع النواحي.

دخل أمين المترل وألقى بنفسه على السّرير في غرفة نومه، يشعر بالإرهاق الشديد بالإضافة إلى الجوع، وفوق هذا كلّه شعوره بالحزن الذي سكن في قلبه، يريد أن يصرخ...

فيهدّئ من نفسه، لديه رغبة بالبكاء لكن يمنع دموعه من الانسكاب، ويجبر عينيه ألا تنكسر أو تنهزم، يحاول أن يبقى متماسكاً قوياً، وبدأ يكلّم نفسه: "لا أحد يريدني، منذ أن كنت طفلاً والنّاس ترفضني، لا يريدون العيش معي، أنا مكروه... يا إلهي، ولكن أنا متأكّد أنّك تحبّني يالله، فأنت خالقي وليس لي سواك مهما كُنت وحيداً فأنت القريب الحبيب، لماذا يارب تزداد الأمور تعقيداً؟ وكلّما شعرت أنـــني سأرى الفرح أشعر أنَّ الفرح يهرب مني خوفاً من أن يراني، لقد بنيت آمالاً في حبّكِ يا ريم، هل هُدّمت هذه الآمال؟ يا ترى هل قُسم لهذا الحبّ أن يموت، بعد ليالي السّهر الوحيد الحزين؟ آه... أشعر أنَّ صدري يتمزّق، وقلبي يذوب، لَمَ تسرّعت هذه السيّدةبالحكم عليّ؟ لم تعطني فرصة واحدة، لأكشف لها عن شخصيّتي، انطباعها سيّء عنّي منذ أن رأتني أدخل باب البيت، هل حكمت عليّ منذ اللّحظة الأولى، ولماذا؟ وريم لم تقل شيئاً بقيت صامتة، لا... لا ألومها شعرتُ أنّ أمها شديدة وتسيطر عليها، كيف يا ترى ستُقابلني ريم في الجامعة غداً؟

أشعر وكأنّ بداخلي بالوناً سينفجر غضباً، آه... سأتناول دوائي وأنام، وعندما أستيقظ أحاول أن أدرس قليلاً، سأبقى قويّاً لا أحد يستطيع أن يحرمني من أيِّ شيء أريده...، لقد حُرمت

بالماضي من أشياء كثيرة وبما فيه الكفاية، جاءت الأيّام لأحقّق ما أريد". وتناول أمين دواءه وبدّل ملابسه وتمدّد على السرير، ولم يكفَّ عن التفكير بل بقي يزداد حزناً وأسى حتّى نام دون أن يشعر.

أمّا ريم في هذا الوقت كانت تلحُّ على أمها أن تروي لها قصّة أمل وشاكر (والدا أمين) فوافقت أمها أن تحكي لها القصّة بشرط أن تبتعد ريم عن أمين كليّاً. لكن الفتاة لم تعد أمها بشيء، بل كانت تريد سماع القصة وحسب.

قالت أم ريم: "اجلسي هنا يا ريم، لأقصّ لكِ القصة، وأنتِ احكمي على الوضع، من هذه الحكاية".

– حسنا يا أمي تفضّلي أنا أسمعكِ.
– منذ أن رأيت أمين على الباب، شعرت للوهلة الأولى أنـــّي أعرفه، لكن عندما تكلّم معي وعرّفَ بنفسه وقال أنا أمين يا سيّدتي، تأكّدت أنني أعرفه أو بالأحرى أعرف أباه، لقد أعادني أمين للوراء تقريباً واحداً وعشرين سنة أو أكثر، فعندما رأيته طُبعت أمامي صورة شاكر؛ لأنَّ أمين يشبه أباه بشكل كبير وكأنه مستنسخ عنه، وحتّى نفس الصّوت وملامح الوجه.
– أبوه وسيم إذاً مثله؟ (قالت ريم مسرورة)
– نعم، وسيم لكن هذه الوسامة، كان وراءها شبح مخيف، مخادع خائن.
– يـــــــاه... يا أمي كلّ هذا؟ أكنتِ تعرفين أبا أمين لدرجة كبيرة؟
– لدرجة كبيرة وقريبة، لقد كنا أنا وشاكر مخطوبين، وعلى وشك الزّواج.

اندُهشت ريم بشدّة: "أمي...ما هذا الكلام الذي أسمعه لأوّل مرّة؟!! لا أصدّق مخطوبان...!! أنتِ وأبو أمين؟ يا إلهي ما هذه الصدفة الغريبة! كيف؟ لم تقولي أو تذكري شيئاً في حياتكِ عن هذا الموضوع، ولا قلتِ لنا أنك كنت مخطوبة لرجل آخر قبل أبي!

– أكيد يا عزيزتي، لأنَّ تلك الفترة كانت أسوأ أيام حياتي، لقد حاولت نسيانها ولا أريد أن أذكرها أبداً، فأخذتُها كذكرى ورميتها في البحر، لكي لا تخرج مرّة أخرى، لكن الذي جرى أنَّ هذا الشّاب أعاد إحياء الذكرى اليائسة لديّ، التي ما كُنت وما حَيِيت لأذكرها.
– يا إلهي، أنا أحاول استيعاب الأمور، ولكن ما الذي جرى حتى أصبحتِ لهذه الدّرجة تكرهين الموضوع، ولا تريدين ذكراه؟
– كان يمثّل أنه يحبّني، وأنا كنت طالبة في الجامعة على وشك التخرّج، يعني أكبر منكِ بقليل، فتمّت خِطبتي عليه بشكل رسميّ ووافق الأهل على كتابة عقد القران بعد شهر من الخِطبة، وبعد التخرّج سيتمُّ حفل الزّفاف، وفعلاً يا ابنتي تمّ كتابة هذا العقد، حتى أصبحت علاقتي به قريبة جداً، أحببته حبّاً شديداً وأحلم به ليل نهار...كنت أنتظره كلَّ دقيقة وأتشوّق لسماع صوته، بجانب هذا كنت لا أدع طريقة إلا وأعبّر بها عن حبّي له، وبما أنه زوج المستقبل قدمّت له أكثر مما كان يجب.
– ألم تكن محبتكما جيّدة وقوية؟ واعتقد أنه كان يحبكِ أيضاً بالمقدار نفسه.

- لا، لأنَّ تفكيركِ غبيّ مثل أملكِ، ظننتُ أن الأمور تسير جيّدة، كان يقول لي أحبكِ دائماً ويحضر لي بعض الهدايا، لكن اتّـــضح لي بالنهاية أنه يتسلّى بي كدمية يلعب بها متى يشاء ويرميها متى يشاء، وأنا دائماً كنت أحاول أن أقنع نفسي بحبّه لي، لكن من ضيق الوقت والعمل الكثير لا يستطيع أن يظهر مشاعره لي بشكل واضح، ولأنني أحبّه حبّـــاً كبيراً كانت عيوني عمياء عن الحقيقة، دائماً أبرّر له أخطاءه ونزواته.
- وكيف اكتشفتِ أنَّ شاكراً كان يمثّل عليكِ الحبّ؟
- كنت أشكي همّي لصديقة لي، وأجعلها تفكّر معي لوضع حلول لهذا الرجل الذي أرهقني.
- هل فعلاً كانت تستطيع عمل شيء من أجلكِ؟
- يا ريم عمِلَتْ شيئاً دمّرتني به، جعلتني أحقد على الصداقة والزّواج، وسرقت ثقتي بالناس جميعاً.
- كيف ذلك؟
- كانت صديقتي أمل؟
- أمل... أمل يا أمي؟...أم أمين...! أووووف.. إنّ الموضوع يزداد تقعيداً! يا ربِّ تلك صدمة أكبر من التي قبلها! لم أعد أفهم!!
- نعم يا حبيبتي، أرأيتِ؟ عرفتِ كم هو الموضوع حسّاسٌ بالنسبة لي؟

عبست ريم وقالت بصوت حزين: "معكِ حقٌّ يا أمي، لكن..."
- دعيني أكمل لكِ ثمَّ نناقش الموضوع.

عانقت ريم أمها وقالت لها: "أكيد عانيت الكثير يا أمي أنا آسفة من أجلكِ، هيا أكملي يا أمي أنا أسمعكِ.
- كنت دائماً أشكي لأمل همّي كما قلت لكِ، حاولتْ مرّة أن تساعدني فقرّرت الذّهاب لشاكر وأن تناقشه في الموضوع، لتحلّ الخلاف الذي وقع بيننا، وكان قد قرّر شاكر أن ننفصل بسبب بعض الخلافات التافهة.
- ما هو الخلاف؟
- الخلاف ليس محور القصّة كان شيئاً تافهاً، فقط يريد أن يُخرج حِججاً لكي ينفصل عني، شعرت أنه ملّ مني لا أعرف السبب، لكن أعتقد هذا يعود لشخصيّته هو، فهو إنسان غير مستقرٍ وغير سويّ يحبُّ الخروج والسّهر، ولا يحب التقيّد والارتباط أو الالتزام بشيء.

فذهبت أمل لشاكر لتناقشه بموضوعي، وإذ بها تقع في شباك هذا الماكر، لقد ذهبت إليه أكثر من مرّة والسبب هو أنَّ شاكراً كان يطلب رؤيتها، بحجّة أنه يريد مناقشتها في مواضيع تخصّ إصلاح العلاقة بيني وبينه، لكن بما أنه خائن ومخادع أقنعها أنه لا يريدني أبداً مهما حاولت، وبعد فترة يُعلن لها عن حبّه الشديد، وأنه يريد أن يرسل لي ورقة الطّلاق ليرتبط بأمل في ذاك الوقت، كانت أمل تخبرني بما يحصل وأخبرتني أنه يريد الانفصال، لكن فجأة تنقطع أخبار صديقتي أمل، لا تكلّمني ولا تأتي عندي، حتى عندما أتّصل معها هاتفياً يقولون لي ليست بالمترل، لتصلني بعد فترة ورقة طلاقي من شاكر، مما زاد جنوني وجعلني مريضة ويائسة، وبعد مدّة أُجري اتّصالاً لمترل

صديقتي أمل لأعرف سبب انقطاعها عني، لتقول لي أختها: "أمل تزوّجت" وسألتها فوراً ممّـــن تزوّجت ومتى؟ فأجابتني: "بشخص يُدعى شاكر، وتقريباً منذ شهر" أرأيتِ يا ريم حجم المأساة؟ من شهر أي من نفس التّـــاريخ الذي استلمتُ فيه ورقة طلاقي.

– يا أمي... ما أصعب ذلك الموقف! كيف تعايشتِ مع الموضوع؟ كيف تحمّلتِ؟ لا أستطيع تخيّل الأمور إنَّ الوضع كان ســـيّء لدرجة لا تحتمل.

– آه... بالتأكيد يا ريم، لقد عانيتُ وعانيتُ بما فيه الكفاية، وفقدتُ ثقتي بالآخرين، زوجي المستقبلي خانني، وصديقتي خانتني، كيف سيكون انطباعكِ عن الحياة؟ لقد علّمتني الحياة أن أكون قاسية، ولا أرحم أحداً عند الخطأ، لأنَّ العذاب النفسيّ الذي عُذّبته لم يعاني منه أحد أكثر مني... مرضت مرضاً شديداً وبعد فترة قليلة من الصدمة الأولى تزوّجت بأبيكِ وحملتُ بكِ على الفور لكن بقيت نفسيّتي متعبة ومحطّمة، وبعد سنة يا ريم استطعت أن أقف على قدمايّ، أواجه المجتمع بكلِّ قوّة لقد كنت إنسانة رقيقة ولا أطيب، فَخَرجَت مني سيّدة قوية لا تسمح لأحد أن يقف في طريقها مهما كان، وكأني الحيّة التي بدّلت جلدها.

– نعم يا أمي، أراكِ دائماً إنسانة قويّة لا يهمّك شيء وأيضاً عندما أذهب عندكِ للشركة، أراكِ تدبّرين الأعمال بكلِّ قوّة فأعجب بشخصيّتك القويّة، لأنك تتعاملين بالشّركة مع الكادر وجميعهم رجال، فلا أرى شيئاً يهزّك وتديرين سوق العمل بنجاح وتمسكين زمام الأمور الإداريّة بكلِّ شجاعة واحترام مفروض.

– يا حبيبتي، هذا كلّه لم يأتِ من فراغ، بل من الشّجاعة كما قلت لكِ تفجّرت من داخلي بسبب المأساة التي عانيتها في حياتي، فخرجتُ لأصبح إنسانة أخرى لا يعرفها أحد.

– نعم يا أمي معكِ حقٌّ وكلامكِ منطقيّ فالحياة مدرسة.

– معي حقّ بماذا؟

– بأنَّ الشّجاعة تفجّرت بسبب المعاناة.

– اعتقدتُ أنك تريدين القول أنَّ الحقّ معي عندما قلت لكِ ابتعدي عن أمين.

تلعثمت ريم وأجابت: "نعم... ربّما... ممكن، أنتِ على حق أو... لا دخل هذا بذاك".

– يا حبيبتي... لا دخل هذا بذاك! لا أوافقكِ... فهذا الشّبل من ذاك الأسد، والأسد يا ريم منظره من الخارج يوحي بالوقار والوسامة والأناقة وهو أجمل الحيوانات، لكنه أشرسهم ولا يكشّر عن أنيابه إلا بعد أن يبدو لكِ هادئ الملامح وليس عليه حرج، تعتقدين أنه يبتسم ولكن بالحقيقة هو يفترس ويهرب.

– أمي، أتريدين إقناعي بأنَّ أمين كأبيه؟ لا أعتقد أبداً!

– أكيد يا ريم سيكون نسخة عن أبيه.

– لا يا أمي، إنَّ أباه لم يقم بتربيته بل عاش في مدرسة داخليّة، فلم يتقمّص شخصيّة أبيه.

– وهذا ما سيزيد الموضوع شراسة؛ لأنه سيأخذ صفات أبيه بالوراثة والصّفات السيّـــئة الأخرى من الخارج.

– أمي لا أقصد أن أكسر كلامكِ لكن أنا أراه غير ذلك تماماً، هو بالنسبة لي ملاك.

– أنا كنت مثلكِ تماماً يا ريم، لقد أعمى الحبّ قلبي ورأيت النتيجة، تزوّج شاكر بأمل صديقتي وها هما أنجبا هذا الولد (أمين) ورموه هنا وهناك، أبوه ذهب بحال سبيله وأمّه متوّفية... عائلة مشتّـــتة، ولا أرى فيه أيَّ اختلاف عن الأولاد اللّقطاء سوى أنه يحمل اسم أبيه الحقيقي بشهادة الميلاد.

– أمي... هو لا دخل له مسكين، لقد ظلمته الحياة لقد دفع وحده الثّمن، ولم يتقاسم أحد معه ذلك يجب أن نقف بجانبه ونرعاه.

– نرعاه...! أما زال طفلاً لنرعاه؟

– لا أقصد كرعاية الأطفال أقصد الدّعم المعنويّ، بل نرحّب به لا أن نعامله على أساس أنه المخطئ ما ذنبه أن يتحمّل أخطاء الآخرين.

– يا ابنتي يا حبيبتي، الدّنيا مليئة بالشّباب الذين يعيشون تحت سقف عائلاتهم السويّة، والذين أحاطوهم بالحبِّ والحنان ليخرجوا شباباً أقوياء، أبعدي هذا الشّاب عن طريقكِ ولا تجعليه يخدعكِ، لأنه حتماً ستأتي من ورائه المشاكل، ومستحيل أن أزوّجكِ إيّاه فهو شاب مشتّت ينقصه الكثير، كما أنني لن أضع يدي بيد أهله وأزوّجكما.

– أين أهله لتضعي يدكِ بيدهم؟ هو لا يعرف أباه وأمه متوفّية.

– ربّما يأتي أبوه يوماً ما لا أريد هذا النّسب أصلاً، ولا أريد أن يختلط دمنا بدم هذه العائلة المشؤومة، ولا أريد أن تبقى الذكرى القديمة البائسة تحيط بي كيف ما أدرتُ وجهي، لا أحبّهم يا ابنتي أكرههم كلّهم، ولم أحبّ هذا الشاب أيضاً من اللّحظة الأولى التي رأيته بها، فكيف لي أن أراه زوجاً لابنتي وأنا أكره أباه وأمه؟ وخصوصاً أنه نسخة طبق الأصل عن أبيه...كيف؟ قولي لي!

– لا يا أمي، ربّما هو بالشّكل فقط يشبهه لكن بالحقيقة وبالدّاخل هو أفضل شاب عندنا بالجامعة وأكثرهم أدباً.

– هذا الكلام كلّه لا يهمّني، أنا لا أريد إرجاع الماضي لحاضري نسيتُ كلّ ما فات، لن أعيش ذاك الألم مرّة أخرى، لا أريد أن يعيد التاريخ نفسه، والآن يا ريم انظري إلى السّاعة لقد داهمنا الوقت وعليكِ الذّهاب للنوم، لكن قبل هذا أريدكِ أن تعديني الآن ألا تكلّمي هذا الشاب أبداً مهما حاول معكِ؛ إكراماً لأمكِ يا ريم حاولي الابتعاد عنه.

وبيأس قالت: "حاضر أمي... سأحاول ما أقدر عليه لعلّي أنجح، مع أنَّ المهمّة صعبة عليّ"

اليوم هو آخر أيام الأسبوع الدراسيّ... أراد أمين أن يأتي في الصّباح الباكر إلى الجامعة ليجلس مع ريم بالاستراحة قبل موعد المحاضرات، ليعرف ماذا جرى معها ومع أمها بعد ذهابه ويفهم ما الذي قلب الموازين؟ لأنه قرّر أنه لا يأس بعد اليوم وسيتمرّد على الوضع ولا يريد أن يبقى تحت رحمة البشر بقراراتهم له واختياراتهم، فخرج مبكّراً ووصل قبل موعد ريم بربع ساعة، فاستقلّ طاولة عند الحائط في آخر الاستراحة لا يريد أن يرى أحداً، فجلس متوتّراً ومترقّباً دخولها يشعر أنَّ السّاعة تدور ببطء شديد، عيناه نعاستان لم ينم جيّداً ويشعر بالإرهاق لكن بقي محافظاً على أناقته ووسامته، وفي تمام السّاعة التّاسعة والنصف دخلت ريم باب الاستراحة، ويبدو عليها

علامات النّعاس، لقد كانت ترتدي بنطال جينز وحذاء رياضة مع قميص قطنيّ أخضر، وكانت ترفع شعرها للأعلى بطريقة عشوائية، كأنها تريد أن تنظّــف الاستراحة، وأصبحتْ تسير ببطء وكسل تبحث عن طاولة لتضع عليها أغراضها وكتابها الكبير الثّقيل الذي تحمله، وكأنّـــه صخرة بين ذراعيها، فرآها أمين وذهب مسرعاً إليها دون أن يكلّمها ولا حتى يبتسم أو يعبّــر أيَّ تعبير، أخذ الكتاب الثّــقيل منها ووضعه بين ذراعه، ووقف عند إحدى الطاولات ووضع الكتاب وقال لها اجلسي يا ريم، فنظرت له بهدوء نظرة لم يفهم ماذا تقصد بها، فقال لها مرّة أخرى: "اجلسي أريد أن أكلّمكِ، أنا أنتظركِ منذ الصّباح الباكر، ما بكِ تنظرين إليّ؟ آه... نعم ما رأيكِ لو أحضر شيئاً لنشربه؟"

فأجابت ريم بأسلوب جافٍّ وبطريقة مملّة: "لا، سأذهب وأحضر شيئاً لي وأنت اذهب وأحضر شيئاً لك".

– أشعر من طريقتكِ بالكلام بأمر غير مريح، أحصل شيء؟

– سنذهب لإحضار شيء نشربه ثمَّ نبدأ الكلام...لـــمَ تسأل وكأنك لم تكن موجوداً البارحة؟!!

فذهبا وأحضر كلٌّ واحد منهما شيئاً مختلفاً، ريم أخذت الشّاي بالحليب وقطعة كعك، أما أمين فأخذ علبة عصير البرتقال وكوباً فارغاً، وعادا للطاولة دون أن يتكلّما، وأصبحت ريم تنظر إليه وفي عيونها كلام كثير لا تعرف من أين تبدأ، وأمين يشرب العصير دون أن يضع عيونه بعيونها، لأنه كلّما نظر لها شعر أنها تريد أن تكلّمه بقسوة، فكان خائفاً من بدء الموضوع.

وأخذ يشرب وعيناه لم تفارق كوب العصير. فبدأت ريم الكلام وقالت له: "أتسمح؟"

فأجابها من دون أن ينظر إليها: "نعم، تفضّلي بماذا أسمح؟"

قالت ريم بعصبيّة: "أولاً ارفع رأسك ونظرك عن هذا الكوب، وانظر إليّ لأستطيع أن أكلّمك بوضوح".

فرفع أمين رأسه بكلِّ هدوء وقلبه يدّق مسرعاً، يشعر أنها ستعامله بجفاء، ونظر في عينيها وقال: "لـــمَ العصبيّة؟ أنتِ أجمل وأحلى عندما تكونين هادئة، والعصبيّة ليست الزيّ الذي يناسبكِ".

– لستُ عصبيّة يا أمين، لكن أنا متوتّرة جداً وأشعر بالإرهاق من كثرة التفكير ليلة البارحة لم أنم جيداً.

– ولا أنا، فالبارحة عندما رجعت من منزلكِ، كنت أشعر بالإرهاق الشديد والجوع أيضاً، فأخذت دواءً ونمت لكي أهرب من كثرة الأفكار، فاستيقظتُ السّاعة الحادية عشر ليلاً، وجلست أذاكر بعض دروسي حتّى السّاعة الواحدة، وبعدها عادتْ الأفكار الغريبة تراودني فتناولت حبّـــة منوّم فلم أستطع النوم حتّى الرّابعة فجراً، فصلّيت الفجر وعدتُ للسرير ولم أنم فأخذتُ حبّة أخرى، وفي الخامسة والنصف تقريباً غفوتُ دون أن أشعر، ولأني قلق أريد أن آتي مبكّراً، استيقظتُ السّاعة السابعة والنصف فأخذتُ حمّاماً لأشعر بالنّشاط ولبست ملابسي وخرجت فكنت هنا أنتظركِ حوالي السّاعة التّـــاسعة إلّا ربع.

فأجابته ريم باستهزاء، مع ابتسامة تظهر مصطنعة: "أشكرك، لم أطلب منك أن تعطيني تقريراً عن أوقاتك، لو أنّــك احتفظت به لنفسك لكان أفضل".

– أنتِ اليوم لستِ ريم التي أعرفها، حتّى نظراتكِ غريبة، ابتسامتكِ السّاحرة ضاعت، ما بكِ أرجوكِ قولي، لا أحبُّ هذا الأسلوب لا تُــتعبي قلبي. من البارحة وأنا أشعر أنني مذنب، (بدا على وجه أمين الحزن، وحتى التفاؤل الذي يرسمه على وجهه اختفى، ونظرة عيونه رسمت لمحة أسى وألم).

– لا يا أمين أنا لم أتغيّر، لديّ رغبة شديدة بالبكاء والتوتّر هو الذي أضاع بسمتي، أنا متشائمة وبصراحة ومن دون أن تسأل أسئلة كثيرة، لن يفيد بأن نكون معاً وعلاقتنا لن تنجح، والبارحة سمعتَ بأذنك جواب والدتي.

أنزل أمين رأسه وأعاد نظره للكوب الذي أصبح فارغاً، وقال: "بنظري، لا توجد أسباب تُبيّن أنَّ علاقتنا لن تنجح، أين المبّرر؟"

– بل يوجد (أخذت ريم نفساً عميقاً وأكملت) أتذكر أنَّ أمي قالت لك أنّها تعرف أباك وأمك؟

– نعم أذكر، وكنت أريد أن أسألكِ منذ أن أتيتِ لكنكِ لم تفتحي لي المجال، هيّا قولي أهذا هو السبب مثلاً؟

– والدك يا أمين كان زوجاً لأمي على الورق، وكانا على وشك الزواج فكتبا عقد القران، وحدّدا موعد الزّواج بعد فترة معينة.

صُدم أمين من بداية الكلام وقال: "لم أستوعب! ماذا تقولين؟ أبي كان زوجَ والدتكِ كيف هذا؟؟ مهلاً! "

– لا، لم تنتهِ القصّة ... وأمك كانت صديقة أمي ماذا تفهم من هذا كلّه؟

– لا أفهم، أيعقل هذا يا ريم؟ أمي أيضاً صديقة لأمكِ؟ المعادلة معقّدة! وكأني لا أستطيع التركيز بالكلام أو لا أفهم ما يقال!

– تخيّل أنت كيف دارت الأمور...!

شرد ذهن أمين وأخذ يفكّر بصوت مسموع لريم: "أبي، وأمك و أمي، لا أدري؟

ثلاثيّ عجيب... كيف اجتمعوا؟ مثلّث هندسيّ زواياه غير متساوية؟ هل من الممكن أن يكون أبي أحبّ أمل... صديقة والدتك وتزوّجها...وترك والدتكِ؟ لا...لا أعتقد!

– نعم، بالتأكيد، أنت ذكيّ على فكرة وتفكيرك هندسيّ، وقد أرسل لوالدتي ورقة الطّلاق مع أنها كانت تحبّه حبّاً شديداً، وبصراحة بنظر أمي... أمل وشاكر أكثر اثنين كانت تحبّهما، وهما من سبباً لها الأسى وخاناها وعذّباها، فتزوّجا وأنجبا أمين.

اندُهش أمين وأجاب بذهول: "يا للأسف... قصة محزيّة، يا ليتهما لم ينجبا أمين، الذي دار به الزّمن... أستغفر الله العظيم لا أقصد الاعتراض على حكم الله، آه... فهمت من هنا بداية القصة!" قال أمين وهو حزين يهزُّ رأسه مستهزئاً من الموقف.

- ولهذا يا أمين أمي ترفض هذه العلاقة، وكانت قاسية عليك وكثيرة الأسئلة، فهي تكره والديك، كما أنها بصراحة ومن دون أن تغضب من كلامي، قالت بأنها لن تحبّك بما أنك ابنهما حقاً أنا آسفة.

وَجْهُ أمين الحزين ازداد حزناً وكأنه يريد البكاء لكنه تماسك وقال: "أنا صدقاً آسف... لكن ما ذنبي أنا يا ريم؟ لماذا أدفع ثمن خطأ ارتكباه أبي وأمي؟ أنا شخص مختلف، أمكِ لم تعطني فرصة لقد حكمتْ عليّ دون أن تعرفني هذا ظلم، وصدقاً قلبي يحبكِ".

- كفى أرجوك ما الذي يثبت لي أنك تحبّني ولا تخدعني؟ ربّما أنت مثل والدك؟ (ريم تجيب متأثّرة بكلام أمها)
- يُثبت...؟ وقف أمين ليغادر مكانه، وكرّر كلامه متضايقاً "أتريدين إثباتاً على ذلك؟ يجب أن تسألي إحساسكِ... حاسّتك السادسة"
- أمين لا تغضب، أرجوك اجلس أنا أستفسر فقط...أمازحك.
- لا أريد الجلوس، وإجمالاً أنتِ تعرفين أمين جيّداً، أنا لا ولن أخدعكِ ما حييت، لكن فكّري بضمير أكثر، لا يجوز أن أدفع ضريبة فعل قاما به أبي وأمي، ولا ذنب لي بهذا الموضوع، شاءت الصّدفة أن أحبكِ أنتِ، فاحترمي هذا الحبّ الذي أقدّمه لقلبكِ وقدّريه لأنه نادراً هذه الأيام، وأنا لا أحبّ لأتسلّى وألعب بل لأني شعرت به يدّق في قلبي مع كلِّ نبضة قلب، نعم... قلبي لا ينبض بطريقة سليمة، لكن سأثبت لكِ أنه يحبّ أكثر وأفضل من أيِّ شخص قلبه ينبض نبضات سليمة وصحيحة، ولا ألوم أمكِ وأقدّر الظّروف التي مرّت بها في الماضي، الآن سأذهب للمحاضرة ولن آتي مبكّراً لنجلس بالاستراحة بعد الآن، سنعود كما كنّا زملاء من بعيد إلى أن تصبح وجهة نظركِ قد اختلفت كوني عادلة بقراركِ! إلى اللّقاء.

غادر أمين مسرعاً لمحاضرته وظلّت ريم تنظر إليه حتّى اختفى عن الأنظار، وبقيت جالسة وبدأت الدّموع تغرغر من عينيها وملامحها حزينة، فجاءتها منال وقالت لها: "أنتِ هنا تجلسين في آخر طاولة بالاستراحة وأنا أبحث عنكِ من ربع ساعة؟ يا إلهي ما بكِ تبكين أحصل معكِ شيء؟

- لا... اجلسي أنا لا أبكي.
- لقد رأيتُ أمين يخرج قبل قليل من الاستراحة، أكان جالساً معكِ؟
- نعم.
- حسناً ماذا حصل؟ لم يبدُ عليه شيئاً وملامحه تُظهر أنَّ هناك أمرٌ ما، لقد قلت له صباح الخير وأجابني بابتسامة جميلة صباح الورد يا منال، وشعرتُ كم هو مسرور اليوم، ومن المؤكّد أنه كان معكِ، لكن عندما رأيتكِ تبكين لم أفهم شيئاً.
- يتظاهر أمامكِ أنه مسرور، لكي لا يظهر عليه شيء لكن بالحقيقة هو مستاء.
- لـمَ كل هذه الأحزان الصّباحيّة؟
- حول زيارة البارحة على الغداء.
- نعم، بصراحة يا ريم لاحظتُ أنَّ أمّكِ كانت شديدة معه، لقد ضغطت عليه، ربّما تضايق منها، أنا تضايقت عنه.

– لا، ليس هذا السّبب بالتحديد.
– ماذا؟ قولي ما زال هناك وقت للحديث.
– باختصار أمي رفضت أمين ولا تريدني أن أكلّمه أبداً.
– يا إلهي، لماذا؟ إنه لا يقارن بأيّ شاب لماذا لم يعجبها؟
– هل أقول لكِ سرّاً بخصوص الموضوع؟

وشرحت ريم القصّة كاملة لمنال فاندُهشت من هذه القصّة، وفي البدايةلم تصدّقها أبداً اعتقدت أنَّ ريم تمازحها، ثمَّ قالت منال: "ياه يا ريم، كم الدّنيا صغيرة كيف جمعت بين الجيلين وهما من عائلتين مختلفتين؟!"

– آه يا منال... هيّا قومي للمحاضرة ودعيني في همّي.
– لماذا؟ لا تريدين أن تأتي معي؟!
– لا، فقط أريد العودة للبيت أنا أشعر بالنعاس والإرهاق، كما أنني لا أشعر بالرّغبة لسماع أيّ محاضرة اليوم.
– لا يجوز هذا الكلام، هيّا ما بكِ؟ لا تجعلي الأمور الأخرى تؤثّر على دراستكِ، انظري إلى أمين خرج من الاستراحة والابتسامة مرسومة على وجهه؟ ولم يهتمّ للمواضيع الأخرى.
– لا أفهم كيف يحاول إخفاء المعاناة التي بداخله ولا يخلط بين أموره! أما بالنسبة لي أُظهر للنّـــاس كلّ ما بداخلي إن كان فرحاً أو حزناً، لا أعرف إخفاء شيء.
– لا أدري يا عزيزتي ريم تستطيعين أن تسأليه وهو يعلّمكِ إن كان بالإمكان. أتبقين هنا؟ لقد تأخّرت أنا ذاهبة.

ذهبت منال وفي نفسها سرور غريب، كما أنها حزينة على صديقتها، فقالت لها أفكارها "فرصة أن تستميلي محبّـــة أمين بما أنّ موضوع ريم معقّد وسيشعر أمين بالملل منها، لكن يا إلهي! بهذه الحالة ستكون النتائج وخيمة وليست بالقّصة الجميلة، بل سأكرّر غلطة أبا أمين! على كلّ حال أنا أحبّه وسأحاول أن أجعله يشعر بي ليصل إلى قلبي، ولكلّ حادث حديث، فلنرى يا ريم من سيفوز بالنهاية أيّتها المسكينة، مممممم لقد وصلتُ لقاعة المحاضرات."

أما ريم فكانت تارّة تقول هل أعود للمنزل أم أنتظر أمين كي نذهب بنفس الحافلة؟ هي تريد أن تنتظره لكنها خائفة لأنّ الحديث بينهما شبه منقطع، وأمين لا يريد سماع المزيد فقط يريد جواباً شافياً، وفي النّهاية قرّرت أن تغادر فحملت أغراضها ووقفت عند موقف الحافلات. رأت أمين قادم من بعيد فدُهش عندما رآها واقفة تريد الذّهاب، وهو يعلم أنَّ ما زال لديها محاضرة لم تنتهِ وأخرى لم تبدأ بعد، فجاء بجانبها وقال لها: "أراكِ هنا!"

فأجابته بلهجة حزن: "أمين... بصراحة غير قادرة على البقاء... يعني لا أعرف... إذا كان هناك أو لعلّ أو ربّما..."

– ريم ما بكِ! لم تقولي ولا كلمة واحدة لها معنى.
– آسفة، انسَ الموضوع لا أريد شيئاً ولـــمَ أنت هنا أيضاً... أليس لديك محاضرة بعد؟

– اليوم الدكتور متغيّب في إجازة مرضيّة، فمن الأفضل أن أذهب بدل الجلوس بلا فائدة، خصوصاً أنَّ مزاجي ســـيّء...، وأنتِ لماذا هنا؟
– سأذهب للبيت وحسب.
– ومحاضراتكِ؟
– لا أريد أن أرى أحداً ولا أسمع شيئاً.
– لا يا ريم، لا تجعلي أيَّ شيء يؤثّر عليكِ أو على دراستكِ.
– أنا متعبة... مرهقة، ولا أريد العودة إلى الجامعة سأذهب لأنام لا تجبرني على شيء أرجوك.
– طيّب هيّا إلى الحافلة.
بقي أمين صامتاً دون كلام ودون حراك، إلى أن وصل.

***

جرس هاتف المنزل يرنّ رنات عدّة ولا أحد يجيب، لكن بعد نصف ساعة عاد ورنّ مرّة أخرى، فرفع أمين السّماعة وقال: "ألو نعم، أهلاً أسامة كيف حالك".
– الحمد لله... أين أنت أيّها الشّاب؟
– كنت عند خالتي أتناول طعام الغداء وعدت... لماذا تسأل؟
– أريدك في خدمة هل أنت مشغول الآن.
– لا، تفضّل.
– سآتي عندك ونتكلّم.
– لكن بعد ساعة ونصف عندي حصّة تدريب القيادة هل تأتي معي؟
– نعم سآتي، ربع ساعة وأكون في منزلك، إلى اللّقاء.
فعلاً بعد ربع ساعة بالتّحديد كان أسامة عند الباب، ففتح أمين وأدخله.
– تفضّل يا أسامة، الشّاي جاهزاً سأحضره من المطبخ وآتي لنتحدّث.
جلس أسامة وجاء أمين بالشّاي فقال له: "هيّا يا صديقي ماذا جرى ما هي الخدمة؟"
– أنا خجل منك يا أمين، لكن إذا كان بوسعك أن تساعدني سأكون ممتناً لك.
– هيّا يا أسامة، تكلّم ماذا تريد؟
– يا أمين، تعرف أنني أبحث عن عمل بعد دوام الجامعة لكي أساعد أبي في حمل المصروف عنه، لكن بلا جدوى لا عمل حتّى الآن، فلدينا مصاريف كثيرة... أجرة البيت وأجرة محلِّ الخضار والفواكه، مصاريف الجامعة.... وأشياء أخرى.
– يا أسامة تكلّم من دون مقدّمات أو حرج، أنا صديقك وأخوك أم نسيت أننا تربيّنا معاً... أتريد مبلغاً من المال؟
– يا عزيزي، إذا كان بالإمكان.
– يا أسامة طبعاً، سأساعدك إن شاء الله.
– أريد أن أستدين منك مبلغاً ألف دينار، إذا كان بالإمكان وهو ضروريّ جداً.
– لا يهمّك يا أخي، لكن هل تستطيع إخباري بماذا تحتاجهم؟

- نعم بكلِّ تأكيد، لم ندفع أجرة البيت المستحقّة منذ ستة أشهر قدرها ستمئة دينار، وأبي يحتاج مئتي دينار في عمله، وبقي مئتان أقوم بسداد قسط الجامعة، فأنا للآن لم أدفع الباقي للفصل الدراسيّ الثاني، وقد قارب على الانتهاء.
- حسناً يا أسامة، سنذهب بعد قليل لدرس القيادة، ثمَّ نذهب لأيِّ صرّاف آليّ قريب، ونسحب المبلغ على مراحل.
- أشكرك... أشكرك يا أمين، وعندما أعمل أسدّهم لك بالتقسيط، أرجوك أن تصبر عليّ قليلاً.
- لا يهم فأنت أخي، خذْ راحتك.
- ألا تعلم إن كان هناك شركات تريد موظّفين، في أيّ مجال؟
- صدّقني يا أسامة لا أعرف، لكن سأسأل لك.

ذهب أمين وأسامة لدرس القيادة، وقد أثبت قدرة تعلّمه بسرعة كما أنَّ المدرّب قال لأمين أنه يحتاج لثلاثة دروس فقط ويصبح ماهراً بالقيادة، وبعد ذلك ذهبا للصّراف الآلي وأعطى المال لأسامة فشكره، وكان خجلاً من نفسه كثيراً على هذا الطلب لكن أمين هوّنها عليه. عاد أسامة لمترله المتواضع الصغير فوق محلِّ الخضار والفواكه، فعندما وصل نادى أسامة والده فوجده بالمطبخ يغسل الأطباق. أبو أسامة رجل يتّسم بالسّماحة وعمره يقارب على الخامسة والخمسين.

- أبي... أبي كيف حالك؟ سأل أسامة أباه بلهفة شديدة يريد أن يفرحه.
- الحمد لله، أين كنت يا أسامة؟ لقد قلت لي بأنك ستغيب ساعة واحدة فقط.
- يا أبي ذهبت إلى بيت أمين، وجلست عنده قرابة ساعة وذهبنا إلى درس قيادة السيّارات، تصوّر يا أبي أَصبح أمين ماهراً بالقيادة وسيشتري سيّارة بعد أسبوع تقريباً.
- يا بنيّ، فليوفّقه الله ويرزقه، لا تحاول أن تنظر لمن هم أعلى منّا مستوى.
- يا أبي، أمين صديقي وأنت تعرفه ليس بمستوى أعلى ولا مختلف... كل ما هنالك أنّه ورث عن والدته بعد أن وصل للسّن القانونيّ وهذا حقّه، كما أنّني يا أبي تداينت من أمين ألف دينار لنسدّ احتياجاتنا، ما رأيك بهذه المفاجأة!
- ماذا قلت يا أسامة... ماذا فعلت؟ اذهب الآن وأرجع المبلغ كاملاً، لا نريد أن نأخذ من أحد شيئاً.
- يا أبي نحن مضغوطان، ولا نستطيع التصرّف ونحتاج هذا المال، سأعيده لأمين بالتقسيط عندما أعمل لا تقلق.
- لا يا أسامة، الآن أعده لأمين وستُفرج علينا بإذن الله.
- من أين ستفرج أرجوك أفهمني، هل ستمطر السّماء قروشاً أم تتحوّل بذور البطيخ هذه التي في الصّحن إلى دنانير، أرجوك يا والدي هذا الحلّ الوحيد، ولن أعيد المبلغ الآن.
- يا بنيّ لا نستطيع سداد الدّين هذا المبلغ كبير.
- أبي الغالي، لا تقلق عندما أعمل سأفي الدّين بمفردي، وصديقي غير مستعجل على المال الآن فلديه دخل سنويّ، يأخذ أجرة الشّقق من العمارة التي يسكن فيها.
- أتحسده يا ولد؟

– لا يأبي معاذ الله، لكن أوضّح لك أنه ليس بحاجته الآن، أبي لا تُعقّد الموضوع، سأذهب أوّل الأسبوع لأدفع القسط المتبقّي للجامعة، والباقي ها هو تصرّف به أجاراً للمنزل وشيئاً لمحلّ الخضار.

– حسناً يا بنيّ هذه المرّة فقط، ولا تحاول مرّة أخرى أن تطلب مالاً من أحد، لا نريد أن نُراكم الدّيون على أنفسنا فنهلك.

– أبي، لا تخف سأعمل وأسدّ الدين وإن شاء الله سأتحمّل المصروف عنك.

– ليرضى الله عنك يا بنيّ الغالي.

الفصل الخامس عشر

دخلت الخالة علياء إلى مترل أمين، وكانت معتادة أن تفتح باب مترله وتدخل، وقبل ذلك تطرق الباب ثلاث طرقات، إذا لم يردّ أمين تفتح الباب بالمفتاح وتدخل.

– أمين... يا أمين، أين أنت؟.... تنادي الخالة على أمين وهي تقف في غرفة الجلوس.

أجابها أمين بصوت ضعيف: "خالتي ادخلي أنا في غرفة النوم".

دخلت إليه فوجدته ما زال نائماً، لقد استيقظ للتوّ على صوت خالته.

– أما زلتَ نائماً لقد أصبحت السّاعة الحادية عشر والنصف ليس من عادتك، لقد قلقت عليك.

فقال أمين وهو ما زال في فراشه والنّعاس يشدّه نحو الوسادة: "لــمَ القلق خالتي؟ ألا يحقّ لي أن أنام في عطلتي بضع ساعات زيادة؟... آه كم أنا متعب".

– نعم يحقّ لك، لكن لم أعتد عليك إلا نشيطاً.

– لم أستطع النوم جيّداً منذ يومين أو ثلاثة تقريباً، لا أغفو إلا قرابة الفجر.

– لماذا يا عزيزي ما الذي يقلقك! أعاد الألم إلى صدرك؟

– لا... الدّواء جيّد والألم خفّ كثيراً، لكن يبقى ضيق خفيف في صدري.

– هيّا قم الآن واغتسل واذهب لصلاة الجمعة، وعندما تعود سأجلس معك لنتحدّث عمّا يقلق أمين الغالي وسيكون الفطور جاهزاً.

– أتناولتم فطوركم؟

– نعم منذ ساعة تقريباً... هيّا قم.

– حسناً، أنا ذاهب لآخذ حمّاماً ساخناً وأتوجّه للمسجد.

رفع أمين الغطاء عنه وذهب للاستحمام، وبعدها إلى صلاة الجمعة، وعندما عاد وجد خالته تنتظره وقد حضّرت له الفطور، وكانت المائدة شهيّــةً، بيض مقليّ باللّحمة المفرومة والبصل الأخضر والجبن اللّذيذ، وطبق يوجد فيه قطع الطماطم الحمراء المشعّــة، وطبق صغير لزيتونٍ أخضر، والشّاي السّاخن، هذا بالإضافة للخبز الطريّ الطازج.

– أشكركِ خالتي ما هذه الأطباق الشهيّة؟

– أنت بحاجة لطعام مفيد، وحضرتك لا تهتّم بطعامك ولا تأكل جيّداً ولا تأبه أن تحافظ على صحّتك ستصبح نحيلاً.

– صحّتي جيّدة يا خالتي وحجم جسمي متناسب مع طولي، ووزني مثاليّ لا أريد أن يزيد، لكي لا يتضرّر القلب.

– ومن قال لك أنه سيزيد، صحّتك ستتحسّن فقط، هيّا اجلس وتناول فطورك، وحدّثني عمَّ يقلق نفسيّتك ويشغل بالك.

فمَثّل أمين على خالته الحزن وقال لها:"بصراحة شديدة وقعت بمصيدة مؤلمة".

قلقت علياء عليه وأجابته بدهشة: "بسم الله عليك كيف وقعت؟ مصيدة!! ماذا لا أفهم؟"

ضحك أمين وقال:"لِـــمَ خفتي؟ أقصد مصيدة الحبّ... أحبُّ فتاة بالجامعة..."
– تحبّ من؟ فتاة! الآن وفي مثل هذا السّن!!
– أَمُحَرّم أن نحبّ ونحن في هذا السن؟... لا أعتقد.
– وماذا بعد الحبّ؟؟
– لِـــمَ الجميع يسألني ماذا بعد الحبّ؟ أيوجد شيء أجمل من الحبّ؟
– نعم، عندما تحبّ فتاة يجب أن تنتهي هذه العلاقة بالزّواج، هذا ما يأتي بعد الحبّ.
– أعرف، لكن يا خالتي الحبّ لا ينتهي عند الزواج، بل يبدأ ويكبر ويتوّج بالزّواج.
– لكنّك ما زلت صغيراً الآن.
– لن أتزوّج الآن... فقط خِطبة وبعد التخرّج يكون الزّواج.
– هل ستربط الفتاة أربع سنوات قادمة؟... لا يجوز.
– هي على كلِّ الأحوال مرتبطة بالجامعة الآن، وبعد الجامعة أكيد كلُّ فتاة ستفكّر بالزّواج.
– يا أمين، لا أرى الموضوع منطقيّ الآن.
– خالتي لا ينقصني شيء للزّواج حتى إن أردت الزّواج الآن وحالاً فما المانع؟
– يا بنيّ ينقصك الوعي الكافي وتحمّل المسؤوليّـــة... فالموضوع ليس بالسهل.
– المشكلة ليست هنا خالتي.
– أين المشكلة؟

كان أمين في هذه الأثناء جالساً يتناول طعام الإفطار، ويحدّث خالته، قليلاً ما يأكل وكثيراً ما يتكلّم، فقالت له خالته: "يا أمين أكمل طعامك ثمّ تحدّث، أنت لم تأكل لقد برد البيض المقليّ "
– لا يهم خالتي ها أنا آكل رويداً رويداً... وسأقول لكِ أين المشكلة، لكن قولي لي هل عرفت بالماضي امرأة تُدعى هند، حتى ولو من بعيد؟
– هند...! لا أعتقد.
– تأكّدي أرجوكِ... راجعي ذاكرتكِ.
– هند... هند... نعم، ربّما كان لوالدتكِ صديقة تُدعى هند، آه... نعم تذكّرت صديقة أمّك، كانت هند الوحيدة التي أعرفها... هل يهمّ ذلك؟
– نعم جدّاً، وهل لديكِ علم أنّ هند كانت خطيبة أبي قبل أن تكون أمل زوجته.
– نعم أعرف، كانت هند تحبّ شاكر، لكنّ أباك لم يكن يحبّها كثيراً أو بالأحرى لم يحبّها، كانت أم شاكر تفرض عليه الزّواج وتريد أن تزوّجه، فخطبت له هند في ذلك الوقت، لكن عندما تعرّف على صديقتها أمل، أصبح يحاول اصطيادها لأنه ماكر، فأحبّته أمل (أمّك) وعندما ضمن حبّها انفصل عن هند، فكما أذكر حقدت هند على أمل بشدّة.
– ولماذا فعلت أمي هكذا؟ خانت الصّداقة بينها وبين هند؟
– كما قلت لك شاكر سحرها وأوقعها بشباكه، ونحن نصحناها أن تبتعد عنه، وأنّ هذا الزّواج ليس بالموفّق، حاولنا كثيراً إقناعها لكن هي لم تسمع منّـــا، وبقيت على عنادها، وأجبرتنا على تقبّله وأن نزوّجها إيّـــاه؛ لأنّها أحبّته بشدّة، حتّى تزوّجت منه، وندمت كثيراً على هذا

الزّواج الفاشل، لأنّ الحقيقة لا تظهر إلا بعد الزّواج... واعترفت أنّها ألقت بنفسها إلى التهلكة وضميرها يؤنّبها على هند.

– ووقع الفأس بالرّأس كما يقولون، أليس كذلك يا خالتي؟

– لا ليس صحيحاً، عوّضها الله بزوج أفضل منه، فهي تزوّجت وسافرت للخارج، وكان زواجها الثّـاني ناجحاً... حمداً لله وفّـقت بالنّـهاية.

– رحمكِ الله يا أمي.... لكن... الفأس وقع برأسي أنا.... نعم... ومن يهتم لأمري؟

فأنا نكرة، لقد تزوّجا لينجباني لزمن لا يرحم، ولم يهتمّ أحدهما ليبحث عن ذاك الطّفل الذي رُمي به، لتصبح الحياة أمّـه وأباه، فعلاً يا خالتي لقد كانت الحياة المربيّـة التي علّمتني أموراً كثيرة، تارة تكون حنونة عليَّ وتارة تتحوّل إلى مربيّـة قاسية جداً.

– أمين هوّن عليك... لا تكن متشائماً، ماذا أسمعك تقول؟؟ هكذا كتب لك القدر أن...

– أن أكون وحيداً! ألاّ أنعم بجوٍّ أسريٍّ وعائليٍّ! أن أجلس وأتخـيّـل كيف يمكن أن يكون حضن الأم، كيف تكون صحبة الأب لابنه؟ لا أعتقد هذا يا خالتي لا أستطيع أن ألوم القدر، أوجّه اللّوم لأمي وأبي فقط... وتقولين لي الزّواج تحمّل للمسؤولية؟ أين المسؤوليّـة عندما تزوّج ذاك الاثنان، ربّما أنا الآن أستطيع تحمّل المسؤوليّة أفضل من أيِّ رجل فوق الأربعين من العمر.

– لا يا أمين لا تبالغ، أنت تعتقد ذلك... لكنّك لا تستطيع.

– لا... لا أعتقد!! أنا تحمّلت مسؤوليّـة نفسي منذ أن كان عمري ثماني سنوات، عشت أياماً كانت أقسى من الصّخر على نفسي، وكيف لطفلٍ في مثل هذا العمر أن يحمل المسؤوليّة؟

– أنت تعرف يا أمين أنّ أمّـك عملت المستحيل، لأخذك معها... لا تلومها، لم تستطع فعل شيء، لقد كانت كلّ الظّروف ضدّها وضدّك.

– أُف... اسمعي خالتي، أنا لم أقصد أن أفتح هذا الموضوع... لأنّي أكره أن أتذكّر الماضي، والقصص المأساويّـة، أرجوكِ دعينا ننهي الموضوع، ونعود للشيء الذي كنت جلست لأحدّثكِ من أجله.

– أفضل، هيّا أين وصلنا؟

– كنت أسأل عن السيّدة هند.

– نعم، صحيح كيف عرفت عن هذه القصّة القديمة؟

– السيّدة هند هي أمّ الفتاة التي أحبّها.

– أحقاً...؟ صدفة غريبة! كم هذه الدّنيا صغيرة! وهذه الفتاة تدرس الهندسة معك؟

– كلا، هي في كليّة الآداب.

– وكيف تعرفّت عليها وأنت في الشّرق وهي في الغرب؟

– لا...الموضوع بسيط ولا يهمّ، فالأهمّ الآن، أنّها ابنة السيّدة هند، فأمّها ترفض رفضاً تاماًأن تكون هناك علاقة بيني وبينها، حتى أنّها لا تريدني أن أكلّمها أبداً... لأنني طبعاً ابن شاكر وأمل.

- وهل علمتْ بحبّك لابنتها حتى رفضت؟
- نعم، ابنتها ريم أخبرتها...

وشرح أمين لخالته عن زيارته لبيت ريم، وما دار من حديث حول الموضوع خلال هذه الأيام.

فأجابته علياء: "وأنا يا أمين أقترح أن تبتعد عن هذه الفتاة، لأن أمّها تكره والديك، صدّقني ستواجه المشاكل مع هذه العائلة".

- لا أستطيع، أريد حلاً شافياً غير الابتعاد، لا يمكنني ذلك...أحبّها خالتي، لقد تعبت...!
- أمين، ما بك؟ أراك متمسكاً بهذه الفتاة! أوّل مرّة أراك هكذا، تتعلّق بشيء، أو بأحد لهذه الدّرجة، وازن نفسك وتحكّم بعواطفك! الفتاة ليست دمية أشتريها لك من المتجر، يجب أن تحترم العادات والتقاليد، وتحترم ردّة فعل والدة الفتاة أيضاً. أنا لاحظت عليك، لم تعد تأكل مثل قبل، انتبه لنفسك، صحيح... ما الذي يعجبك بها؟
- كلُّ شيء، هي جميلة ورائعة، لا أقول لكِ أنّها ملكة جمال... لكن بالنسبة لي فهي ملكة، ملامحها أنيقة وناعمة، كما أنّها حسّاسة ولطيفة، وفيها ما يكفي لتكون أنثى بكلِّ معنى الكلمة.
- هل هي ملتزمة دينيّـــاً، محجّبة وتصلّي؟
- كلا ليست محجّبة ولا تصلي، وأهلها كذلك...
- لا حول ولا قوة إلا بالله...على ماذا أحببتها إذن؟ كيف ستكون زوجة وأماً صالحة لأطفالك؟
- وعدتني أنها ستصلّي وبعدها أقنعها بالحجاب.
- أرأيت أنّك غير ناضج الآن للزّواج؟ هذا حبٌّ طائش.
- كلا..كلا...أريد هذه الفتاة وحسب وسأفعل المستحيل...أرجوكِ خالتي...
- بما أنّك متمسك بها لهذه الدّرجة، ما رأيك أن أذهب لوالدتها، وأوضّح لها الصورة وأقنعها أن لا دخل لك بخطأ أمّك وأبيك؟
- لا خالتي... لا داعي، فمن المفروض أن تفصل هي بين الأمور، ويجب بمفردها أن تعرف أنّي لست المذنب، بل أنا ضحيّة لا أُلام أبداً.
- حسنا يا أمين، لكن إن أردتها فعلاً يجب أن تتقدّم لخِطبتها رسميّاً، كن حذراً من الموضوع، ولا تتّخذ أيَّ قرارات خاطئة، وإن أردت رأي انسى الموضوع،والآن سأعود لبيتي لأكمل أعمالي.
- شكراً خالتي لأنــكِ سمعتيني ولا تقلقي بشأني، وأنا عليَّ اليوم أعمال منزلية، سأرتّب أمور المنزلوأجلس أراجع بعض المواد الدراسيّــة، لأنَّ الامتحانات النهائية على الأبواب.

***

- صباح الخير أمي؟...جاءت ريم للمطبخ عند والدتها.
- صباح النور؟ لقد صرنا في وقت الظّهيرة، لـــمَ الكسل هذا؟
- لا يا أمي، لم أشعر بالوقت لأنّني نمت بعد السّاعة الثالثة.
- ولماذا؟

– كنت يا أمي قلقة، وقرّرت عندما أستيقظ أن أكلّمك بصراحة كبيرة.
– نعم يا ريم؟.... قالتها هند بطريقة استفزازية.
– أمي... أرجوكِ... اسمعيني جيّداً، ولا تغضبي منّي بسرعة... أرجوكِ.
– ماذا تريدين...؟
– في البداية أين أبي؟
– في غرفته يقرأ كتاباً.

أرادت ريم الكلام لكن أصبحت متردّدة ومرتبكة: "حسناً سأتكلّم، أَ.. أَ... الموضوع هو أنّني لا أعرف كيف، أكفّ عن التفكير بـ...أمين، لأنني أرى أنـّه شاب ممتاز، وأنا بصراحة..أ... أحب... لا شيء... ما رأيكِ أمي؟"

– عَرفتِ جوابي، ورأيي منذ المرة الماضية، لا أحبّ أن أعيد وأزيد.
– أمي أرجوكِ.

غضبت والدة ريم وبدأ صوتها يعلو: "بماذا تُرجيني؟ أنتِ الآن طالبة جامعيّـة وأمامكِ مستقبل، والشّاب لا يناسبنا...انتهينا"

– لماذا لا يناسبنا؟ أنا أرى العكس....
– أولاً: نسبه لا يشرّفنا، ثانياً: يعاني من مرض في القلب، ثالثاً: يعيش بمفرده الآن، وهو شابٌّ لا نعرف عنه شيئاً، ورابعاً:لقد تربّى في مدرسة داخليّة بعيداً عن جوّ الأسرة، فكيف له أن يُنشئ عائلة صالحة ويمدّها بالعطف والحنان والرّعاية، بما أنـّه فاقد لهذه الأمور، كلُّ هذا يجعلني أمانع وأرفض مثل هذه العلاقة، وأنتِ يا ريم ما زلتِ جاهلة، وصغيرة ولا تفهمين الحياة جيّداً، تصوّري مثلاً لو أنكِ تزوّجتِ بهذا الشاب وأنجبتِ أطفالاً، وبعدها توفّي بسبب المرض الذي يعاني منه، ماذا سيحدث؟ ستصبحين أرملة وأنتِ صغيرة في ريعان الشّباب! وأطفالكِ سيصبحون أيتاماً من دون أب؟ تخيّـلي معي!
– الأعمار بيد الله يا أمّي، وربّما أتزوّج برجلٍ سليم، ويموت في حادث سيّـارة مثلاً، لا نستطيع أن نحكم على الأمور من هذا المنظور.
– بل تستطيعين، لأنَّ الحقيقة واضحة أمامكِ، والإنسان السويّ العاقل يختار الأمور البعيدة عن الضّرر، ولا يختار الضّرر بعينه، فيبقى بشكٍّ وخوف، ولـمَ تتزوّجي شاباً بعلّة وتبقين بين نارين؟ انسي الشّاب وانتبهي لدراستكِ، عامليه بجفاء وبرود هكذا سيبتعد يوماً بعد يوم، وينساكِ.
– إجمالاً هو ذهب في حال سبيله، لا يريد أن يكلّمني، وقال لي أن أكون عادلة بقراري.
– بما أنه ذهب في حالة سبيله، اتركيه ولا تبتسمي في وجهه، لا تجعلي الآخرين يتحكّمون بشخصيّتكِ، افرضي رأيكِ وقراركِ، وإذا تداعتْ الأمور اصرخي بوجهه ولا تجعليه يؤثّر عليكِ، لاتتمادي بالعلاقة ياريم مع هذا الشّاب، ضعي حدوداً من البداية.

نظرت ريم لأمها وهي عابسة، وقد احمّرت عيونها وقالت: "سأحاول".

ذهبت ريم حزينة لا تستطيع أن توصل لأمها معلومة أنها هي تحبّـــه، ولا تستطيع أن تعامله بجفاء، فقلبها يعتصر عندما تراه وبالأخصّ عندما يكون حزيناً.

جلست في غرفتها وأخذت تحدّثُ نفسها: "لا أريد أن ينساني مع الأيام، كيف أفعل هذا وأنا أحبّه؟كلام أمّي منطقيّ إذا قمتُ بتحكيم عقلي، لكنّ قلبي يرفض ذلك ويحبُّ أمين بجميع علله – التي لا أراها أبداً– بصراحة أرى حسناته ولا أريد أن أظلمه، ولا أدري كيف أتصرّف، الآن أنا بين نارين... يا إلهي"

ضاع وقت ريم وهي تفكّر، ولم تستطع الدّراسة ولا حتى التركيز بأيّ أمر...تشعر بالملل والضيق، ولا تريد الجلوس مع أحد.

***

انتهت عطلة نهاية الأسبوع، وهاهي ريم باستراحة الجامعة، تلتفت يمنياً ويساراً، مع أنّها تعلم كلَّ العلم أنَّ أمين لم يعد يأتي مبكّراً، لكن هل يا تُرى سيأتي ويجلس لو من بعيد ليراها؟ طبعاً لا، هذه فقط أفكار تراود ريم لأنها تتمنّى رؤيته بشوق لتجلس معه بعد غياب العطلة، إذ بهاني يأتي ويجلس معها دون استئذان.

– صباح الخير يا عسل؟
– صباح الخير،أهلا هاني.
– أريد أن أكلّمكِ حول موضوع أمين.
– لا يوجد شيء أتكلّم فيه، وأعتقد أنَّ الموضوع بيننا انتهى.
– اسمعي يا ريم، كنت البارحة عند أمين، سهرنا سويّـــاً في بيته، كان يبدو عليه الحزن والحيرة، وعندما سألته عن السبب شرح لي القصّة كاملة، بصراحة حزنت عليه، وأعتقد أنّـــكم ظلمتموه أنتِ وأمكِ؟ ريم حاولي أن تفكّري جيّداً به، ولا تضيّعه من يدكِ أمين شابٌّ لا يعوّض.
– أأرسلك لتدافع عنه؟ (ريم بنبرة غضب)
– لا والله، صدّقيني أنا أتّصرف من تلقاء نفسي، وربّما سيغضب إذا علم أنني تدخّلت، لأنَّ البارحة عرضتُ عليه أن أبادر بشيء وأشاركه في حلّ الموضوع، رفض بشدّة وقال أرجوك لا تتدّخل يا هاني، لكن أنا بدوري كصديق له لن أسمح أن يبقى معذباً هكذا، بالأخصّ أنـّـه كان يعاني وحده منذ أشهر عدّة، والحالة هذه الأيـّـام أصبحت أسوأ من ذي قبل، حتى أنه لا يأكل جيّداً ولا ينام.

فقالت ريم: "لا تُبالغ كي أشفق عليه، لا يبدو عليه هذا بالجامعة، أراه قويّاً"

– هو أمام الناس وأمامكِ دائماً يتظاهر بالقوّة ويتحايل على نفسه، فيشعر الآخرين أنه لا يعاني شيئاً.
– نعم... لاحظتُ ذلك يستطيع أن يرسم البسمة على وجهه بسرعة أمام الآخرين، حتى ولو كان يائساً من شيء ما... أمره غريب! ومن الصعوبة على أيّ إنسان التحكّم بأحاسيسه أمام الناس.

- السبب يعود للمعاناة الكثيرة التي عاشها منذ طفولته واعتاد على إخفائها، فهو قادر على فصل حواسّه ومشاعره عن بعضها، يحزن هنا مثلاً، وبعد برهة ترينه في مكان آخر يضحك مع الآخرين، لكن كلُّ هذه المأساة متى تظهر عليه؟ عندما يعود للمترل، اسأليني أنا...!! فأنا أعرفه جيّداً يجلس وحيداً يبدأ بالتفكير والحزن، وهذا ما يؤثّر على صحّته سلباً فالوحدة قاتلة ومؤلمة، وبالذات لمرضى القلب دائماً ينصحهم الأطباء بالابتعاد عن الوحدة.
- وهل يؤثّر هذا على دراسته.
- لا... ليس دائماً، أعتقد أنّ أمين عندما ينشغل بشيء ما يجعل تركيزه بالشيء الذي بين يديه، ولا يخلط الأمور ببعض، هذا ما يسهّل ويهوّن عليه، وأنتِ تعرفينه من المتفوّقين، شدّة الألم فقط هي التي تعيقه و تبعده عن الدّراسة.
- يا هاني لا أستطيع فعل شيء، الموضوع خرج من يدي، أمي حكمت علينا وانتهى، لا تريد هذا الشّاب، وأنا بصراحة لا أعرف أن أفصل بين حواسي مثل أمين. منذ يومين وأنا لم أعرف التّركيز في دراستي، أفتح الكتب ولا أعرف ما بداخلهم لا أستطيع الدّراسة، وأصبحت مهملة بكلِّ شيء، لا أريد أن تلاحظ أمي أو أبي بأيّ تغيّر طرأ عليّ فحتماً سيغضبان.
- أنتِ يا ريم... لا تحبّين أمين؟
- من فضلك يا هاني اترك الموضوع وشأنه، بنظري أن يبقى على ما هو عليه، أنا بهذه القصّة تائهة في وسط البحر بقارب صغير، لا أعرف أين هي الجزيرة لكي أصل إلى شاطئ الأمان، وعندما رأيتُ الجزيرة وحلمت أن أخرج من وسط البحر المخيف، أجد أنّ هذه الجزيرة مليئة بالأسود، لأدرك أنه من المستحيل القفز لهذه الجزيرة، فهي ليست بشاطئ الأمان، وأظلّ بحيرة دائمة... هل يا ترى أبقى في وسط البحر، وأبتعد عن هذه الجزيرة؟ أم أقفز للجزيرة لعلّني أنجو من مخاطر الأسود وأنتهي من غموض البحر؟ أنت في قصّة البحر والجزيرة ماذا تفعل يا هاني؟

نظر هاني لريم وهو محتار بحلِّ هذا اللّغز، ولم يستطع الردّ عليها.

فقالت ريم:"أراك محتاراً! أرجوك أجبني".

- الموضوع معقّد هكذا، وأنت ستنهي القصّة بحال مميتة على كلِّ الأحوال، ليس هناك فرح وانتصار، لا بالبحر ولا بالجزيرة.
- هذه الصورة بالضّبط التي أعيشها...

ريم قرّرت أن تستسلم في هذه المعركة وتترك الحبّ للأيام، وقالت إنَّ روابط الحبّ إذا كانت قويّة، فمن المؤكّد أن تجمع بين قلبيهما، أما إذا كانت الرّوابط ضعيفة، فإنها ستتفكّك مع الأيام ليذهب كلٌّ واحد على حدة، فهل الحياة ستثبت لها وتبيّن ما هي روابط الحبِّ الحقيقة؟ أم الحبُّ نزوة ممكن أن تزول مع الأيام كزوال الزّكام؟

أمّا أمين فلم يعجبه هذا الاستسلام واعتبره ضعف، وأراد أن يبقى مواجهاً هذه المعركة دون استسلام.

***

أمين ليس في منزله ؛ لأنه بالطبع في الجامعة، دخلت الخالة علياء بكلِّ هدوء لمنزله، وجلست على الكنبة في غرفة الجلوس بجانب الهاتف، وأصبحت تقلّب بدليل الهاتف الخاص بأمين، وتبحث عن رقم هاتف ريم، تريد أن تأخذ الرّقم وتكلّمها بعد عودهما من الجامعة، لسببين: الأول لتتعرّف على هذه الفتاة التي سرقت قلب أمين وعقله، والسبب الثاني لتعرف سبب قسوهما وتهرّبها منه مع أنَّ أمين واضحاً معهم منذ البداية، ومن ثمَّ ستعرف علياء كيفيّـــة التصرّف مع أمين، وكيف تستطيع أن تساعده في كلِّ الأحوال.

كانت الخالة علياء تعتقد أنّ أمين كان يكلّمها بالهاتف وأنّ رقمها عنده، لكن هو لا يعرف الرّقم، ولم يكن يجرؤ أن يتّصل بها هاتفياً أو يطلب الرّقم منها، فبقيت تبحث ولم تجد شيئاً، فقرّرت أن تكلّم الزملاء الشبّاب، لتأخذ الرقم من أيِّ أحد كان، لأنَّ دليل أمين لا يوجد به ولا رقم يخصّ أيّ فتاة، كما أنّه لم يشترِ هاتفاً خلوياً بعد، لأنه باعتقاده لا فائدة منه. فقامت بأخذ رقم هاني وسجّلت أيضاً رقم أسامة ورامي للاحتياط، لأنّها تعرف أنّهم أصدقاؤه وربّما يستطيعون مساعدهما. عادت لبيتها وفي المساء أحضرت الورقة التي كانت قد سجّلت عليها الأرقام وبدأت تفكّر"يا ترى بمن أتّصل؟ من فيهم من الممكن أن يساعدني؟ لا أريد الاتّصال بثلاثتهم، ولا أريد أن أسبّب الفوضى والتساؤلات الكثيرة، فتذكّرت أنَّ لرامي أختاً في الجامعة ربّما تكون تعرف رقم ريم، الخالة لا تدري أنّ منال أخت رامي صديقة ريم الحميمة ومعها بكليّـــة الآداب، لكن من هنا ستصل الخالة إلى مطلبها. وفعلاً اتّصلت هاتفياً برامي فأجابت والدة رامي على الهاتف: "ألو، نعم؟"

فأجابتها الخالة علياء "مرحباً، أنا خالة أمين صديق رامي، هل.."

– أهلاً وسهلاً سيّدتي سررت بسماع صوتكِ، دائماً رامي يحدّثني عن خالة أمين الطّيّبة الحنونة، والتي تعدّ الطّعام اللّذيذ، فرامي معجب بكِ وبطعامكِ.
– أشكركِ يا سيّدة أم رامي، هذا من لطفكم.
– تفضّلي، بماذا أستطيع أن أخدمكِ.
– أريد أن أكلّم رامي من فضلكِ، لآخذ منه رقم أحد زملائهم.
– لكن يا سيّدتي رامي بجواركِ... هو عند أمين، إذا أردتِ اطرقي الباب عليهما؟
– أحقاً! صدّقيني لم أعرف! منذ متى هو عنده؟
– منذ ساعة تقريباً.
– حسناً لا مشكلة، هل أستطيع أن آخذ الرّقم من ابنتكِ، أخت رامي؟
– آه، نعم من منال؟... سأناديها لكِ.

جاءت منال وسرّت جداً عندما عرفت أنَّ خالة أمين تريد الحديث معها، وأبدت كلّ لطفها على الهاتف.

– ألو مرحباً...
– مرحباً يا منال، كيف حالكِ أنا خالة زميلكم أمين.
– نعم، أهلاً وسهلاً سررت بسماع صوتكِ الجميل، تفضّلي وأمريني.

– أشكركِ يا حبيبتي، أريد طلباً بسيطاً لعلّك تساعديني به.
– على الرّحب والسّعة، وبكلِّ سرور تفضّلي.
– أريد يا منال، رقم هاتف طالبة عندكم في الجامعة اسمها ريم، هي زميلة رامي وأمين هل تعرفينها.
– أتقصدين ريم صديقتي؟
– أهي صديقتكِ؟ أنت تدرسين في كلية الآداب مع ريم؟
– نعم، أنا وريم صديقتان، وندرس في كلية الآداب سوياً، وأمين صديق وزميل رائع، ونحن نحترمه.
– يا حبيبتي، هل تساعدينني بإعطاء رقم الهاتف؟
– حسناً يا خالة تفضلي وسجّلي عندك، رقم منزلها ٨٠٨٠١٢٣
– أشكركِ من أعماق قلبي على هذه الخدمة.
– لكن قولي لي خالتي لماذا تريدين الرّقم... أَم أمين هو الذي يسأل عنه؟
– لا، أنا التي تريده، وأمين لا يعرف أنّني أبحث عن رقم الهاتف، وأرجوكِ يا حلوة أن يبقى الموضوع بيننا، لا أريد أن تصل المعلومة لأمين.
– حاضر يا خالة، هل تسمحين لي أن أعرف سبب حصولكِ على الرقم.
– أريد يا عزيزتي، أن أضع حدّاً لموضوع من المؤكّد أنكِ تعرفيه.
– موضوع أمين وريم؟
– آآآ.. أنتِ تعرفين...سنضع نهاية لهذه القصة، لأنني أشعر أنَّ أمين تغيّر من جميع النواحي... يجب يا منال حلّ هذه المأساة التي لا منفعة منها، كما أنّي أخاف أن يقصّر في دراسته الجامعيّـــة.
– لا... لا تخافي إلاّ هذه، فإنّ أمين دائماً من المتفوّقين، فهو يخاف جدّاً على تحصيله الدراسيّ ومعدّله. لكن كلامكِ منطقيّ يا خالة، يجب أن نوقف هذه المهزلة.
– على كلِّ حال سأتّصل بهذه الفتاة التي تُدعى ريم صديقتكِ، وأتّعرّف عليها مبدئياً، ومن ثمَّ أخوض بالتفاصيل، وشكراً لكِ مرّة أخرى، وإلى اللّقاء يا عزيزتي.
– العفو يا خالة، تدبّري أمرهما... إلى اللّقاء.

وبعد أن أخذت الخالة الرقم من منال وأصبح في حوزتها، تردّدت بالاتّصال لا بل غيّرت رأيها، وقالت: "لا لن أتّصل الآن، ربّما سأزيد الأمور تعقيداً لا دخل لي، أو أنتظر بضعة أسابيع وسأرى كيف أصبح الحال، آه... نعم أفضل شيء أن أنتظر شهراً كاملاً بعد الامتحانات النهائيّـــة، لا أريد الآن قبل الامتحانات أن أشغل بال الفتاة وربّما سأتسبب في مشاكل تؤدي إلى تقصيرهما في الامتحانات". وفعلاً نسيت الخالة علياء مبدئياً فكرة أنها تريد التحدّث مع ريم في الوقت الحاضر، وأجّلت الموضوع.

وخلال هذه الفترة كانت ريم تتجنّب لقاء أمين والحديث معه، كما أنها لا تجلس مع باقي الأصدقاء في الاستراحة خوفاً من أن يصدف ويجلسا معاً، وعندما كان أمين ينظر إليها أو أن

عيونه تأتي بنظرة في عيونها، فإنها تهرب بنظراتها وتتجاهل أنها رأته، لكن نظراتها الهاربة تشعل الشوق في قلبه...، هذه الأمور كانت تزيد أمين حزناً، يتمنّى قربها ويخاف، لا يستطيع فعل شيء لإيقاف الحبِّ ويشعر أنّ الموضوع خارجاً من يده، و يتساءل دائماً: "كيف لي أن أنسى ريم، وأن لا أفكّر بها، أن أكرهها مثلاً". لا يقدر على ذلك، وهو يشعر أنّ الحياة في بُعدها لا تطاق. في حال ركبا نفس الحافلة وقت العودة لمنازلهم، فإنها تجلس في كرسيّ بعيد عن أمين، وكلّ يوم يأتي يتمنّى أن تكلّمه، وهو في طبيعة الحال عاد كالسّابق لا يجرؤ أن يكلّمها لأنه وعدها بذلك، إلا إذا جاءت هي بالجواب الشافي. لا زال أمين يشعر بأنّــها تحبّــه، ولكن شعوره هذا ليس مبنيّـاً على ظواهر ثابتة بل على حاسّته السّادسة، لذا يبقى متشكّكاً وخائفاً.

وهي مع أنّــها تحبّــه، إلا أنّــها وعدت أمها أن تحاول نسيان وتجاهل هذا الحبّ، الذي بدأ من بعيد، ولازال حبّــاً بعيداً ينبض بين الطّرفين، ويربطهما بحبل مسافته ليست بالقليلة، كلاهما لا يعرف كيفيّــة الوصول للطّرف الآخر، وخوفهما من أن لا يلتقيا في نقطة واحدة أو أن يصل أحدهما للطّرف المقابل فيجد الآخر قد غادر، فتصبح كلعبة الحلقة المفرّغة يدوران بها دون اهتدائهما لطريق الوصول.

إجمالاً في هذه الأيام الجميع مشغول بالدّراسة والامتحانات، ولا وقت للتفكير بأيّ شيء آخر، لكن معدّل الدّراسة يختلف من طالب لآخر، أمين مثلاً يركّز في دراسته جدّاً ويحاول بذل كلَّ طاقاته، أما ريم فهي فاقدة التركيز بكلِّ الأمور تدرس ودماغها مشغول بأمين، تارة تُركّز وأخرى تسرح في الخيال، وساعة تذهب للمطبخ لتأكل شيئاً، فهي مشتــتّــة وكثيراً ما تكلّم والدتها بنفس الموضوع، وأمها ما زالت على نفس الإجابة وريم تعود لحزنها، فأصبحت في شجار دائمٍ مع والدتها، حتى أنّ أختها رندة أصبحت تتدخّل في الموضوع، وكلّما وجدتها شاردة الذّهن وبَّختها: "انتبهي لدراستكِ يا أختي الكبيرة العاقلة".

فتجاوبها ريم: "لا دخل لكِ انتبهي أنتِ للثّــانويّــة هذه السّنة". أما الصغيرة رنيم فحفظت جملة واحدة: "لا نحبُّ هذا الشاب ولا هذه العائلة، لا نريده بيننا... اسمعي كلام ماما".

والدة ريم سئمت من أفعال ابنتها وأفكارها الطّــائشة فبالطبع أخبرت والدها ليتصرّف معها، وما كان على الأب إلا مساندة زوجته بالرّفض؛ مما زاد من حزن ريم الشّديد، وشعورها بالوحدة وهي بين عائلتها وأسرتها، لأنّ الجميع أصبح يوبّخها من الكبير إلى الصغير ولا أحد يقف في صفِّها.

بالإضافة أنّ أباها أصبح يهدّدها إذا بقيت على هذه الحالة فإنّه سيُخرجها من الجامعة، ويذكّرها دائماً أنها ذاهبة إلى الجامعة لهدف واحد هو الدّراسة ونيل الشّهادة العليا، وليس لإقامة علاقات حبٍّ، ومبرّر ريم الوحيد أنه ليس بيدها حيلة اتّــجاه هذا الحبّ ولا باستطاعتها تجاهله مهما حاولتْ أن تتصنّع ذلك. أما منال صديقتها تحاول الوقوف بجانبها لكن بعد كلِّ حديث يدور بينهما ينتهي بمشاحناتٍ ليس لها داعٍ، والسبب يعود لأنّ منال واقعة بين الاثنين، ريم في البداية صديقتهاولا تستطيع مساعدتها، بالإضافة إلى أنها تحبُّ أمين هي الأخرى وتحاول إخفاء مشاعرها.

وبقيت الحالة متوتّرة هكذا والحبُّ في جمود، حتى قاربت فترة الامتحانات على الانتهاء ولم يبقَ سوى مادتين على طلاب الجامعة، وبعدها سينعمون بفترة راحة وعطلة صيفيّـــة، أما أمين فقد نفد صبره إنه يرى السّنة الدراسية هذه على وشك الانتهاء وأنّ الفراق حاصل، وفي هذه الحالة ستكون العطلة الصيفية يائسة وحزينة، يريد أن يكلّم ريم لكنه لا يجد حجّـــة كافية لبدء حديث معها.

في اليوم قبل الأخير من الجامعة جلس أمين وأسامة بالاستراحة، فسأل أسامة صديقه أمين: "ألم تعدني بأن تحاول إيجاد وظيفة لي أعمل بها في هذا الصّيف؟ لقد قاربنا على الانتهاء من دوام الجامعة ولم أتمكّن من الحصول على وظيفة، يجب أن أعمل يا أمين لكي أستطيع العيش".

فكّر أمين مليّـــاً قبل أن يجيب أسامة وتذكّر أنّ أم ريم لديها شركة ربّما تستطيع أن تجد لأسامة وظيفة، ثمّ قال: "نعم وجدتها، سأسأل لك ريم إذا كانت قادرة أن تبحث لك عن وظيفة في شركة والدتها".

سُرّ أسامة وابتسم: "أأنت جادٌّ في كلامك؟"

– نعم، سنحاول ثمَّ نرى إن كان بالإمكان.

وبدأ أسامة يبحث عن ريم بنظراته الموزّعة في جميع أرجاء الاستراحة. "هاهي تجلس مع منال ونسرين هناك... انظرْ يا أمين."

ونظر أمين وهو يعرف أنها تجلس حول تلك الطاولة؛ لأنه لا يجعلها تفلت من نظراته:"نعم حقاً إنها هناك ".

– أمين اذهب واستغل الفرصة وتكلّم معها بحجّتي، أم تريديني أن أذهب أنا وأسألها؟

– لا، اجلسْ أنت هنا، سأستعملك كحجّـــة أنت تستفيد وأنا أستفيد.

– هيّـــا أسرع يا أمين قبل أن تغادر.

ومشى أمين ببطء شديد لطاولة الفتيات، وعندما وصل إليهنّ ابتسمت له منال، أمّـــا نسرين فقالت له تفضّل أمين، لكن ريم لم ترفع رأسها لتراه وحتّى لم تتفوّه بكلمة واحدة، بل بقيت تنظر لورقة كانت بيدها تتظاهر بأنـــّها تقرأ شيئاً، وخفقات قلبها بازدياد. فابتسم أمين مع الفتيات ووقف عند الطّاولة وقال: "لو سمحتِ يا ريم أريد أن أكلّمكِ قليلاً".

فأجابته ريم بعدما رفعت نظرها إليه قليلاً: "لا يوجد شيء نتكلّم به، أرجوك لا تُعذّب نفسك معي".

قال لها:"من فضلكِ يا آنسة، أريد أن أطلب منكِ مساعدة بخصوص أسامة، والموضوع لا يخصّني أبداً ألديكِ وقت لسماعي؟"

– تفضّل واجلس.

جلس أمين بالكرسيّ المقابل لريم، أمّـــا صديقتاها منال ونسرين اعتذرتا عن الجلوس، فقالت لها نسرين:"نحن سنتمشّى قليلاً، ونراكِ فيما بعد لا تتأخّري علينا".

– لا أرجوكما ابقيا جالستين، لا يوجد أسرار بيني وبين أمين.

أجابتها منال: "شكراً سننتظركِ في الخارج"وذهبتا لخارج الاستراحة.

فبدأ أمين كلامه مباشرة: "أسامة يبحث عن وظيفة ليستطيع أن يصرف على نفسه ويساعد أباه، وله حوالي ستة أشهر يبحث دون جدوى ووضعهما الماديّ بصراحة سيّء، هل تستطيعين أن تجدين له وظيفة في شركة والدتكِ؟"

– بصراحة يا أمين، أنا فكّرت في ذلك منذ مدّة لأنني أعرف وضع أسامة، لكن أنت تعرف أنّ أسامة يدرس الآداب، ولا يوجد في الشّركة شيء له علاقة بالآداب...كما أنَّ الشّركة لبيع أجهزة الكمبيوتر ومستلزماته، فلا أظنّ أنـــّه ينفع في هذا المجال.

– اسألي والدتكِ ربّما لديها خيارات، أو ربّما عندها شواغر ممكن أن تفيد أسامة.

– حسناً سأحاول وأردّ له الجواب بإذن الله.

– أشكركِ يا ريم.

وجاءت غيمة الصّمت لتخيّم عليهما وتقطع حديثهما فجأة، فبقيا جالسين من دون صوت يحاولان تفادي نظرات بعضهما البعض، إلى أن قال أمين بنبرة منخفضة: "غداً آخر يوم في الجامعة...انتهينا الحمد لله من الامتحانات الشاقّـــة".

ريم بقيت صامتة مجرّد أنها تسمع، وأكمل أمين: "بما أنّ غداً آخر يوم هل لي أن أجلس معكِ ولو عشر دقائق لأودّعكِ؟"

– سنجلس جميعاً بالاستراحة مع باقي الأصدقاء، فترة لا بأس بها ونودّع بعضنا أليس هذا أفضل؟

– أنا أحتاج فقط لعشر دقائق وحدي معكِ.

– لا أستطيع... سأعذّبك وتعذّبني بالعشر دقائق، أرجوك انسى... لا فائدة.

فحزن أمين للرفض الشّديد هذا ووقف ليذهب"على راحتكِ... إلى اللّقاء".

وخرج من الاستراحة.

ريم كانت تتمنّى الجلوس لساعة لو استطاعت، وأخذ قلبها يبكي حزناً على هذا الوضع السيّء، لكن بقيت تهدّئ من نفسها وتقول: "ما الفائدة من الجلوس؟ خير ما صنعت أنا فخورة بنفسي أنـــّني رفضتُ الجلوس فأمي لا توافق عليه، وأنا لا أستطيع إلاّ الطّـــاعة... لكن يا ليت الأمور تتغيّر حتى الغد، هل أحاول مع والدتيّ لآخر مرّة، أم أنها ستوبّخني أكثر؟"

بقيت ريم متوتّرة طيلة المساء تريد أن تكلّم والدتها آخر محاولة، لكن الخوف يقتلها وقلبها تزداد دقّـــاته كلّما فكّرت بالكلام ورفض والدتها. أمّـــا الامتحان المتبقي هذا فلم تدرسه أبداً، ولم تستطع فتح أيِّ كتاب، لأنّ الأفكار تأخذها إلى عالم مجهول، وكان تعذيب الضمير يشتدُّ عليها؛ لعدم تمكّنها من الدّراسة لامتحان الغد.

فقرّرت في النهاية تأدية آخر محاولة أمام والدتها، واعتبرتها مغامرة من مغامرات الحياة، ذهبت إليها حيث كانت تجلس في غرفة التّـــلفاز، تقرأ مجلّة تختصُّ بأجهزة الكمبيوتر.

– أمي ماذا تقرئين؟

– هذه مجلّـــة لأحدث ما توصّلت إليه التكنولوجيا وأجهزة كمبيوتر جديدة، سأحاول أن أستوردها.

– ياه! رائع يا أمي، نعم كم هي جميلة... (وجلست تتصفّح مع والدتها المجلّة)

– أأنهيتِ دراستكِ لامتحان غدٍ يا ريم؟
– لا يا أمي لم أنته بعد، لكن جئتُ لأخذ قسط من الرّاحة، لأنني أشعر بالاختناق داخل الغرفة.
– حسناً... اذهبي واعصري لنا كوبين من البرتقال الطّــازج في استراحتكِ هذه.
– حاضر أمي... ركضت ريم إلى المطبخ وشعرت أنّ والدتها اليوم ذات مزاجٍ جيّــد، ستكلّمها ولن تتردّد، ثمّ عادت ريم ومعها كوبي العصير.
– تفضّلي أمي هذا لكِ وهذا لي.
– شكراً، أخبريني كيف كان يومكِ، وامتحانكِ في الجامعة اليوم؟
– جيّــد لا بأس به... وقالت في نفسها سأبدأ لها بموضوع أسامة، أمّي أتذكرين أسامة زميلي في كليّــة الآداب؟"
– نعم، أأحببتِه هو الآخر؟ أم طلبك للزّواج؟
ضحكت ريم وقالت: "لا يا أمي إنّــه يحتاج إلى عمل ليستطيع تسديد أقساط الجامعة، هل تجدين له عمل في الشركة؟"
– يدرس الآداب أليس كذلك؟ ماذا يستطيع أن يعمل في شركة الكمبيوتر؟
– لا أدري، حاولي أن تجدي له عملاً.
– هل لديه رخصة قيادة؟
– كلا، لا أظنّ.
– هل هو ممتاز باللّغة الإنجليزية؟
– نعم، ممتاز.
– إذن أقابله بعد انتهائكم من الامتحانات. ليحدّد معنا موعداً بالعطلة ويأتي، وسأرى إذا كان مناسباً.
– أشكركِ أمي، كم أنتِ طيّــبة سأخبره غداً أكيد سيفرح كثيراً، وأنا يا أمي؟
نظرت أمها إليها مستغربة من سؤالها وقالت لها: "وأنتِ ماذا؟ أتريدين وظيفة أيضاً؟ أم هناك طلبات مستحيلة؟"
أجابت ريم وهي خائفة ومتوتّرة: "كلاّ... أريد... أمين فقط"
فصرخت السيّدة هند فجأة في وجهها – دون أن تتوقّع ريم ذلك– حيث انقلب مزاجها مئة وثمانين درجة:"أنتِ لا تفهمين أيّــتها البلهاء؟ من المؤكّد أنــّكِ غبيّــة ولا تستوعبين الكلام؟ انصرفي عن وجهي."
– أمي.... يا أمي...
بقيت والدتها تتحدّث معها بنبرة غضب:"هيّــا اذهبي و تزوّجي من شاب غير مرغوب به في العائلة– رغماً عنّــا– فيه مئة علّــة ويريد أن يخدعكِ، هو يحتاج مرافقاً لوحْدَته وستصبحين خادمة له وممرضة، هذا بالإضافة إلى العقد النفسيّــة التي ستظهر عليه بعد الزّواج التي لا يعلمها إلاّ الله."

حاولت ريم أن تتمالك أعصابها لكنها ترجف من الداخل وقالت: "أمي يجب أن تعطيه فرصة أخرى أرجوكِ".

– أنتِ مجنونة على فكرة، كيف عليه أن يأتي و يخطبكِ قولي لي؟ لا يوجد له أب ولا أم أو أقارب مثل العالم والناس، مَن الجاهة التي ستطلب يدكِ من أبيكِ؟ لا أعمام ولا خال واحد له، هل ترضين أن يأتي هو يخطبكِ فقط دون أهل؟ إنـّـه مقطوع من شجرة، كم سيكون الوضع مُــخزياً عندما ندعو النّاس على حفلة خطبتكِ من دون جاهةٍ للرجال؟

ماذا سيقول النــّاس عنا؟ نبيع ابنتنا! لا يهمّكِ رأي كبار العائلة، ستزوّج ابنتنا من دون علم أحد؟ أنتِ لا تفكّرين جيّــداً يا ريم؟

– هكذا ظرفه لا يوجد أقارب له، كما أنه ليس مشتّــتاً بالمعنى الذي أنتِ فهمته، فرصة واحدة فقط.

صرخت السيّدة هند بريم مرّة أخرى: "اذهبي من وجهي لا أريد سماع اسم أمين هذا مرّة أخرى وإلا غضبت عليكِ من قلبي يا ريم، وسيغضب الله عليكِ أيضاً"

فركضت ريم لغرفتها وهي تبكي من أعماق قلبها والدّموع على وجهها كشلال نهر يتدفّــق. فأمضت باقي اللّيل دون دراسة للامتحان والبكاء بات صديقها، فقرّرت بعد تفكير جديّ أن تُنهي هذه السّخافة مع أمين غداً، لأنّ الوضع يزداد تعقيداً.

الفصل السادس عشر

خرج الجميع من قاعات الامتحانات والفرحة تغمرهم، لقد أنهَوا امتحاناتهم لهذه السّنة، فكان الجميع يتوجّه إلى الاستراحة للجلوس وتوديع الأصدقاء، لذا كانت مكتظّـــة جدّاً بالطّلبة، وكانت مجموعة الأصدقاء تتجمّع شيئاً فشيئاً، جلسوا جميعاً وكانوا مسرورين باستثناء ريم وأمين، كانت الابتسامة هاربة من وجه ريم والحزن يكحّل عينيها، أمّـــا أمين كان صامتاً لا يتكلّم ولا يبتسم، فقامت ريم بعد عشر دقائق وذهبتْ وحدها لتمشي وبدأتْ عيونها تدمع، فهي تشعر بضيق شديد ومزاجٍ ســـيّء للغاية والسبب الأول تقديمها للامتحان كان اليوم بغير المستوى المطلوب، ثانياً تريد أن تكلّم أمين وتخبره عن نهاية المشوار، لكنها لا تستطيع ولا تعرف كيف تبدأ، فأصبحت تمشي بهدوء لخارج الاستراحة وهي تبكي دون أن تظهر لأحد، فلحق بها أمين لأنه لاحظ عليها شيئاً، حتى وصل إليها ووقف أمامها لكي يوقفها، فتوقّــفت ريم ونظرت إليه بعصبيّـــة ...

فقال لها "ما بكِ يا ريم... ما سبب هذه الدموع؟"

فأجابته بغضب شديد "أرجوك أمين كفَّ عن مضايقتي، أنا أختنق منك لقد دمّرتني، وقلبت حياتي لجحيم..!"

– مضايقتكِ...؟ أنا أريد الاطمئنان عليكِ...لا أحبُّ أن أراكِ حزينة...اهدئي.
– سأهدأ، لكن افهمني جيداً يا أمين واسمع ما سأقول، في البداية هل أستطيع أن أطلب منك طلباً دون أن تحزن؟
– أهو طلبٌ حزين؟
– لا أدري لكن إذا سمحت راعي ظروفي، ولا تتضايق من كلامي.
– بالتأكيد..
– حياتي أصبحت صعبة بعدما تعرّفتُ عليك وتعلّق قلبي بك، أنت تدّمر حياتي... أهكذا الحبّ؟ لا أعتقد... إن كنت تحبّـــني بالفعل لن يرضيك وضعي الآن.
– كيف هذا يا ريم...ولماذا؟ طبعاً لا أحبُّ أن أرى التّعاسة في عينيكِ؟
– اسمع يا أمين أصبحتُ أتشاجر أنا وأمي بالكلام كلَّ يوم، أبي أصبح يهدّدني بإخراجي من الجامعة، علاماتي وتحصيلي الدراسيّ أصبح متدنيّـــاً، البارحة لم أستطع أن أفتح الكتاب ذهبت للامتحان دون دراسة، أخواتي بحزب المعارضة مع أمي وأبي، صديقتي منال... أصبحتُ أتشاجر معها كلَّ يوم...أتريد عذاباً أكثر من هذا؟ ماذا تعتقد أنت؟

أرجوك ارحمني أريد الرّجوع للوراء، إلى أيام الفراغ عندما كان قلبي خالياً لا يوجد فيه من يشغله...وعقلي نظيف.

صمت أمين وأدار بوجهه ليبعد عينيه عن عيون ريم التي امتلأت غضباً، وبعد الصمت قال وبكل هدوء "أنا آسف على كل هذا الوضع السلبيّ، وأنا خائف"...كانت كلّ ملامح وجهه استسلمت للحزن والألم.

فردّت ريم بعصبيّـــة "خائف يا أمين؟ لـــمَ الخوف...انظر في وجهي! أهكذا تردّ عليِّ!!"

– أنا يا ريم عشت أيامي هذه وروحي عندكِ أرسلها كل يوم لتراكِ، والآن أرى أحلامي تهرب وأراكِ حزينة، وأرى الحبَّ يرتمي على طرف الرّصيف والخوف والحزن داخل قلبي؛ لأنكِ تريدين الاستسلام للظّروف، فها نحن ننتقل من رحلة حبٍّ إلى مرحلة حرب، صدقيني أنا مثلكِ أتعذّب وأكتم في داخلي ولا أحد يشعر بي، كان هدفي أن أتقدّم لخطبتكِ ونكمل المشوار،لم يكن ببالي أنّ مشوار الزّواج معقّد هكذا...

نظرت له نظرة استخفاف ولم يعجبها أبداً كلامه وبدأ حديثها يخرج بعصبيّـــة زائدة "أنت يا أمين متفلسفٌ في الحبِّ وبائعُ للكلام فقط... ماذا يعني روحك تطير وأحلامك تهرب... سخافات، ماذا أستفيد أنا؟ ماذا سأجني من كلام الجرائد هذا؟ أنت تدمّرني من دون أن تشعر... لا أصدّق أنــّك تتعذّب؟ من ماذا؟ لا أمَّلك ولا أب يتحكّمان بك مثلي ويضغطان عليك فلمَ المبالغة، الخاسرة الوحيدة هي أنا.

– يا ريم ليحفظ لكِ الله والديكِ ويديمهما هما خائفان عليكِ لأنك ابنتهما، قلقان بشأنكِ يخافان من أيِّ شاب يريد أن يأخذ ابنتهما منهما، لذا هما يرفضان... ليت لي أهلاً يهتمّون بي مثلكِ !! كما أنني لَست متفلسفاً أنا أقول ما أشعر به.

(ريم بنبرة عالية وغضب): قل لي أنت إذن ... ماذا أفعل؟ أُخرّب حياتي وأفقد أهلي لأجلك؟

– لا طبعاً، لكن أنا أريدكِ معي أريدكِ بقربي، هل أحاول أنا مع والدكِ هذه المــرّة؟

فتذكّرت ريم كلام أمّها ليلة البارحة وبدأت تصرخ على أمين، وكأنها تقمّصتْ شخصية والدها وهي وتوبّخها. هي غاضبة وهو يُبسّط الأمور وكأنه يستخف بغضبها... فقالت له بصراخ "لا بدّ أنك لا تفهم ولا تستوعب ما يُــقال أنت أبله؟ إيّـــاك أن تكلّم والدي... أنت أصلاً لا تناسبني ولا نسبك يُشرّف نسب عائلتي، لا يختلف مستواك عن الأولاد اللّقطاء أو أولاد الشّوارع، آخر مرّة أقول لك كفَّ عن مضايقتي، أنا سأنفجر وأنت بلا إحساس لا أريدك بقربي... أنا لا أحبّك... انتهينا، أريد أن أرتاح من هذا الموضوع المزعج... افهم يا أخي لقد قلبت حياتي لتعاسة، هذا بالإضافة إلى أنك تعاني من مرض بالقلب لا أعرف ما هو مصيرك الذي سترتبطني به... كفاية إلى هذا الحدّ ... افهم.

وركضت ريم مسرعة وهي ترجف وتبكي، وقلبها يدّق بسرعة حتى شعرت أنه سيقف من شدّة تسارع نبضاته وكأنه سيخرج من صدرها، لم تتوقّع أنها هي التي قالت هذا الكلام ؛ لأن قلبها يرفض هذه الأقاويل، فهي تحبّــه وتؤكّد لنفسها أنها تحبّـــه، لكن الدّافع وراءهذا الحديث هو محاولة إبعاده لكي ينساها؛ لأنها تعلم أنه لا أمل بأن يجتمع قلباهما. فهربت مسرعة دون أن تعرف ردّة فعله ولا استطاعت أن تنظر في عينه.

أما أمين فصُدم صدمة كبيرة من كلام ريم، ولم يتوقّع من هذه الإنسانة الرّقيقة الحسّاسة أن تصرخ بوجهه وتوبّخه بهذه الطريقة – في وسط ساحةٍ مليئة بالطلبة– لقد كانت قاسية عليه ولم يصدّق أنّ هذا الكلام كلامها، لقد بكى في مكانه وهو يحبس أنفاسه وصوته، شعر بأنّ حنجرته مع حلقه سينفجران من كثرة ما حبس بداخله، فوضع نظّـــارته الشّمسيّـــة لكي لا يرى أحد دموعه... ومشى في طريقه إلى بوّابة الجامعة الخارجيّـــة، يريد أن يأخذ سيّـــارة أجرةويعود بأسرع وقت للبيت، فسار في طريقه وكلام ريم القاسي يرنُّ بأذنيه، وأخذ يعاتب نفسه "هل أنا سيّء لهذه الدرجة؟ هل ارتكبتُ مكروها ياربِّ؟ لكن حقاً كنت مبتعداً عنها فترة طويلة ولم أكلّمها، لابدّ أنني أسير بطريق خاطئ... لا حول ولا قوّة إلا بالله، ياربِّ... إنّ هدفي شريف ".

لقد ازداد توتّراً... وشعر بأنه لا يُسيطر على أعصابه... فهو يرجف ويدمع مما زاد الضّغط على قلبه... فتسارعت النّبضات بطريقة عشوائيّـــة، وازداد الضخُّ من الشرايين إلى القلب مما أدّى لتعبه الشديد فأصبحت خطواته تتباطأ، ومن ثمّ توقّـــف ولم يعد يستطيع السير، يشعر بنَفَسه ينقطع شيئا فشيئاً وضغطٍ ووجعٍ في صدره، فسقط على الأرض متألـــّماً بشدّة، لا يستطيع حتى النّداء للمساعدة.

انتبهت عليه بعض الفتيات فأصبحن يصرخن وينادين الشباب، تعالوا ساعدوا هذا الشّـــاب هيّـــا بسرعة لقد سقط أرضاً، فركض إليه شباب من الجامعة الموجودين في المنطقة، فسأله أحدهم وهو خائف وقلق من حالته لأنه لا يدري ما به.

"بماذا تشعر أيـــّها الشّـــاب، هل أطلب لك الإسعاف... بماذا أساعدك؟" كان أمين ينظر إليه وليس بمقدرته الكلام، لقد كان يضع كفَّ يده على صدره متألـــّماً بشدّة ويشعر بضيق في النّفس، ففتح أحدهم زجاجة ماء وبدأ يرشّه بالماء لعلّه ينتعش قليلاً، لكنّ أمين كان يشعر بالضيق أكثر فلا فائدة من الماء، فأشار لهم بيده كفاية لا أريد ماءً، فاتّـــفقوا أن يحملوه ويضعوه في سيّـــارة شابٍ معهم ويأخذوه للمستشفى.

كان هاني يسير هو وريم يتحدّثان حول ما جرى معها ومع أمين، لأنه صادفها وهي تركض بسرعة وتبكي بصوت عالٍ، فأوقفها وهدّأ من روعها وأصبحا يتمشيان ويتكلّمان، حتى وصلا قرابة البوّابة عند تجمّع الشباب... فقال هاني: "ما هذا التجمّع؟ ماذا يجري هناك؟ "

أجابته ريم"لا أدري يا هاني، تعال لنلقي نظرة". فوصلوا للتجمّع فسألت ريم إحدى البنات: "على ماذا أنتم مجتمعون؟ ابتعدوا قليلاً دعونا نلقي نظرة".

كانت ريم لا تستطيع رؤية ماذا يحدث؛ بسبب تراكم الطّلبة المتزاحمين، فقالت لها إحداهنّ: "لقد سقط شاب على الأرض ولا ندري ما به سيأخذوه للمستشفى". أصبحت ريم تمدُّ رأسها لترى من هذا الشّـــاب الذي سقط، لكن هاني رأى أمين قبل أن تراه ريم فصُعق من الموقف، لقد رأى شباباً من الجامعة يحملوه ويضعوه في سيّـــارة، فجنَّ جنونه وأصبح يبعد الجميع من بين الزّحام ليدخل عنده، فصارت ريم تنادي على هاني عندما رأته قلِقاً ومتوتّراً "هاني... هاني ما بك! ماذا يجري؟" فدخلت بين النّـــاس وعندما وصلت، كانت السيّارة قد انطلقت بسرعة الصّاروخ، ولم تستطع أن تلمح من بداخلها، فقلقت جداً وبدأت الشّكوك تدور في قلبها، وقالت: "لقد

أرعبني هاني لماذا ركض مسرعاً متفاجئاً، من يا ترى الذي سقط أرضاً؟ هل يعقل أن يكون..؟ لا... لا أعتقد".

وفعلاً أدخلوا أمين الطّوارئ بالمستشفى ووضعوه على السّرير، وركض هاني يطلب له الطّبيب، فرأته ممرضة وقالت له سنطلب لك الطّبيب حالاً، لكن في البداية أرجوك أن تذهب إلى المحاسبة لدفع التأمينات.

فقال لها هاني وهو متوتّر جداً: "الشاب يموت أسرعي ومن ثمَّ سأذهب للمحاسبة، لن أطير أنا والحساب".

– لا أستطيع، تعليمات المستشفى هكذا تدفع تأميناً ثمَّ ننادي الطبيب، وإذا احتاج لوازم أخرى سنسجّلها في فاتورة ثانية.

– هل هذا همّــكم! أرجوكِ..تحرّكي، لن أدفع الآن لا يوجد معي مالٌ كافٍ، هــيّا اطلبي الطّبيب وإلاّ ضربتكِ، أوليس اسمكم طوارئ؟ هيّــا تحرّكي.

ثم ركض هاني للسّرير وسحب من جيب بنطال أمين المحفظة، كان يوجد بها عشرة دنانير فأخذهم وركض للمحاسبة ودفع ثمانية دنانير، وجاء مسرعاً للممرضة ورمى في وجهها الفاتورة "هيّــا نادي الطّبيب بسرعة... الشّــاب على وشك الموت".

– لقد وصله الخبر، ثوانٍ وسيكون في قسم الطوارئ.

وجاء الطبيب وأخرج الجميع من عند أمين وأغلق السّتائر، ثمَّ بدأ هو والممرضات بفحصه بدّقة فوضعوا له جهاز قياس نبضات القلب وجهاز التّنفس، وأعطوه الحقن اللازمة والمغذّي بالوريد، حتى أصبح رويداً رويداً ينبض قلبه بنبضات معتدلة وطبيعيّــة واستعاد نفَسه الطبيعيّ، لكنّ الطّبيب طلب نقله إلى العناية المركّزة؛ لمراقبة وضعه طوال هذا اليوم وهذه اللّيلة، وطلب منهم أن يتّصلوا بطبيب أمين المشرف على حالته سابقاً، وغداً صباحاً سينقلوه إلى غرفة خاصة.

عندما اطمأنّ هاني عليه ورأى أنَّ وضعه أصبح أفضل، اتّصل من هاتفه الخلويّ الذي بحوزته إلى الخالة علياء ليخبرها بما جرى.

– ألو نعم.

– مرحباً خالتي، أنا هاني صديق أمين.

– أهلا وسهلاً هاني، كيف حالك؟

– الحمد لله خالتي، أريد أن..

قاطعت الخالة "لم نعد نراك يا هاني، اشتقنا لك ولجلستك المرحة"

– أشكركِ، أنتِ تعرفين جوّ الامتحانات والضّغط في هذه الفترة، خالتي أريد.. قاطعته مرّة أخرى" إذاً سنراك عمّا قريب، أريد منك أن تغيّر لي من نفسيّــة أمين التّعيسة هذه ؛ لأنه أصبح إنساناً يائساً وكئيباً.

– بالنسبة لأمين يا خالتي إنّــه متعب قليلاً – لا تقلقي عليه– أخذته للمستشفى لعمل بعض الفحوصات ربّما سيتأخر بالعودة.

– متى؟ ما به لم أفهم؟؟

- ذهبنا أنا وأمين للمستشفى لإجراء بعض الفحوصات، وهذا بعد الامتحان؛ لأنه متعب قليلاً، وأطلب منكِ أن تأتي بعد قليل لتطمئني عليه بنفسكِ، هو جيّد ولا خوفٌ عليه.
- أهو بالمستشفى الآن... أيّ مستشفى؟
- نعم، في مستشفى الحكماء العرب بغرفة رقم ٢٠٣
- ولماذا يضعونه في غرفة؟ أهو مُتْعب جداً؟
- لا أدري خالتي ليرتاح قليلاً؛ لأنه مرهق من ضغط الامتحانات، هيّـا لا تتأخّري سأكون بانتظاركِ لن أذهب.

وقام هاني بالتحدّث هاتفيّـاً مع صديقه رامي؛ ليخبر باقي أصدقاء المجموعة بالذي جرى حتى يقفوا بجانب أمين ويساعدوه على رفع معنوياته، وبالطّبع رامي أخبر أخته منال فجنَّ جنونها وقلقت كثيراً عليهوركضت نحو الهاتف لتخبر ريم.

فرنّ هاتف المترل، فأجابت ريم ألو...

- كيف حالكِ يا ريم؟
- لا بأس، وجيّد أنـكِ اتّصلتِ بي أريدكِ في شيء مهم، أتستطيعين المجيء عندي اليوم؟ فأنا أشعر بالملل وقد تصرّفت كالبلهاء وبعصبيّـة مع أمين، أريد أن أخبركِ وأستريح؛ لأنني أشعر بتأنيب الضّمير.
- لا... أنتِ ستأتين معي الآن إلى المستشفى، سأمرُّ عليكِ أنا ورامي كوني جاهزة.
- ما الذي جرى، أنا لا أفهم شيئاً...
- أمين متعبٌ جداً لقد سقط أرضاً بالجامعة، ونقلوه بعض الشّباب ومعهم هاني لأقرب مستشفى.

فسكتت ريم على الهاتف وعرفت أنـّها هي المذنبة.

- ألو... أين أنتِ يا ريم، ألا تسمعين؟ ألو!
- نعم أنا معكِ، حسناً أنتظركما (أجابتها وهي تتلعثم بالكلام)

وذهبت ريم لتطلب من والدها السّماح لها بالذّهاب، فرأتها أمها أنـّها ليست على ما يرام بعد مكالمة منال، وأنّ ملامح وجهها أصبحت لا تفسّر، فقالت لها "ما بكِ يا ريم.. بماذا أخبرتكِ منال؟"

- أمي حبيبتي، أتوسّل إليكِ أن تسمحي لي بالذّهاب مع منال؟
- إلى أين ستذهب؟
- أريد أن أذهب مع منال ورامي للمستشفى لزيارة مريض...
- ومن المريض؟
- إنـّه أمين، هو متعب جداً وجميع الزّملاء والأصدقاء سيذهبون لكي يطمئنوا عليه.
- سيطمئنونكِ عليه بالهاتف لا داعي لذهابكِ.
- لا...لا أمي يجب أن أذهب بنفسي ولن أتأخر، لقد قمت بتوبيخه بشدّة اليوم، لأنه كان يريد الجلوس معي وصرخت به، لا أعرف كيف تجرّأتُ على فعل هذا! كما أنـّني قلت له أنني أكرهه ولا أريد رؤيته مرّة أخرى، للآن أنا مندهشة كيف فعلتُ ذلك؟ وتركته وذهبتُ

أركض مسرعة وأنا أرجف كأني أهرب من شيء مخيف، ولا أعرف ماذا حلَّ به، فوجدوه ساقطاً على الأرض يتألــّم، وتمَّ نقله للمستشفى وهو في العناية المركّزة الآن... لا تعتقدي أني أريد أن أطمئن عليه... أريد فقط أن أرى شجاعتي ماذا فعلت به وها هو الآن لن يجرؤ على فتح هذا الموضوع معي مرّة أخرى.

– لا يجب عليك الذهاب.

– أمي أعدك لن أتراجع.

– حسناً...بما أنكِ قمتِ اليوم بعمل خطوة جــيّدة لصالحنــا وأبعدتِه خطوة للوراء سأسمح لكِ بالذّهاب، لكن ابقَي على موقفك، فهذا درسٌ جيّد له، بعدها لن يحاول هذا المجنون أن يقترب منكِ أو يضايقكِ، شابٌ ضعيف مجرّدُ كلمة تطرحه أرضاً، ويريد أن يتزوّج!! يحتاج مئة سنة ليصبح رجلاً.

شرد ذهن ريم بكلام والدها وصارت تحدّثُ نفسها "أمي تعتقد أنه يضايقني ولا تعرف أني نادمة على فعلتي هذه، وأشعر بتأنيب الضّمير اتّــجاهه ... مسكين يا أمين."

– يا ريم لا تتأخّري ولا تحاولي الحديث معه أو تعتذري له.

– حسنا يا أمي وسأوبّخه مرّة أخرى.

وبدّلت ريم ملابسها ووقفت أمام النّــافذة تنتظر منال وأخاها.

وصلت علياء إلى المستشفى ودخلت مسرعةً تريد أن تعرف ما الذي حصل بالتحديد، فرأت هاني يقف مع الطبيب فوقفت معهما، لكن الطّبيب كان ينهي كلامه مع هاني وقد استفسر منه ما حصل مع أمين بالضبط وسبّب له هذه النوبة... وذهب.

– مرحباً هاني، ماذا حدث لأمين وماذا كان يشرح الطّبيب؟

– تعالَي خالتي ادخلي واطمئني على أمين، كنا نتحدّث عن وضع أمين وسأشرح لكِ هناك هيّــا.

وصلت الخالة عند غرفة أمين، فحزنت على منظره لقد كان نائماً وعلى وجهه كمّــامة الأكسجين وعلى صدره قطع صغيرة بلاستيكيّــة موصلة بأسلاكٍ وبجهازٍ يقيس نبضات القلب، وفي ذراعه الأيمن– بالوريد تحديداً – يوجد إبرة موصّلة بخرطوم رقيق يسري داخله الجلوكوز وفي نهايته عبوة بلاستيكيّــة معلّــقة، فوقفت بجانبه تتأمّله وهي حزينة، قبّلت يده وكادت أن تبكي على منظره.

"اجلسي هنا يا خالة تفضّلي". وقرّب هاني لها الكرسيّ فجلست وشرح لها بالتفصيل ماذا جرى، وفي هذه الأثناء جاءت الممرضة ورفعت عن وجه أمين كمّــامة الأكسجين؛ لأن نَفَسه أصبح طبيعيّــاً، ومع أنّ الطّبيب أعطاه إبرة مهدئة إلاّ أنَّ الألم يبدو ظاهراً عليه، فلم تتماسك خالته وبدأت تبكي "مسكين يا حبيبي، كم عاش من المعاناة! والآن يعاني ولا أحد يشعر به، ولم تكن تنقصه هذه العلّة ففيه من الألم والحرمان ما يكفي، أرجوك هاني إذا جاءت ريم أخبرني أريد أن أتــعرّف عليها وأكلّمها."

– لا داعي يا خالة لجعل الأمور تتفاقم... فإنّ ريم متعبة أيضاً من هذا الموضوع، فهي تعاني مثل أمين وأعصابها متوتّرة.

- لا لن تتفاقم الأمور... لكن أحبُّ أن أتعرّف عليها.
- حسناً، سأخرج الآن يا خالة أريد أن أشرب شيئاً، هل أحضر لكِ؟
- كلا شكراً، سأبقى عند أمين... اذهب واسترح أنت.

وخرج هاني من غرفة أمين في العناية المركّــزة ونزل إلى الطّــابق الأرضي، فوجد منال وريم ورامي عند الاستقبال يسألون عن رقم الغرفة، ففاجأهم وقال لهم: لقد تأخرّتم.

فأجابت منال: "كلا، لقد جئنا بأسرع وقت لكن الطّريق تأخذ وقتاً طويلاً، وبالأخص أننا مررنا على ريم وأخذناها... طمئنا كيف هو؟"

- جيد، هيّــا اصعدوا لغرفته ولكن ابقي ريم هنا أريد أن أكلّمك.
- نعم هاني، ماذا هناك؟

خالة أمين عنده في الغرفة، وهي تريد أن تتعرّف عليكِ وتكلّمكِ أرجوكِ كوني هادئة ولا تنزعجي منها كما فعلتِ في الصّباح مع أمين، أنا لا أعرف ماذا تريد منكِ لكن أحببت أن أنبّهكِ.

لكن هاني، أنا خائفة كيف سأقابله؟ لا... لا أريد الصعود.

- إنه نائم، لا يشعر بأحد... لقد أعطاه الطّبيب مهدئاً، وقال إنه لن يستيقظ قبل ساعتين.
- هل استعاد وعيهُ بعدما سقط أرضاً.
- سقط أرضاً دون أن يفقد الوعي لقد سقط من شدّة الألم، وكان في كامل وعيه طيلة الوقت، حتى جاء الطّبيب قبل قليل وأعطاه المهدئ لكي ينام ويكفَّ عن التفكير والتوتّر؛ لأنهم كلما أعادوا له النبض بانتظام عاد متوتّراً ومتضايقاً فيعود نبضه غير مستقر.
- هل أصعد لأراه...؟
- نعم هيّــا لا تتردّدي، خالته لطيفة ستحبينها.
- اصعدْ معي فأنا خائفة.
- لا أنا متعب أريد أن أجلس وأستريح وأشرب شيئاً.
- حسنا أنا ذاهبة.

وصعدت ريم بالمصعد للطّــابق الذي توجد به العناية المركّزة، وارتدت عند الباب ثوباً أزرقاً نظيفاً وقبّــعة من القماش والمطاط، بالإضافة إلى خفٍّ من القماش الخفيف، كان من الواجب على كل شخصٍ يريد الدّخول من هذا الباب أن يرتدي مثل هذه الثياب للحفاظ على نظافة المكان معقماً بشكلٍ دائم ولعدم نقل الجراثيم.

ثمَّ دخلت غرفة أمين بكل هدوء وحذر، وقالت"مرحباً..."فالتفتت الخالة للباب" أهلاً تفضلي، هل أنتِ زميلة لأمين أيضاً بالجامعة؟"

- نعم، أنا ريم.
- آه... نعم! أنتِ ريم؟

ابتسمت ريم بقلقٍ وبقيت صامتة، ووقفت تنظر لأمين بكلِّ أسى...

- تعالي واجلسي بجانبي أحبُّ أن أتعرَّف عليكِ.

وجلست ريم بجانبها دون أن تتكلّم ولا كلمة واحدة.

جاءت الممرضة وقالت لهم: "أرجوكم يجب ألاّ يتواجد بالغرفة أكثر من اثنين، يرجى خروج اثنين" فقال رامي لمنال: "تعالي نتزل للطّـــابق الأرضي".

قالت الخالة له: "سأنزل أنا وريم وابقَ أنت وأختك هنا يا رامي".

فقامت الخالة وقالت لريم: "تعالي معي يا حبيبتي" فتزلت هي وريم لاستراحة المستشفى وجلستا هناك، فرآهما هاني لكن دون أن يتكلّم أبداً بل بقي ينظر إليهما من بعيد.

– يا عزيزتي ريم، أرى أنكِ فتاة لطيفة وناعمة وبالفعل من ينظر إليكِ يحبكِ، لكن أنا الذي أريد أن أعرفه هل أنتِ تحبّين أمين حقاً، أم ماذا؟ لأني تفاجأت من الكلام الحادّ الذي دار بينكما اليوم ولا يليق بفتاة مثلكِ التفوّه بما قالته اليوم.

– يا خالة، بصراحة لا أستطيع الإجابة؛ لأنها على جميع الأحوال لن تفيد شيئاً... وأنا أعتذر عن كلامي، ومجيئي للمستشفى دليل ندمي وأسفي.

– عزيزتي... أنا أعرف كلَّ شيء فأمين يحكي لي ما يجري معه دائماً، وكان يجب أن تمنحيه فرصة.

– يا خالة، ليس بيدي شيء والدتي هي التي ترفضه، وأنا متعبة جداً من كثرة الأفكار وكثر الشجار مع أمي وأبي، وصدّقيني لا أحتمل الحديث بهذا الموضوع أكثر من ذلك...

وبدأت ريم تبكي لشعورها أنها هي السبب في وضع أمين هذا، ولا يوجد بيدها حلّ.

– لا... لا تبكي يا ريم، أنا لا أقصد مضايقتكِ بشيء يا حلوة.

رأى هاني ريم وهي تبكي فقام من مكانه وذهب لطاولة السّيدة علياء وريم.

– ما بها ريم يا خالة؟

– متوتّرة قليلاً...

– يا خالة، ريم تُحمّـــل نفسها الـــذّنب لما جرى لأمين؛ لذلك هي متضايقة.

فقالت ريم:"بصراحة يا هاني أرى أنَّ الجميع غاضب مني، ماذا أفعل؟ كيفما أدير وجهي أرى أصابع الاتّهام نحوي، منال عاتبتني وحمّلتني المسؤولية، ورامي وبّخني على تصرفي هذا، أمّـــا أسامة اتـــّصل معي قبل أن أخرج وقال لي أني السّبب بكل المشاكل. وديالة التي دائماً تقف بجانبي اتـــّصلت معي أيضاً وأعربت عن غضبها، أنت يا هاني الوحيد الذي وقف معي وفهم وضعي... كما أنّ أمي في البيت غاضبة مني ولا أحد يريد أن يراعي مشاعري...لماذا جميعكم خائفون على أمين؟ أمّـــا أنا لا يهم! هل أنا بلا مشاعر؟ ماذا أفعل...؟ لمن أشكي هـــمّي؟ أنا المتضرّرة الوحيدة صدّقني، لقد تعبت جداً...

فوضعت الخالة يدها على كتف ريم وقالت لها: "هوّني عليكِ يا ريم وكّلي أمركِ لله تعالى، أنا لا أحمّـــلك المسؤوليّـــة سأقف بجانبكِ أنتِ وأمين".

فقال هاني لريم: تعالي معي لتهدئي قليلاً...

فجلسا عند الاستقبال، ريم لا تريد الكلام وتشعر برغبة في البكاء، فشاهدا رامي ومنال قد أنهيا زيارتهما من عند أمين، واجتمعوا جميعاً دون كلام... دخلت نسرين ومعها ديالة من باب المستشفى لزيارة أمين فوجدتا الجميع واقفين عند الاستقبال.

– مرحباً... أنتم جميعاً هنا، أين أسامة؟ ديالة تسأل.

فأجابها هاني: "أسامة جاء أوّل واحد عندما اتــّصلت معه هاتفياً، واطمأنّ على أمين وذهب فهو مازال يبحث عن عمل...كم هو مسكين هذا الثّــاني!!

– هل استيقظ أمين؟... نسرين تسأل هاني.

– لا ما زال نائماً، لكن لا مانع من رؤيته اذهبي أنتِ و ديالة واطمئنا عليه.

أما رامي قال:"سأذهب الآن أنا ومنال ونعود عندما يستيقظ أمين، هل تريدين الذّهاب معنا يا ريم؟

– لا أدري ما رأيك يا هاني؟

– ستذهبين مع ديالة ونسرين بنفس سيارة الأجرة ...لا مشكله.

فقالت ريم: "حسناَ اذهبا أنتما شكراً رامي".

فقالت لها منال: "لكن إيّــاك يا ريم أن تصعدي إلى غرفة أمين بعدما يستيقظ؛ لأنه من المؤكّد إذا رآك سيُغمى عليه أرجو أن تبقي بعيدة ولا تعكّري مزاجه.

– هل سمعت يا هاني... الكلُّ يهاجمني!

– لا تهتمّي يا ريم...

أما الطّبيب المشرف على حالة أمين قد جاء ووجّه كلامه لهاني وريم أثناء جلوسهما في غرفة الطبيب ليسألا عن وضع أمين الصّحيّ، هو يعرف قصّته وحالته، فقال: يا هاني بما أنــّك صديقه عليك بتخفيف همومه ولا تتركه يشعر بالوحدة، بل قم بزيارته في منزله عدّة مرات خلال الأسبوع، وبعض الأيام نم عنده بالمنزل؛ ليشعر بحيويّــة الحياة من حوله بدل هذا الجمود الذي يجتاحه؛ لأن الجوَّ الذي يعيشه بعد العودة من الجامعة هو الذي يؤثّر سلباً على نفسيّــته وقلبه. ..أمين لم يستطع النوم بالفترة الأخيرة إلا إذا أخذ أقراصاً منوّمة، وفي كثير من الأيام يزداد الألم في صدره وضيق في نفسه لكن دون أن يخبر أحداً، كان يكلّمني ويستشيرني بجرعات الدّواء –حتى خالته لا تعلم– وبالحقيقة لن يصبح أفضل مادام يعاني من الوحدة، وشعوره بالحبِّ وطلبه للزّواج في هذه الفترة وبهذا العمر وهذا الإصرار؛ لأنه يرى به الحلَّ الوحيد لخروجه من وحدة الحياة الخانقة، هو لا يخطّط لذلك بل هي رغبة داخليّــة تشدّه لا شعورياً للتعلّــق بفتاةٍ معيّنة أعجبته وأن يكمل حياته معها...هذا بالإضافة إلى.....

فقاطعته ريم وسألته باستغراب: "إذن أيــّها الطّبيب شعوره بالوحدة هو الذي جعله يتعلّق بي ليخرج من وحدته"

– لا تفهمي كلامي خطأً، ربما أنكِ الإنسانة الوحيدة التي أحبّها بصدق في حياته.

فقالت ريم: "أعود وأكرّر أيّها الطّبيب لك وللجميع... أنا لا أصلح لشيء أمي وأبي يرفضانه، وتقول لي حبّــاً صادقاً...! كيف سأنجح وأهلي يضعونني بقالبٍ معين؟ وكما قالت لي أمي أمين سيجعلكِ ممرضة عنده وأنيسة لوحدته، فهي صدقتْ ولم تخطئ".

فأجابها الطبيب: أنا لا أريد أن أعارض كلام أهلكِ هذا مؤكّد، لكن بنظري ما المشكلة من أن تكوني ملائكة رحمة لإنسان تحبيه ويحبكِ، وتؤنسي وحدته، فالنّــاس تحتاج بعضها البعض لكي

تعيش وتستمر الحياة، ومن دون أناسٍ تساعديهم ويساعدونكِ ستشعرين أنكِ بلا فائدة في هذه الدّنيا... والحياة خُلقت وستستمر ليكون الناس فيها متكافلين ومتعاونين فيما بينهم، أنا طبيب يحتاجني النّـــاس وكذلك أحتاج لأشخاص آخرين، فمثلاً عامل النّظافة مع كامل احترامي له طبعا كلّنا لا نستطيع الاستغناء عنه؛ لأننا بدونه سنفقد جمال الطّبيعة، ونتعطّش لبيئة سليمة نظيفة، فله فضل كبير علينا، أنا أحتاجه من دون شكٍّ وهو يحتاجني أو ربما لا يحتاجني، لكن أنا لا أستغني عنه.

وأكمل الطّبيب كلامه ونظرات ريم تدلُّ على عدم رضى من كلام الطّبيب: على كل حال أمين شابٌّ مميّـــز، ولديه القدرة على تحمّل ظروف الحياة الصّعبة، وإذا شعر أنّ الجميع يحبّه ويحترمه فإنه سيتفوّق ويصبح ناجحاً بالحياة، لأن مقدار العطاء عند الإنسان يزداد مع زيادة الاحترام والحبِّ من الغير، وبالذّات من الناس المقرّبين والمحبوبين لديه. أطلت عليكم اعذروني.

أجابه هاني "شكراً دكتور كلامك جميل ومفيد، نشكرك على هذه النصائح".

وبعد أن خرجت ريم وهاني من عند الطّبيب قالت بانزعاج: "لو كان يعرف هذا الطّبيب كمّية المعاناة التي أعانيها بالمترل مع أهلي والعذاب النفسيّ الذي أعيشه لوقف بجانبي وأبعد عنّي هذه المهمّة الصعبة...آآآآه ...لديّ رغبة في الصّراخ".

فأجابها هاني وهو يضحك لأنه الطبيب لا يعرف حجم المعاناة "ابقي أنتِ في الحياد يا ريم، لا تظهري لأمين أنكِ تحبيه، ولا تكوني قاسية لدرجة كبيرة تؤثّر عليه وتجرحه، فتسبّب له التوتّرات النفسيّة -كما فعلتِ- والحمد لله أنـــّنا مقبلون على عطلة صيفية لتقلَّ حجم المعاناة والمشاكل".

ثم سارا إلى قسم العناية المركّزة فصادفا في طريقهما ديالة و نسرين خارجتين من عند أمين، وتسيران في الممرِّ الطّويل الهادئ الذي لا يُسمع به إلا طقطقة الأحذية، فوقفوا في منتصف الممر ليتحدّثوا، فقالت نسرين: "أين كنتما طيلة الوقت؟"

أجابتها ريم "كنّـــا عند الطّبيب"

قال هاني: "كيف هو حاله الآن؟"

أجابت ديالة: "إنه أفضل، لقد استيقظ "

- أحقاً؟ قال هاني مسروراً.

أما ريم فأصبحت متوتّرة جداً وقررت ألاّ تدخل إليه، فهي خائفة من مواجهة الموقف. فوجّهت سؤالاً لديالة: "إلى أين أنتما ذاهبتان؟"

فأجابتها: "ذاهبتان إلى بيوتنا "... فقالت ريم: "سأذهب معكما الآن هيّـــا".

أوقفها هاني وقال لها: "ألا تريدين الدّخول عند أمين لقد استيقظ...؟"

- بصراحة يا هاني، الأفضل أن أبقى بعيدة لقد اطمأننت عليه وهو نائم.

- تعالي وادخلي معي، وديالة ونسرين سينتظرانكِ في الأسفل.

- لا يا هاني أنا خائفة... ماذا سأقول له في مثل هذا الموقف؟

- قولي له حمداً لله على سلامتك، واعتذري واجلسي خمس دقائق وغادري فقط لفضِّ النّزاع.

- لا مستحيل... أَضْرِب وأهرب وأعود لأواسيه...؟

– أنتِ لا تقصدين ذلك...

فقالت ديالة: "هيّـــا اذهبي سننتظرك عشر دقائق فقط لا تتأخّري."

– لن أستطيع الجلوس دقيقة واحدة...ماذا تقولون هذا هراء!

فسحبها هاني من يدها وقال: "انتظراها بالأسفل"

فصارت ريم تشدُّ يدها من يد هاني، رافضة فكرة الدّخول "أرجوك اتركني لن أدخل، اترك يدي ما علاقتك أنت؟!! "

فقال لها: "الآن ما علاقتي!! اسمعي يا ريم سأدخل أمامكِ وعندما ينظر أمين إلينا ويراكِ سنعرف ردّة فعله...إذا أوحى لنا وجهه بالغضب فستخرجين، أمّــا إذا ابتسم فليس هناك مشكلة...ادخلي، أعتقد أنه لن يكون غاضباً من أحد، هيّـــا تعالي وارتدي هذه الملابس الزرقاء الغريبة ... أشعر وأنا أرتديها وكأني من مخلوقات الفضاء العجيبة".

دخلا إلى قسم العناية المركّزة، وريم متوتّرة ويسيطر عليها الخوف، حتى وصلا إلى غرفة أمين فوجدا السّرير فارغاً والخالة موجودة تجلس قرب النافذة بالغرفة، فسألها

هاني: "أين ذهبوا بأمين يا خالة؟ "

– لقد جاء الممرّض قبل قليل وفكّ عنه الأجهزة وأدخله للحمام وذهب، قال يجب أن يتحرّك قليلاً ليراقبوا نشاطه.

شعرت ريم بالرّاحة النفسيّـــة لعدم وجوده، وجلست بجانب الخالة. فخرج أمين بعد دقائق، وملامحه كانت هادئة ومُتْعَبَة، وغير مقروءة فلم يعبّر عن شيء، وكأنه لم يرَ أحداً في الغرفة، ثم عاد الممرّض ليساعده على صعود سريره والجلوس نصف جلسة، وقال له: "سنعود بعد قليل ونضع لك جهاز القلب؛ لنبقى متابعين لنبضات قلبك هذه اللّيلة".

فجاء بجانبه هاني وقال له: "حمداً لله على سلامتك يا أمين لقد قلقنا عليك جميعاً، أرى أنك أفضل الآن... عاد الرونق لوجهك".

فأجابه أمين وهو يتكلّم ببطء وألم شديد في رأسه "أشكرك... يا هاني... لقد تعبت معي اليوم... كثيراً"

– لا...لا تقلق المهم أن تكون بخير.

وبقيت ريم جالسة دون حراك بجانب الخالة، خائفة حتى من النّظر في وجه أمين، تفكّر في نفسها هل تقف بجانبه وتقول له حمداً لله على السلامة، أم تبدأ كلامها بالاعتذار عمّ بدر منها من كلام قاسٍ، كان سبباً في سقوطه ألماً؟

أما أمين فنظر إليها فعرف أنّها متوتّرة من الموقف وتتحاشى نظراته، فلم يكلّمها وعاد للحديث مع هاني، وقال له: "كيف.. دفعت يا هاني... المبلغ المطلوب... تأميناً عند الدخول للمستشفى؟"

فأجاب هاني ممازحاً أمين: "لا تقلق، استعد صحتك وأنا سآخذهم منك فيما بعد".

– لا أرجوك أخبرني...

- في البداية طلبوا مني ثمانية دنانير لحساب الطوارئ وإلا لن ينادوا الطبيب، لم يكن بحوزتي إلاّ أربع دنانير، فسحبت المحفظة من جيبك وكان بها عشرة دنانير ودفعت الحساب، لكن عندما طلب الطّبيب إدخالك لقسم العناية المركّزة، طلبوا تأميناً بقيمة ستمئة دينار، فجنّ جنوني وذهبت مسرعاً لأبي؛ لأنه بالبيت والحمد لله كان مجازاً وليس مسافراً، وأخذتُ المبلغ منه وعدت للمستشفى ودفعت التأمين، وقاموا بنقلك وطلبوا لك طبيبك المشرف على حالتك الدّكتور معاذ.
- شكراً يا هاني... أنا مدين لك بحياتي.

وقالت الخالة لهاني: "فعلاً أنت صديق مخلص ويعتمد عليك....إيّـــاك أن تفرّط به يا أمين"

ابتسم أمين بشحوب وقال: "لا طبعاً، هاني صديق عمري"

دخل الطبيب عنده وقال له: "كيف أصبحت؟ أراك أفضل الآن، غداً إن شاء الله سننقلك لغرفة عاديّـــة"

- ألا أستطيع المغادرة غداً صباحاً؟
- لا، ستقضي ليلة غدٍ بالمستشفى، وصباح بعد غدٍ سنقرر إذا كان بإمكانك المغادرة أم لا، والآن اسمح لي بِشبك جهاز قياس نبضات القلب، لكي نبقى مطمئنين ومراقبين النّبض طيلة هذه اللّيلة، وإيّاك والانفعالات يا أمين.
- حسناً دكتور... لكن أشعر بصداع في رأسي لدرجة أنَّ لساني أصبح ثقيلاً ورأسي أثقل.
- هذا الصّداع من المهدئ ذي المفعول المنوّم القويّ، فإنه يثقل الرّأس فتشعر بالصداع... سيزول على فتراتٍ بعد زوال مفعول الدواء تماماً...لا تقلق ويجب أن تنام أكثر لا أعرف كيف استيقظت! هيّـــا عد للنوم!

***

الفصل السابع عشر

كيف عليّ أن أبدأ الكلام مع أمين؟ سأعتذر منه أولاً...، لا بل يجب عليّ أن أغادر، لأنني أجلس بدون فائدة.

وبقيت ريم تكلّم نفسها وتتظاهر بأنّها لا تنظر لأمين، لكنه انتبه إليها وعرف أنها تريد الاطمئنان عليه لكنّها متردّدة.

فهل يا ترى من الممكن على الشمس أن تصادق القمر ويتحابّـــان، فيختبئان وراء غيمة لتحميها من عيون ونظرات النّجوم؟ أم هو المستحيل؟ شعور مشترك كان يشعر به أمين ويتساءله، وريم كان هاجسها الوحيد الذي يقلقها.

طلب أمين من هاني أن يسوّي له السّرير على استقامة واحدة "هاني أرجوك ساعدني أريد أن أجعل السّرير ممدّداً لا أريد الجلوس، رأسي ثقيل وأشعر بأني أريد الاستلقاء."

تقدّم هاني وسوّى له السّرير كما يريد، وقال: "حسناً يا أمين ها هو كذلك، تمدد...لكن أتسمح لي أن أجلس هنا على طرف السّرير؟"

– نعم تفضّل اجلس.

وجلس هاني أمام أمين على سريره.

فقال له أمين: "لا يا هاني ابتعد قليلاً أنت تجلس أمامي، وأنا أريد أن أكلّم الفتاة التي وراءك، لا تحجب عنّي رؤيتها"

فرفعت ريم رأسها ونظرت لأمين مندهشة، وجلس هاني من الطّرف الآخر للسّرير.

– كيف حالكِ يا ريم؟... سألها أمين وهو مستلقٍ بصوت متعبٍ وثقيل.

فوقفت ريم وهي في مكانها وقالت له: "أنا بخير مادمتَ أنت بخير"... وأكملت"هل تقبل اعتذاري يا أمين؟"

– على ماذا تعتذرين؟

فأجابت ريم بأسف: على الكلام الغريب الذي قلته اليوم، أنا آسفة ولم أقصد إيذاءك صدّقني، كم أنا سخيفة وبلا قلب!!

فأجابها أمين وهو يحاول إخراج الكلام بصعوبة كأنّه ثملاً...وقال ما في قلبه: "لا، كلامكِ ليس بالغريب... لقد فهمت وصلت رسالتكِ، وسأعدكِ أن لا أعود وأكلّمكِ مرّة أخرى، وسأحاول أن أنساكِ مع الأيام، جيّد أننا مقبلين على عطلة صيفيّـــة، لن أراكِ فيها... ستكون فرصة أن أتدرّب على النسيان، لكن هناك كذبة في كلامكِ اليوم... قلت أنكِ تكرهينني...لا يا ريم، أعرف أنكِ كاذبة وأنا متأكّد، عليكِ أن تدرّبي نفسكِ أنتِ أيضاً على الفراق، وسننسى...وبما أنّ نسبي لا يشرّف نسبكِ، وأنني لست بالمستوى المطلوبفأنا الذي سأعتذر لكِ، لقد سبّبت لعائلتكم ولحياتكِ الفوضى وكنت سبباً في تعاستكِ، أرجو منكِ أن تقبلي اعتذاري... أنا حقاً آسف... اذهبي الآن، لقد تأخّر الوقت وقاربت الشّمس على الغروب.

تأثـّـرت ريم من كلامه وشعرت بأنه جارح، مع أنّ أمين لم يستعمل ألفاظاً جارحةً، بل كان لطيفاً معها، لكن شعورها بالفراق وتنازله عنها هو الذي قهرها من الداخل، فبقيت واقفة متجمّدة بلا حراك تنظر لأمين بدهشة.

فقال لها أمين: هيّـــا يا ريم اذهبي، سأراكِ السّنة الدراسيّـــة المقبلة بوجهٍ آخر أعدكِ.

فخرجت ريم مسرعة تبكي من هذا الموقف الذي كان صعباً على قلبها، وبقي هاني صامتاً لا يريد مناقشة أمين في نفس اللّحظة لكي لا يسبّب له التوتّر، لكنه اندهش من قراره الغريب المفاجئ.

في مساء اليوم التّـــالي خرج أمين من المستشفى، فقد أصبح أحسن حالاً حيث جاء جميع أصدقائه الشّباب عنده في منزله ليطمئنّوا عليه.

***

لم يهدأ الحبُّ في قلب ريم ولا دقيقة واحدة، مع أنّ شهراً مضى على العطلة الصيفيّـــة، كانت عندما تخرج إلى أيّ مكان عامٍّ تتخيّـــل أنها ستصادف أمين، إذا ذهبت إلى السّوق تتخيّـــل أنها ستراه، هذا طبعاً ليس تخيلاً إنما أمنيتها– لكن بلا جدوى– تعود دائماً خائبة إلى البيت مما يجعلها حزينة كئيبة، هي لم تعد تكلّم والدها بالموضوع، وقرّرت أن تحتفظ بالحبِّ في قلبهاولنفسها فقط، دون أن تعلن لوالدها أنّـــها ما زالت تحبُّ وتعشق هذا الفتى.

يوماً ما قررت الذّهاب عند خالة أمين وزيارتها لتطمئنَّ من الخالة على أمين وصحّته، وفعلاً عند عصر يوم الخميس ذهبت ريم إلى بيت علياء بعدما أقنعت والدها أنها ذاهبة عند صديقتها ديالة، فوصلت لبيت الخالة وصعدت للطّابق الأخير في المصعد، كانت خائفة ومتردّدة، وبنفس الوقت لا تريد أن تتفاجئ بأمين عند الخالة أو على باب بيته، فهي لا تعرف ردّة فعله ولا تدري إذا ما زال يحبّها بعد انقضاء هذا الشهر؛ لأنه وعدها أن ينساها. وفعلاً هو لا يذكرها أمام أصدقائه، ولا يسأل عنها أيّ أحد. أمّـــا ريم كانت دائماً تسأل منال عن أمين فتخبرها أنه بخير وأحياناً تخبرها أنه كان عندهم في البيت، يأتي لزيارة رامي ويجلس معه...ريم كانت تحسد منال لأنها كانت تراه... ومنال تحسدها لأن أمين يحبّها.

خرجت ريم من المصعد ووقفت في المنتصف أمام البابين – باب منزل الخالة وباب منزل أمين – فنظرت إلى باب منزل أمين والتفتت نحو باب منزل الخالة علياء، فقرأت فوق كبسة الجرس منزل عبد الرّحمن معروف، فأدركت أنه منزل السّيّدة علياء، لأن أمين لم يكتب شيئاً على باب منزله، دقّت الباب... ففتحت لها فتاة صغيرة، قالت لها ريم: مرحباً يا حلوة... كيف حالكِ؟

أجابتها الصغيرة: أهلاً من أنتِ؟

فقالت لها ريم: أمكِ موجودة؟

– نعم، أمي هنا انتظري سأناديها.

– حسناً سأنتظر، لكن بسرعة.

وجاءت علياء للباب"أهلاً وسهلاً، ريم...أليس كذلك؟ ما هذه المفاجأة؟"

– أهلاً يا خالة...

– كيف تذكّرتِ زيارتنا؟

– بصراحة يا خالة أنا جئتكِ بموضوع، إن كنت مشغولة سأعود مرّة أخرى، وآسفة لقدومي بدون موعد.

– لا عليكِ عزيزتي... أهلاً وسهلاً تفضّلي، أنا مسرورة بقدومكِ، تعالي لنجلس في غرفة الجلوس ونتكلّم براحتنا.

جلست ريم وقدّمت لها الخالة قطعة من كعكة الشكولاته، وكوب شاي.

شكراً خالة علياء... كيف هو حال أمين؟

– إنه جيّد وصحّته أفضل من قبل لقد خفَّ وجع قلبه، كما أنَّ شهيّـــته للطعام أصبحت أفضل من قبل.
– أنا محرجة من السؤال لكن سأسألكِ... أما زال يذكرني...يحبّـــني؟
– وما فائدة فتح مثل هذه المواضيع؟
– أنا يا خالة جئتكِ من أجل هذا الموضوع، لا أستطيع أن أشكي همّي لأحدٍ، أمي ستوبّخني ولا تحب أن أتكلّم أمامها عن أمين، وأنا أقع في حيرة شديدة؛ لأنني بدل أن أحاول نسيانه أزدادُ تعلّقاً به، مع أنه بعيد عنّي...لا أعرف حلَّ هذا اللّغز، وقد قرّرت بين نفسي أن لا أكلّم أمي بخصوص محبّتي له، سأبقي الموضوع سرّاً لأنها هي التي رفضت مساعدتي، وأنا في البداية كنت صادقة معها.
– لكن يا ريم ما الفائدة إذا بقيتِ على هذا الحبِّ وأمكِ غير موافقة؟
– أنا بعد فترة طويلة سأحاول مع أمي مرّة ثانية أكيد ستتغيّـــر أو تبدّل أفكارها، بالذّات عندما تراني مصرّة وأعاني من أجله. يا خالة علياء أنا بصراحة وآسفة لأقول لكِ أني أحبّه لكن سأبقى بعيدة، ربما هو يحاول نسياني الآن أنا لا أعرف شعوره نحوي بعد هذا الشّهر، أيذكرني أمامكِ؟
– قليلاً جداً....
– ليتني أستطيع زيارته!
– صعب...هو ليس في البيت الآن، خرج مع هاني وأسامة.
– صحيح مبروك، سمعتُ أنه حصل على رخصة القيادة واشترى سيارة.
– نعم هذا صحيح، واشترى هاتفاً خلوياً أيضاً.
– ما هذه التطوّرات؟!
– إنـــّه مسرور جداً بسيّـــارته الجديدة فهو يعتني بها وكأنها ابنته، يذهب مع أصدقائه ويأخذهم لأماكن مختلفة ويمرحون ويتسلّون ويقضون أوقاتاً جميلة في العطلة.
– ومن المؤكّد أنه يعود بعد منتصف الليل؟ كلُّ الشّبّاب هكذا يقتلها السّهر خارج المنزل.
– لا أمين بالذّات يحبُّ بيته– دوناً عن الشّباب الذين في مثل عمره– وإذا أراد السهر دعا أصدقاءه كي يسهروا عنده في البيت..
– نعم يا خالة لنعد للموضوع... ما رأيكِ أنتِ ماذا أفعل؟
– بصراحة لا أعرف، هل ترغبين أن أكلّم والدتكِ لعلّها تتفهّم مني؟
– لا أرجوكِ، ستزداد عناداً وإصراراً على رأيها، أمي يا خالتي كانت صديقتي وتحدّثني بكل أمور الحياة ودائماً تنصحني، وكانت تكلّمني عن الشّباب وتحذّرني منهم وتقول لي إيّـــاك أن تتجاوزي الحدود، وعلاقتكِ مع شباب الجامعة مجرّد زمالة فقط، وأنا كنت أسمع وأُطيع الأوامر، لكن لا أعرف ما الذي جرى لي أشعر أنَّ الحبّ ليس بيدي، كما أنني أشعر بالذّنب لأنـــّي أكسر كلام والدتي، وعلاقة الزّمالة تحوّلت لحبٍّ في الجامعة، مع أني أعرف مهمّتي...الدّراسة والمستقبل، أنا تائهة لا أستطيع إنقاذ نفسي بالأخص أنَّ أمي منذ موضوع

أمين وحديثي عنه أصبحت جافّة في التّعامل معي، لا أستطيع خوض أو فتح هذا الحديث معها، إنّها حتماً ستغضب عليّ، لأن الموضوع بالنسبة لها منتهٍ، أمّا بالنسبة لي فإنّه يزداد تشعّباً وتعقيداً، أشعر أني أنا التي أحتاج أمين وليس هو الذي يحتاجني، أنتِ قولي لي ماذا أفعل؟ أأبقى هكذا أم ماذا؟

تنهّدت الخالة وقالت: "لقد شغلتِ بالي عليكِ".

ثمَّ أكملت ريم كلامها: "لقد استلمت علاماتي بالمواد الجامعيّة وكانت متدنيّة، وهذا بسبب الحالة النفسيّة السيّئة التي كنت أمرُّ بها في فترة الامتحانات، أخاف أن تبدأ السنة الدراسيّة الجديدة وأبقى على هذا المعدّل وأزدادُ سوءاً، لقد سألتني والدتي عن العلامات... فكذّبت عليها وقلت لها أنني لم أذهب إلى الجامعة لأستلمهم، مع أني استلمتهم عن طريق رسالة قصيرة بالخلوي، أرسلت لهم رقمي الجامعيّ وأرسلوا لي علاماتي وهذا من هاتف والدي النّقال من دون علم أحد.

– المهم هل كانت جميع علاماتكِ ناجحة؟

– الحمد لله، لم يكن هناك رسوباً فقط تدنّي بالدرجات، لكن هذا لا يرضي والديَّ، وستكون مشكلة كبيرة عندما يعرفان نتيجة امتحاناتي. ليست العلامات هي همّي الوحيد يا خالة علياء،الحب بحدِّ ذاته مشكلتي التي لا أعرف حلّها... أريد نصيحتكِ.

– عزيزتي ريم أعرف أنّ سبب المشكلة هو أمين... لذا سأكلّمه وأقول له أن لا يحاول مكالمتكِ، ولا حتى السّؤال عنكِ أبداً كخطوة أولى.

– يا خالة هذا ما يفعله أمين حقّاً، لا يسأل ولا يتكلّم وهو بعيد كلَّ البعد، لكن المشكلة في داخلي... أنا التي أريد أمين، ومتضايقة من بعده عنّي فأنا لا أزال أحبّه.

– إذن ماذا أفعل؟ أنتِ تعقّدين الأمور يا ريم... أريده ولا أريده...! هكذا فهمت من كلامكِ لقد عجزت معكِ!

– أقصد هل أبقى على صداقة مع أمين من بعيد لبعيد وبحدود معقولة من دون علم أمي، أم ماذا؟

– بصراحة يا ريم، أنتم جيل ضائع لا يعرف ماذا يريد؟ وفي حال عرفتْ والدتكِ؟! ماذا ستتوقّعين النتائج؟

– ربما أبي يمنعني من الذّهاب إلى الجامعة... لا أعرف بصراحة أنا خائفة.

فَطُرِق الباب وفُتح، إذ بأمين يدخل وأخذ ينادي "خالتي... خالتي". ودخل إلى غرفة الجلوس، فوقف دون حراكودُهِش من وجود ريم تجلس عند خالته، فقال لها بصوت مندهش مع لهجة اشتياق: "ريم... أنتِ هنا؟ ما الذي جاء بكِ إلينا؟"

– لقد اشتقتُ للخالة علياء وأتيت لأسلّم عليها (كان قلب ريم يدقُّ بسرعة من الفرحة والمفاجأة والخوف الذي يلون الجلسة، والابتسامة كانت تملأ وجهها بعدما كانت تشتكي للخالة وهي عبوس).

– أحقاً اشتقتِ لخالتي...! وكيف حالكِ؟

– الحمد لله على كلِّ شيء، ومبروك السيّارة والخلوي.

– شكراً... بارك الله فيكِ، وهل تسمحان لي بالجلوس معكما أم هي جلسة نسائيّـــة؟

قالت الخالة: لا اجلس يا أمين، لكن بعد قليل أريد منك أن تأخذني أنا وريم في جولة بسيارتك الجديدة.

– لا خالتي آسف ربما لمرّة أخرى.

فقالت له الخالة: لا، ستأخذنا الآن ولن أغيّر رأيي فأنا أشعر بالملل، وأريد أن أتسلّى أنا وصديقتي الجديدة ريم.

فبقي أمين صامتاً ولم يردّ على الخالة، أما ريم ففهمت أنه لا يريد الخروج معها، وشعرت أنّ أمين قد تدرّب على نسيانها ونجح، ولم يعد يهتم لوجودها معه، فقالت للخالة: اعذريني يا خالة من هذا المشوار سأذهب للبيت الآن، اذهبا أنتما هكذا أفضل.

– لا يا ريم، أريد أن أدعوكِ لتذوّق البوظة الإيطاليّـــة في المطعم الجديد، ولن أتنازل عن الدعوة، هيّـــا أمين تحرّك ولا تتركنا ننتظر.

أجاب أمين: حسناً خالتي هيّـــا بنا، هيّـــا يا ريم تفضّلي.

ونزلوا إلى السيّارة وركبوا، لكن ريم لم تكن سعيدة بل حزينة، لأنّ وجه أمين لا يعبّر عن حالة فرح مع أنّ ريم أمامه وهو بلا ملامح معبّرة، لا تعرفه إن كان مسروراً أم كارهاً الوضع الحالي.

– ما شاء الله سيّـــارة جميلة يا أمين، ولونها فضيّ مزرقّ، هذا لون نادر ورائع، أنا أحبّه.

– أشكركِ يا ريم، والآن قولا لي إلى أين أوصلكما؟

فأجابت الخالة: توصلنا؟ نحن لا نريد أن توصلنا وحسب، لو أردنا أحداً يوصلنا لأخذنا سيّـــارة أجرة، سنذهب سويّاً إلى محلّ البوظة الإيطاليّـــة الجديد (آيس كريمونتو)، لكن قبل ذلك أريد أن تنزلني قليلاً عند صيدليّـــة أريد شراء قطرة لالتهاب العين؛ لأنّ عيني تحرقني منذ الصباح.

– حاضر خالتي... بسم الله.

وقاد أمين السيّـــارة حتى وصلوا إلى أقرب صيدليّـــة.

– سأنزل خالتي لأحضر لكِ القطرة.

– لا شكراً أمين، أريد أنا النزول لأشرح للصيدلانيّ الحالة بالضّبط وآخذ القطرة اللازمة.

نزلت الخالة وبقي أمين في السيّـــارة، وريم جالسة وراءه في المقعد الخلفيّ، وفور نزول الخالة من السيّـــارة سألت ريم أمين وقالت له: "ما بك يا أمين... أشعر أنـــّك على غير طبيعتك؟"

– لا على العكس...أنا على طبيعتي.

– أشعر أنـــّك غير مسرور ولا مبتهج، هل يوجد شيء يضايقك أو يزعجك؟

– لا أبداً.

– أريد أن أسألك سؤالاً، لكنّني متردّدة...بل سأتجرّأ، هل... هل ما زلت تحبّني؟

فصمت أمين ولم يتكلّم وكأنـــّه لم يسمع السؤال.

– أمين... أسمعت سؤالي أم تتجاهلني؟

– سمعت... (وكان يكلّمها دون أن يلتفت إليها بل بقي ينظر أمامه).

- إذن ماذا...؟ تتجاهلني!
- لا، لكن لي حرية الاحتفاظ بالجواب في داخلي.
- كلا فالجواب ملكي أنا، لأنني أنا المعنيـــة والسّؤال يخصّني فأرجوك أجب.
- ياريم ما الفائدة من معرفتكِ للإجابة، فلن تقدّم أو تؤخّر شيئاً، والحال سيبقى على وضعه إن كان الجواب سلباً أو إيجاباً فالاثنان واحد.
- أمين قبل أن تأتيَ خالتك أرجوك أجبني، سأعيد سؤالي، لكن هذه المرة إذا كنت تحبّني فقل لي نعم... أمّا إذا لا... فابق صامتاً وسأفهم وحدي، هل يا أمين ما زلت تحبّـــني؟
فبقي أمين صامتاً...
- أمين؟! قالت ريم.
فبقي أمين صامتاً دون حراك وكأنّه تجمّد مكانه، لكن هو في داخله سينفجر، وريم صُدمت من الإجابة العامّة ولم تتوقّع، فأصبحت ترجف في داخلها، وبكلِّ هدوء وكأنَّ شيئاً لم يحصل قالت لأمين: "لو سمحت، افتح لي قفل باب السيّـــارة أريد النزول"
فأجابها بكل برود أعصاب: ستغضب خالتي.
- أرجوك افتح الباب قبل أن تأتيَ خالتك هيّـــا بسرعة.
- لكن يا ريم... سأقول لكِ شيئاً...اهدئي.
- لا أريد سماع أيَّ شيء، كان صمتك منذ البداية دليل على إجابتك عن سؤالي في النهاية، افتح الباب وإلا سأصرخ بالشّارع... أنت شابٌّ أنانّي لا يهمّك سوى نفسك، لقد بدّلت مشاعرك بسرعة وعوّضتَ عن ذلك بسيّـــارة وخلوي، كيف تستطيع تبديل المشاعر الرقيقة بأشياء سخيفة تملي عليك حياتك؟!! أسددتَ عقدة النّقص لديك؟
- ريم لا تجعلي كلامكِ جارحاً أنا لم أبدّل شيئاً، ماذا تريدين مني؟ ألم يكن هذا طلبكِ لتستريحي؟ ألم تقولي أنّي دمّرتكِ؟ ألم تطلبي منّي أن أكفَّ عن مضايقتكِ! ها أنا أنفذُّ الأوامر، ولـــمَ أتيتِ أنت عند خالتي؟
- أنا نفسيّتي تسوء يوماً عن يوم وأزداد كآبة، وأنت من نزهة إلى نزهة وجولاتٍ ورحلاتٍ مع الأصدقاء لا تهتمَّ بشيء، فقط كنت تلعب بمشاعري وحبك من النوع العابر والنزوات...
فلم تنتظر ريم حتى يفتح الباب فمدّت يدها إلى قفل الباب الرئيسيّ ورفعت القفل، وفتحت باب السيّـــارة لتنزل، لكنّ أمين نزل بسرعة من مقعده وأمسك بالباب لكي لا تخرج ريم، فقال لها: "لن تذهبي وأنتِ متضايقة هكذا يا ريم، أرجوكِ ارجعي للسيّـــارة".
"ابتعد عني وكفَّ عن مضايقتي، أنت لا يهمّك أمري إن كنت متضايقة أم لا..."وأصبحت تدفع الباب بيدها لتبعده عنها.
- ريم نحن بالشّارع ستلتفت النّـــاس إلينا، ادخلي.
- ابتعد، وإلاّ صرختْ.
فجاءت الخالة علياء مندهشة من منظرهما وهما يتشاجران، فقدِمت إليهما وقالت: ما بكما؟ تركتكما على أحسن حال في السيّـــارة.

- يا خالة قولي له أن يبتعد أريد الذّهاب للمنزل.
- لماذا؟ لم نذهب بعد لنتاول البوظة، هيّـــا.. هيّـــا ادخلي.
- لا داعي أشكركِ على الدّعوة، واسمحي لي بالذّهاب من فضلكِ.

وبدأت عيون ريم تحمرّ وتغرغر بالدموع، فتركها أمين ودخل لسيّـــارته وهو حزين، ليس باستطاعته فعل شيء حيال الحبِّ بأكمله، وترك الخالة مع ريم فقالت لها الخالة:"حسناً يا عزيزتي، اذهبي كما تشائين لن أضغط عليكِ، لكن انتظري سأعطيكِ منديلاً تمسحين به دموعكِ، لا تذهبي وأنتِ تبكي". وفتحت الخالة حقيبة يدها وناولتها منديلاً نظيفاً.

ومشت ريم إلى الجهة المقابلة من الشّارع لتأخذ ســـيّارة أجرة وتعود للبيت. والخالة ركبت السيّـــارة وقالت لأمين: هل من الممكن أن أعرف ما الذي جرى بينكما؟ ماذا قلت لها؟

- لا شيء أبداً... بقيت صامتاً فقط.
- أتكذب يا أمين؟ لماذا إذن نزلتْ من السيّـــارة والدموع تُغرق وجهها؟
- هل تريدين الذّهاب لمحل البوظة أم نعود للمنزل؟

سأذهب لمحل البوظة ليتسنّى لي الحديث معك بخصوص ريم، وعقاباً لك ستدعوني أنت للبوظة.

- خالتي لم أفعل شيئاً لأعاقب عليه، ولكن لا مشكلة البوظة على حسابي.

وفور وصولهما جلسا وطلبا بوظة إيطاليّـــة شهيّـــة، وبدأت الخالة تسأل أمين ما الذي جرى بينهما.

- خالتي باختصار شديد سألتني ريم إذا ما زلتُ أحبّها فلم أجبها، فقالت لي إذا ما زلتَ تحبّني قل نعم، أما إذا بقيت صامتاً فسأعرف أنـــّك لم تعد تحبني.
- وأنت بقيت صامتاً أليس كذلك؟

ضحك أمين وقال لخالته: "بلى".

- وتقولها وأنت مبتسم وتضحك.
- لأن شرَّ البلية ما يُضحك- كما يقولون- يا خالتي.
- وأنت يا أمين أما زلت تحبّها أم حقاً نسيت أمرها؟
- هل أستطيع أن أحتفظ بالجواب لنفسي؟
- يا أمين أنا هدفي مساعدتك أنت وهذه الفتاة المسكينة، يجب أن أعرف مع أنّي لستُ مقتنعة بكامل الحكاية وفي مثل هذا العمر.
- لا فائدة من المساعدة فأمها لا تحبّني وتكره أن تسمع اسمي، فالوضع معقّدٌ جدّاً.
- ريم جاءت اليوم وطلبت مساعدتي فهي متعبة و نفسيّتها سيّئة؛ لأنها ما زالت تحبّك وتخشى من والديها ولم تستطع نسيانك... فسألتني هل بالإمكان أن تبقى علاقتكما بحدود الأدب والمنطق من دون علم والدها؟ وبصراحة لم أستطع أن أجيبها لقد احترت معها فهي تحب وتخاف ولا تعرف ماذا تريد بالتحديد.

– لهذا السبب يا خالتي أنا لا أريد الإجابة وبقيت صامتاً، وأنا نفس الشيء أحب وأخاف من المستقبل المجهول، تخيّلي لو أننا بقينا على هذه العلاقة المحرّمة، ما الفائدة إذا كانت النهاية مجهولة أو حزينة بدل أن نكمل فرحتنا بالزواج؟ أنا أحاول التظاهر أني نسيتها لكي أستطيع إكمال نهاري لكن الحقيقة أكبر من ذلك بكثير.
– عليك يا أمين أن تجلس مع ريم لتشرح لها وجهة نظرك وأنك لا تريد علاقة مشبوهة أو محرّمة.
– كان يجب أن تدرك أنني بالسيّـــارة لا أريد أن أترك المجال لفتح موضوع الحبِّ هذا، فأجبتها بالصّمت للابتعاد عن خلق النزاعات في الحديث، لكن هي أصرّت على مناقشتي ولم تترك لي المجال للدّفاع عن نفسي، ومن حساسيّتها الزّائدة أصبحت متوتّرة وخرجت وهي تبكي.

عاد أمين للمنزل هو والخالة علياء ودخل إلى بيته يفكّر كيف عليه التّصرف حيال هذا الموضوع... الحبّ العقيم.

***

أسامة ما زال يبحث عن وظيفة شاغرة ووضعهم الماديّ صعب جداً، وأبوه مرهق من كثرة العمل، فهو حزين على والده يريد مساعدته بأيّ طريقة. الخرّيجون في هذه الأيام لا يجدون عملاً، فكيف الذين لم يتخرّجوا بعد؟ الوضع يزداد صعوبة وعمل أبو أسامة يزداد سوءاً، ليس بيده مبلغاً من المال لإحضار خضار وفواكه طازجة لتعبئة المحل، وإذا أحضر بالدّين لا يضمن بيعها بالكامل خوفاً من تعرّضها للتّلف بسرعة، ولن يستطيع تسديد الأموال المستحقّة عليه. فعاد أسامة وكلّم أمين بخصوص العمل، وأنـــّه يريد الذّهاب لشركة والدة ريم وطلب منه إخبارها.

فقال له أمين: "تكلّم أنت مع ريم ورتّب معهما موعداً، هي زميلتك أيضاً وليست زميلتي وحدي، ولماذا لم تذهب حتى الآن لمقابلتها ما تنتظر؟!"

وفعلاً ذهب أسامة لشركة السيّدة هند في الصباح بعدما تكلّم مع ريم ورتّبت له موعداً مع والدها. وقف أسامة أمام باب الشركة وهو يقرأ المعوّذات ويدعو الله في سرّه أن يجد وظيفة جيّدة، اسم الشركة (شركة المعدّات التكنولوجيّـــة للكمبيوتر) كان جوُّ الشّركة هادئاً والموظّفون يعملون بكل هدوءٍ وإتقان، فذهب أسامة للاستقبال عند السكرتارية، وعرّف بنفسه وطلب مقابلة السيّدة هند. ولأن السيّدة هند كانت تنتظره فقد أوصت موظّفة الاستقبال في حال قدوم أسامة أن تدخله على الفور.

– تفضّل إلى مكتب المديرة يا أستاذ أسامة فهي بانتظارك.

طرق أسامة الباب ودخل، كانت أمُّ ريم تجلس وراء مكتب فاخر أنيق وكبير، ومظهرها العام يختلف كليّـــاً عمّا رآها في البيت عندما دعتهم للغداء، فهي تلبس طقماً رسميّـــاً ذا لون كحليّ وقميص أبيض ناصع، وشعرها مصفّف ومسحوب للوراء بالكامل، ووجهها مشرقٌ ويأخذ ملامح السيّدة الرئيسة المتشدّدة في العمل، أما في البيت فكانت تلبس عباءة مطرّزة وشعرها مفرود وتضع مريول المطبخ، ووجهها يأخذ ملامح الأمِّ الحنون وربّة البيت المنهكة.

– صباح الخير سيّدتي.
– صباح الخير أهلاً أسامة تفضّل...

ودخلت السيّدة هند بصلُب الموضوع: "ما طبيعة الوظيفة التي يُتخيّـــل لك أن تحصل عليها في شركتنا؟"

– أنا يا سيّدة هند لا أعرف بصراحة ومحتار، أنتِ تعرفين أني قسم الآداب في الجامعة، وأعلم أنَّ مجال دراستي يختلف كليّـــاً عن عملكم، لكن سأحاول أن أجد الوظيفة الملائمة عندكِ وأكون على قدر المسؤوليّـــة إن شاء الله.

– وما أدنى راتب ترضى به؟

– يا سيّدتي لا مشكلة المهمّ أن أُدخل للمنزل مصدر دخل آخر يساعد أبي في المصروف، أو أن أستطيع الصّرف على نفسي؛ لأنكِ تعلمين كم مصروف الجامعة كبير ويحتاج راتب موظفٍ بأكمله، وأنتِ يا سيّدتي كريمة وأنا لن أقصّر في عملي أبداً.

– كيف أنت واللغة الإنجليزية؟

– أنا ممتاز بها محادثة وقراءة وكتابة أيضاً.

– حسناً لديّ وظيفتان شاغرتان، الأولى أميناً للمستودع، والثّـــانية موظّفاً على صندوق الحساب، ما رأيك لو جرّبت نفسك بالوظيفتين؟ في أوّل شهر سأوظّفك أميناً للمستودع، وأنا أثق بأمانتك وقدرتك على العمل، والشّهر الذي يليه ستستلم أميناً على صندوق الحسابات، ومن ثمَّ نحن نختار ونقرّر لك الأفضل، فأعيّنك في الوظيفة التي تبدع بها في النهاية ما رأيك؟

– هذا رائع... ممتاز، أشكركِ من أعماق قلبي، أنتِ سيّدة رائعة وطيّبة.

– لكن أريد منك الالتزام وعدم الكسل، هذا بالإضافة أنـــّك ستثبت لنا جدارتك وقدرتك على العمل؛ لأستطيع تعيينك عن جدارة، كما أننا سنعطيك الزيَّ الرسميّ للشّركة ويجب أن تلتزم به وإلا سيخصم من راتبك، وساعات الدّوام من التاسعة صباحاً وحتى الثّـــامنة مساءً، وهناك ساعة ونصف استراحة.

– أشكركِ يا سيّدتي، سأكون عند حسن الظّن إن شاء الله، هل أستلم من اليوم أم أبدأ غداً؟

– غداً صباحاً كن متواجداً السّاعة التاسعة تماماً، والآن خذ معك الزيَّ الرسميّ حتى تأتي به وتكون موظفاً جاهزاً للعمل.

– حسناً يا سيّدة هند أشكركِ. (ووقف أسامة استعداداً للخروج).

– استلم الزيَّ من الاستقبال، لا تتأخّر غداً... إلى اللّقاء.

عاد أسامة إلى بيته مسروراً جداً والفرحة تغمره، وفور دخوله اتّصل بريم هاتفياً وشكرها، ومن ثمَّ اتّصل بأمين ليخبره أنه حصل على الوظيفة.

– ألو مرحباً أمين؟

– أهلاً أسامة كيف حالك؟

– أنا بخير، ومسرور وفرح وأنت؟

– أنا جيّد... والحمد لله على كل حال، أفرحني معك لـــمَ كلُّ هذا السرور، أوجدت عملاً؟

– نعم، بالتأكيد.

– أين؟

– في شركة المعدّات التكنولوجيّــة للكمبيوتر.
– آه ...عند والدة ريم؟
– نعم عند السيّدة هند. يا أمين كم هي سيّدة طيّبة ورائعة هذا بالإضافة لجمالها وشخصيّــتها القياديّــة في العمل.
– طيّــبة...؟!! ربما!
– لا صدّقني طيّــبة وشعرتُ أنها تعاطفت معي وساعدتني.
– يا لحظّك الجيّد! هي طيّبة معك، مبروك يا أسامة فليوفّقك الله.

***

لا زال أمين يفكّر بالطريقة التي سيوصل لريم أنه ما زال يحبّها، ودون أن تزداد الأمور سوءاً، فقرّر أن يرسل لها رسالة عبر البريد الإكتروني (e-mail) ثمَّ غيّر رأيه وقال في نفسه:"ريم ليست من الأشخاص الذين يكترثون ويهتمّون بفتح ومتابعة الــ (e-mail) باستمرار وربّما لن تراها"، وفي النّهاية توصّل إلى أن يكتب لها رسالة خطيّــة، يبرّر لها عن صمته في المرّة الماضية ويرسلها مع إحدى صديقاتها، فأخذ ورقة وقلم واستعدّ للكتابة ومن دون تفكير مسبق بالكلمات، أراد أن تكون الكتابة صادقة وتلقائيّــة من قلبه، ودون تصنّع، لذا قال: "سأمسك القلم وأبدأ بالكتابة وما يُكتب تلقائيــّــاً معي سيكون هو الصّدق من مشاعري". كما أنّ أمين له حسٌّ فنيٌّ بالكتابة فهو يعشق الورقة والقلم، وكان دائماً منذ صغره يكتب ما يمرُّ على قلبه من أمور ليخرجها خواطر مرسومة على الورق.

بدأ كتابة رسالته لها بخواطر نثريّــة كانت من تأليفه الفوري، فكتب ومن دون مقدّمات:

هل من مزيدٍ من الكتمان في الحب؟....قلبي قد انصهر داخل جسدي
أأقول أحبك وأخرجها من صدري؟....الوقت يجري وأنا لا أدري
أشتاق لك كل دقيقة، وأخشى أن أكلمك لضعفٍ في نفسي
أود لو أعرف ما بداخل قلبكِ، ليطمئن قلبي وتهدأ نفسي
هل الحب متبادل بيني وبينكِ...لكنه مدفون في قلبك وقلبي؟
أصبح حبكِ في روحي وباءً...انتشر في أنحاء جسدي
هل من آسٍ يشفي روحي ويصف لي دواء يُنسي؟
أسهر الليل وأستقبل النهار.....وأقل لو درت العالم لن أجد ما يشفي.

هذه كلماتي هديّة من قلبي لكِ يا ريم لعلّها توضّح لكِ سوء التّــفاهم الذي حصل بيننا في المرّة الماضية وتبيّن حسن نيّــتي، وصمتي كان فقط هروباً من الموقف لا أكثر، لأني أعرف أن لا جدوى من تذكيري بحبكِ والتّــناسي أفضل حلٍّ، وأيضاً كيف لي أن أستمرَّ بهذه العلاقة وبنهاية طريقها أرى ناراً تحرقنا، يبدو أنَّ علاقتنا أصبحت أكثر تعقيداً من خِطبة وزواج، وهذه الطّريق التيتؤدي بنا إلى الشّبهات والمحرّمات، أنا تعبتُ وأخشى الله بكلِّ خطوة أسيرها، وأنا يا ريم لم أبدّل المشاعر الحسّاسة – التي تنبض حبّاً– بأشياء ماديّــة معدنيّــة، لكن هي فقط كمسكّنٍ أهرب بها من عذابي، حاولت أن أنساكِ لا أكذب... لكن كان مجرّد تناسي وفعلاً لم أستطع. أنا أحترمكِ يا

ريم وأتصرّفُ معكِ عن حسن نيّــة، ولا أستطيع العبث بمشاعركِ أو أن أخدعكِ، فحبي لكِ أكثر من أن يكون حبّـــاً، لا أعرف ماذا أُسمّيه...!

قـــرّرت أن أكتب لكِ هذه الرسالة وأتمنّى أن لا تزيد الأمر سوءاً، وإذا أحببتِ بعد قراءتها أتلفيها خوفاً من أن تسبّب لكِ المشاكل.

وحقيقة لا أعرف كيف أريحكِ من حبي وأعتذر عن العذاب الذي تعيشينه بسببي، ولربما أنساكِ ولكن هيهات... هيهات...

إلى اللّقاء

المخلص أمين

***

انتهى أمين من كتابة الرّسالة ووضعها في ظرف وأغلقه، وقرر أن يرسلها لريم مع منال، وبعد التفكير تردّد بإعطائها لمنال خوفاً من عدم إرسالها لريم، فهو يشكُّ بها فخاف ألا تعطيَها الرّسالة، فقرّر إعطائها لديالة فهي صديقة ريم منذ أيـــّـام المدرسة وستكون حريصة عليها أكثر من منال، وفعلاً تكلّم مع ديالة بعدما أحضر رقم هاتفها من هاني؛ لأن هاني يحتفظ بجميع أرقام هواتف مجموعة الأصدقاء. وأخبرها أنه يريد القدوم إلى منزلها ويعطيها شيئاً أمانة من الباب ويغادر.

وبالفعل وصل أمين وقرع جرس باب منزلها فكانت بانتظاره وفتحت له، ورفض الدّخول فتناولتْ الرّسالة منه بعدما شرح لها ضرورة إيصالها لريم، ووعدته أنها ستعطيها إيّـــاها.

أمّا أسامة فهو مسرور للغاية، ففي صباح اليوم التّـــالي ارتدى الزيَّ الرسميَّ للعمل بشركة الكمبيوتر، وذهب مبكراً ليبدأ دوامه بكلِّ نشاطٍ وحيويّة. تعرّف على جميع الموظّفين والموظّفات وأحبَّ الجميع، ونزل إلى المستودع ليستلم عمله، طبعاً في أوّل يوم كان معه موظّفٌ ليرشده عن أمور العمل والتعرّف على البضاعة التي بين يديه، فكان المستودع مليءٌ بالصّناديق الكبيرة والصّغيرة المصفّفة، فطلب منه الموظّف السّابق أن يعيد ترتيب هذه الصّناديق، بأن يضع الكبير في زاوية والصّناديق الصغيرة في زاوية أخرى؛ ليستطيع التعرّف على أنواع البضاعة ويحفظ أسماءها وإذا طُلب منه شيئاً يكون قادراً على معرفة مكانها، لأنه هو بيده وضعها وصفّفها.

فبدأ منذ الصّباح حتّى المساء وهو يرتّب وينظّفُ المستودع، ثم أنهى عمله بعدما حفظ كلَّ شاردة وواردة في هذا المخزن، وما إن أنهى دوامه حتى كان منهكاً وبشدّة من كثرة العمل طيلة اليوم، فسرّت منه السيّدة هند كثيراً وقالت له: "أنت أفضل موظّف مستودع اشتغل عندنا حتى الآن، ولم يستطع أحد أن ينجز كلَّ هذا العمل بنهار واحد" فشجّعته وشكرته وأخبرته أنّ في الغد سيكون عمله أفضل وأقلّ جهداً، وأكملت: "ستجلس يا أسامة عند البضاعة وتكون عليها حافظاً، وإن طُلب منك طلبيّة تخرجها لكن من دون أن تخطئ في الأسماء والأرقام المدوّنة على الطلبيّة وعلى صناديق البضاعة، وأن تقارن جيداً بين الطلبيّـــة والصّندوق الخارج، وإيّـــاك والخطأ لأنك ستتحمّل أنت المسؤوليّـــة".

فعاد أسامة إلى منزله مسروراً مع أنه متعبٌ جداً، لكن هو متحمسٌ لنهارٍ آخر من العمل، كما أنَّ والده فَرِح من أجله ؛ لأنه وجد عملاً مناسباً وجيّداً له.

اتّصلتْ ديالة هاتفياً بريم وأخبرتها أنها تريد زيارتها لإعطائها شيئاً ما، فرحّبت ريم بها وألــحّت على الهاتف أن تخبرها بالشيء الذي ستعطيها إيّــاه، لكن ديالة لم تقل لها وأصرّت أنها ستعرف عند مجيئها إليها، لكي تبقى متشوّقة.

وصلت ديالة عند ريم وجلستا في غرفتها، فأخرجت ديالة الرّسالة وقدّمتها لصديقتها، فقالت لها ريم: "ما هذه؟"

فأجابتها ديالة: إنها رسالة من حبيب القلب.

–ماذا؟ حبيب القلب؟ كفاكِ سخافة!

– ما بكِ؟ جاء أمين وأعطاني هذه أمانة لكِ وأوصاني أن أرسلها إليكِ من دون تأخير ألا تصدّقيني؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

– وما بها؟... سألت ريم باستهتار.

– وما أدراني أنا؟ الرّسالة لكِ خذيها وافتحيها لتعرفي ما بها!

– لا شكراً... أرجعيها لأمين.

– ماذا؟ أجننتِ! قبل أن تعرفي ماذا كتب لكِ؟

– نعم، لا أريد أن أعرف ولا يهمّني.

– قبل أيــّام كنتِ تموتين في حبّه وتسألين عنه، ماذا جرى؟

– عندما قرّر أمين أن ينساني استطاع ذلك، وسألته إذا ما زال يحبّني فكان الجواب لا، فلماذا يُتعب نفسه ويرسل رسائل بلا طعمة... ولا قيمة.

– لا أعتقد أنه لا يحبّكِ، كما يجب عليكِ أن تعرفي ماذا كتب بالرّسالة حتى لو كان لا يحبّكِ وبما أنه كتب رسالة وأراد إرسالها لكِ، إذن هو حتماً يريد أن يقول لكِ شيئاً مهماً ويريد أن تعرفيه، فاقرئيها لن يضرَّ شيئاً.

– لا... بل يضر، أنا قرّرت أن أنساه وأعود لصوابي، فأخاف إن قرأتها أتراجع عن قراري، وأعود للغرق في بحره وأنا لا أعرف السّباحة.

– هل أفهم أنكِ وصلتِ إلى الشّاطئ وخرجتِ من بحر حبّه؟

– لا، أنا ما زلتُ في وسط البحر لكن وجدتُ قطعة خشب أستنجد بها لأصل للشّاطئ، وأخرج من بحر الحبِّ هذا الذي يُغرق ولا يُنقذ، أرجوكِ ديالة دعيني متمسّكة بهذه الخشبة لأنجو، لا تشجّعيني على أن أتركها وأرمي نفسي في البحر مرّة أخرى.

– حسناً، لكن ماذا أقول لأمين؟

– لا شيء بصراحة قولي له تعال وخذ رسالتك ريم رفضت أخذها، هو سيفهم كلَّ شيء.

– ما رأيكِ أن أتركها عندكِ وإن أردتِ أن تقرئيها فهي أمامكِ، وإن رفضتِ فأتلفيها أنتِ.

– لا يا ديالة هذه أمانة ويجب أن تعود لصاحبها، ولا أريد أن يظنَّ أني قرأتها إذا بقيت معي، أفضل شيءٍ أن تعيديها له.

– سأعيدها، لكن أنا خائفة من ردّة فعله.

– لا يهم، هو لم يبالِ بأمري ولم يهتمّ بردّة فعلي عندما سألته إذا ما زال يحبّـــني وأوصل جوابه لي سلباً وبكلٍّ برود.

– كل واحد أدرى بمصلحته، سأفعل ما يريحكِ. (أجابت ديالة بتشكّك)

فعلاً عند انتهاء الزّيارة أرجعت ديالة الرّسالة معها، وفور وصولها اتّصلت بأمين هاتفياً وأخبرته: أنَّ ريم رفضت استلامها وطلبت مني أن أعيدها إليك.

فأغلق أمين سمّاعة الهاتف وجلس عابساً بعدما كان يتأمّل من ريم أن تأخذ رسالته وتفهم قصده، واعتقد أنّ المياه ستعود إلى مجاريها، هو في نفسه يريد التحدّي وأصبح يتمسَّك برأيه وبحبّـــه أكثر، لكنَّ ريم هذه المرّة هي التي تحاول أن تنساه وبجديّـــة بعدما جاءت للخالة علياء حزينة تطلب حلاً شافياً، إذ بها تجد الحلَّ عند أمين في جوابه الصّامت، وقتها لم يقصد أمين أن يقتل هذا الحبّ، كان مجرّد تخفيف للآلام؛ لأنه يعرف كم هو مستحيل التقاء القلبين.

جلس يفكّر: لماذا أنا حزين؟ هذا ما أردته فعلاً بصمتي، كان قصدي أن أُبعد ريم عنّي وهذا لمصلحتها، لأنها تتعذّب ولا أحد يقف بجانبها وعندما حصل وحاولت هي نسياني أحزن... لماذا؟ لقد قيّـــد الحبُّ تفكيري وربط مشاعري وحاصر أحاسيسي، لكن ما الذي جرى لي؟ أشعر وأنني الآن أخسر كلَّ شيءٍ بالدّنيا؟ هل أقنع قلبي بهذا؟ لقد خطر على بالي بيت الذي قاله الإمام الشافعي:

إذا كنت ذا قلبٍ قنوعٍ فأنت ومالك الدّنيا سواء...

لكن كيف عليَّ أن أقتنع بالعذاب؟

أخذ أمين في اليوم التالي الرّسالة من عند ديالة وعاد للبيت كئيباً، وفتح باب الخزانة وأخرج من الرَّف العلويّ الدّفتر الخاص به الذي يكتب به مذكّراته وبعض الخواطر النّـــثرية التي تمرُّ في ذهنه، وفتحه ووضع الرّسالة كما هي بالظّرف داخل هذا الدَّفتر واعتبرها خاطرة من خواطره أو ذكرى من ذكرياته ليطوي صفحة النّسيان بعدها.

لكنَّ صفحة النّسيان هذه كانت صعبة الطّيّ، كلّما حاول طيّها عادت وفردت من جديد وكأنّها من فولاذ يصعب طيّـــهُ.

الفصل الثامن عشر

انقضت أيـّـــام العطلة الصيفيّـــة وعادت النبضات تدقُّ للحياة الجامعيّـــة، وهذه السّنة الدراسيّـــة الثّانية، فجميع الطّلاب يرتدون زيَّ الهمّة والحيويّة ويشعُّ من وجوههم النّشاط في أوّل يوم من الدّوام، وها هي ساحات الجامعة وممرّاتها ممتلئة بالطّلبة وأصواتٌ وضحكاتٌ هنا وهناك والكلّ مسرور، وصل أمين الاستراحة فوجد أصدقاءه يجلسون عند الطّاولة القريبة من الباب، لقد وجدهم على الفور وسلّم عليهم جميعاً، الشّباب اعتادوا على رؤية بعضهم في العطلة الصيفيّة، لكن الفتيات هُنَّ اللّواتي اشتقن لشلّة الأصدقاء.

فقالت منال:"أمين! كيف حالك؟

– الحمد لله، فعلاً اشتقنا لأيّام الجامعة والجلوس هنا.

ثمَّ وقفت ديالة وذهبت بالقرب من أمين وسلَّمت عليه باليد، وقالت له ممازحةً: كن مؤدباً هذه السّنة! لا نريد مشاكل.

– ألم أكن مؤدباً؟!!

أمّا ريم فنظرت لأمين بكلِّ هدوء– وهي جالسة في مكانها – وقالت له: "أهلاً أمين كيف حالك؟كأنَّ شيئاًلم يكن".

فنظر إليها بعد أن كان يتحاشى نظراتها، فردَّ عليها السلام من مكانه وقال لها: لا بأس جيّد، هذه رندة شقيقتكِ أليس كذلك؟

– بلى، أنا رندة شقيقة ريم... أهلاً أمين.

– مبارك النّجاح، وما التّخصص الذي التحقتِ به؟ سألها أمين.

– هندسة الحاسوب.

– هذا رائع، ليوفّــقكِ الله.

نجحت رندة في الثّـــانوية العامّة وهاهي التحقت بالجامعة فرع علوم وهندسة الحاسوب، لكنَّ دوامها يختلف قليلاً عن دوام ريم، فمحاضرات ريم تبدأ مبكراً في العاشرة صباحاً، أما رندة فمحاضرتها الأولى بعد السّاعة الثّـــانية عشر، لكنها جاءت مع ريم بوقت مبكّراً للتعرّف أكثر على الجامعة ومرافقها ولتعتاد على الجوّ العامّ، وبعد فترة ستأتي على موعد محاضرتها.

قالت رندة في نفسها"يظهر على أمين أنه شابٌ جيّد، لكن سأراقبهما وأخبر أمي إذا تمادت ريم بالحديث مع أمين، هذا واجبي اتّجاه حماية أسرتي".

ومن هنا بدأت ساعة الزّمن الرّملية تُنزل حِملها من أعلى القارورة إلى أسفلها، فالأيـّـام تمرُّ، ويوم بعد يوم حبٌّ يزداد ومسافة تطول، ويبقى الشكُّ دائماً في قلبيهما، إنه حبٌّ غريب من نوعه، قلبان معلّقان على مسافة بعيدة، لكن ذبذبات الغرام والتردّدات تُرسل وتبعث في أثير الحب فيبقى البثُّ بينهما قوياً، فعندما يلتقيان في الجامعة بين المحاضرات مع باقي الأصدقاء يدور بينهما حديثٌ صامتٌ، والجميع من حولهما يتحدّثون بأصواتٍ عالية وضحكات، أما كلامهما

فكان بلسان العيون، يعترف كلٌّ طرفٍ للآخر بحبّه، ويتوسّل الظّروف هل من رحمة تجمعنا، هل هناك طريق نستطيع عبورها؟ فيبقى الجواب معلّقاً بين النّظرات الخاطفة الهاربة التي لا يشعر بها سواهما.

وفي مرة من المرّات أحضر أمين دفتر خواطره للجامعة، كان يريد أن يكتب في وقت الفراغ خاطرة نثريّة تبقى عالقة في باله، فهو يريد أن يريح فكره ويدوّنها مع البقيّـــة، وفعلاً ذهب لمكتبة الجامعة، ومسك قلمه وبدأ يكتب بالجملة الأولى فرفع رأسه إذ بريم ومنال تجلسان على بعد خمس طاولاتٍ منشغلتان في عمل بحث ما، فَسُرَّ عندما رآها وبدأ يستوحي كتابته وكأنه يكلّمها من بعيد ويعاتبها، فكتب لها في دفتره:

يا زهرة الأشواك جرح الحبِّ يترف

كـــم أشتاق لكِ وها أنـــا أعترف

ليتكِ تعترفين لي بالحبِّ لكي أعرف

هلِ من الممكن حبّكِ؟ لكي لا أقترف

ذنباً بحقِّ الحبِّ ويكون وقتي قد أُسرف

الحبُّ علاقة من الصّدق لا تُهلِك ولا تُتلف

عيوناً ودموعًا انهمرت في زمن مُؤسف

ما بالي أركض وراءكِ كالشّخص الذي يسرع ليُسعف

يســـعف حبّـــاً قد اشتُري بثمنٍ مُكلـــف

هذا الحبُّ يضيع مع الأيام، ولم يكن أحد يعرف

الحبُّ ليست طرفة تروينها مع باقي الطُرف

بل هي أحاسيس زُرعت لتبقى ولا تُجرف

إلى متى سأبقى أحاول الانتهاء من حبٍّ، ليس له طعم يُعرف؟

ولا حتى أحاسيس متبادلة تُكشف

متى سأطوي صفحة العذاب في قلبي ولن تُكشف؟

لا أريدها أن تُكشف بعد الآن، حتى ولو لموتي هتف...!

***

أغلق أمين دفتره الخاص وحمل أغراضه ونزل من المكتبة.

لمحت ريم أمين أنه كان يكتب في دفتره الخاص، فهي تعرف دفتره هذا؛ لأنَّ أمين سبق وقد أطلعها على بعض مذكّراته التي كتبها بعد تخرّجه من المدرسة الداخليّـــة، فأرادت أن تعرف ماذا كان يكتب. فذهبت لهاني وطلبت منه أن يُحضر لها دفتر أمين دون أن يشعر، فرفض هاني بشدة لأنه يعلم كم هذا الدفتر غالٍ على قلبه، فهو يخاف عليه من نسمة الهواء وإذ افتقده فسيغضب، لكن ريم بقيت مصرّة أنّها تريده وتريد أن تقرأ كتاباته، وأن تعرف أكثر عن أمين وشخصيّته، فقالت لهاني: "أرجوك يا هاني أنا أحتاج الدفتر".

– لا أستطيع أخذه، كما أنه ليس لكِ حقٌّ بالاطّلاع على دفتر خصوصياته.

– يا هاني أنا فقط أريد أن أدرس شخصيّته، وسنعيد الدّفتر دون أن يشعر.

- أطلبيه منه واختصري مشكلة ربما ستحصل بسبب عنادكِ، وأعتقد أنه لا توجد علاقة تجمعكما الآن أليس كذلك؟ لماذا تتدخّلي بأمور لا تخصّكِ؟
- كلا، لا أريد أن يعرف أني أريده... أرجوك هاني.
- لا أستطيع انتهينا... كما أنَّ أمين لم يعد يحب ولا يهتمّ بأحد.. ماذا تريدين أنتِ الآن؟
- لا مازال يحبّني أنا اعرف أرجوك... من فضلك... يا هاني لو سمحت...
- أووووفّ كم أنتِ عنيدة... سأحاول... ولكن إن فشلت فستتحمّلين أنتِ المسؤوليّـــة كاملة.
- حسناً، شكراً... لا تقلق.

فعندما ذهب هاني للاستراحة، ووجد أمين جالساً مع باقي الأصدقاء فجلس بجانبه وقال له: "يا أمين أريد أن أطلب منك شيئاً هل لي؟"

- طبعاً، تفضّل...
- أريدك أن تذهب وتطلب لي كوب شاي ساخن بالنعناع وشطيرة جُبن فأنا متعب، ولا أريد أن أقف على الدّور وأنتظر طلبي.
- هذا بسيط سأذهب، هل يريد أحدٌ منكم شيئاً، بما أني ذاهب أطلب لهاني وجبة؟
- شكراً لا شيء... أجاب رامي، وديالة أثنت على كلامه.

فذهب أمين – وبالطبع– ترك أغراضه على الطّاولة، وعلى الفور سحب هاني دفتر أمين الخاصّ ذا اللّون الأزرق الغامق، فنظرت إليه ديالة وقالت له: "هذا دفتر أمين الخاص، وإذا رآك تعبث به فسيغضب منك".

فأجابها هاني: "لا تقلقي أريده في خدمة صغيرة وسأعيده".

- لا ياهاني أعده إلى مكانه الآن وإلاّ سأخبر أمين بأنك أخذته، فبدأ هاني يقلّبُ صفحاته، فوجد فيه ظرفاً مكتوباً عليه إلى ريم، فسحب هاني الرّسالة وقال:"كتب أمين رسالة لريم ولم يعطها إيّـــاها بعد"، فأجابت ديالة: "هذه رسالة قديمة وريم رفضت أن تأخذها، فمن المؤكّد أنَّ أمين احتفظ بها في دفتره الخاص".
- إذن ما رأيكِ يا ديالة أن نحاول مرّة أخرى مع ريم ونعطيها الرّسالة من دون عِلم أمين، ربما نفعل خيراً معهما؟
- أنا لا دخل لي إذا شئت حاول أنت، وأرجوك أعد الدّفتر إلى موضعه بين الكتب.
- حسناً سأفعل، ولكن سآخذُ الرّسالة وأعطيها لريم، وأرجوكم لا تخبروا أحداً بالذّات أنتِ يا ديالة ولا أنت يا رامي.

فأجاب رامي:"إنك هكذا تخلق المشاكل يا هاني، ربما لا يريد إعطاءها الرّسالة الآن، لا تفعل شيئاً من دماغك ولا تتدخّل فيما بينهما، كما أنَّ أمين لم يعد يفكّر بريم... لا نريد إشعال النّـــار من جديد".

- لا... لا لن تُخلق المشاكل فأنا أعرف الطّرفين جيّداً، سأحتفظ بالرّسالة في جيبي، وها هو الدّفتر عاد إلى مكانه وكأنَّ شيئاً لم يكن.

وجاء أمين ومعه الشّاي والشطيرة..."تفضّل يا هاني هذه وجبتك".

- شكراً يا أمين، أتعبتك معي.

تناول هاني طعامه وشرب الشّاي، وذهب فوراً إلى كليّـــة الآداب لينتظر ريم وهي تخرج من المحاضرة، وبالفعل عندما رآها أخذها جانباً وقال لها: "يا ريم لم أستطع إحضار الدّفتر، لكن وجدت فيه هذه الرّسالة لكِ".

نظرت ريم للرّسالة وهي بيد هاني وقالت له: إنّها رسالة منذ العطلة الصيفيّـــة، وأنا رفضتُ أخذها لكن لا مشكلة سآخذها الآن، وأقرأ ما كتب لي وقتها ربما يوجد شيء يفيد، شكراً هاني.

- هل تقرئينها وأعيدها للدّفتر؟
- لا سأحتفظ بها عندي، أليست هي لي؟
- نعم هي لكِ، لكن إذا افتقدها؟
- سيعتقد أنها سقطت من الدّفتر دون أن يشعر، ولا تخبره أنها معي.

وجلست ريم على حافّة حوض مزروع ببعض أشجار الزّينة، وفتحت الرّسالة بعدما تركها هاني، فوضعت الرّسالة في كتاب وأصبحت تقرؤها:"هل من مزيدٍ من الكتمان في الحبِّ...؟ فقالت ريم في نفسها: "لا يا أمين لا يوجد".... حتى أكملت الرّسالة كاملة وتأثـــّرتْ بها، فتأكّدت أنه مازال يحبّها بصدق، وشعرتْ أنها شُحنت بطاقةٍ وقوّة، وذهبتْ إلى الاستراحة مسرعة تريد أن تكلّمه لأنها تعتقد أنها السّبب في هذه المسافة البعيدة التي تفصل بينهما، والآن المسافات طُويت بسبب رسالة، وفعلاً فور وصولها ذهبت لأمين ونادته جانباً، وقالت له "ممكن لحظة يا أمين". فوقف مندهشاً من طلبها الغريب وذهب إليها وكأنه أوّل مرّة سيكلّمها.

- نعم، ماذا؟
- أحببت أن أقول لك فقط، أنك إنسان بلا ضمير.

تفاجأ من كلامها وقال لها: "من فضلكِ، لا أريد أن أسمع شيئاً بخصوص أيِّ موضوع مضى وانقضى".

- قلبك انصهر من الحبّ، وتقول هل من مزيدٍ من الكتمان في الحبِّ؟ وتسأل...!

وأظهرت له الرّسالة أمامه، فسكت أمين للحظة متفاجئاً وقال لها: "من أين حصلتِ عليها؟" وعلامة الاندهاش على وجهه.

- لا تقلق أخذتها وحسب.
- الرّسالة كانت في دفتري الخاص هل عبث أحدٌ به؟
- لا يا أمين، سأخبرك الحقيقة من دون غضب... في الحقيقة رأيتك تكتب بالدّفتر فصار عندي رغبة شديدة لمعرفة ما كتبتْ، فطلبتُ من هاني إحضار الدّفتر لي لكنّه رفض بشدّة، وأنا ألححتُ عليه، فحاول أخذه لكن لم ينجح خوفاً من أن تفتقده أنت، فوجد به هذه الرّسالة فأحضرها لي، فعرفت أنها الرّسالة القديمة لا غيرها فأخذتها وقرأتها، وأحببتها... لقد دخلتْ قلبي، أشكرك يا أمين على الكلام اللّطيف.

أجاب أمين بجديّـــة وجفاء: "أنا لا أكتب لتشكريني على ذلك، بل لأني أحتاج لكتابته؛ لكي لا ينفجر هذا الكلام داخل صدري إذا بقي محبوساً ولم أفرغه على الورق، هكذا أنا أرتاح،

وارتحتُ أكثر لأنكِ قرأته وانفضَّ سوء التّـــفاهم. لكن ما أزعجني هو التصرّف بغير إذنٍ مني والعبث بأغراضي أنتِ وهاني، والمزعج أكثر أن لا فائدة مرجوّة من هذا الحبِّ، و لايهمّني إن كان أعجبكِ أم لا... وهاني حسابه فيما بعد".

– لا تنزعج أمين أرجوك أنا آسفة، لماذ تتكلّم هكذا معي...! وكيف سنحلُّ سوء التّـــفاهم لو لم نخطوا مثل هذه الخطوة؟ صدّقني يا أمين مع سوء التّـــفاهم ذاك فأنا ما زلتُ... أحبّـــــك!

– أنا أصدّقكِ، وأعرف من دون أن تقولي.

– أمين؟

– نعم!

– هل تعدني بشيء؟

– إذا كان بوسعي فهذا أكيد.

– أريدك أن لا تتركني وتبقى بجانبي مهما حصل، ولنكن روحاً واحدة ونبتعد عن الفراق.

صمت أمين وحَمْلَقَ نظره بعيون ريم، وعلى ملامح وجهه مسحةُ ابتسامةٍ حزينة.

فقالت له ريم: "ما بك صامتاً، أمن الصّعب وعدي بشيء كهذا؟"

– صعب جداً... صعب... ماذا تقولين أنتِ ؟ كيف تفكّرين يا ريم؟ أنا أتمـــنّى قربكِ، لكن المنطق لا يسمح لي بوعدكِ مثل هذه الوعدود، وحتّى كرامتي، وخوفي من الله في البداية!

– دعنا من المنطق والكرامة الآن، وتوكّل على الله، ولنمزّق كتاب الحبِّ القديم ونبدأ من جديد وحدنا، هيّـــا لم أسمع الوعد.

ابتسم أمين بقلقٍ وقال: "كيف لي أن أعدكِ؟ ياريم أنت ستسحبيني للدّمار...

– أنا سأتصرّف أعدك، وسأحاول مرّة وعشرين مرّة.

– الموضوع خرج من يدنا لن يفيد الحديث بشيء بعد الآن.

– أمين أرجوك عِدني فقط... لأستطيع التصرّف أنا بعد ذلك، أرجوك عدني... أمين قل إنك ستبقى معي مدي الحياة ومهما حصل...

– يااااه....كلام كبير! حسناً لا أعرف ماذا أقول أعدكِ– لكن بحذرٍ شديدٍ يا ريم– أنّي سأبقى بجانبكِ مدى الحياة، وفي حال أنـــّني متّ! وقتها سامحيني على الفراق فسيكون البعد ليس بيدي".

– ما هذه الطّرفة؟ لـــمَ الكلام اليائس الآن؟ احلف بالله أنـــّك تقول الصّدق.

– والله أقول الصّدق لو كان بيدي شيء أفعله.

– هل ستواجه التحدّيات معي؟ أم سأكون وحدي في وجه التّـــيار؟

– سأواجه التحدّيات إن شاء الله، لكن أين ذهبنا بظروف الحياة؟

– ظروف الحياة لن نتركها تؤثّر علينا، وإن كنتَ تقصد والدتي فأنا لن أخبرها بحبّنا سيبقى موضوعنا سراً، طبعاً حبّ طاهر وعلاقة نظيفة.

– لا يا ريم... لا أوافق! ستخفين عن والدتكِ شيء كهذا؟ هذه علاقة بين اثنين وليست مجرّد ورقة أو رسالة تخفينها وحسب!

– بما أننا سنبقى نرى بعضنا بالجامعة وكلَّ يوم فهذا يكفيني وسيرضي قلبي، بدلاً من العذاب، أوَ عندك رأيٌ آخر؟

– يا ريم، إن نحن بقينا على هذه العلاقة فيجب أن نعرف إلى أين سنصل، ومن الطبيعيّ فإنَّ أيـّـام الجامعة ستنتهي، وبعدها سنقف مكتوفي الأيدي؛ لأن علاقتنا تقفُ على حافّـة الخطر، ومن الضروريّ أن تعرف والدتكِ بعلاقتنا إن كان أولاً أو أخيراً.

– لا تقلق فأنا إن شاء الله سأبقى أمهّدُ لها في السّنة الأخيرة من الجامعة، وقبل التخرّج ستكون موافقة على زواجنا، أكيد لن تكون أمي قاسية عليّ فأنا ابنتها الكبرى، وهي تحبّني، ومؤكّد أن سعادتي همّها، وكل والدة تبحث عن سعادة بناها بالنّهاية.

– لا أعرف هذا لا يرضي الله، ماذا أقول لكِ يا ريم، لن تكون الطّريق التي سنسلكها سهلة.

– لا تكن متشائماً لهذه الدّرجة، ولا متشدّداً... قوّي قلبك أكثر.

– أنا خائف على قلبي من قلبكِ أيّتها الجريئة المتهوّرة.

ضحكت ريم وقالت: "هل نحن الآن على نفس الدرب؟".

ابتسم أمين ابتسامة صفراويّـة وهو يعلم بقرار نفسه أنه بدأ بالطّريق الخاطئ واللّعب بالنار.

بقيت شمعة الحبِّ مضاءة للطّرفين فلا أحزان ولا معاناة، فيجلسان معاً ويتحدّثان بمواضيع مختلفة ضمن حدود الأدب، حتى أنَّ ريم تحسّنت نفسيّتها وأصبحت أكثر نشاطاً وتفاؤلاً وأملاً، أمّا أمين فعاد الإشراق إلى وجهه حتّى نبضاته صارت تطرقُ على باب القلب بانتظام دون ضيق وبعيد عن الألم فالحبُّ داؤه ودواؤه.

لكن للشّمعة عمر وستنطفئ مهما كان طول هذه الشّمعة شبر أو متر، فشمعة الحبّ هذه التي نُقش عليها اسم أمين وريم، كان عمرها سنة دراسيّـة إلاّ أسبوع، ففي نهاية السّنة الثانية من سنوات الجامعة، وبالتحديد في أسبوع الامتحانات المتبقّي، مسكت السيّدة هند ابنتها ريم وهي تحاول الاتّصال بأمين، وقتها كانت السيّدة هند تريد الخروج من المترل، وريم اعتقدت أنَّ والدها قد خرجت، فأخذت الهاتف واتّصلت بهاتف مترل أمين، فردّتْ عليها خالته علياء: ألوو نعم؟

فأجابتها ريم بصوت متفاجئ: "ألوو... هل هذا مترل أمين؟"

– الخالة: "نعم مترل أمين، أنتِ ريم أليس كذلك؟"

كانت والدها في الغرفة المجاورة لريم، فسمعت حديثها وبقيت تسمع لتعرف بالضّبط أين وصلتْ علاقة ريم بهذا الشّاب، كما أنَّ السيّدة هند كانت تشكُّ في الآونة الأخيرة أنَّ ريم مازالت على علاقة مع أمين، لكنّه كان دائماً مجرّد إحساس الأمّ، وأحياناً تكذّب نفسها، كما أنها لا تستطيع مُفاتحتها بمثل هذا الموضوع لعدم وجود أدلّـة تدلّ على استمرار علاقتهما، ولكن ما إن سمعتها تتحدّث بالهاتف طالبة أمين إذ بها تقف متفاجئة من إخفاء الموضوع عليها.

وبقيت ريم تكمل حديثها مع الخالة عندما قالت لها أنتِ ريم أليس كذلك؟

فأجابتها: بلى، وأنتِ الخالة علياء، آسفة لم أعرف صوتكِ في البداية؛ لأنّني لم أعتد أن يردّ عليَّ أحد على هاتف مترل أمين إلاّ هو، أو لا أحد يجيب.

– أمين ليس هنا يا عزيزتي، أنا جئتُ لأُحضر له طبق معجّنات صنعتها للتوّ لكن لم أجده فوضعته على الطّاولة، إذ بالهاتف يرنُّ فرددت عليه، وهي فرصة سعيدة لسماع صوتكِ يا حلوة.
– أشكرك يا خالة، لا مشكلة سأطلبه على هاتفه الخلويّ وأرى أين هو.
– حسناً... قولي لي كيف حالكِ أنتِ ودراستكِ؟
– الحمد لله جيّدة جداً.
– ليوفقكما الله يا عزيزتي ويجمعكما على الخير، إلى اللّقاء الآن.
– مع السّلامة يا خالة.

وأغلقت ريم سمّاعة الهاتف وأرادت أن تطلب رقم أمين الخلويّ، فجاءت والدها من الغرفة، رأها ريم...فصُدمت وخافت وكأنَّ كارثة حصلتْ، فتجمّدت مكانها دون حراك، ولم تعرف حتى بلع ريقها من الدّهشة.

فقالت لها أمها: يا سلام عليك... تغافلينني يا ريم وتكلّمين أمين...؟! وتتجرّئين على محادثته إلى بيته؟ وكما عرفتُ منكِ الآن يبدو أن علاقتكِ جيّدة مع هذا الشّاب المغفّل، لقد اعتقدتُ أنكِ نسيتيه، لكن الحقيقة أنكِ تخدعين أمكِ وتخدعين نفسكِ في البداية، لم أعرف أنكِ كاذبة وممّثلة.

ارتبكت ريم وصارت تبرّر لأمّها: "أمي... اسمحي لي أن أوضّح لكِ الصّورة"

– الصّورة واضحة ولا تحتاج إلى توضيح أكثر من ذلك.
– لا يا أمي... أنا لا أخدعكِ ولا أكذب عليكِ، لكن القصّة هي أنني...أمي...أرجوكِ راعي شعوري ولا تقفي في طريق سعادتي.
– أنا يا ريم... ألم أقل لكِ منذ البداية ابتعدي عنه قبل أن تقعي بحبّه، وأنا لن أغيّر رأيي به. ولن أراعيَ مشاعركِ بهذه الطّريقة السلبيّــة، وعندما أرى أنّ الموضوع مهمٌّ لدرجة أنْ أقف بجانبكِ وأراعيَ مشاعركِ فلن أقصّر معكِ، فأنا والدتكِ وأدرى بمصلحتكِ ومستقبلكِ يهمّني، استعملي عقلكِ بدل أن تضعيه جانباً وتستخدمين قلبكِ في كلِّ الأمور.
– لم أفهم...
– ريم، كلامي واضح... لا تثيري أعصابي، وإذا سمعتُ أو رأيت أنكِ تكلّمين هذا الشّاب على بيته أو على هاتفه الخلويّ فصدّقيني سيكون حسابكِ عسيراً وليس متوقّعاً، وهذا جواب قطعيّ.

ذهبت ريم إلى غرفتها حزينة وعاد اليأس لقلبها المغروم، وقرّرت أن تخبر أمين غداً في الجامعة بالأمر السيّء الذي حصل معها اليوم.

عادت السيّدة هند إلى الهاتف بعدما ذهبت ريم إلى غرفتها وأغلقتْ الباب، فضغطتْ على الزّر الذي يعيد الاتّصال الأخير لتأخذ رقم هاتف منزل أمين، وسجّلته على ورقة.

وبعدما تأكّدت أنّ ريم وأخواتها قد خلدوا إلى النوم– حوالي السّاعة الحادية عشر ليلاً– اتّصلت هند بأمين من غرفتها، بعدما أغلقت الباب لكي لا تُسْمِعْهُن. وفعلاً ردّ أمين على الهاتف بعد أن رأى كاشف الرّقم، فوجد رقم منزل ريم، فسرَّ جداً لأنه ينتظر هاتفها قبل أن ينام.

– ألو ريم... لقد تأخّرتِ اليوم بالاتّصال، اشتقت لكِ كثيراً.

فردّت السيّدة هند بكلٍّ جديّة ونبرة حزم في كلامها: "ألو أمين... أنا أم ريم" وصمتت.

فتلعثم أمين بالكلام ولم يعرف كيف يردّ عليها، لم يكن متوقعاً أبداً سماع صوت والدهما فهو يخاف منها ويخشاها، فأجاب أمين: "من؟ أهلاً سيدتي هل أستطيع أن أخدمكِ بشيء؟

– طبعاً... وشيء مهمٌ جداً، وإلاّ لم أتـــّصل.

– تفضّلي...

– عرفتُ أنك شابٌ مؤدّب وخجول، والشّاب المؤدّب يسمع الكلام، أريدك أن تسمع كلامي دون أن تنسى منه أيّ كلمة واحدة وتطبّـــقه بالحرف الواحد، فأنا جادّة ولا أحبُّ الاستهتار بكلامي أسمعت أم أعيد؟

– لا سيدتي سمعت، تفضّلي أكملي.

وبدأت كلامها بلهجة قاسية ونبرة غضب: "ريم...انساها وامسحها من تاريخ حياتك ومستقبلك، يا ولد لا أريدك لابنتي ولا يسعدني نسبك، ولا يهمّني أمرك أبداً...!

وأنا لي حريّـــة اختيار العريس المناسب لها، فأنا قمتُ على تربيتها وسهرتُ عليها اللّيالي لأفرح بها عندما تكبر وتصبح عروساً، ولستُ لأرميها لأيِّ أحد يمرُّ على بابها، إيّـــاك والعودة والحديث معها، ولا أريدك حتّى زميلاً لها، اختفي من حياتها تماماً... لا تريها وجهك في الجامعة، أفهمت؟

فأجابها أمين بقلق وحيرة: يا سيّدتي...أنا...أحبــــــــــــــــــــــــ

قاطعته بعصبيّـــة وقالت: لا تبرّر هذا الموقف السّخيف، الحبّ يأتي ويذهب مثل الفصول الأربعة، كفاكما هراءً... وستنفّذ ما قلته لك الآن، وإيّـــاك يا أمين أن أعرف أنك مازلت على علاقة بابنتي، ستندم ندماً شديداً طيلة حياتك، وإيّـــاك أيضاً أن تخبرها أنني تكلّمت معك هاتفيّاً وإلاّ ستلقى ما لا يعجبك، لا تضطرني لاستخدام أسلوب آخر غير لائق معكما أنتما الاثنان، أفهمت؟

صمت أمين على الهاتف متفاجئاً من كلام السيّدة هند القاسي والجارح، لم يعرف كيف يردّ عليها وشعر أنَّ حبّه قد هدمه زلزال مدمّر، وهبط اليأس عليه، ومن كلامها هرب الحبُّ من قلبه خوفاً، وعانق غيمة باكية في السّماء، حتى قال في نفسه: "سأهرب منكِ يا ريم خوفاً عليكِ". أمين صامت والسيّدة هند ما تزال تنتظر جوابه فقالت له: "أمين... لم أسمع جوابك بعد، أريد الجواب القاطع".

فأجاب بصوت حزين وهادئ: "سيّدتي كوني واثقة أنني منسحب من الآن"، وقال في نفسه: "إنني أكره الاستسلام مع الهزيمة المؤلمة".

– "هكذا أفضل لمصلحتكما... أشكرك". وأغلقت الهاتف من دون سلام ولا تحية.

أغلق أمين الهاتف وجلس دون حراك، وحتّى من دون تفكير وكأنَّ تفكيره قد شلّ، فأطفأ الضَوء المركون بجانبه في غرفة الجلوس، وأخذ ساقيه وضمّهما لصدره ووضع رأسه على ذراعيه الملفوفتين حول ركبتيه، لا يريد أن يرى الأشياء من حوله، ولا يريد التفكير بشيء، ماذا يفعل؟ كيف يتصرّف وهو يعيش ويتنفّس من هوى الحبّ، كيف يتركها وقد حلف لها

بأنه لن يقترب أبداً من حافّـــة الفراق؟ الاستسلام صعب؛ لأن الحبَّ ما زال مشتعل، لكن الظّروف أصبحت فوق كلِّ شيء، تضع القلوب تحت الأمر الواقع، والحبُّ تحت وطأة الألم، ومُدَّتْ لهم سجّادة الحزن الحمراء التي توصل إلى منحدر تكثر به أشواك تقف وقفة الورود، فيا لها من ظروف!!

طرقت الخالة علياء باب منزل أمين، سمع الباب لكنه بقي جالساً كما هو في الظّلمة دون حراك، وعادت مرّة أخرى ودقّت الباب، وعندما رأت أنَّ أمين لم يفتح ولم يُجب، فتحت هي الباب تريد أن تطمئنَّ عليه، وترى إن كان بحاجة شيء، فهي معتادة على الدّخول عنده للاطمئنان على صحته خوفاً من أن يكون قد أصابه شيئاً، وفعلاً فتحت الباب ودخلت وأضاءت النّور في غرفة الجلوس فتفاجأت من جلوسه منطوياً على نفسه هكذا وبالظّـــلمة.

– أمين... لماذا تجلس هكذا وفي الظّلام، لقد أخفتني.. ماذا تفعل؟ أأنت نائم، أم ماذا؟

لم يجب أمين، فقط رفع رأسه ونظر إلى خالته.

جاءت وجلست بجانبه وقالت له: "ما بك يا أمين؟ أمتعب أنت...! لقد طرقت الباب، اعتقدت أنك نائم... تكلّم معي يا أمين ماذا جرى!

– لا شيء... أجاب أمين بكل هدوء وبرود مع نبرة حزن.

– يا حبيبي... لـــمَ عينك حمراء هكذا؟... أكنت تبكي؟

– لا، أشعر فقط بالتعب.

– أخبرني يا عزيزي، ما بك حزين وعلى غير عادتك؟ ربما استطعت مساعدتك.

– خالتي أرجوك اتركيني وحدي، لن يستطيع أحدٌ مساعدتي.

– هل تكلّمت معك ريم على الهاتف؟

– كلا.

– أيعقل أنها لم تتكلّم؟ لقد اتّصلت حوالي السّاعة الثامنة مساءً، وأنت لم تكن في البيت.

– أحقاً خالتي، وكيف عرفتِ؟

– عندما جئت أحضر لك طبق المعجّنات، رنّ الهاتف إذ بها ريم، فقلت لها أنك لست هنا، وقالت أنها ستكلّمك على الخلويّ.

– صحيح يا خالتي، شكراً على المعجّنات اللّذيذة، لقد تناولتهم على العشاء.

– عفواً يا حبيبي صحّة وعافية، لكن ما بك أخبرني؟

– أم ريم اتصلت معي قبل قليل...

– أم ريم؟؟

– وباختصار كان كلامها قاسياً وأمرتني أن أترك ريم وألا أكلّمها ولا حتى أفكّر بها، فهي لا تريدني لابنتها، وأنا في حيرة تامّة أشعر أني مقيّد ولا أعرف التصرّف ولا إنقاذ الموقف، ماذا قالت لكِ ريم يا خالتي؟

– لم تقل شيئاً محدداً، فقط سألت عنك.

– آه... كم أنا متعب ومهزوم، أحبها خالتي، كيف سأتركها... كيف؟ أريدها زوجتي.

– يا أمين يا حبيبي، أنت الآن ما زلت صغيراً والمستقبل أمامك، والفتيات الجميلات يملأن الأرض، لن تقف الدّنيا عند فتاة محدّدة، وستجد من تحبّها وتحبك في الأيام القادمة... لا تعلّق حياتك بفتاة واحدة، وتشعر باليأس والهزيمة من التجربة الأولى التي مررت بها، فالحياة مليئة بالتجارب الحلوة والمرّة، ويجب أن تخرج من كلّ تجربة وأنت مسرور لأنك حتماً ستكون قد استفدت من شيء ما في نهاية التجربة.

– لا مستحيل، لا يجوز أن يستهتر الإنسان بمشاعره وأحاسيسه ويضعها في تجارب الحياة، لأنّ المشاعر ليست للتجربة، فهي رقيقة وحسّاسة وأيَّ خلل في التّجربة سيجعلها تخدش أو تفقد طعماً من حلاوتها، وإذا فقدت الأحاسيس جزءاً منها، لم يكن للحبِّ طعماً في المرّة القادمة بلذّة الطّعم الأوّل من الحبّ، لأن جزءاً ما يكون قد مات.

– لا يا عزيزي، الحبُّ في كلِّ مرّة له طعم مميّز ومختلف، وإلا لما كان للإنسان أن يحبّ مرّة واثنتان وثلاثة واستطاع التعايش مع الحبّ في كل مرّة وبطريقة ومختلفة، ونسي الماضي.

– هذا لأنه يريد إرضاء نفسه بأي طريقة والسكوت عن أحاسيسه التي فُقدت وضاعت مع كل حالة حبٍّ كان يعيشها في مراحل مختلفة.

– المهم يا أمين، هذه هي الحقيقة ولا نستطيع تبديلها، والدة ريم لا تريدك لابنتها، هل نضع الحزن أمامنا ونسير معمياً على عيوننا وقلوبنا؟ أم نحاول أن نرى الحياة بمنظور آخر؟

– وأين هذا المنظور؟

– عليك الآن أن تأخذ الحبّ وتضعه جانباً، احتفظ به في خزانة الزّمن حتى يحين وقته، فستخرجه ليرى النّور يوماً، وبهذه الطريقة لن تكون قد أضعته ولا خدشت سطح الحبِّ الجميل الناعم.

– وكيف ذلك... ما قصدك؟

– أنت الآن يا أمين في وقتٍ غير مناسب للحبِّ وللزّواج، فأمامك دراسة وتخرّج والبحث عن الوظيفة والعمل، فإذا...

قطعها أمين قائلاً: "لا أريد الزّواج الآن حتماً بعد التخرّج، لكن أطلب فقط الموافقة عليّ ليرتاح بالي".

– حتى الموافقة الآن صعبة، صعبة يا أمين على أهل الفتاة أن يوافقوا على أيِّ شابٍ بهذه السّهولة في هذا الوقت؛ لأنهم يعلمون أنَّ ابنتهم ما زالت طالبة وأمامها عمل كثير لانجازه قبل الزواج، مثل الدّراسة والتخرّج، وبعدها سيفكّرون بأمر الزّواج، فيا أمين أهل الفتاة يخافون كثيراً على ابنتهم ويغارون عليها من أيِّ شاب سيحبّها ويطلبها للزّواج، لأنهم يشعرون أنَّ هذا الشاب قد أخذها منهم، فيضغطون عليه بطريقة أو بأخرى لمحاولة إبعاده، خصوصاً أنها ما تزال صغيرة في سنِّ الدّراسة، وما عليك فعله هو أن تؤجّل الحديث عن الحب والزواج الآن لما بعد التخرّج، وتعود الأمور لمجاريها... ريم فقط زميلة في الجامعة ومن بعيد، لكي لا تشتعل نار الحبِّ وهي قريبة منك، حاول أنت الابتعاد هذا لمصلحتكما يا أمين... وبعد التخرّج سنطلب الفتاة من أهلها بطريقة رسميّـــة، عندها سترى والدها أنك فعلت ما أمرتك به، وبعد هذه

الفترة جئتها طالباً ابنتها بشكلٍ لائق، وسأذهب أنا في البداية أخطبها لك من والدها، وقتها لن تستطيع أن تمانع أمها إذا كانت ريم ما تزال تحلم بك كزوج المستقبل.
– ويا خالتي لنفرض أنها فقدت حبّها مع الأيام بسبب البعد، لأنّ في البعد جفاء.
– ولنفرض أنكما ما زلتما على علاقة، لربما يحصل هناك فتور أوملل في الأيام المقبلة، وسيتحوّل الحبُّ إلى جفاء أيضاً، حرام أن يكون بينكما علاقة وفي النهاية تُهدم لأصغر الأسباب؛ لأنها حتماً ستكون مؤلمة، والله لا يرضى عن هذه العلاقة المُعلّقة ومن دون رابط شرعيّ، أما ما قلته لك عن موضوع التأجيل فهو الحلُّ الأنسب؛ لأنَّ الحبَّ سيبقى في شوقٍ وانتظار وأمل أن تمضي السنين ويجتمع القلبان، والباقي ستتركه لربِّ العالمين إذا كان لك نصيبٌ في هذه الفتاة فإنَّ ظروف الدّنيا كلَّها ستقفُ متكاتفة الأيادي وتقدّم لك هذه الفتاة زوجة لك، أما إن لم يكن هناك نصيب كتبه ربُّ العالمين، فإن الدّنيا كلّها ستقف ضدّ هذا الزّواج لتمنعه، وقتها ستعرف أن لا نصيب لك فيها، فعليك أن تتحلّى بالصّبر ولا تعارض حكم الله تعالى، لذا لا تحزن ولا تيأس وفوّض أمرك لله يا عزيزي، فكلّه مكتوب عنده مهما حاول الإنسان من معاركة الزّمن وسباقه فإنَّ المكتوب لا هروب منه، وأنت شابٌّ مؤمن وتصلّي صلواتك وتخشى الله فتوكّل عليه، وقم الآن ونم لأن الوقت تأخّر جدّاً.
– خالتي، هل لي أن أقبّـــل رأسك؟
ضحكت خالته وقالت: "لماذا...؟"
– لقد أرحتني وشعرت أنني أقوى؛ لأن هاتف السيّدة هند قد هدَّ قواي وشعرتُ أنَّ اليأس سيقتلني، لكن بكلامكِ هذا شعرتُ بالأمان، وتذكّرت أنَّ كلَّ شيء نصيب كتبه الله، سأدعو الله أن يجمعنا على الخير، وسأفعل بنصيحتكِ.
– وتذكّر يا أمين، يجب عليك ألاّ تُعرّض نفسك للتوتّر والقلق النفسيّ، فهذا يؤثّر على صحتك، حاول دائماً أن تكون هادئاً ولا تضغط على نفسك، فمشوار الحياة طويل... تخطّاه بكلِّ عزم وإصرار، وواجه الأحزان والمصاعب بكلِّ جدٍّ، ولأنَّ في قلبك أملاً مختبئاً لا تدعه ينطوي مع الأيـــّـــــام بل أخرجه؛ لأنَّ الأمل يجعلك أقوى وأفضل.
– حسناً خالتي، لكن المشكلة كيف سأواجه ريم غداً؟
– فكِّر بطريقة سلسة بعيدة عن التعقيد واضبط أعصابك، ولا تزعجها أو تغضبها.
– نعم، هذا مؤكّد...

الفصل التاسع عشر

وصلنا للأسبوع الأخير من الامتحانات النّهائيّـــة للسّنة الثانية في الجامعة...

ريم تجلس في الاستراحة مبكّراً حوالي السّاعة التّـــاسعة وبجانبها أختها رندة، لقد أوصتها والدها بالذَّهاب مع ريم لمراقبتها اليوم إذا كانت ريم ستكلّم أمين أو ستجلس معه.

– لم يأتِ أمين بعد يا ريم، أليس كذلك؟

– آخ.. لا أعرف لماذا تأخّر؟ أرجوكِ يا رندة أريد الجلوس مع أمين، ولو لعشر دقائق لأخبره عمّـــا جرى البارحة بيني وبين أمي ولن أكلّمه بعدها.

– بشرط أني سأخبر أمي أنكِ جلست عشر دقائق معه.

– لا تكوني قاسية عليَّ هكذا، أتعملين بالمخابرات؟!! سأخبره بأننا يجب أن ننهي علاقتنا الوهميّـــة هذه.

– إذن سأجلس معكما وأسمع ما تقولين بالتحديد؛ لكي لا تخرجي عن الخطِّ الأحمر.

– بالأصل أنا لا أخرج عن الخطِّ الأحمر وكلامنا لا يتعدّى الحديث عن الحياة والدّراسة، وأمور عاديّـــة أخرى.

– ما المشكلة سأجلس معكما.

– حسناً... أفوّض أمري إلى الله.

تقصّد أمين التأخّر...! ولم يأتِ كالمعتاد ليجلس مع ريم في الاستراحة مبكّراً، بل جاء على موعد الامتحان تماماً ودخل القاعة على الفور، لكنَّ ريم شعرت بالحزن وقلقت عليه، فليس من عادته التأخُّر عليها، كما أنّها لا تعلم بالحديث القاسي الذي دار بينه وبين والدها ليلة أمس.

ذهبت ريم إلى قاعة امتحانها ورندة كذلك، واتّـــفقـــتا أن تلتقيا في الاستراحة بعد الامتحان.

خرج الجميع من قاعات الامتحانات والمعظم توجّه إلى الحافلات للذّهاب لبيوتهم، والبعض ذهب إلى الاستراحة لتناول شيء ما، والجلوس مع الأصدقاء. ركضت ريم إلى مبنى قسم الهندسة فوجدت ديالة وهاني قد خرجا للتوّ، سألتهما عن أمين، فأخبرها هاني أنـــّه خرج من خمس دقائق وربّما وصل للاستراحة، فأخذت ريم تسرع إلى هناك تريد اللّحاق به خوفاً من أن يغادر، فدخلت الاستراحة وأصبحت تتلفّت يميناً ويساراً بحثاً عنه، فأشارت لها أختها من بعيد تعالي، فذهبت إليها وسألتها: "هل رأيتِ أمين دخل إلى هنا يا رندة؟"

– كلاّ أبداً لم ألمحه، وبقية أصدقائك يجلسون هناك... وأشارت إلى طاولة تبعد حوالي خمسة أمتار، كان يجلس حولها أسامة ورامي ونسرين.

– سأذهب وأسألهم عن أمين وأعود وأجلس معكِ.

وفعلاً ذهبت ريم إلى أصدقائها وقالت لهم: "كيف حالكم؟"

– أجابها رامي: الحمد لله، اجلسي معنا، لـــمَ أنتِ واقفة؟

– أنا أبحث عن أمين هل رآه أحد؟
– لقد خرجنا سوياً، لكن في الطّريق صادفتنا منال فاستأذنتني بالحديث معه وحده؟
وفعلاً ذهبتُ و تركتهما.
– ماذا تريد منال من أمين الآن؟
– لا أعرف، انتظريهما هنا.
– حسنا سأنادي أختي لتجلس معنا.

وبعد عشر دقائق جاء أمين وبجانبه منال، يسيران معاً ووصلا إلى الطّاولة المعهودة، فسلّم أمين على الجميع سلاماً عاماً ولم يخصّ أحداً ولا حتى ريم، فجلس بعيداً عنها بجانب أسامة، ومنال جلست بجانبها، فسألتها ريم: بماذا كنتِ تتحدّثين أنتِ وأمين؟

أجابتها منال بلهجة اللؤم: "لا شيء...موضوع يخصّني، لا أريد أن أُشرك به أحداً".
– أنا صديقتكِ يا منال لـمَ تكلّميني هكذا؟
– ربما لأنكِ أصبحتِ إنسانة أنانيّة وانطوائيّة...ولم تعودي تجلسي معي كالسّابق ولا حتّى تشكي لي همومكِ أيضاً.
– لا يا منال أنتِ مخطئة، أنا لست كذلك.

وقفت ريم وذهبت عند أمين لتكلّمه وتخبره عمّا جرى معها ومع والدها البارحة ليلاً، وتبرّر له لماذا لم تستطع الاتّصال به فقالت له: أمين، البارحة حصل معي شيء، وأريد أن أخبرك به؟ هل نجلس في مكان آخر؟
– أجابها أمين بجفاف: "مرّة أخرى يا ريم، فأنا أريد الذّهاب الآن". ووقف أمين واستعدَّ للذّهاب.
– لماذا...؟ كنت جالساً...! الآن تذكّرت أن تغادر؟ أريد أن أكلّمك عشر دقائق فقط لن أُأخرك.

نظر لها أمين بعيون قلقة وهزَّ رأسه بالرّفض، وقال لها: "آسف لن أستطيع اليوم، ليس لدي رغبة بسماع شيء، غداً أنا الذي أريد أن أكلّمك بموضوع ما، سنجلس ونتحدّث ونحلّ الإشكالات ونضع النّقاط والفواصل بين جمل حياتنا المتشابكة غير المفهومة، إلى اللّقاء الآن"، وذهب فبقيت ريم تنظر إليه وهو يغادر وهي تشعر بالقهر والغضب، والتفتت إلى منال وقالت لها: "ماذا قلتِ له حتّى تغيّر هكذا؟ لا يريد الحديث ولا الجلوس معي... ماذا فعلتِ له؟"
– أنا...! لم أفعل شيئاً، ولم أقل له شيئاً يخصّك، لا تصرخي عليَّ هكذا وأبعدي نظركِ عني.
– ما الذي جرى بعدما كلّمته؟ البارحة كان يعشقني، واليوم لا يريد محادثتي ولا حتى الجلوس معي، إنه يتهرّب مني...

فقال رامي: "لا يا ريم، لا تفاقمي الموضوع ربما هو متعبٌ اليوم أو أنَّ لديه أموراً يجب عليه القيام بها، لذا هو مستعجل لا تضعي اللّوم على أحد".
– إذن ما قولك عندما قال لي: "سنحلّ الإشكالات، ونضع النّــقاط و الفواصل بين جمل حياتنا...؟ أجب يا رامي هيّــا...!
– ربّما يا ريم يوجد أمور صغيرة عالقة يريد أن يوضّحها لكِ، لا تقلقي...

فعادت ريم ونظرت لمنال وقالت لها: "إن كان لكِ يد في الموضوع يا منال فستندمين كثيراً...

– أرجوكِ لا تتّهميني بشيء، لم أقل شيئاً يضرُّ بأحد...، أنتِ التي ستندمين إذا بقيت هكذا.

وعاد كلّ الأصدقاء إلى بيوتهم ليكملوا نهارهم بالدّراسة للامتحان التالي. ريم تضع الدّفاتر والكتب أمامها، تارة تدرس وتارة تشعر بالقلق وتفكّر بأمين، وتتكهّن بالحوار الذي دار بينه وبين منال. "يا ترى ماذا قالت منال لأمين؟ لـــمَ رفض الجلوس معي...أهو يتهرّب؟ ولا حتّى منال أرادت أن تخبرني؟ ماذا يجري يا ترى؟"

وأمين كان يدرس أيضاً، فتذكّر ما دار بينه وبين منال من حديث:

...جاءت منال لأمين وهو خارج من قاعة الامتحان وبجانبه شقيقها رامي.

فقالت: "كيف حالكم يا شباب؟"

أجابها رامي"الحمد لله، كيف كان امتحانكِ؟"

– جيّد جداً، من بعد إذنك يا رامي، أتسمح يا أمين؟ أريدك بموضوع.

فأجابها أمين: "نعم تفضّلي..."

ومشى أمين معها ليعرف ما هو الموضوع: "تفضلي يا منال، أنا أسمعكِ"

– يا أمين... ربّما هو ليس بالشيء المهم بالنسبة لك... لكن بالنسبة لي فهو موضوع مهمٌ وكبير... ربّما تعتبرني جريئة أو ربّما تقول أني وقحة، لكن أنا... أريد أن أشكي لك همّي...لربما تستطيع مساعدتي أو ربما لا، أو ربما ستكرهني من تصرّفي هذا، لكن أنا سأرتاح إذا قلت لك ما أخفيه.

– نعم... تفضّلي.

– هل تعدني أن لا تغضب مني؟ ولا تهزأ بي!

– لا... هيّـــا قولي، مستحيل أن أهزأ بكِ.

– أمتأكد؟ وتعدني من أن تتقبّـــل الموضوع بروح رياضيّـــة؟ مهماً كـــــــــان؟؟

– طبعاً... هيّـــا تكلّمي... ما بكِ؟

– أنا خائفة من البداية.

– أيّ بداية؟

– بداية الموضوع، فهو مخيف...أتعدني أن لا تغضب؟

– لا إله إلا الله، أفّ...تكلّمي وخلّصيني، لن أغضب صدّقيني مهما يكن الموضوع، هيّـــا...

– "أنا يا أمين.... بصراحة ومن دون مقدّمات، هكذا..لا...أعرف (وأدارت بوجهها المحمرّ) ربّما إعجاب أو نوع من...يعني لالا شيء..." وهي مرتبكة وتتصبّب عرقاً.

ابتسم أمين ابتسامة عريضة وقال لها "أهذا هو الموضوع المخيف؟ ما كان هناك داعٍ لكي تقولي هذا وترهقي نفسكِ، فأنا أعرف ما تودّين قوله".

– أتعرف..! كيف؟

– الشّخص الذي يحب يفضح نفسه دائماً بتصرّفاته، ومهما حاول إخفاء ذلك لن ينجح.

- إذن ماذا؟
- ماذا؟ بخصوص أيِّ شيء؟
- بخصوص هذا الكلام يا أمين.
- انسي يا منال...انسي، يكفينا أوجاع، بصراحة لا ينقصني أنت أيضا.

حزنت منال وقالت: كنت أريد مجرد إخبارك لأرتاح.

أنهى أمين تذكّره"أوووف يا منال، ليس وقتك حالياً". وعاد إلى جلسته للدّراسة، وبعد فترة شرد ذهنه في ما سيقوله لريم، وما ردّة فعلها ستكون غداً.

طرقت خالته باب منزله ومعها يزيد، ففتح لها أمين: "أهلاً خالتي تفضّلي، كيف حالك يا يزيدو؟"

أجاب يزيد الصغير: "الحمد لله، لماذا يا أمين لا تلعب معي، تعال والعب معي مثل الأيام السابقة، اشترى لي أبي طائرة كبيرة لها أضواء وصوت عالٍ ".

أجابه أمين"حسناً يزيد، سآتي بعد ساعة...آخذ قسطاً للرّاحة من الدّراسة وألعب معك بالطائرة".

ودخلت الخالة إلى غرفة أمين تريد أن تساعده في أعمال المنزل لأنه في فترة امتحانات، فقالت له: "أمين أعطني ملابسك التي تحتاج إلى كيّ أكويها لك".

- لا خالتي شكراً، سأكويها أنا بنفسي فيما بعد.
- ماذا أساعدك إذن؟
- لا شيء، أنتِ تعرفين أنني أحبُّ أن أرتّب كلّ أموري بنفسي.
- أنت في فترة امتحانات يا أمين، ولن تستطيع تدبير كل هذه الأمور بمفردك.
- خالتي لا تقلقي... أستطيع.
- حسنا سآخذ الملابس المتّسخة وأغسلها.
- الغسيل لا يتعبني... فالغسّالة الكهربائيّة لا تقصّر في عملها معي، اتركيهم ولا تتعبي نفسكِ بهم.
- لا... سآخذهم وأريحك منهم، وأغسلهم وأحضرهم لك فقط لتضعهم في الخزانة.
- يا خالتي، لا داعي... لا ينقصكِ أعمال إضافيّة فلديكِ ما يكفيكِ.
- أنا أرغب في المساعدة، أقدّمُ لك عرضي فلا تفرّط به.
- حسناً، لكن فقط هذه المرّة.

وبدأت الخالة تُلملم الملابس المتّسخة والشراشف ووجوه الوسائد، وعاد أمين لدراسته فجاءه يزيد وقال له: "أتحبُّ الطّائرات يا أمين؟"

فأجابه أمين: نعم، أحبّها جدّاً.

- هل كان لديك طائرة مثلي وأنت صغير يا أمين؟

نظر أمين ليزيد الصغير وتنهّد في سرّه، وقال له: "أذكر مرّة يا عزيزي أنّ والدي بعث لي بهديّة وكانت سيّارة جميلة ولها أصوات وأضواء ملونة، وأحببتها جدّاً وكنت أحافظ عليها كثيراً".

– وأين هي الآن؟
– صدّقني يا حبيبي لا أعرف ولا أدري من أخذها، ربما تعطّلت...

وسرح أمين في ماضيه الطفوليّ المحروم، وتذكّر كم تمنّى أن يكون لديه ألعاباً خاصّة، بغرفة تكون مليئة بألعابه وألوانه وقصصه. فترك أمين دراسته وقال ليزيد: "تعال يا عزيزي لنلعب بالطّائرة معاً، هيّـــا اذهب وأحضرها هنا". وفعلاً ذهب يزيد مسرعاً إلى بيته وأحضر الطّائرة ومعها قطع أخرى مثل جنود صغار وأدواتٍ حربيّـــة صغيرة وجسور بلاستيكيّـــة، ووضعهم أمام أمين، وقال له: "هيّـــا يا أمين ركّب لي القطع لنلعب سوياً"، أخذ أمين القطع يتأمّلهم قطعة قطعة، لحبّه الشّديد للألعاب، وليتعرّف على كيفيّـــة تركيبهم أيضاً.

أمين شاب حكم عليه القدر أن يعيش بقلب طفل، لكن الحقيقة هو شابٌ طفل، دائماً كان يشعر أنَّ بداخله طفل صغير يتمنّى أن يخرج ويلعب مع الأطفال، ويشتري سيّـــارات صغيرة وقطع حلوى ومفرقعات. كان يفرح بحزنٍ عندما يرى أباً يُمسك بيد صغيره ويأخذه للمتجر لشراء بعض الحاجيّات والحلوى، يشعر للحظة أنه ذلك الطّفل، ويعود للوراء بذكرياته فيدرك أنه حلم لن يستطيع أن يعيشه رغم بساطته.

أخذت خالة أمين الملابس وأرادت أن تخرج، فوجدت أمين يلعب مع يزيد فقالت له: "أراك تلعب مع يزيد وتركت دراستك؟"

– لا بأس يا خالتي ساعة لعب لن تعيقَ مستقبل حياتي. لم نلعب أنا ويزيد منذ فترة...
– أخبرني يا أمين ماذا دار بينك وبين ريم اليوم؟
– لا شيء أبداً، لم أفتح المجال للحديث بشيء.
– ولماذا؟ ألم تكن تريد حلَّ الموضوع؟
– نعم لكنني أحسست بالخوف من مواجهة الموقف... فتهرّبت...
– لا تكن جباناً يا أمين، وكن على قدر المسؤوليّـــة.
– لا لستُ جباناً... لكن لم أكن مستعدّاً للنقاش الطّويل، غداً إن شاء الله سأحاول وضع النّقاط على الحروف.

بعد ربع ساعة أخذت علياء ابنها من عند أمين ليكمل دراسته، فركض أمين لغرفته وأحضر دفتره الخاص قبل أن تطير الأفكار من رأسه، وسرح بخياله وبدأ يكتب ما بقلبه:

أكنتِ وردةً حمراء قُطفت فاصفرّت مع الأيام!
يا أيام الحبِّ هيا، اذهبي لبعيد، لم يعد هناك أحلام...
فمشواري طويل متعبٌ... لا بدَّ أن أُشَمِّر الأكمام...
ساعات ستمضي بل أيام وأشهر... وكثرة أرقام
أحسبها في غيابكِ وأعدّها... دون استسلام
فيا ربِّ إني صائم، فما ثواب المغروم إذا عن الحبِّ صام؟!
سأنتظر وعداً قطعته على نفسي، وألقاكِ بعدها...ولَيحلو الكلام
فمن الآن إلى وقتها... لكِ كلُّ محبّتي وتحيّـــتي واحترام.

وفي النهاية قال في نفسه: "هذا الذي سيحصل غداً بالتحديد"

***

أنهى أمين امتحانه وذهب مسرعاً إلى كليّـــة الآداب ينتظر ريم، فوقف قليلاً يتحدّث مع أسامة لقد وجده خارجاً للتوِّ من الامتحان. خرجت ريم من الامتحان تبكي، فذهب أمين إليها، وقال لها: "ما بكِ يا ريم...! لـــمّ هذه الدّموع؟"

– ربما سأحصل على علامة صفر في الامتحان.

– بسيطة ...

– لم أدرس جيّداً البارحة لقد كان فكري مشغول طيلة الوقت وأنت السّبب، لماذا تتعبني هكذا؟

– تعالي أريد أن أحدّثك بشيء مهم سيريح فكركِ وبالكِ، وستشعرين بالاستقرار بدلاً من هذا التشتّت.

– في البداية قل لي لـــمَ كنت البارحة سيّء المزاج؟

– لا أبداً، بل كنت أفكّر بموضوع ومتعب من شدّة التفكير لا تقلقي، ما رأيكِ أن نجلس في قاعة الحاسوب سنتكلّم بصوتٍ منخفض، وفي نفس الوقت سأبحث عن كتب في فنِّ هندسة العمارة الإسلاميّـــة الأندلسيّـــة من الإنترنت لكتابة تقرير هندسيّ مطلوب منا في آخر امتحان.

– هيّـــا بنا....

– امسحي دموعكِ، لا أريد أن أضعف أمام أجمل عيون.

وذهبا الاثنان إلى قاعة الحاسوب، وشغّل أمين الجهاز ثمَّ بدأ بكلامه: "حياتنا يا ريم هكذا بدون أن نرى المستقبل واضح أمامنا، ستكون كالشّخص الذي يسير في العتمة لا يرى أمامه أصبعه، فطريقه غير آمنة؛ لأنه سيتعرقل بمئة شيء يعترضه، فحبّكِ في قلبي محبوس لا يستطيع الخروج، وسأحافظ عليه ما حييت، وأعدك أن أكون مخلصاً لهذا الحبِّ الذي أصبح أسيراً لديَّ، لن أقول لكِ يا ريم هذه مرحلة فراق، لكن هذه تعتبر فترة هدنة، فأنتِ تعبتِ وأنا كذلك، لا بدَّ لنا أن ننتبه لأنفسنا ولدراستنا، فالوقت يمرُّ دون أن نشعر، وها أنتِ لا تنعمين بالرَّاحة، والقلق الدّائم والتفكير يسيطران عليكِ، بقيت سنتان لكِ وتتخرّجين وأنا ثلاث سنوات؛ لأن الهندسة– كما تعلمين– خمس سنوات، فلنحاول أن نستغلَّ السّنوات المتبقية لصالح دراستنا ونخطّط لمستقبل ناجح.

– يبدو عليَّ أنني فهمتُ قصدك قليلاً، لكن وضّح لي أكثر، ماذا تنوي أن تفعل؟

– من اليوم وإلى نهاية أيّـــام الجامعة نحن زملاء دراسة وحسب، لا اتّصالات هاتفيّـــة، ولا حتّى الجلوس على طاولة وحدنا... سنجلس مع باقي الزّملاء.

– نحن نادراً ما نجلس منفردين على طاولة ودائماً نكون مع باقي الأصدقاء.

– أعرف، لكن سنلغي هذا الموضوع كليّـــاً، ونعود للوراء إلى السّنة الأولى من الجامعة، حيث كنّـــا لا نعرف بعضنا أبداً، سوى أنكِ زميلة لي بالجامعة.

– وماذا بعد؟

– آه.... سألتيني ماذا بعد؟ عند انتهائنا من المرحلة الجامعيّـــة –إن شاء الله– على خير، سأرسل خالتي لتطلب يدكِ من والدتكِ كخطوة مبدئيـــّـــة، وعندما ترى والدتكِ أنَّ الموضوع جديّ، وأننا قد تخرّجنا والتزمنا بما كان يرضيها، وأصبحت أعمل في مجالي، ربّما تُغيّر نظرتها عن الموضوع وتوافق.
– أتعتقد ذلك ممكناً؟
– نعم بالتأكيد، الآن والدتكِ ترفضُ لأنَّ الوقت ليس مناسباً للحديث بموضوع الحبَّ والزّواج، وبما أنكِ ستنتبهين الآن إلى دراستكِ وتنسَين هذه الأمور إلى فترة معينة، فإنَّ أمكِ ستلاحظ الفرق وَتُسَرُّ لهذا التغيير، فمن المؤكّد أنها ستوافق فيما بعد على زواجنا؛ لأنّ بعض العوائق تكون قد اختفت.

سكتت ريم وسرحت في خيالها، وقالت في نفسها:"بعض العوائق اختفت!! كيف ذلك؟ وأمي تعتبر أمين نفسه عائقاً وترفضه كليّـــاً، من الصعب أن أخبره أنه هو في حدِّ ذاته مرفوض" وأخذت نفساً عميقاً وتنهّدت.
– ما بكِ؟ أين ذهبتِ في خيالكِ؟
– لا أعرف، ربّما كلامك منطقيّ، لكن أمي ليست سهلة ولن توافق بسهولة، فما أن ننتهي من عائق، سترصد لنا عائقاً آخر، حتّى تسدَّ علينا الطّريق.
– أنتِ يا ريم التي كنتِ تشجّعيني على الاستمرار، ما بكِ الآن؟ وسألتكِ قبل مرّة عن ظروف الحياة قلتِ لي: لا مشكلة سنواجه كلَّ الظّروف، أتذكرين يا ريم؟
– نعم أذكر، لكن في كلِّ وقتٍ الوضع يختلف، فالحياة هي التي ترسم لك مخطط حياتك، ويجب أن تتّبع هذا المخطط، وإذا خرجت قليلاً عن مخطط الحياة فربّما ستُهلك، فلا أدري كيف سنتصرّف في الأيام القادمة وبعد التخرّج، وبأيِّ أسلوب سأكلّم والدتي؟
– دعي هذا الموضوع إلى حينه، لا نريد أن نتباحث به الآن...لكلِّ حادثة حديث –كما يقولون– والله يقدِّر لنا أمور الحياة وليست الحياة التي ترسم مخطّط حياتنا.
– يا أمين سننفّذ خطّتك الجديدة، وسأحفظ حبّك في قلبي ولن أخرجه إلا بعد التخرّج، وأنت كذلك.
– اتــّفقنا يا ريم وها نحن الآن مقبلون على عطلة صيفيّـــة فلا تحاولي الاتّصال بي ولا حتى بخالتي. سأضيف إلى جدولي بعض الموادِّ الدّراسيّـــة في الفترة الصيفيّـــة من الجامعة، وسنكون في منتهى الجديّـــة، عديني.
– حسناً يا أمينو، أنا موافقة وسأعدك أن أكون قويّـــة ومنتبهة إلى دراستي، وسنضع الحبَّ الهدف الذي نصل إليه بعد التخرّج، أعدك...

ثمَّ تذكّرت ريم وقالت: "لم تقل لي ما دار بينك وبين منال البارحة من أحاديث"
– دعيها تقول لكِ هي، والحديث ليس بالشيء المهم بالنسبة لي، والآن يا ريم ومن هذه اللّحظة أقول لكِ وللحبِّ إلى اللّقاء حتى آخر سنةٍ في الجامعة، ولنجعل الحبَّ في إجازة طويلة ريثما ننتهي من واجباتنا الأساسيّـــة... هيّـــا إلى اللّقاء، اذهبي.

– أبهذه السّرعة؟

هزَّ أمين رأسه بنعم مع ابتسامة خفيفة، دون أن يتكلّم.

فوقفت ريم صامتة تنظر في عيون أمين البرّاقتين، وعيونها تتلألأ حزناً وكأنها ستبكي، وقالت له: "ماذا الآن؟"

– الآن... اذهبي، واتركي لي قلبي هنا ولا تأخذيه لأنني أحتاجه. هيّـــا... اذهبي من الآن وإلى وقتها سألقاكِ، وبعدها يحلو الكلام.

فمدّت ريم يدها لتسلّم عليه وتودّعه، فنظر أمين إلى يدها، وقال لها: "هذه أوّل مرّة تعطيني يدكِ لأسلّم عليكِ، أخشى إذا لمستها أن أُشحن بشحنات الحبِّ ولا أقدر على الفراق! اعذريني لا أستطيع. "

– هيّـــا، أأُبقي يدي ممدودة فترة طويلة؟ أم لا تريد السّلام عليّ؟

ضحك أمين وقال لها: "آسف لا أقصد"وسلّم عليها، وكأنّ الكفّان تتعانقان عناق الوداع، وكلّ واحدٍ كان ينظر في عيون الآخر ولا يستطيع الكلام، فالصّمت أقوى من البوح بالكلمة المحسوسة المصبوغة بالبُكم. فذهبت ريم وعيون أمين لم تستطع مفارقتها حتّى خرجت من قاعة الحاسوب، واختفت رغماً عن عيونه، لكن الأمل والحماس كان يسكنهما لأنّهما ينتظران فرحاً يجمعهما آخر المطاف، مع "لعلّ وعسى"يضعونها بين قوسين، كلّما تذكرا حبّهما الأسير.

فتح أمين آخر صفحة في دفتره ليكتب ما بداخل قلبه من كلام، يشعر أنه محبوس ومقيّد، يريد الإفراج عنه على الورق، فكتب:

أيا أسيراً مكبّـــلاً بالدّموع

قلبـــي من الفراق موجوع

موقوف عن الحبّ وعن الرّجوع

فمن سيروي عطشي وقد جفَّ الينبوع

والـــى متى سأصبر وأنا في حـــالة جوع

ســـأناضل حتى ولو لـــم يكن معـــي دروع

يا حبيبتـــي... لا أعرف لـــمَ عن حبّـــكِ ممنوع!

وبعد ذلك فتح دفتره ليكتب ويدوّن بحثه المعماريّ عن مدينة الأندلس، الذي جاء لأجله أيضاً.

الفصل العشرون

أيا عمراً يمضي فنكبر، ونمشي مع الأيام... في عيوننا فرح وفي قلوبنا حبٌّ مسكون للحياة والنّاس، وفي البداية حبُّ الله الذي علّمنا الحبّ وزرعه في قلوب البشر، ليكون رحمة ومودّة بين النّـــاس، فالحياة كتاب يحكي قصّة شعوب مختلفة، لكن المغزى واحد، وحياة الإنسان قصص وعِبر.

سنتان مضت بعد هدنة الحبِّ هذه، مما يعني أنَّ أربع سنوات من الجامعة انتهت ومشت مع الأيام، وبقي الحبُّ في إجازة كما اتّـــفق القلبان. وتخرّج عدد كبير من طلاب الجامعة، فأسامة حصل على معدل جيّد جيداً في كلية الآداب وتخرّج، وبقي يعمل عند السيّدة هند ريثما يجد عملاً في مجال دراسته؛ لأنه يبحث ويسعى على عمل يناسب مجاله منذ أن تخرّج.

أما منال فهي الأخرى حصلت على معدّل جيّد في كلية الآداب، وهي تبحث عن وظيفة مناسبة كمعلّمة مثلاً في مدرسة، وتحاول الآن أن تلتحق بدورة الحاسوب الشّاملة في الجامعة ؛ لأنَّ متطلّبات أيّ وظيفة في هذا الوقت تُحَتـــِّم على أيِّ موظَّف أن يكون حاصلاً على شهادة(ICDL) دورة الحاسوب بجانب شهادته الجامعيّـــة.

أمّـــا ريم فللأسف الشّديد، في السّنة الرّابعة كان معدّل تحصيل علامتها غير مشرِّف، فقد حملت مادّتين من الأدب، وعليها إعادتهما في السّنة الجديدة المقبلة، لم تكن ريم في حياتها مهملة هكذا، لكن الحبُّ أعمى قلبها كما يقولون، بل وأعمى تفكيرها.

أمّا الأصدقاء في كليّـــة الهندسة فجميعهم متفوّقين، بقي لهم السّنة الدراسيّـــة الخامسة ويتخرّجون، فبدأت هذه السّنة بكلِّ نشاط وحماس من الجميع؛ لأنهم يعلمون جميعاً أنّها سنة تخرّج، ولم يبقَ إلاّ القليل ليصبح كلّ واحد منهم مهندساً يُعتمد عليه.

جلس الأصدقاء في صباح أوّل يوم من هذه السنة على درج مدخل كلية الهندسة، أمين كان يجلس ومعه صحيفة يقرؤها، ديالة كانت واقفة عند حافّة الدّرج تحمل كتبها وتتحدّث مع هاني وكان جالساً بجانب أمين، أمّا رامي فكان يجلس أعلى من هاني بدرجتين يلعب بهاتفه الخلويّ، ونسرين كانت تتحدّث مع فتاة التحقت من جديد بالجامعة، وفي كليّـــة الهندسة أيضاً، تدعى (نيرمين) كانت في السنة الأولى وهي جميلة ومبهرة، لا يبدو عليها أنّها خجولة بل فتاة جريئة وقويّـــة الشّخصية، ملامحها جذّابة وحادّة. طلبت من نسرين أن تعرّفها على جميع أصدقائها، وبالفعل قامت وعرّفتها عليهم. من ثمّ عرض عليهم هاني الذّهاب للاستراحة.

– ما رأيكم بالذّهاب إلى الاستراحة لشرب شيء ما...؟ اشتقنا للجلوس هناك.

– أجاب أمين: "لا سنبقى هنا، لم يعد هناك وقت للذّهاب للاستراحة، فالمحاضرة الأولى ستبدأ بعد ربع ساعة". وطوى الصّحيفة ووضعها على حافّة الدّرج، وأخذ ينظر لبعيد، إذ يُفاجئ بقدوم فتاة لطالما اشتاق قلبه أن يراها، ريم تأتي من بعيد مبتسمة ابتسامة مشرقة كشمس ذاك النّهار،

وأرسلت شعاعها إلى صدر أمين فأصبح قلبه يخفق بسرعة من الفرح ومن رهبة الحبّ... أَللحبِّ رهبة؟ هكذا العشّاق يقولون.

– صباح الخير جميعاً...اشتقت إليكم كثيراً (ألقت ريم عليهم التحيّـــة بشوق ولهفة)

– الحمد لله، نحن اشتقنا لكِ أيضاً... أجابها هاني، ورامي كذلك... أمّا أمين فقام من مكانه ونزل عن الدرج ووقف بجانبها وقال لها "لم أتوقّع رؤيتكِ هنا وفي الجامعة، ومنذ الصّباح! ما الذي جاء بكِ؟ ألم تتخرّجي؟"

– ألست مسروراً برؤيتي؟

– جداً، ومتفاجئ أيضاً.

– يظهر أنكَ لا تعرف سبب مجيئي للجامعة، ألم تخبروه عن سبب قدومي؟

ضحك رامي وقال: "لا، لم يعرف السبب بعد"

وقف أمين مندهشا من الحديث المغمغم، البعيد عن كل البعد الوضوح، وقال لريم: "ماذا تقصدين؟ أيوجد سبب محدّد لقدومكِ إلى لجامعة؟ أم هي مجرّد زيارة عابرة؟"

– نعم يوجد، هو أنني حملت مادّتين أساسيتين في الأدب، لذا لم أستطع التخرّج في العام الدراسي الماضي، فَحُكم عليَّ الدّوام هذه السّنة ؛ لأعيد دراسة المواد لعلّني أتخرّج في هذا العام معكم، وهي فرصة لكي أبقى معكم.

بقي أمين صامتاً ينظر لريم، كان حزيناً لعدم نجاحها بل صُدم لفشلها، كان يتوّقع تخرّجها، فقال لديالة: "كنت أسألكِ دائماً عن ريم، لماذا لم تخبريني أنها لم تنجح؟"

– أنا لا أحبُّ حمل الأخبار السيّـــئة.

فقالت له ريم: "ما بك يا أمين؟ وكأنك أنت الذي لم ينجح، أرى في عيونك غضباً واضحاً".

– بصراحة نعم، أنتِ مستهترة لم أتوّقع ذلك، اتّـــفقنا على النّجاح، وأن ننتبه إلى دراستنا ولم نتّـــفق على الإهمال!! (فأخذ يمشي مبتعداً، لا يريد أن يكلّمها).

– قِف وتكلّم معي إلى أين أنت ذاهب؟ (فلحقت به بعدما سار بضعة أمتار مبتعداً عن المجموعة)

فأجابها أمين:"كنت أدرس وأجتهد ليل نهار؛ لأنني وضعت حبكِ أمامي، ووضعته هدفاً ومكافأة أحصل عليها عندما أتخرّج، وأنتِ أراكِ أهملتِ دراستكِ وحتى نسيتِ اتفاقنا، ونسيتِ ووعدك لي بأن الحبَّ هدفنا بعد التخرّج، هذا يعني أن لا شيء يهمّك، لا الدّراسة، ولا الحبّ ولا حتّى أنا".

– لا أرجوك أمين، لا تفهمني هكذا... بسبب الحبّ ضاع نجاحي.

فصمت أمين وهو ينظر لريم بأسف...

فقالت له: "ما بك صامتاً؟ تكلّم معي".

فأجابها بيأس "لم يعد هناك كلام، اتّهمتِ الحبّ بجرمٍ لم يفعله، لقد ابتعدتُ عنكِ فترة سنتين وأنا لا أكلّمك وأعاملك كأيِّ زميلة في الجامعة، وأخذ الحبُّ إجازة، وفوق هذا تقولين الفشل بسبب الحبّ؟ لا أعرف ماذا أقول؟ إذا كنت قريباً منكِ تكونين بحالة سيئة، وإذا كنت بعيداً

تفشلين، على كل الأحوال الفشل حاصل! لا أدري هل أنا المسؤول أم كلّ الحق عليكِ؟ أنا احترتُ معكِ.

– أمين... أنا آسفة، صدّقني لم أستطع سوى التفكير بك، وكنت أفكّر كيف يا ترى سأقنع أمي بك. طيلة السّنة وأنا أدرس بجدٍ ونشاط لكن في فترة الامتحانات وعندما قاربتُ على التخرّج لم أعد أستطيع الدّراسة؛ لأنك لم تغب عن بالي أبداً، لا تنسَ أنّني كلّ يوم كنت أراك فهذا يُبقيك مسكوناً في داخلي، لا يعني إن لم نكن نتكلّم فهذا سيحدُّ من حبّي لك.الحق عليك يا أمين لم تعلّمني أسلوب الدّراسة الصحيحة في حالة الحبّ، فأنا بحاجة إلى دورة دراسيّـــة، لكي أفصل بين دراستي وحالتي العاطفيّـــة.

– أنتِ بحاجة لدورة تدريبيّة لتنظّفي دماغكِ وتركّزي، ودورة تعلّمك كيفيّـــة الفصل بين الإحساس والحالة التي تعيشينها.

– وكيف هذا؟

– عندما تكوني حزينة مَثِّلي دور الفرح أمام الأشخاص من حولكِ، وبالفعل تُظهري فرحكِ دون أن تشعري بالحزن، فتكوني قد فصلتي هنا إحساسك بالحزن وحوّلته لحالة فرح تعيشينها حتى ولو لحظيّـــة، وبهذا ستؤثر إيجابياً على نفسيتكِ، كما يجب أن تفصلي حالة الحبِّ عندكِ في وقت الجدّ والدّراسة، لتجعلي انتباهكِ وفكركِ كاملاً للمادّة التي بين يديكِ، فمن حالة حبٍ إلى الإحساس بالمسؤوليّـــة اتّجاه واجباتكِ.

– كيف سأتعلّم هذا، ربّما يكون الأمر صعباً؟

– أبداً، في البداية فقط، لكن مع الضّغط على نفسكِ قليلاً ستنجحين في ذلك. يا ريم أنتِ زهرة لن تكون مبهرة الجمال إلاّ إذا فاحت منكِ رائحة العطر الزّكية، ولا يكون هذا إلاّ بالمثابرة والاجتهاد والدّين بجانب الجمال.

– لقّبوك حكيماً ولم يُخطـــئوا، يا حكيم الشِّلّة.

– لا تبالغي، بل هم أخطأوا عندما لقّبوني حكيم، كان يجب أن يكون لقبي مغفّلاً في الحبّ. هيّـــا سأذهب الآن لأني تأخّرتُ عن المحاضرة...لقد بدأت. (وذهب أمين وترك ريم واقفة وحدها)

فقالت في نفسها: "فعلاً يبدو أنه غاضب مني لأني فشلت، ماذا عليَّ أن أفعل؟ هو السبب!"

في المساء جاء أسامة لزيارة أمين في مترله ويبدو عليه الإرهاق واليأس، لقد أخذ إجازة لمدّة يومين من شركة السيّدة هند ليبحث عن وظيفة له في مجال دراسته، وجلس أمين وأسامة يتكلّمان حول الدّراسة والتخرّج وتطرّقا لمواضيع كثيرة.

– بما أنك يا أسامة مرتاح عند السيّدة هند وراتبك جيّد، ابقَ في عملك.

– يا أمين أنا تعبت أربع سنوات في دراسة الأدب؛ لأبقى أميناً للمستودع عند السيّدة هند، عملي جيّد والحمد لله لكن دراستي؟

– أين قدّمت طلباتك للعمل.

- في ثلاث مدارس للبنين لأُدرّس التّـــاريخ أو اللّغة العربية، وغيرها من مواد أدبيّـــة، وأكثر من أربع مدارس مختلفة وقدّمت طلباً للمكتبة الوطنيّـــة، سأكمل التقديم في أماكن أخرى لن أيأس.
- لا يهم اصبر وثابر يا أسامة، ولا تنتظر الردَّ منهم، حاول أنت أن تسأل عن القبول، وأثبت وجودك بالإلحاح عليهم، لكي يتذكّروك وتكون لك أولوية العمل في أيّ مكان.
- سأحاول، ولكن في حال أنني قُبلت في إحدى الوظائف وكان الرّاتب الشهريّ أقلّ من الذي آخذه من شركة السيّدة هند فلن أوافق على الوظيفة.
- لا يا أسامة أنت مخطئ جداً.
- لماذا؟ لن أقبل بالأقل هذا مؤكّد... بالأصل أنا أحتاج إلى زيادة وليس لنقصان.
- في حال بقيت في وظيفتك كأمين للمستودع، فلن يتغيّر مستواك إلى أعلى، وستقضي بقية حياتك في هذا المستودع ولن يعلو راتبك إلاّ في العلاوات السنويّـــة القليلة؛ لأنَّ خبرتك بمجال الكمبيوتر محدودة في إطار هذا المستودع وحسب، أمّا في حال عملتَ في وظيفةٍ من تخصّصك ولو كان الرّاتب أقل، فإنَّ مستواك سيرتقي مع سنوات الخبرة ويزداد راتبك، وربما تصبح مديراً عاماً أو مدير مدرسة أو مسؤولاً كبيراً؛ لأنك فتحت المجال لنفسك بالانطلاق، حتّى لو كان هذا أوّل درجة من درجات سلالم الحياة والعمل، ستتعب في البداية لتحصل على خبرة وعلى عدّة مستويات، ولا يهمّ فنحن شباب في أوّل الطّريق ولن تكون الطّريق ممهّدة أمامنا، سنحاول يا أسامة لا تيأس، فلا بُدّ من أن تحصل على وظيفة مناسبة إن شاء الله تعالى.

حلَّ اللّيل وعاد أسامة إلى بيته بعدما جلس وتحدّث طويلاً هو وأمين وقضيا وقتاً ممتعاً بالحديث، وبعد فترة من ذهاب أسامة جاءت الخالة علياء لبيت أمين فوجدته في المطبخ.

- مرحبا أمين، ماذا تفعل؟
- أهلاً خالتي تفضّلي، أنظّـــف الصّحون والأكواب لا أحبُّ أن يتجمع شيء في حوض الغسيل، فأشعر بالفوضى.
- يا ليت شباب اليوم كلّهم مثلك يا أمين، عندما تنتهي تعال وتناول عشاءك معنا لقد أعددتُ العشاء فلا تتأخر.
- لا خالتي أشكركِ، تناولنا العشاء أنا وأسامة. والآن أريد أن أدرس قليلاً قبل النّوم.
- حسناً، أنهي دراستك وتعال لنشرب الشاي.
- ساعة ونصف وأكون عندكِ.
- لا تتأخّر نحن ننتظر

وذهب فعلاً لبيت خالته كما وعدها "مساء الخير، أين أنتم خالتي؟"

- أنا في المطبخ، سآتي...اجلس أنت يا أمين.
- أين عمّي عبد الرحمن؟
- هو ليس هنا، لقد سافر بعد العصر للبلدة المجاورة لديه بعض الأعمال هناك، سيأتي غداً بعد الظّهر إن شاء الله.

– بالسّلامة إن شاء الله خالتي، وأين يزيد والبنات؟

– ناموا قبل قليل...

– هيّـــا خالتي تعالي، ألم تنتهي من المطبخ؟ أم سنتكلّم من بعيد!

– خمس دقائق، أحضّر الشّاي وآتي...

رنّ الهاتف، فطلبت الخالة من أمين أن يجيب على المتّصل؛ لأنّها مشغولة في المطبخ، فأجاب:

– ألو، نعم؟

– مرحباً، هل هذا منزل علياء؟

– نعم، تفضّلي من المتكلّم؟

– من أنتَ لو سمحت، اعذرني لم أعرفك أوّل مرّة أسمع صوتك!

– نعم يا سيدتي أنا أمين، وعلياء تكون خالتي.

فأخذت السيّدة المتّصلة ترجف وتتلعثم بالكلام متفاجئة بأمين وبصوته: "آه، نعم...نعم، أهلاً.... أريد أن... أكلّم.... علياء".

– ولكن من أقل لها من فضلكِ؟

– قل لها أنني صديقتها، اسمي...اسمي...ز.. زهرة.

– حسناً، لحظة من فضلكِ.

وذهب أمين إلى المطبخ، ومعه سمّـــاعة الهاتف ليعطيها لخالته علياء.

– خالتي صديقتكِ زهرة على الهاتف.

– زهرة؟ من زهرة هذه.؟ ربّما الاتّصال خاطئ؟

– لا أعرف، خذي تكلّمي وتأكّدي من المتّصلة، لأني أشكّ أنها لم تذكر اسمها جيداً فهي متردّدة، وكأنها فاقدة للذّاكرة.

وفعلاً نشّفت الخالة علياء يدها وتناولت سمّاعة الهاتف من يد أمين وتكلمت: "أهلاً من المتكلّم؟"

فأجابت السيّدة التي على الهاتف: "ألو، كيف حالكِ علياء؟ إيّـــاكِ أن تذكري اسمي أمام أمين".

– يا إلهي أهذه أنتِ؟ أرجوكِ اتّصلي بعد ساعة لأنني مشغولة جداً الآن.

– حسناً إلى اللّقاء.

بهذا أنهت علياء المكالمة سريعاً وهي مضّطربة...

– من هذه المتّصلة خالتي؟ هل تذكّرتها؟

– نعم عزيزي إنّها صديقة قديمة، وأنا لا أحبُّ الحديث معها كثيراً لذا قلت لها أن تتصّل بعد ساعة ليتسنّى لي الجلوس معك قبل أن تذهب لنومك، فأنا مشتاقة لك كثيراً وأنت الآن نادراً ما تجلس معي.

جلس أمين مع خالته حوالي نصف ساعة يحدّثها عن الجامعة وعن أصدقائه وعن ريم أيضاً ونفسيّتها السيئّـــة، وكانت خالته تسمع له وتعطيه بعض النّصائح، وبعد انقضاء الوقت ذهب أمين إلى بيته ليخلد للنوم.

وما أن انقضت ساعة أخرى حتى رنّ جرس الهاتف.

– ألو؟

– مرحبا علياء.

– أهلاً وسهلاً، ما هذا الذي فعلتيه يا أمل؟

– ماذا؟ لم أفعل شيئاً، لقد تداركت الموقف وتحسّن الوضع.

– لـــمَ اتّصلتِ بوقت مبكّر؟ في العادة تتّصلين بعد منتصف اللّيل؟

– لا أدري، لم أستطع الانتظار كنت مشتاقة لسماع أخباركم، وأخبار أمين لقد مرَّ شهر ولم أتّصل معكِ، هيّا أخبريني كيف حالكم وحال أمين؟ أوّل مرّة من تسعة عشر عاماً أسمع فيها صوت ولدي أمين، أتتخيّلين كيف العمر يمضي؟ لقد صُدمت وتوتّرت.

– نعم، يا عزيزتي أمل العمر يمضي كلمح البصر.

– كيف حاله الآن، وكيف قلبه وصحّته طمئنيني؟

– إنه أفضل يأخذ دواءه بانتظام ويحافظ على صحّته، لا يوجد أشياء تؤثّر أو تضغط على نفسيّته.

– هل ما يزال يحبُّ تلك الفتاة؟

– نعم لكن لم يعد يكلّمها مثل قبل.

– وكيف جوُّ دراسته هذه الأيام.

– هو جيّد لا تقلقي عليه، فهو متفوّق ويحبُّ دراسته وهذه أخر سنّة ويتخرّج إن شاء الله.

– ابعثي لي بصورة جديدة له أرجوكِ يا علياء، آخر صورة بعثتها كانت في حفل تخرّج المدرسة، وغير واضحة لأنها بعيدة وكان بين زملائه.

– إنه لا يحب أن يتصوّر، وكلّما قلت له أريد صوراً لك يقول لا يوجد عندي خالتي وها أنا أمامكِ لـــمّ الصّور؟

– أرجوكِ حاولي أريد أن أرى ولدي وكيف أصبح بعد أربع سنوات من تخرجه من المدرسة.

– حسناً إن شاء الله سأحاول.

– وكيف حالكِ أنتِ والأطفال وزوجكِ؟

– الحمد كلّنا بخير.

– حسناً، سأتّصل إن شاء الله قريباً وأطمئنَّ عليكم إلى اللّقاء الآن.

في الاتّصال الأوّل تفاجأت أمل جداً عند سماع صوت ولدها أمين، أصبح شاباً وتغيّر صوته وخشن، لقد أغلقت سماعة الهاتف وأصبحت تبكي... وتبكي، وشعرت بالقهر على فراق ولدها لقد تحرّك شعور كبير في داخلها كان نائماً، واستيقظ عندما سمع صوت شاب على الهاتف يقول أنا أمين. وانتبهت أنَّ العمر مضى، وجيلاً جاء وجيلاً انقضى، ولدها يسكن في قلبها دائماً، هي لم تنسه ولا لِلَحظة واحدة، وكم نامت والدّموع في عينيها!!

لكنّ البعد يكون حقناً مسكّنة للمشاعر؛ لأنه يخلق الجفاء حتى ولو كان قلب الأم، لكن اهتزّ هذا القلب المسكون فيه صورة طفل صغير اسمه أمين، وذهب مفعول المسكّن، وعاد الألم، هي التي فرضت هذا على نفسها، لقد ادَّعت الموت لكي لا يشتهي أمين حضن أمّه الغائبة ويشتاق إليها، فالأشواق ستعذّبه وتتحوّل إلى أشواك، وحضن الأم بعيد لا يمكن الوصول إليه، فادَّعت ما كان لتريح قلبه وقلبها.

***

ذهبت ريم إلى الجامعة هذا الصباح بعد تفكير طويل طيلة اللّيلة، كانت مشحونة بالنّشاط والحيويّــة، وقد اتّــخذت قراراً جديداً تعتبره هي لصالح الحبِّ العذريّ ليصبح حبّاً شرعيّاً، فما أن وصلت حتى ركضت إلى مبنى كلية الهندسة تنتظر أمين عند الباب، وفعلاً فاجأته فور وصوله الكليّة وهو يدخل باب المبنى ذاهباً لمحاضرته بكلِّ حماس، كان يحمل المسطرة الطّويلة وبعض المخطّطات الكبيرة الملفوفة على شكل لفائف طويلة.

- صباح الخير أمين.
- أهلاً...! صباح النّور يا ريم، ماذا تفعلين هنا عند الباب؟
- تعال معي إلى الاستراحة على الفور هيّا... هيّــا بنا.
- ما بكِ؟ لا أستطيع لديَّ الآن محاضرة.
- لا مشكلة ستعوّضها في الأيام المقبلة.
- آسف لا أستطيع، سأنتهي وأراكِ بعد ذلك في الاستراحة.
- لا، أنا الآن متحمّسة جداً للفكرة وأخاف أن أفقد حماسي.
- اتّــفقنا أن تكوني عقلانية يا ريم لا تستعجلي الأمور، لا أستطيع أن أترك محاضرة اليوم فهي مهمّــة، ولديَّ أعمال أقوم بها، سأراكِ لاحقاً ركّزي في محاضرتكِ يا ريم إلى اللّقاء الآن.

وصعد أمين الدّرج مستعجلاً إلى محاضرته، يقول في نفسه: "يا ترى ماذا تريد منّي وبهذه السّرعة، أحقاً موضوعها مهم؟"

أمّا ريم قالت في نفسها: "إنَّ أمين لا يهتمُّ بي وم يعد يحبّني، فلو أنّه يحبّني كالسّابق لضحّى بالمحاضرة من أجلي. ربّما أنا أحبّه أكثر؟! لقد شعرت بأنني مغفّلة أمامه.

دخلت ديالة –مستعجلة أيضاً– من باب مبنى الهندسة، ومعها ذات الأوراق واللّفائف والمسطرة الطّويلة، فرأت ريم عند الباب فسألتها:

- ماذا تفعلين هنا يا ريم...؟
- لا شيء، كنت أكلّم أمينو أريد الآن الذّهاب لمحاضرتي.
- حسناً إلى اللّقاء، سأراكِ فيما بعد فأنا مستعجلة لقد تأخّرت عشر دقائق، ربما سأوبّخ على تأخرّي، إلى اللّقاء....وصعدت الدّرج مسرعة.
- إلى اللّقاء ديالة (قالتها ريم بملل)

اجتمع الجميع لتناول الفطور بعد المحاضرة الأولى في استراحة الجامعة، فاقترح هاني على أصدقائه أن يقول كلٌّ واحد منهم ماذا يريد من طعام فيذهب هو لإحضار الطّلبات، لأنه الأسرع

ولن يأخذ دوراً طويلاً ليحجز عند الطّلبات، وفعلاً طلب كل واحد منهم شطيرة مختلفة عن الثّـــاني وجميعهم سيشربون الشّاي، باستثناء أمين لأنه لم يكن قد وصل للاستراحة بعد.

– أين أمين يا جماعة؟ سألت ريم أصدقاءها الموجودين حول الطاولة، إضافة لنيرمين طالبة الهندسة الجديدة فهي أصبحت تجلس معهم لأنها أحبّت المجموعة مع أنها تصغرهم سنّـــاً، وهم لم يمانعوا من مصاحبتها، لكن ريم هي الوحيدة التي لم تحبّها.

فأجاب رامي": نحن تركنا أمين يتناقش مع الدّكتور في القاعة حول بعض المشاريع الهندسيّـــة التي يقترحها المهندس أمين، وسيلحق بنا بعد أن ينتهي... أراكِ يا ريم لا تستطيعين الجلوس من دون أن يكون أمين موجوداً معنا؟"

– لا رامي، ليس كذلك لكن أنا أريده بموضوع.

وفعلاً جاء أمين بعد فترة قصيرة، وقال لهم:"كيف حالكم يا شباب... أين هاني؟

– أجابت ديالة: ذهب ليحضر لنا الشّطائر والشّاي، وسيأتي على الفور.

– وحده، ألم يذهب معه أحدٌ ليساعده؟

– لا لن يذهب معه أحد، سيحمل الشّطائر والشّاي في علبة كرتونيّـــة كبيرة.

– سأذهب لأساعده ونأتي سوياً.

فعاد أمين وهاني يحملان الشّطائر والشّاي، فأخذت ريم طعامها وقالت لأمين: "أرجوك أمين هات وجبتك وتعال اجلس معي هناك أريدك بموضوع".

فأخذا طعامهما وجلسا حول طاولة بعيدة عن باقي الأصدقاء. وبدأت ريم بالكلام وأمين صامتٌ يستمع وينظر لها:"جلستُ أفكّر يا أمين ليلة البارحة وتوصّلت لقرار أعجبني سيريحني ويريحك، وإن شاء الله سينجح، فأنا متحمّسة للفكرة ومسرورة بها وشعرت أنَّ الحياة انفتحت لي من جديد، حقاً ستكون مختلفة هذه المرّة".

– هيا قولي ما هذه الفكرة السعيدة؛ لأني مللتُ من كلِّ شيء حولي، ولم أعد أعرف ما هو الأنسب والذي يرضيكِ.

– ستأتي وتطلب يدي من والدي في البيت بشكلٍ رسميٍّ، ونرتبط بخطبة أنا وأنت، وبهذا يرتاح بالي وأستطيع التفكير بكل الأمور من حولي؛ لأنني ضمنتُ وجودك معي ما رأيك؟

تأفـّـف أمين ولم يتفوّه بكلمة واحدة، بل نظر لريم نظرةً كأنه يقول لها أرجوكِ اسكتي، وأنزل رأسه لم يعجبه الكلام.

– لـــمَ الصّمت؟ وما ردّة الفعل اليائسة هذه؟ أريد رأيك بالموضوع!

رفع أمين رأسه وقال لها بنبرة شديدة وشبه عصبيّـــة: "أريد رأيكِ أنتِ بالموضوع! هل تستطيعين إبداء رأيكِ بالفكرة الغبيّـــة التي تعرضينها عليّ، وكنتِ تريدينني أن أترك محاضرتي لأجلها!!"

– أتقصد أني أنا الغبيّـــة؟ ربّما السّنتان اللّتان أخذناهما إجازة من الحبّ كانت بالنسبة لك استقالة من الحبّ، أنت لا تهتمّ بي ولا بكلامي أبداً، لقد تغيّرتَ اتّجاهي، وهذا الذي أشعر به منذ بداية هذه السّنة!

– لا أقصد ذلك، لكن لو كانت هذه الفكرة صائبة، لـــمَا واجهنا مشكلة منذ البداية، ولذهبت من أول يوم تعرّفتُ به على عائلتكِ وخطبتكِ، لكن المشكلة هي ذاها، أنتِ لم تأتي بشيء جديد، وكل مرّة أسمع اقتراحكِ ونقع بمشكلة أكبر، أمكِ لا تريدني ولا تحبّني، ولن تستطيعي إقناعها وهذا مؤكّد!! وأظن أنّ علاقتنا في طريقها للانتهاء.

– لالا... أنا لا أصدق ما أسمع!! إيّـــاك أن تعيد هذا الكلام! أنا سأقف وقفة مختلفة أمام والديّ هذه المرّة، أنا أفهم بمصلحتي أكثر منهما، هذا مستقبلي أنا وسأدافع عن مطلبي، ولن أوافق أن يرفضا... سأحتجُّ، كانت كلُّ مرة تصرخ أمي في وجهي وتوبّخني أسكت وأذهب لغرفتي أبكي، لكن هذه المرّة سأرفض، ولن أذهب باكية خاضعة للرّفض لم أعد صغيرة كما في السّنوات السّابقة.

– يا إلهي، أتنقلب الخطبة إلى حرب أهلية؟ أنا لا أريد أن أخسر أهلكِ، هذا سينقلب إلى كراهيّـــة ضدّي وسيعتقدون أنني الذي أقوّيك عليهم، نحن نريد أن نكسبهم لا أن نخسرهم.

– لا يوجد حلّ آخر يا أمين، أمي عنيدة، لكن أشعر أنّ أبي ليّن أكثر من أمي، وسأحاول إقناعه في البداية ليؤثّر عليها، ولن أبدأ بالاحتجاج والرّفض إلا بعد محاولات عديدة بالإقناع.

– كيف ستقنعين والدكِ؟

– سأقنع والدي أن يتعرّف عليك ولا يحكم عليك لمجرّد أقاويل قالتها والدتي، ومن ثمَّ يقرّر.

– وماذا بعد؟

– وإذا أحبّك والدي ستطلب أنت من خالتك المجيء لخطبتي رسميّـــاً، ما رأيك؟

– أرى الموضوع معقّداً، ولا أرى فنار أمل بل هي إشارة لهبوب المِحَن... ليس بالجديد.

– أمين شجّعني.

– أريد من يشجّعني... ياريم أنتِ تتهوّرين.

– لن نخسر شيئاً أكثر من الذي مضى دعني أحاول.

– آآآه... حاولي مع والدكِ وأخبريني لعلَّ محاولاتكِ تنجح؛ لأنها إن لم تنجح هذه المرّة سأعلم أنها هذه نهاية علاقتنا، والسبب أنَّ الرّفض قطعيّ من جميع الجهات؟

– ما هذا التشاؤم؟ نهاية علاقتنا!.. نهاية علاقتنا... أتقولها بكلِّ بساطة، وتكرّرها؟!!

– لا، ليست بالبساطة كما تُلفظ ستكون حُرقة في قلبي، وربما ستتحوّل إلى نوبة قلبيّـــة، إذا كان جواب والدكِ سلبياً لا تخبريني مباشرة بل مهّدي لي الطّريق للمأساة.

– أنا متفائلة يا أمين، أما الآن سأذهب لديّ محاضرة، أراك غداً.

حملتْ ريم أغراضها وخرجت من الاستراحة، وفور مغادرتها الاستراحة جاءت نيرمين فتاة الهندسة المعماريّـــة الجديدة وجلست مكان ريم عند طاولة أمين.

– عذراً أمين جَلَسْتُ دون إذن، لكن أريد أن أطلب منك شيئاً، هل لي؟ أم تمانع؟

– لا تفضّلي، على الرّحب والسّعة.

– يوجد مادة علميّـــة في الهندسة أريد بعض المساعدة فيها، أتستطيع مساعدتي وإفهامي ما يصعب عليّ؟

– لكن لـــمَ لا تسألي الفتيات، ديالة أو نسرين مثلاً فهما فتيات مثلكِ وباستطاعتهما مساعدتكِ أفضل مني، وممكن في أوقات الفراغ خارج الجامعة.
– بصراحة لم أسألهما أو أطلب منهما المساعدة والسبب هو أنني أراك أفقههم بالمواد، وعلاماتك مرتفعة أكثر من الجميع، لذا الأفضل من هو متفوّق أكثر؛ لكي لا نقع بالخطأ أثناء الدراسة.
– لكن ديالة من المتفوّقات أيضاً، ونسرين لا بأس بها، تستطيعان المساعدة.
– لا... ليس مثلك، عندما حضرنا معكم تلك المحاضرة مدح الدّكتور بك كثيراً أمام الطّلبة، وقال إن مشاريعك دائماً هي أنجح المشاريع، لذلك لا تخيّب أملي وترفض طلبي، لن أكون طالبة مزعجة.
– حسناً، متى تردين أن نبدأ؟
– منذ اليوم... حوالي السّاعة السّادسة مساءً حتى السّابعة، ساعة واحدة كلَّ يوم تكفي.
– السّادسة؟!
– نعم، أهناك مشكلة؟
– أين وكيف؟
– في منزلي، سأعطيك العنوان فهو سهل جداً.
– لا آسف يا نيرمين في منزلكِ صعب، اعتقدت أن تكون الدّراسة في أوقات الفراغ بين المحاضرات، لكن إن كان في المنزل فأنا آسف.
– لماذا؟ هل لديك مشكلة.
– لا أحبذّ ذلك أرجوكِ لا تحرجيني.
– بدل أن أحضر أستاذاً غريباً، فأنت زميلي وصديق طيّب.
– لا آسف، اتـــّفقي مع أيِّ أحد آخر، أما أنا فلا.
– حسناً، سأوافق في أوقات الفراغ مع أنني متأكّدة أنه يصعب عليَّ الفهم هنا بالاستراحة.
– سنحاول، وإن لم ينفع ستتّخذين أستاذاً آخر لكِ.

أمّا ريم انتظرت والدها حتى عاد وقت المساء لتحدّثه بموضوعها، فما إن تناول طعامه وجلس أمام التّـــلفاز يتابع نشرة الأخبار ويتأفّـــف من الأحداث الدامية اليومّية حتّى جلست ريم بجانب والدها، حيث كانت أمها في غرفة النوم، فقالت لأبيها بلهجة شفقة ونبرة حزن: "أبي، يا حبيبي أريد أن أطلب منك طلباً صغيراً، ولكن لا تردّ ابنتك حبيبتك خائبة، وتحطّم قلبي وسعادتي، أرجوك يا أبي!".

فأجابها والدها وقد أثّرت فيه نبرة الحزن والدّلَع هذه فقال: "ما بكِ يا عيون وروح أبيك، هل ينقصكِ شيء؟"
– أبي، هل تستطيع أن تأتي إلى غرفتي لأكلّمك بموضوع؟
– بكل تأكيد حبيبتي، هيّـــا أخبريني لن أردّ لكِ طلبكِ يا حلوتي.

وسارت ريم وأباها ودخلا الغرفة وأغلقت الباب بالقفل.
– أبي هل ستسمعني حتى النّهاية ومن دون عصبيّـــة وتتفّهم طلبي؟

- هيّـــا يا ريم أنا مستعدٌّ للسّماع وبدون مقدّمات.
- بصراحة يا أبي موضوعي لم أغيّره، هو ذاك الشّاب أمين أحببته من كلِّ قلبي، ولا أفهم لـــمَ كلُّ هذا الرّفض على الشّاب؟
- ألم تقل لكِ والدتكِ أنه لا يناسبكِ؟
- أبي لماذا؟ أهو ثوب أو قميص لتحكم عليه أنه لا يناسبني؟ مع أني أنا أراه مناسباً حقاً.
- يا ابنتي... ما يزال الجرح كبيراً في قلب أمكِ، حتّى ولو كان في الماضي فهي لا تستطيع نسيانه، وأمين هو الذي جاء بالذّكرى الأليمة هذه لأمكِ، عندما رأته تذكّرت ماضيها الحزين، فهي لا تستطيع سماع اسم أمين شاكر على لسانكِ.
- ولماذا نظلم أمين... وهو مظلوم مثل أمّي تماماً، لا ذنب له؟
- نحن لا نظلمه لكن ظروف الحياة تحكم على الإنسان وتجبرنا أن نتخّذ قرارات ليست بأيدنا ولا بيد أمين، لنبتعد عمّا يؤلمنا.
- أبي لماذا نجعل ظروف الحياة تتحكّم بنا؟ نستطيع نحن أن نخطّط إلى ما يسعدنا.
- يا حبيبتي، ما يُسعدنا هو أن نسبّب تعاسة للآخرين ونكون أنانيين!! هل هذا برأيكِ ؟

- أنا لا أرى أنانيّـــة إن تزوّجت أمين، يجب على أمي أن تتغاضى عن ذكراها المؤلمة، وتبتسم للحياة والمستقبل، لا أن تبقى تعيش ذكرى أليمة.

- يا ابنتي والأمور الأخرى مثل مرض قلبه، ونشأته بعيداً عن عائلته، كيف سيخلق جوّاً عائلياً سعيداً مليئاً بالحبِّ والحنان دون أن يعيشه، ففاقد الشّيء لا يعطيه... طيلة حياته معتاد أن يعيش بمفرده، إنه أكيد متجرّد من الحنان.
- أبي أراك تبالغ نوعاً ما، والأسباب لم تقنعني لأني أرى حسناتٍ كثيرة، تغطي على المساوئ المذكورة في هذا الشّاب، فهو في البداية شاب ذو أخلاق عالية مؤدب يحترمني، ويحبّني بكل معنى الحبّ الصّادق، ولا يحاول استغلالي كما هو معروف عن معظمهم، شخصيته الهادئة الجادّة تعجبني، كما أنه متفوّق في الجامعة، وسيتخرّج مهندساً معمارياً بارعاً، عدا عن ذلك أنه وسيم جداً، وهو يعجب أكثر الفتيات.
- أكلُّ تلك الصّفات في هذا الشّاب، ربما الحبُّ يفعل المعجزات، والسيّء يتحوّل إلى الأفضل بنظر العشّاق!
- أبي... أمين ليس بالسيّء هو من أفضل الشّباب، والحبُّ لا دخل له إنه حقاً شاب...

قاطعها والدها قائلاً: "كفاكِ يا ريم مديحاً بأمين، ربّما الشّاب كما تقولين، لكن أليس من الواجب مراعاة شعور والدتكِ، واحترام رأيها؟

- وأنا يا أبي من سيراعي شعوري... ماذا أفعل بالحبِّ المدفون في قلبي؟ أبي أنا أكلّمك بكلِّ صراحة لكي تساعدني، لا لتطلب مني أن أبعد عن أمين، أنا حقاً أحبّه وهذه مشكلة في حدِّ ذاتها، وعلينا أن نجد لها حلاً منذ أربع سنوات.
- حسناً يا ريم، سنرتّب لرؤيته...
- أين ومتى يا أبي؟ كم أنت لطيف أحبك.

– لا أدري اختاري وقتاً مناسباً.
– أبي لديّ اقتراح ربما يفيد، ما رأيك أن ندعو جميع أصدقائي لعيد ميلادي في الأسبوع المقبل؟ وهكذا ستتعرّف عليه عن قرب وتكلّمه، دون أن أن نلفت نظر أمي؛ لأن الجميع سيكونون متواجدين ربما أفضل من أن يأتي وحده لن توافق أمي.
– حسنا وأخبريه أن يطلبكِ مني ونحن جالسون، لـِ...(قاطعته ريم فرحة جداً: "أحقاً يا أبي...! أتقول يطلبني؟ أفعلاً ما تقول؟!)
– نعم يا ريم، و لتكتمل الخطّة التي سنضعها أنا وأنتِ... ونضع أمك تحت الأمر الواقع.
– أكمل يا أبي أنا مسرورة وأسمعك... لكن لا أفهم الخطّـــة؟
– عندما يطلبكِ أمين رسميّــاً منّي، فسيفتح لي المجال أن أكلّم أمكِ بهذا الموضوع وبهذا أكون قد تعرّفت عليه، وهو أيضاً يكون عمل ما عليه فعله، فبعد عيد الميلاد سأخبرها أنّ أمين طلب ريم رسميّـــاً وأنا أراه شاباً مناسباً، وسأبدأ بتلطيف الجوِّ وإقناعها به.
– أشكرك يا أبي، كم أنت طيّب... أنا أحبك.

وقفزت ريم تقبّل رأس والدها ويده وتعانقه فرحة، وهي ستطير من السّعادة، لقد ظلّت طيلة اللّيل مسرورة تضحك وتكلّم نفسها، وتتخيّـــل كيف ستخبر أمين غداً صباحاً بالخبر السّعيد.

أشرقت شمس الصّباح، وسبّحت الطّيور الخالق العظيم، وانتشر النّـــاس إلى أعمالهم، وامتلأت الجامعة بالطّلاب وكلٌّ واحد منهم ذهب إلى محاضرته، وكالمعتاد تجمّع الأصدقاء حول طاولة بالاستراحة ليتناولوا طعام الفطور، لكن عندما جاءت ريم من مبنى كليّـــة الآداب فوجئت بأمين يجلس منفرداً هو ونيرمين حول طاولة واحدة بعيدة عن باقي الفريق، فذهبت على الفور ووقفت عند الطّاولة أمام أمين وقالت له: "لماذا أنتما تجلسان هنا تاركين باقي الأصدقاء؟"

فأجابها أمين: "طلبت مني نيرمين أن أفهمّها بعض المواد الدراسيّـــة المتصعّبة عليها، سندرس نصف ساعة وآتي لنجلس سويّاً".

ابتسمت نيرمين وقالت لريم: "إذا رغبتِ اجلسي معنا لا مشكلة، تفضّلي"فأجابتها ريم وهي عابسة: "لا شكراً سأجلس مع ديالة، لكي لا أعرقل سير دراستكِ، انتبهي على الدّرس". وذهبت لتجلس مع ديالة ونسرين لكي يتناولوا طعامهن، وفعلاً بعد نصف ساعة جاء أمين ومعه نيرمين وجلسا حول الطّـــاولة مع باقي المجموعة، فجلس أمين بجانب ريم تماماً وقال لها بصوت هادئ وبشوق كبير:"كيف حالكِ يا ريم؟ "هزّت ريم رأسها بمعنى أنها جيّدة، ولم تتكلّم لأنها كانت حزينة بسبب نيرمين التي خطفت منها أمين نصف ساعة. وبقي الأصدقاء يتحدّثون ويضحكون، فجاء شاب ويحمل أوراقاً مطبوعة ووقف عند طاولة الأصدقاء، فقال لهم: "صباح الخير أيّها الزّملاء، أنا اسمي ياسر زميلكم في كلية الرّياضة، أحببنا في كلية الرياضة أن نقوم بعمل نشاط اجتماعيّ وتشجيعيّ لجميع طلاب وطالبات الجامعة، حيث قمنا بتنظيم رحلة جماعيّـــة إلى السّاحل لزيارة البحر وقضاء ليلتين والقيام بعدّة نشاطات هناك، هذه أوراق توضّح تفاصيل الرّحلة كاملة من تكاليف ونشاطات وأمور أخرى سأوزّع عليكم الأوراق، وغداً سآتي لأسجّل أسماء الرّاغبين

بالالتحاق بهذه الرّحلة، أرجو أن تلتحقوا بالرّحلة معنا ولا تجعلوها تفوتكم، تفضلوا هاهي الأوراق.

وذهب ياسر يكمل توزيع الأوراق على باقي الطّلاب، ودخل الأصدقاء بالنّقاش حول موضوع الرّحلة.

فبدأ هاني قائلاً: "إنها فكرة جيّدة ما رأيكم أن نذهب، نقوم بتغير جوٍّ عن أجواء الجامعة والدّراسة".

فقال رامي: "فكرة جيّدة سأخبر منال ونتّصل بأسامة لنخبره عن هذه الرّحلة وينضما إلينا، أكيد أنا وأختي سنذهب لا مشكلة؟"

أما ديالة فقالت: أنا سأحاول مع والدي، إذا وافق لا يوجد مشكلة سأذهب، أما أمي ستوافق على الفور، وأنتِ يا نسرين؟".

– أنا لا أدري أحبُّ ذلك، لكن أيضاً يجب أن أسأل والدي.

– وأنت يا أمين هل ستذهب أم وراءك أعمال؟... سأله هاني.

– أنا...؟ لا أعرف ربما لا تروق لي....ونظر أمين لريم وقال لها: "ريم لم نسمع رأيكِ بالموضوع".

– أنا كباقي صديقاتي أسأل والديّ، ثم أرى بعد ذلك فالجواب معلّق إلى إشعار آخر.

– فسأل أمين نيرمين وقال لها: "وأنتِ يا نيرمين ألا تريدين الذّهاب"؟

– أنا سأذهب مؤكّد ذلك، فأمي لن تمانع وحتّى والدي سيوافق كما أنَّ أخي الكبير في كلية الرياضة في السّنة الرّابعة.

– آه... نعم، هذا رائع إذن أنتِ مضمونة في الرّحلة، قال رامي.

– نعم.

ثمَّ همست ريم بالقرب من أذن أمين وقالت له: "أريد أن أكلّمك هل نتمشى قليلاً".

فوقف أمين على الفور وقال لريم: "هيّـــا تعالي" إنه متحمس لسماع ردّة فعل والدها.

– قبل أن أقول لك ردّة فعل والدي، هل لي أن أعاتبك قليلاً؟

– لماذا العتاب؟

– ما قصة نيرمين الجديدة هذه؟ تجلس معها وتعطيها دروساً ورأيتكما تضحكان سوياً...! وهي تقول لي اجلسي معنا لا مشكلة! هي المشكلة بحدِّ ذاتها بالنسبة لي، إنها لا تخجل أن تفرض نفسها عليك؟ كنت أشعر من البداية أنها تريد أن تأخذك مني، هذا يظهر من عيونها... بالإضافة إلى ملابسها الضيّـــقة التي لا توصف من شدّة الاحتشام وأمامك...!

– هدّئي من روعكِ يا ريم، ماذا جرى لكل هذه المقدّمة؟ طلبت نيرمين أن أعطيها دروساً بمادة متصعّبة منها قليلاً، وفي البداية أنا رفضت وبشدّة، وقلت لها اطلبي من ديالة أو من نسرين، لكن لم توافق وأصرّت أن أعطيها الدّروس.

– أرأيت لو كانت نيـــّتها صافية وتريد أن تفهم المواد لطلبت من ديالة، لكن نيّـــتها هنا أن تقرّبك منها وتسلبك مني، من ثمّ تقع في حبّها.

- ما هذا التفكير؟ هل أنا لعبة من دون إحساس لتسلبني، أم جماد ليس له شعور، كيف سأحبّـــها؟ ولا أرى سوى فتاة واحدة أمامي سرقت قلبي وروحي، لا أفكّر إلا بها، أحلامي كلها معها، أموت إذا ابتعدت عنّي...! انظري في عيوني... أنا لا أحبّكِ وحسب، بل انتهيت وضعتُ في حبكِ، صبرت كلَّ هذه المدّة الطويلة أربع سنوات عاش فيها الحبُّ بدمي وتحمّلت لأصل إلى حبيبتي الرّقيقة هذه، وعندما قاربتُ على الوصول تقولين لي، أحب نيرمين... كيف ذلك؟ لا لن أرضاها كفكرة منكِ، ولا حتى العقل ولا المنطق، لن أرضى بديلاً عنكِ أبداً... هيّـــا أريد أن أطمئنَّ على جواب والدكِ، أتعبتِ قلبي.
- أبي يا أمين، وافق أن تأتي لتطلبني منه يوم عيد ميلادي.
- وافق...؟

الفصل الحادي والعشرون

لم يفهم أمين قصد ريم عندما قالت له أبي وافق على أن تطلبني منه، فأعاد السّؤال عليها مرّة أخرى.

– وافق على ماذا؟

– ماذا دهاك ثمّـــة موضوع تكلّمتُ به البارحة معك، قلت لك أنني سأخبر والدي كي يتعرّف عليك.

– نعم أعرف، هل والدكِ وافق على التعرّف عليّ أم على التقدّم لطلبكِ منه؟ وضّحي أكثر لا أفهم، أو لا أستطيع أن أصدّق...

– يا أمين، اقترح عليّ والدي أن أقوم بدعوة أصدقائي جميعاً على عيد ميلادي، في الأسبوع المقبل أي يوم الأربعاء، فستأتون جميعاً ويتعرّف عليك والدي بالحفلة، وكما اتّـــفقنا أنا وأبي ستقوم أنت بطلب يدي منه وهو سيرى.

– وإن لم أعجبه؟ ماذا سيكون موقفي إذا طلبتكِ ولم يوافق؟ كما أنه ربّما سيفتح معي تحقيقاً كما فعلتْ والدتك قبل ثلاث سنوات.

– أولاً: أنا متأكّدة أنّ والدي سيحبّـــك، ألا تثق بنفسك؟

– لم أعد أثق بشيء.

– ثانياً: لن يعطيك والدي جواباً بالقبول في نفس اللّحظة، بل سيقول لك إن شاء الله سنفكّر بالموضوع ونردّ لك جواباً في القريب العاجل، كن مطمئناً يا أمين، وهذا الجواب على كلتا الحالتين، إن أحبك أو لا.

– نعم... فكرة جيّدة كخطوة أولى، لكن الخطوة الثّـــانية هي الأصعب، الإقناع... عدنا لنفس العقدة، التي لازمتنا منذ بداية القصّة التي ليس لها حل... وهل أمكِ ستوافق على مجيئي لبيتكم؟

– لا عليك أنت، الآن لن أخبر أمي وسنضعها تحت الأمر الواقع، دعنا نسير نقطة نقطة، ولا تتخيّل السّعادة التي أنا بها منذ البارحة.

– يا إلهي كم أنا قلق وخائف من أمكِ.

– لا تخف... كما وعليك أن ترتدي شيئاً جميلاً.

– على فكرة سأشتري ملابس جديدة لعيد ميلادكِ، ولهذه المناسبة كي أبدو جيّداً بالمقابلة.

– جميع ملابسك جميلة وجديدة لـــمَ التبذير؟

– لا ليس تبذيراً، مثل هذه المناسبة تحتاج لكلِّ شيء جديد.

من المعروف على أمين أنه يلبس أجمل وأفخر الملابس ومن الماركات العالمية، حتّى عندما يلبس ملابس غير رسميّـــة (سبور) يكون لباسه في الجامعة من أجمل وأرتب الملابس التي يرتديها الشّباب، فهو مميّز بهذه النقطة. منذ صغره كان يتمنّى أن يذهب ويختار ملابسه بنفسه وتكون

على ذوقه، لكن بعد تخرّجه من المدرسة شعر بالحرية وأنه المسؤول الأوّل عن نفسه وعن ذوقه، فأصبح من هواياته شراء الملابس الفاخرة؛ ليعوّض نقصاً ما شعرَ به، ورغبة داخليّة لشراء واقتناء أجمل شيء، لا مشكلة عنده بالمال فالإيجار الذي يستلمه يسدّ احتياجاته وزيادة ويستطيع شراء أيَّ شيء تطلبه نفسه.

***

عادت ريم من الجامعة مسرورة، وفور وصولها ذهبت لوالدها متحمّسة:

– أمي كيف حالكِ يا حبيبتي؟

– أهلاً ريم أراكِ سعيدة اليوم، ماذا جرى على غير العادة؟

– هل قال لكِ بابا عن حفلة عيد ميلادي؟

آه... نعم ذكّرتيني، لِـــمَ لَمْ تأخذي رأيي بموضوع العيد ميلاد قبل أن تطلبي من والدكِ؟

– أمي حبيبتي أنتِ وأبي واحد لا فرق، وأنا متأكّدة أنكِ لن ترفضي إقامة حفلة عيد ميلادي... أليس كذلك؟

– لا لن أرفض، إلاّ إذا كان بالحفلة أناس غير مرغوب بهم.

– ارتبكت ريم وقلقت: "غير مرغوب بهم...! من يا أمي؟"

– ريم لا تتغابي، أقصد ذاك الشّاب... أمين.

– يا أمي أمين من باقي الزّملاء، كيف لي أن أدعو الجميع ولا أدعوه هذا غير لائق بحقّي، ولا تنسي أنّ أمين صديقٌ لكلٍّ زملائي، ولن يأتوا إذا أنا لم أدعُوه.

– أنا لا أحبُّ رؤية هذا الشّاب، وأنتِ تعرفين ذلك.

– أمي أرجوكِ هذه المرّة فقط، لن أعود وأدعوهم إلى بيتي، تجاهلي وجوده في ذلك اليوم، من أجلي يا أمي، من أجل عيد ميلادي.

– حاولي أن تتجاهليه أنتِ يا ريم ولا تخبريه بالحفلة.

– طيب يا أمي لن أدعوه.

أصاب ريم إحباطٌ شديد من كلام أمها وشعرت أنَّ الأمور لن تسير على ما يرام.

وأخذت تحدّث نفسها: "يا أمي أخشى أن لا توافقي على أمين هذه المرّة أيضاً، إنكِ متشدّدة جداً... لدرجة حتى في عيد ميلادي لا تريدينه أن يأتي كباقي زملائي... يا إلهي؟"

فنظرت هند لابنتها ريم وقالت لها: "ما بكِ يا ريم أين ذهبتِ بالتفكير؟ وسرحتِ بالخيال!".

– "لا شيء يا أمي أفكّر بترتيبات حفل عيد ملادي"، ثم قامت ريم وذهبت لغرفتها للدّراسة.

اتّـــفق الشّباب على الذّهاب لتناول العشاء في مطعم جديد بشرط أن يكون الحساب موزّعاً عليهم جميعاً، ولا يُحرَج أحد بدفع الفاتورة في النهاية، فقرروا أن يجتمعوا عند أمين بمترله ثم يذهبوا معه بسيّـــارته إلى ذاك المطعم الجديد، فوصل أوّلهم أسامة والثّـــاني كان رامي، أمّا هاني فقد أخرّهم، لقد تأخّر ساعة إلاّ ربع وهم ينتظرونه، وبقي أمين يتّصل به على هاتفه الخلويّ ولم يجب أحد، ولا حتى على هاتف المترل، مما أدّى بهم إلى الشّعور بالقلق عليه، فاتّـــفقوا أن يذهبوا

إلى بيته ليطمئنّوا عليه، وصلوا وطرقوا الباب حوالي عشر طرقات، ثمّ فتح، فصرخ رامي في وجهه فجأة عند فتحه الباب لهم:"أين أنت يا رجل... نائم"؟

فأجاب هاني والنّوم ما زال مرسوماً على وجهه: "نعم... نائم، لِـــمَ لَمْ توقظوني؟"

فقال له أمين وهو يشعر بالقهر من لا مبالاة هاني: "اسكت...اسكت، لقد اتّصلت بك حوالي عشرين مرّة على هاتفك النقّال، ولم يجب أحد، ولا على هاتف المترل، وحضرتك لم تستيقظ، ما هذا النوم الثّقيل؟ أيوجد أحد ينام إلى هذه السّاعة؟ لقد أصبحت السّاعة الثّـــامنة مساءً!

– آسف، أرجوكم لا تغضبوا مني.

– هيّـــا اذهب واغسل وجهك وارتدِ ملابسك ولنذهب بسرعة.

وفعلاً انطلق الأصدقاء الأربعة إلى المطعم للعشاء، فوصلوا وكانت أجواء المطعم رائعة وعائليّـــة وهادئة، فالإضاءة كانت عبارة عن فوانيس قديمة تُضاء بالكاز، والطّاولات ضخمة مصنوعة من خشب البلوط الخام، والكراسي كذلك، حتى أنّ طابع المطعم يوحي لك بأنّك في زمن الماضي، حتى الأواني والأكواب كانت فخّارية والملاعق خشبية، فكل شيء جميل مريح وقريب جدّاً للطّبيعة، فطلب الشّباب وجباهم وجلسوا يتحدّثون ريثما يصل الطعام، فبدأ أسامة كلامه ومن أول الجلسة وهو يشتكي: "أتدرون يا شباب، لا أعرف أين يُصرف ويذهب المال، يشتري الشّخص منا بضعة أشياء فيطير الرّاتب الشهريّ، لقد أصبحت أصرف على البيت أنا وحدي، أتعلمون كم هي صعبة المسؤوليّـــة هكذا؟؟"

فسأله أمين: "ما بال عمل والدك ألم يتحسّن بعد؟"

– لا يا أمين، الوضع للأسوأ، والأسوأ من ذلك أنّ صحّة والدي هي التي تتدهور ولم يستطع أن يقف في محل الخضار والفواكه كالسّابق، إنه بصراحة عَمَلٌ متعب، ووالدي لا يستطيع حمل وتفريغ مثل هذه الأشياء الثّـــقيلة، أصبحتُ أعملُ ليل نهار من وقت الصّباح حتى السّاعة السّادسة مساءً عند السيّدة هند في شركة الكمبيوتر، أما السّاعة السّابعة حتى التّـــاسعة أُعطي دروساً خصوصيّة في اللّغة الإنجليزية، وقواعد اللّغة العربيّـــة، هكذا أستطيع أن أصرف قليلاً على البيت وعلى نفسي وأُحضر أدوية لوالدي المسكين، فالحياة يا شباب بدون مالٍ لا طعم لها ولا لون.

فأجابه أمين: "أسامة أنت مخطئ، لا تنظر للحياة من باب المادّة، وتحلّى بالصّبر فالمال ليس كلّ شيء بالحياة"

– نعم يا أمين لا أمانع، لكن المال ضروريٌّ للحياة وللعيش فهو من أساسيّات الحياة الكريمة، انظر إلى حياتي الآن، أنا متعب ومهان وأتمنّى أن أجلس ساعة في البيت هادئ البال، ومن دون أيّ تفكير بالعمل أو حتّى بمصروف البيت، الحياة تمشي معي للوراء يا أمين، وأنا أتراجع هذه الأيام بدل أن أتقدّم.

فقال رامي: "منال مثلاً تعبتْ وهَلَكَت وهي تبحث عن وظيفة ولم تجد بعد، وقالت لي عندما أتخرّج من دورة الكمبيوتر هذه سأعمل بها بدل الأدب، لأنّ الجميع هذه الأيام يعتمد على

الكمبيوتر واللّغة الإنجليزية وخاصّة في العمل، ولا تدري ماذا ستفعل في شهادة الآداب التي حصلت عليها".

فسأله أمين: "لكن لماذا لم نعد نرى منال في الجامعة؟"

– لأنّ محاضرات الكمبيوتر تبدأ متأخرة حوالي السّاعة الثّـالثة والنصف، نكون قد أنهينا محاضراتنا وذهبنا؛ لذلك لن تستطيع الجلوس معنا.

لمح هاني النادل وهو يحمل الأطباق المليئة بالأطعمة الشهيّـة فقال لرفاقه:"انظروا يا أصحاب جاء الطّعام، ياه... كم رائحته طيّبة ومنظره شهيّ وكم أنا جائع!.

– هيا ابدأوا يا شباب... بسم الله "قال أمين".

وبدأ الشّباب بتناول طعامهم فانتبه أمين أنَّ أسامة لم يأكل بشهيّـة، فقال له:"ما بالك يا أسامة أتحسب نفسك تأكل هكذا؟"

فتنهّد أسامة قائلا: "آه... يا أمين لا أشعر بشهيّـة للطّعام وبصراحة لا أريد أن آكل".

فحمل هاني الطّبق الرئيسيّ وسكب لأسامة بصحنه: "هيا... هيا، لا تكن ساذجاً، خرجنا لنأكل ونستمتع ونغير جوّاً، لا لتذكر المسؤوليّات وتفقد الشهيّـة، ستأكل وتملأ معدتك".

– شكراً يا هاني، بصراحة لست جائعاً.

فترك أمين ملعقته وأبعد صحنه وقال لأسامة: "أنا لن آكل إن لم تأكل أنتَ معنا، ها أنا جالس أنتظرك، هيّـا فكّر وقل لي إذا أردت أن تأكل".

– أمين، كلْ أنت ولا تربط نفسك بي.

فأخذ أمين رغيف خبز وناوله لأسامة وقال له: هيا، لا تحمل همّ شيء، لا فرق بيننا حسابك عندي، فأنت صديقي وأخي.

فقال هاني: "لا سنتقاسم نحن الثّـلاثة حساب أسامة، هل لديك مانع يا رامي؟

– طبعاً لا... فأنا موافق.

– شكراً لكم جميعاً، أنتم فعلاً إخواني.

وتناولوا جميعاً طعامهم وطلبوا الشّاي بالنعناع، وهاني طلب النرجيلة له ولرامي، وعادوا إلى أحاديثهم فسأل هاني أمين:"ما آخر أخبارك أنت وريم، رأيتكما مؤخّراً تجلسان سوياً، هل أنهى الحبُّ إجازته وعاد للعمل أم اشتعل من جديد بعد غياب سنتين؟

– يا هاني هذه السّنة ريم متمرّدة على الوضع العام، وتريد إنهاء هذه الفوضى، فقرّرت أن أخطبها هذه السّنة وقبل أن نتخرّج ليهدأ بالها.

– وكيف ذلك، هل أقنعتْ والدها؟

– طبعاً، لا.

– لا...! إذن ما الجديد؟

– محتارٌ لدرجة كبيرة وأشعر أني مقيّد لا أعرف التصرّف، أريد أن أتقدّم لخِطبتها رسميّـاً، وأخاف من هذه الخطوة، فأخسرها.

– لم تقل لي كيف ستتقدّم لخِطبتها، هل من جديد؟

– ريم ستقيم حفلاً لعيد ميلادها الأربعاء المقبل، واتّــفقت مع والدها أن أقوم بطلبها منه، ومن ثمَّ سيفتح والدها الموضوع مع أمها ويقنعها بي، أنا لا أرى أنّها خطوة جيّدة لكن هذا الذي سيجري.
– أنا أراه تقدّماً ملموساً أن يوافق والدها عليك يا أمين، وربّما يقنع أمها وتصبح خلال شهر صهراً للعائلة من يدري؟
– لا تكن خياليّـــاً زيادة عن اللّزوم، أنا خائف من هذه الخطوة وأشعر أنها جريئة لدرجة الخطورة.

فقال رامي: لا أين الخطورة؟ أأنت ستلتحق بالجيوش المحاربة مثلاً؟ هي مجرّد طُلبة للزواج.

– يجب أن تقفوا بجانبي وتدعموني أمام والد ريم.

فقاطع رامي موضوع أمين قائلاً:"صحيح هل ستذهبون إلى الرحلة".

قال أسامة: "بصراحة أنا لا أستطيع فتكاليف الرّحلة مئة دينار، وأنا لا أقدر على ذلك"، أما هاني قال: أنا سأذهب وغداً سأسجّل اسمي وأدفع – هذا إذا ذهبتم أنتم–

تحمّس أمين وقال:"نعم قرّرت أن أذهب، سأسجّل اسمي غداً معك؟ أريد أن أشعر بمتنفّس.

– وسأذهب أنا أيضاً، وكذلك منال... سأسجل أسماءنا أنا وأختي.

فنظر أمين لأسامة وقال: "ما رأيك يا أسامة أن تذهب للرّحلة وأدفع لك التكاليف؟ "فأجابه أسامة: "لا يا أمين، لقد سبق وأخذتُ منك مبلغاً من المال، وللآن لم أسدّده لك، لا...لا تحرجني، أفضالك كثرتْ عليّ؟

– لا أحرجك يا أسامة– معاذ الله– أنا أساعدك بعهد الصّداقة والأخوّة التي بيننا، وأنت تعرف لا يحلو لنا طعم ولا فرح بالرّحلة إلاّ معك، نحن أربعتنا اعتدنا على بعض، ولا أريدك أن تتفوّه بكلمة واحدة، ستذهب للرّحلة يعني ستذهب.
– أشكرك يا أمين، أنا أشعر بالسّعادة والتّعاسة في آن واحد، بالسّعادة لأنّ لديّ أصدقاء لا أستطيع أن أعوّضهم بمال الدّنيا، أما التّعاسة فوضعي الماديّ يزيدني حرجاً أمامكم ويقلّل ثقتي بنفسي أمامكم، أشعر أني أقلّكم حظّــاً وأكثركم تعاسة.

فقال هاني: "لا يا أسامة كلّ واحد منّا لديه مشاكل ولا يوجد إنسان بالدّنيا مرتاح".

وأكمل أمين مُثنياً على كلام هاني:"يا أسامة أنت ليس بأقلنا حظاً ولا حتى أكثرنا تعاسة. إذا نظرت لحالي لأشفقت عليّ، أنت الحمد لله وما شاء الله صحّتك بألف خير، لا تعاني من مرض أو علّة مثلي – لا سمح الله– إنّ نعمة الصّحة هي أكبر نعمة عند الإنسان، لذا لا تيأس فالحياة أمامك، وكما أنك لا تعيش وحدك بين الجدران وبيت فارغ مع أنه ممتلئ بالأثاث فقط، لديك والد يحبّك، أنا أتمنّى لو أبقى بالجامعة؛ لأظلَّ محاطاً بالنّـــاس من حولي، وأحياناً أخرى أشعر بالعكس تماماً أريد أن أعزل نفسي... اعتدت على الجلوس وحيداً وأشعر أني لا أريد رؤية أحد فالوحدة أصبحت من مواصفات جلستي في المترل، مع أنّ الوحدة قاتلة يا أسامة، هذا بالإضافة إلى حالة الرّفض اليائسة التي تعترضني وتقف في طريق سعادتي.

وبعد هذه السّهرة الجميلة التي سهرها الأصدقاء الأربعة ذهب كلّ واحد منهم إلى بيته ليلتقوا غداً في الجامعة ويبدأ يومهم من جديد.

في اليوم التالي انتظرت ريم جميع أصدقائها حتى اجتمعوا حول الطّاولة في الاستراحة لتقوم بدعوتهم لحفلة عيد ميلادها، فقالت لهم: "يا جماعة أنتم مدعوون إلى حفلة عيد ميلادي في منزلي يوم الأربعاء المقبل السّاعة السّابعة مساءً، وأريد من الجميع الحضور وسأحزن جداً إذا قام أحد واعتذر عن الحضور، أرجوكم لا تنسوا".

– كلّ سنة وأنتِ بألف خير يا ريم وعقبال المئة عام... قالت لها نسرين.

– وأنتِ بألف خير يا نسرين أشكركِ.

ووعدها الجميع أن يأتوا ولن يتأخروا عن الحفلة .

كان كل يوم ينتهي من أيام الأسبوع يشعر أمين بالخوف والتوتّر؛ لأنه يخشى من مقابلة هند. فقبل يومٍ من عيد الميلاد ذهب أمين لمحل ملابس شبابية جميلة ذو ماركة عالميّة مشهورة، ليشتري ملابس تناسب حفلة عيد الميلاد وبنفس الوقت تكون رسميّة تناسب موقف التقدّم لطلب العروس من والدها.

فدخل المحل وبدأ أمين يتأمّل الملابس جيداً، القمصان... السراويل... المعاطف، وغيرها مثل ربطات العنق، ثمَّ وقف عند قميص أعجبه كان مميزاً، قميص تتداخل به الخطوط بالطّول والعرض–كروهات صغيرة– تأخذ هذه الخطوط الألوان البرتقالي الفاتح مع البني الغامق والبيج وخطوط رفيعة جداً بيضاء، فأُعجب أمين بالقميص وطلب من البائع أن يساعده ليختار عليه طقماً، فاختار له البائع بدلة (طقماً) بني اللّون غامق، وكان ذو تفصيلة حديثة تشعُّ منها روح الشّباب، ونصحه البائع بعدم وضع ربطة عنق وترك قبّة القميص مفتوحة، فقام وجرّبها أمين كاملة في المحل، فكانت رائعة الجمال كاملة الأناقة، فاشترى أيضاً حذاءً من الشاموا البنيّ، وشعر أنه أصبح الآن مستعدّاً نوعاً ما للحفلة، وأكمل طريقه ليشتري هديّة لريم، فذهب لمحل بيع الذهب واشترى لها سِواراً جميلاً من الذّهب الأبيض الخالص، وعلى السّوار حبّات صغيرة من الماس مصفوفةً حول السِّوار بطريقة جميلة، وعاد للبيت ينتظر غداً بفارغ الصّبر.

أنهى الأصدقاء دوامهم بالجامعة هذا الصباح، فاتّفق الشّباب أن يمرّ عليهم أمين ويأخذهم لبيت ريم وقت الحفلة، أما الفتيات اتّفقن على أنَّ والدة ديالة هي التي ستوصلهنَّ إلى بيت ريم.

جلس أمين مع ريم قليلاً قبل أن تغادر الجامعة فقال لها: "يا ريم أنا خائف من هذه الزيارة اليوم لا أعرف وكأنّي لا أشعر بالارتياح".

فأجابته ريم بكلِّ تفاؤل: "لا على العكس يا أمين يجب أن تكون متحمّساً ومسروراً، لأنَّ أبي سيُحلّ لنا الإشكال ويقنع والدتي بعد الحفلة".

– أنا فقط لا أعرف كيف سألقي السّلام على والدتكِ؟ أو كيف سأجلس أمامها؟ أشعر أنها لا تحبّ رؤيتي، وشعوري أنّي غير مرغوب به.

– أمين لا تقلق، والآن عليَّ أن أذهب لأنَّ ورائي ألف عمل أقوم به الآن، أراكم مساءً لا تتأخروا، وأنا متشوّقة لرؤية الملابس الجديدة التي سترتديها اليوم، إلى اللّقاء.

- إلى اللّقاء...

عاد أمين إلى البيت، وجد خالته قد وضعتْ له طعاماً على الطّـاولة بالمطبخ، فسرَّ كثيراً لأنه كان جائعاً... فتناول طعامه وذهب عند خالته؛ ليشكرها على الطّعام.

- مرحباً خالتي، كيف حالكِ؟
- أهلاً عزيزي أنا جيّدة وأنت؟
- الحمد لله... أشكركِ على الطّعام منذ مدّة طويلة لم آكل الملوخيّـة مع الدّجاج، والبطاطس المقليّـة كانت رائعة، أشكركِ خالتي الغالية أنتِ أهلي وعائلتي، أشعر أنكِ أمي وأبي وأخواتي كم أنا أحبكِ.
- يا حبيبي... يا أمين، لا شكر على واجب، أنت ابني الأوّل ربيّـتك منذ أوّل يوم فتحت به عيونك على هذه الدّنيا، لكن ما لم يكن بيدي كيف ابتعدت عني وعشتَ عشر سنوات في تلك المدرسة.
- يا خالتي لا عليكِ، الخيرة فيما اختاره الله، لا مشكلة فهي كانت بيتي الثّـاني اعتدت عليها وأُجبرت أن أحبّها فأحببتها.
- اجلس لـمَ أنت واقف؟
- شكراً خالتي، أريد أن أذهب لأنام ساعة ثمَّ أجهّز نفسي لعيد ميلاد ريم، فأنا أشعر بالتّعب والإرهاق، ولا أريد أن أزداد سوءاً في المساء عليّ بالرّاحة والنوم.

عاد أمين للبيت واستبدل ملابسه وأخذ دواءه ونام، كانت السّاعة حوالي الثّـالثة والنصف، حيث قام بضبط المنبّـه الموجود في هاتفه على السّاعة الرّابعة والنصف.

أما ريم في هذه الأثناء ذهبت هي وديالة ومنال إلى مصفّف الشّعر لتصفيف شعرهنَّ، أما نسرين فلا تحتاج لتصفيف شعرها لأنها محجّبة، ولن تذهب معهن وستلحق بهنَّ وحدها.

استيقظ أمين تمام الرّابعة والنصف لكنه كان يشعر بالنّعاس، فقام متكاسلاً إلى المطبخ يمشي ببطء شديد، وأعدّ كوباً من الشّاي مع الحليب، وأخذ كوبه وجلس مقابل التلفاز على الكنبة وأدار التلفاز بجهاز التحكّم (الريموت) لكنّ صوت التّـلفاز كان خافتاً جداً ولم يقم برفعه، بل غرق بالأفكار ونسي أنّ أمامه تلفاز مضاء يتحرّك ويتكلّم، وما إن أنهى كوب الشّاي حتّى ذهب على الفور إلى الحمام؛ لكي يأخذ حمّاماً ساخناً ويحلق ذقنه، وبعد انتهائه من الحمّام نظر إلى ساعة الحائط المعلّقة في المطبخ، فكانت حوالي الخامسة والنّصف، ما زال الوقت مبكّراً لموعد الحفلة... فدخل غرفته ونشّف جسده وارتدى (البيجاما)، وجلس أمام التلفاز مرة أخرى.

أما ريم وصديقاتها فقد انتهين من مصفّف الشّعر وذهبن لبيت ريم، كان الوقت قد قارب على السّادسة، فدخلت الفتيات إلى الغرفة لارتداء ملابس الحفلة فجميعهنّ أحضرن ملابسهنّ ووضعنها عند ريم قبل ذهابهنّ لمصفّـف الشعر.

كانت والدة ريم في هذه الأثناء قد أعدّت بعض المأكولات وأحضرت كعكة العيد، واشترت أيضاً مأكولات أخرى من المطعم، وكان كلّ شيءٍ جاهز.

ارتدى أمين ملابسه وكان في غاية الأناقة ورفع شعره البني الغامق للخلف، ووضع من عطره ذي الرائحة الزّكية على رقبته وعلى معطف البدلة، فكانت وسامته تفوق كلّ الشّباب، ثم أطفأ أضواء المترل والتّلفاز وحمل الهديّة وخرج.

وكما اتّفق أمين مع أصدقائه مرّ عليهم بسيّارته وذهبوا جميعاً إلى بيت ريم، وعندما نزل أمين من السيّارة، قال له هاني: "ما ماشاء الله ثيابك جميلة ومنظرك العام يدلّ على أنك عريس، وكذلك رامي وأسامة أبديا إعجابهما بالملابس المميّزة، فصعدوا للأعلى ثمَّ طرق هاني الباب، وكان يقف وراءه أمين والباقي بجانبه، ففتحت لهم ريم وكانت هي الأخرى في غاية الجمال والأناقة، ارتدت فستاناً أزرقاً طويلاً ضيّقاً أكمامه عريضة، وقبّته مفتوحة.

سُرَّ أمين وارتاح نفسيّاً عندما فتحت لهم ريم الباب، ولم تكن والدها.

– أهلاً وسهلاً تفضّلوا جميعاً.

– كل عام وأنتِ بخير يا ريم، عيدكِ مبارك. (بارك لها هاني بالعيد وقدّم لها الهديّة ودخل).

ثمَّ دخل وراءه أمين وقال لها بصوت منخفض جداً: "كلّ سنة وأنتِ طيّبة يا حبيبتي، أنا أرى ملاكاً يقف أمامي... وقدّم لها الهديّة".

– أشكرك يا أمين وأنت تبدو رائعاً وأنيقاً وثيابك مميّزة ومختلفة، تفضّل واجلس، أبي يجلس هناك... انظر، حاول أن تجلس بقربه، وأنا سآتي بعد قليل لأعرّفك عليه لكن من دون أن ألفت انتباه أمي، هيّا تفضّل.

– حسناً.

ودخل أسامة ورامي وسلّما على ريم وباركا لها وقدّما لها الهدايا. وبقيت ريم عند الباب تستقبل الضيوف، لقد جاءت بعد ذلك نيرمين، وجاء أولاد وبنات العمّ وبعض الجيران، ثم ذهبت ريم عند والدها وعرّفته على أمين: "أبي... أعرّفك بالمهندس أمين شاكر زميلنا في الجامعة، هو بكليّة الهندسة المعماريّة"

"وهذا أبي يا أمين".

– أهلاً وسهلاً يا سيّدي، فرصة سعيدة.

وجلس والد ريم يسأل أمين بعض الأسئلة عن حياته ودراسته وعن حبّه لريم، وفي الحقيقة أُعجب جدّاً به وبأخلاقه وأدبه وطريقة حديثه، ولم يكن يتصوّره هكذا، بل كان يتوقّع شاباً أقل من ذلك بالفهم والأدب والجمال... فأحبّه واحترمه.

أما ريم فكانت تجلس مع صديقاها تارة، وتارة أخرى مع الأقرباء ومع الزّملاء وتجامل هذا وذاك، ولم تجلس مع أمين أو تكلّمه أبداً، بل كانت تنظر إليه من بعيد لبعيد.

وبعدما أنهى والد ريم حديثه مع أمين جاء هاني وجلس بجانبه، وقال له: "كيف سارت الأمور بينك وبين والد ريم؟"

فقال له أمين: "اخفض صوتك كي لا يسمعنا".

– إنه لا يسمعنا فهو يتكلّم مع صديقات ريم، كما أنني لا أقول شيئاً يُعاب، أسأل فقط عن الأمور.

وأكمل أمين كلامه بصوت منخفض: "جيدة جداً... أشعر أنني مرتاح قليلاً، يظهر أنَّ والد ريم استلطفني... من يدري؟"

– ومتى ستطلب ريم منه؟

– بصراحة هذه النّقطة التي تقلقني، لا أدري... ما رأيك أنت؟ انصحني يا هاني!

– أفضل شيء عندما نجتمع جميعاً حول الطّاولة لإطفاء شمعة العيد، وبعد أن تُطفئ ريم الشّمعة تنتهز الفرصة وتتقدّم لطلبها.

– أتعتقد أنها ستكون اللّحظة المناسبة؟ أم أنتظر بعد تناول الطعام؟

– لا لماذا تؤجّل الموضوع للنهاية، بل كن مستعدّاً بعد إطفاء الشّمعة ولا تتأخر... أنت لن تخسر شيئاً؛ لأن والدها لن يعطيك جواباً الآن، بل سيترك الموضوع معلّقاً كما أفهمتك ريم، وهذا لحين إقناع والدتها فلا تقلق ولا تخف.

– أخاف أن أتسبّب بالفوضى إذا أصبح الموضوع علناً أمام الجميع.

– كلا... على العكس يا ذكّي، فأنت ستضع والدتها تحت الأمر الواقع أمام الجميع.

فنظر أمين بقلق وقال لهاني: "ربّما!"

ثمَّ جلست ريم بجانب والدها وقالت له بصوت خافت: "ما هو انطباعك الأوّل يا أبي العزيز؟"

– أجده شاباً لا بأس به.

– لا بأس به...! بل هو رائع!

– نعم، لكن لم أدرس شخصيّته كما يجب، لا أستطيع أن أحكم عليه من جلسة واحدة، وفي ربع ساعة فقط.

– يا أبي الإنسان يُعرف من النّظرة الأولى.

– انطباعي الأوّل عنه ممتاز، لكن لا بدَّ من الخوض في تفاصيله أكثر ولا تقلقي، هيّـــا الآن اذهبي وأحضري الكعكة وأشعلي الشّمعة وساعدي أمكِ بالمطبخ.. لقد حان الوقت. لا نريد أن نؤخّر الضّيوف أكثر من ذلك.

انتبهت والدة ريم بوجود أمين يجلس بين الضّيوف، فنادت ريم وقالت لها بصوت خافت: كيف جاء أمين للحفل؟

– طلبت من أبي فوافق أن أدعوه.

وبغضب وصوت خافت أجابت والدة ريم: حسناً ياريم حسابكِ معي ليس الآن، لا أريد أن أعكّر مزاجكِ، بعد أن يذهب الجميع حسابكِ عسيراً جداً وسترين الوجه الآخر من أمكِ.

– أمي ما قصدكِ! لقد أخذت الإذن من أبي.

– وكسرتِ كلام أمكِ... طيب طيب ياريم بعد الحفل سأتدبّر أمركِ... اذهبي من وجهي الآن، أنا أركض من أجلكِ بالمطبخ وبتحضيرات الحفل وأنتِ لا تأبهين بما تكلّمنا واتّــفقنا عليه.

وذهبت ريم على الفور خائفة وقلقة من الوضع، وقالت في نفسها لن يكون الوضع مناسباً ليطلبني أمين اليوم سألغي الفكرة، فأمي سيئة المزاج... ووقفت بجانب هاني وقالت له: اذهب وأخبر أمين أن لا يطلبني الآن.

– لـــمَ لا تخبريه أنتِ...

– لا أريد أن تنتبه أمي أني أكلّمه.

– هل أخبره الآن؟

– نعم حالاً أرجوك

– ولـــمَ العجلة؟

– هيّـــا يا هاني...

وبسبب صوت الموسيقى العالية بالحفل سمع هاني ريم تقول له أخبر أمين أن يطلبني الآن، ولم يسمع (لا يطلبني)، فذهب لأمين وقال له: تشجّع يبدو أنّ الأمور على مايرام ريم تقول أطلبها الآن من والدها.

– يا إلهي قلبي سيقف، كم أشعر بضغطٍ نفسيّ ولديّ رغبة بالبكاء.

جهّزت هند الطّاولة كاملة ولا ينقصها شيء، وأشعلت الشّمعة في وسط قالب الحلوى الكبير، وقالت للضيوف: "هيّـــا تفضّلوا إلى الطّـــاولة"، فتجمّع الجميع حول الطّاولة الممتلئة بأشهى الأصناف وتفوح منها رائحة الطّعام الشهيّـــة، فغنّوا لها وأطفأت ريم الشّمعة وصفّق لها الجميع، وبدأت تقطّع قالب الحلوى.

جاء هاني بجانب أمين حيث كان يقف بعيداً جداً عن ريم ووالديها، وقال له بهمس: "هيّـــا ما بك اطلب الفتاة".

فأجابه أمين بتردّد: "انتظر قليلاً ريثما تنتهي ريم من تقطيع القالب".

– ولماذا تربط نفسك بتقطيع القالب، هيّـــا انتهز الفرصة.

– بصراحة... لا أراها فرصة جيّدة لأنتهزها.

– لماذا هيّـــا، هل أطلبها أنا عنك؟

– لا، لكن أمها تنظر إليّ من حين إلى آخر بنظرة غير مريحة، وكأنها ترى عدواً لدوداً، هذا بالإضافة إلى أنها ألقت التحيّـــة عليكم جميعاً، إلا أنا فلم تهتمّ لوجودي كأني غير موجود أصلاً.

– لا تبالي بالأمر ولا تزعج نفسك، المهم الآن أنّ والدها هو الذي سيقف بجانبك، هيّـــا...هيّـــا تشجّع.

ثم جاء رامي بجانب أمين وسأله: "متى ستطلب ريم أم غيّرت رأيك؟"

– كفى إلحاحاً، يا للفضيحة حسناً...حسناً...سأطلبها... وأخذ أمين نفساً عميقاً وهو يحمل همَّ الموضوع.

– ما بك تقولها بتردّد وتتنهّد... هيّـــا تشجّع.

أخذ الجميع الأطباق ليسكبوا الطّعام، وريم كانت تساعد ضيوفها في ملء الأطباق بالطعام، ووالدا ريم يقفان بجانبها يساعدانها، ثمّ اقترب أمين قليلاً من الطّاولة وهو يحمل طبقاً لتضع له ريم بعض الطّعام، فوضع طبقه على الطّـــاولة، فقالت له ريم: هل أضع لك يا أمين من هذه المعكرونة... أم من هذا الصنف؟

سحب نفساً عميقاً وقلبه يتسارع وقال: "لا بأس يا ريم أيَّ شيء" ووجّه نظره لوالد ريم وأكمل: "لكن في البداية أريد أن أنتهز هذه الفرصة الجميلة والمناسبة الرائعة وأتقدّم إليك يا عمّي، وأطلب منك طلباً فلا تردّني خائباً"

– فأجابه والد ريم تفضّل أنا أسمعك؟

"يشرّفني يا عمّي ويزيدني سعادة أن أتقدّم لخِطبة ابنتك ريم"، وسكت أمين ينتظر الجواب المؤقّت، وريم قلقة ومتفاجئة من تصرّف أمين ونظرت لهاني نظرة استنكار، وقلبها كان يدقُّ كقرع الطّبول من الخوف، أما والد ريم فابتسم لأمين بهدوء وأراد أن يتكلّم، فسبقته والدة ريم وبسرعة قالت:"لحظة...لحظة" ومشت لعند أمين ووقفت أمامه، وقالت له: "لم أنتبه ماذا قلت؟!!" وكانت في غاية الغضب من الكلام الذي سمعته، ونظرت لأمين نظرة شرٍّ... فخاف أمين من ردّة فعل هند.

وبكلِّ طيبة واحترام أعاد أمين كلامه: "يا سيّدتي... يشرّفني أن أتقدّم لخِطبة ريم".

فصرخت هند بصوت عالٍ في وجه أمين: "أنت لا تفهم؟ أو انك مجنون! طبعاً لا، طلبك مرفوض"وصفعته بكفّها على وجهه صفعة عصبية قويّـــة، فاستهجن المدعوّون الموقف فبعضهم شهق، وبعضهم لم يستطع التكلّم وتجمدت الأنظار، أما أمين فلم يستطع سحب أنفاسه وغصَّ البكاء في حلقه، وامتلأت عيناه بالدّموع بسرعة مذهلة، وعلى الفور هرع إلى باب المنزل وفتحه ونزل مسرعاً جداً على درج العمارة، وكأنه يهرب من شبحٍ هند المخيف، وبدأت ريم تنادي "أمين... أمين" وبالطبع لم يهتم لمناداة أحد، فركض وراءه أصحابه الشّباب، وجلست ريم تبكي وصديقاتها من حولها يُهدئن الوضع.

أما هند فقالت لتبرّر فعلها السخيف:"سامحوني لحظة غضب...جنَّ جنوني من هذا التافه،كيف يجرؤ؟!! أعترفُ أنها ردّة فعل قوية ومبالغ فيها لكنّه يستحق كي يتعلم."

فتح أمين سيارته المركونة أمام العمارة وجلس فيها، كان كلُّ جسده يرتجف، وأغلق الأبواب لكي لا يدخل عنده أحد، فوضع رأسه على المِقود متألّمـــاً يشعر بضيق في صدره، وزفرات الألم تعصر قلبه، لا يستطيع القيادة، فوقف هاني بجانب النّـــافذة اليسرى لسيّـــارة أمين، ينقر على زجاج النّـــافذة وهو يقول: "أمين افتح أرجوك، أريد أن أكلّمك، أمين لا أريدك أن تقود وأنت في هذه الحالة، افتح يا أمين لنا الباب"، وطبعاً أمين لم يفتح ولم يهتم، بل بقي خافضاً رأسه على المِقود مستنداً عليه يرتجف، أمّا أسامة ورامي فكانا يقفان عند النافذة الثّـــانية، يقولان لأمين نفس الشيء افتح يا أمين نريد أن نطمئنّ عليك افتح أرجوك"، ونزلت ريم بسرعة لتطمئنَّ على أمين، فوقفت بجانب هاني عند النّـــافذة وقالت لأمين وهي تبكي: "أمين لو سمحت افتح الباب أريد أن أكلّمك، أمين أتوسّل إليك افتح، وأخذت تدق على الزجاج وتقول: "افتح لي أرجوك... افتح".

صُدم أمين صدمة كبيرة لم يتوقّع ردّة فعل هند بهذه القسوة لقد جرحت مشاعره، وأهانته أمام جميع المدعوين... لقد استخفّت بأحاسيسه وبإنسانيّــته، هي قويّــة وجريئة نعم... لكن لم تراعي مشاعر البشر. ربما مبرّرها الوحيد أو حجّتها لهذا التصرّف هي الخيانة التي ذاقت طعمها منذ سنين من صديقتها وزوجها السّابق- والدا أمين- فهذه التجربة القديمة جعلتها امرأة متسلّطة. هل من الممكن أن تمرّ كلُّ هذه السنين وتبقى الذكرى المؤلمة في قلب الإنسان لدرجة أنها تجعله إنساناً متمرّداً على الظّروف! أين نعمة النسيان إذن في هذه الحالة؟ النسيان نعمة علينا دائماً أن نتذكّر أنَّ لدينا نسياناً نستخدمه لمحو ذاكرة الآلام، لننعم بحياة أفضل بالمستقبل، لكن يظهر أنَّ هند نسيت النسيان... وأبقت الآلام تشتعل في ذاكرتها لدرجة أنها تبثُّ كراهية لأيِّ شخص له علاقة بعُقدها الماضية.

سحب والد ريم زوجته هند لغرفة النّوم يعاتبها على التصرّف السيّء الذي قامت به، أما ريم وباقي الأصدقاء فبقوا يدّقون على زجاج النّــافذة "أمين افتح" أصبحت ريم تصرخ وتبكي. ففتح أمين قفل الباب بيده دون أن يرفع رأسه أو يلتفت لا يريد رؤية أحد.

فتحت ريم الباب بسرعة ومسكت أمين من كتفه وقالت له بلهجة خوف وقلق شديد: "أمين استدر...انظر إليّ أرجوك...أمين ارفع رأسك"كان أمين يشعر بدوار في رأسه وضيق في صدره، فرفع رأسه وأداره ليرى ريم، فصرخت: "يا إلهي دماء تملأ وجهك وثيابك..." وأصبحت ترجف وتبكي من منظره وتوتّرت...فالتفّ هاني وركض لفتح الباب الأماميّ الآخر من الجهة الثّــانية وجلس بجانب أمين، ومسك برأس أمين ورفعه، وطلب من رامي زجاجة ماء بارد وأيّ قطعة قماش، فصعد رامي مسرعاً هو ومنال لبيت ريم لإحضار الماء البارد وقطعة القماش، أما ديالة ونسرين وأسامة فجلسوا في المقعد الخلفيّ من السيارة ليطمئنّوا على أمين ويكونوا قريبين منه.

وضعت ريم يدها وراء رقبة أمين لتسند رأسه لأنه يشعر بالدّوار، وقالت: "ما كلُّ هذه الدّماء؟" وهي متوتّرة والدّموع في عينيها.

فأجابها هاني: "هذا نزيف من أنفه يظهر أنَّ والدتكِ عندما صفعته على وجهه، جاءت الضّربة قريبة من شريان صغير في الأنف، فانفتح ونزف من الضّربة ومع تسارع ضربات القلب ازداد النّــزيف".

جاء رامي ومنال مسرعين معهما الماء البارد، ومنشفة قطنيّــة صغيرة، فسكب هاني الماء على وجهه لينتعش ولكي لا يزداد الدّوار عنده وليُعيد صحوته، فقال له هاني وهو يهزّه بخفة: "أمين لا تغلق عينيك افتحهما، تماسك لا نريد أن تفقد وعْيَك...أرجوك أمين اصحَ انظر إلى وجهي لا تذهب عن الوعي...أمين".

فأجابه أمين وهو متعب ويلهث ويتكلّم ببطء: "آه... نعم... أنا صاحٍ لكني متعب".

وبلّل هاني المنشفة وأخذ ينظّف له وجهه ليستعيد نشاطه ولا يذهب في غيبوبة من الدّوار أو بنوبة قلبيّــة، فبقيت ريم واقفة بجانب أمين. وتقول له: "آسفة يا أمين،لم أتوقع أنَّ شيئاً كهذا سيحصل...آسفة يا حبيبي لا تغضب مني سامحني". ودموعها تملأ عينيها. فرفع أمين يده اليسرى

الملطّخة بالدّماء وكأنه يريد أن يُمسك بيد ريم، وفجأة وضع يده على صدره وبدأ يتأوّه من الألم، ويستصعب لفظ كلماته وأنفاسه:"آه... صدري... قلبي...قلبي سيقف آ..."

وبسرعة قام هاني وصرخ برامي: "التفت يا رامي وتعال واحمل معي أمين لننقله إلى المقعد الآخر، سأقود السيّارة وننقله للمستشفى". وفعلاً حملاه ووضعاه على المقعد الأماميّ الآخر، وركب هاني السيّــارة مكان أمين، وتحرّكوا...كان معهم بالخلف نسرين و ديالة وأسامة، أما منال وريم ورامي فبقوا على الرّصيف ينظرون للسيّــارة وهي تغادر مسرعة، فقال رامي: "اصعدي ريم للبيت وسنذهب أنا ومنال للمستشفى في سيّــارة أجرة، ومن ثمَّ نطمئنكِ عليه بالهاتف، هيّــا اصعدي لبيتكِ"

– لا أرجوك دعني أذهب معكما.

قالت لها منال: "يا ريم لا نريد زيادة المشاكل إذا خرجتِ دون علم والدتكِ ستسوء الأمور، اصعدي ورطّبي الجوّ بين المدعوّين المتبقين".

– لا لن أصعد ولا حتى أريد رؤية أحد، ولن تسوء الأمور أكثر من ذلك، لقد انتهى كلُّ شيء وستختلف الأمور منذ الآن وصاعداً.

فقال رامي: "ماذا تقصدين؟"

– لا شيء دعنا نذهب، وعندما أعود سأواجه والدتي، هيّــا أسعفنا بسيّــارة أجرة لنستطيع اللّحاق بهم.

وفعلاً ركبوا السيّــارة واتّصل رامي بهاتف هاني النّــقال ليعرف إلى أيّ مستشفى قد ذهبوا.

– ألو مرحباً هاني، أوصلتم إلى المستشفى؟

– لا ليس بعد، بل قاربنا على الوصول.

– إلى أيِّ مستشفى ستذهبون؟

– إلى مستشفى الأزاهير.

– وما هذا الصّراخ في السيّــارة معكم؟...سمع رامي صوت أحد الفتيات تصرخن.

– إنّما ديالة تصرخ خوفاً من السّرعة الجنونيّــة التي أقود فيها...نريد أن نصل يا رامي...لا تقلق.

– لا أرجوك انتبه، نريد أن تصلوا بالسّلامة... كيف أصبح أمين؟

– على حاله، لكن اللّقاء.

ثمَّ نظرت نسرين إلى أمين فرأته غير متماسكٍ، وكأنه غائب عن الوعي فقالت بصوت عالٍ: "هاني انظر إلى أمين كأنه فقد وعيه".

فنظر هاني إليه وأصبح يكلّمه: "أمين...يا أمين، أرجوك يا عزيزي تماسك قد وصلنا،لا تغلق عينيك، أرجوكم تكلّموا معه لا تجعلوه يغيب عن الوعي".

وصل هاني على الفور إلى قسم الطّوارئ وفتح الباب، وركض ونادى ممرضاً ومعه السّرير المتحرّك وحملوه وأدخلوه إلى غرفة الطّوارئ، وكان بين الوعي واللّاوعي، والألم يجتاح صدره، وبدأ الأطباء بعمل اللّازم له، أما أصدقاءه فانتظروه في غرفة الاستراحة، كانت ريم قلقة جداً،

ديالة ونسرين تتحدّثان بما جرى... أما منال كانت تجلس بجانب ريم تهدّئها، وأصدقاؤه الشّباب يجلسون من دون كلام يشعرون بالحزن ينتظرون خروج الطّبيب ليطمئنّهم.

فقال أسامة لهاني: "هل كلّمت خالته وأخبرتها؟" فأجابه هاني: "لا ليس الآن، عندما نطمئنّ عليه ونشعر أنَّ حالته استقرّت فنكلّمها".

ثمَّ خرجت الممرضة وقالت لهم: "هل يعرف أحدكم ما اسم الطّبيب المشرف على حالة أمين".

فنظروا لبعضهم، ولم يعرف أحد اسم طبيب أمين، فقال هاني: "بصراحة كنت أعرفه لكني لا أذكره...كيف غاب الاسم عن بالي؟"

فقال رامي: "في محفظته يضع بطاقة الطبيب".

"أين محفظته"؟ سأل أسامة.

قال هاني: "ربما في بنطاله، اسأليه أنتِ أيتها الممرضة".

فقالته له الممرضة: "إنه فاقد الوعي، ولا يمكنه التحدّث"وذهبت الممرضة.

فصرخ الجميع بأصوات مختلفة: "فاقداً الوعي" وأصبحت ريم تبكي، وحزن الجميع عليه، قال أسامة: لم يكن فاقداً الوعي عندما أحضرناه إلى هنا، فأجابهم هاني إنه متعب جداً، وفور وصولنا كان على وشك أن يفقد وعيه، لقد توتّر وضغط على نفسه، هذا الذي زاد حالته سوءاً وأثّـــر على قلبه.

"مسكين يا أمين" قالت منال.

ثمَّ عادت الممرضة وقالت لهم: "لا يوجد في جيب بنطاله شيء، لا محفظة ولا حتى أيَّ شيء آخر، حاوِلوا العثور على اسم الطّبيب المشرف".

– أين معطف بدلة أمين؟ ربّما المحفظة في جيب المعطف...سأل رامي.

"لم يكن مرتدياً معطفه عندما أحضرناه للمستشفى"... قال هاني.

ثمّ قالت ريم: "نعم.. لقد تذكّرت، خلع معطف البدلة ووضعه على الكنبة في غرفة الضّيوف في بيتنا، هذا قبل تقطيع قالب العيد ميلاد، لابدَّ أنَّ معطفه بقي في بيتي".

فقال لها هاني: "أنتِ يا ريم لا تعرفي اسم الطبيب؟ "

– أعرف أنه الدّكتور معاذ لكن لا أذكر الاسم كاملاً.

– إذاً لابدَّ من مكالمة خالته، ربّما هي تعرف اسم الطبيب."

"هيّـــا يا هاني، اتّصل بسرعة"... قالت ديالة.

وفعلاً اتّصل هاني وأخذ اسم الطّبيب وأعطى الاسم للممرضة لتقوم بالاتّصال به على الفور، أما خالة أمين فبدّلت ملابسها وكانت خلال ربع ساعة في المستشفى لتطمئنّ على أمين.

وبعد ساعة تقريباً خرج الطّبيب معاذ من عند أمين، فرأى أصدقاءه يجلسون في الخارج ينتظرون فوقف معهم وطمأنهم: "لقد استقرّت حالة أمين الآن ولا خوف عليه، واستطعنا بفضل الله تعالى أن نعيده إلى وعيه، وأن لا يذهب في غيبوبة، إنه أفضل حالاً، إذا أردتم رؤيته تفضّلوا لكن اثنان... اثنان، ولا تدخلوا جميعاً، هو ما زال متعباً فلا ترهقوه بالكلام.

فدخلوا عند صديقهم أمين كما أوصاهم الطّبيب بالتّـــناوب، كان وجه أمين مصفرّاً شاحباً، وهو محاط بأجهزة القلب والنبض والتنفّس.

ودخلت ريم عنده هي ورامي، لم تتفوّه بكلمة واحدة، كانت تشعر بالأسف والأسى على حالته، فوقفت بجانبه ومسكت يده قليلاً، ثمَّ خرجت مسرعة وأصبحت تبكي خارج غرفته، أمّا رامي فلم يقل أكثر من كلمة حمداً لله على سلامتك يا أمين، لقد خفنا عليك جميعاً، ووقف قليلاً عنده وذهب، وبعد أن اطمأنّ الجميع عليه، ودّعوه وتركوه ليرتاح.

ذهب رامي ومعه أخته منال في سيّـــارة أجرة إلى منزلهم، وأخذ هاني أصدقاءه أسامة وريم ومنال ونسرين في سيّـــارة أمين ليوصلهم إلى بيوتهم، بقيت ريم طيلة الطّريق تعاتب نفسها وأنها هي السبب في هذا كلّه وقد سببت لأمين الإحراج الشّديد والألم، وفي نهاية المطاف ركن هاني السيّارة مقابل عمارة أمين بعد أن أوصل الجميع، وصعد إلى منزل خالة أمين ليعطيها المفتاح ودقّ عليها الباب ففتحت له: "أهلاً هاني تفضّل".

– لا أشكركِ يا خالة، لكن أريد أن أعطيك مفاتيح سيّـــارة أمين ومنزله. لقد ركنتها مقابل العمارة، تفضّلي هذه هي المفاتيح.

– أشكرك يا هاني، لقد تعبت مع أمين اليوم، كيف ستذهب؟

– لا شكر على واجب، أمين صديقي وأخي، وبالنسبة للعودة سآخذ سيّـــارة أجرة، لا مشكلة فأنا معتاد على ذلك، آه..صحيح يا خالة لقد تذكّرت شيئاً مهماً، أعطتني الممرضة ملابس أمين وهي متّسخة بالدّماء التي نزفت من أنفه وطلبت مني إحضار ملابس نظيفة غداً، هل لي أن أستعيد مفتاح السيّـــارة منكِ لأعود وأخرجها، لقد نسيت أن أحضرها لكِ.

– نعم، تفضّل.

ركض هاني مسرعاً لإحضار كيس الملابس المتّسخة من السيّارة، ثمَّ أخذ الكيس وعاد مسرعاً للخالة علياء.

– تفضّلي هذا هو كيس الملابس، ولا تنسي من فضلكِ غداً إحضار ملابس نظيفة لأمين، وهذه هي المفاتيح.كيف كان حال أمين عندما غادرتِ من عنده ؟

– إن شاء الله أفضل.

– الله المستعان....إلى اللقاء.

– إلى اللّقاء هاني شكراً لك.

وعاد هاني إلى بيته متعباً، ووجد والديه وصلا الآن من سفرة دامت أربعة أيـّــــام.

فور وصول ريم إلى بيتها وجدت كلَّ شيء عاد إلى مكانه مرتّباً وكأنه لم يكن هناك حفلة بهذا البيت، حيث قامت الخادمة بترتيب البيت، فذهبت ريم إلى غرفة الضّيوف عند الكنبة التي وضع أمين معطف بدلته عليها، فلم تجده فركضت إلى المطبخ عند الخادمة، وكانت الخادمة تدعى "أليس" هي إندونيسيّة الجنسيّة، فسألتها: "أين وضعتِ المعطف الموجود في غرفة الضّيوف يا أليس؟ فقالت لها الخادمة –كانت تتكلّم اللّغة العربيّة مكسّرة قليلاً–: "أنا وضع معطف علاّقة".

ثمّ سمعت هند صوت ريم فجاءت للمطبخ عندها، وقالت لها: "جئتِ أخيراً... ألا تعلمين أنّ السّاعة قاربت على الحادية عشرة!" فبقيت ريم صامتة ولم تُجب، وذهبت إلى العلاّقة الموجودة عند الباب، وفعلاً وجدت مِعطف أمين معلّقاً، فحملته وذهبت به إلى غرفتها وأغلقت الباب بالقفل لكي لا يدخل أحد عليها، وضمّت المِعطف إلى صدرها، وكأنها تحتضن أمين بين ذراعيها وأغلقت عينيها وغابت في رائحة عِطره الجذّابة العالقة على المعطف وأخذت تكلّم نفسها وتبكي:"يآه...ما أجملها من رائحة، عطرك لا تغيّره يا أمين إنه يدّل على شخصيّتك أنت لا أحداً سواك، كم أحبُّ هذه الرّائحة...من أوّل يوم تعرّفت عليه كانت تفوح منه هذه الرّائحة المنعشة، سلامتك يا أميني، سأضع المِعطف عند وسادتي لأظلّ طيلة اللّيل أشمُّ رائحته وأنا نائمة"، ثمَّ فتحت ريم عينيها، وتفاجأت بالهدايا المصفوفة فوق بعضها على طاولة المكتب: "أبشع حفلة عيد ميلاد في حياتي كم أكره هذا اليوم...يا ترى أين هي هديّة أمين؟ أريد أن أفتحها قبل أيّ هديّة أخرى... أذكر أنه أعطاني علبة صغيرة كانت أصغر الهدايا...آه...هاهي". وأخذتها ونزعت غلاف الهديّة عن العلبة الصغيرة فكانت علبة من المخمل النّاعم الأسود وحولها خطٌّ باللّون الفضي.

"يا ترى ما هذا؟ أيعقل أن يكون بداخلها قطعة ذهبيّة أو ما شابه؟ سأفتحها وأرى"وفتحت ريم العلبة، "يا إلهي... ما أجمله من سِوار، إنه ذهبٌ أبيض ما أجمل بريقه! وما أروعها من ماسات جميلة حول هذا السوار، لقد أحببته... له ذوق رهيب في شراء الأشياء! كم أحبّك يا أمين، ليس عادلاً ما جرى لك يا حبيبي هذه اللّيلة، لا تستحق كلَّ هذا...لا أعرف كيف أعتذر لك؟ كل هدايا الدّنيا لن تعوّضني عنك".

وأكملت ريم فتح الهدايا لكن بغير نفس فهي تشعر بالقهر الشّديد."هديّة ديالة سأفتحها نعم هي زجاجة عطر تبدو رائعة، وهذه من هاني إنه صندوقٌ خشبيّ جميل، أحبكم جميعاً أنتم رائعون، كما أنني آسفة على الذي حصل، إنه أسوأ عيد ميلاد في حياتي، سأعتذر منهم غداً في الجامعة".

ولم تكمل ريم فتح الهدايا فهي بائسة حزينة، دقّت أختها رندة الباب عليها، فقامت ريم وفتحت الباب بكلِّ تباطؤ وتكاسل، لأنها تشعر بالتّعب والإرهاق بجانب الحزن الشّديد.

- أتيتُ لأرى الهدايا الجميلة، هل فتحتها جميعها؟
- ليست كلّها... هاهي مركونة على مكتبي، ما رأيكِ بالذي فعلته أمكِ اللّيلة في عيد ميلادي وأفسدت كلَّ شيء؟!
- الحقُّ عليكِ يا ريم، ما كان عليكِ دعوة أمين للحفلة واستفزاز والدتكِ، أنتِ تعرفينها تكره رؤيته.
- لا تثيري غضبي يا رندة...كيف لا أدعوه وهو من أهمِّ زملائي وأصدقائي ما بكِ أنسيتِ؟
- بصراحة... ما كان عليه أن يتصرّف بحماقة هكذا، أيطلبكِ في حفلة عيد ميلادكِ!
- وأين المشكلة في ذلك؟ الشّاب لم يخطئ... بل هو تصرّف أمي السلبيّ والسيّء، ما كان عليها أن تتصرّف هكذا، لن يحصل شيء إذا عبّرت عن رفضها بعد ذهاب المدعوّين، وبطريقة أفضل... أين أبي؟
- إنه في غرفة النوم... ولماذا تسألين؟

– ماذا قال عن هذا التصرّف؟
– بصراحة يا ريم، لم أعرف بعد، لقد أخذ ماما لغرفتهما، وأصبح صوهما يعلو بالصّراخ غير الواضح، ولم أفهم كلمة واحدة، ثمَّ خرجت ماما وجلست في غرفة الجلوس، وبقي أبي في الغرفة.

كانت رندة في هذه الأثناء تتكلّم وتقلّب الهدايا وتنظر إليها، فوجدت سوار أمين فقالت لريم: "يا إلهي...واو...مااا أجملها من هديّة!! تبدو باهظة الثّمن، من هذا الذي أحضرها لكِ؟"
– أمين.
– حقاً جميلة، لكن أخفيها قبل أن تراها أمكِ.
– لا بل سأضعها أمامها أيضاً، هاتِ.

وأخذت ريم السّوار ولبسته على معصمها، وبعد لحظات طرقت والدهما الباب ودخلت غرفة ريم، وقالت لريم بنبرة غضب: "عندما أكلّمك يا ريم من الواجب أن تقفي وتكلّميني، لا لتذهبي وتغلقي باب غرفتكِ على نفسكِ".
– آسفة أمي بصراحة لا أريد أن أكلّمكِ، ولا أريد أن يحصل بيننا مشاحنات الآن، أنا متعبة جداً ومرهقة وأريد النّوم.

لا بل أريد أن أضع حدّاً لهذا الموضوع الآن...قبل أن تنامي، حتى لو بقينا نتشاحن للصّباح.

فوقفت ريم صامتة تنظر لوالدها دون أن تتفوّه ولا بكلمة واحدة، فقالت لها أمها: "أنتِ تعرفيني جيّداً يا ريم أنني لن أوافق على ارتباطكِ بأمين، مهما كان أمين شابّـاً جيّداً أو وسيماً أو ليس له مثيل، لا تحاولي بأساليب مختلفة أن تقنعيني به، من بداية الأمر قلت لكِ أنا أرفضه، كما أنّه يعلم ذلك.
– ماذا يعلم؟
– يعلم أنني أرفضه وبشدّة زوجاً لكِ، كما وأخبرته ذلك منذ مدّة طويلة، ووعدني أن يبتعد عنكِ، لقد اعتقدت أنه ابتعد وفهم، لكن كما يظهر أنكِ أنتِ وهو أكبر كاذبين ومخادعين.
– ماذا يا أمي... متى تكلّمت معه؟
– تقريباً منذ سنتين، لكن هذا الكاذب وعدني بالابتعاد عنكِ.
– أها...فهمت ما قصّة السنتين! بالحقيقة أمين فعلاً ابتعد عني سنتين، ولم يحاول التكلّم معي، واتّـفقنا أن نكون مجرّد زملاء بالجامعة، لكنني بقيت أحبه وأنا التي عدتُ أكلّمه هذه السّنة ....أنا أحب أمين ولن تستفيدي من الكلام معي بشيء، أرجوكِ يا ماما لا تتعبي نفسكِ بالكلام الكثير.

فصرخت والدها بها: "ما هذا الكلام الذي أسمعه منكِ يا ريم، أصبحت فتاة غير مهذّبة منذ أن تعرّفتِ على هذا الشّاب السيّء، لقد علّمكِ قلّة التهذيب وعدم سماع كلام والدتكِ".
– أرجوكِ أمي، أمين لا دخل له بذلك، ولم يعلّمني شيئاً.
– إنه تربّى بعيداً عن أمه وأبيه، لهذا لا يأبه ولا يهتم أن تطيعي والدتكِ؛ لأنه لا يشعر بمعنى الوالدين ولا بحنانهما.

ريم بدأت تفقد السّيطرة على أعصابها وصوتها يعلو: "أمي لا تظلمي أمين، لم يخطئ بحقكما أبداً، لم يفرض عليَّ شيئاً، أرجوكِ افهمي...أنا أحبّه لا أستطيع العيش دونه، أرجوكِ أمي لا تهدمي سعادتي أنا ابنتكِ وأحبكِ، لا تجعلينا نخسر محبّتنا من أجل موضوع قديم حصل معكِ بالماضي ولا دخل لنا به أنا وأمين"

صرخت هند بابنتها: "كفى يا ريم كفى، لا أريد سماع المزيد، أمين لا...أحبّي غيره، وأنا سأوافق...أمّا أمين فلا، أفهمتِ أم أستعمل أسلوباً آخر معكِ؟"

– أمي لا تصرخي بوجهي...

وأصبحت ريم تبكي وصارت متوتّرة جدّاً، لا تعرف كيف ستقنع والدها وبأيّ طريقة ستكلّمها.

وأكملت أمها الكلام بعصبية: "الآن أريد أن أسمع منكِ كلمة واحدة وبصدق...سأبتعد عن أمين... دون أن تكذبي".

تابعت ريم بكاءها وهي تكلّم والدها:"أمي...أمين متعب بالمستشفى، وفقد وعيه وهذا كلّه بسببكِ، ذهبنا ونقلناه للمستشفى وعمل له الأطّباء اللاّزم، لكن ما زال في غرفة العناية المركّزة، لماذا قسوتِ عليه هكذا؟"

– أعرف أنه بالمستشفى لقد اتّصلتُ بمنال لأعرف أين ذهبتِ، فقالتْ لي أنكم بالمستشفى وشرحت لي ما جرى، لكن أن تقولي أنا السبب...لا يا ريم لا أسمح لكِ أبداً، هو شابٌ من الكرتون لا يتحمّل شيئاً، أهذا رجل ترتبطين به؟ كيف سيواجه الحياة؟ من صفعة واحدة لم يتحمّل، وارتمى بالمستشفى، ومِنْ مَن؟....من سيّدة! كيف إذا قام رجل بضربه، ماذا سيحصل له؟ سيموت على الفور... كيف تقبلين على نفسكِ أن تحبّي شاباً ضعيفاً هكذا؟ بعيداً كلَّ البعد عن رمز الرّجولة و القوّة... كيف؟

– أمي أمين مريض، وهذا ما أتعبه... قلبه ضعيف، وأنتِ تعلمين ذلك، لا يجوز لكِ التطاول على إنسان عنده ضعف.

الفصل الثاني والعشرون

أمي أمين مريض، وهذا ما أتعبه.. قلبه ضعيف، وأنتِ تعلمين ذلك، لا يجوز لكِ التطاول على إنسان عنده ضعف...

– هذا الذي أردتُ أن أسمعه منكِ بالتحديد! "أمين إنسانٌ ضعيف" وأنا لا أريد أن أربط مستقبل ابنتي بإنسان ضعيف، يفقد وعيه بمجرّد صفعة، هذا بجانب المشكلة القديمة، مشكلة خيانة والديه، أفهمتِ؟

ريم تتكلم وتبكي وترتجف "لا لم أفهم... بصراحة لا أريد أن أفهم هو يعجبني، ولا أريد نصائح بعد الآن شكراً أمي".

– حسناً يا ريم، تصرّفي على هواكِ، لكن اعلمي أنَّ تعاملي معكِ سيختلف، ولن أعاملكِ مثل قبل، ولا تلومي إلاّ نفسكِ، ورحلة السّاحل هذه قـــرّرت أن تسحبي اشتراككِ منها، ولن أسمح لكِ بالذّهاب.

غضبت ريم وثارت أعصابها، ولم تعد تحتمل ضغط والدها عليها، فردّت على أمها بعصبية: "ما بالكِ أنتِ يا أمي، يظهر أنكِ لا تحبينني أبداً، كل شيء يسعدني تحرمينني منه، حتّى الرّحلة ممنوعة منها، لماذا؟ ما هذه القوانين الغريبة في منزلنا، هاتف خلويّ منعتيني من اقتنائه وسكتُّ، مع أنَّ كل صديقاتي يحملنه في حقائبهن، تعلّم قيادة السيّـــارة محرومة منها، وقلت لي أني ما زلتُ صغيرة، وللعلم أنا لست صغيرة بل تعدّيت السنَّ القانونيَّ الذي يُسمح بقيادة السيّـــارة، والشّخص الذي أحببته أوّل مرّة في حياتي ترفضينه، لأسباب لا تهمّني وليست ضروريّة بالنسبة لي، ووقفتِ عند الرّحلة لتحرميني منها الآن... هذا حرام يا أمي، أنا أختنق وأنتِ لا تشعرين، أشعر أنني مقيّدة.. ارحميني، كيف تفكرين! لا أفهم"

– اخفضي صوتكِ يا ريم، وتكلّمي معي بأدبٍ واحترام، وعندما تحبّي رجلاً مناسباً سأوافق عليه، أما شاب كهذا من مجرّد ضربة صغيرة انهار!! وهاهو في المستشفى الآن..! لا تجعليني أضحك رغماً عني، هذه مهزلة حقيقية...هههههه!

وخرجت هند من غرفة ريم وتركتها تبكي في الغرفة، فقالت ريم لأختها رندة: "أرأيتِ كم قست أمي عليّ وعلى هذا الشّاب المسكين؟" فأجابتها رندة: "نعم، لكن أمكِ لا تهتم لمثل هذه الأمور، وأنا لن أستطيع مساعدتكِ بشيء، أقدّم لكِ أسفي، أرجوكِ نامي الآن وانسي ما حصل اليوم، وامسحي دموعكِ فغداً يوم جديد".

– لا أظن، غداً مثل الأمس وقبل الأمس إلى أن يتغيّر تفكير أمي السلبيّ هذا.

فبدّلت ريم ملابسها وارتدت ملابس النّوم، ووضعت رأسها على الوسادة وهي تضمُّ معطف أمين ذا رائحة العطر الجذَّابة بين ذراعيها، لكنّها لا تستطيع النّوم كلّما تذكّرت عيد ميلادها البائس اليوم وما جرى به من أحداث، فتعود للبكاء، حتّى أنَّ معطف أمين كاد أن يتبلّل من الدّموع، وأخذت تحدّث نفسها وتشكو همّها لله: "يالله... حياتي أصبحت تعيسة، ها أنا أستسلم

كلَّ يوم للدّموع، لا حلَّ بيدي، والحبُّ يلوي ذراعي، ونبضات الحبُّ حارقة لا تُحتمل، ليست كنبض قلب سليمٍ خاوٍ. والله يارب إني أضع مخافتك بين عينيّ، وأطلب رضاك ومرضاة والدي، يالله أليس الرّسولَ- صلى الله عليه وسلم- قال (لم يُـــرَ للمتحابّين مثل النكاح) لماذا أهلي يظلموننا؟!! وقلبي...ماذا أفعل به؟ والحسرات والألآم كيف أداويها؟ آه يارب...أنت أعلم بقلبي...وهموم نفسي وروحي ما زالت بريئة طاهرة، والله يارب ما أرى بأمين إلاّ كلّ طيبة وحسن خلق...وشابٌّ يحبني بإخلاص ويحترمني".

كم كانت هذه اللّيلة طويلة، لم تنم ريم إلا بضع ساعات ومتقطّعة، لقد كانت متزعجة وتشعر بالاضطراب.

أما ليلة أمين كانت وكأنها عشر دقائق، نام نوماً عميقاً بسبب المسكّن والمنوّم الذي أعطاه إيّـــاه الطّبيب،لم يشعر إلاّ بالصّباح قد فرش أنواره في السّماء، واستيقظ أفضل حالاً من ليلة البارحة المؤلمة، واطمأنَّ عليه الطّبيب وقام بإخراجه من قسم العناية المركّزة إلى غرفة عاديّة من غرف المرضى.

وقبل أن يذهب هاني للجامعة توجّه لزيارة أمين، فسرَّ عندما رآه أفضل من قبل.

- حمداً لله على سلامتك يا أمين، لقد أصبحت أفضل، وعادت الألوان إلى وجهك.
- أشكرك يا هاني لقد أتعبتكم البارحة، وكم كنت متعباً نفسياً وجسديّاً من هذه الإهانة القوية التي كانت جواباً قاطعاً من والدة ريم.
- لا تقلق يا أمين ولا تحزن واترك الأمور تسير وحدها، لا ترهق نفسك بالتفكير.
- كيف حال ريم بعد الحفلة المشؤومة؟
- هي حزينة ومضطّربة، وأخذت تبكي طيلة الوقت البارحة.
- يا هاني خسرتها للأبد...
- لا أدري، لكن عليّ أن أنصحك بما أنك صديقي، حاول أن تدرّب نفسك على نسيان ريم شيئاً فشيئاً، لأنّ الرّكض وراءها مستحيل، لا تتعب نفسك ولا تتعبها معك، بعد حادثة البارحة انتهى كلُّ شيء أمام الجميع..انساها ريم ليست لك. ثمَّ ريم ستعرف بأنك لا تريد أن تسبّب لها المزيد من المتاعب، وأنَّ من مصلحتكما أنتما الاثنان الابتعاد، لكي تنقذا أنفسكما من هذا الوضع المؤلم المخزيّ، فالأشواك تنمو أكثر من الورد في حالات الحبِّ هذه.

أنزل أمين رأسه حزيناً يُفكّر بكلام هاني، ثمَّ قال: "لكن جذور الأشواك ممتدّة ومتشعّبة في أعماق قلبي، وإن انتزعتها سيتفتت قلبي إلى أجزاء، فنبتة الحبِّ هذه صحيح كما قلت كثيرة الأشواك لكن عندما تعطي وردة تكون أجمل ما يكون".

- أمين!! هل تنتظر من بين كلِّ هذه الأشواك المتشابكة وردة تتفتّح الآن؟... لا أعتقد!

تنهّد أمين وبكلامه غصّة: "أرجوك لا أريد أن أتكلّم بأيِّ شيء الآن، واضح من الأفضل أن أنساها".

- حسناً أمين، المهم أنك أفضل الآن، سأذهب للجامعة ونأتي بعد الدّوام جميعاً لزيارتك، إلى اللّقاء الآن، أراك مساءً.

ليس من السّهل عليك أن تضع عينيك بعين من تحبّ بكلِّ ثقة، إذا كنت قد أخطأت بحقّه من دون سبب، ريم لم تذهب مع باقي صديقاتها لزيارة أمين هي خائفة من مواجهته، وليس لديها الشّجاعة لتنظر في عيونه، وتُحَمّل نفسها كلَّ الذّنب لما جرى؛ لأنها هي في البداية أخذت تقنع أمين أن يتقدّم لخطبتها وأصبحت تشجّعه وهو غير مقتنع بالفكرة.

ذهب الجميع واطمأنــّوا عليه، وقال له الطّبيب أنّ غداً صباحاً يوم الجمعة سيغادر المستشفى، أمّا ريم فور انتهائها من الجامعة ذهبت إلى بيتها مباشرة، صادفت على باب العمارة التي تسكن فيها شابّــاً بدا لها وكأنّها رأته من قبل، فأخذت تُدقّق به وهي تدخل إلى العمارة تريد أن تذكر أين رأتْ هذا الوجه؟ فقالت في نفسها: "يبدو أنَّ هذا الشّاب مألوفاً لديّ، هو متوسّط القامة جسمه متناسق لكن بعيد كلَّ البعد عن الوسامة"، فلاحظ عليها هذا الشّاب أنها تنظر إليه فقال لها: "ما بكِ يا ريم تنظرين إليَّ هكذا؟"

استغربت ريم كيف عرف اسمها فقالت له: "أتعرف اسمي".

– نعم بالتأكيد، وأنتِ لم تعرفيني؟
– للأسف لم أذكرك، لكن أشعر كأني رأيتك في مكان ما.
– يا جميلتي أنا اسمي باسل وأنا زميل لكِ في الجامعة، أدرس في كليّـــة التّجارة.
– من فضلك لا تقل يا جميلتي لأنني لست جميلتك، هذا أولاً... وثانياً ماذا تفعل هنا؟
– أنا جاركم أسكن في الطابق الأرضي.
– أوّل مرة أراك في هذه العمارة، منذ متى وأنتم تسكنون هنا.
– لي شهران هنا، وبصراحة تفاجأت عندما عرفت أنكِ تسكنين هنا، ومنذ مدّة وأنا أخطّط أن أتعرّف عليكِ عن قرب، ولكن عندما لاحظت أنكِ تدخلين وتخرجين من هذه البناية كثيراً، سألت الحارس عبد الصّمد عن منزلكِ فقال لي: إنكِ في الطّابق الثاني، فقرّرت اليوم أن أقف وأنتظركِ هنا عند باب العمارة لأعرّفكِ بنفسي، وأعرّفكِ أننا زملاء في نفس الجامعة، ومن المؤكّد أنكِ رأيتيني في استراحة الجامعة أكثر من مرّة دون أن تعيريني أيَّ انتباه.
– فرصة سعيدة يا أخ... ماذا قلت لي اسمك؟
– باسل.
– آه نعم، فرصة سعيدة أخ باسل، عذراً اسمح لي أن اذهب الآن.

ومشت ريم تريد الصّعود لمنزلها، فشدّها باسل من يدها فاستغربت ريم من وقاحته... وسحبت يدها وقالت له بصوت عال:"ماذا تريد؟"

قال لها وبكلِّ برود أعصاب: "لا شيء لـــمَ أنتِ عصبيّة المزاج هكذا، أريد فقط أن أقول لكِ ما رأيكِ أن نتفق على الذّهاب سويّاً للجامعة بما أننا أبناء جيران وطريقنا واحدة؟"

فأجابته ريم:"لا آسفة، أمي توصلني في الصّباح، وأحياناً نذهب أنا وأختي فليس لديّ مشكلة بالذّهاب للجامعة".

ركضت ريم وهي منزعجة من هذا الشّاب، ودخلت البيت دون إلقاء التحيّـــة على أحد وأغلقت على نفسها باب غرفتها ولم تخرج منها حتّى جاء والدها، فذهبت إلى غرفة المكتب التي

يجلس بها والدها بعدما يتناول طعامه مساءً فيشرب الشّاي هناك، ثمَّ أغلقت الباب وجلست أمام والدها، فقال لها: "نعم يا ريم، قولي لي كيف حالكِ؟"

– تعيسة يا أبي...حزينة، لم أتوّقع هذا، لقد كانت خطّتنا تسير بأحسن حال، لكنّ أمي استعجلت بالردِّ على هذا الشّاب المسكين، الذي يرقد الآن في المستشفى متأزّماً... وتقول لي أمي أنه ضعيف، وهي السبّب في هذه الأزمة القلبيّة التي حلّت به، أهذا عدل يا والدي؟

– بصراحة يا ريم تناقشنا أنا وأمكِ بتصرفها هذا، وفَهِمَت كم هو سلبيّ وغير عقلانيّ، وأنا غضبتُ من هذا الأسلوب الذي لا يرضي أحداً، لكَنَّ أمكِ أثيرت أعصابها عندما سمعت بطلب أمين، وبعصبيّـــة ومن دون تفكير حدث ما حدث خارجاً عن إرادتها، فهي لم تتمالك نفسها، وأمكِ يا ريم ترفض هذا الشّاب رفضاً تاماً ولا تحبُّ حتى رؤيته أو السّماع باسمه، ومهما حاولتُ أنا فلن أنجح، أعتقد أنَّ الصّدمة التي عانت منها بالماضي كانت قويّة جدّاً، لدرجة أنها ما زالت تؤثّر عليها حتى الآن مع كلِّ هذه السنين التي انقضت.

لم تتكلّم ريم بكلمة واحدة بل بقيت صامتة تنظر بوجه أبيها، وعلامات الحزن تملأ عينيها وجهها بالأفكار.

فقال لها أبوها: "أين أخذَتكِ الأفكار يا ابنتي".

– لا شيء أبي... أشعر أني محاصرة، لكن أريد أن أطلب طلباً آخراً لعلّك توافق أنت وأمي عليه.

– ما هو؟

– أريد أن أذهب لرحلة السّاحل الجامعيّـــة مع صديقاتي.

– لقد سألتيني وأعطيتكِ النّـــقود اللازمة والتكاليف كاملة، أليس كذلك؟

– نعم صحيح، لكن أمي حرمتني منها وقالت لي: أنها ستغيّر تعاملها معي إذا بقيتُ على علاقة مع هذا الشّاب، ومنعتني من الذّهاب.

– لا تقلقي يا حلوتي، اذهبي للرّحلة وافرحي، لا أريد أن أراكِ تعيسة هكذا وأنا سأقول لوالدتكِ أنكِ ذاهبة.

– أشكرك يا والدي...أتسمح لي أن أذهب لغرفتي الآن.

– لا لن أسمح لكِ بالذّهاب لغرفتكِ. بل أطلب منكِ الذّهاب للمطبخ وتناول الطّعام، لأنكِ لم تأكلي شيئاً منذ أن رجعتِ من الجامعة.

– لا يا أبي أخشى أن أواجه أمي في المطبخ، لا أريد الحديث معها.

– هكذا أنا لن أوافق، عليكِ في البداية أن تجعلي كلَّ الأمور طبيعيّـــة بينكِ وبين أمكِ، فهي تحبكِ وتخاف عليكِ، لا تغضبيها يا ريم من أجل شاب في الجامعة، فاحترامكِ لأمكِ يجب أن يكون ذا قيمة عندكِ أكثر من أيِّ أحد آخر وحاولي أن تنسي هذا الشّاب.

– حاضر يا أبي سأحاول.

أما في صباح اليوم التالي فهو يوم إجازة من الجامعة وهو الجمعة، خرج أمين من المستشفى وعاد إلى البيت، ونصحه الطّبيب بالابتعاد عن التوتّر والضّغوطات النفسيّة، وشجّعه على ممارسة الرّياضة الخفيفة التي تنشّط وتقوّي عضلة القلب، وأعطاه ثلاث حبّات من الدّواء تساعد على

الاسترخاء والنوم، ويستخدم حبّة في حال أنه أحسَّ بضغط أو توتّر شديد على نفسه وصحّته، وفور عودته للبيت مع هاني ورامي جاءت الخالة علياء ومعها طعام شهيٌّ ساخن، فاعتذر هاني وقال: أنه مستعجل يريد الذّهاب، أما رامي جلس ليأكل هو وأمين، ثمَّ شكر رامي الخالة وترك أمين ليستريح وخرج، فظلَّ أمين جالساً غارقاً بالتّفكير دون أن يتحرّك من مكانه، فقالت له خالته: ما بك يا أمين؟ بماذا تفكّر؟ أنظر إليك منذ مدّة وأنت بلا حراك... قل لي بماذا تفكّر؟

– آخ... يا خالتي، أفكّر بشخص يبدو لي غريباً.

– من هو يا عزيزي.

– أبي.

– أباك؟ وماذا تفكّر به.

– كيف كان أبي يا خالتي؟ هل هو سيّء لهذه الدّرجة؟ لدرجة أنّ السيّدة هند لا تستطيع أن تنظر في وجهي وكأني مجرم، أيعقل...ولدرجة تصل بها حدَّ الضّرب؟ أرجوكِ خالتي أخبريني عنه.

– لقد سبق وأخبرتك لا يوجد شيء آخر.

– خالتي... أرجوكِ أخبريني ماذا فعل؟ وماذا كان يعمل... وأين هو الآن، وأين اختفى؟

– سأقول لك... لكن أريد أن أسألك شيئاً قبل ذلك.

– حسناً خالتي تفضّلي.

– نفرض أنَّ أباك ظهر...وجاء إليك وسرَّ بك عندما رآك قد كبرت وأصبحت شاباً جميلاً يُعتمد عليك، فأعجب بك وقال أنه سيبقى بقربك ويعوّضك عن الأيام الماضية، ما ردّة فعلك في تلك اللّحظة؟

صمت أمين وشرد ذهنه وخالته تنتظر إجابته، ثمَّ قال: "خالتي حبيبتي، سأقصُّ عليكِ قصّة وأنتِ ستعرفين جوابي منها، تخيّلي أنَّ شخصاً يجلس في حديقة بيته يأكل حبَّة تمر، ثمَّ رمى نواة هذه التمرة على التربة باستهتار، وبعد فترة جلس في نفس المكان، فلاحظ أنَّ مكان نواة التمرة شتلة صغيرة جذورها متمكّنة بالتّربة، حاول أن يقتلعها من جذورها لم يستطع...بقي يحاول عدّة مرّات لأنه لم يحب منظرها، وقال في نفسه: أنا لم أقصد أن أزرعها كنت ألهو وحسب، ثمَّ تركها وذهب بعدما يئس من اقتلاعها، أمّا من كان في البيت من أفراد غيره، فكان يعتني بهذه الشتلة الصّغيرة ويمدّها باحتياجاتها اللاّزمة مثل الماء والأسمدة، حتّى أصبحت شجرة كبيرة وجميلة تُسمّى النّخلة، وتعطي ثمار التّمر اللّذيذ، فَسُرَّ الجميع وأُعجبوا بها، فعندما رآها هذا الشّخص المستهتر أُعجب بها جداً، ورأى الجميع مسرورين بها ويأكلون من ثمارها الطّيبة، فقال لهم: "أرأيتم هذه الشجرة إنها شجرتي، أنا الذي زرعت هذه البذرة فهي ملك لي، فلا تقطفوا ثمارها إلاّ بإذني". ما رأيك إذن يا خالتي هل هذه شجرته من حقّه؟

– طبعاً لا... لا يجوز له أبداً أن يتملكها هو، فهي ليست له.

– هذا هو شاكر يا خالتي...إنه ليس أبي، ولا يعني لي شيئاً، حتّى لو عاد فليس له الحقّ أن يقول لي ولكم أنه والدي، هو مجرّد شخص رماني نطفة في رحم أمي، وهو يتسلّى ويمرح ويستهتر بمشاعر الآخرين، وحاول اقتلاعي... لن أعترف به كأبّ للأسف.

- لا تزعج نفسك أمين، أنت محقٌّ بكل كلمة قلتها.
- خالتي هيّـــا قولي ماذا فعل بهند وبأمي؟
- القصّة تعرفها تقريباً لكن سأعيدها لك باختصار، شاكر كان عاقد قرانه على هند...وأكملت الخالة القصّة إلى أن وصلت بطلب أمل للطّلاق من شاكر، فقال لها أمين: "كفى! أرجوكِ خالتي، لقد تعب قلبي من هذا الرّجل كم هو قاسٍ وبلا مشاعر".
- آسفة يا أمين، لم أقصد مضايقتك.
- لا خالتي، أنا طلبت منكِ الكلام... لكن لم أعرف منكِ أين هو الآن؟
- لا أعرف بالضّبط، أحدٌ قال أنه مسافر منذ فترة بعيدة، وسمعت من آخرين أنه مسجون منذ حوالي عشر سنوات تقريباً، بتهمة اختلاس أموال شركة كبيرة كان يعمل بها... فالله أعلم.
- يا إلهي مسجون! مختلس، آه... كفى خالتي... كفى.
- يا حبيبي اذهب لغرفة النوم واسترح قليلاً، هيّـــا قم يا أمين.

بعد ساعة تقريباً طُرق باب بيت أمين عدّة طرقات، لكنّ أمين مستغرق بالنوم بسبب الدّواء الذي يأخذه، وبقي الطّارق على الباب ربع ساعة، قام أمين ببطء شديد، والنّوم مسيطر عليه، فوصل وفتح الباب... وجد ريم واقفة أمامه، فاندهش وطار النّوم من عينيه.

- ريم؟ ما الذي جاء بكِ؟
- أريد أن أطمئن عليك وأعتذر لك... وأقول لك شيئاً مهمّـــاً... هل كنت نائماً؟
- نعم،...كيف لي أن أقول لكِ تفضّلي وأنا وحدي بالبيت؟
- وهذا المطلوب، لا أريد أحداً معك، أريد أن نتكلّم بحريّة.
- لكن يا ريم أنتِ تعرفين، أنا شابٌ وأسكن وحدي ولا يجوز أن ......

فقاطعت كلامه ريم وقالت له: "أنا أثق بك أمين". فضحك أمين وقال لها ممازحاً "وأنا أثق بكِ".

- هل ستتركني عند الباب طويلاً، لقد متُّ من البرد؟
- لا تفضلي، لكن ما قصدته هو... لا أحب أن نكون في موقف شبهة أنا وأنتِ.
- ومن هذا الذي سيشتبه بنا ؟ لن نرى أحداً الآن، ولا أحد سيرانا سوى الله، والله يعلم بحالنا.

وسكت الاثنان فجأة دون أن يتكلّم أحد، فذهب أمين للمطبخ ليعدَّ قهوة سريعة التحضير مع الحليب السّاخن، وترك ريم جالسة على الكنبة تسرح بالأفكار، ثم جاءت ريم عنده للمطبخ، وقالت له: "أمين في البداية أنا آسفة جدّاً عن تصرّف والدتي، لا أعرف ماذا أقول لك، لكن... "

قاطعها أمين وقال لها: "أين سترة البدلة.؟..لِـــمَ لم تحضريها لي؟

ضحكت ريم وقالت له: "بصراحة احتفظت بها لنفسي، أضعها كلَّ يوم بجانبي وأنا نائمة، لأبقى أتذكّر رائحتك أرجوك أبقيها معي".

- لا يا ريم، إذا رأتْها والدتكِ ربّما ستحرقها، أرجوكِ أحضريها، إنها مع باقي الطّقم لا يجوز أن يتجزّأ.
- كم أنت بخيل! حسناً سأحضرها، لكن بعدما يطير كلّ العطر الموجود عن السترة.

فضحك أمين وأكمل تحضير القهوة. ثم قالت له ريم: "أتعرف يا أمين ماذا حلَّ بعلاقتنا؟"

– آه... بصراحة أشعر أنها عند حافّة المنحدر، أو سقطت بالهاوية وانتهينا... لـــمَ أنتِ هنا بما أنَّ الموضوع منتهٍ؟

– كلا أبداً، هي في بداية الطّريق، وسنسير من الآن معاً في هذه الطّريق.

– أنتِ حقاً مجنونة! لا بل حمقاء...ما رأيكِ أن تعودي لمنزلكِ حالاً أفضل من هذا الكلام، ريم لا نريد المزيد من المشاكل كفاكِ لفّ ودوران أنا تعبت.

– مجنونة حمقاء موافقة...لكن قبل أيام ماذا قلت لك؟

– ماذا قلتِ لي؟

– قلت لك أنني سأقف وقفة مختلفة، ولن أخضع للرّفض ولن أسكت ولن أوافق على كلام أمي رغماً عنّي، هذا مستقبلي أنا وحدي.

– نعم حرب أهليّة...تذكّرتُ كلامكِ.

– لا لن يحصل هناك حرب ولا شيء، بل سنأخذ ما نريد بالسّلم ومن دون أيّ مشاكل مع الأهل.

– وكيف ذلك أيتها الذّكية!

ثمَّ حمل أمين كوبي القهوة بالحليب وذهب لغرفة الجلوس، ووضع الكوبين على طاولة صغيرة، وقام بإشعال المِدفأة التي تعمل على الغاز؛ لأن الجوَّ كان بارداً جداً.

فقالت له ريم:"شكراً، كان يجب أن تشعل المِدفأة من قبل".

– نعم، لكننا كنّا في المطبخ، وها نحن نستقرُّ بغرفة الجلوس هنا. أتعلمين يا ريم أنظر إليكِ ولا أصدّق أنكِ هنا في بيتي، ونجلس وحدنا...ياه كم أنا مسرور، وأشعر أنَّ قلبي يرقص فرحاً، لكنني أنظر لفرحتي وأخشى عليها؛ لأنها مؤقّتة،ربما لن نعود ونتكلّم بعد الآن.

– يا إلهي كم أنت متشائم! أنا أقول لك أنني سأقف وقفة مختلفة، وأنت تجاوبني بجواب كله إحباطٌ ويأس؟... تفاءل معي قليلاً؟

– من أين سيأتي التفاؤل؟! لا أعرف يا ريم إنّني أنظر للموضوع من كل الجوانب فأراه مظلماً لا ضوء فيه، وإن كان هناك بصيص نور بعيد يظهر لنا، بالنّهاية أراها ناراً ستحرقنا، فأين التفاؤل في ذلك؟

– التفاؤل في نقطة واحدة سننطلق منها ونكمل طريقنا.

– ياريم، أملك ضربتني، كيف لنا أن نكمل...انتهى كل شيء.

– أرجوك اسمع،،

– أُفّ... هيّـــا قولي، لا أحبُّ كثرة المقدمات هذه...تعبت.

– حسناً، عندما تتحسّن صحّتك، بعد غد مثلاً... نذهب أنا وأنت...ونعقد قراننا.

دُهش بل صُدم أمين من قرار ريم، فوضع كوب القهوة من يده على الطّاولة أمامه، وأدار بوجهه غاضباً: "نعقد قراننا؟ أهذا ما تفكرين به، وفي مثل هذه الأوضاع؟ لا أعتقد أنكِ تتكلّمين بجديّة، هل تمازحينني الآن؟!"

فقالت له: "أمين ما بك؟ انظر إليَّ... لا تتنحّى جانبا، اعتقدتُ أنك ستفرح".

وقامت ريم وجلست أمامه لترى وجه أمين: "ما علامة الغضب هذه في عينيك!؟"

– ريم كلامكِ ليس منطقيّاً أبداً، أنتِ تطلبين المستحيل، ما ردّة فعل أمكِ عندما تعرف عن الموضوع وهي من مجرّد كلامٍ أمام والدكِ قامت بصفعي على وجهي...كيف إذا عرفت أني تزوجتكِ دون علم أحد... ربّما تقتلني.

– لا أبداً، هكذا نكون وضعناها تحت الأمر الواقع ولن تستطيع فعل شيء.

– ريم هذه أمكِ...حبيبتي لا تتهوّري، أخاف أن تخسريها، أنا لست أنانيّـــاً لأجعلكِ تخسرين عائلتكِ من أجلي، كلاّ يا ريم...هذه نعمة حافظي عليها، ولا تخسري نعمة الأبوين.

– يا أمين، لن أخسرهما مهما كان الوضع، أمي تحبّني ولن تتخلّى الأمُّ عن ابنتها، ولن يعرف أحد أننا عقدنا قِراننا.

– أنا أوّل مرّة أسمع عن فتاة تطلب من شاب أن يعقد قرانه عليها بالخفاء!! ومن دون علم أحد! ما بكِ يا ريم؟! كثيراً ما يطلب الشّاب ذلك من الفتاة لغاية في نفسه، أمّا أنتِ فغريبة الأطوار؟

– لا لست غريبة، لأننا سنعقد قراننا ولن نتزوّج، بل سيكون حبراً على ورق، لنحلّل علاقتناونبقى هكذا مجرّد أصدقاء إلى أن نتخرّج من الجامعة، وبعدها سأقول لأمّي أنّي قد عقدتُ قراني على أمين منذ مدّة، وسنحدّد موعد الزّفاف لأننا تخرّجنا وهكذا لن يستطيع أحد أن يعترض أو يمانع لأنَّ الموضوع منتهٍ وأصبح بيدك.

بقي أمين صامتاً ينظر لريم دون أن يتكلّم أو يعبر عن شيء، لا يبدو عليه علامات الرّضا.

– ما بك صامتاً يا أمين، أنت تقتلني هكذا بصمتك أرجوك تفاعل معي بالحديث.

– ماذا أقول لكِ يا ريم؟ هل أقول أنكِ متهوّرة...مجنونة...ماذا؟ لا أعرف!

– لا هذا الحلّ الوحيد، وإلاّ خسرنا بعضنا والى الأبد.

– وماذا سنستفيد برأيكِ من عقد قراننا الآن إذا بقينا أصدقاء كما نحن عليه؟ لن يقدّم أو يؤخّر شيئاً عقد القران، لأنّ الزواج سيكون بعد التخرّج، الحال على ما هو عليه أفضل.

– أمين حبيبي على العكس عقد قراننا سيجعلنا متحابّين أكثر ومتماسكين، سنقف أنا وأنت وقفة واحدة نواجه بها الأزمات، سيزداد حبّنا، وبالتالي لن يكون حبّنا محرّماً، نستطيع أن نخرج معاً براحة وبعد التخرّج سنتزوّج.

– سيزداد حبّنا...! أكثر من ذلك...؟ ريم كلامكِ لم يقنعني، أنا...ماذا أستفيد في هذه الحالة، سأعقد عليكِ، وأبقى أنظر إليكِ مكتّف الأيدي.

– آه... نعم، فهمت أنت كباقي الشّباب، هدفهم واحد الجنس والشهوة فقط! لا تنظر معي للموضوع من قالب الحفاظ على الحبِّ، لو قلت لك نعقد القران ونتزوّج لوافقت!

– لا تفهميني خطأ يا ريم! أنا لا أقصد هذا الجانب ما بكِ، أين أخذتكِ أفكاركِ؟

اهدئي، كلُّ ما هنالك أنني لا أرى فائدة حقيقيّة مرجوّة، بل إنَّ السلبيّات أكثر وربما ستزداد المشاكل بيننا وبين والديكِ، وستزداد كراهيتهما لي، ريم فكّري بالموضوع بعقلانية أكثر لا

بعواطفكِ هذه الرّقيقة، لا أريدكِ أن تخسري أحداً لا أهلكِ ولا أنا، حبيبتي الموضوع ليس سهلاً كما تتصوّرين.

– أمين أرجوك هذا هو الحلُّ الوحيد، سأخسرك إذا لم توافق، أنا أحبك.

– آسف يا ريم، لا أستطيع فعل ذلك الآن، الأمر صعب جدّاً.

وقفت ريم وتكلّمت بعصبيّة وحساسيّة زائدة: "أنت لا تحبّني، أنت كنت تتسلّى فقط، وتلهو بي وبمشاعري، وعندما طلبت منك أن ترتبط بي فعليّاً رفضت ذلك، وها أنا جئت لأقدّم لك نفسي وترفض ولا تريد أن تربط نفسك، أنت جبان... هنا تُثبت حقيقة الحبِّ والرّجولة".

– أوووفّ....سينفذ صبري منكِ يا ريم، ماذا أسمعكِ تقولين؟ أأصبحت الدّنيا بالمقلوب؟ أنا لا أحبكِ؟!!... أنا لأنني أحبكِ لا أريد عقد قراني الآن، لأني أخاف عليكِ...أخاف أن تخسري أهلكِ، أخاف أن تندمي، ويصبح إصلاح ذلك صعباً فيما بعد، ولو أني لا أحبكِ لوافقت على عقد القران الآن، لأتسلّى وأمرح كما يحلو لي، لكن أنا يا ريم صافي النيّة والحمد لله، وأخاف عليكِ أكثر من خوفي على روحي، لأنكِ أنتِ روحي وحياتي التي أحيا من أجلها، كما أخشى أن يكون عقد قراننا هكذا باطلاً من غير موافقة الأهل، فنقع في الحرام والعياذ بالله.

– لا... توكّل على الله ما دام هناك قبول بين الطّرفين، اذهب لشيخ واشرح له قصتنا وخذ برأيه، وأثبت لي ذلك الحبِّ الصّادق، بعقد قراننا.

غضب أمين وأجابها محاولاً تماسك نفسه، فقال بهدوء لكن بنبرة غضب: "ريم... اذهبي من أمامي هيّا، ستبدأ الشّمس بالمغيب ويتأخّر الوقت، لا أريد سماع المزيد عن هذا الموضوع، لقد سمعتِ جوابي".

– هكذا إذن يا أمين، أنت تطردني من بيتك، أشكرك على حسن الضّيافة.

– أنا لا أطردكِ، لكن من الأفضل أن تفكّري جيّداً بكلامي، وتعلمي كم أنا أحبكِ، وبعدها تتّخذي القرار الصّائب، وبالأحرى علاقتنا هذه يجب أن تنتهي من الآن.

– كفى يا أمين، لقد اعتقدت أنك ستفرح، لكن للأسف أنت كأيِّ شاب لا يهتم بالمشاعر والأحاسيس، ولكم أنتم رغباتكم فقط، سأذهب لكن إيّـــاك أن تكلّمني بعد الآن، أنا أضحّي من أجلك، وأنت غير مستعدٍّ لبذل أيِّ مجهود وفوق هذا تريد إنهاء العلاقة ببساطة. هذا هو الوعد!

وخرجت ريم وأغلقت الباب وراءها، وأخذت تبكي وهي تغادر عمارة أمين، أمّا أمين جلس حزيناً يفكّر ما دار بينه وبين ريم من حديث، وحزن حزناً شديداً لأنّها أساءت فهمه، وخرجتْ غاضبة من بيته، فبقي متوتّراً طيلة الوقت حتّى في اللّيل لم يعرف النوم وهو يُفكّر بكلامها. فمسك قلمه وبدأ يكتب ما بداخله من خواطر نثرية:

حيرني دمع عينك اللامع

وصوت دقات قلبك الخافق اللاذع

أَسَرتِ نبض قلبي وسجنت مشاعري...فما المانع؟

كم مسكت القلم ورسمت بيدي حلما...

لكن اكتشفت أنني لا أبرع بالرسم مع أبي مهندس بارع
فلربما الحياة تحتاج لرسام ذا قلم فاقع
شعورك الحساس لأي سبب كان، يشحن في داخلي حس الحب الضائع.
لا ارى شيئا جميلا سواك.... مع أن الاسى اكتمل بك ومعاك.
شققتِ لي طريقا كان واديا... وأخذت قلبي وكنت أنتِ البائع
كيف سأحبك؟ وأنا ممنوع وغير مرغوب فيه، رغم أبي في الوصال طامع
كيف علي أن أعيد قلبي، هل أبقيه عندك رغم النبض المتسارع.
لا، سيتعذب قلبي وسأموت في هواكِ ذبحا حتى العصب السابع
لا أعرف حل الألغاز ولا أحب الأحاجي، لأني لا أفهمها
مع أنني لست غبياً...لكن بحبك جن العقل وصار القلب ضارع

****

أما في مساء هذه اللّيلة، اتّصلت أمل بأختها علياء لتطمئنّ كالمعتاد على أمين وتعرف أخباره، وكان الاتّصال حوالي السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل. فرنّ الهاتف وركضت علياء من غرفة نومها لتجيب على الهاتف مسرعة، لكي لا يترعج أطفالها ويستيقظون من النوم، "ألو، من المتكلّم".

– أنا أمل، كيف حالكِ يا علياء، هل أيقظتكِ؟
– أعرف أنكِ أمل، لأنني أيقنتُ أنَّ هذا هاتفكِ في هذه السّاعة، كيف حالكِ؟
– الحمد لله جيّدة، ألم أوقظكِ من نومكِ؟
– لا أبداً، كنت ذاهبةً للتوّ للفراش، ولم أغفُ بعد.
– كيف حال أمين هذه الأيام؟ قلبي لا يُطمئنني عليه، لا أدري ينتابني شعور أنه ليس على ما يرام.
– لا أبدا، لا تقلقي هو جيّد، يتعب قليلاً لكن يعود ويستعيد قوّته فهو شابٌ قويّ يواجه صعوباته بتحدٍّ.
– ما هي أخباره مع محبوبته؟ هل حصل شيء جديد؟
– ما عساي أقول لكِ؟ آه يا أمل...أشعر أنَّ قلبه محطّم والحب يُذبل روحه ويُطفئ البهجة من وجهه.
– أيحبها كلّ هذا الحبِّ!
– وأكثر... إنه لا يصارحني دائماً بمكنونات قلبه ويخفي مشاعره أمامي، لكن أنا أرى دموع العيون قبل أن تسيل، وأشعر بقلبه من دون أن يشكو.
– أو تعلمين يا علياء أريد أن أخبركِ بشيء.
– ماذا؟ هيّـــا قولي.
– لي رغبة شديدة بأن آتي لأرى ولدي بعد هذه المدّة، فقلبي مشتاق ولا يذكر سوى صورة الطّفل الذي يلعب بسيّارته الصّغيرة في حديقة مترلنا القديم. أتفطّر لرؤيته.

– لم أفهم يا أمل، أتقصدين بكلامكِ أنكِ تريدين المجيء؟ أم أنتِ تتمنين ذلك فقط؟
– الاثنان معاً، أتمنّى أن آتي وأراه وسأسعى للقدوم.
– يا أمل كيف ستأتين... وبأيّ صفة؟ هذا لن يجدي أو ينفع بشيء.
– يا أختي يا حبيبتي سآتي من دون أن يعرف أنني أمّه.
– وماذا ستستفيدين من ذلك؟
– سأستفيد بكلِّ تأكيد، أنا أريد أن أراه فقط وأضمه لصدري.
– وكيف ذلك؟ ما بكِ أنتِ ستحطمين الشّاب، وربّما يتضرّر من أثر الصدمة، وربما قلبه لن يتحمل أثر هذا الموضوع...فكّري جيّداً، أنتِ منذ البداية اخترت طريقكِ فلا تأتي الآن وتثيري المشاكل والذّكرى المؤلمة، صدّقيني لن يتحمل أمين.
– يا أختي لن أقول له إنني أمّه، بل ستعرفينني عليه بأني خالته سهاد القادمة من غزّة وقد سُمح لنا الآن بالخروج بعد كلِّ هذه المدّة، هو أكيد لا يذكر وجهي ولا حتّى صوتي، لذا سيكون الوضع عاديّاً، وأنا سأراه وأجلس معه وأكلّمه دون أن يعرف الحقيقية.
– ولنفرض أنه يذكر وجهكِ، سيعرف أننا كذبنا عليه ولم يعد يثق بنا، وسيغضب غضباً شديداً.
– يا علياء أرجوكِ فكّري بالأمر أريد أن أرى ولدي، لديّ الحقّ وكلّ الحقّ أن أضمّه إلى صدري، حتّى لو من دون علمه.
– أنت متِ بنظره.
– أنا متُّ مئة مرّة وتعذّبت من فراق أمين حبيبي، فأنا لست المذنبة بل هي ظروف الحياة القاهرة التي سرقت مني ولدي.
– كلا ليس لكِ الحق أولاً...وأنا لا أنصح بذلك، ومع هذا سأحاول تخيّــل الموضوع والتفكير به.
– أرجوكِ حاولي وشجّعيني، الآن إلى اللّقاء يا أختي، سأكلّمكِ بعد فترة.

وبقيت الخالة علياء تفكّر بأمل وباقتراحها الصّعب، لكن لم تتوصل إلى نتيجة، وكانت تتخيّل أنّ أمين سيعرف الحقيقة وستتعقّد الأمور وينهار، وتنهار ثقته بالآخرين، فهو فيه ما يكفيه من آلام مزروعة به منذ الصّغر.

***

في الجامعة جلس أمين مع هاني ورامي بعد انتهاء المحاضرات ولم تأتِ الفتيات للجلوس معهم؛ لأنَّ ريم غاضبة من أمين ولا تريد الجلوس حول نفس الطّاولة التي يجلس أمين حولها، فبالطّبع لن يتركنها صديقاتها وحيدة فجلسن معها حول طاولة أخرى.

أما هاني بقي يحاول الإلحاح على أمين ليعرف ماذا جرى بينه وبين ريم: "هيّا يا أمين ما بك تكلّم، ماذا فَعَلْتَ لريم لدرجة أنها لا تريد الجلوس معك؟" فأجابه أمين: "صدّقني لم أفعل أيَّ شيءٍ يزعجها، أنتم تعرفون كم هي حسّاسة جدّاً وتغضب من أيِّ شيء كان، ولا ذنب لي، بل أنا من عليه أن يغضب".

- حسناً، أخبرني لأحكم أنا ورامي بينكما ونرى من المخطئ، لنعرف من نصالح على من، ولا نظلم أحداً منكما، هيّـــا أمين تكلّم".
- جاءت ريم على بيتي وطلبت...، صمت أمين قليلاً.
- وماذا طلبت منك؟ هيّا أكمل؟
- انسَ، لا أريد الكلام بهذا الموضوع.

فقال هاني بعيون وابتسامة ماكرة: "هيّا...هيّا! اعترف ماذا طلبت؟"

- لا تستنبط من أفكارك يا هاني، طلبت أن نذهب ونعقد قراننا من دون علم أهلها؟ هل هذا يجوز؟"

فقال هاني: أهذه هي المشكلة حقّاً؟!

- نعم، ألا تراها مشكلة؟ وأنت يا رامي؟

فضحك هاني، أما رامي فقال: "بصراحة هي ليست مشكلة، أنا أراها جرماً"

فأجابه أمين: "أحسنت يا رامي، وأنا كذلك...هو جرم بحدِّ ذاته ولا أرى له تبريراً"

فسأله هاني: "لماذا أنت تفاقم الموضوع وتعطيه أكبر من حجمه الأساسيّ إنه عاديّ، ولو أنا مكانك لذهبتُ في نفس اللّحظة، وعقدتُ قراني على حبيبتي، لكن أنت من أوّل لحظة حبٍّ ومنذ السّنة الأولى في الجامعة وحتى الآن، وأنت جبان".

- هكذا إذن يا هاني، أنا جبان، حسناً...
- لا... أنا أمازحك يا أمين لا تغضب،...أعرف أنك تفكّر بعقلانيّة وبحكمة.
- أرأيت لماذا لا أريد الكلام منذ البداية؟ لأني أعرف كلامك الجارح هذا الذي تبدأ تُرشقه عليَّ من هنا وهناك، أنت لا ترى الموضوع من وجهة نظري أنا.
- يا أمين انتهينا...لقد اعتذرت لك، وأنا آسف يا صاحبي الحكيم، قُل لي لـــمَ أنت رافض الفكرة؟
- لسببين اثنين، الأوّل أنا أخشى من والدها وإذا عرفت أننا عقدنا قراننا، فمن المؤكّد ستتخلّص مني لتفكَّ عقد القران وتزداد المشاكل وربّما تسوء علاقتنا أنا وريم بسبب هذه الإشكالات التي ستترتّب على عقد قراني بها، أمّا الثّـــاني فريم تطلب مني عقد القران فقط ليبقى على ورق ومن دون أن نتزوّج، بل سنبقيه سرّاً إلى بعد التخرّج، ثمَّ ستواجه والدها بالحقيقة وتخبرها أننا عقدنا القران ونريد تحديد حفل الزّفاف، وبهذا تضع أهلها تحت الأمر الواقع، وبالتالي لن يرفضوا زواجنا.

فقال له رامي: "لا توافق وأبقى على موقفك يا أمين، ولا تضعف أمامها".

فسأله هاني: "أتقصد أنك ستعقد القران عليها، وتبقيان هكذا كالأصدقاء من دون زواج؟"

- نعم، لكن أنا أرفض المبدأ كليّاً لأنه زواج محظور، ولو كان بموافقة الأهل وتمَّ تأجيل الزّواج إلى ما بعد التخرّج لقبلت، لأنّ حبّي لريم ليس بدافع شهوة بل حبّي لها صافٍ ينبع من القلب، ولم أحبّها لنزوات أبداً.

وعاد هاني يستهزئ: "ماذا يا أمين...ستقنعني أنك أيوب زمانك، والجنس آخر لا تفكّر به، لا تكذب..."

– يا هاني ليس آخر ما أفكّر به، خوفي من الله يمنعني وهذا الأسلوب لا يعجبني، كما أني لا أحبُّ أن أجازف وأنا أرى كلَّ المخاطر أمامي، وأنّ نسبة النّجاح ١% والباقي ربّما يكون فشلاً، فتماماً سأكون كالشّخص الذي يرمي حبيبته بالبحر ويغطس ليساعدها وهو لا يعرف السّباحة، فيموت الاثنان وتكون هذه نهايتهما.

فأخذ هاني يضحك، وقال لأمين: "فعلاً شرُّ البلية ما يُضحك؟"

وقال رامي: "أنا لا أشجّعك على عقد القران، اسمع مني يا أمين وابقَ على قرارك"

ثمَّ أكمل هاني الكلام: "على كل حال يا أمين أنت أدرى بمصلحتك، فكّر وافعل ما يحلو لك..."

لكن أريد أن أسألك هل دفعتَ للرّحلة باقي القسط؟"

فأجابه أمين "بصراحة لا، لأنني لا أريد أن أذهب وسأسحب المبلغ الذي دفعته للجنة المنظّمة".

– لماذا لا تريد الذّهاب؟... سأله هاني

– أشعر بالإحباط، كما أنّ ريم لا تريد أن تنظر بوجهي أو تكلّمني، وفي لحظةٍ تقول أنّ كلّ شيء بيني وبينها انتهى بعدما كانت تطلب منّي الزّواج وبأسرع وقت، لا أفهمها، لقد تعبت... والآهات تملأ قلبي، وليس لديّ أيّ حيلة لكي أصالحها، وقد أساءت الظنّ بي، ولا أريد الاختلاط بها لكي أحاول مليّاً أن أنساها، انتهينا.

فقال رامي: "اسمع يا أمين لا دخل للرّحلة بحالة الحبِّ هذه، فالرّحلة ملكنا نحن، أنت ستذهب من أجل أصدقائك، ولا تنسى أنك أنت الذي شجّعت أسامة وقلت له لن نذهب الرّحلة بدونه، فكيف لنا أن نذهب بدونك؟ ستأتي معنا ومن دون أن تبالي بأمر ريم، فالشّباب مع بعضهم والفتيات وحدهنّ، هكذا أفضل لنا ولك، نريد أن نلهو ونمرح ونسرح بالرّحلة على هوانا من دون الفتيات وحسّاسيتهن الفائقة..أصبحت أكره البنات...هههه."

الفصل الثالث والعشرون

الشّاب- جار ريم الجديد- أصبح كلَّ يوم ينتظرها عند باب العمارة، وكلّ يوم يحاول الحديث معها لكن هي تعطيه حججاً؛ لأنها لا تريد التكلّم معه، وتصعد لبيتها على الفور،لم تستلطفه أبداً بل تراه شاباً لا يُطاق وكلامه ثقيل على القلب، وفي آخر يوم قبل نهاية عطلة الأسبوع وقف لها كالمعتاد، وعندما دخلت بوّابة العمارة، قال لها: "كيف حالكِ يا ريم؟"

أجابت ريم بنفور: "جيدة، ما بك تقف كلّ يوم هنا، ألا يوجد لديك أعمال أخرى؟"

– لا يوجد أبداً يا جميلتي، أنتِ كلُّ أعمالي.

– أرجوك انتبه لكلامك ولا تقف هنا مرَّة أخرى.

– إنه باب عمارتنا جميعاً، ونقف أينما يحلو لنا.

– ابتعد من فضلك، أريد الذّهاب.

– وإن لم أسمح لكِ بالذهاب؟

– سأصرخ وأملأ الدّنيا صراخاً ويتجمّع كلّ النّاس.

– يا حلوة أنا فقط أحبكِ ومعجب بكِ.

– أنت تعلم جيّداً أني أحبُّ أمين، ومن المؤكّد تراني أجلس معه في الجامعة، هكذا جوابي يكون كافياً.

– لا أعرف بماذا يعجبكِ هذا الشّاب، صاحب القلب الضّعيف؟

– قلت لك ابتعد، أريد أن أصعد لمنزلي.

– فكّري بي قليلاً وسترين أنني أفضل من هذا المغفّل أمين، كما أنني من عائلة مرموقة ولست يتيماً.

– ابتعد أرجوك، ولا يهم من تكون ومن أيّ عائلة.

– تفضّلي واصعدي لبيتكِ يا ملاكي.

ركضت ريم وصعدت إلى بيتها بالمصعد وهي بحالة غضب شديد من ذاك الشّاب – ثقيل الدّم– ودخلت البيت، فرأتها أمّها بمزاج سيّء، فقالت لها: "ما بكِ يا ريم؟"

– لا شيء يا أمي، لكن لدينا ابن جيران جديد في البناية لا يطاق.

– نعم تذكّرت، سننزل اليوم في المساء عندهم، أنا وأبوك لنتعرّف عليهم ونبارك لهم في المنزل، هل تأتين معنا؟

– لا مستحيل! أقول لكِ أنَّ لديهم ابن لا يطاق، وتقولين لي أن آتي؟

– ولماذا لا يطاق؟ لقد سمعتُ أنهم من عائلة مرموقة، وأبوه يعمل في السّلك الدبلوماسيّ.

– يا سلام، باسل ابنهم معي في الجامعة وكلّ يوم ينتظرني عند باب البناية هنا، ويريد الحديث معي، وقال لي أنه معجب بي، ياله من شاب تافه!!

– هل هو تافه لأنه معجب بكِ، أم لأنه يضايقكِ؟

- الاثنان معاً.

وذهبت ريم لغرفتها، وعادت تفكّر بأن تكلّم أمين مرّة أخرى يوم غد لتقنعه بموضوع عقد القران، فالحبُّ يبرّر الوسيلة، لأنها ترى أنها الوسيلة الوحيدة لتجمع بين قلبيهما.

وبالفعل، بعد المحاضرات تذهب ريم وتقف في مواقف السيّـــارات، عند سيّارة أمين تنتظره، فيأتي أمين ومعه هاني ورامي ليوصلهما لبيوتهما كالمعتاد، فرأى أمين ريم تنتظره عند سيّارته، فتفاجأ: ريم؟ ماذا تفعلين هنا؟"

فأجابته بكلِّ رقّـــة ونعومة، هل تسمح لي أن أكلّمك قليلاً؟ ولا أرى أفضل من السيّارة مكاناً لنتحدّث فيه بهدوء".

فنظر أمين لهاني ورامي نظرة سريعة، فقال له هاني: "حسناً يا أمين سنذهب أنا ورامي بالحافلة، وانتبه أنت لريم ولا تزعجها" وذهبا.

فتح أمين باب السيّـــارة لريم وقال لها: تفضلي... فجلست، وذهب هو وجلس أيضاً، فسألها: "هل تريدين الذّهاب لمكان ما؟

- لا أبداً، فقط أريد الحديث معك، إذا أردتَ أوقف السيّارة خارج الجامعة، وسنتكلّم بالطّريق.

فحرّك أمين سيّارته حتى خرجا خارج أسوار الجامعة.

- حسناً ها نحن خارج الجامعة، هل أقف عند هذه الأشجار لنتكلّم؟
- لا بأس، هل تبدأ بالكلام أنت أم أنا؟
- أنا؟ ماذا سأقول سوى أنكِ قسوتِ عليّ، ومرّ أسبوع ولم تكلّميني، وغداً الرّحلة وها نحن سنذهب ونحن متخاصمان، وأنا طيلة هذا الأسبوع عشت في حيرة ووصلت لقرار نسيانكِ أفضل حلٍّ.
- أنا التي قسوت عليك! أرجوك يا أمين، ما هذا القرار الغبيّ...!هل فكرت جيّداً باقتراحي؟
- لا تقولي أنكِ تقصدين عقد القران..!
- نعم، وهل يوجد اقتراح غيره... أمين فكّر مليّـــاً.
- لقد فكرتُ مليّـــاً يا ريم، هذا مستحيل لا العقل ولا المنطق يرضى بذلك، سأتركك عن تراضي ومن دون خصام.
- تراضي!! أمين،، أنا أرى أنَّ العقل والمنطق يُحتّمان أن نفعل ما قلته لك.
- أُفّ...ريم، اسمعيني أرجوكِ، لربما الأيام القادمة تُخبـــّئ لنا أموراً نحن لا نعرفها، وتدور بنا لتبعدنا ولا نعرف ربّما أحلامنا تضيع بسبب خطوة نحن تخطّيناها قبل أوانها، أنا أعرف يا ريم أنكِ متعبة وتريدين أيَّ شيء تتعلّقين به ليريحكِ، فأنا مثلكِ تماماً لقد ذاب قلبي وخائف من الأيام المقبلة، وخائف أكثر من أن تهربي مني ويضيع الحبّ، وتموت كلّ كلمة حلوة عشناها، وتذوب مع الدّموع، لكن...
- أمين، نحن إذا لم نعقد قراننا هذا ما سيحصل، تبعدنا الأيام ويرمينا الهوى، لكن إذا..

قطعها أمين قائلاً: "دعينا يا حبيبتي نسير الحياة خطوة بخطوة، أحياناً فرح، وساعات أخرى للحزن، ونحن على كلِّ الأحوال نعيش حلمنا الرّائع مع بعضنا البعض من بعيد، لا تقتلي الفرح بتَسَرّعكِ".

– أنا لا أرضى بالاستسلام هكذا فهو الرضوخ للفشل، وأرى الحزن أمام عيوننا وأسكت! يا إلهي...لا أعرف من أين تقتبس برودة الأعصاب هذه؟ لقد تعلّمت منك أن أكون الفتاة التي تقهر الظّروف، لكن أنت الآن...

– اهدئي يا ريم، لا تتذمري وارضَي بما كتب الله لنا الآن، وبعد التخرّج سنرى ما هو ممكن فعله، وأنا مستحيل أن أتخلّـــى عنكِ أبداً، أنتِ حبي الوحيد، وتسكنين داخل قلبي.

– دائماً كلامك جميل، لكن هذه المرّة لن توقف كلماتك ما طلبته منك، أريد إثباتاً على حبّك هذا، وبعقد قراننا تثبت صحّة حبّك وكلامك لي، لا يوجد شيء آخر أقوله، وإن لم تغيّر رأيك لا تكلّمني غداً بالرحلة ولا حتّى تجلس بجانبي، وامشِ أنت من طريق بعيد عن طريقي، أرجوك الآن أنزلني بمكان قريب لآخذ سيّارة أجرة وأذهب للبيت، هذه المرّة أكلّمك بجديّة.

– لو فهمتِ معنى كلامي لعرفتِ كم أنا أحبكِ، لكن للأسف... لا أعرف لماذا تختلفين معي بالرأي الآن؟

ونزلت ريم من السيّارة والحزن والأسى بقلبها، أما أمين فظلَّ ينظر إليها وهي تغادر، ويأسف على ما جرى بينهما من حديث عقيم.

* * *

في صباح يوم الرّحلة اجتمع الجميع عند باب الجامعة، وكانت حافلة كبيرة بانتظارهم؛ لتأخذهم للسّاحل الجميل.

تستغرق الرّحلة ثلاث ساعات ذهاباً، فبدأ الجميع يصعد الحافلة، وصعد أمين فجاءت نظراته بنظرات ريم، وجد المقعد بجانبها فارغاً، فقال لها: "صباح الخير"، وجلس بجانبها، لكن عندما رآها أدارت بوجهها عنه ولم تردّ عليه التحيّة، حمل حقيبته على كتفه وبدّل مكانه بمكان لم يجلس به أحد بعد، لم يتخيّل أنّ ريم ستكون جادّة بكلامها، وأنها لا تريد محادثته بالفعل، فجاءت منال ووجدت أمين يجلس بمكان وريم بمكان آخر، في داخلها سُرّت، فجاءت عند أمين وقالت له: "هل يوجد أحد يجلس بجانبك يا أمين؟"

– لا.

– هل أستطيع الجلوس؟

– تفضّلي.

– أراك بمزاج سيّء ما بك يا أمين؟

– لا على العكس، أنا مسرور بهذه الرّحلة وبمزاج ممتاز، ألا يبدو ذلك؟

أمين كان حزيناً على الوضع السيّء بينه وبين ريم، ولم يتخيّل أن يصلا إلى درجة الجفاء، كان فقط يرغب أن تعامله كأي زميل، لا أن تنتهي علاقتهما بخصام. كما أنّ ريم حزنت عندما قام من جانبها، وفي نفسها تريده بجانبها دائماً، أخذت منال تتحدّث وتتحدّث، لكن أمين كان فكره

مشغولاً بريم، وما سيحلُّ بعلاقتهما هذه، ويريد أن يرضيها ولا يدري كيف، ثمَّ انتبه على منال وهي تقول: "هيا أجبني أم أنت تخجل من هذا السؤال؟ أم لا تعرف الإجابة؟"

فقال لها أمين: "ماذا يا منال؟ هل تعيدين طرح سؤالكِ مرة أخرى".

– ألم تسمع سؤالي أم تتهرّب، يبدو عليّ أنني كنت أُحدّث نفسي من ساعة.

– لا بصراحة لم أنتبه، لقد كنت مشغول الفكر وسارح في موضوع ما.

– حسناً، ماذا يعني لك الحبّ بعد كلِّ هذه الفترة الطويلة التي غرقتَ بها في الحبّ العذريّ أنت وريم، ومن دون أيّ فائدة مرجوّة حتى الآن.

– سؤالكِ جيد لكن أريد أن أصحّح لكِ خطأفي سؤالكِ، وهو أنّ الحبّ كلّ هذه الفترة ودون فائدة مرجوّة، هذا هو الخطأ، لأنّ الإنسان الذي يحب يشعر بفرحة لا يعرف طعمها أحد، حتى ولو كان في قصّة حبهما أمور مؤلمة ومأساوية، فنحن عشنا ونعيش الحبّ بكلِّ تفاصيله الصّغيرة والكبيرة وبفرح.

– ها أنا يا أمين أحبّ لكن طعم الحبِّ مالح جداً، ووصلت لحالة العطش الشّديد.

– لأنّ حبّكِ يا منال من طرف واحد، فهذا هو العطش بحدِّ ذاته، لم تحسني الاختيار.

– ألا تقل لي ما هو طعم الحبّ الذي يربط طرفين...بما أنني لم أتذوّق هذا النوع؟

فمدّ هاني رأسه عند أمين ومنال، وقال لهما: "سمعتكما تتذوّقان شيئاً ما، هل أتذوّق القليل؛ لأني عند سيرة الطّعام يقوى سمعي وشهيّتي".

فأرجع أمين رأس هاني بيده وقال له: "من يسمعك يعتقد أنك سمين بلا شكّ"فضحكت منال وقالت: "نحن لا نتذوّق، هو حديث عابر فقط". ثمّ عاد هاني وجلس مكانه. فقالت منال لأمين: "نعم يا أمين، أين كنّـــا قبل المقاطعة؟"

– عن مذاق الحبّ؟ أليس كذلك؟

– بلى، طعم الحبّ الذي لم أتذوّقه.

– أتعرفين يا منال طعم شراب المضاد الحيويّ؟

– نعم..

– ربما هكذا طعمه؟

– لم أفهم هل تشرح لي؟

– يا منال طريق الرّحلة طويل، ومن المستحيل أن نكمل باقي الطريق ونحن نتكلّم بالحبّ، أرجوكِ لنغيّر الموضوع.

– أرجوك؟!!

– كلاّ، مللت من هذا الحديث.

كانت ريم تشعر بالقهر الشّديد من منال، وكانت تراقبها من أوّل دقيقة جلست فيها منال بجانب أمين، لقد أثيرت أعصابها لأنّ منال لم تصمت ولا دقيقة واحدة وهي تتكلّم مع أمين، تنظر لأمين فتراه مندمجاً بالحديث مع منال، فقالت في نفسها:"هكذا إذاً يا أمين، أنت لا تهتم لبعدك

عنّي، وتتحدّث وتتسلّى وكأنّ شيئاً لم يكن، من المؤكد أنك تريد أن تثير غيرتي، لكن حسناً أنا التي سأثير غيرتك وأعصابك طيلة الرّحلة.

كانت ديالة تجلس بجانب ريم فقالت لها: "يا ديالة هل أطلب منكِ طلباً؟

– نعم ماذا تريدين؟

– اذهبي إلى مقعد هاني وقولي له أنّ ريم تريد الحديث معك بموضوع ما.

– ولـــمّ لا تذهبين أنتِ؟

– لا أرجوكِ اذهبي أنتِ واجلسي مكانه وليأتي ليجلس مكانكِ، لأكلّمه بشيء.

– حسناً مع أني لا أحبُّ الجلوس في الخلف، لكن لا يهم فأنا أفعل أيَّ شيء من أجلكِ، كانت الحافلة بالخلف تعجُّ بالضّجيج، فالشباب مجتمعين يغنّون ويطبّلون ويرقصون فرحاً، فوصلت ديالة بعد عناء عند هاني، وقالت له:"ريم تريد أن تقول لك شيئاً ضرورياً، هلّا ذهبت وجلست مكاني لتكلّمها".

فأجابها هاني: "الآن! ماذا تريد"؟

– لا أدري اذهب وافهم منها.

وبالفعل ذهب هاني وجلس بجانب ريم، فلمحه أمين واستغرب لجلوسه، فبقي يراقبه، وكانت ريم مبتسمة ابتسامة تظهر كأنها حقيقيّة، لكنها بالحقيقة رسمتها لكي تُثبت لأمين أنها لا تهتم له، وليست حزينة وأنها مستعدّة لتنسى حبّه بسرعة.

فقال هاني:"نعم ما هو الشيء المهم والضروريّ الذي ستقولينه لي؟

– اسمع يا هاني أنت زميلي وصديقي وأريد أن أخبرك بسرٍّ، وأرجوك لا تخبر أمين أنني قلت لك هذا؟

– هيّـــا يا ريم، افتحي الموضوع بسرعة...ولن أخبره.

– تكلّمت مرّة أخرى مع أمين بموضوع عقد القران لكنّه رفض للمرّة الثّانية، وقلت له ألا يكلّمني إذا بقي على هذا التفكير وعلى نفس قراره، وأنا بصراحة متضايقة وسأختنق، أنظر إليه وهو لا يبالي ويجلس ويتحدّث بجانب منال وكأنَّ أموره جميعها مكتملة.

– ماذا أستطيع أن أفعل، هل أعقد قراني عليكِ بدلاً منه؟

ضحكت ريم وقالت له:"ليس هذا ما أريده، أرجوك تكلّم معي بجديّة... أنا أحترق وأنت تمازحني".

– هيّـــا إذن تفضّلي وقولي المفيد.

– أريد أولاً أن تثير غيرته؛ لأنه ولا مرة أشعرته بالغيرة، لأنني دائماً أنا مستقيمة مع الجميع.

– أتريدين أن توقعي بيني وبين صديقي... لا مستحيل ما هذه الطّلبات الغريبة؟

أمين صديقي منذ الطفولة لا أريد أن أخسره لمجرّد أنكِ تريدينه أن يشعر بالغيرة اتّـــجاهكِ.

– لا ليست هكذا القصّة، إنك ستعمل معي معروفاً؛ لأنه في حال شعر بالغيرة هذا سيساعد على أن يعقد قرانه عليّ خوفاً من أن يفقدني، سيتحرّك شيء بداخله، انظر إنه لا يبالي بأمري.

– لابدَّ أنكِ يا ريم لم تعرفي أمين من الدّاخل بعد! انظري جيّداً إلى عيونه في داخلهما حزن شديد وألم، وربّما لو ذهبتِ وتكلّمتِ معه كلمة واحدة قاسية لبكى على الفور من شدّة الحزن الذي يغمر قلبه، لا تنقصه الغيرة.

نظرت له ريم وقالت في نفسها: "أيعقل أن يكون بهذا الحزن ولا يظهر عليه، وأنا لا أشعر به؟" وقالت لهاني: "لكن الطلب الثاني، أريد منك أن تقنعه أنت بمعرفتك لنعقد قراننا، صدّقني يا هاني سأخسر أمين وللأبد إذا انتهت الجامعة ولم نخطُ مثل هذه الخطوة الجريئة التي لابدَّ منها، سأصبح مقيّدة أكثر من الآن وخروجي مراقبٌ أكثر.

– سأعدكِ أنني سأحاول، لكن أنا أعرف أمين إذا لم يقتنع بشيء من الصّعوبة تغيير أفكاره، لا يغرّكِ أنه حسّاس وطيّب، لكن له رأس عنيد جداً.

– بأسلوبك سيوافق أرجوك حاول معه، لكن إيّاك أن تخبره أنني أنا من طلب منك، لا تخذلني أرجوك يا هاني.

– حسناً لا تقلقي، وعدتكِ وسأفعل، لكن موضوع الغيرة هذا انسيه، لأنّ أمين يعلم أنني مستحيل أن أخذله، ولو شاهدني أجلس معكِ فلن يهتمّ بالموضوع، وسيأخذ الأمور بكلّ بساطة.

– إذن لا مشكلة كمّـــا اتّـــفقنا.

وبعد ثلاث ساعاتٍ في الطّريق وصل الطّلاب إلى الفندق الكبير الذي سيترلون به، فحمل الجميع حقائبهم ودخلوا للفندق،كان جميلاً يُطلُّ على البحر مباشرة، والجوُّ كان دافئاً فمناخ السّاحل يختلف عن المدينة، وقد أبهرهم جمال الفندق والطّابع المعماريّ له، وجلسوا جميعاً في صالة الانتظار أمام الاستقبال؛ ليتمّ توزيعهم على الغرف.

فجاء المسؤول عن الرّحلة وقال للجميع: "قرّرنا وضع كلَّ أربعة أفراد في غرفة واحدة؛ لأنَّ الغرف مقسومة إلى قسمين في كل قسم سريران، لذا تتّسع وبكل راحة إلى أربعة أشخاص لقد حجزنا لكم غرف العائلات، فسرَّ الجميع لأنّ الأصدقاء يستطيعون قضاء وقتهم كاملاً مع بعضهم، حتّى في اللّيل دون أن تفرّقهم الغرف وتفصل بينهم، فأخذ هاني وأمين وأسامة ورامي غرفة واحدة، وصعدوا مسرورين ليضعوا حقائبهم وأغراضهم ويستريحوا قليلاً، ثمَّ يبدّلوا ملابسهم ويترلوا للشاطئ، أما ديالة وريم ومنال ونسرين فهم أيضاً أخذن غرفة واحدة مشتركة، وكنّ مسرورات لأنّ غرفتهنّ واحدة، ولم ينقسمن إلى قسمين. المسؤول عن الرّحلة أعطاهم نصف ساعة فقط للاستراحة في الغرف، ثمَّ التجمّع في الصّالة عند الاستقبال؛ ليخبرهم بقوانين الرّحلة وبعدها يذهبوا لتناول طعام الغداء.

وبالفعل اجتمع الجميع بالصّالة، بعضهم واقف وبعضهم جالس، فقال لهم أحد المسؤولين عن الرحلة: "أريدكم يا شباب ويا فتيات الالتزام بجميع القوانين التي سأخبركم بها الآن، ولا أريد من أيِّ أحد مخالفتها مهما كان الظّرف".

في البداية كلامي موجّه للفتيات، اللّجنة المنظمة للرّحلة تمنع منعاً باتاً لبس "المايوه" لباس السبّاحة للفتيات.

فأصبحت نرمين همس في أذن صديقتها احتجاجاً: "ما هذه العُقد؟ أَوَقَفَ المايوه عقبة في طريقهم! كيف سأسبح من دونه؟!!"

فقالت صديقتها بكلِّ جُرأةٍ للمسؤول:"الجميع يسبح هنا بالمايوه، كيف سنسبح في البركة بهذه الحالة، لماذا تقيّدوننا؟"

فنظر لها المسؤول وأجابها: "عندما تكونين مع أهلكِ افعلي ما يحلو لكِ، والسّباحة في البحر أجمل من البركة، وأقول للجميع السّباحة على مسؤوليّـــتكم، ومن لا يعرف السّباحة لا يتعمّق بالبحر بل يبقى قريباً من الشّاطئ، وإيّاكم والابتعاد والكلام للجميع، والشّورت بالنّسبة للشّباب يجب ألا يكون قصيراً بل في الحدِّ المعقول، ثاني شيء أريد الحديث عنه... هو عدم خروج أيّ واحد من الفندق ولا لأيّ سبب من الأسباب. أمّا في آخر يوم سنأخذكم إلى السوق لشراء ما يلزمكم من أغراض أو هدايا تذكاريّة، وثالث شيء هو أنَّ الشّاطئ مفتوح للسّباحة حتّى السّاعة السّابعة مساءً، بعد ذلك تُمنع السباحة، ولكن يُسمح بالجلوس على الشّاطئ، أما العَشاء فهو مفتوح من السّاعة السّابعة حتّى السّاعة الحادية عشر، رابعاً وهو الأهمّ: ممنوع على أيِّ طالب أو طالبة البقاء خارج الغرفة بعد السّاعة الواحدة، وسآتي أنا بنفسي على جميع الغرف، للتأكّد أنّ الجميع بغرفهم، وإيّاكم أن أرى إحدى الفتيات في غرف الشّباب والعكس صحيح، حتّى ولو جاءت تطلب من أصدقائها كوب ماء مثلاً فهذا ممنوع، ولا أريد إثارة المشاكل، التزموا بما قلته...وهذا كلُّه لمصلحة الجميع. أما الآن فتستطيعون الذّهاب لتناول الغداء ومن ثمَّ الذّهاب للشّاطئ، وأطلب من الجميع أن يبقوا في احترامهم وأكرّر عدم إثارة المشاكل أو الفوضى، عددكم هو خمسون طالباً وطالبة، نريد أن نعطي انطباعاً جيداً وصورة حسنة أمام النّـــاس والسّياح عن طلاب جامعتنا وعن جيل شباب المستقبل، هيّا بنا تفضّلوا.

قال هاني لأمين: "أشعر وكأنني برحلةٍ مدرسيّـــة"

– هكذا أفضل!

ذهب الجميع إلى قاعة الطّعام وتوزّع الجميع على الطّاولات، وكانت رائحة الطّعام شهيّـــة وأطباق الطّعام المليئة كانت مصفّفة على طاولات حول القاعة بأكملها، والطّعام كان يحوي كلّ ما لذَّ وطاب.

جلست ريم وصديقاتها على طاولة وحدهنَّ، فعندما رأى هاني أنهنّ جالسات على طاولة منفردة، قال لأصدقائه: "قوموا لنجلس سويّاً مع الفتيات فنحن مجموعة واحدة ولا يجوز علينا أن نتفرّق هكذا، منذ السّنة الأولى ونحن نجلس سويّاً، الآن مشكلة صغيرة بين شخصين، ستجعلنا نفترق هكذا؟ أنا لا أوافق، هيّا يا أمين قم ولا تجلس بالقرب من ريم ولا تكلّمها.

– لا أريد...اذهب وحدك واجلس هناك.

فبقي الفريق منفصل.

وبعد الانتهاء من الغداء توجّه الجميع لشاطئ البحر الجميل الذي يتلألأ وكأنه لوحة زرقاء تعكس درجات اللّون الأزرق الرّائع الذي يوحي بالسّكون والرّاحة، فبدأ الجميع بالرّكض واللّعب على الشّاطئ، ومعظمهم ركضوا ليسبحوا، فسبح أمين ورفاقه فترة جيّدة، ولهوا

وضحكوا، والفتيات اتّــفقن أن يبقين ملتزمين بلباس الجينز والتيشريت للمحافظة على احتشامهنّ نوعاً ما. كذلك لعبنَ عند الشّاطئ وتمشين وسبحن قليلاً، كانت ريم لا تعرف السّباحة ولا حتّى نسرين، فكانتا خائفتين من التعمّق في البحر، بل تحاولان السّباحة بالقرب من الشّاطئ وتلهوان على الرّمل.

خرج أمين من البحر ووضع منشفته على أكتافه، فرأى ريم تجلس هي ونسرين تحت المظلّة الكبيرة المصنوعة من سعف النخيل الجميل تأكلان المثلجّات، فأخذ يمشي ليصل للمظلّة المجاورة التي يركن أغراضه تحتها، وكان يتحاشى النّظر إليهما ويحاول إبعاد نظراته عن عيون ريم، فوصل للمظلّة وجلس على كرسيّ البحر، وأخرج نظّارته السوداء الشمسيّـــة ووضعها على عيونه؛ ليمنع عيونه أن تصطدم بعيون ريم.

ثمَّ خرج باقي أصدقائه ولحقوا به وجلسوا معه، فقال لهم رامي: "ألا تريدون شرب شيء؟ "فأجابه أسامة: "ما رأيكم بشرب عصير التّفاح المثلّج؟" قال أمين: أنا أريد عصير الجزر الطّازج، "وأنا كذلك، أجاب هاني، فوقف رامي وقال: "تعال يا أسامة معي لنُحضر كوبين من عصير التّفاح وكوبين من عصير الجزر". فذهبا لإحضار العصير وبقي هاني وأمين جالسين تحت المظلّمة، فرأى هاني أن ينتهز فرصة وجودهما وحدهما ليكلّمه بخصوص ريم، فقال له: "أتعجبك هذه الحالة وترضى على هذا الوضع يا أمين؟".

- أيّ حالة، وما هو الوضع الذي تتكلّم عنه؟
- لا تتغابى يا أمين، أنت تعرف عن أيِّ وضع أتكلّم، نحن لم نعتد عليكما هكذا أنت وريم، جفاء وبعد، انظر ماذا حلَّ بمجموعتنا بسبب شخصين متخاصمين، لقد كنّــا ثمانية ولا أروع لا نفترق وها قد أصبحنا كلَّ أربعة مجموعة، لا نجلس سويّاً ولا نلهو معاً، إلى متى ستبقيان هكذا؟
- إذا كان الوضع هكذا لا يعجبك، ويعزُّ عليك الجلوس مع الفتيات فاذهب وانضمّ لمجموعتهنّ.
- أنا يعزُّ عليَّ أن نفترق هكذا، كنّــا أجمل ونحن فريق واحد متماسكون، ثمانية ولا شيء يفرّقنا، حاول يا أمين مصالحة ريم وإرضاءها، فأنتما ثنائيٌّ رائع، ولا تُشوّها هذه الصّورة.
- أرجوك هاني لا أريد أن أتكلّم بهذا الموضوع، كما أنني لست أنا المذنب لأصالحها، هي من وضعت حاجزاً بينها وبيني ومن دون أيِّ أسباب مقنعة، هكذا أريح وأفضل، ومن المفروض أن أبدأ بنسيانها، العقل والمنطق يقولان لا مستقبل لنا معاً، الحادثة الأخيرة قلبت تفكيري وأيقظتني.
- العقل والمنطق..لكن القلب ماذا يقول؟
- القلب؟ انسى موضوعه ومن يهتمَّ لكلام القلب في هذا الزَّمن، حبي لها باقٍ ولن يتبدّل.
- طيب لــمَ لا تفكّر باقتراح ريم "عقد القران"؟
- يا هاني، الموضوع لا يحتمل نقاشاً أكثر من الذي سبق، لا أريد الكلام، آسف.
- بما أنك لا تريد الحديث، طيب...سأذهب لأخذ حمامٍ؛ لأنّ جسدي يحكّني من ماء البحر والرّمل ... إلى اللّقاء.

في هذه الأثناء لم تبقَ نسرين وريم تحت المظلّة، بل عادتا للّعب عند البحر.

– ما رأيكِ يا نسرين أن نتسابق؟

– وما نوع السِّباق هذا ونحن لا نعرف السّباحة يا ريم؟

– لا لن نسبح، بل سنتحدّى بعضنا من منّـــا تستطيع الوصول إلى أعمق نقطة سيراً على الأقدام في البحر، وأرجلنا تلمس رمل البحر.

– لا.. أنا أخشى أن تأتي موجة وتسحبني.

– يا لكِ من جبانة، البحر هادئ جداً، فأين الموج؟ هيّا في البداية سأمسك بيدكِ ونسير، لقد مللتُ من الجلوس هكذا على الشّاطئ، أريد أن أفعل شيئاً مختلفاً، هيّا تعالي. وبدأتا تسيران رويداً...رويداً في البحر، وتضحكان من برودة الماء وهي تبلل جزءاً جزءاً من جسدهما، حتى وصلت الماء إلى أكتافهما.

– ألا تشعرين بالحرِّ من ملابسكِ الثّـــقيلة والحجاب يا نسرين؟

–كلا أبداً فنحن في الماء فمن أين الحرّ؟

– فكّرت ملياً في الحجاب لكن ربما أمي لن توافق؟

– حاولي وأنا سأساعدكِ ياريم...ولتكن النيّـــة في قلبكِ.

وكانتا قد ابتعدتا عن الشّاطئ وهما تسيران...

– إلى هنا يكفي يا نسرين، لا أريد أن أموت بعيدة عن أهلي وأصبحتا تضحكان.

– لا هيّا لنكمل قليلاً، سأحاول أن أوصل الماء إلى رقبتي وستكون خطوة جيّدة وجريئة ومن ثمَّ نعود.

كان أمين يراقبهما من بعيد ومستغرب من وصلوهما لهذا العمق، وأخذ يتابع ماذا تخططان أن تفعلا وهما لا تعرفان السّباحة.

فأصبحت ريم تحاول التعمّـــق أكثر، لكن الحركة في البحر أصبحت أصعب.

فقالت نسرين: "كفى يا ريم، لا تحاولي التعمّق أكثر!"

– لا يا نسرين تعالي واقتربي معي، كلّما زاد ارتفاع الماء ستشعرين بجمال البحر وتشعرين كم أنتِ خفيفة.

– أنا على العكس أشعر أني ثقيلة وأنّ البحر يشدّني، سأعود.

– ابقي مكانكِ وانتظريني، أما أنا فسأحاول أن أتعمّق خطوة صغيرة أخرى، وبهذا أكون تغلبتُ عليكِ.

وأكملت ريم سيرها في البحر بخطوات صغيرة جداً لصعوبة الحركة، وبالفعل وصل الماء إلى حدِّ رقبتها، وفجأة شعرت أنَّ قدميها لم تعودا تصلان إلى رمال البحر، فحاولت الرّجوع لكنَّ البحر كان يشُدّها إليه، فبدأت تصرخ: "هاتِ يدكِ يا نسرين ساعديني أشعر وكأني أغرق...لا أستطيع الرّجوع...نسرين شدّيني...

مدّت نسرين يدها بخوف: "أمسكي يدي هيّا...لا..لا أنتِ تسحبينني معكِ..ريييييم".

فانتبه أمين أنَّ ريم ليست على ما يرام ويبدو عليها وكأنها تغرق، فوقف مندهشاً ورمى بنظارته الشّمسيّـــة على الكرسيّ الذي كان يجلس عليه، وركض مسرعاً نحو البحر وكان الخوف والقلق في عينيه، وريم تصرخ ساعدوني، ونسرين لا تعرف مساعدتها؛ لأنها لو اقتربت خطوة واحدة ستغرق هي الأخرى، فأصبحت تصرخ أرجوكم ساعدوا صديقتي، وبعد لحظات لم تعد ريم ظاهرة على سطح البحر، فركض أمين في البحر وسبح حتّى وصل إلى النقطة التي غرقت عندها ريم، فوجدها مكانها ما زالت تتحرك وتحاول إنقاذ نفسها، لكن لا تعرف الصّعود لسطح البحر، فأخرجها وحملها ووضعها على الشّاطئ، كانت شفتاها زرقاء وحول عينيها ازرقاق أيضاً، أمّا أمين كان يلهث خوفاً وتعباً من الموقف المميت، أمّا نسرين بقيت تبكي وترجف، نظر أمين إلى ريم فرآها تتنفّس فاطمئنّ عليها، فأخذ يكلّمها لكي تفتح عينيها ويضربها بخفّة وبلطف على وجهها كي تستيقظ.

جاء أسامة ورامي ومعهما هاني يحملون الشّراب، فلم يجدوا أمين مكانه ثمَّ التفت هاني فرآهم عند البحر، فركض مع باقي أصدقائه إلى أمين لمعرفة ماحدث، فكان أمين يقول لريم: "هيّا يا ريم استيقظي، افتحي عينيكِ أرجوكِ حاولي...هيّا ريم". فقال له هاني: "ماذا جرى هل غرقتْ ريم؟" فأجابته نسرين وهي تبكي... نعم.

فأخذ الجميع يكلّمها: "هيّا ريم افتحي عينيكِ، هيّا"

فقال هاني: تحتاج لتنفس صناعي.

فأجابه أمين: هاني أرجوك بدون نصائح طبية من عندك....هي تتنفس، انظر.

فقالت ريم بصوت متعب: "أنا مستيقظة وأسمعكم لا تقلقوا"، وبدأت تفتح عينيها فوجدت الجميع يجلس حولها، قالت لهم "أشكركم على مساعدتكم لي".

فقال لها رامي: "أمين الذي أنقذكِ وأخرجكِ من البحر، نحن جئنا الآن متفاجئين من الذي حصل". فنظرت إلى أمين فوجدت في عيونه القلق والخوف عليها، فقالت له: "أشكرك أمين، وآسفة لقد أخفتك".

- لا داعي للأسف، حمداً لله على سلامتكِ وسلامتي؛ لأننا كنّا سنموت سويّاً في البحر، أنتِ غرقاً وأنا بنوبة قلبيّـــة من شدّة الخوف عليكِ.

فمشت ريم وجلست على كرسيّ الشّاطئ وبجانبها نسرين، فتركهما أمين وذهب، وبعد لحظة جاءت منال وديالة، فسألتهما ريم أين كنتما أنتما الاثنتان؟

فأجابتها ديالة:"كنّا نسبح بعيداً ونتسابق من التي تستطيع السّباحة أسرع؟"

فقالت نسرين: هل أخبركما بما جرى؟...وشرحت لهما القصّة.

وأكمل شباب وفتيات الرّحلة يومهم على الشّاطئ، حتى قاربت السّاعة السّادسة، فصعد الجميع إلى غرفهم للاستحمام وارتداء ملابس نظيفة وأنيقة لتناول العشاء، فنزل الجميع للعشاء بعد الانتهاء من تحضير أنفسهم، إلاّ ريم بقيت في غرفة الفندق لأنها متعبة، لا تريد النزول فطلبت وجبة عشاءها في الغرفة، وفي نفس الوقت لا تريد أن تفسح مجالاً لأمين أن يعود ويتكلّم معها، لأنها تريد أن تبقي الحاجز قائماً بينها وبينه.

وبالفعل تناول الجميع عشاءهم وتوجّهوا بعد ذلك للسّهر على شاطئ البحر المتلألئ، أما ريم فشعرت أنه لابدَّ عليها الخروج من الغرفة، لأنها شعرت بالملل الشّديد ولم يصعد إليها أحد بعد العشاء، فأخذت تُفكّر "إنهم الآن على الشّاطئ وأنا أحبس نفسي لأسباب تافهة"، فبدّلت ملابسها بسرعة وصفّفت شعرها، ونزلت للشّاطئ فوجدت الجميع يجلسون على الرّمال النّاعمة ويغنّون ويصفقون، فجلست بجانب منال و ديالة وقالت لهما: "لماذا لم تخبروني أنكم أنهيتم عشاءكم وأنكم هنا؟ فأجابتها ديالة "اعتقدنا أنكِ ما زالت متعبة وتريدين النّوم".

– لا، لقد أصبحتُ أفضل الآن.

نظر إليها أمين فسرَّ لقدومها، وعرف أنها ما زالت لا تريد الحديث معه من طريقة نظراتها، فلم يكلّمها أو يبتسم معها، وأخذ يحدّث نفسه:"ياه يا ريم لو تعلمين مدى شوقي لكِ وللحديث معكِ، لـــمَ وضعتِ هذا الحاجز بيننا؟ هل أذهب وأكلّمكِ أو أجلس بجانبكِ من دون أن أتكلّم؟...سأبقى في مكاني أفضل".

***

يومٌ حافلٌ ومتعبٌ وجميلٌ في نفس الوقت، انتهى على خير والحمد لله، ذهب الجميع إلى غرفهم ليستقرّوا ويخلدوا للنّوم، كانت السّاعة تقارب على الواحدة بعد منتصف اللّيل، أخذ الشّباب يبدّلون ملابسهم ويستعدُّ كلٌّ واحد منهم للاستقرار في سريره، بدّل هاني ملابسه وانتهى أوّل واحدوجلس في فراشه وأضاء التّلفاز، فاتّــكأ ليشاهد فيلماً كان قد بدأ عرضه حاليّـــاً، أمّا أسامة فكان معه رواية يريد أن يكمل قراءتها، فجلس هو الثّاني في فراشه ليقرأ كتابه، ورامي ما يزال في الحمام يستحمّ، أما أمين فكان يجلس على طرف السّرير ينتظر خروج رامي ليأخذ دوراً هو الآخر، قال له هاني: "يا أمين...اسمعني ولا تقاطعني، أريد أن أكلّمك بخصوص ريم؟" فنظر إليه أمين وقال له: "هاني لا أريد الخوض بهذا الموضوع، لقد سبق وقلت لك".

– اسمعني فقط،لا أطلب منك سوى أن تصغي إليَّ، أنت بحاجة ريم وهي كذلك، لقد ضحّت بأهلها من أجلك، وقدّمت لك نفسها لتكون زوجتك بغير رضا أهلها لتصبح مُلكك، وأنت ترفض بعد هذا كلّه، هذه فرصة...

– هاني لا أستطيع أن انسى صفعة هند.

– وريم ما ذنبها!؟

خرج أمين من الغرفة ولم يكمل سماع هاني، وأخذ يتمشّى وحده في ساحة الفندق المطلّة على الشّاطئ.

فخرج رامي من الحمام، وقال لهاني: "أين أمين؟ ألم يكن ينتظر دوره؟

– لقد خرج غاضباً من كلامي.

– خرج الآن بعد الواحدة؟ سيُعاقب إذا رآه أحد المسؤولين؟

– دعه يخرج وسيعود بعد قليل، يبدو عليه أنه متضايق فهو ليس على طبيعته، لا يريدني أن أكلّمه بموضوع عقد قرانه على ريم، فهو رافضٌ الفكرة تماماً.

– هو يتكلّم المنطق، وأنت وريم تريدان أن تأخذانه إلى الطّريق الخاطئة الملتوية البعيدة كلَّ البعد عن الصّواب.

ثمَّ أضاف أسامة: "يا رامي إذا أراد أمين أن يكمل حياته مع ريم فلا يوجد حلٌّ لمشكلتهما إلا أن يتزوّجا بهذه الطريقة، فموضوع أمين معقّد، وأنا أعرف هند أكثر من أيِّ أحد، وربّما أعرفها أكثر من ريم نفسها، لقد عملت عندها في الشّركة ما يقارب الأربع سنوات ونصف، فحفظتها غيباً فهي عنيدة و قويّـــة، وإذا قرّرت شيئاً لابدَّ أن يُنَفَّذ ولا يهمّها أحد، ويجب على الجميع أن يطيع أوامرها".

أمّا ريم وصديقاتها فقد جلسن في فراشهنَّ استعداداً للنوم، فقالت ريم لمنال: "يا منال أرجوكِ، قومي وأغلقي الستائر لكي لا نستيقظ غداً عند شروق الشّمس، فأنتِ أقرب واحدة على النافذة؟"

– حسناً، أنتِ تأمرين يا صديقتي.

ومسكت منال طرف الستارة لتغلقها، فألقت نظرة من النّافذة فتفاجأت بأمين يتمشّى وحده عند بركة الفندق، أغلقت السّتائر وعادت إلى سريرها، فأصبحت تفكّر بحجّة لتخرج من الغرفة وتتمشّى معه، ولتعرف سبب خروجه في هذا الوقت، فعادت وقامت من السّرير، فقالت لها ريم: "ما بكِ يا منال؟ هل هناك شيء يزعجكِ؟"

– كلاّ يا ريم نامي أنتِ، لكن أنا أريد أن أخرج وأبحث عن ساعة اليد التي كانت بحوزتي، ربّما سقطت منّي بالصّالة في الأسفل من دون أن أشعر.

– ساعة اليد؟ لم أرَ ساعة بيدك؟

– أنتِ لم تنتبهي، ساعة كنت أضعها في يدي لونها فضيّ.

– لكن الآن الوقت متأخّر، وإذا رآك أحد المسؤولين سيعاقبونكِ؟

– ماذا سيفعلون؟ هل يحرموني من السّباحة غداً؟ هههههه لا أعتقد، إنهم فقط يهدّدوننا لكي لا نخالف الأوامر، الآن سأخرج وسأعود بسرعة.

– أتريدين الخروج هكذا بملابس النّوم؟

– سأرتدي مِعطفي الخفيف فوقهم، وسأكون مرتّبة ومحتشمة، إلى اللّقاء لن أتأخّر نامي أنتِ؟

– إذن خذي المفتاح معكِ، لتفتحي باب الغرفة عند عودتكِ.

فخرجت منال مسرعة تريد اللّحاق بأمين قبل أن يذهب، وفعلاً وصلت عند أمين، فتفاجأ بها: "منال... ما الذي أخرجكِ من الغرفة في هذا الوقت؟"

– ألا تدري؟

– وكيف لي أن أعرف؟

سنجلس على هذه الطّاولة مقابل البركة وسأخبرك؟

– حسناً هيّا، تفضّلي.

وجلسا عند البركة حول الطّاولة الموجودة هناك، لم يكن هناك أحد سواهما يجلس في تلك المنطقة.

– هيّا قولي هل من سبب لتواجدكِ خارج الغرفة وفي مثل هذا الوقت؟
– رأيتك من النّافذة عندما كنت أغلق السّتائر، فقفز قلبي إليك فلحقت به.
– يا لكِ من مجنونة...! ماذا أفعل بكِ أنتِ وصديقتكِ المجنونة الأخرى؟
– أحبّني فقط.
– أنا أحبُّ واحدةٍ ولا أستطيع تدبير أموري، كيف إذا غرقت بحبٍّ آخر؟ أرجوكِ منال حاولي نسيان هذا الحبّ الذي لا يجدي، أنتِ صديقة لي ولريم فابقي كذلك.

بعد عشر دقائق شعرت ريم بالقلق على منال، فقامتْ من سريرها ووقفتْ عند النّـافذة وسحبت طرف السّتارة لترى إن كان بالإمكان رؤية منال لكي تطمئنّ عليها.

فدُهشتْ دهشة كبيرة عندما رأت منال وأمين يجلسان مقابل بعضهما حول طاولة واحدة وفي وقتٍ متأخّر، فأخذت الشّكوك تدور في عقلها "هل يا تُرى صُدفة أم أنّها متّفقة مع أمين؟ أكذبت عليَّ عندما قالت لي إنها أضاعت ساعة اليد...! أنا لم أرَ في يدها ساعة اليوم"، وظلّت ريم تراقب أمين ومنال من وراء النافذة حوالي الربع ساعة، وبعدها وقف أمين وأشار لمنال بيده هيّـا لنذهب، فغادرا الطّاولة، فأغلقت ريم السّتائر وعادت لسريرها بانتظار منال وقلبها يخفق، وفعلاً بعد دقائق قليلة وصلت منال للغرفة، وفتحت الباب ودخلت وخلعت مِعطفها بكلِّ هدوء وذهبت للفراش، فقالت لها ريم:"لقد تأخّرتِ؟"

فأجابتها منال: "يا إلهي أأنتِ مستيقظة حتى الآن؟"
– نعم لقد قلقت عليكِ، ومؤكّد أنكِ لم تجدي ساعتكِ؟
– لا، لم أجدها فكيف عرفتِ؟
– لأنكِ ذاهبة لمقابلة أمين، وليس من أجل السّاعة يا منال؟... لا تكذبي.
– لا هي صدفة صدّقيني، لقد وجدته يتمشّى فجلسنا نتحدّث قليلاً؟
– وبماذا تحدّثتما؟
– لقد سألته لماذا هو في الخارج وحده؟
– أجابني أنه مخنوق ويشعر بضيق ولا يستطيع النّوم، وهو حزين أيضاً لأجلكِ يا ريم، كما أنه يختنق من هذا الحاجز الذي وضعته أنتِ بينكِ وبينه.
– أفعلاً هذا ما دار بينه وبينكِ من حديث؟
– طبعاً، وبعدها قمتُ وذهبَ كلٌّ واحد لغرفته.
– هذا أفضل ليتعذّب قليلاً و ليشعر بي.... إذن هيّا يا منال لننام لأنّ الوقت قد تأخّر.
– لا أشعر بالنّعاس، ولم نأتِ لننام!
– حاولي...
– حسناً، لكن حاولي أنتِ أن تهدمي هذا الحاجز الوهميّ الذي سيخنقكما أنتما الاثنين.
– سأحاول، تصبحين على خير.

أشرق الصّباح واستيقظ الجميع بنشاطٍ وهمّـة من جديد، ليكملوا ثاني يوم من أيام الرّحلة على شاطئ البحر الجميل ويستغلّون يومهم باللّهو والمرح.

أما اليوم الثّـالث من الرّحلة سيكون لتناول الفطور والتسوّق لمدّة ساعتين تقريباً، ومن ثمَّ الالتحاق بالقافلة للعودة إلى بيوتهم.

ريم لم تأتِها الجرأة لتكلّم أمين وتهدم حاجز الجفاء، كانت كلّما قرّرت أن تكلّمه تراجعت، كان أمين يشعر بها ويلاحظ عليها أنها تريد الحديث معه لكن يتظاهر بعدم الانتباه، ليعرف كم من الوقت ستأخذ لتكلّمه، مع أنه هو الآخر يذوب شوقاً للحديث معها.

وفي اليوم الذي خُصّص للتسوّق، سارت ريم بجانب هاني وكلّمته بصوتٍ منخفض لكي لا يسمعها أحد:"هل تحدّثت مع أمين بالموضوع الذي اتّـفقنا عليه؟"

- حاولت يا ريم لكن أمين لم يعطني فرصة لأكمل حديثي، كان كلُّ مرّة ينهي الموضوع ولا يريدني أن أكمل كلامي، وآخر مرّة فتحت معه الموضوع تركني وأنا أكلّمه وخرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه، وكانت السّاعة حوالي الواحدة بعد منتصف اللّيل، إنه لا يريد سماع أيَّ شيء عن هذا الموضوع".
- وماذا عليَّ أن أفعل معه الآن؟
- لـمَ أنتِ تعطين الموضوع أهمّيّة أكبر وأكثر من اللّازم؟ تصرّفي كالمعتاد وعندما تتخرّجان تفكّران بالأمر.
- إن انتهت الجامعة وتخرّجت فلن أستطيع الخروج كما يحلو لي، وأمي ستشدّد عليّ وتحاسبني على كلّ مرّة أخرج فيها من المنزل، لولا أن لديّ جامعة الآن لكان من المستحيل خروجي بسهولة وفي الوقت الذي أريده، ستزداد الأمور تعقيداً، لكن الآن حبر على ورق لن يؤثّر على أمين بشيء ولا حتى عليّ، ووقتها سأخبر أمي أنني قد تزوّجت منذ فترة فلن تستطيع فعل شيء أو منعي من الزّواج به.. بهذا سنحدّد حفل الزّفاف ونتزوّج فعلياً، لا أعرف لـمَ أمين يرفض وجهة نظري!
- سأحاول مع أمين مرّة أخيرة لأجلكِ، لكن هذه المرّة ستكونين أنتِ معي وتشاركينني الحديث لنستطيع إقناعه، هل أنتِ موافقة؟
- نعم، لكن أنت الذي سيبدأ بالحديث، قل لي متى وأين؟
- عندما نصعد الحافلة للمغادرة اصعدي أنتِ أوّل واحدة واجلسي في آخر مِقعد بالخلف، لأنه مقعد كبير ويتّسع لأربع أولخمسة أشخاص، وإذا أراد أحد الجلوس بجانبك قولي لهم أنه محجوز، خذي صديقاتكِ واجعلي ديالة تجلس على الكرسيّ الخلفيّ بجانب النافذة وأنتِ بجانبها في الوسط ونسرين ومنال في المقعد الذي سيكون أمامنا، لنكون جميعاً قريبين من بعض، وسأحضر أمين وأجلسه بجانبكِ في الخلف، وسأجلس أنا بجانبه من الجهة الأخرى ونحشره في الوسط بيننا ونبدأ معه الحديث.
- وإذا رفض الجلوس بجانبي؟ أو رفض سماعنا؟
- لا لن نسمح له بالرفض، هيّا تسوقي الآن مع صديقاتكِ، وسنتقابل في الحافلة كما اتّـفقنا لا تنسي اصعدي قبل أيَّ أحد.

وفعلاً بعد جولة في السّوق وقبل انتهاء الوقت بأكمله أخبرت ريم صديقاتها بالخطة، واتفقت معهنّ أن يصعدن للحافلة قبل أي أحد. فجلسن كما قال لها هاني، وبعد نصف ساعة تقريباً من الانتظار جاء هاني ومعه أمين وباقي الأصدقاء، فقال أمين لهاني عندما وصلا الحافلة وصعدا: "أرأيت يا هاني، قلت لك لن نجد مكاناً مناسباً نجلس به، انظر الحافلة ممتلئة لقد أخرّتنا وأنت تختار و تحتار ولم تشترِ شيئاً بالنّــــهاية.

– لا تقلق سنجد مقاعد فارغة، فعدد المقاعد على عدد الطّلاب، لن يأخذ أحد مكان أحد، الكلُّ سيجلس يا أمين.

فبقي هاني يسير لداخل الحافلة، وتوجّه للمقاعد الخلفية وأمين وأسامة ورامي وراءه.

– أرأيت يا أمين، هنا المقعد الخلفيُّ فارغ، هيا اجلس.

فنظر أمين ووجد ريم تجلس وبجانبها ديالة، فقال لهاني: "اجلس أنت هنا وأنا سأجلس بجانبك".

فمسك هاني أمين من كتفيه وجعله يجلس رغماً عنه، وقال له: "اجلس يا أخي وكفاك كلام بلا فائدة"، فنظر أمين إلى ريم وقال لها: "آسف لم أقصد أن أجلس بجانبكِ، لكن هاني أجبرني على ذلك"فابتسمت ريم وقالت له: "لا عليك..."

وجلس هاني بجانبه وأسامة عند النّـــافذة، أما رامي فأخذ الكرسيّ الذي أمامهم. بقي أمين صامتاً ومن دون حراك وكأنه مخنوق حتّى قال له هاني: "ما بك تجلس كالأصنام".

– بصراحة أشعر وكأنني مقيّد هنا في الخلف؛ ولأنني في الوسط لا أستطيع الحراك.

– وهذا هو المطلوب يا أمين، ولا حتّى أريدك أن تتكلّم أيضاً.

– لماذا؟!

– أريد أن أكلّمك...لذا احتجزتك بيني وبين ريم، ولا أريد منك الكلام ولا المناقشة ولا حتّى الحراك، عليك الاستماع فقط.

فنظر أمين لهاني بنظرة غضب لوضعه في هذا الموقف، ثمَّ أكمل هاني كلامه وقال: "أنت وريم أصبحتما جزء لا يتجزّأ عن بعض، ونحن لا نحبّ أن نراكما هكذا متفرّقين والحزن في أعينكما، أنتما الاثنان تتظاهران باللامبالاة ويقهر كلُّ واحد الآخر، وفي الحقيقة كلٌّ يقهر نفسه....

وبقي هاني يتحدّث ويرسم لوحة فنيّـــة بكلامه ويزركش الحديث كما يحلو له ويلعب بأفكار أمين كأنه يوسوس في صدره.

وأمين يستمع له وحتّى ريم بقيت صامتة لم تتفوّه ولا بكلمة واحدة، وفي نهاية حديثه قال هاني: "أنا قلت ما عندي يا أمين" وها هي ريم بجانبك وما زال الحبُّ ينبض في قلبيكما، فلا تجعل هذا الحبّ يموت بسبب عنادكما، فكّر وأعطنا قرارك قبل أن نصل إلى بيوتنا".

فأنزل أمين رأسه ونظرة للأسفل ووضع رأسه بين كفّيه وغاص بالأفكار، فنظرت ريم لهاني وسألته بلغة الإشارة: "ما به أمين..؟" فأشار لها بيده بمعنى "اتركيه..."

فبعد ربع ساعة من الصّمت الأسود، التفت أمين لريم ونظر في عينيها وقال لها: "لا أعرف ماذا أفعل ياريم!! قلبي ضعيف أمامكِ، سأفكّر بعقد القران وأدرس الموضوع؟

ليس هذا معناه الموافقة".

فابتسمت ريم وقالت له: "غداً في الجامعة سنفكّر ونحدّد"...وطار قلب ريم من الفرح والضّحكة لم تغادر شفتيها وعادت الحيويّـــة إليها.

ثمَّ التفت أمين لهاني وقال له: حسابك أنت فيما بعد...

الفصل الرابع والعشرون

وصلت حافلة الرّحلة بسلام وتوجّه الجميع لبيوهم، كانت ريم في غاية الفرح والسّعادة، وعندما دخلت المنزل استقبلتها والدها، وقالت لها: "حمداً لله على سلامتكِ يا ريم؟ كيف حالكِ؟" وقبّلتها بشوق كبير مع ابتسامة أمٍّ حنون مشتاقة لابنتها الغالية.

– الحمد لله يا أمّي كانت رحلة بغاية الجمال، لقد خرجنا ولهونا ولم نجعل للملل مكاناً له في وقتنا.

ريم لم تكن مسرورة جدّاً بالرّحلة، بل عانت من الوحدة والحزن والملل مع أنَّ جميع صديقاها كانوا حولها، لكن ما جعلها فرحة هي التّطورات الأخيرة التي حصلت في الحافلة وما قاله لها أمين، فشعرت بأنّ الرّحلة من أوّلها لآخرها كانت فرحاً ومرحاً، فالحبُّ الدّاء والدّواء للقلوب المغرمة الضّائعة.

ثمَّ جاءت هند لغرفة ريم فسألتها: "لم تحدّثيني يا ريم عن تفاصيل الرّحلة ومع من كنتِ تقضين معظم وقتكِ"؟

"سأحدّثك يا أمي فهناك كلام كثير أريد أن أخبركِ به، لكن دعيني أرّتب أغراضي وسآتي لنشرب فنجان قهوة ونتحدّث في غرفة الجلوس.

فعلاً انتهت ريم من ترتيب أغراضها وأعدّت القهوة وجلست مع أمها، وبدأت تشرح لها عن الفندق وروعته وعن الطّعام اللّذيذ الذي تناولوه، ثمَّ أخبرها أنّها كادت أن تغرق بالبحر، لكنّ صديقتها ديالة ساعدها وقامت بنقلها إلى الكرسيّ تحت المظلّة...خافت جدّاً من إخبارها الحقيقة. ثمَّ سألتها والدها: "هل كان أمين بالرّحلة؟"

فأجابتها: "نعم يا أمي، لكن صدّقيني لم أتكلّم معه ولا كلمة واحدة طيلة الرّحلة، ولم أجعله يجلس بجانبي وكان حزيناً جدّاً لأني كنت أعامله بجفاء هكذا".

– وكيف استطعتِ التصرّف بهذه الطّريقة الصّحيحة؟"

– يا أمي بصراحة لا أعرف، لكن هذا ما تبادر إلى ذهني، فتصرّفت بهذه الطّريقة.

– بدأتِ تعودين لصوابكِ، وعاد لكِ عقلكِ يا حبيبتي.

فقالت ريم في نفسها: "مسكينة أمي، لو تعلم أنني سأعقد قراني قريباً سيُجنُّ جنونها، وهي فرحة الآن بأشياء وهميّة، وهي السّبب بأن تجعلني أفعل هذا من ورائها".

في صباح اليوم التالي ذهبت ريم للجامعة متحمّسة تريد أن تتفّق مع أمين حول موضوع عقد قرانهما، فرأت في وجهها باسل ينتظرها ويريد أن يكلّمها.

فقال لها: "صباح الخير يا وردة الصّباح؟"

– صباح النّور، لكن أرجوك ابتعد قليلاً أنا مستعجلة وأريد أن أصل للمحاضرة على الوقت.

– أريد أن أكلّمك يا حبيبتي.

– لا تقل حبيبتي لأني لست حبيبتك؟ ولا أريد أن أكلّمك؟

– أنا أحبكِ، إذن أنتِ حبيبتي ومن حقّي أن أناديكِ كما يحلو لي.

- ابتعد من وجهي أريد الذّهاب.
- متى سنتكلّم؟
- لا يوجد بيننا كلام، ابتعد...ثمَّ أزاحته بيدها بقوّة وذهبت لتكمل طريقها للمحاضرة.

أكمل الطّلاب دوامهم كالمعتاد وفي نهاية الدّوام اجتمع الأصدقاء حول طاولة في استراحة الجامعة، كان أمين يجلس بكلِّ هدوء ولا يتكلّم، مكتّف اليدين يستمع لرفاقه، وكان غارقاً بأفكاره وكيفيّة عقد قرانه بريم، ثمَّ همست ريم بأذن هاني وقالت له: "أرجوك أكمل معروفك، وأسأل أمين متى سنحدّد موعد عقد القران؟"

بعد برهة صغيرة قال هاني: "يا رفاق سنحتفل سويّاً بعد بضعة أيام بعقد قران أمين على ريم، فلنبارك لهما".

فأجابه أمين بانزعاج: "لم نقرّر ولم نحدّد بعد".

أما منال فكأنَّ أحداً ضربها عندما سمعت ما سمعت، وقالت في نفسها: "يا ليتني لم أجلس معهم اليوم وذهبت على الفور لمختبر الحاسوب".

فقالت ريم: "ما رأيك يا أمين غداًً؟"

فأجابها: غداً ماذا؟

- غداً نذهب بعد الجامعة إلى شيخ لعقد قراننا، وبعد التخرّج نثبّت هذا الزّواج بالمحكمة، بعدما نخبر أهلي، ما رأيك؟
- لا أعرف، أو لا يجب أن نتسرّع.
- أمين...غداً أو بعد غدٍ أو بعد شهر كلّه واحد، لذا غداً أفضل لنا، سنعقد قراننا غداً...هيّا قل موافق.
- "لا أعرف سأفكّر... ربّما...."، أجابها أمين لكن كان التردّد يغلب على فكره.

فقال له هاني: "ولماذا تقولها وأنت حزين، وفاقداً للحماس؟"

- لا لست حزيناً لكنّي مشغول الفكر، وأشعر بالتردّد.
- لا تتردّد فأنت منذ هذه اللّحظة عريس ويجب أن تفرح، لو أنا مكانك لبدأتُ أرقص من الآن حتّى موعد العرس.
- لا تبالغ يا هاني...عريس مع وقف التّنفيذ! وربّما يلحقه حكم الإعدام.
- ولو يا أمين، سيبقى اسمك عريساً، وغداً سنقيم لكما حفلة صغيرة بعد الانتهاء من عقد القران وستكون هذه الحفلة في بيتي.

فقال أمين: "لا داعي يا هاني لم نقرّر بعد".

قفزت ريم وقالت: انتهينا قرّرنا غداًيا أمين.

ثمَّ نظرت ريم لهاني وقالت له: "لكن أرجوك يا هاني، وأرجوكم جميعاً إيّاكم أن تخبروا أحداً بأننا سنعقد القران؛ لكي لا تصل المعلومات إلى أمي، وسيبقى هذا الموضوع سرّاً بيننا نحن الأصدقاء أرجوكم مرّة أخرى...أمين ماذا قلت؟"

- غداً غير مستعدٍ لفعل مثل هذه الخطوة الخطيرة.

فقالت: بل ستفعل.

وفي المساء عاشت ريم ساعات قلق وحيرة، ساعة تكون فرحة وساعة تجلس حزينة سارحة تُـفكّر...هل ما ستفعله هو الصّواب والحلُّ الوحيد، وأحياناً أخرى تجلس ترجف من البرد وأسنانها تصطكُّ ببعضها البعض، كانت تعيش في حالة نفسيّـة سيّئة جدّاً وتشعر بتأنيب الضمير اتّـجاه والديها، لكن تعود وتبرّر لنفسها بأن لا حلَّ أمامها إلاّ هذه الطّريقة. فلاحظت والدتها عليها هذا الاختلاف في طبعها كلّ ساعة، فسألتها: "يا ريم ما بكِ يا حبيبتي؟ هل تعانين من شيء؟" فأجابتها ريم: "لا يا أمي أنا جيّدة نوعاً ما، باستثناء ألمٍ في رأسي وأشعر بالبرد"، كانت ريم تجلس على الكنبة وتلتفُّ بغطاء دافئٍ ناعم حولها.

ثمَّ قالت لها والدتها: "لا بدّ أنّ هذه هي أعراض البرد، سأعُدّ لكِ كوباً من اللّيمون الطّازج لتصبحي نشيطة".

– لا يا أمي، لا تُتعبي نفسكِ سأصبح جيّدة بعد قليل.

– لا سأحضّره على الفور.

شربت ريم العصير مع حبّـة الدّواء، لكن بقيت تعيش في حالة من الاضطراب النفسيّ، وتدور في دوّامة فرح وحزن يربطهما القلق، تتجوّل بالبيت ولا تعرف ماذا تريد أن تفعل أو بأيِّ شيء تُشغل نفسها، حتّى أنّ والدتها ضجرت منها وقالت لها: "كفى يا ريم... مابكِ؟ أنتِ مريضة أم مشغولة بشيء، أم في حالة جنون لا أفهم ماذا دهاكِ؟"

فأجابتها ريم بملل شديد: "ولا أنا يا أمي لا أعرف ماذا دهاني، لكن أشعر بملل وكسل وتعب وفجأة بنشاط، لا أعرف..."

– ألم أقل لكِ أنها بداية حالات الجنون، أفضل شيء أن تذهبي وتنامي قليلاً لتريحي جسدكِ لأنه يبدو عليكِ التعب، وأنا سأذهب عند الجارة أم باسل في الطّـابق الأرضي؛ لأشرب فنجان قهوة ثمَّ أعود لأوقظكِ من قيلولتك لتباشري بالدّراسة.

– لماذا تذهبين لزيارتهم؟ بصراحة لم أحبّهم.

– لا يا ريم على العكس، أم باسل سيّدة طـيّبة ولطيفة، كما أنها اتّصلت معي مرّتين اليوم لتدعوني لشرب فنجان القهوة معها بعد العصر، ولا أريد أن تترعجَ مني إذا لم أُلبّي دعوتها، أحبّ أن أبقى على علاقة طيّبة مع جميع الجيران.

– حسنا أنا سأحاول النّوم، وأنتِ اذهبي لشرب قهوتكِ.

وذهبت ريم لفراشها وعادت للتفكير: "يا ترى ماذا يفعل أمين الآن أيـُفكّر بيوم غد، أم لم يرَ للموضوع أهميّة مثلما أراه، أنا التي سأخدع أهلي، أما هو فلن يخدع أحداً، لذلك لن يكون قلقاً مثلي".

أما أمين كان قلقاً بالفعل كما كانت ريم، خائفاً عليها يخشى من هذه الخطوة الجريئة، ويشعر أنها ستدمّر علاقتهما بدلاًمن أن تنعشها، يتمنّى لو باستطاعته مكالمة ريم هاتفياً أو لو أنها تملك هاتفاً خلوياً خاصاً بها ليستطيع الاطمئنان عليها، لكن بقي جالساً في غرفة الجلوس قلقاً يضع كتبه أمامه ويقلّبها ليدرس لكن لا يستطيع التركيز.

ما إن خرجت هند حتّى قامت ريم مسرعة من سريرها وقفزت للهاتف لتكلّم أمين قبل أن تأتي والدها، واتّصلت به على البيت فرّن الهاتف... فمدّ أمين جذعه ليرى كاشف الأرقام المــتّصلة، ففوجئ برقم منزل ريم، فرفع السّماعة بسرعة ولهفة وقال: "ألو نعم؟"

– مرحباً أمين، كيف حالك؟

– حبيبتي كيف حالكِ أنتِ، أنا قلق عليكِ.

– بصراحة يا أمين أنا مضطربة وأشعر أني شبه مريضة لا أعرف ماذا دهاني.

– أنتِ مضطربة من أجل موضوع عقد القران غداً، أليس كذلك... أم هناك شيئ آخر؟

– كلا، لا يوجد شيء آخر يشغلني لكن هذا ما اخترته أنا، ولا أعرف لــمَ أنا متوتّرة لهذا الحدّ؟

– هذا لأنكِ ستقدمين على شيء كبير سيغيّر لكِ حياتكِ، ومن دون علم أبويكِ.

– نعم، أعرف.

– هل أسألكِ سؤالاً يا ريم.

– نعم تفضّل؟

– ما هدفكِ من زواجنا؟ هل وضعتِ هدفاً معيناً.

– هدفي...! لــمَ سؤالك غريباً هكذا؟ وكأنك لا تعرف ما هو هدفنا نحن الاثنان.

– أنا أعرف الهدف الأساسي لكن، أقصد هل هناك أهدافاً أخرى.

– كلّ الأهداف المدرجة في قائمة الزّواج هي من أهدافي، لأنّ أهداف الزواج هي دائماً نبيلة، هذا بجانب الهدف الأساسيّ وهو عدم ضياع هذا الحبّ الذي ولد وترعرع منذ أربع سنوات.

– ألن تندمي على مثل هذا القرار يوماً ما؟

– لا أبداً... أنا واثقة من أنه القرار الصّائب، لكن لأنه قرار مصيريّ وغير تقليديّ أنا أعيش بدوّامة غريبة وأشعر أنها مجهولة عليّ.

– أَمِنَ الممكن أن تتراجعي عن كلامكِ أو قراركِ غداً ؟

– لا طبعاً، ما بك...! وكأنك تنتظر مني أن أغيّر رأيي أو كأنك تحبط من معنوياتي بدلاً من أن تشجّعني؟ ألا تحبُّ أن أربط اسمي باسمك... أم ماذا؟

– يا ريم لا أحبّط من معنوياتكِ، لكن أنتِ تنظرين للقرار أنــّه صائب، وأنا ما زلت أرى أنه لا داعي لفعل هذا غداً، فهو بالفعل دوّامة مجهولة ربما تأخذنا للغرق، وليس من المعروف مصير هذه الدوّامة، أنتِ وهاني ضغطّتما عليَّ كثيراً لدرجة أنني لم أعد أفكّر بطريقة صحيحة، شُلَّ تفكيري.

– نعم فهمت، أنت تريد أن تنسحب من الاتــّفاق الذي اتــّفقنا عليه، أليس كذلك؟

– أنا لم أتّــفق... بل وُضعتُ تحت الأمر الواقع، هل لي أن أنسحب الآن؟

صمت فجائيّ على الهاتف، وريم بقيت صامتة لم تجب أمين، فانتظرها أمين لتتكلّم ثمّ قال لها: "أما زلتِ على الهاتف يا ريم؟...ألو؟"

فأجابت وبصوتها حزن شديد ممزوج بنعومة وبرقة "نعم، ما زلت معك على الهاتف".

– ما بك؟ أشعر بحزن في صوتك؟ بعدما كنت مشتعلة بالحماس؟

– تقول لي انسي الموضوع الآن وتنسحب وتريدني أن أبقى مشتعلة بالحماس وسعيدة؟ أشعر وكأنني أضغط عليك وأجبرك على الزواج بي وأنت لا ترغب، أو كأنني أحبك وحدي، وأنت مرغم على فعل ذلك فقط لكي لا تزعجني، ولأني أنا طلبت هذا.

– حبيبتي... خوفي عليكِ هو الذي يجعلني متردّداً من الزّواج بكِ الآن، سبق وشرحت لكِ رفضي لعقد القران، وأنت لم ترغميني على فعل أيِّ شيء، لكن أنا واقع في مصيدة الحبّ كما أنتِ، أنا لن أمانع من الزّواج بكِ أبداً إلا أني أرى أنَّ والديكِ يرفضاني زوجاً لكِ، هذه هي مخاوفي.

– أمين هذه حياتي ولا يحقُّ لأيِّ أحد أن يتدخّل بها.

– لا يا ريم، لا أريد أن أسمع منكِ مثل هذا الكلام، فهما والداكِ اللّذان قاما بتربيتكِ وتعبا عليكِ، ومن ليس فيه خير لأهله ليس له خير لأحد.

– حسناً...حسناً يا أمين فهمت، تريد أن تضع أيِّ حجّة لكي تتهرّب من عقد القران غداً، وأنا ليس لي خير لأهلي ولا لأحد، هذا ما استنتجته أنت لأنك ذكّي للغاية وحكيم –كما يقولون– وها أنا أنسحب لا أريد عقد قران غداً وشكراً ... مع السّلامة.

وأغلقت ريم السمّــاعة وهي منزعجة جداً وركضت لغرفتها تبكي، أما أمين حزن من تصرّفها المفاجئ، ولأنها غضبت بهذه السّرعة من كلامه، مع أنَّ قصده هو نصحها لا إهانتها أو اتّهامها بعدم الخير لأهلها، وأغلق سمّاعة الهاتف منزعجاً يتأفــّف لسوء الفهم هذا، وعاد وحمل كتابه ليدرس، فَقَلّبَ الكتاب بملل ومن ثمَّ بعصبيّـــة، وفكره مشغول بالحديث الذي دار بينه وبين ريم، ومن شدّة انزعاجه مسك الكتاب ورمى به بقوّةٍ متطايراً على الأرض.

رنّ الهاتف مرّة أخرى عند أمين، فقال في نفسه هل يُعقل أن تكون ريم؟

– رامي؟ ماذا يريد هذا الآخر؟...آلو نعم؟

– مرحباً أمين.

– من؟ منال...!!

– نعم منال، ما بك... ألم تعرف صوتي؟

– بصراحة اعتقدت أنّ رامي هو المتّـــصل.

– صوتك لم يعجبني، ما بك...وكأنك منزعج؟

– لا شيء، فقط أشعر بملل شديد وأنا أدرس.

– أريد أن أسالك يا أمين هل تعرف أين رامي؟ سؤالها كحجّة لتتكلّم مع أمين.

– لا....

– لقد خرج من دون أن يخبر أحداً ولا يجب على هاتفه النّـــقال.

(كان رامي ذاهب للمتجر القريب من منزلهم لشراء زجاجة "كولا"وكانت منال تعرف).

– لا تقلقي عليه فهو ليس طفلاً صغيراً، من المؤكّد أنه خرج لمكان ما.

– صحيح يا أمين، هل ما زلت تريد عقد قرانك غداً؟

– لا لقد تغيّرت الخطّة...

– لماذا؟؟ وكانت منال في غاية السّعادة لسماع هذا الخبر.
– أرجوكِ منال أريد أن أكمل دراستي، كما عليَّ أن أسلّم مشروعاً هندسياً غداً وأن أنهي العمل وأنجزه في أسرع وقت.
– لكن طمئني هل جرى بينكما شيء؟
– بين من؟
– أنت وريم؟
– منال، من فضلكِ أنا مشغول، اتّصلي مع ريم إذا أردتِ أن تعرفي أخبارها، مع السّلامة الآن.
– طيّب.... إلى اللّقاء.
– أفّ، إلى اللّقاء.

وأغلق أمين السّماعة متزعجاً، وتوجّه إلى جهاز الحاسوب وفتحه ليكمل رسم المشروع الهندسيّ المطلوب منه.

أما منال بعدما أغلقت سمّاعة الهاتف قالت في نفسها:"يا إلهي...ما به اليوم لا يطيق الحديث معي، لا أعرف لـــمَ أنا أركض وراءه وهو لا يحبّني، كم أنا غبيّـــة".

بقي أمين ساعة كاملة أمام جهاز الحاسوب ولم يستطع إنجاز أيّ شيء، وكانت أفكاراً تأخذه وأفكاراً تعيده، يشعر أنه فاقداً للتركيز، في العادة هو عندما يشتُّ تركيزه ويسرح بأفكاره يستطيع أن يسيطر على نفسه ويضبطها ويعود لإنجاز ما هو عليه، لكن اليوم هو فاقداً تركيزه تماماً، يشعر أنه فعلاً مشتت وكأنَّ تفكيره مشلول، قام من أمام الحاسوب وخرج للشّرفة ووقف يتأمّل الشّوارع مع أنَّ الطّقس كان بارداً جداً، والغيوم ملبّدة بالسّماء وكأنها ستمطر، وبعد تأمّـــله وسكونه دخل أمين مسرعاً من الشّرفة، وتوجّه إلى غرفة النوم وبدّل ملابسه بملابس رياضيّـــة، وحمل حقيبة صغيرة فيها منشفة وزجاجة ماء بارد، وتناول مفاتيحه من على الطاولة، وخرج من دون أن يأخذ هاتفه الخلويّ المركون بجانب المفاتيح.

(هو لا يأبه للهاتف ويعتبره من ثانويّات الحياة، مع أنّ معظم النّـــاس لا يستغنون عنه ويعتبرونه من أساسيّـــات الحياة، ولا يستطيعون الخروج إلا والخلويّ بجيبهم).

ركب سيّـــارته وبدأ يقود بكلِّ هدوء تام؛ لأنَّ فكره ما زال مشغولاً، أما الفكرة التي راودته فهي التوجّه إلى نادٍ رياضي للالتحاق به لأنه تذكّر كلام الطبيب: "عليك يا أمين ممارسة الرياضة لتنشيط عضلة القلب وتقويتها، كما أنّ الرياضة تنسيك همّـــك وتروّح عن نفسك، وتبعد عنك التوتّر والضغوطات النفسيّـــة". فقال أمين في نفسه: "هو الحلُّ الوحيد لكي أنسى ما أفكّر به وأنشّط جسدي وأعود للمترل مفرّغاً كلّ الشحنات الزائدة، وأبدأ بإنهاء المشروع الهندسيّ بفكر نظيف".

وبالفعل وصل للنادي وقام بتسجيل اسمه ودفع القسط المستحقّ للالتحاق، وبدأ المدرّب الرياضي يُرشده على الأجهزة التي يجب أن يلعب بها والأجهزة التي لا يستطيع أن يلعب بها (حسب حالته الصحيّـــة).

أمّا ريم فلا نوم نامت ولا دراسة أنهتها، بقيت تضع الحزن أمامها في الغرفة وتنظر إليه، اتّصلت منال هاتفياً معها لتعرف ما دار بينها وبين أمين، فشرحت لها ريم الحكاية، فأخبرت منال أخاها رامي بما حصل وأخبرته كم هي سعيدة لسماع مثل هذا الخبر.

وبدأ هاتف أمين الخلويّ يرنّ مرّات عدّة دون أن يجيب عليه أحد، أما أمين فقد قضى حوالي ساعة في النّـــادي الرّياضي، ثمّ عاد للمنزل نشيطاً وشعر بتغيّر كبير في نفسيّته، وفور وصوله جلس في غرفة الجلوس على الكنبة ليخلع الحذاء الرياضي، فلمح هاتفه الخلويّ على الطّاولة أمامه، فتناوله ليرى من اتّصل به، فوجد ثمانية اتّصالات مسجّلة فقال: "ياه...ثمانِ مكالمات! ماالذي يجري؟ ساعة واحدة أخرج بها فيتذكّرني الجميع فجأة...من يا ترى؟" كان المتّــصلون، هاني ثلاث مرات، رامي مرتين، نيرمين مرّة واحدة، ديالة مرّة واحدة، خالته علياء مرّة واحدة، سأتّصل بخالتي فقط لأرى ماذا كانت تريد، أمّــا الباقي أكيد ليس لديهم شيء مهم، فرفع سمّاعة الهاتف ورنّ على خالته "مرحباً خالتي، اتّصلتِ معي أليس كذلك؟"

– نعم أين أنت لقد قلقنا عليك؟
– ذهبت ساعة واحدة، لم أَغِب مدّة طويلة فلمَ القلق؟
– اتّصل هاني سأل عنك وكان قلقاً عليك، وقال لي أنك في حالة سيّئة؛ لأنك تشاجرت مع ريم على الهاتف، ولم تجب على هاتفك الخلويّ بعد ذلك.
– يا خالتي لـــمَ النّاس يُهوّلون الأمور... لا أدري؟.. لا تقلقي أنا بحالة ممتازة.
– أين كنت؟ لقد جئت لبيتك لأبحث عنك، خفت أن تكون متعباً ولا تستطيع الإجابة على الهاتف.
– كنت في النّـــادي الرّياضي، ذهبت والتحقت به وبدأت بممارسة الرّياضية، ولم آخذ هاتفي، لم أجد له داعٍ.
– هذا ممتاز، لكن مرّة أخرى أبقِ الخلوي معك، لنبقى على اتّصال إذا أردناك.
– حاضر يا خالتي.
– لكن قل لي ماذا جرى بينك وبين ريم؟
– أرجوكم دعوني أنسى ولا أريد أن أفتح الموضوع.
– أريد فقط أن أطمئن...
– سآتي لأتناول طعام العشاء معكِ وبعدها أحدثكِ؛ لأني أريد أخذ رأيكِ بشيء مهم جداً، فأنا متردّد بقرار مصيريّ، والآن سأذهب لأبدأ دروسي.
– حسناً، على السّاعة التّـــاسعة تعال للعشاء سيكون جاهزاً.
– لن أتأخّر خالتي إلى اللّقاء.

وعاد أمين لجهاز الحاسوب ليكمل مشروعه الهندسيّ بعدما سحب سلك هاتف المنزل وأطفأ جهاز الخلويّ، لأنه يعلم لو اتّصل معه أحد من أصدقائه سيناقش بموضوعه هو وريم، وأمين لا يريد المزيد من الكلام بهذا الموضوع؛ لأنه يحتاج إلى التركيز بمشروعه الذي بين يديه الآن، كما أنّ الموضوع يخصّه هو وريم، ولا يحبُّ أن تثار حوله مشاكل كثيرة.

***

العشاء كان لذيذاً من يد الخالة علياء؛ لأنّ طريقة طهوها لا تضاهى، لقد أكل أمين فوق طاقته وضاعف وجبته مرّتين لدرجة أنه لا يستطيع أن يتحرّك من مكانه.

– لقد أثبتَّ لي أنّ الطّعام كان لذيذاً اليوم، أليس كذلك يا أمين؟

– بالطبع خالتي، فأنا منذ مدّة طويلة لم أتناول ورق العنب، يا إلهي كم هو لذيذ الحمد لله، لقد أكلتُ أكثر من اللازم، لا أستطيع النهوض عن الكرسيّ كما أنني أشعر بالكسل.

– هذا بالإضافة لأنك لعبت الرّياضة فأصبح جسدك يحتاج إلى وجبة أكبر وشهيّتك مفتوحة.

– ربّما خالتي، لكن لا أُنكر أنَّ طعامكِ لا يقاوم...فضحكت الخالة وهي مسرورة، وذهبت الخالة علياء للمطبخ لتنظّف الأطباق وتعيد باقي الطّعام للثلاجة، فلحق بها أمين يحمل باقي الأواني الكبيرة، قال لها: "خالتي أريد أن أكلّمك بموضوع خاصٍ بي، هل تأتين لمترلي لأني بصراحة لا أريد الكلام أمام عمّي عبد الرّحمن".

– عبد الرّحمن سيذهب بعد قليل هو وصديق له لزيارة شخص عزيز عليهما عاد من السفر، سيغيب حوالي ساعة واحدة، سأجلس معك وتحدّثني في هذه الأثناء، كما أنَّ يزيد والبنات ذهبوا للنّوم، سنجلس بهدوء لا تقلق.

– حسناً، سأساعدكِ في ترتيب المطبخ ريثما يذهب عمّي عبد الرّحمن.

أما هاني بقي يحاول الاتّصال بأمين، لكن من دون فائدة، لقد أوصته ريم أن يرى وضع أمين وما ردّة فعله حول ما جرى بينهما اليوم، ثمَّ تكلّم هاني مع ريم وقال لها: "يا ريم، أمين لا يجيب على هاتف البيت والخلويّ مغلق، لا أدري... يظهر أنه لا يريد الحديث مع أحد".

فقالت ريم: "إذن هو حزين أو غاضب مني، وأنا التي يجب أن تغضب".

أجابها هاني وهو لا يدري كيف يوفّق بينهما فأمرهما محيّر، "اسمعي يا ريم ربّما أمين كلامه منطقيّ، حاولي التفكير أكثر راجعي نفسكِ".

– هاني أنت مع من تقف بالضبط؟ معي أم معه أنا لا أدري؟

– معكما أنتما الاثنان، وكلٌّ واحد فيكما مُـــحـــقٌّ بقراره.

– أرجوك حاول أن تقفُ بجانبي أكبر قدر ممكن، لأني فتاة وأحتاج من يناصرني، أنت صديقه وتستطيع إقناعه.

– حسناً، غداً سنفهم الموضوع من أمين بالضبط. الآن إلى اللّقاء...نامي من دون قلق، ارحمي نفسكِ ولا تكوني حسّاسة زيادة عن اللّزوم، أمين يحبكِ أكثر مما تتخيّلي، سأصبح مريضاً نفسيّـــاً بسببكما، لقد أتعبتماني ومللت منكما!!

جلس أمين مع خالته في غرفة الجلوس، فبدأ أمين كلامه:"خالتي، أنا ما زلت أحبُّ ريم وأنتِ تعرفين ذلك جيّداً، وليس بالكلام الجديد، مع أنَّ كلّ الأمور من حولنا تقف حاجزاً يمنع من إكمال مسيرة هذا الحبِّ والتكلّل بالزّواج، أليس كذلك؟

– بلى، أكمل أنا مصغية إليك.

- لذلك يا خالتي قــرّرنا أو بالأحرى ريم اقترحت عليّ أن نعقد قِراننا ومن دون علم والديها بذلك، وبعد التخرّج نخبرهما أننا عقدنا القران منذ مدّة، وبهذا لن يستطيعا فعل شيء بعد ذلك. ما رأيكِ أنتِ؟
- لا...أعوذ بالله، إياك أن تفعل أمراً كهذا فهو ليس منطقياً أبداً، بل ستقع أنت وريم في مشاكل ليس لها بداية ولا حتّى نهاية، إياك أن تفعل ذلك..أحذّرك.
- أعرف يا خالتي، لقد رفضت بشدّة في البداية لكن ريم مصرّة جداً، وغَضِبَتْ عندما رفضت، واعتقدت أنني أتلاعب بمشاعرها فقط، وأنني لا أريد الزّواج؟
- يا أمين أمامكما المستقبل لتثبتا جدارتكما في الدّراسة وفي العمل ونيل المراكز العليا، لـــمَ تريد شراء الهمِّ بيدك، زوجة يعني مسؤوليّـــة ويعني أطفال، وستزداد الصّعوبات أمامكما، لا تعتقد أنَّ الزّواج سهل ومسلٍ، لا أبداً...بل هي مرحلة حياة يقفز إليها الإنسان، ولا يتعدّاها كباقي المراحل، فالدّراسة مثلاً هي مرحلة مؤقّتة تصلها تُنهيها فتقفز منها لتصل إلى مرحلة أخرى في حياتك هي العمل، فهي مرحلة جديدة، أمّا الزّواج كما قلت لك مرحلة إلزاميّـــة أبديّة، ويجب أن يكون الشّخص مستعدّاً كلّ الاستعداد لها عندما ينوي القفز إليها، ويجب أن يكون قد قفز على جميع المراحل، مرحلة...مرحلة.
- خالتي مصيرنا معقّد أنا وريم، وإذا انتظرنا لنقفز قفزات الحياة ونصعد سلالم الزّمن المُقَدّرة لنا، سيضيع الحبُّ من بين يدينا، ويتسلّل الملل إلى قلوبنا، هذا إذا لم تُزوّجها والدهما من أحد آخر، هل سينتظر أهلها أن أقفز قفزات الحياة وأعود لأتزوّجها؟ هما لا يرضون بي الآن فكيف بعد فترة.
- على العكس ربّما يكون أحد أسباب الرّفض هو أنكما صغيران على الزّواج.
- يا خالتي... سأتخرّج مهندساً هذه السّنة ومازلتِ تريني صغيراً؟
- نعم يا أمين أنت صغير بالنّسبة لأعمار الشّباب الذين يُقدمون على الزواج في زمننا هذا، لا تعتقد أنَّ عمرك ذا الثلاثة والعشرين ربيعاً يؤهّلك للزّواج، أنت لمْ ترَ من الحياة شيئاً بعد، فالمجتمع بانتظارك لتتعلّم وتكسب وتخسر وتأخذ وتعطي، فما زالت تجاربك بالحياة قليلة، وانغماسك بالمجتمع ما زال في بداياته، أفكارك ستتغيّر وتتبدّل، ألم تشعر بتغيّر في تفكيرك من أوّل سنة في الجامعة حتى السّنة الخامسة هذه؟
- بالطّبع خالتي، اتّسعت مداركي وطريقة تفكيري أصبحت مختلفة نوعاً ما، لكن ما زالت شخصيّتي هي نفسها ولن تتغيّر فأنا لا أشعر باختلاف.
- هذا مؤكّد لأنّ شخصيّتك اكتسبتها على مراحل حياة عمرك المختلفة منذ الطّفولة إلى مرحلة المراهقة، ثمّ ثبتت عند بلوغك سنّ الشّباب، فالشخصيّة لا تتغيّر بل تُصقل وتتطبع بأطباع مختلفة مع مرور الزّمن عندما تعاشر النّـــاس وتتعلّم منهم ويتعلّمون منك، والشّخص الذكيّ الذي يصقل شخصيّته ويُطَبّعها بالصّفات الحسنة الجيّدة التي تنمّي فكره وتزيده معرفة في تدارك أمور الحياة، والتّعامل بكلِّ حكمة بجميع الحالات.
- آه يا خالتي، لم نصل إلى حلٍّ بعد لمشكلتي وخرجنا عن الموضوع الأصليّ.

- لا أبداً لم نخرج هذا من ضمن موضوعنا، تعامل بحكمة وشغّل عقلك سترى الحلَّ أمامك؟
- كيف؟
- إذا كانت تحبّك فعلاً يجب أن تطيعك، كما يجب أن تفرض رأيك عليها لا أن تُسيّرك على أهوائها.
- أنا لا أريد أن أزعجها أو أن أضايقها، ولا أحبّ أن أجعل الخلاف والحزن يدخل إلى قلبينا، ليست القصّة فرض رأي أو ما شابه، أنا أحبّها ولا أرضى بضياعها وبُعدها وأشعر حيال هذا الموضوع بضعف حقيقيّ لا أقوى عليه.
- يا عزيزي كلّ الفتيات متشابهات والحبّ واحد.
- لا، ماهذا الكلام الغريب؟ أنا أعيش في قلق وحيرة، أفكّر بمصيرنا، لم أعد أنام جيّداً ومتعب جدّاً... متعب خالتي لدرجة أنني أصبحت آخذ دواء القلب الإضافيّ الذي وصفه لي الطّبيب عند الضّرورة والشّعور بضغط نفسيّ شديد.
- أنتم شباب هذه الأيام تشترون التّعب والهمّ بصحّتكم وأيديكم، لماذا؟ لا داعي لكلِّ هذا انتبه لصحّتك؟
- لا تقلقي على صحّتي، المهم نفسيّتي سيّئة، أنا بحاجة يا خالتي إلى إنسانة بجانبي تبعد عنّي شبح الوحدة الموحش، لا تعلمي كم أشعر أنني وحيد وبيتي فارغ لا أشعر به بالدّفء.
- لن أتركك وحيداً يا عزيزي.
- خالتي أنتِ لكِ بيتكِ وأولادكِ وزوجكِ، ومسؤولياتكِ كثيرة، كما أنكِ لا تقصّرين معي بل دائماً تحضرين لي الطّعام وتجلسين معي، لكن أنا أحتاج إلى شخص يشاركني نهاري وليلي، أضع حزني عليه ويرمي حزنه عليَّ، نتشارك بالأفراح نتبادل الأحاسيس ونتناول الأحاديث، مرّة نتشاجر ومرّة نتصالح، لا تعلمين كيف أشعر وكأني أصمٌّ وأبكم وأنا في بيتي وحدي، لا أسمع أحد ولا أحد يسمعني، لا أكلّم أحد ولا أحد يكلّمني، أبقى أحدّث نفسي كالأبله، أريد أن أشعر بنَفَسٍ آخر معي بالبيت أحبّه ويحبّني... يكفيني من الوحدة والمرارة.
- أشعر معك يا أمين، لو كان بيدي أن أساعدك أكثر لفعلت، ولو كان باستطاعتي حتّى تعويضك عن أيّـــام الوحدة والغربة التي عشتها بعيداً عنّا لفعلت ولن أقصّر أبداً، أعرف يا عزيزي كم عانيت في تلك المدرسة الداخليّـــة.
- ليس هذا هو المهم الآن، مدرستي تلك التي عشت فيها كانت بمثابة منزلي وأفرادها هم عائلتي، ولقد تربّيت وكبرت هناك، نعم كنت متضايقاً ودائماً كنت أتمنّى الخروج منها، لكن لا أنسى فضل من تعب عليَّ وعلّمني وربّاني وقام بتنشئتي نشأة صالحة، وها أنا شاب متفوّق وإيماني بالله كبير، لقد وجّهونا التوجيه الصحيح وعلّمونا الأخلاق الحميدة- الحمد لله على كل شيء- لكن نحن الآن بالمستقبل.
- اجلس غداً مع ريم وتكلّما بهدوء لعلّها تقنع وتسمع لكلامك، وعلى أساس ذلك تقرّر، لكن يا حبيبي أنا لا أنصحك بعقد القران الآن وبالذّات من دون علم والديها من المؤكّد لن تنجو من المصاعب والمشاكل.

– سأرى ما الممكن فعله غداً، سأذهب الآن خالتي تصبحين على خير.
– تصبح على خير.

أشرقت شمس الصّباح الشتويّة الباردة المتعانقة مع الغيوم الماطرة، وخرجت هند مستعجلة إلى عملها، فصادفت باسل عند باب العمارة، بل هي ليست صدفة كان باسل متعمّداً أن يرى ريم وهي خارجة مع والدها، لكنّه لم يرَ سوى هند، بالنسبة له لا مشكلة فقد أوقفها وبدأ يتحدّث معها.

"صباح الخير سيّدتي...(قالها بابتسامة وفرح)
– أهلاً صباح النّور يا باسل كيف حالك؟
– جيّد، بل ممتاز لرؤيتكِ يا سيّدتي، أين ريم لا أراها معكِ اليوم؟
– ما زالت في المترل، ستذهب هي وأختها رندة إلى الجامعة سويّاً بعد ساعة ونصف، ليس لديها محاضرات باكرة اليوم.
– سيّدتي هل أطلب منكِ طلباً صغيراً.
– تفضل ماذا تريد؟
– هل توصليني إلى أقرب موقف للحافلات لأذهب إلى الجامعة، فالسيّـــارة مع والدتي اليوم، والمطر غزير كما ترين في الخارج.
– هيّا تعال، لا مشكلة سأوصلك.

جلس باسل بجانب هند في السيّارة وتحركا، ثمّ قال لها باسل: "يا سيدتي أنا بصراحة...أأأأآآ هل توافقين أن أتقدّم لخطبة كريمتكِ ريم؟
– هل أنت جاهز للزّواج لدرجة أنك أمّنت عملك ومترلك بعد التخرّج؟
– طبعاً يا سيّدة هند، سأعمل في شركات والدي الكبرى، ولا تنسي أنَّ والدي دبلوماسي ولن يمانع أن يشتري لي بيتاً إذا طلبت منه، وسيكون كلّ شيء جاهزاً وما علينا سوى أن نخطب الآن وبعد التخرّج نحدّد موعد الزّواج.
– أنا لا مانع لديّ، ربّما ريم لا توافق بالأخصّ أنها ما زالت تحبُّ شاباً أبلهاً يُدعى أمين، هي تقول أنها لا تتكلّم معه، لكن أنا أمها وأعرف أنها ما زالت تحبّه وتريده.
– نعم أعرف أنها تحبُّ هذا الأبله أمين، وما زالت تكلّمه وتراه في الجامعة.
– إذا كنت شاباً ذكيّاً، حاول أن تُنسيها أمين وتجعلها تُحبّـــك، وبعدها ستوافق على الارتباط بك؛ لأن أمين يسيطر على تفكيرها منذ مدّة، وإذا نجحت وأبعدته عن طريقها فمن المؤكّد سأزوّجها لك هذا وعد.
– لا تخافي سأبعده عن طريقها وأريحك منه، هذا هو عملي...
– أريني شطارتك!

أمين يجلس في الاستراحة ينتظر ريم، لكنها لم تأتِ مبكّراً قبل المحاضرات، فجاء هاني وقال لأمين: "صباح الخير، منذ متى وأنت هنا؟"

فأجاب أمين: "جئت عند السّاعة التّـــاسعة تماماً، أنتظر..."قاطعه هاني"...لا تنتظر ريم لن تأتي مبكّراً، قالت لي البارحة أنها ستأتي على موعد المحاضرة تماماً".

– أريد أن أكلّمها وجئت مبكّراً لأجلها.

– لا مشكلة تكلّم معها بعد المحاضرات، بماذا ستتحدّثان؟

– لا شيء، وما دخلك أنت؟

– اسمع يا أمين، ريم... قاطعه أمين قائلا: "أرجوك يا هاني لا تتكلّم عن أيِّ موضوع يخصُّ ريم سأحلّ الموضوع بمعرفتي".

– حسناً، لكن ريم لا تنتظر منك أيَّ شيء، إلاّ أن تعقد قرانك عليها اليوم، وسترى إن كنت ستنفّذ وعدك لها أم لا، هذا ما قالته لي والقرار يعود لك.

بعد المحاضرات جلست ريم هي وديالة ونسرين بالاستراحة، فجاء هاني ومعه أمين ليجلسا معهم، فقال هاني للفتيات: "ما رأيكنَّ يا بنات...هل نشجّع أمين أن يعقد قِرانه على ريم اليوم؟"

فقالت ديالة: "أنا لا أمانع وأرى أنها فكرة جريئة وجميلة".

أما نسرين فقالت: "الموضوع سيصبح خطيراً، انسى الأمر الآن؟"

إذن ما رأيك يا هاني؟...سألته ديالة.

– أنا بصراحة أحبّ مثل هذه المغامرات ولا مانع لديّ من أن أخطف حبيبتي وأذهب بها إلى ما لا نهاية، إلى السّعادة (وكان ينظر إلى ديالة وهو يتحدّث).

فقال هاني:"ما بك صامتاً يا أمين؟"

– أنا أسمعكم...أنتم تُفَصّلون وتخيطون وأنا أنظر وألبس! وكأنه موضوعكم.

ثمَّ جاء رامي وجلس معهم وقال: "عن ماذا تتحدّثون؟"

فأجابه هاني: عن عقد قران ريم وأمين ما رأيك أنت؟

– ليفعلا ما يحلو لهما، الموضوع يخصّهما فقط.

فقام أمين من مكانه وقال لريم: "تعالي ريم للحظة من فضلكِ" فقامت وتمشّيا إلى خارج الاستراحة، فقال لها أمين: "كيف حالكِ اليوم؟"

– جيّدة...مرهقة، متزعجة بعض الشيء.

– هل نتمشّى ونتحدّث قليلاً، اليوم الطقس جميل عكس البارحة، كما أنَّ المطر قد توقّـــف، بصراحة لا أريد الجلوس معهم وأستمع للاقتراحات التي لا تفيد.

وأخذا يمشيان تحت أشعة الشّمس الخفيفة الدافئة، بعدما انقشعت الغيوم والأمطار.

فقال أمين: "أريد أن أسمع آخر قرار، لكن أرجوكِ فكّري جيّداً وأعطني الإجابة وأنتِ واثقة كلَّ الثّـــقة أنَّ قراركِ اتّـــخذته بعقلانيّـــة، وأنا جاهز لأيِّ قرار كان دون أن أناقش ما دُمتِ أنتِ راضية وواثقة".

صمتت ريم قليلاً...والتفت لأمين ونظرت في عيونه، ثمَّ قالت له: "سنعقد القران اليوم ولن أغيّر قراري".

فابتسم أمين لأنه كان متوقّعاً جوابها، وقال لها:"هيّا إذن أمستعدّة؟"

اندُهشت ريم جداً من سرعة ردّة فعله، وقالت له:"مستعدّة طبعاً، لكن لحظة أتذكر شروطي؟"
– أذكر شرطاً واحداً، هل يوجد غيره؟
– ما هو يا أمين أسمعني؟
– أن نبقى أصدقاء كما الآن وأننا متزوّجان على الورق فقط، ونؤجّل التطبيقات العمليّـــة بعد التخرّج.
ضحكت ريم وقالت: "تطبيقات عملية؟ هههههه، أتسمّيها تطبيقات عمليّة؟"
– نعم ألسنا سنتزوّج على الورق، إذن زواج نظريّ والتطبيقات فيما بعد.
– يا لك من مهندس بارع، وكأنني مشروع من مشاريعك الهندسيّـــة التي ستطبّـــقها عمليّاً على المجسّم فيما بعد، وأفكار الشبّاب لا تتبدّل ولا تتغيّر كن محترماً.
– والله آسف...لا أقصد شيئاً صدّقيني.
فعاد أمين وريم للاستراحة وهما مبتسمان، فقال لهما هاني:"ما سرُّ علامات السّرور هذه على وجهكما؟"
– قرّرنا أن نعقد القران الآن، ونريدك أنت ورامي شهوداً.
صرخ هاني بدهشة: "وأخيراً وصلتما إلى قرار مشترك؟ ألف ألف مبروك، أنا جاهز".
أما رامي فكانت ردّة فعله معاكسة لهاني فقال لأمين: "آسف أنا يا أمين لن أستطيع أن أكون الشّاهد الثّـــاني، لأنني لست أوافقكم الرّأي، هذه طريقة غير سليمة وستوقعكما بالمشاكل اعذروني ولا أعلم ربّما محرّمة".
سحب أمين كرسيّاً بجانب رامي وجلس وقال له:"ألا تقف يا رامي بجانب صديقك بمثل هذه المناسبة؟"
فقفز هاني وقال:"ربّما يقف بجانب أخته منال على حبّها لأمين".
– احترم كلامك يا هاني، فالزّواج قسمة ونصيب، لكن أنا أعارض على الطّريقة هذه فقط".
أما ريم فاقتربت من رامي وقالت له:"من سيشهد إذن بدلاً عنك يا رامي لا نستطيع إخبار أيِّ أحد آخر، أنت تعرف هذا سرٌّ بيننا نحن؟"
فقالت نسرين:"ما رأيكم أن تتّصلوا بأسامة إذا استطاع الخروج ساعة من عمله ليشهد هو بدلاً عن رامي".
فقال أمين: "هل يُعقل أن يحضر أسامة من دوامه ومن شركة السيّدة هند ليشهد على زواج ابنتها!"
وقفت ريم وقالت: "لا أرجوكم أيَّ شيء يخصُّ والدتي ابتعدوا عنه، خوفاً من أن يصلها الخبر".
فقالت نسرين: "من الذي سيوصل لها الخبر، أسامة صديقنا ومؤتمن.
فقال أمين: "ليس الخوف من أسامة، بل افرضوا أنّ السيّدة هند سألت عن أسامة في ذلك الوقت، ثمَّ تحرّت عن سبب خروجه فتصلها أخبار أنه ذهب ليشهد على عقد زواج ريم من أمين،

يا سلام كيف سيكون موقفه وموقفنا أيضاً، سنتدّمر نحن الثــّلاثة، وهاني معنا أيضاً في نفس اللّحظة.

فقال هاني: "لن يعرف أحد أنّ أسامة خرج لكي يشهد على عقد زواجك يا أمين"

"مهما كان يا هاني لا نريد أن ننام بين القبور ولا نريد أن نحلم أحلاماً موحشة" أجابت ريم.

نظر أمين لرامي وقال:"رامي سيشهد ولن يمانع، الصّديق لا يخذل صديقه أليس كذلك؟"

فأجابه رامي: "الصّديق لا يخذل صديقه ولا يوصله إلى حافّة الهاوية أيضاً، ما بك يا أمين كنت عاقلاً قبل قليل!!".

– هذا قرارنا وسنتحمّل نحن نتائج أعمالنا لا عليك أنت يا رامي.

– لا أعرف ماذا أقول لك يا أمين، سأشهد على عقد الزّواج، لكن كن متأكداً أنني لست راضياً عن هذا الأسلوب.

– هيّا يا رامي توكّل على الله وقم معنا.

– نتوكّل على الله دائماً وأبداً، لكن نكون بالإضافة إلى ذلك نفعل الصّواب ونبتعد عن الخطأ، لا نذهب للخطأ بأرجلنا.

– رامي هيّا، ادعُ الله لنا أن يوفّقنا ويبارك لنا الزّواج.

– إن شاء الله، أنا لا أتمنّى إلاّ كلّ الخير لك والتوفيق، لأنك تستحقّ خيراً، هيا بنا قوموا ما بكم جالسين؟

– لقد تشجّع رامي...! قالت نسرين.

وقف الجميع استعداداً للمغادرة، فوقفت ديالة وقالت: "ونحن نريد أن نأتي معكم أنا ونسرين لنرى عقد الزواج".

فقال أمين: "هيا تعالوا، لكن أتسعنا السيّـــارة؟"

فأجابه رامي: "لا، شخصٌ واحد سيذهب بسيّـــارة أجرة".

– أين منال هل ستأتي معنا؟ ... نسرين تسأل.

قال لها رامي: "لا منال في مختبر الحاسوب لديها امتحان لعلّها تنهي دورة الحاسوب هذه بنجاح إن شاء الله".

فقالت ريم: "حتّى لو كانت غير مشغولة لا أظنّها ستأتي؛ لأنّ الموضوع يزعجها أكثر من أن يُفرحها".

فقال أمين: "هيّا لا نريد أن نتأخّر أكثر، سآخذ الفتيات معي بالسيّارة، وأنتم أيّها الشاهدان الحقا بنا في سيّارة أجرة.

وفعلاً توجّهوا جميعاً إلى مسجد يُعرف به شيخ فاضل يقوم بكتابة عقود الزّواج، على سنة الله ورسوله ولديه كلّ الأوراق اللاّزمة لعقد القران الشرعيّ، لتكون جاهزة للتسليم للمحكمة وللتوثيق بعد ذلك ويكون الزّواج شرعيّاً ومدنيّاً.



الفصل الخامس والعشرون

كانت ريم تجلس في السيّارة بجانب أمين صامتة وتشعر برهبة الموقف ويداها باردتان، أما نسرين و ديالة فكانتا تضحكان وتتحدّثان، وهما تجلسان في الخلف. فوصلوا وأوقف أمين سيّارته أمام المسجد، فترلت ريم بهدوء، ونزلت صديقتاها، ووصل رامي وهاني على الفور ورائهم.

فقالت ريم: "أشعر برهبة وخوف قلبي يدقُّ بسرعة، وكأنه سيخرج من صدري".

فأجابها أمين: "ما بكِ يا ريم تماسكي، ألم يكن هذا قراركِ أنتِ".

– أجل يا أمين، أعرف لكن للموقف رهبته.

فمدّت ريم يدها إلى ديالة وقالت لها:"أمسكي يدي وانظري كم هي باردة وكأنها في ثلاجة منذ الصّباح".

– يا إلهي ستتجمدين من البرد، أين حرارة الحب؟... قالت لها ديالة.

– لا، فقط يداي هما البادرتان، وأنا أتصبّبُ عرقاً، من أين سندخل؟ هل من الباب الرئيسيّ للمسجد.

فقال أمين: "سندخل أنا وهاني ونسأل عن الشّيخ، وأنتَ رامي ابقَ مع الفتيات، وسنناديكم عندما نقابل الشّيخ.

فقال رامي: "حسنا ننتظركم هنا في باحة المسجد بالخارج".

فدخل هاني وأمين وأصبحا يبحثان عن الشّيخ، فوجداه يتوضأ، فقال له أمين: "السّلام عليكم يا فضيلة الشّيخ"

– وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته أهلاً بكما.

– أنا يا سيّدي الشّيخ جئتك لأعقد قراني وهذا صديقي أحد الشهود، والفتاة في الخارج، هل من الممكن أن تكتب عقد الزّواج لنا.

– لا مانع يا بنيّ، لكن الآن سيُرفع آذان العصر بعد خمس دقائق، وبعدها سنقيم الصّلاة، وعندما ننتهي سأكون جاهزاً لكما تماماً، هيّا توضّأأنتما الاثنان لتكسبا معنا صلاة العصر جماعة، أتصليان أنتما بالأصل؟

فقال أمين: "نعم يا فضيلة الشّيخ، الحمد لله أنا أصلّي.

فنظر الشيخ لهاني وقال له: "وأنت أيّها الشّاب؟"

فقال هاني: "بصراحة أُقطّع يا فضيلة الشّيخ بالصّلاة، يوم أصلّي وأحياناً أتكاسل"

فقال الشيخ: "لا ستبدأ من الآن بجدٍّ، ادخل وتوضّأ أنت وصديقك العريس... هيّا".

– لكن يا فضيلة الشّيخ دعنا نخبر أصدقاءنا في الخارج ونعود... قال أمين.

– لا تتهرّبا من الصّلاة... قال الشّيخ.

– لا لن نتهرّب سنعود بالحال.

– هل أهلكم في الخارج؟ دعوهم يدخلون للصّلاة وبعد الصّلاة نعقد القران؟

- لا بل هم أصدقائي سأناديهم.

وخرجا إلى باحة المسجد عند رامي والفتيات، فقال هاني سيرفع آذان الــــ (ولم يكمل كلامه إذ بالأذان يرفع، الله أكبر.... الله أكبر...)

فقال أمين: "عندما ينتهي الشّيخ من صلاة العصر، سيكون جاهزاً لنا".

الآن تعال يا رامي لنتوضّأ ونصلي العصر مع المصلّين جماعة لعلّ الله يبارك لنا في يومنا هذا، وأنتن يا فتيات اذهبن إلى مصلى النّساء إذا وجدتنَّ ملابس للصلاة، وسنلتقي بعد الصّلاة هنا في باحة المسجد مرّة أخرى.

وفعلاً ذهبت الفتيات للمُصلى.

بعد صلاة العصر جلس الأصدقاء في غرفة للشّيخ في المسجد، كان كمكتب صغير أو مكتبة، تحتوي على كتب دينيّة وكتب ثقافيّة وتاريخيّة مختلفة، فأخذوا يتأمّلون بالمكتبة ويتصفّحون بعض الكتب ريثما يُجَهِّزَ الشّيخ أوراق عقد الزّواج، أما ريم فقد كانت تجلس بجانب أمين على كنبة دون أن تتحرّك، وأنزلت بنظرها للأرض وهي تشعر بالخجل، ومن ناحية أخرى تشعر بالقلق والتوتّر، ومن ينظر إليها يعتقد أنها مجبورة على هذا الزّواج، وليست هي التي تصرُّ على ذلك.

أما أمين فعيناه تتأمّلان ريم بحيرة، ويرى في عيونها القلق، فوضع كفَّ يده فوق يديها المتشابكة الأصابع، وشدَّ على يدها وقال لها بصوت خافت وهادئ: "حبيبتي اهدئي...هل ترغبين بالانسحاب قبل أن نُجري أيّ إجراء؟"

جلس الشّيخ على كرسيّه وقال: "من العروسان؟"

فقال أمين:"نحن يا فضيلة الشّيخ، أنا أمين وهذه ريم "

- وأين والد العروس ألم يحضر بعد؟

فأجاب أمين يا فضيلة الشّيخ أهل العروس يرفضون الموافقة على زواجنا؟

فأجاب الشيخ: وأنا إذن ليس بمقدرتي أن أزوّجكما بدون وليّ أمر الفتاة.

فقالت ريم للشّيخ: يا شيخ تقدّم أمين لِخِطبتي أكثر من مرّة وأهلي في كلِّ مرّة يرفضون لأسباب تافهة، نحن نحبُّ بعضنا من السّنة الأولى في الجامعة ووصلنا للسّنة الخامسة والوضع يزداد تعقيداً... وبعد أن شرحت له تفاصيل الحكاية وكما أكمل أمين الشّرح والمعاناة للشيخ.

قال الشّيخ: أريد أن أجلس مع أمين وريم وحدهما وأستأذن من البقيّة تفضّلا خمس دقائق للخارج لو سمحتم...فخرج الجميع وبقيا أمين وريم أمام الشّيخ.

فقال الشّيخ أريد أن أسألكما بصراحة وأرجو أن تجيباني؟ هل حصل بينكما علاقة معاشرة.

أجاب أمين باستنكار: لا... لا أعوذ بالله... يا فضلية الشّيخ.

- حسناً، هل تخشى على نفسك من الوقوع بالزّلل -لا سمح الله-يا أمين؟

- بصراحة يا فضيلة الشّيخ أنا أرى أنَّ علاقتنا في تطوّر وتدهّور ولا أعرف إلى أين سأصل وفعلا أخاف من الله بداية ومن نفسي ثانياً.

- أنا بصراحة متعاطفٌ معكما كثيراً وقصّتكما سيّئة وعلاقتكما هكذا محرّمة، لكن ليس بوسعي أن أعقد نكاحكما صدقاً، بإمكاني فقط أن أدلّكما على شيخ يعقد النّـــكاح على المذهب

الحنفيّ.

– لم أفهم يا شيخ ماذا يختلف الحنفيّ...(أمين يتساءل)

– الحنفيّة لا يشترطون وليّ الأمر؛ لأنّ المرأة البالغة الرشيدة لها أن تزوّج نفسها عندهم، إذا كان الشّاب ليس به ما يُعاب في الدّين والخلق وقادر على أن يقيم حدود الله ويتحمّل مسؤوليّة الزّواج. لكن نصيحتي لكما أن لا تستعجلا، وأنتِ ياريم لا تنسي فضل والديكِ عليكِ، أعطِ لتفكيركِ فرصة اخرى.

فوجّه أمين سؤاله لريم: "هل نأخذ العنوان ونكمل المسير أم نكتفي وتعيدي تفكيركِ بالزّواج؟"

– أمين أنا لن أغيّر رأيي، اتّخذتُ القرار وانتهينا...نريد من فضلك العنوان يا شيخنا.

فأخرج الشّيخ ورقة وكتب لهم العنوان ورقم الهاتف.

فتوجّه الجميع للشّيخ الذي يتّبع مذهب الإمام الحنفي، وبعد التعريف بأنفسهم وشرح بعض التّفاصيل أخذ البطاقات الشخصيّة منهما. ودوّن الشّيخ أسماءهما على الأوراق اللاّزمة لعقد النكاح، وقام بسؤالهما عن تراضٍ وعن المهر، حيث قدّم أمين أربع ليرات ذهبيّـــة مقبوضة على الورق، لكن وعدها أن يشتريها لها حالاً بعد خروجهما من عند الشّيخ ويسلّمها إياها.

وقام الشّيخ بإعطائها القلم لكي توقّع عقد شراكة العمر.

ريم كانت لا ترى أحداً أمامها، ولا تسمع شيئاً سوى دقّات قلبها السريعة، ويدها ترجف وهي توقّع، وترى أمامها صورة المستقبل الغامض وتتخيّـــل نتيجة قرارها، فهي تُدرك بكلِّ حواسّها أنه غير صائب. ثمّ وضعت القلم على الطّاولة بعد أن وقّعت، فأخذ الشّيخ القلم وقال: "دورك كي توقّع يا أمين".

تناول أمين القلم من يد الشّيخ، ونظر لريم لكنها لم تنظر إليه، بل بقيت تُحدّق بالأوراق، فوقّع أمين على الأوراق. ثمَّ وقّع رامي وهاني مكان الشّهود. فقال لهما الشّيخ "مبارك.. ها أنتما الآن زوجان على سنّـــة الله ورسوله، بارك الله لكما".

قال لهما الشيخ: "غداً صباحاً إن شاء الله سأذهب للمحكمة وأكمل لكما معاملة الزواج ليكون مدنيّـــاً، وتقومان بإخراج دفتر العائلة"

فقال له أمين: "هل نستطيع من فضلك أخذ الأوراق ونقوم نحن بتسجيله في المحكمة في وقتٍ لاحق؟"

– نعم تستطيعون، لكن أنا أريد أن أريحكما من مشوار المحكمة، هذا بالإضافة إلى أنكما بحاجة لعمل دفتر عائلة لكما فيجب أن يكون عقد الزواج المدنيّ جاهزاً.

– لا مشكلة يا فضيلة الشّيخ، سنأخذ الأوراق ونقوم بالمهمة نحن فيما بعد.

– حسناً تفضلا.

خرج الجميع مسرورين، لا يعلمون ماذا سيُخبّئ لهما القدر... ووقفوا عند السيّـــارة يتحدّثون.

فقالت ريم: يا أمين أرجوك، احتفظ بالنّسخ عندك لا أريد أن تراهم والدتي بالصّدفة وحتّى

اللّيرات الذّهبيّة لا تستعجل وتشترها فلا أعرف أين أضعها لا أريد أن يراها أحد.
- حسناً سأشتريها وأحفظها لكِ عندي.

ثمَّ وقف هاني بجانب أمين واضعاً كفّه على كتف أمين وقال له:"مبارك... ماذا تريد أن تحلّينا يا عريس؟"

- اسمع يا هاني خذ الآن كلّ المجموعة وسأعطيك مبلغاً لحلوان عقد الزّواج، وقم بالتحلاية نيابة عني، أما أنا وريم اتركونا نذهب لنجلس سويّاً في مكانٍ هادئ وحدنا.
- لا يجوز يجب أن نحتفل بكما.
- لا مشكلة سنحتفل فيما بعد يا هاني، هل أوصلكم إلى مكانٍ ما؟

فقال رامي: "لا شكراً سنمشي قليلاً لنصل إلى ذلك المطعم إنه قريب. سنتناول الغداء ويذهب كلٌّ واحد منّا إلى بيته.

فأعطى أمين مبلغاً حلوان لهاني يكفي الجميع ليتناولوا غداءهم بهذه المناسبة، وفتح باب السيّارة لريم وجلسا ليستعدّا للانطلاق. فقالت ديالة لريم: ارجعي إلى بيتي يا ريم أنا في انتظاركِ كما اتّـــفقنا.

- حسناً لن أتأخّر عليكِ.

ثمَّ انطلق أمين بسيّارته والفرحة تغمر قلبه ولا يصدّق أنَّ ريم أصبحت زوجةً له منذ هذه اللّحظة.

- لـــمَ أنتِ صامتة يا ريم؟
- لا يوجد ما أقوله، كما أنني أشعر بغرابة شديدة.
- لماذا؟
- أنا لا أصدق، أهكذا أصبحنا زوجين؟ غريب! وقبل لحظات كنّـــا مجرّد زملاء، بهذه الورقة أصبحت زوجتكِ؟ أتدري في داخلي شعور غريب فعلاً، فرح شديد ممزوجٌ بحزن أشدّ. أنا زوجتك يا أمين لا أصدّق وأشعر أنني أريد البكاء من الفرح والحزن.
  (وبدأت تبكي)
- أنتِ يا ريم لست زوجتي وحسب، بل أنتِ زوجتي وصديقتي وحبيبتي وأمي وأختي ودنياي بأكملها، روحي بين يديكِ الآن.
- أحبّك يا أمين... لـــمَ أوقفت السيّارة؟
- لستُ أنا من أوقفها لكن كلمة أحبّك يا أمين، خرجت من قلبكِ بطريقة مختلفة جعلتني أفقد السّيطرة على قيادتي، فقلت من الأفضل أن أقف.

ابتسمت ريم ابتسامتها السّاحرة وقالت لأمين: "هيّـــا تماسك وقل لي إلى أين ستأخذني؟"

- سآخذك إلى مطعم رائع وجميل، الطّعام فيه شهيّ ولذيذ، ذهبنا أنا ورامي وأسامة وهاني عليه مرّة وسُررناً بالجلسة وبالطّعام.
- هيّا أنا جائعة جداً.

فوصلا للمطعم بعد أن توجّه أمين لمحل بيع الذهب واشترى الأربع ليرات ذهبيّـــة.

فقام باصطفاف سيّارته، ثمَّ فتحت ريم الباب لتنزل، فقالت بدهشة: "يا إلهي،لم تجد مكاناً أفضل من هذا أن تركن به سيّارتك؟

– وما المشكلة يا حبيبتي؟

– حفرة ماء وطين، وكأنها بركة في وسط الشّارع. تجمّعت بسبب الأمطار.

– أغلقي الباب لنركن بمكان آخر.

– لا، سأحاول النزول رويدا رويداً وأمشي على مهل. صعب عليك أن تبحث عن مكان قريب لتركن فيه السيّارة، فالشّارع مزدحم بالسيّارات المصطفّة على الجانبين، كما أنّ الهواء شديد ولا أريد أن أسير بالبرد.

– أمتأكّدة أنكِ تستطيعين النّزول؟

– نعم، سأنزل لا تقلق.

فنزل أمين وأخذ يُقفل السيّارة ويرتدي معطفه، وما إن نزلت ريم من السيّارة بكل هدوء، إذ بها تصرخ: "يا ربي...ما هذا؟ كم هو أبله؟" فركض أمين مسرعاً إليها ليرى ما حلّ بها. إذ بملابسها الجميلة والأنيقة أصبحت مبلّلة بالماء والطين. كانت ترتدي بنطالاً أبيضاً تحوّل إلى بنيّ من الطّين، حتى معطفها ابتلّ وقميصها كذلك، لدرجة أن شعرها أيضاً وصله الطّين المبلول. وهذا بسبب سيّارة قد مرّت مسرعة، فوق بركة الطّين أمام ريم، فتتطاير الماء والطّين عليها.

تفاجأ أمين من منظرها وتضايق لأجلها، ثمّ أخذ يضحك فمسك يدها وفتح لها باب السيّارة وقال لها: "ادخلي...ادخلي،لا تحزني سنجد حلاً". فجلست ريم حزينة وبدأت تذرف الدّموع. وجلس أمين على مقعده بالسيّارة بجانب ريم وقال: "لـــمَ البكاء؟"

– لا أعرف لَمَ حظّي هكذا، هل هو عقاب من الله لأنني تصرّفت من دون علم والديّ؟

ردَّ أمين متفاجأ على سؤال ريم: "لا يا ريم أتحسبينها هكذا؟ صدف هذا وأن بلّلتك الماء بفعل سيّارة مسرعة، إنه قدر وليس عقاب. هل أفهم من كلامكِ أنكِ نادمة على عقد الزّواج".

– لا صدقني يا أمين لست نادمة، لكن مجرّد شكوك تدور في عقلي، وخوف من أن تعلم أمي الآن بالذي حصل.

– لا تخافي وتوكّلي على الله، نحن لم نفعل شيئاً يغضب الله تعالى، وما زلنا في برّ الأمان.

– الآن لا أستطيع النّزول للمطعم أبداً.

– لا مشكلة حبيبتي، ما رأيكِ أن أطلب الطّعام طلباً خارجيّاً؟

– حسناً سنأكل بالسيّارة.

– سأنزل وأحضر الطّعام انتظريني.

أما مجموعة الأصدقاء فكانوا يتناولون الطّعام في مطعم آخر مسرورين يضحكون ويمرحون فقال هاني: "سيقضي أمين ليلته عريساً اليوم أم لا؟وأخيراً ارتحنا من هذا الهمّ...

متى سأتزوّج أنا؟"

فأجابه رامي: "لا... أمين عريس مع وقف التنفيذ، لا تحسده على يومه فهي مجرّد أوراق بين يديه".

***

جاء أمين بعد ربع ساعة ومعه الطّعام فقالت له ريم وهي تبكي: لقد تأخّرتُ كثيراً !!

- لـــمَ البكاء؟ ما بكِ؟
- بصراحة سأموت من البرد ملابسي مبتلّة ونفسيّتي سيئة وأرتجف من الخوف والبرد معاً.. وأنت أخذت مفتاح السيّارة ولم أستطع فتح المدفأة.
- ماذا عليّ أن أفعل هل نأكل وأوصلكِ لبيت ديالة...
- لا أريد أن آكل؟
- ألستِ جائعة؟
- بلى، لكن ليس لديّ شهيّة أبداً، هل بإمكانك أن توصلني لبيت ديالة الآن.
- فأجابها أمين وهو منزعجٌ وحزين: على راحتكِ سأكلّم ديالة لنرى إن وصلتْ للمنزل.

فرنّ هاتف ديالة وأجابت: أمين أهلاً.

- أريد أن أوصل ريم لمنزلكِ.
- الآن!! لم أعد بعد مازلنا في المطعم.
- متى ستعودين؟
- ربّما نحتاج لساعة ونصف، الآن وصل الطّعام ولم آكل بعد، هل أنهيت مشوارك بهذه السّرعة أنت وريم؟
- نعم.
- حسناً إن كان بالإمكان تعالا إلينا نحن بمطعم التنّين الصينيّ.
- طيب... سنرى.

ماذا قالت ديالة؟ (سألت ريم)

- تحتاج لساعة ونصف لتعود إلى بيتها ما الحلّ؟ هل ننتظرها بالسيّارة عند المطعم؟
- أمين أنا أموت و أرتجف من البرد؟
- هل أوصلكِ لمنزلكِ؟
- كلا، لا تقترب من منزلنا.
- أوووف ماذا أفعل إذن؟...كفاكِ بكاءً كالأطفال....هل تأتي لبيتي وننتظر ديالة ريثما تعود؟
- ليس لدينا أيَّ حلٍّ آخر؟
- حالياً لا.

وصل العروسان لباب العمارة،أوقف أمين سيّارته ونزلا منها. وتوجّها للمصعد للصعود إلى بيت أمين في الطّابق الأخير. وما أن فُتح المصعد إذ بزوج خالته عبد الرّحمن يخرج من المصعد، فتفاجأ أمين.

- فقال له عبد الرحمن: "مرحباً أمين أعدّت من الجامعة؟"
- أهلاً يا عمّي، نعم..

– لم تعرّفني بهذه الفتاة؟ (استهجن عبد الرّحمن موقف أمين وتصرّفه، وبصحبته هذه الفتاة وبهذا المنظر المــتّسخ)

– إنّها ريم زميلتي، جاءت لزيارة خالتي.

– أهلاً وسهلاً...جاملها بالسّلام عليها وفي نفسه يُشكّكُ بنزاهة أخلاقهما ولم يعجبه ما رأى، وبالذّات أنّها مبلّلة بالطّين.

ثمَّ صعد الاثنان وفتح أمين الباب ودخل، وبقيتْ ريم واقفة عند الباب تشعر بالإحراج.

– ادخلي يا ريم ما بكِ تجمّدت عند الباب هيّا، قبل هذه المرّة جئتني وزرتني بمفردكِ ولم نكن متزوّجين؟

– أشعر بغرابة الآن و... وبالخوف وبردٍ شديد.

– بالخوف...! تعالي حبيبتي، أنا أقدّر وضعك...لا تقلقي. سأوقد لكِ المدفئة، اجلسي هنا وسأذهب لكي أجد لكِ ملابساً ربّما تناسبكِ في خزانتي، ومن ثمّ تدخلين للاستحمام لأنّ الماء ساخن ثمّ نجلس لنأكل بعدها براحة.

وذهب أمين لغرفته وأخرج لها بدلة رياضة ناعمة زرقاء اللّون من القطن، تخيّل أن تكون أفضل شيء عنده بالنّسبة للمقاس. ثمّ عاد لغرفة الجلوس وقال لريم: "هيّا حبيبتي، اذهبي للحمام وخذي حمّاماً ساخناً لتغسلي الطّين عن شعركِ، وقد حضرت لكِ ملابس إن شاء الله تكون جيّدة. وبعد ذلك سآخذ ملابسكِ وأضعها بالغسّالة، وأنشرها لكِ على تدفئة الغرفة، خلال ساعة ستكون جافّة.

– أشكرك أمين وآسفة إذا كنت سبّبت لك إزعاجاً أو إحراجاً، كما أنني أشعر بحرج شديد.

– ما هذا الكلام يا ريم؟! هيّا خذي راحتكِ.

فدخلت ريم للاستحمام وأخذت تحدّث نفسها: "أين أنا؟ هل تماديتُ اليوم بتصرّفي؟

هل كان عليَّ الذّهاب لبيتي مباشرة؟ هل صحيح أنه لا مشكلة من تواجدي ببيت أمين؟ هههههه وليس البيت فقط فأنا بالحمّام؟ أليس هو زوجي؟ لا أعرف والله أشعر أني ضائعة! لــمَ يحتفظ بثلاثة أنواع (شامبو) وأربعة أنواع من الصّابون السّائل لغسل الجسم؟ هو يعيش بمفرده، ما هذا التبذير؟ يا سلام وجميعها مكتوب عليها للرّجال! ماذا أستخدم أنا؟ لا أظن أنها ستختلف الصّابون صابون، مع أنني أوّل مرّة أستحمُّ بصابونٍ رجّالي!"

وأنهت ريم استحمامها وارتدتْ ريم الملابس بسرعة، كانت كبيرة وواسعة عليها بعض الشيء، ونشّفت شعرها بالمنشفة وخرجت، فجلست على الكنبة متربّعة، فقرّب أمين الطّاولة الموجود في غرفة الجلوس وعليها الطّعام الشهيّ، وجلس بجانبها وأخذا يأكلان بشهيّة لأنّهما جائعان.

– أتعرف يا أميني ما زال الطّعام ساخناً، هذا جيّد.

– لقد وضعته بجانب المدفأة، لذا حافظ على سخونته.

– أمين؟ لقد قلتُ لأمي أنني سأذهب بعد الجامعة عند ديالة، وأخبرتها أنني سأتّصل بها لكي تأخذني من عندها.

– وكم من الوقت بقي معكِ؟
– سأنتظر حتّى تجفَّ ملابسي وأكويها وأذهبَ مسرعة.
– بعد ساعة إن شاء الله تكون قد جفّت تماماً، وسنكويها وأوصلك إلى بيت ديالة. لقد وضعتها هناك على تدفئة الغرفة.
– أشكرك يا حبيبي، لقد أتعبتك بهم.
– لا أبداً... أنا مسرور بوجودكِ معي بالبيت وأشعر بسعادة لا توصف.

وبعدما انتهيا من الطّعام قام أمين لكي يرفع الأطباق عن مائدتهما السّعيدة. فقالت له ريم: "أرجوك اجلس أنت، وأنا التي سترفع الأطباق وأنظّف المائدة جاء دوري الآن".
– لا أنتِ ضيفة اليوم اجلسي، فأنا معتاد على هذه الأعمال وأحبّها.
– أرجوك دعني أعتاد على بيتي المستقبليّ، أنا لستُ ضيفة هنا هذا بيتي أيضاً، أليس كذلك؟
– بالطّبع، لكن سنساعد بعضنا اليوم. فأنا لا أحبُّ الجلوس عاطلاً عن العمل.
– إذن هيّا بنا نرفع الأطباق وباقي الطّعام.

انتهيا من ترتيب الأطباق في المطبخ وعادا وجلسا في غرفة الجلوس، فأضاء أمين التّلفاز، فقامت ريم وأغلقته وأضاءت المسجّل (الستريو) الموجود بجانب التّلفاز، فكانت أغنية هادئة قد سطع صدى صوتها بالغرفة. فمسكتْ يدّ أمين وشدّته، وقالت له: "أسمحُ لك بهذه الرّقصة! فالأصدقاء يرقصون مع بعضهم لا بأس". لكن أمين لم يتكلّم بل كان قلبه يدقُّ كالطّبل، فوضع يداه حول خصرها الرفيع ليراقصا رقصة هادئة. ومدّت ريم يديها ووضعتهما على كتفيّ أمين، فذابت عيونه بعيون ريم... وبقي صامتاً من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، ثمَّ قال لها وهما يرقصان: "أتسمحين لي يا ريم أن أضمّك بين أحضاني؟"

ومن دون أن يسمع جوابها ضمّها إلى صدره. فشعرتْ بنبض قلبه كيف يدقُّ مسرعاً ليلمس نبضها، وكأنه في سباق ماراثون، لا يعرف كيف سيُطفئ نار الهوى في قلبه، فضمة كهذه عمر شوقها أعوام. وقبل أن تنتهي الأغنية قبّلها من جبينها وانسحب، وقال لها "اجلسي انتظريني... سأذهب للمطبخ لأعدَّ الشّاي".

لاحظت ريم وكأنَّ أمين مرتبكٌ بعض الشّيء، لكن لم تنبه أنها أثارت كلَّ أحاسيسه، بل اعتقدت أنه ممكن أن يكون مرتبكاً فقط لأنه أوّل مرّة يرقص معها، وأوّل مرّة يرقص مع فتاة أصلاً.

وبعد أن شربا الشّاي...ارتدت ريم ملابسها وقد جفّت، بعد أن قام أمين بكيّها وكأنها جديدة، وأوصلها إلى بيت ديالة، لقد تأخّرت و غابت الشّمس منذ فترة.

الفصل السادس والعشرون

وصل رامي للتوّإلى بيته، فاستقبلته منال بعصبية...وما إن دخل فقالت له:"هل من الممكن أن أعرف أين اختفيتم بعد دوام الجامعة؟ لم أجد أحداً منكم! وهاتفك الخلويّ مغلق، ما شاء الله!"

– لماذا لم تتّصلي على الهواتف الخلويّة لأيٍّ أحد من باقي المجموعة؟

– هاتف أمين هو الآخر مغلق، أما نسرين وديالة فلا يمكن الاتّصال بهما، ما سرُّ هذا التخفّي للجميع.

– لكن أنا يا منال هاتفي الخلويّ انتهى شحنه لذلك أُغلق. وبالنّسبة للباقي لا أعرف. وأمين من المؤكّد أنّ هاتفه مغلق، فهو لا يريد اليوم بالذّات أيّ إزعاجات.

– لـــمَ؟ هل هو متعب؟

– لا، على العكس قام عصر اليوم بعقد قرانه على ريم، وذهبا سويّاً.

– ماذا تقول؟ وأنا آخر من يعلم!...كانت تتكلّم منال بلهجة عصبيّة وانزعاج شديد، وأكملت كلامها: "ألم يكونا البارحة متخاصمين؟"

فأجابها رامي بكل هدوء أعصاب: "اهدئي، هما يحبّان بعضهما، والحبّ لا يقدر على الخصام".

– وأنا؟

– وأنتِ ماذا؟

– أنتَ تعلم أنني أحبُّ أمين، وعلاقتهما غير مناسبة ووالدها غير موافقة، فكيف تتصرّف ريم من دون علم أهلها؟

– منال اهدئي أرجوكِ، أنتِ فتاة مؤمنة وتعلمين أنّ الزّواج قسمة ونصيب، كما أنّ أمين لا يحبّكِ يعتبركِ زميلة له فقط. ودائماً كان يقول لكِ حاولي أن تنسيني يا منال. لكن إياكِ أن تخبري أمها أو أيَّ أحد من عائلتها بهذا السرّ، لقد عاهدناهما نحن مجموعة الأصدقاء أن نحفظ لهما سرّهما هذا، ولا نخبر به أحداً، وبالأخصّ أنا وهاني كنّا شهوداً على عقد زواجهما.

– أشهدتْ على عقد زواجهما... وتجاهلت مشاعر أختك؟ أنت أنانيّ وغير مخلص!

– أنا أناني وغير مخلص يا منال؛ لأني أقف بجانب صديقي؟ لقد طلب مني طلباً هل أخذله، وما دخل مشاعركِ؟ أنتِ لم تحبّي الشّخص المناسب وكان حبّاً خائباً. الخلل من عندكِ أنتِ، كم حذّرتكِ وقلتُ لكِ أمين يحبُّ ريم ولا يحبّكِ انتبهي يا منال، لكن العناد منتشر في رأسكِ كالوباء.

وأخذت منال تبكي...وصارت تصرخ بصوت عال: "لا...لن أجعلهما يهنأان بهذا الزّواج، أنا أحبُّ أمين، هو لي وحدي ولن يكون لريم أبداً، دائماً كنت أشعر أنَّ حبهما سيتوقف بسبب معارضة أهلها! فتذهب هي وتتزوّج من ورائهما ما هذا؟ كان أملي الوحيد هو رفض والدها.

– يا منال ما بكِ أُصِبتِ بالجنون؟ ما هذا الكلام؟! ريم صديقتكِ ويجب أن تفرحي لفرحها، لا أن تكوني حقودة وغيّورة منها هكذا، ألا يوجد سوى أمين لتحبّيه؟ أسامة أكثر من مرّة حاول أن يُظهر لكِ حبّه ويتقرّب منكِ، لكن أنتِ عمياء ولن تنتبهي عليه!

– لا...كنت أُلاحظ لكن أنا لا أريد أسامة.

– أخفضي صوتكِ يظهر أنَّ أمي قد جاءت. لا تعودي وتتفوّهي بهذه التفاهات، منذ الآن انتهى الموضوع.

ثُمَّ دخلت والدهما إلى غرفة رامي، وقالت لهما:"مساء الخير، أصواتكما عالية هل هناك شيئاً؟"

– أجابت منال: "مساء الخير يا أمي، لا كنا نتناقش بمواضيع الجامعة، لا تقلقي".

– حسناً أحبائي تناقشا بهدوء فالنّــقاش لا يكون بالصّراخ يا منال، كان صوتكِ مرتفعاً.

فقال رامي: "انتهينا يا منال، اذهبي لغرفتكِ واتركيني أرتاح قليلاً، وإيّاكِ والتّصرف الأحمق".

فور وصول ريم إلى بيت ديالة، اتّصلت بأمها هاتفياً لتأخذها للبيت. ثم جلست تُحدّث ديالة عن المساء الرومانسيّ اللّطيف الذي قضته عند أمين. وفعلاً بعد نصف ساعة جاءت أمها.

– مساء الخير يا أمي، اشتقتُ لكِ جدّاً.

– مساء النور يا حبيبتي، أراكِ سعيدة ووجهكِ متفتّح كالوردة.

– نعم، كان اليوم نهاري سعيداً.

– ماذا فعلتِ أنتِ وديالة طيلة اليوم؟

– بعد الجامعة ذهبنا لإحضار طعام غداء وتناولناه في منزلها، ثُمَّ سمعنا بعض الموسيقى والأغاني الجميلة الجديدة، وجلسنا نتحدّث حتّى طار اليوم بسرعة ولم نشعر به.

– هل تعلمين من سأل عنكِ اليوم!

– من يا أمي؟

– باسل.

– ومن باسل؟

– باسل ابن الجيران الذي يسكن بالطّابق الأرضي.

– ييييي...، لا أحبّه، ماذا يريد؟

– قال أنه يريد أن يخطبكِ.

– أعوذ بالله، أنا لا أحبّه أبداً فهو شابٌ ذو دمّ ثقيل، أرجوكِ أمي لا أحبُّ سماع اسمه.

– أتحبّين سماع اسم أمين... يعني هذا أفضل؟ أرى أنَّ باسلاً من عائلة مرموقة ومحترمة، فهو أفضل من ذاك الأبله بمئة مرّة.

– أرجوكِ أمي، لا أريد سماع اسم باسل ولا حتّى أمين ...الحمد لله قد وصلنا للمنزل.

***

في المساء حوالي السّاعة الحادية عشرة طُرق باب منزل أمين، كان أمين غارقاً بين الأوراق الكبيرة والمخطّطات الهندسيّة يحاول إنهاء مشروع معماري، ففتح الباب...وكانت خالته علياء.

– أسعد الله مساءك يا أمين، ألم تنم بعد؟
– أهلاً خالتي...تفضّلي، كلا لم أنم.
– هل آخذ من وقتك قليلاً، أم أنك ستتعطّـــل عن مشروعك؟
– على العكس خالتي فأنا محتاج إلى قسط من الرّاحة، فرقبتي تكاد أن تنكسر من كثرة الرّسم.
– منذ متى وأنت جالس تخطّط وترسم؟
– منذ حوالي السّاعة الثامنة تقريباً. لـــمَ تسألين؟
– ستكلّمني بصراحة؟ أم ستكذب عليّ؟
– خالتي أنا دائماً أكلّمك بصراحة، ولم أكذب عليكِ ولا مرّة أبداً.
– لـــمَ كذبتَ على عبد الرّحمن إذن؟
– آه...فهمت، أتريدين أن تعرفي ما هو الموضوع؟
– بالضبط، هيّا اشرح لي وفسّر سبب وجود ريم عندك في الشّقة، ولمدّة ساعتين ونصف، وأنتما وحدكما.
– وحَسَبتي لنا المدّة التي قضيناها معاً؟ هوّني عليكِ يا خالة سأشرح لكِ كلَّ شيء...
– نعم أخبرني لأنّ عبد الرّحمن بعدما نزل لعمله بعد الغداء ووصل إلى المكتب، اتّصل بي وسألني هل جاءكِ أمين ومعه فتاة تُدعى ريم لزيارتكِ؟ فأخبرته لا، فقال لي: تأكّدي إذا كانا بالشّقة معاً. لأنه قابلكما عند الدّرج، وأنك أخبرته بأنّ ريم قادمة لزيارتي، فأحب أن يتأكد فهو شك بأمركما وأصبح يفسر الأمور ويحللها على كيفه. فنظرت من النافذة ووجدت سيارتك أمام العمارة، فعرفت أنك وريم موجودان في الشقة، فراقبت الوضع حتّى رأيتكما تخرجان سويّاً حوالي السّاعة السّابعة.
– يا ساتر، حسناً...سأشرح لكِ، البارحة سألتكِ حول رأيكِ بعقد قراني على ريم...
فقاطعته الخالة وقالت: "يا إلهي!! لا تقل أنك تزوّجتها"
– يا خالتي... اسمعيني ولا تقاطعيني أرجوكِ، سآتيكِ بالحديث...
– هيّا أكمل لقد حرقت أعصابي!
– اليوم كان مجرّد عقد قران عند الشّيخ، أي عقد زواج شرعيّ، لكننا لم نتزوّج بالفعل، وجئنا...
قاطعته الخالة مرّة أخرى:"لم أفهم؟! كيف عقد زواجٍ شرعيّ ولم تتزوّجا بالفعل؟ إما تزوّجتما أو لا... هل توضّح لي أكثر؟".
– يا خالتي يا حبيبتي، تزوّجنا على الورق فقط، أي أصبحت ريم على الورق زوجتي رسميّاً، على سنّة الله ورسوله، لكن فعلياً لم نتزوّج....أفهمتِ عليَّ أم أشرح موضّحاً أكثر؟
– نعم فهمت، لكن ماذا فعلتما ساعتين ونصف في المنزل وحدكما؟
– ابتلّت ملابس ريم بالماء الملوّث بالطّين ونحن ذاهبان للغداء في المطعم، وصدّقيني لم ننوِ أن نأتي لمنزلي إلا بعد أن ابتلّت ملابسها، فاضطّررنا لإحضار الطّعام إلى البيت وتبديل ملابس ريم وغسلها، وانتظرناها حتّى جفّت ولَبستها نظيفة ثمَّ أوصلتها.
– هل ستقنعني أنكما جلستما كالإخوة بالمنزل!

- خالتي... أولاً ريم الآن زوجتي وما أغلقنا الباب على أنفسنا إلا بالحلال، ثانياً صدّقي أو لا تصدّقي أنتِ حرّة، جلسنا كالأصدقاء تماماً؛ لأننا اتـّفقنا أنا وريم أن لا نكمل زواجنا إلاّ بعد التخرّج وسنضع والديها تحت الأمر الواقع، ونخبرهما أننا قمنا بعقد زواجنا عند الشّيخ، وسنكمل العقد بكتابته في المحكمة، ومن ثمّ نقوم بما حلّله الله لنا وأمرنا به، وهذا بعد حفل الزّفاف، الذي سَيُعَرِّف النّاس أننا قد تزوّجنا.
- على فكرة كنت أعتقدُ أنك شابٌ عاقل لكن أثبتَّ لي أنك مجنوووون، وأخشى عليك من المتاعب، كيف إذا علمت والدها الآن أنك تزوّجتها؟! أتعرف... المصائب تنكبُّ علينا منذ أن تزوّجت أمك بشاكر وها أنت تُكمل السّير على الأشواك!
- لا تقلقي خالتي، لـِمَ هذا الكلام...ومن شاكر هذا؟!! كما أنه سيبقى الموضوع سرّاً إلى ما بعد التخرّج... انتهينا خالتي لقد تزوّجت قولي مبرووك.
- آسفة...الموضوع أغضبني، أنت ظلمت الفتاة وأضعت مستقبلها بتهوّرك هذا.
- يا خالتي...لا تغضبي، هي التي أصرّت، وبصراحة علّمتني الحياة أن أخذ ما أريد بالقوّة كما يفعل الجميع، الكلُّ ينفّذ رغباته وأنا دائماً أنظر حتّى يضيع ما أريد...الكل يريد وأنا الذي يجب أن ينفّذ الأوامر ويكون المسالم؟ كلاّ... وأنا لديّ رغبات.
- آآآخ يا أمين.

***

مضى الأسبوع تلو الآخر، حتى انقضى شهر من أشهر السّنة الخامسة في الجامعة، وشهر فقط على عقد زواج أمين وريم، انقضى على خير دون أن يشعر والديها بشيء، ولم تُشعر هي أمها بأيِّ اختلاف، ولم تذهب مرّة أخرى إلى منزل أمين بل بقيت علاقتهما كالصّداقة، لكن ببال مرتاح وحبٍّ وأشواق تزداد حسب رأيهما، وأمين لم يخلف وعده وبقي محافظاً على تلك العلاقة من دون تغيير. حتى أنّ آخر أسبوع من هذا الشّهر شعر أمين ببعد في تصرّفات ريم. لم تعد تنتظره في الجامعة بل كانت تذهب عند انتهاء محاضراتها على الفور، وفي الصّباح تأتي على وقت المحاضرة تماماً، دون أن تفتح المجال أمام أحد للجلوس معها، حتّى إن كان أمين. مما أدّى إلى تساؤل أمين من تصرّفها: "لماذا لم تعد تجلس معي أو حتّى تراني، أو مجرّد سلام؟" كان أمين يزداد حيرةً وشوقاً. يتأمّل كلَّ يوم أن يراها أو يتكلّم معها لكن من دون فائدة، حتّى بالهاتف لا يستطيع مكالمتها. وفي يوم خرج أمين من محاضرته قبل ربع ساعة، وذهب عند مبنى كليّـــة الآداب ووقف عند الباب ينتظر خروج ريم، حتى خرجت وكانت مسرعة ولا ترى أحداً أمامها...فمسكها أمين من ذراعها وشدّها نحوه... فتفاجأت به وقالت له: "أمين... كيف حالك؟ اشتقت لك!"

- اشتقت لي؟ لا أصدّق، أين أنتِ يا ريم لِـــمَ تهربين؟ ولم تعودي تجلسي معنا بالاستراحة أو حتّى تسلمين علينا...فتذهبين مباشرة ما بكِ؟ أنا قلق عليكِ!لم أعرف طعم النّوم وأنا أفكّر بما يجري، وما الذي حدث؟ أريد سماع صوتكِ ولا أستطيع. اشرحي لي أرجوكِ!
- بصراحة يا أمين يوجد أحدٌ أفهم أمي أننا لا زلنا على علاقة أنا وأنت، ونجلس سوياً ونتحدّث وما زلنا نحبُّ بعضنا، ولكن الحمد لله لم تعرف أننا كتبنا عقد الزواج. أو ربّما الذي أوصل لها

هذه المعلومة لا يعلم أننا تزوّجنا، أو ربّما يعلم لكن لا يريد إخبارها، بصراحة لا أعرف ما الذي وصل لها بالتحديد ومِن مَن لا أدري، لذلك حلفت بالله عليّ بأن لا أخرج وحدي أبداً، وأنها ستوصلني هي وتعود لتأخذني على وقت المحاضرات تماماً، فأصبحت توصلني صباحاً عند بدء المحاضرة بالضبط، وتأخذني بعد انتهائي من المحاضرات، هي الآن تنتظرني في الخارج، يجب أن أذهب مسرعة إلى السيّارة لكي لا توبّخني وتشكّ في أمري. لم يكن باستطاعتي إخبارك لا بالهاتف ولا حتى رؤيتك بالجامعة. الآن دعني أذهب أرجوك فوالدتي تنتظرني، ولا أريد أيَّ إشكال معها.

– لكن كيف سأراكِ؟

– فكّر بطريقة ما، إلاّ العبث بأوقات المحاضرات، سامحني سأذهب إلى اللّقاء...

وذهبت ريم مسرعة وأمين ينظر إليها لا يعرف ماذا يمكن أن يفعل؟ فهو محتار، وأخذ يتمشّى للاستراحة مشغول الفكر، وفور وصوله الاستراحة وجد نيرمين تنتظره ليعطيها دروساً ببعض المواد المتصعّبة منها.

– مرحبا أمين... أنا أنتظرك منذ فترة.

– أهلاً يا نيرمين، كيف حالكِ اليوم؟

– جيّدة جداً، ومشتاقة لدرسك الخصوصيّ، لقد اعتدّتُ على أسلوبك بالتدريس، أتدري كان يجب أن تكون محاضراً بالجامعة؛ لأنني أفهم عليك أكثر من دكتور المادّة.

– لا تبالغي، وهيا نبدأ كي لا يضيع الوقت منّـــا هباءً.

– هيّا، لنبدأ بهذا الملف وتشرح لي بعض الأمور التي وَضَعْتُ عليها خطوطاً حمراء.

أما باسل فكان كلَّ صباح ومساء ينتظر ريم أمام باب العمارة، لكي يتكلّم معها ويحاول استمالتها نحْوه، كما قالت له هند. لكن ريم لا تستطيع رؤية وجهه فهي لا تحبّه، ودائماً كانت تتهرب منه وإذا لمحته بالجامعة تذهب من طريق آخر، لكن باسل يبقى يلاحقها ويريد الجلوس والكلام معها. وذات مرّة كانت تجلس هي ومنال في الاستراحة، فجاء وأصبح يمازحهما بطريقة سخيفة وغير مضحكة، بل مثيرة للضّجر والأعصاب، فأصبحت منال تصرخ في وجهه، اذهب من هنا يا ثقيل الدّم لا نريد أن نراك ولا حتّى أن تجلس معنا، فقال لها: "أنا لا أمازحكِ أنتِ، أنا أمازح ريم".

فقالت له ريم: "اذهب لا أريد مزاحك، أرجوك اذهب من هنا".

كان في نفس الوقت أمين وهاني يدخلان الاستراحة فسمعا أصواتهم العالية، فعندما شاهدهم باسل يدخلان وبالأخصّ أمين، أخذ يزيد بأفعاله السّخيفة ومزاحه الثّـــقيل.

حتّى وصل أمين إليه وقال له: "ما هذه السّخافات يا باسل؟" فأجابه باسل: "وما دخلك أنت يا أبله؟" فنظر إليه أمين بغضب شديد، أمّا هاني فلم يحتمل تصرّفاته فمسكه وضربه لكمة على وجهه، فعاد باسل وضرب هاني وعلِق الاثنان، فقفز أمين لمساعدة هاني، لكن ريم ومنال شدّتا أمين من ذراعية وبشدة وتمسّكتا به، ولم تجعلاه يُشارك بالضّرب خوفاً على قلبه وعلى صحّته، فقال لهما أمين: "دعوني أريد أن أُخَلِّص هاني...!"

قالت له ريم: "لا لن تشارك بالشِجار".

- "اتركيني يا ريم"، وسحب نفسه وقام ليضرب باسل، لكن رجال الأمن بالجامعة وصلوا وفضّوا الشجار بين هاني وباسل، فتحلّف باسل أمام الجميع لأمين أن ينتقم منه بالذّات؛ لأنه لم يشفِ غليله بعد.

ريم التي كانت حريصة على الجلوس مع أمين في الصّباح وبين المحاضرات وأحياناً في نهاية دوامها اختفت! كانت تركض وراءه لعقد قرانهما، بل لا تجعله يذهب عن عينها، كلّ لحظة تشتاق إليه، لكن أين ريم من هذا كلّه؟ كيف انقلبت مئة وثمانين درجة... ماذا جرى؟

أجفَّ ينبوع الحبِّ؟ أم اطمأنّ بالها وضمنت أمين في جيبها بعدما أصبح اسمها معلق باسمه؟ أم يأتي وقت على كلِّ شيء فيصبح في حالة فتور؟ لكن يا ترى هل ما قالته لأمين هو الصّحيح؟ هذه أسئلة تدور كلَّ يوم في رأس أمين، يجلس يسأل نفسه وبالأخصّ قُبيل النّوم عندما يضع رأسه على وسادته، تبدأ الأفكار تسرح به؛ لأنها ما زالت على عادتها هذه الجديدة من البيت للمحاضرة ومن المحاضرة إلى البيت. فيعود أمين لما قالته ريم ويواسي نفسه بهذا الجواب: "ما زالت ريم تحبّني، ولو لم تحبّني لما قمنا بعقد النّــكاح، لكن ضغوطات والدها هي التي تبعدها عني".

وفي اليوم التالي ذهب أمين مرّة أخرى لمبنى كليّــة الآداب ينتظر ريم لكي يراها ويكلّمها. فدخلت ريم المبنى ووجدت أمين واقفاً مترقّباً الباب ممعناً بكلِّ الوجوه ينتظر رؤية ريم.

- صباح الخير يا حبيبي؟ ما هذه المفاجأة الجميلة؟
- ريم... اشتقتُ لكِ، أريد أن أجلس معكِ أكلّمكِ، أشعر بالوحدة دونكِ أشعر بالقلق، لا تجعليني أركض وراءكِ هكذا، أنا زوجكِ الآن، قبل عقد القران كنّــا نرى بعضنا أكثر ونتكلّم ونجلس... ما الذي جرى هل أنتِ نادمة؟ أم هناك شيء ما لا تستطيعين البوح به؟...أفتقدكِ.
- حبيبي أمين لقد قلت لك أنَّ والدتي تحاسبني على كلِّ دقيقة أضيّعها خارج البيت، ويجب ألاّ أتأخّر أبداً بعد محاضراتي. هذا أوّل سبب... والسّبب الثاني أشعر أنّ أحداً يراقب تصرّفاتي وكلّ اتّــجاهاتي ويخبر والدتي بكلِّ شيء؛ لأنها أحياناً تعلم أموراً أنا أكاد أنسى أنني من قمتُ بها.
- مثل ماذا يعني؟
- مثلاً... قبل يومين لم أحضر المحاضرة الأخيرة وذهبتُ إلى المكتبة لأنهي كتابة تقرير عليّ تسليمه في نفس اليوم. وعندما عدتُ للمنزل قالت لي: "لِــمَ لم تحضري المحاضرة الأخيرة يا ريم اليوم؟" فدُهشتُ جداً من سؤالها وحاولتُ أن أستفسر كيف عرفت؟ لكن من دون فائدةلم تخبرني، وقالت لي: "هذا ليس من شأنكِ أنا والدتكِ وأعرف، وعليكِ أن تنتبهي هذه السّنة لدروسكِ"، لذا أنا خائفة من أيِّ تصرّف يجعلني أقع في مشاكل مع والدتي.
- هل تشكّين بأحدٍ يا ريم؟ أو هل انتبهتِ على أحد يلاحقكِ؟
- صدّقني لا أبداً، لكن البارحة تشاجرتُ مع رندة أختي لأني اعتقدتُ أنها هي التي توصل كل التّــفاصيل لأمي، فقالت لي:"أنا لا يهمّني هذا الكلام لكي أراقبكِ، وأنت حرّة في تصرّفاتكِ،

كما أنني مشغولة في محاضراتي ووقت الفراغ أقضيه كاملاً مع صديقاتي، كما أنكِ أختي وحبيبتي هل يُعقل أن أكون جاسوسة عليكِ وأخبر والدتي عن كلِّ صغيرة وكبيرة، هذا لا يهمّني وليس من مصلحتي، ابحثي عن أحد غيري يريد لكِ الشّر" هذا بالتحديد ما قالته لي.

– من يريد أن يوقع بنا؟ هو من المؤكّد لا يتمنّى لنا الخير، وهذا حصل بالتّحديد بعد عقد زواجنا بقليل، أليس كذلك؟

– نعم على ما أعتقد؛ لأنَّ أمي أصبحت شديدة عليّ أكثر، وكأنّها تعلم بزواجنا ولا تريدني أن أشعر بأنها تعرف.

– لا، مستحيل لو كانت تعرف لما سكتت عن الموضوع بهذا التّهاون، وكان أن حصل مالا في البال ولا في الخاطر. لكنّكِ تتوهّمين بذلك.

– لقد ضاعت أوّل ربع ساعة من المحاضرة يا أمين ونحن نتكلّم، اعذرني الآن أريد أن أذهب، لكن هناك كلاماً آخر أريد أن أخبرك به ولا أدري كيف؟ ومن الضّروري جدّاً أن تعرفه... الآن إلى اللّقاء.

وركضت ريم مسرعة إلى الدّرج لتصعد إلى قاعة المحاضرة. أما أمين فوقف متسائلاً محتاراً ماذا تريد ريم أن تخبره، ومن الضروري أن يعرف، لكن كيف؟ ومتى؟ لقد أوقعته بالحيرة.

أخذ أمين يسير إلى كليّة الهندسة ليلحق هو الآخر محاضرته، لكن كان سيره ببطء وملل بالإضافة إلى أنه عابس حزين، حتّى وصل قاعة المحاضرة ودخل بهدوء. كان الكلُّ صامتاًوالدّكتور يشرح بصوتٍ عالٍ، فلمح أمين يدخل فقال له:"لـــمَ التأخير يا أمين؟ ألم أقل البارحة أن تأتوا مبكّرين لأنّ محاضرةً اليوم بالتحديد مهمّة جدّاً؟!

– آسف يا دكتور، أرجو أن تسامحني هذه المرّة.

– لا...أنا لا أحب هذا الاستهتار وعدم تحمّل المسؤوليّـــة، شابٌ في مثل عمرك وسيصبح مهندساً جديراً بعد بضعة أشهر يجب أن يكون ملتزماً يعرف واجبه تماماً، وليس متسيّباً هكذا مثل حضرتك.

– هذه أوّل مرّة أتأخّر بها.

صرخ الدّكتور بعصبيّـــة: "لا تبرّر خطأك بتفاهات، هيّا إلى خارج القاعة، لا أريدك اليوم بمحاضرتي".

كان الدّكتور عصبيّ المزاج اليوم ولا يرحم أحداً. فأدار أمين ظهره وبكل حزن خرج من القاعة، وذهب للاستراحة لشرب فنجان شاي بالحليب ساخناً، ليشعر بالدفء وربّما يشعر بالتفاؤل أيضاً. فجلس حول طاولة صغيرة تكفي لشخصين وبدأ يحتسي الشّاي وهو بمزاج معكّر، كان يجلس خلفه تماماً باسل ويراقبه وأصبح ينظر إليه بحقدٍ وغُـــلّ، لكن أمين لم ينتبه إليه أبداً.

فجاءت منال وسحبت كرسياً وجلست أمام أمين حول نفس الطّاولة، بقيت صامتة تنظر إلى أمين وهو عابس، فنظر إليها أمين ولم يتكلّم وعاد يحتسي الشّاي.

فقالت له منال بعد فترة: "مرحباً...كيف الحال؟"

فأجابها: أهلاً.

– ما بك أمين؟
– لا شيء...اليوم من أوّله يأس وشؤم!
– لـــمَ تقول هذا؟
– لقد طُردّتُ من المحاضرة بسبب تأخّري، وريم في الصّباح كلّمتني بالألغاز.
– بصراحة ريم أصبحت غريبة الأطوار يا أمين، حتّى أنا لم تعد تكلّمني ولم أعد أراها مثل قبل، لا أعرف ماذا أصابها.
– والدتها تضغط عليها هذه الأيام، ولا تجعلها تتنفّس نفساً واحداً إلا بإذنها.
– هذا لأنها تُسيء التصرّف!
– لا يا منال! أريم تُسيء التصرّف؟
– فتاة تكتب عقد زواجها بغير علم والدتها ووالدها حتماً هي غير بارّة بوالديها، وتُسيء التصرّف.
– أنتِ تعرفين الظّروف التي جعلتنا نتصرّف هكذا.
– مهما يكن...على كلِّ حال عذراً يا أمين، سأذهب إلى قاعة الحاسوب فلديَّ تدريب.
– مع السّلامة.

استغرب أمين من كلام منال الهجوميّ على ريم، وكأنّها عدوّتها وليست صديقتها، وقال في نفسه: "هل يُعقل أن تكون منال هي من تراقب ريم وتخبر والدتها بكلِّ صغيرة وكبيرة؟ هل هي الغيرة من أجل الحبّ؟ ربما... لا أدري!"

فوقف أمين وخلع مِعطفه كحليّ اللّون ووضعه على ظهر الكرسيّ وجلس، وعاد يحتسي فنجان الشّاي. فجاءت نيرمين مسرعة متفائلة تُشعُّ حيويّـــة ونشاط، وقالت لأمين: "صباح الخير يا أستاذي" وجلست بجانبه.

– صباح الخير يا نيرمين، الحمد لله هكذا أنتِ دائماً نشيطة ومتفائلة؟
– نعم، بالتأكيد عندما تشعر بالملل...فلديك نيرمين دواءَ كلِّ داء.

فأصبح أمين يضحك وشعر بالتفاؤل حقاً من حيويّتها ونشاطها، وقال لها: "أليس لديكِ محاضرة الآن؟"

– نعم بعد ربع ساعة، لكن جئتُ أدعوك لحفلة عيد ميلادي اليوم.
– اليوم يا نيرمين...؟ لـــمَ لَم تخبريني من قبل؟
– بصراحة كنت أريد إخبارك البارحة بعد انتهائنا من الدّراسة، لكن أخذنا الكلام ونسيت، البارحة أخبرتُ مجموعة أصدقائك، وأكّدوا لي أنهم سيأتون، لقد دعوت بعض صديقاتي وأقاربي وأنتم، أرجوك يا أمين أن تحضر فأنا أنتظر تلبية دعوتي لك.
– إن شاء الله، لكن هل أعطيتيهم العنوان؟
– لا، قال لي هاني أن أعطي العنوان لك؛ لأنك ستأخذهم بسيّارتك، فكتبت لك عنوان بيتي على هذه الورقة. ورقم هاتف المنزل... هاهي، سأضعها لك في جيب المعطف.

ووضعت نيرمين الورقة في جيبِهِ بالمعطف المعلّق خلف أمين على الكرسيّ.

وقالت له: "هذا عنوان المترل، لكن الحفلة ستكون في مزرعة والدي هي بعيدة قليلاً، وفور وصولكم مترلي سآخذكم أنا للمزرعة، حيث اتّــفقنا أن آخذ الفتيات في سيّارتي، وأنت تأخذ الشّباب وتقود سيّارتك ورائي لنصل إلى المزرعة. حيث أهلي وأصدقائي ينتظرونا هناك، ويكونون قد رتّبوا جميع الترتيبات اللاّزمة للحفلة".

– وأيَّ ساعة نأتيكِ؟

– سأعود من مصفّفة الشّعر حوالي السّاعة الخامسة، تعالوا تقريباً السّاعة السّادسة أو السّادسة والنصف، وننطلق فور وصولكم؛ لأنّ حفلة عيد الميلاد ستبدأ السّاعة السّابعة والنصف. ونحن نحتاج نصف ساعة طريق.

– لا بأس سأخبرهم أننا سنتواجد أمام مترلكِ السّاعة السّادسة.

– شكراً يا أمين لقبولك دعوتي، لكن أريد أن أطلب منك طلباً.

– تفضلي يا نيرمين.

– هل تستطيع ارتداء نفس البدلة البنيّة الجميلة ونفس القميص اللّذين ارتديتهما في حفلة عيد ميلاد ريم، أم هما لريم خصّيصاً؟!

–لا أبداً، لكن أشعر أنّ هذه البدلة مصدر شؤم لي.

– لماذا؟

– لأنّ تلك اللّيلة كانت ليلة سوداء، لا أريد أن أذكر ما الذي حصل!

– أنا آسفة لأنني ذكّرتك بذاك اليوم. لكن البسها هذه المرّة لنعوّض الشؤم إلى فرح في عيد ميلادي، فأنا أحببتها عليك.

– حسناً، لا مشكلة سأرتديها.

– الآن سأذهب لمحاضرتي إلى اللّقاء. لا تنسَ الورقة في جيبك... أنتظركم.

– حسناً، إلى اللّقاء.

وغادرت نيرمين للمحاضرة وهي سعيدة فرحة، وقام أمين من مكانه ليطلب كوب شاي آخر من قسم الطّلبات.

وبخفّة مدّ باسل يده إلى جيب أمين، ليسحب الورقة المدوّن بها عنوان مترل نيرمين، لأنه سمع كلّ الحديث الذي دار بين نيرمين وأمين، فهو ما زال يجلس وراءه... وعندما أدخل يده بالجيبة وجد الهاتف الخلويّ الخاص بأمين ومفاتيح مترله وسيّارته، فسحب كلّ ما في الجيب من ورقة ومفاتيح والخلويّ، وخبّأهم في بنطاله وغادر الاستراحة من دون أن يشعر به أحد.

ثمَّ عاد أمين لطاولته ولم ينتبه لما جرى، جلس ينتظر خروج زملائه من المحاضرة، وبعد عشر دقائق وصل هاني ورامي للاستراحة وخلفهما ديالة ونسرين. فتوجّهوا على الفور لطاولة أمين وجلسوا، فقال له هاني: "لــمَ تأخّرت يا أمين اليوم؟"

تنهّد أمين وقال: "اضطررت للذّهاب إلى كلية الآداب لأرى ريم، فأنا منذ مدّة طويلة لم أرها، ويجب أن أعرف ماذا يجري، ولــمّ هي مختفية هكذا؟ وبعيدة عنا؟!"

– لقد أضعت المحاضرة عليك اليوم، وكانت جداً مهمة... قال رامي

ثمّ سأله هاني: "وهل عرفت لـــمَ تتصرّف معك هكذا بعدما ماتت على عقد القران، والآن تبتعد عنك قاصدة؟"

– هي لا تقصد بل والدها تُشدّد عليها عند الخروج والعودة، ولم تعطِها حرّيتها كالسّابق.

– فسأله هاني: "هل دعتك نيرمين لعيد ميلادها اليوم؟

– نعم.

– حسناً، ستجلس أنت وريم وتتحدّثان بالحفلة كما تشاءان، ولن يزعجكما أحد.

– والله فكرة، لـــمَ لمْ تخطر ببالي ؟ أحسنت يا هاني.

فقال رامي: "هيا لا وقت للفراغ، ستبدأ محاضرتنا الثّـــانية ويجب أن نسرع، وبعد المحاضرة نخطّط كيف سنذهب لحفلة عيد الميلاد". فقال أمين: "حسناً اسبقوني، سأذهب لأصلّي الظّهر قبل أن تفوتني الصّلاة وألحق بكم من أراد أن يصلّي فليلحق بي– هداكم الله– فقام الجميع متوجّهين لمبنى كلية الهندسة لحضور المحاضرة الثّانية والأخيرة لهذا اليوم.

وارتدى أمين معطفه الكحليّ دون أن يشعر أنه فقد الهاتف الخلويّ والمفاتيح، وتوجّه للمصلّى ومن ثمّ للمحاضرة.

وما إن انتهى الجميع من محاضراته لهذا اليوم حتّى اجتمعوا مرّة أخرى باستراحتهم هذه المعهودة، وجلسوا حول طاولة تسعهم جميعاً. وجاءت ريم ومنال لتجلسا معهم، فقال لها أمين: "هذا غريب يا ريم، أأنتِ هنا أيعقل؟ منذ مدّة لم نرَك تجلسين معنا، ألا تنتظركِ والدتكِ بالخارج؟"

– لا يا أمين، اليوم سأذهب مع منال لمترلها وبعدها نذهب ونشتري هديّة لنيرمين وننطلق سويّاً للحفلة.

فقال رامي لأمين: "هل أعطتك نيرمين العنوان؟".

فأجاب أمين: "نعم العنوان معي".

فقال هاني: "ما رأيك أن تأتي وتأخذنا كالمعتاد ونذهب سويّاً ".

– حسناً ليتجمع الجميع عند بيت هاني لأنّ بيته أقرب البيوت وفي الوسط بين الجميع، وسآتي لأخذكم، لكن نصفنا بسيّارتي والنّصف الثّاني بسيّارة الأجرة، ويجب أن نصل لبيت نيرمين في تمام السّاعة السّادسة، لا نريد تأخيراً من أيٍّ أحد.

فوافق الجميع على الاقتراح.

فقال هاني:"هيا نغادر لنستطيع ترتيب أمورنا، هل ستوصلني يا أمين؟"

– نعم بالتأكيد، وأنت يا رامي هل أوصلكما؟

– لا سنأخذ سيّارة أجرة أنا ومنال وريم، أشكرك.

– هل من أحد يريد أن نوصله بطريقنا؟

فقالت ديالة: لا نشكرك.

قال أمين: "هيّا يا هاني لنذهب إلى السيّارة".

ومشى أمين وهاني إلى مواقف السيّارات، وهما يتحدّثان ويضحكان، فوصل أمين لسيّارته ومدّ يده في جيبه ليتناول المفاتيح، فلم يجدهم فأخذ يبحث بجيوبه الأخرى بالمعطف وجيوب بنطاله، فلم يجد شيئاً...اندُهش بذعرٍ شديد.

- ما بك يا أمين؟
- لم أجد المفاتيح ولا الهاتف الخلويّ، ولا حتّى الورقة التي وضعتها نيرمين في جيبي!!
- استعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم، وابحث جيّداً.
- ها أنا أبحث لكن لا جدوى،أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم، أنا متأكّد لقد وضعت نيرمين الورقة هنا في هذا الجيب! رأيتها...حيثما وضعتُ الخلويّ والمفاتيح! أين ذهبوا؟ مستحيل! أين ذهبوا؟
- ربّما سقطوا منك يا أمين على الأرض أو في مكانٍ ما؟
- لا دائماً أضعهم هنا من الصّعب عليهم السّقوط، مستحيل فالجيب عميقة نوعاً ما.

فجلس أمين على حافّة الرّصيف بجانب السيّارة حائراً.

- لـــمّ الجلوس؟ قم ولنبحث عن المفاتيح.
- أين أبحث يا هاني؟ أدور الجامعة بأكملها باحثاً عن المفاتيح والورقة والخلويّ؟
- لا، تعال نعود ونبحث بالاستراحة حيث كنت تجلس.

وعاد الاثنان للاستراحة وأخذا يبحثان دون فائدة، وذهبا لقاعة المحاضرات أيضاً وبحثا لكن دون جدوى، حتّى الطّرقات بحثا فيها فلم يجدا شيئاً، حتى أصابهما الإحباط واليأس والتعب.

فقال أمين: "أنا قلت منذ الصّباح، هذا اليوم من أوّله يأس وشؤم!"

- ماذا ستفعل الآن يا أمين؟ هل لديك مفاتيح احتياط؟
- خالتي معها مفتاح آخر لمنزلي، وفي المنزل مفتاح آخر للسيّارة.
- هذا رائع، سنذهب لبيت خالتك نأخذ المفتاح، ونحضر مفتاح السيّارة ونعود ونأخذها.

فضحك أمين من شدّة القهر، وقال لهاني: "لكن خالتي ليست في البيت!"

- أين هي؟ هيّا تكلّم!
- لقد ذهبت هذا الصّباح هي وعائلتها لزيارة أهل زوجها في البلدة المجاورة، والمسافة من هنا الى البلدة المجاورة ساعتان ذهاباً وساعتان إياباً.
- ياه...ما الحلّ، يا أمين؟
- لا يوجد حلٌّ سوى أن تذهب أنت لبيتك الآن، وأنا سأذهب وأبحث مرّة أخرى، ومن ثمّ سأذهب لشراء الهديّة، واتّـــفق مع الجميع أن يأتوا لمنزلك، ربما نضّطر للذّهاب بسيّارة أجرة، لكن عليك أن تبحث عن عنوان منزل نيرمين؛ لأنَّ الورقة هي الأخرى فُقدتْ.
- صحيح... تعال نتّصل على هاتفك ونرى إن كان أحد سيجب، ربّما إذا وجده أحد فمن المؤكّد سيكون معه المفاتيح والورقة.
- هيّا اتّصل لنرى.

واتّصل هاني من هاتفه بهاتف أمين الخلوي...لكن النتيجة أنَّ الهاتف مغلق حالياً. فعبس هاني... وقال له أمين: "ماذا؟"

– الهاتف مغلق حالياً، يا أمين!

– من المؤكّد أنّ أحداً ما وجده وأغلقه.

– ما رأيك يا أمين أن نخبر الشّرطة؟

– الشّرطة؟! لا داعي للشّرطة سنجدهم إن شاء الله، فالموضوع لا يستدعي إبلاغ الشّرطة من أجل مفاتيح وورقة وهاتف.

– ولـــمَ أنت واثق هكذا؟

– أشعر أنني سأجدهم سريعاً.

– وإن لم تجدهم؟

– في حال مضى على فقدانهم يوماً كاملاً، سأبلّغ الشّرطة. ما رأيك؟

– أنا رأيي أن تبلّغ الشرطة أفضل.

وقف أمين محتاراً متنهّداً لا يعرف ماذا يفعل. ثمَّ قال لهاني: "اذهب الآن أنت كما اتفقنا، وسأذهب لشراء هديّة، ولو تأخّرت عليكم وقاربت السّاعة إلى السّادسة اذهبوا أنتم إلى منزل نيرمين".

– ولـــمَ تتأخّر؟ وإن ذهبنا لمنزلها كيف ستأتي أنت بما أنك لا تعرف العنوان؟

– سأتأخّر لأنني سأذهب لطبيب القلب فلديّ موعد اليوم، وبعدها سأذهب لشراء الهديّة، كما قلت لك مئة مرّة قبل هذا، وإذا تأخّرت فلا أريد الذّهاب، فربما لا يوجد نصيب لأحضر الحفلة. و خصوصاً الآن لم يعد لي مزاجاً بالذّهاب إلى أيِّ مكان.

– وأين ستذهب في حال ذهبنا نحن للحفلة؟

– سأنتظرك في المطعم القريب من بيتك، وفور حضورك من الحفلة تعال للمطعم لأعرف أنكم رجعتم، وسأقضي اللّيلة عندك ريثما تأتي خالتي من سفرتها المصغّرة.

– أمكتوب عليك التّشتّت في كلِّ مرّة تسافر فيها خالتك يا أمين؟

– لا تُذكّرني بتشتّـــتي وأنا صغير، فهذه كانت أكبر حادثة قلبت تاريخ حياتي.

– لا، لن تكون هذه المرّة حادثة كالتي مضت وتقلب حياتك، عرضيّـــة إن شاء الله.

– هيّا يا هاني، لا نريد أن نُضيّع الوقت أكثر من ذلك، اذهب وتوكّل على الله، وأنا إن شاء الله سأصل بالوقت المناسب، ولا تنس أن تسأل عن عنوان منزل نيرمين.

فأخذ هاني سيّارة أجرة وذهب للبيت، أمّا أمين أخذ يسير بالشّارع حائراً يُفكّر أين ذهبت المفاتيح والهاتف؟ فأصبح يُكلّم نفسه في سرّه "أين ذهبا؟ هل أنا وضعتهم في مكان ما؟ لم أخرجهما من جيبي اليوم أبداً...لا أعرف، لا أستطيع أن أتذكّر شيئاً سوى أنني واثق أنهم كانوا بالجيب، هذا شيء جنونـــــــــــــيّ!!".

وظلّ يمشي ويمشي حتّى أحسّ بالجوع، كانت السّاعة حوالي الرّابعة، فدخل محلاً لبيع السّاندويشات، واشترى شطيرتين مع علبة عصير البرتقال. كانت رائحة الشّطائر شهيّة جداً،

تتطاير رائحتها مع رياح الشّتاء الرّطبة. فوقف بجانب سور متّكئاً، وبدأ يأكل شطائره، فانتهى من طعامه وعاد للسّير، فوجد في طريقه محلاً لبيع الهدايا فدخل واشترى زجاجة عطر جميلة، وخرج مسرعاً لأخذ سيّارة أجرة والذّهاب لعيادة الطّبيب. كان موعده تمام السّاعة الرّابعة والنصف، فوصل أمين العيادة متأخراً عشر دقائق عن موعده.

دخل للطّبيب وأجرى له الفحوصات المعتادة اللازمة، وطمأنه أنّ قلبه مستقرٌ ونبضه ممتاز، ويجب أن يبقى على الدّواء الذي يأخذه، هذا بالإضافة للمتابعة بالتمرينات الرياضيّة المنشّطة للدورة الدمويّة والمقويّة لعضلة القلب. وخرج من عيادة الطبيب بعد نصف ساعة حوالي الخامسة وعشر دقائق، لم يتأخّر في العيادة بل كانت الفحوصات سريعة وجيّدة.

فنظر إلى السّاعة المعلّقة بالعيادة فوجد أنّ هناك ساعة إلاّ ربع تقريباً قبل موعد تجمّع الأصدقاء في السّادسة عند هاني، فخرج أمين من العيادة وبدأ بالسّير وحده من شارع إلى شارع، وأخذ يُحدّث نفسه، هل أذهب لحفلة عيد الميلاد أم لا؟ وبقي يسير وليس لديه رغبة بالذّهاب لأيِّ مكان.

تجمّع الأصدقاء عند منزل هاني، وها قد أصبحت السّاعة السّادسة ولم يأتِ أمين بعد، فقال لهم هاني: "من المؤكّد أنّ أمين لن يأتي؛ لأنه أخبرني في حال أنه تأخّر، نذهب نحن ولا ننتظره".

فقالت له ريم: "وكيف سيذهب إلى الحفلة؟"

– لن يذهب يا ريم فلديه موعداً عند طبيب القلب، وربما يأخذ وقتاً كبيراً في إجراء الفحوصات، كما أنَّ مزاجه معكّر بسبب ضياع مفاتيحه وهاتفه الخلويّ، من المؤكّد أنه لن يأتي، هيّا لقد تأخّرنا...وعدنا نيرمين أن نكون عندها تمام السّادسة، وها هي السّاعة الآن قاربت على السّادسة والعشر دقائق، هيا تحرّكوا ولنأخذ سيّارتي أجرة ونذهب.

فقالت ريم: "يا إلهي...كنت أتمنّى لو أمين كان معنا، اعتقدتُ أنني سأجلس معه وقتاً طويلاً وأخبره كلّ ما يدور ببالي وحتّى أخباري التي لم يعرفها منذ مدّة، كم كنت أحتاج رؤيته، كان يجب أن يسعى ويحاول المجيء".

– هيّا يا ريم لا تحزني، أمين أيضاً كان يتمنّى نفس الشيء، لكن أكيد الظّروف هي التي جعلته يتأخّر.

ومَشَوا حتى أوّل الشّارع فوجدوا سيّارة أجرة، أوقفوها وانقسموا إلى قسمين بعضهم ركبوا والقسم الآخر انتظروا تقريباً ثلاث دقائق أخرى حتّى جاءت سيّارة ثانية، وساروا بالسيّارتين وراء بعضهم، كان هاني قد أخذ العنوان من ديالة بعدما بحثتْ مطوّلاً عن رقم هاتف نيرمين، ومن ثمّ اتّصلت معها وأخذته.

فوصلوا لبيت نيرمين في تمام السّاعة السّادسة ونصف، كان منزلاً رائعاً كبيراً جداً يُبهر من الخارج، فقرع رامي جرس الباب الخارجيّ، فلم يُجب أحد، فقالت له ديالة: "باب الحديقة مفتوح لندخل وندقّ على الباب الرئيسيّ، ربّما لا تسمعنا من هنا".

فقالت نسرين:"هيّا لندخل".

أما ريم قالت لهم: "لا...أخاف من أن يكون هنالك كلابٌ شرسة في الحديقة".

فأجابها هاني "لا تقلقي لو كان هناك كلاباً لسمعتِ صوتها من هنا"

فدخل الجميع من باب الحديقة، وكانت ريم تُمسك بيد نسرين وتشدُّ عليها، فقالت لها نسرين: "ما بكِ وكأنكِ تدخلين مدينة الأشباح؟"

– بصراحة يا نسرين أشعر بالخوف، فالحديقة مظلمة والجوُّ بارد، وأنا أرتجف من البرد والخوف معاً. لـــمَ لا تُضيء لنا حديقتهم الكبيرة؟ يا لها من بخيلة! هي تعرف أننا قادمون..!

فقال هاني:"هيا تحرّكن وكفاكنَّ ثرثرة ".

فوصلوا عند الباب الرّئيسي للمنزل، فمدّ هاني يده لكي يطرق على الباب، فوجد طَرَفَه مفتوحاً فمدّ رأسه للدّاخل، كان البيت شبه مظلم وكان ضوء بعيد خافت يُشعُّ من داخله، فأخرج رأسه وكان الجميع وراءه، فقال له رامي: "ما بك ألا يوجد أحد؟"

لا أدري الوضع ليس مطمئناً، كيف يتركون الباب مفتوحاً هكذا وكأنه لا يوجد أحد في الدّاخل، ويظهر أنَّ من هنا باب غرفة الضّيوف، وها هو زر الجرس."

قرع هاني الجرس ثلاث مرّات ولم يجب أحد.

فقالت ريم:"هيا دعونا نذهب، أنا خائفة أشعر وكأنني أدخل بيتاً مهجوراً كما أنني لا أحبُّ البيوت الكبيرة".

– قال رامي: "اسكتي يا ريم قليلاً، ودعينا نفكّر"

فقالت منال: "دعني أدخل رأسي لأرى، ابتعد يا هاني قليلاً"، فأدخلت منال رأسها من طرف الباب وأخرجته بسرعة وخوف. فقال لها هاني: "ما بكِ أيتها المجنونة؟"

– سمعت بالدّاخل صوتاً غريباً!!

– سألتها ديالة "صوت من يعني؟"

– وكأنه صوت أحدٍ يتألّـــم أو يبكي لا أدري!

فقالت ريم:"لا...لا أريد أن أذهب أنا خائفة، لو كان أمين معي".

فقال رامي باستهزاء: "نعم...نعم يا عزيزتي، لو كان أمين معكِ ماذا كان سيفعل لكِ؟ ألا نعجبكِ نحن؟"

– بصراحة أشعر معه بالأمان أكثر لا تغضب مني.

– فقال هاني: "يا جماعة، يجب أن نعرف من بالدّاخل؟"

فقالت نسرين: "هيّا لندخل سويّاً ونرى...وأنت يا هاني أمامنا لا تكن جباناً، ادخل واكتشف"

– لا لست جباناً ولا حتّى خائفاً، سترون كولومبس ماذا سيكتشف الآن، لكن هل يجوز أن ندخل من دون استئذان؟ اسمعوا هل هذا صوت فتاة تتألّم أو تبكي في الدّاخل، أم شيء آخر؟ لا أعرف! "

فقالت منال: "هيا...هيا ادخل يا هاني، ونادِ بصوتٍ عالٍ على نيرمين أثناء دخولنا، وقم بإضاءة الأضواء".

ففتح الأصدقاء الباب ودخلوا بهدوء فنادى هاني: "نيرمين... يا نيرمين، أين أنتِ؟"

فأخذ يعلو صوت الآهات من الدّاخل. فأيقن الجميع أنه صوت نيرمين، ولا بدَّ أنها متعبة ولا تستطيع الكلام. فركض الجميع بسرعة إلى الدّاخل مذعورين باتّـــجاه الصّوت.

الفصل السابع والعشرون

وقف الجميع مذهولين من المنظر الذي سقطتْ أنظارهم عليه،لم يستطيعوا الحراك في اللّحظة الأولى، وخافت الفتيات من مشاهدة نيرمين بهذه الصّورة المحزنة المخزية.

كانت نيرمين مرميّـــة على الأرض تبكي وتتألـــّم ولا تستطيع الحراك من مكانها، وتشعر بدوارٍ شديد، هذا بالإضافة إلى أنَّ ملابسها ممزّقة، وكدماتٌ تملأ وجهها وجسدها، ويبدو أنَّ الدّم كان ينزف من أنفها، كانت ترجف خوفاً وتوتّراً وألماً.

فخلع هاني معطفه واقترب منها بهدوء ووضعه على جسدها ليسترها، وقال لها: "لا تخافي يا نيرمين، تماسكي سنأخذكِ للمستشفى...لكن قولي لي من فعل بكِ هكذا؟"

فقالت له بصوتٍ يرجف ومتعب وممزوج ببكاءٍ عالق في حلقها: "إنه...أمين".

فقال هاني: "من!!...لم أسمع؟! "لقد شكّ هاني أنه سمع الاسم صحيحاً، فأعاد السؤال فأجابته مرّة أخرى: "أمين، أمين الحقير"

فصرخت ريم بصوتٍ عالٍ وهي وترجف عندما سمعت اسم أمين، وقالت: "لا... لا أصدّق، هل يُعقل؟ هذا كذب...ليس هو...لا يُعقل أن يكون خائناً ومجرماً، أنتِ كاذبة يا نيرمين وهذه خطّتكِ، مستحيل أن يفعل أمين هكذا...مستحيل!!! ".

فقال لها رامي:"اهدئي يا ريم حتى نفهم القصّة...اهدئي"وبقيت ريم ترجف وتبكي، ونسرين أخذت تبكي هي الأخرى، أما منال وديالة فكانتا متوتّرتين وتُهدّئان الوضع العام.

في هذه الأثناء اتّصل هاني بسيّارة الإسعاف، لنقل نيرمين للمستشفى، ورامي اتّصل مع أهلها لإخبارهم أنها متعبة قليلاً، ولا تستطيع المجيء لحفل عيد الميلاد، وتشعر بصداع في رأسها، لذا ذهبت للمستشفى لتأخذ العلاج اللازم.

قبل وصول سيّارة الإسعاف بدقائق بدأت نيرمين تفقد توازنها ووعيها من كثرة النزيف الذي حصل لها، فحاولا هاني ورامي إنقاذ الموقف لكن دون فائدة، ووصلت الإسعاف، وتمَّ نقلها للمستشفى. كان هاني متوتّراً جداً، ورامي مصدوم وتفكيره مشتّت.

أمّا الفتيات فواحدة تبكي وأخرى تُهدّئ بها، توجّه الجميع إلى المستشفى للبقاء مع نيرمين والاطمئنان على حالتها، وكان جميع الأصدقاء في حالة توتّر وقلق وحيرة.

تمَّ إدخالها للطّوارئ وإعطاؤها وحدتيَ دم. وضمّدوا لها الكدمات والجروح، لكن ما تزال متعبة جداً. فخرج الطّبيب لأصدقائها ووجّه لهم سؤالاً: "هل ذكرت لكم نيرمين من المجرم... هل تعرفونه؟"

فأجاب هاني: "لسنا متأكّدين، ولا نُشكّكُ بأحد".

فأخبرهم الطّبيب: "يجب على المستشفى إبلاغ الشّرطة بالحالة التي وصلتها، وللإمساك بالمجرم وعمل الإجراءات اللاّزمة. أرجوكم ابقَوا هنا ولا تغادروا المستشفى."

وذهب الطّبيب للإبلاغ عن الجريمة.

فقالت ريم لهاني:"لـــمَ لا تخبره الحقيقة؟"

– أتريديني أن أتّهم أمين وأُوقع به؟ أأنتِ تقولين هذا يا ريم، ماذا جرى لكِ؟!

– ألم تقل لك أنَّ أمين هو من اعتدى عليها؟

– لاأظن، هناك لبسٌواضح في الموضوع، يبدو أنها كانت في مرحلة هلوسة، هل يُعقل أن يفعل أمين ذلك؟! لا يمكن، مابكِ؟ قبل قليل كنتِ تدافعين عنه!!

– الفتاة ليست غبيّة لكي لا تعرف من قام باغتصابها، فالشّخص يكون واضحاً أمامها كالشّمس.

– هذا الذي لا أفهمه يا ريم. لكن لـــمَ انقلبتِ هكذا ضدّ أمين؟ وكأنه عدوّكِ بدلاً من أن تقفي بجانبه.

– أنا لا أفهم...كيف يعتدي على نيرمين؟ لقد درس الموضوع جيّداً، أضاع هاتفه والعنوان ومفاتيحه لكي يُتوّهنا ويوهمنا بأنه لا يستطيع القدوم، وسبقنا وفعل فعلته هذا المجرم المعقّد. أمي حذّرتني منه، وقالت لي هو كأبيه مجرم فالدّم واحد، لكن أنا غبية ولا أسمع الكلام، حتّى تبيّن لي على حقيقته الخائن الوحش.

فقال هاني: "كنّا بنرمين وصرنا بريم الهبلة، يبدو عليكِ يا ريم التوتّر والقلق الزائد. لا تتفوّهي بكلام لا يقبله العقل ولا المنطق، من المؤكّد ستظهر الحقيقة، ربّما أنتِ بدأتِ تُهلوسين من صعوبة الموقف، ستندمين على كلامكِ، فجأة يضيع الحبُّ والعشق هكذا!! كما أنه زوجكِ ويجب أن تقفي بجانبه، لابدّ أنكِ تحتاجين إبرة مهدّئة فقدتِ السّيطرة على عقلكِ ولسانكِ."

– اسكت أرجوك يا هاني وكفاك نصائح.

فهمس رامي بأذن هاني: "اتركها يا هاني ولا تناقشها الآن، أعصابها متعبة ومتوتّرة...

انظر إليها كيف ترجف ووجهها شاحب، لا تلومها فهي مشوّشة".

فجلست الفتيات على مقعد طويل بالمستشفى بصمتٍ قاتل، والحزن يغمر عيونهنّ، أما هاني ورامي أخذا يسيران بالممر الطّويل، فقال هاني:"أيعقل يا رامي أن يكون أمين الفاعل؟"

– بصراحة يا هاني لا أعرف...ولا أعتقد، لكن جواب نيرمين يُشكّكني، هل وُضع بظروف جعلته يعتدي عليها؟ أيعقل؟"

– ماذا تقصد؟ هل ذهب لبيتها وحده...قبلنا؟ و...

فقاطع كلامه رامي: "نعم، أقصد ربما قامت بإغرائه مثلاً أو بإثارته لدرجة أنه اضّطر للاعتداء عليها لأنها أبت أن تخضع له"

– يا رامي... ماهذا الكلام! أتُشاهد فيلماً أم تحلّل واقع؟ أم أصبحت تهلوس مثل ريم؟ أمين ليس من هذه النوعيّة من الشّباب، ولا أظن أنّ القصّة كانت على هذا النحو، لا أعرف مؤكّد أن هناك لبس!

– ألم تنظر إلى ملابسها التي كانت ترتديها كم كانت مغرية وفاضحة، تنّورتها قصيرة جدّاً، وحتّى قميصها قصير وتشعر أنه غير مكتمل. كان يسهل على أيِّ شخص تمزيقه لقلّـــة القماش فيه. لا أعرف ما هي نوعيّة هذه الفتاة؟! تعتقد بأنها من بنات أميركا هداها الله.

– أنا أشعر بحيرة شديدة، وأتساءل أين أمين يا تُرى الآن؟ وماذا يفعل؟

جاءت الشّرطة للمستشفى وأخذت أقوال الطّبيب المعاين، وطلبوا تقريراً يوضّح أكثر من الطّب الشرعيّ لمعرفة تفاصيل الجريمة والمجرم. فحُوّلتْ نيرمين لطبيبة شرعيّـــة لدراسة الحالة. ثمّ قام ضابط من الشّرطة ويُدعى (جابر) باستجواب الأصدقاء حول ما شاهدوه فور وصولهم منزل نيرمين المجنيُّ عليها.

فأدلى الجميع بأجوبتهم وشهاداتهم حسبما رأوا، واتّفقوا ألاّ يذكروا اسم أمين بالتّحقيق. وذهب قسم من الشّرطة والبحث الجنائي لمنزل نيرمين، وقاموا برفع البصمات والبحث عن أدّلة توصلهم للمجرم.

وما إن انتهى الضّابط جابر من استجواب الأصدقاء حتّى جاء الطّبيب إلى الضّابط المسؤول وقال له: "أنّ المجني عليها نيرمين قد استيقظت، وبإمكانك استجوابها وأخذ ما تريده من المعلومات".

فتوجّه الضّابط لغرفتها، وقال لها: "حمداً لله على سلامتكِ يا نيرمين؟"

- شكراً... (أجابت وهي حزينة ومتعبة).
- هل تسمحين لي بسؤالكِ بعض الأسئلة أم أنتِ مرهقة؟
- لا مشكلة تفضّل.
- من قام بالاعتداء عليكِ يا نيرمين، هل تستطيعين التعرّف عليه؟
- نعم، أعرفه...يُدعى أمين.
- ومن هذا أمين؟
- شابٌ في الجامعة معنا يدرس الهندسة...وأخذت تبكي وترجف من شدّة التوتّر وهول الموقف.
- اهدئي يا عزيزتي، ما مدى علاقتكِ بأمين؟
- هو صديقنا بالجامعة.
- هل هو صديقاً لمجموعة الأشخاص الذين أحضروكِ إلى هنا؟
- نعم.
- هل تستطيعين شرح التّفاصيل من بداية دخوله إلى منزلكِ حتّى خروجه؟
- دقَّ الباب كأيِّ شخص وفتحت له، كان يرتدي على وجهه قناعاً لمهرّجٍ ضاحك وجميل، بل كان يرتدي رأسا لمهرّج؛ لأنّ القناع لديه شعر كثيف وملون، فكان كلُّ رأسه مع وجهه مغطّى، ويلبس بيده قفّازات بيضاء لمهرِّجٍ أيضاً.
- وكم كانت السّاعة وقت قدومه للمنزل؟
- كانت السّادسة إلاّ ربع وأنا متأكّدة لأنني نظرت إليها.
- وكيف عرفتِ أنّ المجرم هو أمين بما أنكِ لم ترَي وجهه؟
- عرفته من ملابسه المعروفة لديَّ. لقد جلسنا سويّاً بالجامعة اليوم، ودعوته إلى حفلة عيد ميلادي وطلبت منه أن يرتديَ بدلته البنيّة مع نفس القميص الذي ارتداه في حفلة عيد ميلاد صديقتي ريم. فقال لي: هذه بدلة شُؤم، فقلت له: لا سنعوّض الشؤم بفرح في حفلتي، فوافق وقال لي: حسناً سأرتديهما من أجلكِ. وبالفعل جاء مرتدياً البدلة ذاتها، ومعها هذا الرأس

الضاحك الذي صار بنظري مخيفاً مكروهاً، ولا أستطيع رؤية المهرِّج بعد الآن أصلاً. ثمّ دخلوقال لي: عيداً سعيداً، هل أعجبكِ هذا القناع؟ فأجبته نعم جميل ومناسب للحفلات، فقال لي: "كم أنتِ رائعة الجمال اليوم يا نيرمين" كان صوته غير واضح، فسألته: "لـــمَ صوتك مخنوق هكذا يا أمين؟"

فقال لي:"لأني مخنوق تحت هذا القناع الضّاحك". فقلت له أرجوك يا أمين انزعه لكي أرى وجهك، فقال لي: قبل أن أنزعه أريد أن أُغمض عينيكِ بقطعة القماش هذه؛ لكي أقدّم لكِ هديّة العيد والمفاجأة، وفعلاً ربط عيني وبشدّة، فقلت له: "أرجوك خفّفها قليلاً، فلم يجبني، وبعدها مسك يداي الاثنتان وربطهما للخلف، فبدأت أشعر بالخوف وقلت له: ماذا تفعل لـــمَ تَربط يداي؟ فبقى صامتاً وأنا أصبحت أصرخ وأحاول فكّ أربطتي، لكن لا جدوى فرماني بالأرض ومزق..."(وأخذت نيرمين تبكي وترجف ولا تستطيع إكمال الكلام).

فقال لها الضابط: "اهدئي وارتاحي، سنحاول أن نكمل الحديث بعد قليل".

وخرج من غرفتها متوجّهاً لمجموعة الأصدقاء وطلب من هاني أن يخبره أين من الممكن أن يجد أمين.

فسأل هاني الضّابط وهو مذهول وخائف:"هل تبيّن أنَّ أمين المجرم؟"

فأجاب الضّابط"لم يتبيّن بعد، لكن أين ممكن أن نجده الآن؟"

– لا أدري يا سيّدي، أو ربّما ينتظرني في مطعم قريب من منزلي؛ لأني بعد حفلة عيد الميلاد سأصطحبه لبيتي؛ لأنه أضاع مفاتيح بيته. (أجابه هاني وهو متردّد جداً ومرتبك)

– ولَمَ لم يأتِ معكم لبيت المجنيّ عليها؟ وذهب بمفرده؟

– قال لي أنه يريد الذّهاب لعيادة طبيب القلب فلديه موعد، ثمّ سيذهب لشراء هديّة لنيرمين.

– ألم تتّصل معه هاتفياً لتعرف إن كان سيأتي أم لا؟

– لا يا سيدي لأنَّ هاتفه الخلوي ضاع هو والمفاتيح.

– يا سبحان الله...أضاع هاتفه أيضا! يوجد سرّ في ضياع المفاتيح والهاتف معاً. حسناً أريد منك يا هاني أن ترشد رجال الشّرطة للمطعم القريب من منزلك، لنلقي القبض على أمين ونرسله لقسم الشّرطة.

– يا سيّدي أنا متأكّد أنه بريء. وأخاف عليه أن يُصاب بأزمة قلبيّـــة إذا تمَّ القبض عليه.

– سنحقق معه ونعرف أين كان وقت حدوث الجريمة، وإذا كان بريء سيتبيّن معنا على الفور، لكن قل لي ما مشكلة قلبه؟

– يا سيّدي هو مريض بالقلب، وأيَّ توتّر أو ضغط نفسيّ سيؤثّر على قلبه وعلى حياته.

– لا تقلق... سأنبّه رجال الأمن أن لا يستعملوا معه الشدّة والعنف أثناء القبض عليه.

ثمَّ قال رامي للضّابط: "ونحن أيها الضّابط هل نذهب أم نأتي معكم لقسم الشّرطة (المخفر)؟"

– لا أشكرك، اذهبوا إلى بيوتكم وإذا أردناكم سنرسل وراءكم لإحضاركم.

فغادر الضّابط المستشفى بعدما أخبر الطّبيب أنه سيأتي في وقت لاحقٍ لإكمال الاستجواب مع نيرمين، سيتركها ترتاح قليلاً من الصّدمة. ويعود لقسم الشّرطة لإكمال الإجراءات اللازمة.

أما هاني فركب بسيّارة الشّرطة، وذهب لإرشادهم إلى طريق المطعم. فقال هاني للشّرطيّ المكلّف بالقبض على أمين: "أرجوك يا سيّدي عندما نصل دعني أدخل أنا المطعم وأخبر أمين وأحضره لسيّارة الشّرطة، من دون أيّ إشكالات أو أن نسبّب له القلق".

فأجابه الشّرطي: "اسمع يا هاني نحن نعرف أنك قلق على صديقك، لكن هذا واجبنا ولا نستطيع أن نكلّفك بالمهمة أنت، فالمسؤوليّـــة تقع على عاتقنا وسنُعاقب إذا حدث شيء ما؛ لأننا نكون قد تهاونّا بالوضع وبالجريمة واستهترنا بالمجرم".

– لكن أنا واثق أنَّ أمين بريء، ولن يحدث شيء يجعلكم تُعاقبون من أجل الاستهتار.

– نحن لا نضمن براءته، ومن الممكن أن يهرب في حال عرف أننا خارج المطعم ننتظره، أنت ستنتظر بالسيّارة، وأدخل أنا للمطعم وبهدوء وأحضره، لا تقلق لن أسبّب له إرباكاً أو خوفاً، لقد أخبرني الضّابط عن وضع صحّته.

أما رامي فقال للفتيات: "ما رأيكنَّ أن أوصلكنَّ لبيوتكنّ، وسأذهب لقسم الشّرطة لأطمئنَّ على أمين".

فقالت ديالة "لا دعنا نذهب معك يا رامي نحن أيضاً قلقون، وأنا لا أصدّق أنّ أمين الفاعل؟"

قالت منال: "وأنا أيضاً سأذهب معك يا رامي، وسنعود سويّاً للمترل ".

فقال رامي:"أنتنَّ فتيات ولا يجوز أن تتواجدن بمكان كهذا وفي اللّيل".

– أرجوك يا رامي لا تقلق فنحن سويّاً، ولن يحصل شيئاً... قالت ديالة.

فقال رامي: "حسناً سنذهب سويّاً، وأنتِ يا ريم لم أعرف ماذا تريدين، أراكِ صامتة".

فقالت له ريم: "آه..لا أدري، أنا خائفة أريد أن أسمع أنَّ أمين بريء وأطمئنّ عليه، وأخشى أن أذهب معكم فيتبيّن لي أنه هو المجرم، فسأموت هناك على الفور في قسم الشّرطة".

–لا تقلقي يا ريم، يجب أن تكوني واثقة من براءة أمين، مستحيل أن يكون هو المعتدي أنا أستبعد الموضوع كليّـــاً.

ثمَّ سأل رامي نسرين: "وأنتِ أيضاً يا نسرين، لم أعرف هل تريدين المجيء معنا أم ستذهبين للبيت؟"

فأجابت نسرين بكلِّ حزن: "لا أدري كما تشاؤون".

فقال لهم رامي: "هيا سنذهب سويّاً لقسم الشّرطة، وإذا تأخّر الوقت سأوصلكنَّ إلى بيوتكن، هيّا لنطمئنَّ على أمين".

وصلت سيّارة الشّرطة من دون أصوات ولا أضواء، ووقفت بكلِّ هدوء أمام باب المطعم، فقال هاني: "أرجوك يا سيّدي دعني أنزل معك، سأدلّك على أمين إن كان موجوداً"

– لا...ابق بالسيّارة، ولا تتفوّه بكلمة واحدة عندما أُحضر أمين أفهمت؟

– يا سيّدي أرجوك، سأدخل معك المطعم ولن أتفوّه بكلمة واحدة أمام أمين بل أبقى صامتاً.

– هيّا، لكن إيّـــاك أن تخبره بشيء.

– حاضر سيّدي.

فنزل الشرطيّ من السيّارة وبجانبه هاني، ثمّ دخلا المطعم. فسأل الشّرطيّ هاني: "انظر جيداً هل أمين يجلس هنا".

فقال هاني: "نعم،إنه على تلك الطاولة على يمين الصالة بجانب النّافذة، يقرأ الصّحيفة".

هاني كان قلقاً جداً ومتوتّراً، وكأنه هو الذي سيتمُّ القبض عليه وليس أميناً. أما أمين كان يجلس وغارقاً في قراءة الصّحيفة، ولم ينتبه أن أحداً متوجّهاً لطاولته. كان يُسلّي نفسه منتظراً هاني. ثمّ سمع صوتاً بجانب طاولته يقول له: "مساء الخير يا أمين" فرفع أمين رأسه للأعلى ليرى من يقف بجانب طاولته مُلقياً عليه التحيّة. ففوجئ بالشّرطيّ وبجانبه هاني.

ثمَّ أجاب الشرطيّ ببطء واندهاش: "مساء النّور" فوجّه أمين سؤاله لهاني: "ما المشكلة يا هاني؟"

فأجابه هاني: "لا أعرف" بكلِّ برود، لكنَّ عيونه تحكي كلاماً ليس بالمفهوم، وأمين شعر أنَّ في عيون هاني وفمه كلاماً عجيباً.

فقال له الشرطيّ: "أتسمح لنا ببعض الوقت من فضلك وتأتي معنا؟"

فأجابه أمين بثقةٍ: "نعم بالتأكيد". ووضع أمين الصّحيفة من يده، وبجانبها ثمن العصير الذي تناوله، وحمل الكيس الذي بداخله الهديّة وذهب معهم لخارج المطعم، فنظر أمين لهاني وقال له: "أمتأكدٌ أنك لا تعرف؟"

فنظر هاني بعيون أمين، ليحاول معرفة إن كان هو المجرم أم لا؟ فرأى بعيونه راحةً وبراءة، وليست بعيون مجرم يشعر بالتوتّر والقلق من رؤية الشّرطة، وبقي صامتاً لم يجيبه.

فأدخل الشرطيّ أمين إلى السيّارة في المقعد الخلفيّ، وسحب يديه ووضع فيهما القيود الحديديّة. فشعر أمين برهبة وقلق وأيقن أنه هو المطلوب، كان يعتقد بالبداية أنهم يريدونه لأمر عابر. ثمّ قال الشرطيّ لهاني: هّيا ادخل واجلس بجانب صديقك، وأغلق الشرطيّ الباب وجلس بالمقعد الأمامي بجانب الشرطيّ السّائق.

نظر أمين إلى هاني وقال له بصوت غاضب وهو مرتبك:"أرجوك هاني أخبرني ماذا يجري؟"

– توكّل على الله يا أمين لا تقلق.

فقال أمين: "لـــمَ أنا مكبّل ومقيّد هكذا؟ هل أنا متّهم بقضيّة ما؟ وإذا كنت أنا المتّهم والمقبوض عليّ لـــمَ أنت بسيّارة الشّرطة معي؟"

أزاح هاني بنظره وأدار وجهه عن أمين ولم يجبه بأيّ إجابة. فتنهّد أمين وأنزل برأسه ونظره للأسفل حزيناً، يشعر أنه تائه ولا يفهم شيئاً، وقال: "هل والدا ريم علموا بعقد قراني عليها واعتبروا الموضوع جريمة وأبلغا الشّرطة؟...هاني انظر إليّ وأجبني! حسناً يا هاني لا تريد إخباري، لن أستعجل الجواب سنصل وأعرف" وكان الحزن يأكل وجهه.

وصلت سيّارة الشّرطة للقسم، ومسك الشّرطي بذراع أمين ودخلا، وهاني يسير وراءهما، ويحمل كيس الهديّة ومعطف أمين الكحليّ ليضعهما بالأمانات في قسم الشّرطة.

مشى أمين ممرّاً طويلاً هو والشّرطي حتى وصلا إلى مكتب الضّابط المسؤول عن القضية. فأخبر الشّرطي الحارس المأمور الذي يقف عند باب الضّابط أنّ أمين قد وصل وتمَّ إحضاره. فقال

له الضباط: "لينتظر مع الشّرطي في المكتب المجاور عشر دقائق؛ لأنني مشغول بإجراء مكالمة هاتفيّة".

فأخذه الشّرطيّ وأدخله وهو مقيّد اليدين مكسور الخاطر، فتفاجأ بوجود الجميع، وأخذ ينظر إليهم واحداً تلو الآخر، ريم.. ديالة.. منال.. نسرين.. رامي.. هاني، كان الجميع ينظرون إليه بنظرات غير واضحة ولا مفهومة وبعضها تدّل على الشّفقة. فتردّد أن يكلّمهم، وبقي صامتاً وكأنّ الكلام عالق في حلقه، ثمّ جلس على كرسيّ موجود في الغرفة، لأنّ أرجله لم تعد تحمله. فعاد ونظر لريم لعلّه يقرأ بعيونها الأمان أو تريح باله، لكن ما إن نظر إليها حتى أخذت تبكي وأدارت وجهها بيأس عنه، فشعر بأنّ الموضوع أكبر مما يُتصوّر، فنظر إلى منال وقال: "ماذا فعلت لتنظروا إليَّ هكذا"؟ فقالت له منال: "أنت بريء يا أمين لا تقلق". فأنزل أمين رأسه وشعر بالخزيّ كالمجرم النّادم، وأخذ ينظر إلى يديه المقيّدتين، وفي قلبه حُرقة من الموقف الذي وضع فيه.

ثمَّ اقتربت منه ريم ووضعت يدها على كتفه، وقالت له: "حاول أن تظلَّ متماسكاً يا حبيبي، إن شاء الله سنخرج معاً من هنا بعد قليل".

نادى الضّابط عليه لإدخاله للاستجواب، فدخل أمين وحزن شديد في عينيه، ثمَّ فكَّ له الشرطيّ قيوده.

فقال له الضابط: "أنت أمين؟"

– نعم يا سيّدي...

– أعطني بطاقتك الشّخصية إذا سمحت، وتفضّل واجلس.

فأخرج أمين بطاقته من محفظته وأعطاها للضّابط. فدوّن الضّابط كلَّ المعلومات اللازمة عنه وصوّرها واحتفظ بها. وقال له: أين كنت ما بين السّاعة السّادسة إلاّ ربعاً والسّادسة؟

– كنت يا سيّدي أمشي؟

– تمشي...! مع من؟

– وحدي.

– وحدك وفي البرد القارس تمشي؟

– كنت أشعر بضيق شديد وملل، فقرّرت أن أمشي من عيادة طبيب القلب للمطعم القريب من منزل هاني، الذي أخذتموني منه.

– ومن يشهد أنك في تلك السّاعة كنت تمشي؟ هل رأيت أحداً بالطّريق؟

– لا يا سيدي لم أرَ أحداً ولم أكلّم أحداً، كنت أمشي وحدي وببطء، فأخذت المسافة معي وقتاً طويلاً، والله شاهد على كلامي.

– كم كانت السّاعة عندما خرجت من عيادة الطّبيب؟ ومتى وصلت المطعم؟

– كانت...كانت حوالي الخامسة وعشر دقائق، وصلت على السّادسة والنصف تقريباً.

– أيُعقل أن تأخذ معك الطّريق ساعة وثلث دون أن تشعر بالتّعب؟

– لا سيّدي شعرت بالتّعب، حينما وصلت وجلست في المطعم، شعرت كم أنا متعب ومرهق، لكن وأنا أسير لم أشعر بالتّعب لأني كنت غارقاً بالأفكار ومتضايقاً قليلاً.

- لـــمَ لم تذهب إلى بيت هاني بعد الانتهاء من عند الطّبيب كما اتّفقتم؟ مع أنّ الوقت ما زال مبكّراً ولم تتأخّر عليهم!
- قلت في نفسي سأمشي وبعدها أُقرّر، هل أذهب لهاني أم للمطعم؟ لكن فور وصولي المنطقة التي يسكن بها هاني، قرّرت أن أتوجّه للمطعم؛ لأني أشعر بالانزعاج ولست مستعدّاً للمجاملة بالحفلات وأشعر بالضّيق، أريد الجلوس بمفردي بعيداً عن أيِّ أحد أعرفه.
- إذن أخبرني الآن أين البدلة البنيّة التي كنت ترتديها؟
- لم أرتدِ بدلة بنيّة اليوم. منذ الصّباح وأنا بقميصي هذا الأبيض وهذا البنطال الجينز.
- كيف كنت تسير بالشّارع وبهذا الجوّ البارد وأنت ترتدي قميصاً فقط؟
- لا يا سيّدي كنت أرتدي فوق القميص معطفاً، لكن الشرطيّ سحبه عندما أراد وضع القيود الحديديّة في يدي وأعطاه لهاني.
- ما لون المعطف؟
- كحليّ اللّون.
- لم يكن بنيّاً إذن؟
- لا يا سيّدي أبداً.
- وأين البدلة البنيّة؟
- يوجد عندي بدلة بنية، لكن هي بالبيت كنت فعلاً أريد أن أرتديها لحفلة اليوم، لكن ضاع مفتاح منزلي، ولم أستطع العودة للبيت وتبديل ملابسي.

فبدأ الضّابط يهزُّ برأسه ويقول: "نعم... نعم "وكأنه توصّل إلى شيء. وقال لأمين: "كلّ كلامك السّابق سأنساه الآن، لأنك ستشرح لي بوضوح وتقول لي كلاماً يُصدّقه العقل" وأخذ الضّابط ينظر لأمين بنظرات قاسية وشديدة، يريد إخافته ليأخذ منه إجابة لربما تكون قريبة من الحقيقة. فارتبك أمين وشعر بالقلق للتغيّر المفاجئ الذي حصل للضّابط، وفجأة وجّه الضّابط سؤاله مباشرةً لأمين وبطريقة شديدة تحمل نبرة عنف وقال: "لـــمَ؟ وكيف اُغتصبت نيرمين يا أمين؟".

سؤال كهذا جعل أمين في حالة دهشة مؤلمة ممزوجة بطعم الخوف والرّهبة .

للوهلة الأولى لم يستطع أمين أخذ أنفاسه ولم يعرف كيف سيجيب على الضّابط، وشعر بتوتّر كامل وأخذت أطرافه (تنمنم)، وبعد حالة صمتٍ استغرقت ثوانٍ، أجاب أمين بتلعثم: "إِ... اُغتصبت نيرمين؟ أنا... لا..أنيرمين... اُغتصبت، متى؟!

كان سؤال الضّابط كصدمتين على أمين، الأولى صُدم عندما سمع باغتصاب نيرمين، والثّـــانية أنَّ الاتّهام موجّه له، هذا ما زاد توتّره.

- اسمع يا أمين، أريدك أن تعترف وحدك ولا تُجبرنا على استعمال العنف معك.

وأنت أدرى بصحّتك منا، فإذا كنت متعاوناً ستبقى بأمان ولن تتدهور حالتك الصحّية، أما في حالة عنادك وإخفائك للحقيقة، سنضّطر لستخدام أساليب أخرى معك.

- يا سيّدي لا داعي لهذا الكلام كلّه، أنا لم أفعل شيئاً أبداً ولم أرَ نيرمين من بعد الظّهر.

(يتكلّم أمين ويداه ترجفان ويشعر بتوتّر وبإرهاق، لكن يُحاول إخفاء خوفه).

- ما رأيك برأس المهرّج؟
- رأس المهرّج...! ماذا تقصد؟
- القناع؟
- أيَّ قناع؟! (وتزداد الرّهبة والرجفة وخفقات قلبه ستنفجر)

فأجابه الضّابط بلهجة غضب: "أنت تعاند يا أمين...وتحاول إنكار كلّ الأمور".

- والله العظيم يا سيّدي لا أنكر شيئاً، ولا أعرف عن الموضوع شيء بأكمله، لقد تفاجأت من قصّة اغتصاب نيرمين.
- يا حرام مسكين! على كل حال البحث الجنائيّ سيدرس الأدلّة الموضّحة بحدوث الجريمة، كما أنَّ الطبّ الشرعيّ سيثبت بدراساته أموراً كثيرة بعد المعاينة. لذا ستُحتجز اللّيلة عندنا هنا بما أنك المشتبه الوحيد في هذه الجريمة، وبعدها سنعرف إن كنت المعتدي أم لا. كما نريد منك الآن إجراء فحصاً مخبريّاً لنقارنهُ مع نتائج الطّب الشرعيّ.
- يا سيّدي، هذا لا يُعقل! لست...

فقاطعه الضّابط بعصبيّة: "كفى هذا الآن، هيّا قم من أمامي"

- هل تسمح لي بسؤال أيّها الضّابط؟
- نعم؟
- لماذا أنا بالتحديد موجّه إليَّ الاتّهام؟ هل يوجد دليل ضدّي الآن؟ أنا مظلوم...
- أكبر دليل ضدّك هو أنَّ نيرمين نفسها قالت أنك من اعتديت عليها بالضّرب والاغتصاب... أتريد أوضح من هذا الدّليل؟
- لا أُصدّق، كيف ذلك...؟!
- أتجهل نيرمين هويّة من اغتصبها؟!
- لا يا سيّدي، لا بدّ من سرٍّ بالجريمة وصدّقني أنا مظلوم.
- كلّ جريمة تُخبـــّئ بدخلها أسرار، لا تخف سيتّضح كلّ شيء بعد المعاينة، الآن ستذهب مع الشرطيّ لغرفة الحجز المؤقّت حتّى صباح الغد، وسنرى!

ونادى الضّابط على الشرطيّ المأمور لأخذ أمين وحجزه. فجاء الشرطيّ ووضع القيود مرّة أخرى بيديه وسحبه من ذراعه بقوّة.

بدأ أمين يشعر بضيق في صدره وخلل بدقّات قلبه، أصبح وجهه أصفر اللّون باهتاً، وفي عروق عينيه يحبس الدّموع لكي لا يُظهر ضعفه أمام أحد، وأخذ يمشي والشرطيّ يشدّه من ذراعه في ممرٍّ طويل ليوصله لغرفة الحجز، فمرَّ أمين من أمام أصدقائه الذين ينتظرونه ويريدون الاطمئنان عليه.

وما إن رأينه هاني ورامي حتّى قالا له: "ماذا حصل يا أمين طمئنّا، أخبرنا"؟!

نظر أمين إليهما وأعاد بنظره نحو الأرض، لا يستطيع الكلام فهو متعب، وليس هناك كلمات تسعفه، وفي عينيه ألم وبكاء يقف على حافّة عينيه. ثمّ نظر إلى ريم فنظرت له بحزن وشفقة

دون أن تتكلّم ولا حتى صديقاها، فلم تستطع أيَّ واحدة منهنّ التكلّم معه، وأدخله الشرطيّ غرفة الحجز وأقفل الباب، كان بالغرفة حوالي خمسة أشخاص ثلاثة منهم يُدخّنون واثنان ممدّان على الأرض، شبه نائمين.

وقفت ريم بجانب هاني قلقة، وقالت له: "أرجوك هاني اذهب واطمئنّ على أمين، يبدو أنه متعب وجهه شاحب، أخشى أن يكون بحاجة إلى حبّة دواء القلب".

فركض هاني عند غرفة الحجز ونظر من نافذة صغيرة مفتوحة في أعلى الباب، فوجد أمين يجلس على الأرض متضايقاً من رائحة التدخين، ولا يستطيع أخذ أنفاسه بشكلٍ طبيعيّ ويضع يده على صدره متألـــّماً، فأصبح هاني يناديه بخوف: "أمين...يا أمين"

ثمّ ركض هاني إلى غرفة الضّابط مستعجلاً وفتح عليه الباب من دون استئذان. فقال له الضابط: "كيف تجرؤ وتدخل مكتبي من دون إذن؟"

– يا سيّدي أمين في حالة خطيرة، إنه متعب...أرجوك أخرجه من الحجز.

– لا حُجج لإخراج أمين، فهو محجوز لحين ظهور براءته هو الآن على ذمّة التّحقيق.

– يا سيّدي، إنه متعب جداً سيموت إذا بقي داخل تلك الغرفة...ساعده أرجوك.

وقام الضّابط من مكانه وذهب مع هاني لرؤية أمين، وفعلاً رآه متعباً متعرّقاً ووجهه شاحب، فأمر بإخراجه وإعادته للمكتب. ففتح الشرطيّ له الباب وجاء هاني ورامي وقاما بمساعدته على الاتّــكاء عليهما، لكي يستطيع المشي إلى مكتب الضّابط. ثمّ أجلساه على كنبة مريحة من الجلد الأسود رغم أنها مهترئة بعض الشّيء، وفتح له رامي زرّين من أزرار قميصه الأبيض، وأخذ هاني مناديل ورقية وبدأ يمسح له عرقه البارد، وركضت ريم ومعها معطف أمين وأخرجت منه حبّة دواء، وأعطتها لأمين ليتناولها على الفور ويشعر بالتّحسن. أما الضّابط فطلب له كأس ليمون ليشعره بالنّشاط قليلاً ويرطّب به قلبه. ثمّ جلست ريم على طرف الكنبة بجانب أمين وأمسكت بيده فشعرت أنها باردة، فأخذت تفركها لتدفئها، وتحرّك الدّم بها، بدأ أمين يشعر بتحسّن خفيف بعد كلِّ هذه الإجراءات البسيطة، لكن بقي تاركاً جسده مرميّاً على الكنبة، ورأسه مُسْند للأعلى، فهو يشعر بإرهاق شديد، وبدأت دمعاته الحزينة تنزل بكلِّ هدوء على وجهه وهو مغلق عيناه. فلاحظ الجميع دموعه وهم ملتفّون حوله، فقال الضّابط للجميع بصوت عال: "أرجوكم للخارج، ها قد أصبح أمين أفضل حالاً الآن. وكلٌّ واحد لبيته، غداً صباحاً ستطمئنّون عليه فهو في أمان".

عاد الجميع إلى بيوتهم مذهولين من هذا اليوم الغريب.

أما الضّابط فسأله: "كيف أصبحت الآن يا أمين؟"

رفع رأسه وأجاب: "أفضل نوعاً ما، وشكراً يا سيّدي لتعاونك معي".

– اسمع يا أمين سأصنع معك معروفاً، مراعياً ظروف صحّتك، وسأبقيك اللّيلة هنا في مكتبي بدلاً من أن تنام في غرفة الحجز، بشرط أن تبقى إحدى يديك مقيّدة بهذا العامود الحديديّ. وستنام على هذه الكنبة لكن إيّاك ثمّ إيّاك أن تُسيء التصرّف، أو تحاول العبث بأيِّ شيء كان،

فالغرفة مراقبة والحارس مسلّح وراء الباب ومكتب الضّابط المناوب مفتوح بجانب مكتبي سيُراقبك بكلِّ صغيرة وكبيرة، إيّاك وافتعال المشاكل. أتسمع وتفهم ما أمرتك به؟

– حاضر يا سيّدي، أشكرك.

ونادى الضّابط على الشرطيّ ليقيّد يد أمين مع عمود الحديد بالمكتب، وأزاح له الكنبة بجانب العمود لينام عليها.

– هيّا اجلس ونم هنا، وإيّاك... إيّاك، لا أريد المشاكل، وخذ هذا معطفك تغطّى به لكي لا تشعر بالبرد سأراك صباحاً.

وخرج الضّابط وأطفأ الضّوء على أمين وأغلق الباب. ذهب متوجّهاً للمستشفى ليطمئنَّ على نيرمين، ويكمل حديثه معها إن أمكن، ويقابل والديها؟

أما أمين جلس في الظّلام حزيناً، يسأل نفسه: "ما الذي يجري لي؟ من يريد أن يوقع بي هكذا؟ لا أصدّق...غداً ستظهر براءتي بكلِّ تأكيد. هل لضياع المفتاح والهاتف وورقة العنوان علاقة بالجريمة؟ أم هي صُدفة؟ كان يجب أن أبلّغ الشّرطة عن فقدانهم منذ البداية كما قال لي هاني، أو لا أعتقد أنَّ ضياعهم له علاقة بالاعتداء على نيرمين المسكينة... بصراحة لا أعرف، أشعر أنَّ رأسي سينفجر...أُفّ...لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ياربي هل هذا عقاب منك؟ أعوذ بك من عذابك ومن سخطك، وفوق هذا كلّه فاتتني صلاة المغرب، وكيف لي أن أصلّي صلاة العشاء وأنا مقيّد؟ كان عليّ أن أطلب الإذن للصلاة قبل أن يقيّدني،لا مشكلة سأصلّي على وضعيّتي هذه، وليتقبّل الله."

ثمّ دخل أحدهم الغرفة عند أمين، لكن من ظلام الغرفة لم يعرف أمين من الذي دخل، حتى أُشعل الضّوء في غرفة المكتب، إذ به هاني جاء ومعه طعام لأمين، فسرَّ لرؤية هاني وشعر بفرحة في قلبه. وقال له: "كيف سمحوا لك بالدّخول إلى هنا؟"

– لا تقلق طلبت الإذن من الضّابط المناوب، وأخبرته أنني أريد أن أحضر لك الطّعام ولن أتأخّر عندك.

– أشكرك يا هاني لوقوفك بجانبي، أشعر أنك الوحيد الذي يؤمن ببراءتي.

– يا صديقي أنا أثق بك وأعرفك أكثر من نفسي، والآن هيّا تناول طعامك، وعندما تنتهي سأذهب وآتيك غداً.

– أتعرف يا هاني كان إحساسي منذ الصّباح في محلّه، هذا اليوم سيّء ومشؤوم، لا أدري لماذا؟ فمنذ أن استيقظت وأنا مُعكّر المزاج، وقلبي نبّـــأني بيوم سيّء.

– قلب المؤمن دليله يا أمين، لكن تفاءل قليلاً لكي لا يبقى الشؤم يُصاحبك.

– صدقت يا هاني!

– أنا؟ بمَ صدقت؟

– مكتوب عليّ التشتّت كلّما سافرت خالتي؟ عندما كنت صغيراً رجعت خالتي ووجدتني في المدرسة الداخليّـــة في قسم الأيتام. والآن ستعود وتجدني في السّجن مع المجرمين.

- هههههه لا... لا كنت أمازحك يا أمين، كنت أقصد أنك ستتشتّت بدون مفتاحٍ لبيتك وتنام عندي، لا أن تقضي ليلتك هنا.
- لكن المزاح انقلب إلى مصادفة حقيقيّة لمعنى التشتّت.
- كفاك يا أمين، هيّا أكمل طعامك، غداً ستخرج بعد أن تظهر نتائج البحث الجنائيّ، ليلة واحدة هنا لابأس...تماسك وكن قوياً.

بعد ساعة تقريباً ودّع هاني أمين، وقد رفع شيئاً من معنوياته وأخبره بأنّ الجميع بجانبه.

لم يستطع الضّابط أخذ شيء من أقوال نيرمين وإكمال الاستجواب، لقد كانت نائمة بعد أن أعطاها الطّبيب مسكّناً ومهدّئاً لحالتها، لكن استطاع أن يأخذ ملفاً خاصاً عن حالتها، بعد معاينة الطّبيب الشرعيّ لها، وقرّر الضّابط أخذه ليدرسه ويطّلع على الحالة ثمّ يدوّن بعض استنتاجاته عن وضعها وعن الاعتداء والجريمة بشكلٍ عام.

أما والديها فكانا في حالة غضبٍ شديد، وما إن رأوا الضّابط حتّى انهالوا عليه بالأسئلة حول المجرم، وأين وصلت معه التّحقيقاتّ. فأخبرهما أنّ المتّهم محجوز على ذمّة التّحقيق، وستكون الأمور على ما يرام والمجرم سينال جزاؤه ويُعاقب أشدَّعقاب في النّهاية، لكن للآن المتّهم بريء حتّى تثبُت إدانته.

فور وصول هاني لبيته إذ بهاتف منزله يرن، رفع السّماعة مسرعاً ليعرف من المتّصل، وقد قاربت السّاعة على الثانية عشرة في منتصف اللّيل.

- ألو؟
- مرحبا هاني، هل نمت؟
- أهلاً يا ريم، كلاّ لم أنم لقد جئت للتوِّ من الخارج.
- هل تكلّمت مع الضّابط حول أمين وسألته، هل من الممكن أن يكون مظلوماً؟
- نعم، سألته حول رأيه بالاستجواب الذي أجراه لأمين، فقال لي أنه يشعر أنَّ أمين بريء، ولا يبدو عليه خبث المجرمين أو التّمثيل على القضاء أو الكذب، لكن الضّابط لا يستطيع أن يكتفي بما يشعُر به، بل هناك أدلّة وأقوال وبحث جنائيّ يُثبت إما براءته وإما إدانته ووقوعه بالجريمة.
- أعُدتّ إليه بعد أن أوصلتنا لبيوتنا، كما قلت؟
- نعم، وأحضرتُ له الطّعام وجلست معه ساعة وذهبت.
- كيف أصبحت صحّته وقلبه؟
- الحمد لله أصبح أفضل حالاً، وسُرَّ لقدومي إليه وإحضاري الطّعام له، فشكرني وقلت له كلّنا نقف معك ولن نتركك، وحاولت أن أرفع من معنويّاته قدر المستطاع.
- أتشعر أنه بريء حقّاً يا هاني؟
- طبعاً يا ريم، ألا تشعرين أنت هكذا؟ أتُسيئين الظنّ به؟! أمين مسكين يا ريم، امنحيه الثّـــقة، فهو بحاجة إليكِ أكثر من أيِّ وقت آخر، أشعريه أنَّ حبّه لكِ لن يذهب هباءً، وأنكِ ستقفين بجانبه وتبقين تحبّينه لآخر دقيقة.

- حتّى ولو تبيّن أنه هو المجرم؟
- لا تتصوّري أمين بمنظر مجرم؛ لأنه من المؤكّد أنه مظلوم. لا أظن أن هنالك أدلّة ضدّه.
- نعم هو مظلوم أنا أعرف يا هاني... ياربَّ لـــمّ كلُّ هذا؟



الفصل الثامن والعشرون

في الصّباح دخل الضّابط جابر إلى مكتبه، فوجد أمين ما زال نائماً جالساً على الكنبة. فأيقظه بصوتٍ عالٍ.

– أما زلت نائم أيها الشّاب؟

فتح أمين عينيه وهو يشعر بثقلٍ وتعب في جفونه من قلّة النوم وإرهاق شديد وتَيَبُّس بكلِّ جسده، ولم يتكلّم ولا كلمة واحدة.

فسأله الضّابط:"كيف أصبحت؟"

– سيّء... الحمد لله على كل حال. (حتّى إنّ صوته غير مرتاح)

– يبدو أنّ النّوم في مكتبي لم يعجبك. (كان الضّابط يتحدّث مع أمين باستهزاء وهو يرتّب أغراضه وأوراقه فوق طاولة المكتب).

– لا سيّدي النّوم في مكتبك متعة ومغامرة، لدرجة أنّ كلّ عظمة في جسدي أشعر أنها مكسّرة.

ضحك الضّابط وقال له:"هذا أفضل بكثير من النّوم في غرفة الحجز وعلى الأرض!"

– نعم هذا مؤكّد، أشكرك يا سيّدي.

– سأطلب لك كأس شاي لتستعيد نشاطك، وتستعدّ للتحقيق بالتّفاصيل الجديدة، وسنصل لنتيجة اليوم.

– اسمح لي يا سيّدي بالذّهاب للحمام قليلاً.

فنادى الضّابط على الشرطيّ وقام بفكِّ قيوده وأخذه للحمام. فدخل أمين الحمام ثمّ خلع قميصه الأبيض، وقميصه القطنيّ الداخليّ وعلّقهم جانباً، ورغم البرد الشّديد أنزل رأسه تحت صنبور الماء البارد ليغسل رأسه ووجه ويشعر بالنّشاط ويصحو لهذا اليوم العصيب. ثمّ أخذ قميصه القطنيّ الدّاخلي (الفنيلة) ونشّف به رأسه ووجهه، وارتدى قميصه الأبيض وفوقه المعطف الكحليّ، وترك الفنيله معلّقة بالحمام لأنها أصبحت مبلّلة...

ثمّ خرج مع الشرطيّ وأعاده لمكتب الضّابط.

– هل استعدتّ حيويّتك ونشاطك؟

– نوعاً ما يا سيّدي، هل تبيّن معك أيها الضّابط أموراً جديدة توضّح التباس الجريمة؟

– يا أمين القضية بحاجة إلى دراسة أكثر مما تتصوّر، وكلّما تبيّن معنا شيء تزداد الأمور تعقيداً، لأنّ كلّ ما نلمسه الآن مجرّد أطراف خيوط متشابكة. فما إن أخرجنا طرف خيط ومسكناه واستطعنا توضيح أمر ما، حتّى نفكّ كلّ الخيوط وعند فكّها ستتبيّن معنا الحقيقة.

– وكم من الوقت ستأخذ منك هذه الخيوط؟

– ربّما تفكُّ كلّها اليوم، وربّما تأخذ أسابيع، لا أدري حسب الغموض الموجود بالقضيّـــة.

– وحسب خبرتك أيها الضّابط ونظرتك على الجرائم، ماذا ترى في قضيتي؟
– أمين أنت تكثر من الكلام وكأنك تستجوبني، احفظ حدودك ولا تكثر أسئلتك.
– آسف يا سيّدي، كنت أريد الاطمئنان فقط.
– ملف المعلومات الشخصيّـــة عنك جاءني قبل قليل، قرأت بعضاً منه وسأكمله الآن، لكن أريد منك الآن الذّهاب مع الشرطيّ لغرفة الحجز؛ لأستطيع إكمال الإجراءات اللاّزمة، على ما أعتقد أنك الآن أفضل حالاً من البارحة، وبعدما أنتهي من بعض التفاصيل سأحضرك لاستجواب آخر.

وأخذ الشرطيّ أمين ووضعه بغرفة الحجز وأغلق الباب.

جلس أمين حزيناً يفكّر متى من الممكن أن يخرج من هنا؟ وهل يُعقل أن يتحمّل هو ذنب جريمة لم يقترفها؟

جاء هاني وأسامة ورامي لقسم الشّرطة للاطمئنان على أمين وأحضروا له إفطاراً، وطلبوا الإذن من الضّابط لرؤيته، لكن الضّابط منعهم من الدّخول ثلاثتهم، وأخبرهم أن يدخلوا واحداً واحداً، ولكلّ شخص يراه ثلاث دقائق فقط لا أكثر. فدخل أسامة أوّل واحد وأدخل له طعام الإفطار.

"صباح الخير يا أمين "ووضع أسامة الإفطار.

التفت أمين فرأى أسامة، فسرَّ لقدومه ورؤيته. وقال له: "أهلاً يا أسامة أنا سعيد لرؤيتك. أشكرك على الإفطار لكن ليس لديّ رغبة بالطّعام."

– لا أعرف يا أمين كيف أواسيك أو أرفع من معنوياتك، وأنا أثق أنك بريء وأعتقد أنَّ هناك لبس ما في الجريمة، لكن كلّ ما أستطيع قوله أن تجعل ثقتك بالله كبيرة وقوّي إيمانك به، فهو ناصر المظلومين، وإن شاء الله ستكون من المنصورين ولو بعد حين. وهذا الفطور من رامي ومنال. أرجوك انتبه إلى نفسك يا أمين ولا تجعل هذه الأمور تضغط على نفسيّتك وصحّتك، ابق قوّياً صامداً، ولابدَّ أن تأكل لتقوى على التحدّي.

ثمّ نادى الشرطيّ على أسامة لإخراجه.

– إلى اللّقاء يا أمين الآن. نراك إن شاء الله بيننا قريباً.
– إلى اللّقاء أسامة...

ثمّ دخل رامي بعدما خرج أسامة وجلس بجانب أمين على الأرض.

– صباح الخير يا أمين، كيف أنت اليوم!
– لا بأس، كما ترى.

لم تغادر علامات الحزن وجه أمين ولا عينيه البريئتين اللّتين تتلألآن أملاً وطيبة.

وأكمل أمين "لماذا جئتم الآن وتركتم الجامعة؟" لو أنكم جئتم بعد الدّوام لكان أفضل".

– لا مشكلة سنعوّض المحاضرات، كما أننا نريد أن نراك ونحضر لك الفطور.
– شكراً لكم، أنا أشعر بالإحراج.
– لا يا أمين ولـــمّ الحرج؟ لا تقلق وكفاك حزناً أنت واثق من نفسك وأنك بريء، إذن لـــمَ

الخوف والحزن...ستخرج.

- صدّقني يا رامي أنا مظلوم بهذه القضيّـــة.

فهزّ رامي رأسه وابتسم، أعرف وأثق بك صديقي.

ثمَّ نادي الشرطيّ على رامي، فدخل بعده هاني ومن دون أن يتكلّم ولا كلمة واحدة. جلس بجانب أمين وهو صامت ونظر في عينيه، ثمّ قال له: "أرى أنهم أعادوك إلى هذه الغرفة الحقيرة"

فأجابه أمين بتنهّد "نعم...قبل قليل، لا مشكلة فأنا أُعدُّ من المجرمين الآن والقوانين التي تسير عليهم تسير عليّ".

- يا أمين سنحاول إخراجك اليوم، هل تعرف محامياً بارعاً لنوكّله بالقضية؟
- آآه...أنا أُوكّل الله عزَّ وجل.... حسبي الله ونعم الوكيل فقط لا غير.
- نعم، والنّعمَ بالله، لكن اعقل وتوكّل، سأخبر أبي أن يرى لك محامياً بارعاً قبل أن تتحوّل القضية للمحكمة.
- أستصل القضية للمحكمة؟!
- طبعاً كلُّ قضيّـــة ستصل المحكمة عاجلاً أم آجلاً.
- يا هاني أخبر شؤون الطّلبة بالجامعة أنني معتقل حالياً ولن أستطيع الدّوام لهذا السّبب، لأني لا أعرف كم يوماً بالتحديد سأحتجز هنا.
- إن لم تخرج اليوم سأخبرهم غداً، أما إن خرجت فلا داعي، غياب اليوم سيُحسب مجرّد تغيّب عادي.
- كيف هي ريم؟ أرى بعيونها نظرة اتّهام وكأنها تُصدّق أنني أنا الفاعل!
- ريم صُدمتْ من منظر نيرمين...بصراحة كلّنا صُدمنا من الموقف، وبالأخصّ عندما سأَلتُها أنا من فعل بكِ هكذا؟ فأجابت نيرمين إنه أمين، فصرخت ريم خائفة متوتّرة وصُدمتْ بما شاهدتْ وسمعتْ.
- أرجوك هاني، أخبرها أني بريء ومظلوم وأكّد لها ذلك.
- هل أحضرها لك بعد الجامعة؟
- لا...لا تحضرها إلى هنا، فهو مكان غير مناسب للفتيات، كما أنني أخشى رؤيتها هنا، وأخشى من رؤية نظراتها كما البارحة... ونادى الشرطيّ على هاني وطلب منه الخروج.

***

وصلت الخالة علياء مع عائلتها من سفرتها الصّغيرة حوالي السّاعة الثانية عشرة ظهراً.

وبدأت تُرتّب الأغراض وتفرّغ الحقائب إذ بهاتف منزلها يرنّ.

- ألو؟
- ألو خالة علياء أنا هاني حمداً لله على سلامتكِ متى وصلتم؟
- أهلاً هاني، لـــمَ تتكلّم بسرعة؟
- أنا مستعجل وأريد منكِ شيئاً، لقد اتّصلت معكِ أكثر من مرّة...
- تفضّل بمَ أستطيع مساعدتك؟

– هل معكِ مفتاح منزل أمين؟
– نعم، ولماذا؟ هل أُصيب بسوء؟!!
– لا، هي قصّة طويلة يا خالتي، لا أريدكِ أن تقلقي.
توتّرت علياء وسألت هاني بخوف: "هل جرى لأمين شيء؟"
– لا، إنّه بأمان اطمئني، لكن أضاع مفتاح منزله.
– ولماذا لا يُكلّمني هو ويسأل عن المفتاح؟ كما أنه يعلم أنّ لديّ مفتاح إضافي؟ قل لي أين أمين الآن؟
– يا خالتي قلت لا تقلقي... هو بأمان.
– لا... أشعر أنَّ هناك شيئاً ما! أرجوك قل لي الحقيقية؟ لا تكذب!
بدأ يتلعثم هاني بكلامه: "هو...هو... بقسم الشّرطة... بالحجز".
صرخت الخالة: "ماذا؟ ما الذي جرى؟ ماذا يفعل بقسم الشّرطة؟"
– ألم أقل لكِ أنها قصة طويلة لا تقلقي وحسب، لكن الضّابط يريد مفتاح منزل أمين، لأنّ البحث الجنائيّ يريد أن يبحث عن شيء ما في منزله، وبصراحة لا أعرف ماذا يريدون بالتّحديد، لم يخبروني.
– لقد أخفتني... أريد أن أراه...ماذا حدث بالتّحديد؟
– بعدما يأتي البحث الجنائيّ لمعاينة المنزل سنذهب لزيارته، الآن اهدئي ولا تقلقي هو جيّد والحمد لله، ولم يفعل شيئاً.

***

يعود الضّابط لملف الطبِّ الشرعيّ بعدما قام بقراءته ودراسته اللّيلة الماضية. ويشرح للعقيد بالبحث الجنائيّ النتائج، ليبدأوا بربط الأمور مع بعضها وتحليلها.

فيسأل العقيد (رأفت) الضّابط (جابر) ويقول له: "ماذا تبيّن معك بعدما قمت بقراءة المعاينة ونتائج الطبّ الشرعيّ؟"

– أتعرف أيها العقيد رأفت. يبدو أنَّ القضيّة معقّدة قليلاً. فالنّتائج كالتّـــالي:

أولاً: تبيّن أنها حالة اغتصاب كاملة ممّـــا أدّى إلى فقد الفتاة عذريّتها ونزفها لدرجة كبيرة.

ثانياً: الفحوصات المخبريّة لم تُظهر نتائج الحمض النوويّ للجاني لعدم وجود سائل ممّا يدل على أنّ المعتدي كان قد استعمل واقياً ذكريّاً.

ثالثاً: لا بصمات على جسد الفتاة أبداً، مما يدّل على أنّ المعتدي كان يلبس قفّازات.

رابعاً: ثلاث ضربات مبرحة في الوجه، وضربة أسفل الوجه قريبة من الذّقن وكدمات على الجسد.

خامساً: وقوع جريمة الاعتداء حوالي السّاعة السّادسة مساءً تقريباً.

هذا كلّ ما لديّ من نتائج للآن، وأنت ماذا تبيّن بعد كشف البحث الجنائيّ في منزل المجنيّ عليها؟

– يا سيدي، رفعنا آثار حذاء المجرم والمقاس وشكل الحذاء من الأسفل لكن لم يكن في البيت أثراً لبصمة يد غريبة أبداً، ولا حتّى بصمة يد أمين. من المؤكّد أنّ المجرم كان يلبس القفّازات قبل دخوله المنزل. لكنّ الشيء المهم الذي وجدناه هو حرف(R) هذا.

وهو ميداليّة لمفتاح ويبدو أنها سقطت من مفتاح أحدهم، وقد عثرنا عليها على الأرض بحديقة منزل المجنيّ عليها، والأهم أنها تحمل بصمة إصبع أمين الإبهام والسبّابة ليده اليمنى. مما يدلّ على أنه تواجد في منزل نيرمين، لكن بقي أن نقارن بصمة الحذاء الموجودة معنا ببصمة حذاءه ومقاسه.

– لنقل أنّ أوّل دليل ضدّ أمين هي ميداليّة الـــ (R) أيّها العقيد؟

– ليس بالضرورة، الدّليل ضعيف ونريد أن نذهب أنا وفريق البحث الجنائيّ لمنزل أمين، للتأكّد من وجود بدلة بنيّة وقميص (كاروهات) برتقاليّ عنده، كما قالت المجنيّ عليها نيرمين، وسنأخذ البدلة ونرسلها لمعمل البحث الجنائيّ لدراسة أيّ آثار أو بصمات ليد نيرمين عليها، هذا إذا عثرنا عليها.

– هذا مؤكّد... أنا أخبرت صديقه هاني ليجهّز لنا مفتاحاً، حتّى نستطيع دخول بيت المتّهم.

– حسناً، اتّصل بهاني وأخبره أننا قادمون الآن إذا كان بالإمكان.

وفعلاً اتّصل الضّابط جابر بهاني، وأمره أن ينتظرهم خارج المنزل وأن لا يدخل أحد لمنزل أمين قبل وصول الشّرطة، وفعلاً انتظرهم هاني ومعه الخالة علياء في بيتها.

وصلت سيّارة الشّرطة مع البحث الجنائيّ، وقفوا عند باب عمارة أمين ونزل فريق البحث الجنائيّ وعلى رأسهم العقيد رأفت، وصعدوا للطّابق الأخير حيث منزل أمين. وفتح لهم هاني باب منزل أمين وأدخلهم، وبدأ الفريق ينظر ويتأمّل كلّ زاوية من زوايا البيت ويدخل كلّ غرفة، فرأى الضّابط هاتف أمين الخلوي على طاولة في غرفة الجلوس.

فقال لهاني: "أليس هذا الهاتف لأمين؟ إنه مغلق".

أجاب هاني مستغرباً: "نعم، إنه هو".

– هل كان مع أمين البارحة في الجامعة قبل أن يفقده، أم تعتقد أنه نسيه بالبيت ولم يأخذه؟

– بصراحة أيها الضّابط لقد كان معه البارحة؛ لأنني رأيته يتكلّم به مع خالته في الصّباح، ثمّ وضعه في جيبه وبعد ذلك فُقد ولم يُعثر عليه.

فقال الضّابط: "ربّما أخفاه أو تظاهر بضياعه، لكي يتحايل عليكم أنه ضاع.

– لا أعتقد...أمين لا يفعل مثل هذه الألاعيب.

فوجّه العقيد سؤاله للخالة علياء وقال لها: "هل أمين تكلّم معكِ فعلاً من الخلويّ صباح البارحة؟"

– نعم، قال أنه بالجامعة وكان يريد الاطمئنان على صحّتي لأني سافرت وأنا متعبة قليلاً، فطمأنته بأني أفضل..

ثمّ أخذ العقيد رأفت الخلوي ووضعه بكيس شفّاف من البلاستيك الخفيف، وأكمل البحث والتأمّل زاوية زاوية في البيتحتّى وصل لغرفة نومه، وأمر الشرطيّ بفتح خزانة أمين والبحث عن

بدلة بنية وقميص برتقاليّ، وفعلاً فتح باب الخزانة فسقطت عين العقيد رأفت على البدلة البنيّة والقميص كان معلّقاً معها، ويظهر أنهما تعلّقا بسرعة وبطريقة غير مرتّبة ومختلفة عن باقي الملابس، لأنّ باقي الملابس معلّقة بأناقة، فأخرج العقيد البدلة وأصبح يتأمّلها، فوجد على البنطال البنيّ بقعة غامقة جافّة يظهر أنها بقعة دماء، وعلى طرف كُمِّ القميص بقعة دماء أخرى، ففتح الشرطيّ كيساً وقام العقيد رأفت بوضعهما به.

فقال له هاني: "هل تريد أخذها يا سيّدي؟"

أجابه العقيد: "نعم، بالتّـــأكيد فعليها بقعة دماء نريد أن نتأكّد من زمرة الدّم الذي عليها وعلى نوعيّته"

ثمّ أعاد النّظر في داخل الخزانة فوجد بالأسفل أحذية مختلفة، من ضمنها حذاء بنيّ اللّون، فحمله العقيد وأخذ ينظر إليه، فبدا له أنه نفس شكل الحذاء من الأسفل الذي تمّ أخذ بصماته من بيت نيرمين.

وفتح العقيد كيساً آخر ووضع به الحذاء، ليتحقّق من شكله في معمل البحث الجنائيّ. بدأت الخالة علياء تشعر بالقلق وفهمت أنّ أمين تورّط في جريمة ما، لكن بقيت صامتة ولم تتكلّم مع أنّ قلبها يرجف من شدّة التوتّر. أما هاني فقد أصبح يزداد قلقه وحيرته ويخشى من أن يكون أمين هو المجرم؛ لأنه لاحظ أنّ الأدلة وكأنها تتّجه ضدّه.

أكمل العقيد رأفت مع الشّرطة بحثهم هنا وهناك، لعلّهم يجدوا شيئاً ما، وأخذ يفتح كلَّ الخزائن الموجودة ببيته، وفي النهاية فتح الشرطيّ خزانة قريبة عند مدخل المنزل وعلى الفور سقط على الأرض رأس المهرّج ذو الشّعر الملّون الكثيف، وبدأ يهزُّ العقيد برأسه مستغرباً.

أما هاني فازداد قلقه وشعر بتوتّر ولكن بقي صامتاً، لا يعرف ماذا يقول.

فوضع الشرطيّ القناع بالكيس، وأخذ جميع الأغراض وذهب بهم مع فريق البحث الجنائيّ للمعمل لمعاينتهم.

أغلق هاني وراءهم الباب وجلس حزيناً يضع رأسه بين كفّيه، فجلست بجانبه الخالة علياء، وقالت له: "هاني عزيزي، أرجوك اشرح لي ماذا يجري، أريد أن أعرف بماذا أمين متّهم؟ أرجوك... أنا قلقة جداً ولا أفهم شيئاً".

فنظر إليها هاني بحزن والكلمات غير قادرة على الخروج من فمه، وبقي صامتاً، فعادت وقالت له الخالة: "هاني... اشرح لي...قل لي شيئاً...ألا تسمع؟؟؟

– خالتي... أمين متّهم بقضية اغتصاب فتاة ويبدو أنه لن ينجو بسهولة.

– لا أصدق!!! أمين يغتصب فتاة... مستحيل!! كلام لا يُصدّقه العقل ولا المنطق...!

مستحيل أن يتصرّف كالوحوش، من أين جئتم بهذا الكلام؟!!!

– آآآآه... يا خالتي أتمنّى أن يكون بريئاً، أنا لم أصدّق أنه هو من فعل ذلك لكن عندما رأيتُ الأدّلة الآن أمامي، انتابني شعور بالقلق، لكني مازلتُ موقناً أنه بريء.

– ومن هي الفتاة التي تمَّ الاعتداء عليها؟

– هي نيرمين فتاة تدرس هندسة معماريّة في السّنة الأولى، وقد دعتنا على حفلة عيد ميلادها البارحة ولم يشأ القدر أن تُقام الحفلة، بل انقلبت إلى أحزان؛ لأنَّ عملية الاعتداء كانت قبل الحفلة بساعة.

– يا حبيبي يا أمين...لا أصدّق أنه الفاعل! مستحيل...هيّا يا هاني هيّا... خذني لكي أراه وأطمئنّ عليه.

– لكن يا خالة نريد أن نأخذ مفتاح السيّارة الاحتياط، وأُحضر السيّارة من مواقف سيّارات الجامعة وأوقفها أمام المترل.

– أحضر السيّارة، سنذهب ونعود بها بدلاً من المواصلات.

– حسناً خالتي، سأعود بسرعة لن أتأخر عليكِ.

فأحضرت الخالة علياء مفتاح السيّارة الاحتياطي من غرفة أمين، وقالت له: "انتبه لنفسك يا هاني ولا تقود بسرعة".

***

شعر أمين بالتعب والضّيق والملل من الجلوس أرضاً في غرفة الحجز، لقد خرج ثلاثة أشخاص من الحجز وبقي اثنان يبدو على وجهيهما الإجرام، لكن أمين لم يكلّمهما ولا هما تكلّما معه، فوقف أمين ونادى الشرطيّ الحارس الموجود عند الباب وقال له: "أرجوك يا سيّدي أريد رؤية الضّابط جابر".

– ولماذا...؟ سأله الشرطيّ بصوتٍ فظٍّ وغليظ.

– أريد أن أسأله ماذا جرى بقضيتي.

لو كان هناك شيء جديد لكانوا أخبروك. ارجع إلى مكانك ولا تكثر كلاماً.

وعاد أمين وجلس في مكانه على الأرض وأخذ يحدّث نفسه: "يا ترى ما الذي يجري بالخارج؟ أين وصل التّحقيق بالجريمة؟ هل توصّلوا إلى شيء يفيدني ويُخرجني من هنا؟ يا إلهي أشعر أنَّ قلبي سينفجر..آآآآه."

وصل العقيد رأفت لقسم الشّرطة، ودخل لمكتب الضّابط جابر.

"السّلام عليكم"

– وعليك السّلام هل توصّلتم إلى شيء؟

– أرسلت أكثر من شيء إلى معمل البحث الجنائيّ، وأخبروني بعد ساعة سيكون التّقرير على طاولة المكتب أمامي وبعدها سنرى، سأقوم باستجواب أمين على الفور.

– حسناً عقيد رأفت سأذهب الآن للمستشفى وأُكمل استجواب نيرمين لعلّها اليوم أفضل.

– لا تتأخّر لنقوم باستجواب أمين سويّاً.

وفعلاً وصل الضّابط جابر للمستشفى واطمأنّ على نيرمين من الطّبيب، وأخبره أنها أفضل حالاً لكن ما زالت نفسيّتها متعبة. سمح له الطّبيب باستجوابها فدخل إلى غرفتها، وكانت والدتها تجلس عندها، فألقى التحيّة عليهما وجلس، ثمَّ قال:"كيف أنتِ اليوم يا نيرمين؟"

أجابت والمعاناة تطبع على وجهها: "الحمد لله جيّدة".

– أريدكِ قويّـــة ولا يهُزّك شيء، سنكمل حديثنا دون أن تخشي شيئاً؛ لنستطيع القبض على المجرم، بشجاعتكِ وقوّتكِ أنتِ ستساعدين العدالة.

– حسناً يا سيّدي.

– أريد أن تكملي لي منذ أن ربط يديكِ للخلف.

عادت نيرمين للبكاء الشّديد وبقيت ترجف، لا تريد أن تتذّكر ماذا حصل، إلى أن استطاع الضّابط وبكلِّ صعوبة استجوابها؛ لأنّ نفسيّتها متعبة جداً. حيث أخبرته... "يا سيّدي ربط يداي الاثنتان للخلف وبشدّة وخفت أنا كثيراً، وبدأت أصرخ وأحاول فكَّ قيودي لكن لم أستطع... وعندما رأى أني بدأت أقاوم رمى بي على الأرض وضربني على وجهي فتألّمت بشدّة. وأخذ يُمزّق قميصي ويشدَّ بتنورتي، فأصبحت أقاوم أكثر لكن عاد وضربني مرّة أخرى على وجهي، فجاءت الضّربة على أنفي وأصبح ينزف. ومن ثمّ ضربني مرّة ثالثة كانت جداً قوية، وقام باغتصابي حتّى أصبحت أنزف وأتألّم لدرجة كبيرة، ثمَّ فكّ عينيِّ وذهب مُسرعاً وأبقى يديَّ مقيّدتين، حتّى جاء أصدقائي وطلبوا لي سيّارة إسعاف ونُقلت إلى هنا من دون أن أشعر لأني فقدتُ الوعي".

وسألها إذا كانت متأكّدة أنّ أمين المعتدي!

فأجابت: "بكلِّ تأكيد، أولاً ثيابه أعرفها، وثانياً هو الوحيد الذي يعرف عنوان بيتي ويعرف أنني في هذا الوقت سأعود من مصفّف الشّعر إلى المنزل وأكون وحدي، كنت أنتظرهم كمجموعة أصدقاء لكن على ما يبدو سبق أصدقاءه وفعل ما فعل هذا المجرم، كم كنت أحترمه والآن أستحقره جداً وأكرهه".

ثمّ سألها: "أنتِ لم ترَي وجهه أبداً، أليس كذلك؟ ومتأكّدة من أنه أمين!"

فأجابت: "لا يا سيّدي لم أرَ وجهه، لكن أنا واثقة من أنه هو، نفس رائحة العطرلم تختلف هو لا يُغيّر عطره، صوته هو لكن مع بعض التغيير والسبب القناع الذي يضغط على وجهه"

وفجأة أخذت نيرمين تصرخ وترتجف من شدّة التوتّر: "يجب أن يُشنق هذا السّافل، لا تتركوه يهرب عاقبوه بشدّة...."

فتركها الضّابط لكي لا يضغط عليها أكثر وخرج، وغادر المستشفى متوجّهاً إلى قسم الشّرطة ليكمل تحقيقاته وجلس مع العقيد رأفت ليتباحثا في دهليز الجريمة.

فقال الضّابط جابر للعقيد: "هل وصلك تقرير المعمل الجنائيّ؟"

– نعم، وتبيّن ما يلي:

الدّم الموجود على بدلة أمين البنيّة هو دم نيرمين، وعلى كُمِّ القميص كذلك.

أما بالنسبة لحذاء أمين فهو نفس بصمة الحذاء المأخوذة من منزل نيرمين، وكلاهما متطابقان بالشّكل والقياس ويحمل قياس ٤٢، أما هاتف أمين الخلوي لا يحمل بصمات، هذا بالإضافة إلى وجود القناع في منزله، ما رأيك؟

– بصراحة أنا لا أدري، الأدلّة ضدّه لكن لماذا أشعر أنّ في القضية فجوة مازالت لم تتضّح بعد؟! وكيف لم يظهر لنا مشتبهٌ به آخر إن كان أمين مظلوماً؟

–لا تقلق ما زال الوقت أمامنا لنحقّق أكثر في الموضوع، وبقي أن نعرف أين اختفى مفتاح المنزل ومفتاح السيّارة معاً.

- لابد أن نُحضره للاستجواب ونضعه تحت الأمر الواقع، ونضغط عليه ربّما يعترف تحت الضّغط، ادرسه جدياً ربّما يكون هو الجاني...
- موافق، سأرسلْ وراءه.

وفعلاً أحضره الشرطيّ لمكتب الضّابط جابر ...طرق أمين الباب ودخل ووقف عند الباب.

فقال له العقيد رأفت: "ادخل أمين واجلس هنا، نريد أن نتكلّم سويّاً ".

جلس أمين على الكرسيّ المقابل لطاولة مكتب الضّابط.

وصلت الخالة علياء هي وهاني، فسألا عنه فأخبرهما الشرطيّ الحارس الذي يقف عند باب أنّ أمين في مكتب الضّابط، وعندما يخرج يستطيعان رؤيته، ودعاهما للجلوس في غرفة الانتظار. فتوجّه هاني مع الخالة للجلوس، كانا قلقين على أمين وخالته متوتّرة بشكلٍ ملحوظ، وبعد دقائق جاء رامي ليطمئنّ عليه أيضاً فجلس معهما في غرفة الانتظار.

أما في مكتب الضّابط جلس أمين من دون حراك ولا كلام، حتّى وقف العقيد رأفت أمامه بجسده الضخم وقال له: "أنت تدرس الهندسة المعماريّة، أليس كذلك؟"

- بلى يا سيّدي.
- شابٌ في مثل ذكائك ومثابرتك على الدّراسة، ما الذي يجعله يُقدم على جريمة اعتداء على فتاة ؟

بدأت عينا أمين بالاحمرار وقال: "يا سيّدي أنا مظلوم لم أعتدِ على أحد صدّقني".

ثمّ أخرج العقيد رأفت الميداليّـــة حرف (R) من الدّرج وقال له:"لمن هذه؟"

نظر إليها أمين وقال: "هذه لي إنها ميدالية المفاتيح. لكن أين مفاتيح المنزل والسيّارة؟ أين وجدتموها؟"

- وجدناها هكذا مرميّة على الأرض من دون مفاتيح، أتدري أين؟
- لا... أين؟
- في حديقة منزل نيرمين... ما قولك؟
- لا، مستحيل...ربّما ليست لي إذن، ربّما واحدة أخرى تُشبهها. أنا لم أصل منزل نيرمين ولا حتّى أعرف عنوانه و....

قاطعه الضّابط وقال بلهجة شديدة: "الآن بدّلتَ رأيك، ليست لك الميدالية؟ كما أنَّ نيرمين قالت أنك الوحيد الذي يعرف عنوان بيتها؛ لأنها أعطتك ورقة مكتوباً عليها العنوان".

- صحيح، لكن هذه الورقة ضاعت مع المفاتيح والخلويّ يا سيّدي.
- وكيف ضاعت؟ أأنت مغفّل لتضيع ورقة ومفاتيح وخلويّ في نفس اللّحظة! هل هذه حجّة؟!
- لا أعرف صدقاً...
- ذهبنا لبيتك وأحضرنا البدلة البنيّـــة، وتبيّن أنّ دماء نيرمين عليها!
- ييياسيّدي...لاأفهم، دماء!!! لم أعد أفهم شيئاً...لم أرتدي البدلة!! (وبدأ أمين يعلو صوته غضباً) لا أعرف ماذا جرى، لستُ أنا المجرم، والله لم أرتديها...صدّقوني لا أعرف، أنا مظلوم.

سمعت خالته صوته يعلو غضباً، فخافت وجنّت عليه وأصبحت قلقة جدّاً.

- وجدنا في بيتك رأس المهرّج (القناع)...أخذ الضّابط يضغط على أمين بالمواجهة والأسئلة.

- أيَّ قناع؟ لا أعرف...والله...لا أعرف عن أيِّ قناع تتحدّث...صدّقني..
- اسمع يا أمين إن لم تعترف الآن وحدك، سنجعلك تعترف بأسلوب آخر.
- والله يا سيّدي..والله العظيم، والله لا يوجد ما أعترف به أنا مظلوم...صدّقوني.

(بصوت غاضب ونظرة يقدح منها الشرر) لا تريد أن تعترف؟

- كلا لن أعترف!!

قام العقيد رأفت وصفع أمين على وجهه صفعةً قويّة. فسالت دموع أمين بسرعة من دون صوت تنساب على وجهه بهدوء، ثمّ انفعل جداً بعد الضّربة وتوتّر وازدادت خفقات قلبه وتصاعدت أنفاسه، وأخذ يصرخ ويقول: "قلت لكم أنا بريء...أنا مظلوم، لا يوجد شيء أعترف به ارحموني، لم أعتدِ على أحد، وأخذ يبكي بصوتٍ عالٍ ويشهق. فأمر الضّابط بإخراجه وإعادته للحجز. في طريقه إلى غرفة الحجز رأته خالته ومسكت به، وقد سمعت صوته وهو يبكي بالمكتب. فضمّته إلى صدرها، فوضع أمين رأسه على كتفها، فقالت له بحرقة: "يا حبيبي يا أمين، الله يكسر إيده....لا تقلق يا أمين ستُفرج إن شاء الله، أنا واثقة من براءتك". أما أمين فأخذ يبكي على كتف خالته كالطّفل الصغير، ثمّ شدّه الشرطيّ من ذراعه وأدخله إلى غرفة الحجز.

هاني ورامي لم يستطيعا أن يكلّماه، بل بقيا واقفان ينظران إليه بشفقة على حاله. ثمّ طلبا من الشرطيّ أن يُدخل له الطّعام، لكن أمين رفض أن يأكل، ليست لديه رغبة بشيء.

أوصل هاني الخالة علياء لمنزلها وركن السيّارة أمام العمارة، وذهب بسيّارة أجرة إلى منزله واتّصل على الفور مع والده؛ ليطلب منه أن يوكل لأمين المحامي صديق والده. لأنه محامي قدير، وبالفعل بعد ساعة كان المحامي في قسم الشّرطة، وأخذ ملفات الجريمة ليدرسها في مكتبه، ويتحقّق مرّةً أخرى بطريقته.

أما ريم فجلست حزينة في منزلها لا تعرف مصير زوجها المستقبليّ ولا تعرف حقيقة براءته، والخوف والقلق لا يفارقانها. اتّصلت بصديقتها منال وقالت لها أنها بحاجة لرؤيتها والحديث معها؛ لأنها حقّاً متعبة من الأفكار وتحتاج من يسمعها. وبالفعل جاءت منال لمنزل ريم وجلستا في غرفتها. فبدأت ريم كلامها: "اسمعي يا منال أنا خائفة وحزينة، لن أنسى معروفكِ لأنكِ أتيتِ عندي لتسمعيني وتواسيني، كما أنني أريد أن أخبركِ بأمرٍ كنت أريد إخباره لأمين، فهو موضوع مهمٌّ وخطير، ولا بدَّ أن آخذ مشورتكِ لأني حقّاً تائهةً".

فقالت لها منال: "هيّا لا تُطيلي الحديث، ادخلي بالموضوع المهمّ، أخفتني..."

- اسمعي، مساء غدٍ سيأتي شابٌ هو ووالديه لزيارتنا بهدف التعرّف عليّ والتقدّم بطلب يدي. وأنا خائفة جداً وكان لا بدّ من أن يعرف أمين، أليس كذلك؟
- كلاّ أيتها الغبيّة لا تخبري أمين، فإنه سيشعر بالقلق فوق القلق الذي يحمله الآن، والموضوع لا أراه مُخيفاً كما تقولين. استقبلي الجماعة بشكلٍ طبيعيٍّ وتعرّفي عليهم، فالأمر عادي جداً، وعندما يذهب قولي لوالديكِ إنه لايعجبكِ ولم يدخل إلى قلبكِ وارفضيه...

ولن يُجبركِ أحدٌ على شيء.

- لكن والدتي مقتنعة به تماماً، فهي تعرفه من قبل لأنهم جماعة أقرباء لوالدي، والشّاب هو

طبيب له سمعته، فلا أعرف ماذا أفعل.

– لا شيء، قلت لكِ أنه لم يدخل إلى قلبكِ، هذه أكبر حجّة وانتهى الموضوع، ولا تخبري أمين فهو الآن تائه في هذه القضيّة.

– هل تعتقدين أنَّ أمين الفاعل يا منال؟

– لا مستحيل...كيف دخلت الشّكوك والظّنون إلى قلبكِ هكذا؟! أنا متأكّدة أنه بريء ما الذي أعمى بصيرتكِ؟

– لا أنا واثقة أنه بريء، لكن أخشى أن أُصدم، وأخشى أن تُثبت عليه التّهمة.

وبقيت منال عند ريم حتى السّاعة التّـــاسعة مساءً، ومواضيعهما لم تتغيّر...بقيت حول أمين وتهمته وحول هذا العريس المتقدِّم لخطبة ريم، إلى أن جاء رامي وأخذ أخته منال وذهبا للبيت.

أما أمين ازداد تعاسةً؛ لأنه محجوز ولا يعرف ماذا يجري بالخارج من أمور حول التّحقيقات. فشعر بالتّعب وخلع معطفه ووضعه تحت رأسه ومدّد جسده على الأرض، وأغمض عينيه محاولاً النوم، لكن دون فائدة فأفكاره كالدّوامة في دماغه.

صاحب المطعم القريب من منزل هاني اتّصل هاتفياً بهاني وقت العشاء تقريباً. كان هاني في هذه الأثناء يريد الخروج لشراء الخبز السّاخن والكعك لوجبة العشاء، فرنّ الهاتف أجاب هاني: نعم؟

– مرحباً، هل الأستاذ هاني موجود؟

– أنا هاني، تفضّل من المتكلّم؟

– يا أستاذ هاني، مدير مطعم شمس الوادي معك وقد اتّصلت في الصّباح ووقت الظّهيرة أكثر من مرّة ولم يجب أحد، فاتّصلت الآن لأخبرك أنّ البارحة وجدنا مفتاحين مع بعضهما تحت الطّاولة التي كان يجلس عليها صديقك، فيبدو أنه ذهب معكما دون أن ينتبه أنّ مفتاحه سقط منه.

– هل أنت متأكّد أنهما لصديقي؟

بصراحة ليس تماماً لكن سألنا معظم زبائننا الموجودة عندنا أرقامهم، فأجابوا بأن لا أحد منهم فقد شيئاً.

– ومتى وجدتموهما؟

عندما أردنا إغلاق المطعم، كان الشّباب يُنظّفون الأرض وتحت الطّاولات. فجاء أحد الشّباب وقال لي أنه وجد هذا المفتاح تحت تلك الطّاولة، وحسب الحجوزات على الطّاولة سألنا كلّ الذين جلسوا عليها طيلة ذاك اليوم، فلم يكن لأحدٍ منهم، فتذكّرتُ أنّ شاباً كان يجلس على تلك الطّاولة، وأتيت أنت والشرطيّ وخرجتم ثلاثتكم، فقلت لابدَّ أنه لصديقك؛ لأنه لم يبق غيره لنسأله.

– يا سيّدي بالفعل صديقي فقد مفاتيحه، لكن كما أذكر أنه فقدهما بالجامعة وليس بالمطعم؟ على كلٍّ حال سآتي الآن لأتعرّف عليهما. وإذا كانا هما سآخذهما له.

– حسناً، نحن بانتظارك... أهلاً وسهلاً.

ذهب هاني للمطعم ودخل عند المدير فسلّم عليه مدير المطعم ورحّب به، وعاتبه لأنه لم يأتِ منذ مدّة هو وأصدقاؤه، وأوصاه مدير المطعم أن يرسل سلامه الحارّ وتحيّاته إلى أبيه. أخرج مدير المطعم المفتاحين فحملهما هاني ليُلقي عليهما نظرة، وقال: "بالفعل هذان المفتاحان لأمين لكن من دون الميداليّـــة، ألم تجدوا ميداليّة على شكل حرف(R)؟

فأجابه صاحب المطعم: "لا أبداً، المفتاحين هكذا من دون ميداليّة".

فشكر هاني صاحب المطعم، وأخذ المفتاحين وخرج وقرّر أن يُخبر أمين غداً عنهما وليسأله إن كانا له بالفعل أم لا؟

***

انتهى المحامي من دراسة القضيّة فوجد أنها معقّدة، ويبدو له أنّ أمين من الممكن أن يكون بريئاً، لكن لا يوجد دليل قطعيّ يُظهر براءته، ولا يوجد شخص آخر نستطيع أن نوجّه له إصبع الاتّهام بدلاً من أمين. وبدا للمحامي أنّ ضياع المفاتيح والخلويّ علاقة بالجريمة بل علاقة متينة. لكن أين النّقطة التي تجمع بينهما؟ فأخذ يحاول البحث عنها، ومن أين سيُمسك طرف الخيط؟ وقرّر غداً صباحاً أن يجلس مع أمين جلسة مطوّلة، وجلسة أخرى مع الضّابط والعقيد للمناقشة.

خالة أمين لم تستطع النّوم، لقد أصبحت السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل، وهي تفكّر بأمين وماذا جرى له؟ فقامت من سريرها وجلست في غرفة الجلوس من دون أن تنير الأضواء، كانت قلقة، فرنّ الهاتف، خافت وركضت على الهاتف متفاجئة.

وأجابت بصوتٍ منخفض: ألو؟

مرحباً علياء، كيف حالكِ؟

– أهلاً يا أمل، لقد أخفتني! كانت والدة أمين تريد الاطمئنان عليه، وكأنَّ قلب الأمِّ أداة استشعار عن بعد لكلِّ الحوادث.
– لـــمَ أخفتكِ؟ أنا دائماً أتّصل بهذا الوقت.
– لا عليكِ، كيف حالكِ أنتِ؟
– الحمد لله مشتاقة لكم كثيراً، ومشتاقة لأمين أكثر...أرجوكِ أخبريني هل أمينو بخير؟
– أمينو وو؟ نَــ... نعم...نعم، بخير. أجابت علياء ببعض التردّد.
– لا أعرف يا علياء أشعر وكأنه غير مرتاح، أنا قلقة عليه هل صحّته جيّدة؟
– نعم، صحّته جيّدة وقلبه ممتاز، لا تقلقي.
– هل كلّ الأمور على ما يرام، دراسته... طعامه... نومه؟
– نعم، لـــمَ كلُّ هذه الأسئلة؟
– يا أختي لا أعرف، من البارحة وأنا تفكيري وذهني لم يفارق أمين فشعرت بالقلق.
– لا تقلقي، أخبرتكِ أنه بخير. (لم تشأ علياء أن تُضايق أختها أو تخبرها بالأمور السيّئة لكي لا تشعر بالقلق على أمين)
– هل فكّرت بموضوعي يا علياء؟
– هل تقصدين المجيء إلى هنا؟

- نعم بالضّبط، أريد رؤية أمينو وكيف أصبح الآن، أتمنّى لو أضمّه مرّة إلى صدري وأعانقه، كم اشتقت إليه!! أشعر وكأني سأموت إن لم أرَه قريباً.
- أخبرتكِ قبل ذلك أنّ أمين لن يتحمّل الخبر إذا عرف أنكِ على قيد الحياة، وأنا أخشى عليه، فمن الأفضل لكِ وله أن تبقي بعيدة كما في الأيام الماضية، هل رقَّ قلبكِ الآن عليه بعد كلِّ هذه المدّة؟
- لا تهزئي بي...أبقى أنا أمه مهما حصل، ولن أتحمّل يا علياء أكثر فالغربة قاسية، أنا صبرت وصبرت والآن أريد أن أراه، لا داعي أن يعرف أني أمه، هو لا يَذكُر وجهي هذا مؤكّد، وسنتّفق على أنني خالته سهاد، اشتقتُ لابني...ولدي حبيبي.
- اسمعي يا أمل، تمهّلي قليلاً وفكّري جيداً، وأنا أيضاً سأفكّر لكِ بجديّة وبعد مدّة قريبة سأخبركِ، لا تقلقي.
- لا تنسى يا أختي، سأكلّمكِ بعد أسبوعين لآخذ الجواب، لا تخافي تشجّعي.
- إن شاء الله لا تقلقي.
- إلى اللّقاء...



الفصل التاسع والعشرون

قبل بدء دوام الجامعة وبدء المحاضرات ذهب هاني ورامي والخالة علياء لقسم الشرطة؛ للاطمئنان على أمين، لقد أمضى ليلته الثّانية في غرفة الحجز بقسم الشّرطة، فأحضروا له الإفطار. وفور وصولهم طلبوا من الضّابط أن يَروه ويُعطوه طعامه. فطلب الضّابط من حارس الحجز إحضاره للمكتب. وفعلاً بعد خمس دقائق كان عند باب مكتب الضّابط فطرق الباب ودخل، كان وجهه متعباً وذقنه النّاعمة أصبحت خشنة وقميصه الأبيض أخذ يتحوّل إلى رمادي من النّوم على الأرض المتّسخة. فتفاجأت الخالة علياء من منظره واستهجنت الموقف، فقامت مسرعة ومسكت يده لتجلسه مكانها، فقالت له:"أمين يا حبيبي تعال واجلس مكاني، يبدو عليك التّعب والإرهاق".

لكن الضّابط قال لها:"يا سيّدتي اتركي أمين، هو سيجلس على هذا الكرسيّ أمامي".

فسأله رامي: "كيف حالك يا أمين؟" فنظر إليه أمين ولم يتكلّم بل هزّ رأسه وكأنه يجيب جيّد، والحزن أصبح ملازماً وجهه بكلِّ الأوقات.

وأكمل هاني:"هذا إفطارك يا أمين، لم تأكل شيئاً من بعد إفطار البارحة، أرجوك كُلِ الآن".

فقال أمين: "لا أريد طعاماً...أريد دوائي فقط، لقد كان معي ثلاث حبات ونفدت".

فقالت خالته:"حبيبي تناول طعامك وسنذهب لإحضار الدواء لك، أرجوك".

ثُمَّ أخرج هاني المفتاحين من جيبه ومدّ يده ليريهما لأمين، وقال له: "هذان المفتاحان لك يا أمين، أليس كذلك؟"

فقام الضابط من وراء مكتبه قبل أن ينظر إليها أمين أو يتأمّلها، فسحبهما الضّابط من يد هاني، وقال له بغضب: "كان لابدّ لك يا هاني من إعطائي إياهما، وأنا بدوري أسأل أمين وليس أنت؛ لأنَّ المفتاحين هما جزء من قضيّتنا. وأنت تعلم هذا "وبدأ الضّابط جابر يقلّبهما وينظر إليهما، وأعاد السؤال على أمين: "هل هما لك؟"

فأجاب أمين بيأس: "نعم...هما لي، هذا مفتاح البيت والثّــاني مفتاح السيّارة ".

– سأل الضّابط هاني: أين وجدهما؟

– لقد اتّصل بي هاتفياً مدير المطعم الذي قُمتم بأخذ أمين منه، وقال أنه وجدهما تحت الطّاولة التي كان أمين يجلس عليها.

فنظر أمين مستغرباً من كلام هاني وقال بغضب: "ما الذي سيُحضر المفتاحين للمطعم؟ لو كان المفتاح معي لما ذهبت لذاك المطعم بل توجّهت إلى بيتي...لا أُصدّق!!" وكاد يُــجنّ...

فقال الضّابط:"يظهر أنَّ المفتاح كان في جيبك وسقط دون أن تنتبه يا أمين".

فأجابه أمين: "يا سيّدي المفتاح ضاع وأنا بالجامعة! وليس بالمطعم".

ثُمَّ خبّأ الضّابط المفتاحين في الكيس الصغير الذي توجد به الميدالية ووضعهما بالدّرج. ثُمَّ قال لزوّار أمين: "الزيارة قد انتهت، ويجب أن يعود أمين لغرفة الحجز". فلدى الضّابط تحقيقات وأمور

أخرى يجب أن ينهيها، فغادروا وأُعيد أمين للحجز. وما هي إلاّ دقائق معدودة إذ بالمحامي يدخل لمكتب الضّابط جابر ويتناقش قليلاً معه، ثمَّ طلب منه مقابلة أمين.

فجلس المحامي مع أمين وأخذ يخبره بالتّفاصيل أين وصلت التّحقيقات وماذا يجري. وقال له: "اسمع يا أمين من المؤكّد أنك تشعر بالقلق و الحيرة بما أنك لا تعرف ما يدور بالخارج من ورائك".

– بالضّبط يا حضرة المحامي، أنا أشعر بأني تائه ومتوتّر وخائف بنفس الوقت.

– تريد إثبات براءتك، أليس كذلك؟

– بلى هذا مؤكّد يا سيّدي، أريد إثباتها لأني بالحقيقة بريء ومظلوم، ولم أعتدِ على أحد.

– كلام جيّد، لكن قل لي هل لك أعداء؟

– أعداء؟!

– مثلاً أشخاص لا يحبّونك، طلاب بالجامعة...أقرباء...أشخاص يتمنّون لك الشّر ولا يحبّونك؟

صمت أمين وأخذ يفكّر، ودار في رأسه أنّ والدة ريم لا تحبه وتكرهه، لكن قال في نفسه:"لا أظنّ أنها تكرهني لدرجة أن تنسج لي فخّاً وتوقعني بجريمة كهذه"

فأجابه أمين: "لا أعرف يا سيّدي، لا أظنّ أنّ لديّ أعداء".

فقال المحامي: "أمين فكّر جيداً ولا تخشى من أحد، أنت هنا بأمان ولن يؤذيك أحد إذا قلت ما تعرفه، وأنا هنا لأساعدك لا تُخبّئ عليّ شيئاً، ولا حتّى أدقّ وأتفه التّفاصيل".

فعاد أمين وسرح خياله بوالدة ريم، وتذكّر الضربة التي صفعتها على وجهه مرّة، ثمّ عاد وقال في نفسه: "لا أظنّ أنها السيّدة هند ولا أستطيع أن أوقع بها أو أذكر اسمها أمامهم؛ لأنها لو كانت مظلومة ستكرهني أكثر وتزداد المشاكل، وتحقد عليَّ ريم بعدها".

– نعم يا أمين هل فكّرت وتذكّرت مَنْ مِن الممكن أن يَحْبكَ الشرَّ لك؟

– لا أعرف...لا أعرف. (وصمت أمين بحزن) وقال: "صدّقني أنا مظلوم".

– عند دراستي واطّلاعي على ملفات القضيّة، شعرت يا أمين أنك مظلوم حقاً. ويبدو لي أن أحداً ما سرق مفاتيحك وهاتفك وقام بانتحال شخصيتك بذاك الطقم البنيّ. ودخل إلى بيتك ليوقع بك، فوضع الهاتف وأعاد البدلة، وراقبك جيّداً ليعرف مكانك وأين ذهبتْ، ووضع لك المفاتيح مكان ما كنت تجلس. لكن هذا كله كلام بكلام، لا يوجد دليل على صحّته، ولا حتّى يوجد شخص آخر نستطيع اتّهامه بالجريمة مكانك، وأنا الآن أبحث عن إثبات لِيُبرهن صحّة توقّعي ولأثبت براءتك، يجب عليك أن تتذكّر جيّداً كلّ تفاصيل ذلك اليوم (يوم وقوع الجريمة) من أوّل وصولك الجامعة إلى أن خرجت منها، وتذكّر من قابلت ومع من جلست وأيَّ تفاصيل صغيرة ربّما لا تكون مهمّة لك أو ملفتة للنظر، لكن بالنسبة للقضية ربّما تكون جزءاً من الإثبات أو الحلِّ لإظهار براءتك.

– سأحاول يا سيّدي وأراجع ذاكرتي؛ لأني كما فهمتُ الآن من حضرتك أنّ الجريمة اُلتصقت بي؟

– يا أمين قضيّة من هذا النوع معقّدة، وكلّ الأدلّة تعتبر ضدّك الآن، والدّليل الأكبر شهادة نيرمين باعترافها أنك المعتدي مع أنها لم ترَ وجه الفاعل، لكن شهادتها ستؤخذ بعين الاعتبار...

أمين أريدك أن تبقى قويّاً وتتذكّر كلّ التّفاصيل، وإذا تذكّرت أيّ شيء أخبره للضّابط، وغداً ستُرفع القضية للمحكمة، لا تقلق ولا تكن متشائماً فمازال الوقت أمامنا، وأنا سأدافع عنك غداً وسأحاول إثبات أنّ مجرماً ما زال مجهول الهويّة قد انتحل شخصيّتك واستغلّك وفعل فعلته، لكن أعود وأكرّر هذه أوهام أمام القضاء ونحتاج لأدلّة لإثبات ذلك.

عاد أمين لغرفة الحجز مهموماً يشعر باليأس والإحباط، قلقاً من يوم غد بالمحكمة، وطيلة اللّيل بقي مستيقظاً لم يُغمض له طَرْف إلاّ عند بزوغ الفجر، لقد أُرهق وحتّى قلبه تعب من كثرة القلق والسّهر، إلى أن استسلم جسده وفكره للنوم هروباً من الأفكار المتشعّبة في عقله.

في الصباح ذهب الجميع للجامعة، وجلس الأصدقاء حول طاولة بالاستراحة فقالت ريم لهاني: "ما أخبار المحامي الذي كلّفته بالمرافعة عن أمين؟"

– اليوم يا ريم أوّل جلسة بالمحكمة لأمين.

فوقفت ريم غاضبة:"لماذا لم تقل لنا؟ لا بدَّ أن نتواجد معه بالمحكمة لنقف بجانبه!"

– اهدئي يا ريم، لا نستطيع الذّهاب لأن اليوم لدينا أول إمتحان لنهاية الفصل، كيف سنذهب؟

فجلست ريم وقالت: "نعم، هذا صحيح".

فقالت ديالة: "ماذا سيفعل أمين؟ هل أخبرت شؤون الطّلبة أنه لن يستطيع تقديم الامتحانات النهائية".

– نعم يا ديالة أخبرتهم البارحة بما جرى، فقال لي المسؤول: في حال خرج من الحجز سيُخصّصون له وقتاً آخرَ لتقديم الامتحانات، وفي حال تمَّ الحجز عليه أكثر سيدرسون الموضوع ربّما يضّطر لإعادة الفصل.

فقالت ريم: "يا إلهي، لا يُعقل أن يُحجز أمين أكثر، مستحيل!"

كانت خالة أمين تجلس في المحكمة لتحضر الجلسة وتطمئنّ عليه، لقد جاءت مبكّراً.

بدأت الجلسة الأولى للقضيّة. فأحضروا أمين وأجلسوه على كرسيّ وأمامه قضبان حديدية، كان يشعر بالانكسار والحزن يملأ قلبه، حتّى عيناه اللّتان كانتا تتلألآن أملاً وفرحاً، كأنها الآن وردتان ذابلتان جفَّ رونق الفرح منهما.

وبدأت الجلسة بالمدّعي العام الذي أصبح يعرض أمام القاضي ما دار من أحداث حول جريمة الاعتداء والاغتصاب هذه. كان أمين يسمع ورأسه للأسفل يشعر بالخجل كأنه هو المجرم حقّاً؛ لأنَّ الجميع كان ينظر إليه بكلِّ احتقار واشمئزاز. فيعود ويرفع رأسه ليشعرهم أنه بريئ وهو واثق من نفسه، لكن يرى أنَّ نظرات الجميع تهاجمه فيعود مطأطئاً رأسه للأسفل محرجاً.

أما محامي الدّفاع فأصبح يُبيّن للقاضي أنَّ كلّ ما دار من أحداث بالجريمة فخٌّ منسوج ليقع به أمين وأن شخصاً للآن مجهول الهوية هو من ارتكب الجريمة.

رأى القاضي أنَّ القضيّة ينقصها إثباتات كثيرة، فالأدلة جميعها ضدّ أمين. لكن من الممكن أن تكون مفتعلة لأجل الإيقاع به، ومن الممكن أيضاً أن يكون هو الفاعل حقّاً.

فقرّر القاضي إنهاء جلسة اليوم وتأجيل القضيّة لجلسة ثانية بعد يومين، لعلّ المحامي يجد أدلّة أوضح أو يثبت شيئاً ما ليستطيع إصدار الحكم بعد ذلك من دون شكوك.

أخرج الشرطيّ أمين من المحكمة، ووضعوه في سيّارة الشّرطة لإعادته للحجز في قسم الشّرطة، ريثما يصدر الحكم ويتبيّن مصيره.

خالة أمين كاد يجنُّ جنونها عليه، هي موقنة أنه بريء، عادت للبيت فوجدت عبد الرّحمن يجلس في غرفة الجلوس، فسألها حول ما دار بالمحكمة؟

فأخبرته الخالة أنَّ المحامي يريد تبرئته لأنه يرى أمين بريء، لكن كلّ الأدلّة ضدّه، والأمور تسير إلى الأسوأ.

فأجابها عبد الرّحمن: "لا بدّ أنه مذنب، كيف ستكون كلّ الأدلّة ضدّه وتُنسب إليه وهولم يفعل شيئاً؟ من المؤكّد هو الفاعل أو له يد بالجريمة؟"

بصوت غاضب أجابت علياء "يا عبد الرّحمن لا تظلم الشّاب! هذا أمين...وأنا أعرفه أكثر من أن أعرف نفسي".

– لو قمتِ أنتِ بتربيته لقلنا أنكِ تعرفينه جيداً، لكن لا تعرفين خفاياه ونواياه ولا حتّى طريقة تفكيره، فهو مؤكّد يحمل عُقَداً لا يعرفها أحد من طفولته البائسة تلك.

فغضبت علياء من شكوك عبد الرّحمن بابن أختها أمين، وقامت وذهبت المطبخ بعصبيّة.

بقي التّحقيق مستمراً والبحث الجنائيّ يبحث عن أيّ أدّلة أخرى، يمكن أن تفيد في تبرئة أمين أو أدلّة تُدينه بشكلٍ مباشر. أما محامي الدّفاع فأخذ يتردّد عند أمين ويحاول استجوابه أكثر من مرّة، لعلّه يتذكّر شيئاً أو ينطق بشيء مختلف، لكن...لا جواب جديد عند أمين سوى أنه مظلوم...لا يعرف بيت نيرمين...ولا يدري كيف أضاع المفتاح والخلوي وورقة العنوان. وبقيت الأدلّة على حالها فتلبّست أمين من جميع الجهات، إلى أن جاء موعد الجلسة الثّانية للمحكمة، كانت حالة أمين النفسيّة جداً سيّئة، تعبٌ وإرهاق يحلُّ على جسده، ومنظره العام يوحي بأنه متسوّل، لقد اختفت معالم الأناقة والجمال بكونه نزيلاً من نزلاء الحجز في قسم الشّرطة.

اتّـــجه جميع الأصدقاء لحضور الجلسة الثّانية بالمحكمة وخالته كذلك، حتّى جيء بأمين ووُضع بقفص الاتّهام بالمحكمة. فألقى أمين نظرة سريعة على الحضور، فرأى أصدقاءه يجلسون بصمت وبشفقة ينظرون إليه، فعلق عينيه بعيني ريم بحزن، وكأنه يريد أن يقول: "أنا بريء يا ريم ومظلوم". فهمست ديالة بأذنها وقالت لها: "يا لأمين المسكين، إنه يخبرنا بعيونه أنه بريء، أتفهمين كلام العيون؟"

فقالت ريم: "أسكتي يا ديالة، ليس وقت العيون الآن، يبدو عليه التوتّر والقلق، وأنا أشعر بالخوف أكثر منه".

فقالت لها ديالة: "لا تقلقي إن شاء الله سيُثبتون براءته".

– وإن تمّـــت إدانته وثبتت التّهمة عليه الآن؟... قالت ريم

– أجابتها ديالة: "من المؤكّد سيكون قد حبس ظلماً!"

فقال لهما رامي: "أتستطيعان السكوت الآن؟ ولا تستعجلا بالحكم! ستبدأ الجلسة".

وبالفعل دقائق قليلة ومعدودة إذ بالمدّعي العام يبدأ بالكلام وكما سبق بالجلسة الأولى ومن غير إضافات جديدة.

أما وكيل المجنيّ عليها نيرمين يؤكّد على أنَّ أمين هو الجاني المعتدي، ويجب معاقبته بأقصى عقوبة ممكنة؛ لأنَّ جميع الأدلّة ضدّه ولا يوجد دليل واحد من صالحه وبصفّه، فهو مجرم بنظر القانون بجملة من أبشع الجرائم، وأهل نيرمين يطالبون بأشدِّ العقوبات لاعتدائه متعمّداً على ابنتهم واغتصابها.

وجاء بعدهم محامي الدّفاع، وبدأ بتبرير مواقف لأمين ومحاولة تبرئته، لكن كان موقفه ضعيفاً جداً. ومهما حاول من إقناع فإنها على الأرجح قضيّة خاسرة. وطلب المدّعي العام شهادة بعض أصدقاء أمين لكن دون فائدة، لا أحد رأى أمين بعد خروجه من الجامعة، وحتّى شهادة طبيب القلب لم تفد لأنّ أمين خرج من عند الطّبيب في وقت مبكّرٍ أي قبل الجريمة بساعة، وقوله أنه أثناء الجريمة كان يمشي بالشّارع وحده هذا ما أدّى إلى إضعاف الموقف وفقدان الأمل بأن يخرج من هذه الجريمة سالماً، ولا وجود لكميرات مراقبة موجودة بالمطعم أو ببيت نرمين، ولا يوجد مشتبه به آخر في هذه الجريمة.

فأعلن القاضي أنّ الجلسة انتهت ويبدو أنها واضحة لديه، وإنكار أمين لكلِّ ماحدث لا يشفع له ويبرّئه، و أعلن بعد خمس دقائق النّطق بالحكم ورفع الجلسة وإغلاقها. ازدادت حالة أمين النفسيّة سوءاً، لقد أدرك أنّ الحكم سيكون ضدّه، وأنه لا منفذ له من هذه القضيّة التي تلَبّسته.

فنظرت إليه ريم قلقة وكان الجميع موَجِّهاً أنظاره إليه، بدا أمين وكأنه يرتجف بل كان يمكنك مشاهدة خفقات قلبه السّريعة المتعبة على قميصه الأبيض المتّسخ وكان شاحب الوجه مصفّراً، وبدأت عليه علامات التّعب والتعرّق، كان يمسك بقضبان القفص الحديديّ ليسند نفسه ويضغط عليها ليتحمّل لحظة سماع الحكم، أما خالته فكان قلبها يغلي عليه.

طرق القاضي ثلاثُ طرقات بالمِطرقة الخشبية لينتبه الجميع عليه حين ينطق بالحكم. وكأنّ الطّرقات الثلاث طُرقت على باب قلب أمين...

وقال القاضي: "حكمت المحكمة حضوريّاً بقضية رقم (٣٢٤٥/٠٦) على المتّهم أمين شاكر بالسّجن ست سنوات مع الشّغل والنفاذ. رُفعت الجلسة".

ضجّت القاعة بالأصوات المعترضة، وبالأصوات الفرحة بأنه تــمّت معاقبة المجرم.

أما أمين ما هي إلا ثوانٍ وسقط على الأرض؛ بسبب نوبة قلبيّة جاءته من شدّة الضغوطات والتوتّرات التي مرّ بها من أوّل يومٍ دخل الحجز إلى أن ازدادت التّــأثيرات عليه لحظة صدور الحكم. فركض الأصدقاء إليه، وأخذت ريم تبكي وتشعر هي الأخرى وكأنّ شيئاً يضغط على أنفاسها وبات قلبها يحترق.

حُمل أمين بسيّارة إسعاف إلى مستشفى حكوميّ تابع لمرضى السّجناء، وأدخلوه إلى غرفة الطّوارئ لإنعاش قلبه وإعادة تنظيم نبضه، وحمداً لله استعاد وعيه بسرعة ولم يذهب بغيبوبة نوبة قلبيّــة. لكن بقي جهاز نبض القلب موصولاً به وعلى صدره لمراقبة نبضاته، ريثما يطمئنّون عليه أكثر.

دخلت الخالة علياء لتطمئنّ عليه، لم تستطع أن تتفوّه بكلمة واحدة؛ لأنها لو تكلّمت معه لخرجت الدّموع والآهات قبل الكلمات، فبقيت صامتة تمسح على رأسه، وكان أمين ينظر إليها بألم، ثمّ قال لها بصوتٍ متعب يكاد أن يخرج ببطء: "خالتي، أرجوكِ صدّقيني أنا بريء وأشعر أنني إنسان ضعيف وحيد ليس له ظهر وسند يستندُ إليه وقت الشدّة؟ وأشعر بالخزي، فصِحّتي ضعيفة لا أستطيع الثّبات في مثل هذا الموقف".

فقالت له: "حبيبي أمين سندك الله عز وجل، ونحن بجانبك لا تقل هذا الكلام الذي يُحبط من معنوياتك، أريدك قويّاً كما عهدتك، وصدّقني أنت أقوى شاب رأيته في حياتي.

لأنك تقاوم وتواجه كلَّ الصِّعاب بصبر وتحمّل، أنت قويّ وأيَّ شخص مكانك كان سينهار من أوّل يوم حُجز به، وأنا واثقة أنك بريء ومظلوم، يا حبيبي لن أتركك سأبقى على الاتّصال مع المحامي لعلّنا نجد منفذاً أو طرف خيط يُثبت براءتك. مستحيل أن يكون المجرم صاحب جريمة كاملة ويخرج منها بسهولة".

- لقد أُغلقت القضية وصدر الحكم يا خالتي وانتهى الأمر...
- ولو أُغلقت لا مشكلة. إن بقينا نبحث سنعود ونفتح الملفات مرّة أخرى، أنت يا أمين توكّل على الله وابقَ قويّاً. سأخرج الآن لأفتح المجال لأصدقائك للدّخول عندك والاطمئنان عليك، فهم جميعاً بالخارج يريدون رؤيتك.

دخل أصدقاؤه عنده ووقفوا حوله كانوا ينقصون واحدة فسلّموا عليه، فنظر أمين إليهم وسألهم: "أين ريم".

فقال له أسامة: "ذهبت لبيتها" فقاطعه هاني وهو يتلعثم بالكلام:"نعم...ذهبت لبيتها، والدتها تريدها".

فقالت منال: "لا...لِمَ الكذب، يجب أن يعرف أمين الحقيقة، هي لا تريد رؤيتك بعدما ثبتت التّهمة عليك، وذهبت تبكي لبيتها.

فأخذ أمين ينظر إليها باستغراب لا يصدق ما تقول، فشدّها رامي من ذراعها بقسوةٍ وأخرجها خارجاً، وقال لها: "أمجنونة أنتِ يا منال؟! أمين ما زال متعباً ولا ينقصه كلام يؤثّر عليه كهذا، مازال في العناية المركّزة وعلى الأجهزة، وأنتِ تريدين قتله بكلامكِ".

فقالت له منال: "يجب أن يعرف أنَّ ريم التي يحبّها باعت حبّه، وحتّى في لحظة ضعفه لم تأتِ لتقف بجانبه وتواسيه".

- اسكتي أرجوكِ لا وقت لكلام كهذا الآن، ولا تدخلي ابقَي خارجاً.

وعاد رامي ودخل عند أمين، وقال له: "لا تسمع يا أمين لمنال، هي لا تقصد شيئاً كما أنَّ ريم متعبة حقّاً ومنهارة، لقد كانت متوتّرة وقلقة، وما تصرفها هذا إلا ردّة فعل عمّا جرى بالمحكمة، وأكيد هي ستعود وتطمئنُّ عليك عندما تهدأ الأوضاع قليلاً ".

هزَّ أمين برأسه مؤيّداً كلام رامي، وقالت ديالة: "نحن نؤمن يا أمين ببراءتك، ولن نتركك سنبقى دائماً بقربك، مسكين يا أمين!"

فقال لهم أمين: "أشكركم، لكن أرجوكم اخرجوا جميعاً واذهبوا إلى بيوتكم لا أريد أن أسمع المزيد من كلام المواساة هذا"

فقال نسرين: "ما بك يا أمين نحن أصدقاؤك وأردنا أن نطمئنَّ عليك".

فأجابها: "أعرف.. لكن لا أريد رؤية أحد، أشعر وكأني سأنفجر إذا زاد أحدكم كلمة واحدة. أرجوكم اتركوني وحدي الآن".

فقال لهم هاني: "تعالوا يا جماعة لنترك أمين يستريح فهو فعلاً بحاجة إلى راحة وهدوء، كما أنه لم ينم جيّداً منذ أن كان على ذمّة التّحقيق".

وخرجوا جميعاً من عنده وذهبوا إلى بيوقم. وبعد نصف ساعة جاء الطّبيب وأعطى أمين إبرة لتساعده على النّوم والرّاحة، لكي لا يُرهق نفسه بالتفكير وتزداد حالته سوءاً.

ريم جلست في غرفتها والدّموع لم تفارق عينيها من أوّل دقيقة دخلت البيت. أما والدهّا بقيت تحاول الاستفسار منها لتعلم ما بها لكن دون جدوى، فريم لم تتفوّه ولا بكلمة واحدة. فقامت هند واتّصلت هاتفياً بديالة لتعرف ما سبب بكاء ريم الشّديد هذا وحزنها.

فقالت لها ديالة: "اليوم يا خالة حُكِم على أمين بالسّجن ست سنوات وهو مظلوم، لهذا هي حزينة وجميعنا كذلك".

– أمين يُحكم عليه بالسّجن؟ لماذا يا ديالة؟ ما هو جرمه؟

– بجريمة اغتصاب فتاة، لكن هو بريء.

– وكيف تحكمين عليه أنه بريء إذا القضاءلم يُثبت ذلك؟

– نحن نعرف أمين جيّداً، لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا... مستحيل.

– على كل حال ستغضب ريم اليوم، وغداً ستنسى الموضوع، إلى اللّقاء يا ديالة.

– مع السّلامة يا خالة....لكن اسمحي لي أن آتي بعد ساعة لكي أطمئنَّ على ريم وأرى ما بها إن سمحت لي.

– طبعاً أهلاً وسهلاً، وأريدكِ أن تخبريها أن تنسى أمين ولا تبقى متعلّقة به بالأخصّ أنه الآن أصبح بعيداً عن الأعين.

– حسناً خالتي، أخبريها أنني سآتي بعد ساعة، إلى اللّقاء.

الجميع صُدِم بالحكم الذي صدر على أمين، لم يستطع أحد من أصدقائه أن يكمل نهاره كما يجب، بل الجميع كان قلقاً حزيناً على صديقهم. هاني لا يستطيع الدّراسة ولا التّركيز، ورامي يتعامل مع الأشياء بعصبيّة ومزاجه معكّر، وأسامة لم يستطع إنجاز أيَّ شيء في عمله بالشّركة، وكذلك الفتيات يجلسن حزينات، منال أخذت تبكي، ونسرين لا تُصدّق الذي جرى اليوم. أما ديالة بدّلت ملابسها وخرجت لمنزل ريم لتطمئنّ عليها كما قالت لأمها، فوصلت وفتحت لها رنيم، وأدخلتها عند ريم في الغرفة، وبالفعل وجدت ريم جالسة على سريرها متربّعة والدّموع بعينيها. فقالت لها: "أما زلتِ تبكين للآن".

– أهلاً يا ديالة ادخلي واجلسي، أريد أن أبكي دهراً ولن أكفَّ عن البكاء.

– لا يا ريم البكاء لن يفيدك بشيء ولن يُــخرج أمين من السّجن.

- ما الذي بيدي أن أفعله غير البكاء؟ قولي لي!
- لا، هذا يأس وإحباط، هذه محنة وابتلاء يجب أن تكوني قويّة وتقفي بجانبه لأنه بحاجتكِ الآن.
- ماذا تقولين؟ أقف بجانب من؟ أريد من يقف بجانبي الآن؟ ماذا أفعل بمصيبتي؟
- ريم اهدئي ولا تفكري بسلبيّـــة.
- كلّ الأمور تسير بسلبية، أصبحتُ أؤمن أنه واحد مخادع، هل باعتقادكِ أنه مجرّد مجرم؟
- أنا لا أصدّق ما أسمع...!! والله فاجأتيني، ولست متأكدة من أنَّ التي تتكلّم أمامي هي ريم! مؤكّد أنكِ لستِ ريم... مستحيل!
- لا مستحيل صدّقي، لأنه لا مستحيل بعد الآن بعدما رأيتُ الحبَّ يتحوّل إلى خديعة، ومن كان يُصدّق أنَّ أمين يفعل مثل هذه الجريمة الشنيعة. للآن لا أنسى منظر نيرمين وهي تبكي وترجف، وتقول إنَّ أمين من فعل هذا. كنّا نقول مستحيل مستحيل أن يكون أمين. لكن بالنهاية ثبتت الجريمة عليه.
- كنت أعتقد أنكِ تبكين شفقة وحزناً على أمين؛ لأنكِ واثقةً مثلنا تماماً أنه بريء.
- بريء! ربّما.. لكن...أنا أبكي حزناً على الحبِّ الذي كنت أعيشه، وحزناً على مستقبلي الذي ضاع بعدما عقدت قراني على مجرم. كانت دائماً أمي تنصحني وتقول لي ستندمين يا ريم، هذا مثل أبيه لن يختلف عنه. دمٌ واحد يجري في عروقهما، لكن كانت الغشاوة على عيني، لقد أعماني الحبّ.

وبغضب شديد قالت ديالة: كفى يا ريم، سأضربكِ إن بقيت تتفوّهين بتفاهات....أمين مظلوم...هو يحبكِ، وهو ليس بالمجرم، أنا واثقةً من ذلك.

وأخذت ريم تبكي وترجف وتقول: "أعرف والله أعرف أنه مظلوم...ومؤمنة ببراءته، لكن لا أعرف كيف أواسي نفسي...كيف تحكمين أنه مظلوم كيف؟ سيُسجن ستُّ سنوات وعندما يخرج سيبقى في نظر النّـــاس مجرماً وستلتصق به التّهمة للأبد...ستُّ سنوات لأبدأ وأكمل معه حياتي، كيف؟

- والله يا ريم ستندمين على كلامكِ هذا، سيطري على كلماتكِ أنتِ تتكلّمني مثل المجانين، لا أفهم أنتِ معه أم ضدّه؟؟ أمين ليس مجرماً لا تتركيه وحيداً هو بحاجتكِ أكثر من أيِّ وقت مضى، بحاجة إلى شخص يدعمه ويرفع من معنوياته، لو كان حبّكِ صادقاً له لما قلتِ هذا الكلام، قفي معه و بمحنته هذه.
- حتّى ولو كان هو الفاعل؟! قولي يا ديالة.
- أكيد لا... لكن يا ريم هناك حاسّة عند الإنسان يستطيع أن يستنتج من خلالها أموراً ربّما تكون غير ظاهرة عند غيره، وأنا إحساسي يقول أنه مظلوم، أين إحساسكِ أنتِ وإحساس الحبّ الصّادق؟
- لا إحساس لديّ بعد الآن ماتت كلُّ الأحاسيس، كلّ الأمور في رأسي مختلطة لم أعد أرَ شيئاً سوى أنني قلقة خائفة، ماذا ستفعل بي أمي حينما تعلم أنني عقدت قراني على أمين؟ من المؤكّد

ستقتلني، هي منذ البداية ترفضه ومن دون أن يكون مجرماً، كيف بعدما حُكم عليه بالسّجن؟ أكيد ستحصل كارثة! وهو بريء أشعر... وأعرف والله.

– اهدئي يا ريم، أنتِ توتّرين نفسكِ وبيدكِ، سنفكّر بحلٍّ في صالح الجميع.

– لا حلّ أمامي إلاّ أن أطلب الطّلاق من أمين وأحصل عليه من دون أن تعلم والدتي بما حصل.

– ستعلم عاجلاً أم آجلاً بالطّلاق.

– سيكون أهون من أن تعرف وأنا على ذمّته.

– ستدمّرين أمين بطلبكِ هذا الآن.

– ليس لديَّ شيء أفعله سوى هذا الحلّ، لديه حياته المختلفة الآن.

– كيف ستخبرينه وتطلبي منه هذا الطلب؟ بعدما كنت أنتِ مصرّة على أن يعقد قرانه عليكِ.

– لن أخبره أنا... بل سأخبر هاني وهو الذي سيخبره، والأحوال اختلفت الآن، وإن كنتُ أنا التي طلبت عقد القران، ها أنا أطلب الطّلاق.

– لا تتسرّعي يا ريم، فكّري جيداً وأعطي نفسكِ فرصة لإعادة حساباتكِ، أنا أقول لكِ أمين بريء، وسَتُعَذّبينهُ بطلبكِ.

– هذا آخر كلام عندي لن أغيّره..لم يكن هذا بالحسبان، أمي ستقتلني إن عَرفتْ.

ثمّ دخلت هند إلى غرفة ريم وأحضرت معها طبق فواكه لتقدّمه لديالة:"كيف حالكِ يا ديالة؟ تفضّلي الفواكه"

– أهلاً خالتي أنا جيّدة الحمد لله، أشكركِ.

– هل أقنعتِ لي ريم بأن تبتعد عن هذا الشّاب بعدما تبيّن على حقيقته؟

– بالتأكيد يا خالة، اسأليها بنفسكِ.

فسألت هند ابنتها وقالت لها: "هل انتهى بكاؤك على أمين؟"

أمي لا أبكي على أمين، أبكي كيف أضعتُ وقتي في حبّـــه.

– أرأيتِ قلت لكِ، لقد أحببت أباه بالماضي وقام وخذلني وتزوّج صديقتي، يا ابنتي الابن لا يختلف عن أبيه... سأترككما الآن وأعود لعملي بالمطبخ استمتعا بوقتكما.

ثمَّ خرجت هند وأغلقت الباب ورائها.

فقالت ديالة لريم: "هكذا إذن يا ريم، تبيعين حبّه بسهولة وتنسيه؟".

– آه يا ديالة... لا أبيع حبّه، ما زلتُ أحبّه ولن أستطيع أن أنساه أبداً، هذا ما يؤلمني؛ لأني أحبّه بصدق، وصُدمت! ويجب أن أنساه وسأحاول إن كان مجرماً أو بريئاً هذا ما يقوله المنطق. كيف سيكتمل الحبّ وستُّ سنوات وهو في السّجن؟ والله أحبّه.

– لا أعرف، كلامكِ نصفه منطق والنّصف الآخر لا يدخل العقل.

***

بعد يومين نُقل أمين من المستشفى إلى مبنى السّجناء، لقد كان مبنى كبيراً مقسّماً إلى أقسام كثيرة، ومنظره غير مريح محاط بأسوار عالية وأسوار أخرى شائكة، دخل أمين ومعه شرطيّـــان وكان مقيّد اليدين، فأدخلوه في البداية إلى مكتب لمدير شؤون السّجناء، فطلب من أمين كلّ ما

معه من أغراض، لكن أمين لم يكن معه شيء سوى علبة دواء، ثمّ أعطاه المسؤول الزيّ المعتمد للسّجناء، وطلب منه تبديل ملابسه ووضعها بكيس ليأخذها الشرطيّ ويضعها بالأمانات لحين خروجه، وبالفعل بدّل أمين ملابسه، ثمّ أخذه الشرطيّ وهو مقيّد إلى غرفة السّجن (المهجع) التي سيقيم بها مع باقي السّجناء. كان في داخله توتّر شديد وألم من الدّنيا وتعاسة لا توصف، ثمَّ فتح السجّان الباب وأدخل أمين، وفكَّ قيوده وأغلق الباب وخرج.

بقي أمين واقفاً مكانه متصلّباً عند باب المهجع، ينظر بذهول للسّجناء الموجودين بالدّاخل، فجاء أحد السّجناء إليه كان ضخماً ذا نظراتٍ حادّة وعصبيّة، وقال لأمين: "لـــمَ تقف مكانك كالمسمار ادخل...تحرّك... تعال نريك سريرك" فمسك هذا الرّجل أمين من معصمه وشدّ عليه وسحبه باتّـــجاهه، وأخذ ينظر إليه نظرات غريبة غير مريحة، فسحب أمين يده بعصبيّـــة ووقف، فقال له الرجل: "امشِ خلفي لأدلّك على سريرك".

فمشى وراء هذا الرّجل، كانت الأسِرَّةُ على الصفّين اليمين واليسار وفوق بعض. فأخذ يمشي هذا الرّجل الضّخم إلى آخر الغرفة الكبيرة المليئة بالسّجناء، من كلِّ الأشكال والألوان، حتّى وصل إلى آخر سرير وقال لأمين: "ها هو سريرك، وسريري فوقك يعني أنا وأنت جيران أيّها الطّالب الجديد في مدرسة السّجن تعلم وانحرف...هاهاها...يبدو من منظرك العام أنك مازلت جاهلاً ". وأخذ الجميع يضحك وبقي أمين صامتاً، فأكمل الرّجل الضّخم كلامه وقال: "أنا الملّقب بأبي ليلى، إياك وعدم إطاعة أوامري، ويبدو عليك ولد مؤدب وابن عالمٍ وناس، ما اسمك أيها الشّاب اللّطيف الجذّاب؟"

لم يُجب أمين عليه وبقي ينظر إليه باشمئزاز ولم يعجبه، فصرخ أبو ليلى بوجهه ورمى به أرضاً بضربة بطرف يده، وقال له بصوتٍ عالٍ: "سألتك ما اسمك؟" فأجاب بعدما قام عن الأرض وبعيونه غضب واضح: "أمين" وجلس على سريره.

فقال له أبو ليلى: "أحسنت، إيّاك أن تتعمّد رفض الأوامر". وصعد أبو ليلى لسريره بقفزة كضبع الجبال.

جلس أمين على سريره يشعر بالقهر وأخذ يُحدّث نفسه: "ما الذي حصل لي؟ لماذا هكذا يا دنيا؟ من هذه اللّحظة فقدّتُ كلّ شيء....هل ريم تعتقد أنني المجرم؟ لو أنني أعرف من هو المجرم الذي دخل بيتي ولبس ملابسي وأصرَّ أن يوقع بي لقتلته! للأسف حياتي انتهت بدل أن تبدأ، في آخر سنة لي بالهندسة المعماريّة لن أتخرّج مهندساً بل أُرسل بعثة مجانيّـــة إلى السّجن لأتخرّج من هنا وأصبح خرّيج سجون! وبعد أن أخرج مَن الذي سيوظّف مهندساً كان سجيناً يوماً ما؟ لا مستقبل أمامي...انتهيت، وحتّى ريم المسكينة هل يُعقل أن تنتظرني ستُّ سنوات لكي نتزوج بعدها؟ لا أعرف، ربما أظلمها هكذا".

في مساء هذه اللّيلة كانت هند تستعدّ لاستقبال الطّبيب وعائلته؛ لأنَّ الطّبيب العريس يريد التعرّف على ريم والجلوس معها ومحادثتها.

فأخذت ريم تُرتّب نفسها لتبدو بهيّـــة وجميلة، وعندما رأتها والدتها اندُهشت منها وقالت لها: "أيــُعقل يا ريم؟ ما هذه الأناقة وهذا الجمال المبهر؟ ما شاء الله!

– يا أمي ألم أقل لكِ أني نسيت أمين ولا أريده؟ وأنا إنسانة جديدة، سأعدكِ أن أستقبل الضّيوف بكلِّ فرح وسعادة.

فسُرَّتْ والدها من هذا الكلام. أما ريم فكان كلامها ليس صادقاً من قلبها، هي ما زالت تحبُّ أمين، لكن قرّرت الانتقام من الحبّ، وأنها ستطلب الطّلاق من أمين وستتزوّج الطّبيب، لقد أيقنت أخيراً أن طريقها لأمين مسدودٌ... وقالت في نفسها ليس لديها حلٌّ لكي تنسى أمين إلاّ أن تحاول تعليق نفسها بأحدٍ آخر يُشغلها عن أمين ويُنسيها حبّها له.

وفعلا جاء الطّبيب وأهله ورحّبت بهم ريم، وجلست مع الطّبيب لتتعرّف عليه أكثر، وكانت دبلوماسيّـــة بجلستها ومتفهّمة، حتّى أنّ الطّبيب أُعجب بها وأحبّها، لكن كلّ هذه الدبلوماسيّـــة ما هي إلاّ مظاهر وتمثيل بتمثيل، فهي من داخلها أعواد ثقاب تحترق وتتحوّل إلى رماد، حزناً على الحبِّ الذي دام سنين ومازال حبّاً عالقاً بقلبها، إلا أنّ الزمن بنظرها دنّس طهارة الحبّ.

بعد أن ذهب الضّيوف ركضت ريم للحمام تبكي وتبكي أمام المرآة، بكاءً مخنوقاً من دون أن يشعر بها أحد، فهي تشعر أنها مخادعة تخدع نفسها بالبداية وتخدع والديها، وتخدع أمين وتخدع الطّبيب المتقدّم لخِطبتها، وحتّى الحبّ أصبح يتحوّل لخداع.



الفصل الثلاثون

البرد والحزن والقلق إضافة للألم...اجتمعوا جميعاً ليكونوا ضيوفاً عند أمين في ليلته الأولى بالسّجن وعلى سرير غريب، ومع أخطر الرّجال في البلد. عيناه البريئتان هرب منهما النّوم، شعور غريب وَوحدة. لقد غطّى أمين جسده ونصف وجهه بالغطاء الموجود على السّرير، لكن برداً شديداً يغزو غرفة السّجن الكبيرة، كان قلبه يرجف من شدّة البرد الممزوجة بالبؤس، يحتاج إلى غطاء آخر لكن لا يوجد، وسريره كان مقابل باب الحمام، وكان الهواء البارد يأتيه من شباك الحمام المكسور، متّجهاً نحو سريره مباشرة.

بقي أمين ينتظر إشراقة الشّمس الملبّدة بغيوم الشّتاء القارس وبفارغ الصّبر، لكي ينقضي اليوم الأوّل وينتهي منه بسرعة، لكن اللّيل كان طويلاً جداً. وبعد قلق طويل نام دون أن يشعر واستيقظ على أصوات السّجناء المتخبّطة فجراً. فهو ما زال يشعر بالتّعب والنّعاس. لكن يجب عليه أن يستيقظ ؛ لأنّ وراءه أعمال تنتظره ليقوم بها.

وفي وقت الظّهيرة جاء الشرطيّ وأخبر السّجناء أنّ موعد الزّيارات قد بدأ، ومن يُنادى على اسمه يأتي ويقف عنده بجانب الحائط، فنادى الشرطيّ على ثلاثة أسماء وكان من بينهم اسم أمين، فركض مسروراً مسرعاً ليرى من جاء لزيارته، وذهب مع الشرطيّ لساحة الزّيارات... فوجد هاني ورامي يريدان رؤيته.

– كيف حالك يا أمين؟ سأل رامي.

ابتسم أمين ابتسامة صفراويّة مصطنعة، وقال: "جيّد، الحمد لله".

فقال له هاني: "جئناك يا أمين لنرى إن كنت بحاجة إلى شيء، ونطمئنّ عليك، كيف أصبح قلبك".

فأجابه أمين: "أريد منك يا هاني إحضار باقي الأدوية، وأريد غطاءً من بيتي؛ لأنّ البرد قارس في السّجن. كما أريد بعض الملابس الداخليّـــة النّظيفة.

– هل تتذكّر أيَّ شيء آخر تريده.

– نعم، أريد دفتراً وقلماً. كما أريدك أن تقول لريم أن تذهب للشّيخ وتطلب الطّلاق أو أن تذهب للمحكمة وتقدّم لهم أوراق عقد القران وتطلب الطّلاق، لا أعرف ما هي الآلية ربّما المحكمة ستحكم لها بالطّلاق لأنني مسجون، لا أريد أن أظلمها معي ولا يُعقل أن تربط نفسها بي ستّ سنوات.

– طلقها أنت من دون أن تذهب هي للمحكمة وتطلب الطّلاق، هكذا أسهل عليها، كما أنّ عقد قرانكم لم يُسجّل بالمحكمة حتّى تُطلّق هناك.

– أوووفّ لا أعرف، اسأل أنت بمعرفتك...لا أستطيع يا هاني أن أطلّقها أنا أحبّها، وإذا أرادت هي تذهب وتطلب الطّلاق، أنا لا أستطيع أبداً.

– هل أقول شيئاً يا أمين... دون أن تغضب؟

- ماذا، هيّا قل؟
- اتّصلت ريم معي هاتفيّاً اليوم وأخبرتني أنها تريد الطّلاق، وطلبت مني إقناعك وكنتُ متردّداً من إخبارك.
- أرأيت؟!! هذا الذي يسمّونه بالكلام الصّحيح للأسف، ولا تحتاج لإقناعي فهذا حقّها، ولها حريّة الاختيار كاملة، حرامٌ أن تبقى مدفونة بالحياة ستّ سنوات، يكفي أنا ضاع مستقبلي.

فقال له رامي: "يا أمين المستقبل أمامك بعد أن تخرج ستبدأ حياتك من جديد، وستصبح أكبر وأنجح مهندساً إن شاء الله".

ضحك أمين من شدّة الألم ثمَّ قال: "أجمل سنين عمري من المفروض هذه السّنوات القادمة؛ لأنها ستكون مرحلة بناءٍ للمستقبل، لكن يبدو أنَّ سنين عمري القادمة لن تكون إلاّ سنين قهر وحرمان".

فقال هاني: "اسمع يا أمين لقد جرى ما جرى، ولا تُحدّث نفسك بأمور تزيدك سوءاً، ستمضي المدّة وتخرج بإذن الله كن قويّاً نحن معك".

تنهّد أمين وقال: "آه... ستمضي! ما أسهلها من كلمة لا تشعرون بمعناها!"

وأكمل هاني كلامه: "آسف يا أمين لا أقصد مضايقتك". ثمَّ أضاف قائلاً: "نحن جئنا بسيّارتك، قل لي هل تريد أن أوقفها لك أمام منزلك، أم أركنها بمكان آخر؟
- لا، أبقيها معك وحافظ عليها، وكلّ يوم كالمعتاد خُذ أصدقاءك بطريقك للجامعة كما كنّا معتادين.
- لا يجوز، هي سيّارتك يا أمين!
- وما الفائدة منها إذا كُنتُ أنا هنا، افعل أنت كما قلت لك، أبقيها معك واسأل خالتي دائماً إذا كانت تحتاج أن توصلها إلى أيِّ مكان تريد الذّهاب إليه.
- خالتك هي خالتي لا تقلق. إذن يا أمين غداً سآتي وأحضر لك ما طلبت، وسأعطيهم للشرطيّ ليوصلهم لك، وسنأتي في موعد الزّيارة القادمة لرؤيتك.
- أريد منك شيئاً آخر يا هاني.
- نعم، قل ولا تتردّد.
- أخبر ريم أنني أحبها وسأبقى أحبها حتّى ولو طلبت الطّلاق وحصلت عليه؛ لأنه من حقّها، وأكّد لها أنني مظلوم حقّاً. وقل لها أنّ أمين يريد رؤيتكِ ليودّعكِ قبل أن تحصلي على الطّلاق، إنني مشتاق إليها يا هاني لا تنسى أرجوك.
- لا تقلق سيصُلها كلّ ما قلته لي.

وودّعا أمين وغادرا مقرّ السّجن. وأوصل هاني صديقه رامي وعاد إلى بيته ليتكلّم مع ريم ويحكي لها ما جرى. وفور وصوله البيت اتّصل بمنزل ريم، فردّت والدتها" ألو؟
- مرحباً سيّدتي أنا هاني هل من الممكن أن أكلّم ريم؟
- أهلاً يا هاني، كيف حالك؟
- الحمد لله جيّد.

– ماذا تريد من ريم؟
– أريد الاطمئنان عليها؛ لأنها كانت حزينة ومكتئبة بعض الشيء.
– الآن ريم أصبحت أفضل حالاً، والبارحة تقدّم لها عريس وجلست معه وتعرّفت عليه، وكما يبدو أنه أعجبها، وهو أحبّها أيضاً.

تفاجأ هاني بينه وبين نفسه وقال لهند: "هل أستطيع التكلّم معها؟"

– نعم، سأناديها لك.

جاءت ريم لتتكلّم بالهاتف مع هاني: "أهلاً هاني، كيف حالك؟"

– أنا جيّد، وسأكلّمكِ باختصار لأنه على ما يبدو أمكِ بجانبكِ وتراقب المكالمة.
– نعم بالضّبط وأنا أسمعك.
– ذهبنا أنا ورامي اليوم عند أمين وقبل أن أخبره أنكِ طلبت الطّلاق منه، قال لي: أخبر ريم أن تطلب الطّلاق من المحكمة وستحصل عليه بسهولة، أما أنا فلا أستطيع أن أطلّقها لأني أحبّها، فإذا أرادت ذلك فلتفعل...هذا من حقّها، وسأبقى أحبّها حتّى بعد الانفصال.كما أنه يريد رؤيتكِ لأنه مشتاق لكِ ويريد أن يودّعكِ. ستأتين معنا في موعد الزّيارة القادمة.
– اسمع يا هاني لن أذهب لزيارته، وقل له أنَّ ريم لا تريد رؤيتك، انساها ولا تذكرها لا داعي للأشواق الآن.
– ريم، أمين يُؤكّد لكِ أنه مظلوم ولم يفعل شيئاً، لا تظلميه أنتِ أيضاً، أم أنكِ تتكلّمين هكذا فقط لأنكِ أمام والدتكِ؟
– انتهينا يا هاني، لا أريد المزيد من الكلام، كلامي واضح.
– للأسف يا ريم، لم أتوقّع سماع هذا الكلام، فهو ليس بكلامكِ!
– أشكرك هاني إلى اللّقاء. وأغلقت ريم السمّاعة.

نظرت إليها والدها تريد مناقشتها لكن ريم لم تفتح لها المجال، وذهبت لغرفتها مسرعة وأغلقت الباب وعادت للبكاء.

الخالة علياء دخلت إلى بيت أمين، وأخذت تتأمّل بالبيت وتشعر بالغربة، البيت موحش لا توجد به حياة ولا روح أمين الهادئة الطيّبة، فهو مظلم وبارد، فأضاءت الأضواء وفتحت النّوافذ ودخلت إلى غرفته لتحضر له الأغراض التي طلبها من هاني، فتناولت غطاء ناعماً من الخزانة، وأخرجت بعض الملابس الداخليّة ووضعتهم بحقيبة صغيرة. ووضعت له دفتر وقلمين أخذتهم من طاولة مكتبه الصّغيرة، وذهبت للمطبخ ووضعت له أدويته التي يحتاجها جميعاً.

وقالت في نفسها: "آآآآه...الله يسهل عليك يا أمين ويفرج همك، بعدما يأتي هاني ويأخذ الأغراض سأعود للمترل لأنظّفه، فهو مغبّر على غير العادة، لقد كان أمين مثال الشّاب المرتّب النّظيف" وتنهّدت وخرجت من البيت وأغلقت الباب.

وبالفعل بعد خمس دقائق جاء هاني، وتناول الأغراض وذهب.أما الخالة علياء لم تستطع العودة لبيت أمين لتنظّفه؛ بسبب ضيوفٍ جاءوا إليها من دون موعد فاضطرت أن تستقبلهم وتجلس معهم. فعادت لبيت أمين وأغلقت النّوافذ وأطفأت الأضواء وأغلقت الباب. وقالت

سأرتّب البيت في يومٍ آخر إن شاء الله.

في صباح اليومِ التالي وصل هاني لمقرّ السّجن، وأرسل جميع الأغراض لأمين عن طريق إعطائهم لمأمور السّجن. وتوجّه على الفور للجامعة بعدما مرّ في طريق الرجعة على رامي ومنال ونسرين، رغم أنَّ المسافات كبيرة جداً بين السجن والجامعة. وصل الأصدقاء لجامعتهم وتوجّهوا للاستراحة، وحزنٌ في قلوبهم على أمين.

نسرين تقول: "يا لأمين المسكين صرنا نذهب بسيّارته وهو غير موجود، أشعر بنقص وفراغ كبير، كم له بهجة!! وابتسامته اللّطيفة في الصّباح كانت تكمل تفاؤلنا... للأسف أفتقدها!" فأكمل هاني: "والله يا نسرين جميعاً نفتقده لا أعرف لـــمَ الحظُّ السيئ يلعب معه دائماً ويشاركه؟" وقالت منال: "فعلاً، عندما أَحبَّ وقع في المشاكل،كان حظّه بالحبِّ معقّداً، وعندما قام وعقد قرانه ها هو مسجون الآن. والله إنه حقاً مسكين ويُثير الشّفقة "فسألها هاني: "أما زلتِ تحبّينه حتّى وهو متّهم بهذا الجرم يا منال؟"

فأجابته منال: "طبعاً أحبه؛ لأني واثقة من أنه بريء". فسألها سؤالاً آخراً وقال لها: "لماذا إذن صديقتكِ ريم لا تؤمن ببراءته؟ وانقلب الحبُّ عندها إلى نقمة؟"

- والله يا هاني لا أعرف، ربّما ردّة فعلها على الموضوع كانت كصدمة، جعلتها إنسانة لا ترى إلاّ أنّ حبيبها خان الحبّ، وأصبحت على عينيها غشاوة لا تستطيع أن ترى أبعاداً للموضوع، لكن أنا متأكّدة أنها بعد فترة ستعود إلى وعيها وتفكيرها وربّما تُراجع نفسها.
- أتعلمين أنها تريد الطّلاق؟
- لا أبداً... أيُعقل؟ بعدما كانت ستموت من أجل أن تربط اسمها باسم أمين؟
- نعم، قالت أنها لا تستطيع انتظار ستّ سنوات، كما أنّ أمين طلب مني ذلك أيضاً.
- حتّى أمين يريد أن يطلّقها؟
- هو لا يريد ذلك، لكن قال أنه سيظلمها إذا بقيت تنتظره ستّ سنوات، وأنَّ مستقبلها سيضيع، فإذا أرادت أن تطلب الطّلاق من المحكمة فهذا حقّها.
- لا مشكلة أنا أنتظره ستّ سنوات بل عشرة أيضاً، جميعكم تعلمون أنني أحبّه لم أعد أخجل من شيء.

فقال لها رامي: "هكذا علناً ؟! احترميني كأخ مثلاً....وكوني عاقلة قليلاً وانظري أمامكِ جيّداً، ربّما أمين لا يريدكِ أصلاً أو لا يحبّكِ، أتنتظرين كلَّ هذه المدّة، ثمَّ يقول لكِ آسف لا أريد أن أرتبط بكِ!"

فجاءت ريم ودخلت الاستراحة ووقفت عند الطّاولة فقال هاني: "ها هي المُعَذّبة الحسّاسة قد جاءت "

فضحكت ريم باستهزاء: "ها.. ها..ها.. أضحكتني، كفاك هُراءً" وجلست بملامح غاضبة.

فقالت لها نسرين: "هوّني عليكِ يا ريم، كفى غضباً وحزناً".

فسألها هاني: "كيف هي أحوال العريس الجديد يا ريم؟" فقال الجميع مندهشين "العريس الجديد؟!!"

فقالت ريم وبعيون غاضبة ونبرة استنفار: "نعم لقد جاء لخِطبتي طبيب، سيكمل دراسته في إسبانيا ليتخصّص بأمراض العظام والهشاشة، أمه إسبانيّـــة الأصل وأبوه عربيّ، ولديه منزل هناك صغير، وهو بالأصل درس الطبَّ في إسبانيا، وسيكمل دراساته العليا هناك، يبدو عليه أنه لطيف ومحترم، يكبرني بخمس عشرة سنة، وقرّرت أن أرتبط به وأهاجر معه، لعلّي أنسى الواقع المرير الذي أمرّ به الآن، فالبعد جفاء، وسيمحو لي أيام الحبِّ البائسة...وربّما أنسى أمين"فأخذت ريم تبكي وهي تتكلّم وأصبحت الكلمات تخرج بصعوبة في حديثها.

***

جلس أمين على سريره بعد أعمال التّنظيف الشاقّة بالسّجن، التي شملت الحمامات وباحات السّجن وغيرها، ومسك القلم والدّفتر وأخذ يكتب كلاماً يتدفّق من حرقة قلبه تصفّفه يده والقلم. كانت أبياتاً من خواطر نثرية صادقة، تُعبّر عن مدى إحساسه بالظّلم والألم في هذا السّجن، فكتب:

قلبي الضّعيف يصرخ...أنا بريء مظلوم
تحوّلت الأيام الجميلة أمامـــــي إلـــى هموم
وأصبح طعم الحياة في الصّباح والمساء مسموم
من الفرح والضّحك وحتّى من الحلـــم... محروم
قتلوا حبّـــي بأيديـــهم، ولا أنا في الحيـــــاة مرحوم
حلفتُ بالله أني بريء، كذّبوني وقالوا أنت على الجرم مفطوم
وهـــا أنـــا والحزن صـــديقان... أشكـــي له كم أنـــا مهمـــــوم
سجينٌ في زمن لا يعرف الرّحمة، وقلبي ينبض في صدر الزمنِ الظلوم
أيـــــا أماه... لو كنتِ موجودةً، أسمحتِ لهم أن يبقوا ابنكِ مســـجون؟
كم تمنّيت أن أرتمي بحضنكِ، وبيدكِ تمسحين لـــي دمعةَ حُزنيَ المسكون
وحيـــــد أنا في عالمي... تائـــهٌ بين الضباعِ ولا شـــيء لديّ مفهــــوم...!
آه...من القلب أخرجها،ومن شدّتها لو لامست الصّخر لصار مفروم
عنواني الآن، شارع الألـــم وباب الحزن، وهناك تجدني مدفـــون.

***

كان أمين يكتب والدّموع تقف عند حافّة العين خائفٌ من إخراجها، لكي لا يراه أحداً ويهزأ به، فجاء رجلٌ كبير بالسّن وجلس على طرف سريره، وقال له: "أراك يا بنيّ حزيناً، هل تشكي لي همّك؟ لا تقلق واعتبرني مثل والدك، اسمي عبد الصّمد".

فأجابه أمين: "يا عمّ عبد الصمد، أنا مظلوم هنا بالسجن لم أفعل شيئاً، ولم أرتكب جريمة".

فنظر عبد الصّمد إلى دفتره وقال لأمين: "لمحتك تكتب، ماذا تُدوّن في دفترك؟"

– إني أكتب من القهر والألم بعض الخواطر.

– وبماذا اتّهموك؟

– بجريمة اغتصاب، اعتداء على فتاة.

- هل أنت بريء فعلاً؟
- والله العظيم يا عمِّ، بريء ومظلوم صدّقني.
- صدّقتك؛ لأنّ منظرك لا يدلّ على أنك مجرم، وملامحك تبدو لي بريئة.
- وأنت يا عمِّ ما هو جُرمك؟
- أنا يا بنيّ وقعت في جريمة من دون أن أدري.
- لماذا يا عمِّ ؟ وكيف؟
- هذا بالفعل يا بنيّ، جرمي مخدرات... أنا لم أكن أبداً في حياتي مهرّباً للمخدّرات، ولا أردتُ أن أكون ولا حتّى أعرف ما هو شكله، لكن زمننا هذا عجيب ولا تعلم كيف تأتيك المصائب وأنت جالس!
- صدقتْ يا عمِّ، أنا كنت جالساً غارقاً في همومي وجاءوا وألقوا القبض عليَّ، وليس لي يد بالموضوع. لكن أكمل لأعرف ماذا جرى معك.
- لديّ يا بنيّ شاحنة كبيرة أنقل بها البضائع من الميناء حتّى وسط العاصمة للتجارة، ومرّة وأنا أستعدُّ لنقل الحمولة جاء رجل لا أعرفه، وطلب مني أن أقدّم له خدمة صغيرة، فقال لي: "أرجوك يا أخ أن تساعدني وترسل معك وبطريقك هذا الطّرد، وسأعطيك العنوان وأنت أرسله إلى هناك، وستجد من يستلمه منك"، وأعطاني أجرة هذا العمل، في البداية تردّدت، لكن بإلحاح منه قلت في نفسي ما المشكلة سأساعده فوافقت وأخذته، وفي الطّريق أوقفتني دوريّة تفتيش فوقفتُ بكلِّ ثقة، إذ أُفاجأ من كلاب الشّرطة بدأت بالنّباح الشّديد عندما صعد أحد الكلاب مع الشرطيّ للشاحنة، وسحب ذاك الطّرد من تحت المقعد، وقد تبيّن لي أنه طرد مليء بالمخدّرات، ولن أطيل عليك يا بنيّ مَن غيري سيتحمّل النتائج الوخيمة؟ وها أنا هنا.
- يا عمي، لِـمَ لمْ يتبيّن بالتّحقيق أنه ليس لك علاقة؟
- يا بنيّ، لا يوجد دليل على أني لا أتعامل مع عصابة المهرّبين تلك، بل لأني تصرّفت من دون تفكير وأخذت الطّرد، أنا مغفّل بنظر القانون ولا يستطيع القانون أن يفعل شيئاً لأجلي، حتّى ولو كان تصرّفي بغير قصد، أنا لا ألوم القانون؛ لأنه قبض على المجرمين، العصابة الكبيرة تلك، بسبب غلطة وقعوا بها بإعطائي ذاك الطّرد، يريد أن يُكشف أمرهم ويريح البلد منهم، لكني أضع اللّوم على نفسي لأني لم أتدارك الموقف، أو حتّى لم أكن متنبهاً، كان يجب أن أعرف ما بداخل الطّرد قبل أن أوافق على إرساله.
- إذن أنت مظلوم مثلي تماماً يا عمّ.
- مظلوم بنظرك وبنظري أما بنظر الجميع نحن مجرمان. وأريد أن أنصحك يا أمين؛ لأنه يبدو عليك أنك شابٌ طيّب، وليس لك على أمور السّجن هذه ومواويله، إيّاك أن تضع ثقتك بكلِّ النّـــاس هنا بالسّجن، وإن واجهتك أيّ مشكلة لا تتردّد بإخبار مأمور السّجن أو الشرطيّ المناوب. فالعالم مختلف هنا والنّـــاس لا يشبهون النّـــاس بالخارج، الكبير يأكل الصّغير، والصّغير لا يجد شيئاً ليأكله.
- الحياة يا عمّي بالخارج هكذا، الكبير يأكل الصّغير، ومن ضاع... ضاع.

– لا يا بنيّ، سترى أنت بنفسك وستحكم أننا هنا بالسّجن وكأننا في غابة فيها وحوش مفترسة.

–آه... ليصبّرنا الله على هذه المصيبة يا عمّ.

– يا بنيّ ضع إيمانك بالله بين عينيك وتوكّل عليه، فهذا ابتلاء من ربِّ العالمين، يمتحنُ الله به عباده الصّالحين، ويكافئهم بجنانه ونعيمه، واحمده في السّراء والضّراء وقل حسبي الله ونِعم الوكيل.

– الحمد لله على كلِّ الأحوال، وحسبي الله ونِعم الوكيل.

– وقام العمّ عبد الصّمد وذهب إلى سريره، كان يبعد عن سرير أمين حوالي ثلاثة أَسِرّة.

كان أبو ليلى يتهامس مع شخصٍ آخر وينظران إلى أمين ويضحكان. فلاحظ أمين سذاجة هذين الرّجلين، فتضايق منهما ولم يعيرهما أيَّ انتباه.

فكان يتهامس لأحد رجاله في السّجن ويقول له:"يبدو سجيننا النّزيل الجديد يحتاج إلى تدريب على أيدينا ليصبح مناسباً كسجين معنا هنا، فيظهر أنَّ خبرته معدومة وما زال تفكيره محدود، لكن لا يبدو عليه أنه سيأخذ وقتاً كبيراً في التّعلم، يبدو عليه الفهم وهو عجينة طريّة سنشكّله على هوانا"

فقال الملّقب بدودي لصديقه أبو ليلى: "وهل ستبدأ بإعطائه الدّروس الخصوصيّة منذ اليوم؟"

فأجابه أبو ليلى: "لا ليس الآن، فإنه سيُصدم إذا بدأنا معه بالدّروس الخصوصيّة، سأدعه يأخذ على أجوائنا في البداية ويعتاد علينا ويثق بنا، ثمّ سأبدأ معه بالدّرس الأوّل، لكن لن أتركه فترة طويلة"

فقال دودي: "ستربّيه على يدك وتشكّله كما تشاء، لكن قل لي ما هو أوّل درس ستعلّمه إيّاه؟ أقصد من أيّ نوع؟"

فنظر أبو ليلى بدودي نظرة خبث وقال له: "لا، هذا ما ستعرفه فيما بعد، فهو درس من نوعٍ خاصٍ جدّاً"

وقام أبو ليلى وجلس عند أمين وأخذ يتحسّس ساقه وقال له:"كيف وجدتَ الجناح الخاص هنا في السّجن؟"

نظر أمين لأبي ليلى وأزاح ساقه ولم يهتمّ بسؤاله، ومسك قلمه ودفتره وأراد أن يكمل كتابته، لكنّ أبا ليلى شُحِن بالغضب بسرعة فصرخ في وجه أمين وقال له: "أنا أسالك سؤالاً يجب أن تحترمني وتجيب عليه أيّها الولد الجاهل". وخطف قلم الرّصاص الذي بيد أمين وكسره إلى نصفين، ورمى به على الأرض".

أما أمين فلم يتفوّه بكلمة واحدة، بل بقي صامتاً متماسك الأعصاب. فقال له أبو ليلى "لن أضربك الآن لأنك ما زلت ضيفاً في سجننا، بعد ثلاثة أيام سيصبح ضربُك حلالاً في حال عصيت الأوامر ولم تُجبْ، كما يبدو عليك أنك أبله فتعابيرك جامدة وملامحك ممسوحة".

بقي أمينَ صامتاً وبركان يغلي في داخله، وينظر بعين الكراهية والاستهجان للمدعوّ أبو ليلى، فقام أبو ليلى وصعد إلى سريره وهو سينفجر من الغيظ من لا مبالاة أمين.

***

لقد مضى أسبوعاً كاملاً على تواجد أمين في السّجن، وكلّ يوم يمضي يشعر أمين بالأسى والمرارة أكثر من اليوم الذي مضى، يحاول أن يعتاد، لكن من يعتاد على الأسى؟

أما ريم فاستقبلت خلال هذا الأسبوع الطّبيب ثلاث مرّات وجلسا سويّاً، فهي تحاول أن تنسى به أمين، وتحاول الاعتياد عليه.

ويوماً كانا يجلسان مع بعضهما سألها الطّبيب وكان يُدعى (عمر):"متى يا ريم تحبّين أن نُحدّد موعد الخِطبة؟" فأجابته ريم: "لا مشكلة في أيّ وقت، لكن نُحدّد حفلة الخِطبة من دون عقد القران الآن".

فقال لها الطّبيب عمر:"كما تشائين، فراحتكِ همّني".

فبعد الاتّفاق مع والديها تمّ تحديد حفلة الخِطبة يوم الجمعة نهاية الأسبوع القادم.

وأخبرت ريم كلّ أصدقائها بذلك، وكانوا سعداء بحزن، ينتابهم شعوران، السّعادة لِخطبة ريم، والحزن لفراق ريم عن أمين، والحزن على أمين أكثر عندما يعلم الخبر.

ذهب هاني لزيارة أمين في الموعد المخصّص للزّيارات، كان أمين بغاية الشّوق لرؤية أصدقائه، كما أنه توقّع زيارة ريم في هذا اليوم. بقي ينتظر سماع اسمه ليركض لساحة الزّيارات، وفعلاً توجّه لرؤية زائريه فرأى هاني ينتظره. فذهب إليه وقال له: "أين ريم يا هاني؟" فأجابه هاني:"رحّب بي يا أخي...اسألني عن صحّتي، ثمّ استفسر أين ريم".

-"آسف يا هاني لم أقصد، لكن أنا متلهّف جدّاً لرؤيتها، وكما أني اشتقتُ لها، لِــمَ لَمْ تحضرها معك؟" كانت في نبرة صوته لهفة قويّة وأمل لرؤية ريم، وأكمل: "قل لي هل ستأتي؟"

- اسمع يا أمين، ريم ما زالت نفسيّتها متعبة ولم تستقرّ حتّى الآن وتهدأ على حالها، دعها قليلاً أو حاول أن تنساها ربّما يكون هذا أفضل لك ولها.

- لــمَ تقول هذا؟ هل قالت لك شيئاً؟... شعر أمين بالإحباط.

- لا، لكن نحن الآن مشغولون بالامتحانات والوقت جدّاً ضيّق، لا أعرف... فالأمور لا تبدو على ما يُرام.

- هل زيارتي ستؤثّر عليها بشيء أو تعطّلها عن الدّراسة؟ لا أعتقد، أخبرها أرجوك أني أريدها، قل لها أمين محتاج لكِ جداً... هاني أحضرها معك المرّة القادمة، كنتُ أنتظر موعد الزّيارة بفارغ الصبر كي أراها، أريد رؤيتها يا هاني أرجوك.

- حسناً، فهمت سأحاول بكلّ تأكيد.

- لا أريد محاولة، أريد أن تحضرها فعلاً أفهمت؟

- إن شاء الله، لكن قل لي لــمَ لا تدرس هنا وتقدّم الامتحانات؛ لتتخرّج بشكلٍ طبيعيٍّ هذه السّنة.

- أنت تعلم يا هاني دراستنا تحتاج إلى جهاز حاسوب لرسم المشاريع وتطبيقها، وأحتاج إلى طاولة رسم وأدوات. فمن سيوفّر لي كلّ هذه الاحتياجات هنا بالسّجن. كما أحتاج لموادّ مختلفة لعمل المجسّمات، هذا صعب...إضافة إلى أنّ الجوّ هنا لا يُناسب أبداً، لو كانت دراستنا نظريّة

من الكتاب فقط، لربّما وضعت عقلي في رأسي ودرست، لكن أحتاج إلى مساحة لأضع عدّة الدّراسة.

– ما رأيك أن أسأل لك مأمور السّجن أن يوفّر لك مكاناً خاصّاً للدّراسة؟

– لا يا هاني ليس لديَّ رغبة في ذلك الآن، سأفكّر بالموضوع لاحقاً، فما زلتُ غير معتاد على أجواء السّجن.

– قل لي، هل تحتاج إلى شيء أحضره معي في المرّة القادمة؟

– نعم، لا تنسى ريم...

– ريم... لن أنساها فهمنا، أتريد شيئاً آخراً؟

– أرسل سلامي لخالتي واشكرها على الطّعام الذي أرسلته لي في المرّة الماضية، لقد كان لذيذاً.

– حسناً، إلى اللّقاء يا أمين كن قويّاً.

***

أما في شركة الكمبيوتر اتّصلت السكرتيرة بالسيّدة هند، وأخبرتها أنَّ شخصاً يريد مقابلتها فسألتها عن اسمه، فأجابت السكرتيرة: يقول أنه باسل. فقالت لها هند: "عندما يخرج أسامة من مكتبي أدخلي باسل"، وبعد عشرة دقائق خرج أسامة من مكتب السيّدة هند يحمل أوراقاً وملفّات. فرأى باسلاً ينتظر، فقال له أسامة: "ألست أنت باسل معنا في نفس الجامعة؟"

فنظر إليه باسل باحتقار وقال له: "نعم، هل تريدني بخدمة؟"

فأجاب أسامة: "لا أبدا، لكن هل أنت زبون عندنا؟"

– لا دخل لك، أنا ضيف السيّدة هند.

– حسناً كما تشاء. وذهب أسامة وعاد إلى عمله وهو مستغرب من لهجة باسل الشّديدة.

دخل باسل عند هند وقال بكلِّ لطف: "تحيّاتي الحارّة سيّدتي ".

– تفضّل يا باسل كيف حالك، وكيف حال والدتك؟

– الحمد لله جيّدة.

– وكيف هي دراستك وامتحاناتك؟

– لا بأس، تعتبر جيّدة.

– نعم، تفضّل ما سبب زيارتك لنا هنا بالشركة؟

– يا سيّدتي، أنتِ وعدّتيني إذا أبعدت أمين عن طريق ريم فستزوّجيني إيّاها.

تفاجأت السيّدة هند وقالت: "وهل أنت الذي أبعدته؟!"

فتلعثم باسل بالكلام وقال: "لا... لا طبعاً، قدره ونصيبه، لكن لم يبقَ في طريق ريم أحد الآن."

– للأسف يا باسل لقد تأخّرت، ولم تأتِ بالوقت المناسب لقد جاء من تقدّم لخِطبتها ووافقت عليه ريم، وخطبتها الجمعة القادمة. وقد أرسلتُ بطاقة دعوة لوالدتك.

غضب باسل وبدأ بالصّراخ في المكتب وقال: "أيُعقل هذا؟ لقد وعدّتيني وانتهى الأمر، كيف تخلفين بوعدكِ؟"

– اهدأ من فضلك، أنت في شركة محترمة ونحن في وقت الدّوام، لا يجوز لك الصّراخ هنا، كما أنني لم أعدك بشيء كان مجرّد كلام بكلام، وريم أيضا لها حريّة الاختيار. وأخذ يعلو صوت باسل غضباً وقال: "بما أنّ لها حريّة الاختيار، لـــمَ لمْ تدعيها تختار أمين وحسب، بل دمّرته ودمّرتني، أنا أرحتكِ منه، وأصبح بالسّجن الآن بسببكِ".

– ما هذه التّفاهات التي تتفوّه بها، أأنت مجنون؟ ما دخل أمين في وسط حديثنا لقد دخل السّجن لجرم ارتكبه، أنا لم أدمّر أحداً، أخرج من الشّركة، هيّا...

– سأخرج، لكن لن أسكت وسأنتقم... وستندمين على كذبكِ عليَّ يا سيّدة هند، وأنا الذي أخذتُ كلامكِ على محمل الجدّ !!! أعدك أنني سأنتقم....أنتِ وريم ستدفعان الثمن.

– اذهب وانتقم...ستنتقم من نفسك على كلِّ حال...أُفّ، هذا ما كان ينقُصنا!!

خرج باسل كالمجنون وأغلق الباب وراءه بعصبيّة، كاد الباب أن ينكسر، فأخبرت هند السكرتيرة إذا جاء باسل مرّة أخرى لا تستقبليه.

***

طلب هاني وديالة من ريم أن يلتقوابالمطعم القريب من منزل هاني لإقناعها بالذّهاب لزيارة أمين. وفعلاً حضرتْ ريم على الموعد تماماً وجلست معهما، وقالت لهما مباشرة: "نعم ما هو الموضوع المهمّ الذي تريدان أن تطرحاه أمامي؟ أرجوكما باختصار لأني مستعجلة ومشغولة جدّاً ".

فقالت لها ديالة: "يا ريم لن نأخذ من وقتكِ أكثر من نصف ساعة، لكن نريدكِ أن تسمعينا دون أن ندخل في جدال".

– حسناً، هيّا أنا أسمع.

قال هاني بعد أن وضع فنجان القهوة من يده: "أمين... " فقاطعته ريم وقالت: "أعدنا نتحدّث عن أمين، أنا أحاول نسيانه وأنتما مُصرِّان على أن يبقى الجرح مفتوحاً وينزف!"

فقال هاني:"دعيني أكمل ولا تقاطعيني... لا نريد جروحاً مفتوحة ولا حتّى نزيفاً!

اسمعي فقط ثمّ علّقي على كلامي".

– آه، نعم أسمعك.

– نحن نعلم أنكِ ستقدمين على خِطبة وندرك أنكِ ستطلبين الطّلاق من أمين، وستمنحكِ المحكمة إيّاه بكلِّ سهولة، لكن لا مانع من أن تقفي بجانب أمين بمحنته هذه كصديقة له أو زميلة في الجامعة، انسي أنكِ كنتِ الحبيبة المتيّمة، أمين لا يريد منكِ شيئاً سوى أن يراكِ هو مشتاق لكِ يريد أن يتحدّث معكِ، لقد كان كالطّفل في آخر زيارة له، كنت عندما أسأله عن شيء يريده كان يقول لي أريد أن تحضر لي ريم، وقالها أكثر من مرّة أرجوك يا هاني لا تنسى، وأخذ يرجوني أن أحضركِ معي، لو رأيته كم كان متأمّلاً أن يراكِ في آخر زيارة وأُحبط وحَزِن عندما قلت له أنك متعبة ولن تستطيعي المجيء، ولم أخبره بأمور الخِطبة هذه.

– وإن قلت لك لن آتي!

فنظر إليها هاني وقال لها: "ماذا أفعل بكِ؟ كم أنتِ عنيدة!"

وقالت ديالة: "يا ريم لن تخسري شيئاً إذا ذهبت، مجرّد زيارة فقط، سأذهب معكِ أنا وهاني، ولتكن أوّل وآخر زيارة وربّما لن ترينَ أمين بعد ذلك، ولتكن زيارة وداعٍ لأجل الحبّ الذي كان بينكما، وشهدنا نحن عليه والأيام شهدت أيضاً".

– آسفة لا أستطيع، لا يمكنني رؤيته.... لا أستطيع أرجوكم لا تخنقوني...

فقال هاني: "لماذا؟!"

– لأسباب كثيرة، أحاول أن أنساه الآن وما زلتُ أحبّه، وعندما أفكّر بأنه المجرم، ينتابني شعور بأنني أريد أن أضربه على فعلته، وعندما أفكّر أنه بريء يؤلمني ويعتصرني وجوده داخل السّجن...أحبه يا هاني ومستحيل أن أذهب إلى ذلك المكان المريع، لا أستطيع الوقوف بجانبه أو رفع معنوياته وأنا بحاجة إلى من يساندني ويرفع من معنوياتي...لا لن أذهب، لا أجرؤ.

– أما زلتِ تشكّين أنه هو الفاعل؟" سألتها ديالة.

– بصراحة أؤمن أنه بريء ولم تتغير قناعاتي ببراءته حتما...لكن أُجبر نفسي على أن تتخيّله المجرم لكي أكرهه وأبتعد عنه، وسأمسك هذه النقطة وأبدأ منها بالابتعاد عن حبّه؛ لأني لا أرى فاعلاً أمامي غيره، سأغادر الآن فأنا مشغولة، وسأذهب بعد قليل مع أمّي لشراء فستان حفل الخطوبة، لا تنسيا أن تأتيا... إلى اللّقاء.

وغادرت ريم مسرعة وقلبها من الدّاخل يبكي وعيونها محمرّة، وتركت ديالة وهاني يجلسان بمفردهما... فقال هاني: "صديقتكِ هذه عجيبة،لا تعرفينها تحبّ ولا تعرفينها تكره، وأنا لا أفهم ما نوع القلب الذي تحمله، لقد كانت ستموت لكي تتزوّج أمين!! والله سبّبت لي الانفصام...إيّاكِ أن تكوني مثلها". فضحكت ديالة وقالت: "هي صديقتي نعم، لكن أنا لا أوافقها الرّأي".

***

بعد أن نام جميع السجناء وانطفأت الأضواء، نزل أبو ليلى بهدوء تام من سريره، لكي لا يشعر به أحد، وجلس على طرف سرير أمين، فرفع أمين رأسه، فقال له أبو ليلى بصوت منخفض جداً: "أمازلت مستيقظاً؟" فهزّ أمين برأسه مجيباً "نعم" فقال له أبو ليلى: "قم وتعال معي أريدك". فقال له أمين: "إلى أين؟ ماذا تريد؟"

فأغلق أبو ليلى فم أمين بيده وقال له: "اخفض صوتك أيّها المغفّل، والحق بي".

فقام أمين من سريره ليلحق بأبي ليلى، فتوجّه أبو ليلى إلى الحمّام. فقال له أمين بصوت منخفض وباستغراب: "أأدخل معك...! ماذا تريد؟"

فأجابه أبو ليلى:"نعم، ادخل أريد أن أخبرك بشيء ولا أريد أن يسمعنا أحد، أو يعرف ماذا نقول"فدخل أمين وأغلق أبو ليلى الباب وراءه بإحكام، ثمّ أخرج من جيبه سكّيناً عريضة وقصيرة وحادّة جداً، وقام برمي أمين إلى زاوية الحمام ووجّه السكين إلى رقبته... وقال له بصوت خافت مخيف: "إذا تنفّست نفساً واحداً أو تفوّهت بكلمة سأقطع لك شريان رقبتك بسكّيني هذه، فهي من ضربة واحدة تقطع و تسيح الدّم، ولا تحاول أن تقاوم لأنك ستُقتل على الفور، فأنت لن تستطيع أن تغلب مجرماً محترفاً مثلي".

خاف أمين منه وارتبك لكن دون أن يُبيّن له خوفه، فقال له: "ما رأيك أن نتفاهم...ماذا تريد منّي بالتّحديد؟!"

– طلبت التّفاهم إذن...!

– نعم، هل من مشكلة؟

– يبدو عليك شابٌ عاقل وتحبُّ التفاهم، هل ستتفاهم وتتعاون معي؟

– أكيد، إذا استطعت ذلك.

– لا بل أنت ستستطيع إن شئت أو أبيت... أنا أبو ليلى وستندم إن لــمْ تُطع الأوامر.

– قلنا يا أبا ليلى سنتفاهم، والتّفاهم لا يكون إجباريّاً.

– لا يا حبيبي سنتفاهم على طريقتي لأنك أعجبتني من أوّل لحظة دخلت بها للمهجع، ودخلت إلى دماغي...وإلى قلبي...

فقال أمين وهو يتلعثم: "ماذا؟ لم أفهم؟"

فوجّه أبو ليلى السكّين إلى رقبته وقال له: "أنا لا أحبُّ الأبله، افتح عقلك واستوعب وافعل ما سأقوله لك...استدر وبهدوء"

فاندفع أمين بقوّة لكي يضرب أبو ليلى ويُبعده عن وجهه، لكنَّ أبو ليلى ضخم وعريض كالحائط لا شيء يُزيحه، فمسك أمين بشدّة وحَبسه بالزاوية، وقال له: "هل ستتعاون معي وتكن مطيعاً وحدك؟ أم ستجبرني على أن أستخدم أسلوبي الخاصّ معك؟" أخذ أمين ينظر إلى أبي ليلى بقلق وخوف وغضب شديد، وليس بإمكانه فعلُ شيء.

فقال له أبو ليلى: "إذا صرخت أو ناديت أحداً سأزرع هذه السكّين برقبتك"

فقال أمين بصوت عالٍ وبغضب: "ابتعد عني، لستُ أنا من يناسبك"وأصبح أمين يتخبّط غضباً في داخله...وأخذ يضرِب ويُبعد أبو ليلى"

فقال أبو ليلى: "لا بل أنت تعجبني وتناسبني، وهذا هو مطلبي". وبقي أبو ليلى موجّهاً السكّين إلى رقبة أمين وأداره ليلتصق صدره بالحائط رغماً عنه وحبسه بالزّاوية، وما كان لأبي ليلى إلاّ أن يُغرس غايته الحقيرة كخنجر في قلب وكيان أمين ليصل إلى مراده. وبعدما فرغ من حاجته، خرج وترك هذا الشّاب المسكين خلفه، والمرارة تعصر قلبه البريء.

عاد أمين إلى سريره وشدّ غطاءه وأخذ يبكي بحرقة صامتة، والدّموع تملأ وجهه، فصار يُكلّم نفسه بعتاب وألم، ويقول في سرّه: "فعلاً أنا أبله، ما هذا الجُــبن!! كان عليّ أن أتركه يذبحني ولا يذّلني هكذا، ويهين رجولتي...لا أنا لستُ رجلاً، لو كنتُ رجلاً لاستطعتُ أن أدافع عن نفسي، أنا جبان! أنا حقير، ماذا جرى لي؟ لماذا حصل هذا؟ يا إلهي أتمنّى لو أموت بدل هذا الفعل الجبان...لم أستطع فعل شيء... أيُعقل هذا؟!!

وبقي القهر يغلي في قلبه وضيق بين أضلعه، فأخذ حبّة منوّم وحبّة منظّم لضربات القلب، فحلّ عليه النّوم من شدّة التّعب رغما عنه.

***

في الجامعة تذهب ريم لهاني، لتعطيه رسالة.

– هذه رسالة لأمين، من فضلك أن توصلها له في موعد الزّيارة القادمة، وقل له هي بدل ريم؛ لأنّ ريم لم تستطع المجيء.
– وماذا كتبتِ له فيها؟
– لا دخل لك أنت، سيقرأها ومن ثمَّ سيُخبرك هذا مؤكّد، وإيّاك أن تفتحها.
– حسناً، سأرسلها في الأسبوع القادم! وخبّأ هاني الرّسالة في جيبه.

***

استيقظ أمين في الصّباح معكّر المزاج، وذا نفسيّة سيّئة يشعر بالإحباط، فنظر إليه أبو ليلى وقال له: "كيف أصبحتَ يا حلو؟"

فتجاهله أمين ولم يهتمّ لسؤاله، فثارت أعصاب أبو ليلى وغضب بشدّة، وضرب أمين بالحائط فسقط أرضاً، فجاء العمّ عبد الصّمد وساعد أمين ليستعيد قوّته ويقف. ثمّ قال أمين في سِرّه: "يا ليتني أستطيع أن أضربك حتىّ الموت وأريح البشريّة منك!!". فنظر العمّ عبد الصّمد لأمين وقال له بصوت منخفض وبحذر: "هل آذاك أبو ليلى أو ضايقك البارحة؟"

أجاب أمين وفي عينيه احمرار من دموع تخشى السّقوط: "لا...لا".فهمس عبد الصّمد لأمين: "اسمع يا أمين أفعال أبي ليلى جميعنا يعرفها ولا تخفى على أحد".

فقال له أمين بصوت خافت: "لقد قتلني البارحة أبو ليلى ".
– قتلك...؟ سأل العمّ عبد الصّمد مستغرباً.
– "نعم، لقد قتل رجولتي...هذا الحقير، وكأني الآن أنا المقتول". وصمت أمين وقال: "لا أعرف لــِمَ أقول لك يا عمّ! فهذا خزيٌّ وعارٌ بالنسبة لي...كيف استطعت أن أخبرك؟! أرجوك لا تخبر أحداً"
– اعتبرني مثل أباك يا بنيّ، وأنت شابٌ قويّ بوسعك أن تستعيد رجولتك منه، وتأخذ ثأرك، متوقع من أبي ليلى أن يفعل أيَّ شيء.
– وكيف سآخذ بثأري؟
– فكّر أنت، ويجب ألاّ ترضخ لأوامره وكن أقوى منه.

وجلس أمين يفكّر بكلام العمّ عبد الصّمد، لعلّه يتوصّل لحلٍّ، لكن كرامته لا تسمح له بالذّهاب إلى مأمور السّجن والبوح على فعلة أبي ليلى الرّذيلة. كان يشعر بأن الإهانة ستعودعليه ومنظره سيكون كطفل في مدرسة يريد أن يشتكي على زميله للمعلم، وأخذ يُفكّر بأنه هو من يجب أن يتصرّف وحده ويأخذ ثأره بيده، وأن يبتعد عن الجبن والخوف، فحياة السّجن تحتاج لمن يكن على هواها.

***

الفصل الحادي والثلاثون

مجاراة الحياة صعبة وملاحقة الزّمن غاية يركض وراءها العالم بأسره. لكن لا أحد يستطيع اللّحاق بالزّمن نفسه ولا حتّى الوصول إليه ؛ لأنَّ الزّمن يبقى أسرع من الإنسان ومن متطلباته، وأحياناً أخرى يخدع الزّمن صاحبه فيعتقد الإنسان أنه وصل إلى مراده وهدفه لكن يرى بالنّهاية أنه كان ينظر إلى سراب، و بركة الزّمن قد قلّت، خصوصاً هذه الأيام، لكن بخطوة ثقة سيبدأ كلُّ مشوار.

قرأ أسامة إعلاناً في الصّحيفة الأسبوعيّة المخصّصة للإعلانات، كان مكتوباً بخطٍ واضح وكبير (مطلوب مدرّس ومدرسة لغة عربية للعمل بالإمارات العربيّة المتّحدة)، وما أن قرأ هذا الإعلان حتّى كاد أن يفقد صوابه من شدّة الفرح، وقرّر على الفور الذّهاب لإرسال السّيرة الذاتيّة على العنوان المدوّن. وقال في نفسه سأعمل في مجال دراستي وبمبلغ محترم. ثمّ ركض على الهاتف واتّصل بمترل رامي. فأجاب رامي على الفور: "أهلاً يا أسامة لقد اشتقنا لك، لـــمَ لْم تعد تتكلّم مثل السّابق؟"

– صدّقني يا رامي أنا مشغول بعملي عند السيّدة هند، فهو عمل مرهق وأشعر أنّ الدّوام عندها لا ينتهي...ولا أُصدّق متى أعود للبيت لأجلس مع والدي قليلاً ثمَّ أنام.

لكن طمئني أنت ما هي أخبار أمين؟

– المسكين على حالته في السّجن، محبط حزين، ها هي أخباره لن تكون أفضل من هذا.
– سآتي لأزوره إن شاء الله لكن أنت تعلم دوامي في الشّركة هو الذي يُعيقني.
– لا عليك، سنوصل له سلامك.
– اسمع يا رامي، أريد التحدّث مع منال إن أمكن.
– وماذا تريد من أختي؟
– لديَّ اقتراح لها لعلّها تجده مناسباً، فأنت تعلم أنا أحترمها من أيام الجامعة وأرغب بالتقدّم لخطبتها وأريد رأيها.
– سأناديها لك...

جاءت منال وأخذت سمّاعة الهاتف لتُـــكلّم أسامة.

– مرحباً يا أسامة. كيف حالك؟
– أهلاً يا منال، اشتقت لك ولأيام الجامعة.
– وأنا أيضاً، لكن أنا ما زلت بالجامعة آخذ دورات في الحاسوب، ربّما تساعدني بأن أجد عملاً في حال لم أجد عملاً في مجال تخصصنا بدراسة الآداب.
– عندي اقتراح لكِ يا منال، إن شاء الله يعجبكِ.
– هيّـــا، هات ما عندك.

– لقد قرأت في الصّحيفة عن توفّر وظيفة مُدرّس ومُدرّسة للغة العربيّـــة بالإمارات العربيّـــة المتّحدة، ما رأيكِ؟
– وهل تعتقد أنّ والدي سيوافق أن أعمل خارج البلد؟ لا أظن، اذهب واستغلّ الفرصة أنت.
– لا، ليست هذه هي القصّة؟
فسألته منال: "ماذا إذن؟"
– أرجو أن تسمحي لي يا منال أن أتقدّم لخطبتكِ، ومن ثمّ نتزوّج ونذهب سوياً للعمل في الإمارات، وهكذا ستحصلين على وظيفة بتخصّصكِ وزوج يُحبكِ، وسفر للخارج والتعرّف على بلد آخر.
فضحكت منال من أعماق قلبها، وقالت له: "ما هذا العرض يا أسامة، لقد عجزتْ مكاتب السّياحة والسّفر عن تقديمه للنّـــاس، يا لك من مُفكّرٍ وانتهازيٍّ للفرص ".
– هيا يا منال، ما رأيكِ؟
– اسمع يا أسامة، أنت عزيز عليّ وطلبك رائع، لكن صدّقني أنا لست الفتاة المناسبة لك.
– يا منال أنا معجب بكِ منذ مدّة، ووجدت هذه أجمل فرصة لكي أنتهزها وأتقدّم لخطبتكِ، ونعمل معاً وببلد واحد وبنفس المجال، فكّري بالأمر... أرجوكِ يا منال.
– آسفة يا أسامة، سامحني لا أستطيع قلبي معلّق بأحد ما.
– يا منال، قلبك مُعلّق بالهواء والأوهام، لا تركضي وراء وَهْمٍ صعب المنال.
– أشكرك يا أسامة، وأقدّر لك محبّتك وأحترم رأيك، لكن القلب وما يهوى.
سكت أسامة مكسور الخاطر، ثمَّ قال لمنال:"حسناً كما تشائين وأتمّنى لكِ حظّاً موفّقاً إلى اللّقاء..
فقال رامي لأخته: "ماذا كان يريد أسامة؟"
فشرحت له القصّة كاملة. فقال لها رامي: "أنتِ الخاسرة يا منال، تعلمين أنَّ أسامة يُحبّكِ ويتمنّى لكِ كلَّ الخير، هو يريد إرضاءكِ وإسعادكِ، وفعلاً كما قال أنتِ تركضين وراء وهمٍ وشخصٍ لا يُحبّـــكِ".
– سأجعله يُحبّني، هذه فرصتي الآن بعدما استغنت عنه ريم... صدّقني هذه فرصتي!
– لن تستفيدي، هو مسجون الآن، هذا جنون وكلام لا يدخل العقل، أين الفرصة؟ لا أرى فرصةً مناسبة.
– لا عليك، ولا دخل لأحدٍ في اختياري وبقلبي وسترى.
ظلمات اللّيل وحدها مخيفة، كيف إذا كانت بين السّباع والوحوش؟ أما مرارة السّهر فيها كعلقمٍ ذاب في حلق عطشان. حال أمين لم تكن أفضل من هذا الكلام، بل تَذَوُّقْ الظّلم أمرَّ من العلقمِ ذاته. عاد أبو ليلى لأمين في اللّيلة الثّـــانية، وشدّ عنه الغطاء بعد منتصف اللّيل، وقال له بصوتٍ منخفض: "هيّا قم فلدينا درس خصوصيّ الآن".
بقي أمين يتظاهر بالنّوم ولم يجب على أبي ليلى. فمدّ أبو ليلى سكينه الحادّة أمامه، لكن أمين لم يكترث وبقي يتظاهر بالنّوم، مع أنه يشعر بوجود السكّين أمام وجهه. فغضب أبو ليلى منه،

فأخذ يتحسّس فخذه ليُـثير أعصابه ويقوم، لكن أمين بقي يتمالك ويسيطر على أعصابه ويتظاهر بالنّوم، فجُنَّ أبو ليلى من برودته، فغرس بعمق طرف السكّين المدبّب بفخذ أمين، فسال الدّم على الفور، فقام أمين بسرعة من مكانه من شدّة الألم، ومسك جرحه وشدَّ عليه.

فقال له أبو ليلى: "هيّا أمامي إلى الحمام وإلاّ قطّعتك مئة قطعة، قلت لك لا تعاند، فالذي أمامك أبو ليلى..."

فقال له أمين بصوت عالٍ– وقد تقصّد ذلك ليوقظ سجناء المهجع–: "لن أذهب، أبعد يدك عني لا يهمّني من تكون". فاستيقظ بعض السجناء والبعض الآخر بقي غارقاً بالنّوم، لكن لا أحد تحرّك من مكانه، بقي الجميع يراقب من مكانه وكأنهم اعتادوا على أبو ليلى وغطرسته ووقاحته.

فشدّ أبو ليلى أمين من ملابسه وسحبه عنوة إلى الحمّام، حاول أمين المقاومة وضرب أبو ليلى وحاول نداء الشّرطة، لكن لا أحد يستطيع الدّفاع عن نفسه أمام هذا الوحش البشريّ المفترس أبو ليلى، والحرّاس لم يتحرّك بهم ساكناً... فالخنجر المسموم عاد وانغرس في قلب أمين ورجولته.

انهار أمين نفسيّاً وجسديّاً، وجلس في سريره والدّموع تملأ وجهه والمرارة تعتصره من الدّاخل. فجاء إليه العمّ عبد الصّمد وقال له بخشونة: "يا أمين لا تبكِ، فالبكاء ليس من صفات أهل السّجون، كن خشناً قويّاً، اقتل أحاسيسك ومشاعرك وجمّـد قلبك. فمعنى الرّجولة هنا بالسّجن تختلف عن سمات الرّجل الأنيق في الخارج، الرّجولة هنا وحشيّـة لا يجوز أن تتصرّف كالصّغار".

فنظر إليه أمين وقال له: "أين الرّجولة يا عمّ، مات كلّ شيء لديّ. أنا مسجون بتهمة اغتصاب فتاة والاعتداء عليها، وأنا بالأصل مظلوم، والظّلم الأكبر أنني أتعرّض للاعتداء من قبل هذا السّجين الشّاذ الحقير!"

– لا، لا يا أمين، أريدك من الآن وصاعداً أن تتحوّل إلى وحشٍ مخيف بالسّجن، أمّا بالنّسبة للظّلم فقوي إيمانك بالله وادعُ الله ربَّ العالمين أن يُفرّج كربك، اسمع...اذهب الآن وخذ حماماً وانوِ الطّهارة، وتوضّأ وصلِّ ركعتين لله قبل أن يُؤّذن الفجر، وادعُه من قلبٍ صادق وتذلّل لربِّ العزّة العليّ القدير، وبإذن الله سيُنصرك عليهم جميعاً، هيّا قم ماذا تنتظر.

فنظر أمين إلى جرحه النازف في أعلى فخذه، وقال للعمّ عبد الصّمد "هل لديك يا عمّ رباطاً لكي أربط جرحي فهو ينزف بشدّة".

– اذهب واستحم ونظّف الجرح، وأنا بعد أن تخرج سأطّهره لك، وأضع ضمادات نظيفة عليه لكن استحم بسرعة.

وفعلاً أخذ أمين حماماً كان بارداً كالثّلج، كاد أن يقف قلبه من شدّة البرد، وبعد هذا كلّه وقف على سجّادة الصّلاة أمام القبلة وصلّى ركعتين لله لتفريج الهموم، ثمَّ جلس على السّجادة ورفع يديه للأعلى ونظره متذلّلاً للأسفل، يدعو الله بخشوع وصدق، وبقلب ذاب من الحُرقة والألم والمرارة، وأخذ يدعو ويبكي ويتوسّل الله ويرجوه أن يخرجه من هذا السجن، ويُبعد عنه الأشرار وأولاد الحرام، وأخذ يدعو ويقول: "اللّهم يا نور السّماوات والأرض يا جبّار السّماوات والأرض، يا رحمن الدّنيا ورحيم الآخرة، اللّهم إني أسألك في صلاتي ودعائي بركة تُطهّر بها قلبي وتغفر بها

ذنبي، وتصلح بها أمري، وتُبعد بها همّي وغمّي، وتشفي بها سقمي وتجلو بها حُزني، وتُبيّض بها وجهي يا أرحم الرحمين...اللّهم إليك مددت يدي فارحم ضعف قوّتي، ولا تصرف وجهك الكريم عنّي... يا مجيب دعوة المضّطرين ودعوة المظلومين ارحمني برحمةٍ تغنيني بها عن رحمة من سواك يا رحيم".

– وفاضت عيون أمين بالدّموع – وأكمل دعاءه لله "اللّهم إني أدعوك دعاء المفتقر المتذلّل لا تجعلني يا ربي بدعائك شقياً، وكن بي رؤوفاً، اللّهم استر عورتي واحفظني من بين يدي، ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي، ولا تجعلني من الغافلين... اللّهم يا مجيب يا سريع الانتقام يا قهّار، يا من لا يعجزه قهر الجبابرة ولا يَعْظُم عليه هلاك المتمرّدين الظّالمين، أغثني بنصرك، وأبقني في حمايتك... يا الله، اللّهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكّلت، وفوّضت أمري إليك، حسبي الله ونعم الوكيل، لا إله إلا أنت ربّ العرش العظيم".

في الصّباح تشاجر أبو ليلى مع أحد حرّاس السّجن، واعتدى على الحارس بالضّرب، فتمَّ حبسه لمدّة ثلاثة أيام بالسّجن الانفراديّ. فشعر أمين بالتخلّص منه بعض الشيءولم يبقَ في طريقه، فحمد الله على حبس أبي ليلى بالانفراديّ.

انتهى الأسبوع، وها هو صباح يوم الجمعة مشرقٌ مشمس، استيقظت ريم والحزن في عينيها، فرأتها والدتها وقالت لها: "ما بكِ يا ريم، دائماً عيناكِ تفضحكِ، لـــمَ الحزن؟ أيوجد عروس يوم حفلة خِطبتها ومنذ الصّباح تكون عبوساً هكذا؟"

فأجابتها ريم: "لا عليكِ يا أمي، فأنا أشعر بالغرابة بعض الشّيء بما أنني سأبدأ مرحلة جديدة في حياتي وأشبكُ نفسي برجلٍ من اليوم".

– هيّا يا ريم اذهبي وخذي حمّـــاماً ساخناً لتتناولي الإفطار، وتذهبي أنتِ ورندة لمصفّفة الشّعر.

فتنهّدت ريم وأخذت نفساً عميقاً وقالت: "حسناً يا أمي".

وفي المساء بدأ المدعوّون يأتون إلى صالة الاحتفالات التي تمّ حجزها لحفلة خِطبة ريم على الدّكتور عمر، ووصل صديقاتُها وأصدقاؤها وجلسوا ينتظرون قدومها، لكن حزناً يسكن قلوبهم جميعاً. فجاءت ريم هي والدّكتور عمر ودخلوا صالة الاحتفالات فصفّق الجميع لهما وبدأت الموسيقى والطّبول تدقّ، وانتشرتْ الزغاريد، وبدا منظر ريم مع رجل آخر منظراً مستهجناً بالنّسبة لأصدقائها، لم يعتادوا عليها إلاّ مع أمين،ومن كان ينظر إلى وجه ريم يقرأ في عينيها كم هي حزينة ويعرف أنها إذا ابتسمتْ كانت ابتسامتها مجرّد مجاملة للنّاس؛ لأنها كانت مصطنعة جداً، أما العريس فقد كان في غاية الفرح والسّعادة.

المهم أنّ حفلة الخِطبة انتهت وعاد الجميع لبيوتهم، ومن كان سعيداً بقي سعيداً ومن كان حزيناً بقي أيضاً على حاله.

في صباح يوم السّبت اتّفق هاني مع رامي ومنال للذّهاب إلى زيارة أمين؛ لأنه يوم الزّيارات، وأخذ هاني معه رسالة ريم، لكن كان متردّداً من إعطائها لأمين.

فوصلوا ووقفوا جميعاً ينتظرون أمين، فجاء مسرعاً مع أنَّ التّعب والإرهاق يُثقلان جسده. فوقف أمامهم وسلّموا عليه، فقال له هاني:"منظرك يا أمين لا يعجبني، وجهك شاحبٌ ومتعب، كما أنك تبدو أضعف.

فأجابه أمين: "فعلا أنا متعبٌ جداً يا هاني، ولا أعرف طعم النّوم ولا حتّى لديَّ شهيّـــة للأكل وأشعر بالمرض بكلِّ جسدي.".

فقال رامي: "أسامة يُرسل لك سلاماً وتحيّـــة، ويتمنّى زيارتك لكن خروجه من دوامه صعب"

– لا مشكلة يا رامي سلّم عليه كثيراً وأرسل له تحيّاتي. ثمَّ نظر أمين إلى هاني وقال له:"لقد وعدتّني أن تحضر معك ريم...أين هي، لــمَ لمْ تأتِ؟ "فسكت هاني قليلاً ثمّ قال:"أرسلت ريم هذه الرّسالة لك، وقالت أنها من الصّعب أن تأتي الآن".

تناول أمين الرّسالة وسأل هاني:"ألا تعرف إذا طلبت ريم الطّلاق من المحكمة؟ فأنا لا أعرف، ولم يرسلوا لي تبليغاً".

فأجابه هاني: "لا... لم تطلب بعد، فهي لا ترغب بالذّهاب للمحكمة وحدها، كما أننا كنّـــا مشغولين بالامتحانات، وها قد انتهت والحمد لله. طلبت مرّة أن آخذها إلى المحكمة لتعرض عليهم الأوراق ونسألهم عن كيفيّـــة تقديم طلب طلاق و لكي أرشدها على بعض التّـــفاصيل فهي لا تعرف وحدها تدبير أمورها".

– أرجوك يا هاني لا تتركها وحدها، وساعدها إن طلبت منك ذلك، فريم حسّاسة وتخشى من كلِّ شيء جديد.

– لا تقلق عليها يا أمين، فريم اليوم ليست ريم التي تعرفها أنت.

– ماذا تقصد يا هاني؟

– لا شيء، أنا أتكلّم عن شيء آخر.

فنظر أمين لمنال وقال لها: "مابكِ صامتة يا منال؟ ألا تريدين الكلام؟"

– لا على العكس بل أنا التي أريد، لكن أريد التكلّم معك وحدنا؛ لأنه موضوع شخصيّ.

فقال لها هاني:"يا منال مابكِ؟"

فأجابته منال:"اذهب أنت ورامي وانتظراني بالسيّارة، لن أتأخّر عليكما".

– طيب لا تتأخري...

فقال لها أمين والتّعب بين عينيه ويشعُر بالدّوار في رأسه من قلّة الطّعام: "ماذا يا منال؟ هيّا تكلّمي!"

أخفضت منال صوتها وبدأت تهمس: أمين أما زلت تذكر أني أحبّك؟

– ما هذا السؤال الآن يا منال؟

– أجبني أرجوك.

– نعم أذكر، وهل أصبحتِ تكرهينني؟

– على العكس، ازداد حبّي لك.

– أوووفّ يامنال ما فائدة هذا الكلام الآن، لن ينفعكِ الحبّ ولن يفيدني فأنا سجين، ولن أخرج قبل ستِّ سنوات،هذه سخافة!

– ريم تخلّت عنك وستطلب الطّلاق، أما أنا فأنتظرك العمر كله؛ لتعرف مدى صدق حبّي لك.

– ريم فعلت المنطق ولا يجوز أن تجلس مدّة ستّ سنوات تنتظرني، وفي النّهاية سيضيعُ مستقبلها معي.
– لا...أنا لا أفهم هذا المنطق، أفهم أنَّ التضحية يجب أن تكون لأجل الحبيب إذا كان الحبُّ صادقاً، وأن تقف بجانبك في السّراء والضّراء.
– منال...نحن نعيش واقع وليس فِلِماً هندياً ولا نريد أن نفتح الجراح، أرجوك انسي أمين الآن، لست أمين طالب الهندسة الذي تعرفينه، لقد وصل بي المطاف إلى هنا، انتبهي إلى مستقبلكِ، هذا أهمُّ بكثير من أن تحبّي سجيناً مثلي خُتِم عليه بالشّقاء، وصُبغتُ بِصبغة غريبة تُناسب أهل السّجون فقط.
– لا لن أنسى، لقد قلت مئة مرّة: "القلب وما يهوى" وأنا سعيدة بحبك يا أمين، أرجوك عدني بأن نتزوّج بعد أن تخرج".
–آآآآه... اسمعي يا منال أنا لست موجوداً على قيد الحياة حالياً، انتهيت...لا أستطيع أن أعدكِ بأمر لا أرى له أثر أو وضوح، فأمامي سراب فقط ومستقبلٌ في حالة غروب، عندما أخرج سأبدأ من الصّفر... كفى أتركيني بهمّي...اذهبي الآن من أمامي...ارحلي ولا تعودي".

يعود أمين إلى المهجع ويجلس على سريره ليفتح الرّسالة ويقرأها، كان متلهفاً ليعرف ماذا كتبت له ريم. وفتحها وبدأ يقرأ:

"أمين حبيباً قد انقضى زمنه.. رسالتي لك هذه لا هي رسالة حبٍّ ولا اشتياق، ربّما تكون بمنتهى الجديّة، رسالة كتبتها بعدما أخذتُ قراراً أتعبني جدّاً وضغطتُ على روحي لأقوّيها وأغيّرها، وبالفعل ها أنا الآن إنسانة جديدة بمشاعر وأحاسيس مختلفة؛ لأنّ الحبّ يوماً أعمى لي قلبي وبصيرتي. فوجدت فيك الإنسان الأفضل والأجمل، كنت أركض وراءك ككرة تتدحرج على أرضٍ تخيّلتُ أنها سهلة وممتدّة، لكن ظهرت لي الآن أنها أرض مليئة بالأشواك، نعم مازلتُ أحبك لكن سأدفن هذا الحبّ بيدي.. (بدأت عينا أمين تدمع والغصّة عالقة بحلقه، ولم يعد يرى الكلمات أمامه، وأصبحت الحروف والكلمات وكأنها متشابكة. فمسح دموعه بكمِّ القميص وعاد ليكمل القراءة)... وسأحصل على الطّلاق وبأسرع وقت؛ لأنني بحاجة إليه الآن. لقد تقدّم لِخِطبتي رجل يعمل طبيباً، وافقت عليه سامحني؛ لأنتقم من نفسي أولاً ومن الحبِّ ثانياً، فالحياة لا تتماشى مع الأحاسيس والمشاعر، ولا تطلب رؤيتي أو تقول إنك مشتاق...، فأنا في رحلة تدريب حقيقيّة على نسيانك، ومشغولة جداً بالعريس الجديد، ولا أُنكر أنَّ قلبي ما زال يحبك، لكن ها هو الحبّ الممنوع فعلاً، لن أنسى أسعد أيام حياتي معك وبحبك، وإلى متى ستبقى حبيبي لا أعرف" إلى الوداع...

ريم ابنة اليوم

مزّق أمين الرّسالة غاضباً حزيناً ورمى بها في سلّة المهملات، وقرّر من هذه اللّحظة نسيان ريم، التي كانت يوماً ما كلّ حياته، والتي شعر معها بأنها الإنسانة الوحيدة التي ستعوّضه عن كلِّ لحظة ألم وحزن عاشها في حياته، فهي كانت بالنسبة له الأم والأخت والصديقة والحبيبة وكلَّ شيء سعيد.

وقال في نفسه: "معك كلّ الحقِّ ياريم...كان لا بدَّ أن ننفصل ونترك بعضنا من بداية علاقتنا، فهي لم تكن يوماً موفّقة، مع أنّ الحبَّ بين قلبينا كان يشتعل، ولم أتخيّل يوماً أنّ أيَّ واحد منا سيُطفئ هذا اللّهب. وبدأ يعيش حالة حزن من جديد، لكن يبقى متظاهراً أنه قويّ، يريد أن يُشعر نفسه بالخشونة والشّجاعة ويرمي المشاعر والأحاسيس كما قال له العمّ عبد الصّمد، وكما ذكرت ريم كذلك في رسالتها، عندما قالت له: "الحياة لا تتماشى مع الأحاسيس والمشاعر". فعلاً ياريم...

***

الأيام تتسابق...والخالة علياء قامت بتحضير وجبة طعام شهيّة لأمين وتريد زيارته، حملت أغراضها والطّعام وتوجّهت على الفور لمقرِّ السجن، فنادوا على أمين فخرج لمقابلتها، فرأته حزيناً متعباً وهالات سوداء تحت عينيه، فقالت له:"ما هذا يا أمين"...

لم أعرفك، لـــمَ كلُّ هذا الحزن والتّعب على وجهك؟ لماذا...؟

فقال لها أمين: "آه... لـــمَ يا خالتي؟ لأني سعيد ومسرور جدّاً في هذا المكان؟ لأنّ الرّاحة هنا متوفّرة بجميع أنواعها، والرّفاهيّـــة لكلِّ شخص؟ لأني جئت هنا بإرادتي وسأتخرّج من هنا مهندساً انحرافياً بدلاً من معمارياً...وتسألين لماذا؟"

- آسفة يا حبيبي لم أقصد، لكن لم تكن على هذا الحال في الأسبوع الذي مضى، كنتَ مرهقاً ومتعباً لكن ليس بهذا السّوء!
- ادعوا لي الله لي يا خالتي، فأنا مظلوم هنا وأعيشُ بكربٍ كبير، لا أستطيع التّـــأقلم على هذه الحياة المريرة.
- فرّج الله كربك يا أمين وأظهر براءتك عاجلاً يارب العالمين؟
- لقد تذكّرت عندما كنتِ تأتين لزيارتي في مدرسة الأيتام الدّاخليّـــة، كنتُ دائماً أقول لكِ خالتي أريد الخروج، أريد العودة إلى منزلنا، ومضت عشر سنوات كالحلم، لكن لا وجه للمقارنة بين مدرستي الداخليّـــة وسجني هذا، فالرّحمة هناك والسّخط هنا، وكانت لا تُعجبني وأتذمّر، لا مشكلة سأعتاد وستمضي السنين، ها أنا أنهيتُ أسبوعين من المدّة المحدّدة، لم يبقَ إلاّ بضع سنوات.
- كفى يا أمين، لا تعذّب نفسك.
- لا، بل أنا أواسي نفسي بهذا الكلام، كيف هو بيتي يا خالتي؟ اشتقتُ إليه، اشتقتُ لسريري، كما اشتقتُ للجلوس وحيداً على الكنبة في غرفة الجلوس وأشاهد التّلفاز بكلِّ هدوء، وأشربُ الشّاي السّاخن بالحليب.
- عزيزي بيتُك بخير واشتاق لك أيضاً، كلَّ يوم أنوي أن أنظّفه وأمسحُ لك الغبرة، لكن لا يحصلُ التّصيب، أنشغل بأمور كثيرة، إن شاء الله سأنظّفه لك وأُقفله.
- لا تستعجلي على شيء، فمَعك ستُّ سنوات لتنظّفيه، واختاري السّنة التي تحلو لكِ ونظّفيه.
- كفاك هراءً، لقد أرسلتُ لك طعاماً، أريدك أن تأكل جيّداً، لقد أصبحت ضعيفاً ونحيلاً.

***

يوم يأتي ويوم يذهب، حتّى قارب الأسبوع الثّـالث على الانتهاء، لكنَّ أبا ليلى عاد ليكبَّ بلاه على أمين مرّة أخرى، لكن أمين هذه المرّة كان تصرّفه مختلفاً تماماً، فعندما جاءه أبو ليلى وقال له قم أيّها الولد كانت ردّة فعل أمين سريعة، حيث كان بيده قلمَ رصاصٍ، فأدخله بعين أبي ليلى بسرعة وفقأ له عينه، فأخذ أبو ليلى يصرخ في مكانه: "آه عيني... لقد خلعتَ عيني أيّها الأبله الأحمق". وقام ليتهجّم على أمين بالسكّين. فأخذ أمين يُعارك بكلِّ قوّة، وبدأت الأصوات تعلو في المهجع، حتّى جاءت الشّرطة وحرّاس السّجن، وأخذوا أبا ليلى ووضعوه بالسّجن الانفرادي. وأخذوا أمين أيضاً ووضعوه بسجن انفراديّ آخر لافتعاله المشاكل وفقأ عين أبي ليلى، فلم يهدأ أمين وقرّر الانتقام من أبي ليلى أشدّ انتقام، ليكفَّ عن غايته القذرة هذه، وهما أيضاً سيقضيان فترة طويلة في السّجن معاً، وإذا بقي أبو ليلى هكذا وبنفس الغاية فإنَّ أمين لن يهدأ باله، لم يرَ سوى المشاكل وسواد الأيام لذا وضع في رأسه موضوع الانتهاء من هذه المشكلة مهما كان الثّمن والانتقام.

وبعد انتهاء الأسبوع الثّالث جاء موعد زيارة أمين، فجاء جميع أصدقائه لزيارته إلاّ ريم. كانت حالة أمين الصحيّة والنفسيّة قد ازدادت سوءاً، تفاجأ الجميع من شدّة التّعب التي تظهر على وجهه، لكن لم يشعروه بشيء أو بالشّفقة، فسُرَّ أمين لرؤيتهم جميعاً. فبدأ أسامة كلامه مع أمين وقال له:"يا صديق عمري أنا أدعو لك دائماً أن يُخرجك الله من هذه المصيبة وقلبي معك، و أنا أعرف أنك قويٌّ وتستطيع أن تتحدّى كلَّ الظّروف، جئت يا عزيزي لأودّعك اليوم، على أمل أن أراك بعد فترة قد تخرّجت من الجامعة، وأصبحت مهندساً معماريّاً له اسمه وشهرته".

فقال له أمين: "لِمَ تُريد وداعي، ألا تريد زيارتي بعد ذلك؟"

– يا أمين، أريد طبعاً لكن أنا مسافر إلى الإمارات العربيّة المتّحدة، للعمل كمدرّسٍ للّغة العربيّة، وقد قدّمت شهاداتي وأوراقي وتمَّ قبولي على الفور على أساس أن أعمل مدّة ثلاثة أشهر تحت التدريب، وسأبدأ بعقد عملٍ أوّل السّنة القادمة.

– ألف مبروك يا أسامة، أنا مسرور لأجلك لقد أفرحتني بهذا الخبر، ثابر ولا تيأس فالعمل بالإمارات فرصة جيّدة، جميع الخرّيجين يحلُمون به.

ثمَّ نظر أمين لهاني نظرة عتاب، فقال له هاني: "ما بك يا أمين، أرى في عيونك كلاماً موجّهاً لي بالتّحديد!".

فأجابه أمين:"نعم، لـــمَ لمْ تخبرني بالحقيقة يا هاني؟"

– حقيقة ماذا؟

– أنّ ريم ليست على ما يرام، كما أنَّ طبيباً تقدّم لخطبتها فوافقت عليه لتحاول نسياني.

– يا أمين، أنالم أكن أريد مضايقتك، ويكفيك الهمّ الذي أنت فيه. هل شرحت لك هذا بالرّسالة؟

– نعم، كانت رسالة قاسية، مزّقتُها ورميتُها.

فقالت له ديالة: "لا نريدك أن تحزن يا أمين، كلّ شيء قسمة ونصيب، وريم انساها فهي إن تزوّجتْ ستسافر إلى إسبانيا لتسكن هناك؛ لأنَّ الطّبيب يريد إكمال دراسته ليحصل على

الدكتوراه في أمراض العظام والهشاشة، فستكون لها حياتها ولك حياتك، ومازالت الحياة أمامك ولن تقف لمجرّد أنك سُجنتَ بضع سنوات".

لكن أمين بقي صامتاً يسمعهم، وقالت له نسرين: "أمين نحن جميعاً نُحبّك، تأكّد من هذا، وسنبقى نزورك ونقف بجانبك ولن تشعر أنك وحيد".

فأجاب أمين: "أشكركم جميعاً، أنتم فعلاً نعم الأصدقاء"ثمَّ وجّه كلامه لهاني وقال له: "أريد يا هاني منك طلباً صغيراً".

فسأله هاني: "ما هو؟"

اعتذر أمين من الجميع، وطلب هاني ليكلّمه على انفراد.

فقال أمين وهو يهمس بأذن هاني: "أريد منكَ سكّيناً صغيرة حادّة جدّاً". أخبره بطلبه هذا بعدما ذهب الجميع، وبقي هاني ورامي معه.

فقال رامي مستغرباً ومستهجناً الموقف:"ماذا سكّين؟"

– اخفض صوتك يا رامي، نعم... أريدها ضروريّ جدّاً .

فقال هاني: "ولماذا تريدها؟! أخشى عليك أن تقع بالمشاكل".

– لا تقلق أُريدها لأمرٍ في بالي، أرجوك أحضرها في الزّيارة القادمة للضّرورة، "لا تنس فأنا محتاج لها كالماء".

– يا إلهي ما هي الحاجة للسكّين بالسّجن؟

– لا عليك أنت، أريدها لتقشير البرتقال... ولا تقلق أحضرها فقط.

– كيف عليَّ أن أحضرها، سيأخذونها منّي عند نقطة التّفتيش.

– لا، اسمع لقد خطّطت للفكرة جيّداً. قل لخالتي أن تُحضر دجاجتين وتقوم بحشوهما بالأرز والمكسّرات والبازيلاء، وستعطيها أنت سكّيناً حادّة صغيرة، تكون قد اشتريتها سابقاً، وقل لها أمين بحاجة ماسّة إلى هذه السكّين. ولا يستطيع إدخالها للسّجن إلا بداخل دجاجة محشوّة، بحيث لا يعرف أحد أنّ بداخل هذه الدّجاجة سكّين مخبّأة بين الأرز، وقل لها أن تلفَّ الدّجاجة جيّداً بورق القصدير، فعند نقطة التّفتيش سيرنُّ الجهاز ويكون السّبب القصدير بنظر المفتّش، ولن يُعرف بالتّحديد سبب رنين الجهاز.

– ولـِمَ الدّجاجة الثّانية؟

نعم، الدّجاجة الثّانية قل لها أن تحشيها جيّداً، كما حشت الدّجاجة الأولى، لكن من دون أن تخبّئبها شيئاً، فقط لتقدّمها لمأمور السّجن ليطمئنَّ من وضع الدّجاجتين، فتقول له هذه دجاجة لأمين وأخرى لك.

– افرض أنَّ مأمور السّجن قام بتبديل الدّجاجتين بغير تعمّد، وأخذ الدّجاجة التي تحمل السكّين.

– لا، فدجاجتي ستضع خالتي معها بنفس الكيس بعض الأغراض التي تخصّني، مثل ملابس داخليّة، وبعض الأوراق...وهكذا. أما دجاجة المأمور، ستكون بكيسٍ مفصول ومعها علبة عصير فقط، فهو من المؤكّد سيأخذ الكيس الذي يحتوي على الدّجاجة والعصير ويعطني الكيس الآخر... أنا سأحاول إخراج السكّين من دون أن ينتبه أحد، ومن ثمَّ سآكل الدّجاجة.

- لكن يا أمين، أنا لا أشعر بالرّاحة لطلبك السكّين!
- قلت لك يا هاني، لا تقلق أنا بحاجة ماسّة لها، وما أدراك أنت!
-فقال رامي: "إيّاك أن تفعل شيئاً مخالفاً للقانون يا أمين".
- لا تقلقوا، أريدها فقط لشيء مهم.
- حسناً سنحضر الدّجاجتين في وقت الزّيارة القادمة أي الأسبوع القادم، مع أني لستُ مرتاحاً لطلبك، أخشى من أن ينكشف الأمر...!
- بل استرح، ولا تقلق كلّ الزّوار يُحضرون معهم الطّعام والمعلّبات وغيرها للسُجّان ولا أحد يقول لهم شيئاً...وسأنتظر حتّى ذلك الوقت، لا تقلق بشأني.

***

حيرة ونار وغضب تملأ قلب ريم، ولم تعد تستطيع تحديد مشاعرها اتّــجاه أيَّ شيء.

كان الطّبيب عمر يأتي لزيارة خطيبته ريم يوماً بعد يوم. لكنّها كلّ يوم بوجه مختلف أمام عمر. مرّة تُبيّن له أنها تحبّه، وأحياناً تكون جافّــة حتّى مجاملة لا تستطيع مجاملته، وكلّ مرّة يذهب من عندهم تجلس ريم بغرفتها تبكي. لقد احتارت والدتها معها، ووالدها أصبح قلقاً عليها... ولا يعرف كيف يرضيها.

أما باسل ابن الجيران عاد إلى عادته فأصبح يقف لها كلَّ يوم عند باب العمارة، لكن ريم تتظاهر بأنها لم تره ولا تحاول التكلّم معه، وتخرج مسرعة من العمارة يُناديها ولا تجيب عليه ولا تلتفت له، فيغضب باسل ويُضمِر في نفسه الشرَّ لها ولوالدتها على إخلافها للوعد.

في الصّباح ذهبت خالة أمين لمنزله وبدأت تُفتّح النّوافذ لإدخال هواء نقيّ وتغيير جوِّ البيت، وأخذت تُحدِّث نفسها: "منذ شهر وأنا أحاول الذّهاب لتنظيف البيت، لكن لم تكن الفرص تسمح، الآن نويت وسأنظّــف له البيت قبل أن أنشغل بأيِّ شيء، وهكذا سأغلقه وسيبقى نظيفاً، لقد اتَّسخ جدّاً عندما جاء البحث الجنائيّ، ورفع البصمات وفتّــشوا جميع أرجاء المنزل".

وعادت للحديث مع نفسها فقالت: "بعد أن أنتهي سأقوم بطهي الدّجاجتين وأذهب مع هاني لنرسلهما و أرى أمين، فهذا الأسبوع الرّابع له، وبهذا يكون قد قضى شهراً كاملاً في السّجن".

فتوجّهت إلى المطبخ في البداية وقامت بتنظيف بعض الأواني الموجودة في حوض غسيل الأطباق وغسلتْ أرضيّــة المطبخ، ثمَّ انتقلت لتنظيف الحمّام. فتناولت كيساً نظيفاً لتغيير الكيس الموجود بسلّة المهملات التي في الحمّام، ففتحت السلّة لأخذ الكيس، فوقع نظرهاعلى شيء صغير بالكيس لم يكن هناك غيره في السلّة! فأمعنت النّظر به، فتأكّدت أنه واق ذكريٍّ مطّــاطيٍّ... فاندُهشتْ وشعرتْ بالغرابة وأخذت تُحدِّث نفسها وتذكّرت أنَّ أمين قالَ لها أنه لم يتزوّج ريم فعلياً بل على الورق "إذن لمن هذا الواقي؟" دارت الشّكوك في قلبها واحتارت من الموضوع. فقرّرت الاتّــصال بريم لكي تتأكّد.

وفعلاً ذهبت مسرعة إلى غرفة الجلوس، وبحثت عن رقم منزل ريم في دليل الهاتف الخاصِّ بأمين، وتناولت السمّاعة واتّصلت، فردّت عليها ريم مباشرة.

- ألو؟

- مرحباً ريم، أنتِ ريم أليس كذلك؟
- بلى، أهلا خالة علياء.
- كيف حالكِ يا ريم؟
- نوعاً ما جيّدة، الحمد لله على كلِّ شيء.
- ريم حبيبتي أريد أن أسألك سؤالاً مهماً وضرورياً، لكنه محرج قليلاً، أرجوكِ ساعديني!
- تفضّلي يا خالة، إن أمكن فلن أُقصّر معكِ؟
- هل ما زلتِ بنتاً، أقصدُ عذراء؟

استغربت ريم من هذا السؤال المباشر والجريء، وقالت للخالة: "ماهذا السؤال خالة علياء أرجوكِ"؟!!

- أرجوكِ أنتِ ياريم..من فضلكِ جاوبيني ضروري أن أعرف.
- طبعاً يا خالتي...! ما هذا السؤال الغريب، لا أفهم قصدكِ أبداً".
- إذن لم تتزوّجي أنتِ وأمين فعليّـــاً.
- ألم يقل لكِ أمين، أننا تزوّجنا على الورق فقط؟
- نعم، لكن هناك أمراً أردّتُ التحقّق منه، أشعر أنه ربّما يُظهر براءة أمين... شكراً لكِ.
- يا خالة أرجوكِ اشرحي لي ماذا يجري، وما دخلي أنا بالموضوع كيف ستظهر براءته؟
- فيما بعد...فيما بعد، إلى اللّقاء الآن يا ريم.

وأغلقت ريم سمّاعة الهاتف وهي مندهشة من سؤال الخالة علياء، وقالت: "ما دخل عذريّتي ببراءة أمين؟ لا أفهم! سؤالٌ جريءٌ وغريب، لقد قلقت؟!"

تعود وترفع الخالة سمّاعة الهاتف وتتّصل بقسم الشّرطة لتخبرهم عن الشّيء الذي وجدته لربّما كان مفيداً، وكانت تثق أن له علاقة بجريمة الاغتصاب التي سُجن لأجلها أمين. فطلبت العقيد رأفت وتكلّمت معه، قالت له: "لقد وجدتُ يا سيّدي في الحمّام بمترل أمين شيئاً، ربّما كنتم غافلين عنه"

فقال لها: "ماذا وجدتِ؟"

- لقد وجدتُ واقياً ذكريّاً مطاطيّاً، وأمين لا يستعمل أبداً مثل هذه الأشياء، فهو شابٌ ليس له علاقات مع الفتيات أوإحضارهنَّ للمترل، ولا دخل له بهذه الأمور، كما أنه خاطب فتاة وخطيبته ما زالتْ عذراء. أنا أعتقدُ أنَّ هذا الواقي لأحدٍ دخل مترل أمين، وهو نفس الشّخص الذي استعمل ملابسه وألصق التّهمة به".

فقال لها العقيد رأفت: "حسناً، عليك حمل الكيس كما هو دون إخراج الواقي منه، ووضع الكيس بكيس آخر وأحضريه لنا، ونحن بدورنا نرسله إلى معمل البحث الجنائيّ، ونفحصُ المادّة المنويّة التي بداخله، فإذا تبيّن أنها لأمين فإنَّ التّهمة تكون قد ثبتت مئة بالمئة عليه ومن دون أيّ شكوك؛ لأنَّ المجرم كان يضع واقيّاً ذكريّاً أثناء اغتصابه للفتاة وهذا بالفعل ما تبيّن عندما كشف الطبُّ الشرعيُّ فلم يكن هنا كأثرٌ للسّائل، وأما إذا أظهرتْ النّـــتائج أنَّ هذا السّائل مختلف ويحمل حمضاً نووياً غير الذي ظهرت نتيجته بالفحص المخبريّ الخاص بأمين فستُعاد فتح ملفّـــات

القضيّة ودراستها من جديد والتّحقيق سيأخذ مجرى آخرَ له، وسنعود لفحصِ البدلة البنيّـــة والقميص وإن شاء الله سنعود ونُثبتَ براءته".

- من المفروض أنَّ التحرّي كان أكثر دِقّة وفحصُ البدلة فحصاً شاملاً...وإلا لم يكن أمين مسجوناً الآن.
- سيّدتي،لم يَفُتْ الأوان بعد هناك قضايا تُفتح ملفّاتها بعد عدّة سنين وقضايا ما تزال عالقة في المحاكم،حالياً تعالي وأحضري العيّنة للفحص وبعدها نقرّر.
- حسناً أيها العقيد مسافة الطّريق وأكون عندكم.

وبالفعل حملت الخالة علياء الكيس كما قال لها العقيد رأفت وتوجّهت على الفور لقسم الشّرطة لتسليم العيّنة.

فقال لها العقيد: "سنُرسل العيّنة للمعمل الجنائيّ والبدلة أيضاً، وبعد أن تخرج النّـــتيجة سأخبركِ بها. اذهبي الآن ونشكركِ كلَّ الشّكر".

عادت الخالة مسرعة إلى البيت لتطهو الدّجاج لأمين، وترسلهما له قبل انتهاء موعد الزّيارة.

كانت ريم في هذه الأثناء تجلس أمام التّلفاز، قلقة من السّؤال الغريب الذي سألته الخالة علياء لها، فرنَّ الهاتف...ركضت ريم لتُجيب، اعتقدت أنها الخالة علياء تُريد أن تخبرها بشيء. فما كان إلا باسلاً على الهاتف.

- ألو؟
- مرحبا ريم، أنا باسل. (كان باسل يُراقب منزل ريم جيّداً، ويعلمُ أنها وحدها بالمنزل من دون أحد).
- أهلاً باسل، ماذا تُريد؟
- معي طبقاً من المعجّنات أريد إرساله لكم، إنه من صنع يد والدتي لقد طلبت منّي أن أرسله، فأحببت أن أتأكّد من تواجد والدتكِ في البيت، لكي أوصل الطّبق.
- شكراً، أنا في البيت ووالدتي في العمل... إذا أردتَ أرسله.
- حسناً نصف دقيقة بالمصعد وسأكون عند بابكم.

وبالفعل طرق الباب وفتحت له ريم، فلم تجد بيده طبقاً كما قال... فقالت له: "أين الطّبق؟" فرمى بها إلى الدّاخل بضربةٍ بيده، وأغلق الباب وراءه. فقال لها: "عن أيِّ طبقٍ تتحدّثين؟عن طبق إخلاف الوعود، أم طبق اللاّمبالاة هذه؟ هيّا قولي؟"

فخافت ريم جداً وقالت له: "لا أفهم عن ماذا تتحدّث، ابتعد عنّي أرجوك!".

فأخذ يكلّمها والشّر يخرج من عينيه، ويقترب منها ببُطء كالسّبع الذي يريد أن ينقضّ على فريسته، وقال لها: "أريد أن أنتقم من والدتكِ، وأن أنتقم منك أيضاً...وعدتني والدتكِ بأن تزوّجني حضرتكِ إذا قمتُ بإبعاد أمين عن طريقكِ، وها هو بعيد عن عيون الجميع، لأجدكِ بعد فترة أنكِ قد خُطِبتِ لأحد غيري، لا لن أسكت...فهذا حقّي وأنتِ لي، وسآخذ حقّي بيدي الآن".

وأخذت ريم تصرخ: "يا إلهي...ابتعدْ عني رائحتكِ كريهة جداً، يبدو أنك سكران ولا تعرف ماذا تفعل...ابتعد...ماماا...باباا...ساعدوني، وأخذت تصرخ خوفاً وتركض في أرجاء المترل وباسل يلحق بها. حتّى حُجزتْ عند الحائط"...ابتعد أرجوك...وأخذت تضربه بيدها، فضربها على أنفها فسال الدّم منه. وأخذ يقول لها: "سأنتقم منكِ ومن والدتكِ أيّتها الحقيرة...لماذا تمشين وترفعين منخاركِ للأعلى...لـــمَ الغرور؟ أنا سأعلّمكِ الأدب... أقف كالكلب كلَّ يوم عند باب العمارة لكي أكلّمكِ وأنتِ عديمة الإحساس...!"فصار يشُدّها ويُمزّق ملابسها ويضربها ويقول:"طلبتكِ بطريقة رسميّة من دون لفٍّ ودوران لكن يبدو أنّ هذا الأسلوب لا يعجب والدتكِ... سأريكِ وأريها أسلوباً أكثر تطوّراً بالوصول للرّغبات".

وأخذت ريم تصرخ ويعلو صوتها وتبكي وترجف، فسمعت صوت باب المترل يفتح، لقد كان والدها فسمع صوت صراخ ريم في إحدى الغرف بالداخل، فركض وأخذ سلاحه من غرفة المكتب وركض إلى غرفة ريم مسرعاً، وجد باسل يحاول الاعتداء عليها... وجّه السّلاح إليه وقال له: "لا تتحرّك من مكانك وإلاّ سأطلقُ النّـــار عليك" وقال لريم "اخرجي من الغرفة!" وخرجت ريم وهي بحالة ذُعرٍ شديد وخوف، والدّماء تسيل من وجهها. فأغلق والدها الباب مسرعاً وحبس باسل بالغرفة واتّصل بالشّرطة للقبض عليه.

وفعلاً جاءت الشّرطة وقبضت على باسل متلبّساً، ووضعته في قسم الشّرطة على ذمّة التّحقيق. في هذه الأثناء كانت الخالة قد أنهت طهي الدّجاجتين اللّتين قد جهّزتهما من ليلة البارحة. وفَعَلَتْ كما قال لها هاني تماماً، لكنها كانت خائفة واعتبرت ما تفعله هو جُرم حقيقيّ؛ لأنّ الشّرطة لو اكتشفتْ أنَّ الدّجاجة تحمل سكّينا في بطنها لعوقبتْ هي على هذه الجريمة.لكن لم تشأ أن ترفض طلب أمين، وهي واثقة منه أنه لا يُسيء التّصرّف.

وفعلاً أوصل هاني الدّجاجتين لمقرّ السجن وقام المأمور باستلامهما، وأخبره أنّ الدّجاجة هذه مع علبة العصير لك أيّها المأمور، وأنَّ الدّجاجة الثّـــانية مع الملابس الداخليّـــة لأمين بالكيس الثّـــاني، فطار المأمور من الفرح لحصوله على دجاجة محشيّـــة ذات رائحة فوّاحة وشهيّـــة، فوضعها في مكتبه وأخذ الثّـــانية لكي يوصلها لأمين.

سُرَّ أمين جداً برؤية الدّجاجة مع أغراضه بنفس الكيس، وذهب للحمام وفتح الدّجاجة وأخرج السكّين وغسلها، ووضعها في جيبه دون أن يُشعِر أحد، وقال في نفسه: "سأرتاح منك يا أبا ليلى وأريح البشريّـــة من شرك". وخرج ودعا العمّ عبد الصّمد ليشاركه طعامه، فجاء عبد الصّمد وجلس وجاء شابّـــان سجينان أيضاً وجلسا ليأكلا معهما.

أمين الشّاب الحكيم بتصرّفاته -كما يُلقّبه أصحابه- والذي يبتعد عن المشاكل، قد غيّرته أيّام السّجن هذه، لقد تعلّم الكثير ورأى الأكثر واختلف تفكيره فهو لم يَعُد يأبه لشيء، وأخذ يُخطِّـــط كيف سيُرتّب لجريمة حقّاً، فهو يريد قتل أبو ليلى والخلاص منه وليثأر لنفسه، ويُثبتَ رجولته وشجاعته، فهو مشحون بالغضب،وقلبه الصّغير الضّعيف صار ينبضُ لينتقم من الحياة، فهو يشعرُ بالقهر والظّلم...وحبيبته تركته ظُلماً وبهتاناً، وفوق هذا كلّه... يتمُّ الاعتداء عليه، لقد كتم بقلبه الكثير، لكن إلى متى؟ هو سينفجر، وما ردّة فعله هذه إلاّ انتقاماً وتمرّداً على الوضع

الذي هو فيه، ولا شيء سيختلف لديه إن زادت سنوات السّجن، بالنسبة له كلُّ شيء ضاع...الحبّ... المستقبل... الدّراسة...السُّمعة وحتّى رجولته، ولا حتّى أمٌّ أو أبٌ يسألان عنه، هو بائس مُحْـــبَط.

فقرّر أن يستجيب لأبي ليلى ويذهب معه عندما يناديه، ويكون مُطيعاً... وفجأة يلتفتُ للخلف ويطعنَ أبا ليلى بصدره، ويبرّر فعلته أنَّ أبا ليلى كان يعتدي عليه فدافع عن نفسه، فلن يكون الحكم إعداماً إنما في أسوأ الأمور سيأخُذ مؤبّداً أو يُخفّف الحكم. فبقي أمين مُــخبِّــئاً السكّين في جيبه، ينتظر لحظة قدوم أبي ليلى إليه.

وصلت نتائج المعمل الجنائيّ للعقيد رأفت، واتّصل على الفور بالسيّدة علياء.

الخالة علياء لم تذهب مع هاني لزيارة أمين، وبقيت بالقرب من الهاتف تنتظرُ مكالمة العقيد رأفت بفارغ الصّبر.

– ألو مرحباً، العقيد رأفت معكِ.

– أهلاً أيها العقيد، طمئنّي أرجوك، هل ظهرت النتائج؟

– نعم، أريد أن أقول لكِ ألف مبروك يا سيّدة علياء، النّــتائج غير مطابقة، السّائل المنوي يختلف كُليّــاً عن فحوصات أمين المخبريّة.

أصبح قلب علياء يدقُّ بسرعة من شدّة الفرح، وأخذت دموعها تسيل على خديّها فرحاً وقالت له: "الحمد لله...الحمد لله"، أنا قلت أنّ أمين بريء، أنا أعرف أنا متأكّدة، أشكرك يا سيّدي، لقد أرحتني.

فقال لها: "كما أنَّ آثار العَرَق التي أُخذت عيّناتها من البدلة بعد فحص المعمل الجنائيّ تختلف وتبيّن أنها لشخصٍ آخر غير أمين...سنعود ونفتح ملفات القضيّــة من اليوم، كما سنكلّم محامي الدّفاع الخاص بأمين لإخباره عن التطوّرات، وليحجز موعداً لغدٍ بالمحكمة إن أمكن، و ليُــكمل ترافعه بالمحكمة عن أمين بعد دراسة القضيّــة اليوم من أوّل وجديد.

– وهل ستُخبرون أمين؟

– لا، لن نخبره بشيء إلاّ بعد انعقاد جلسة طارئة بالمحكمة، وإثبات براءته.

– حسناً، شكراً لك أيها العقيد، وأرجوك ابذلْ جُهدك.

– لا تقلقي فهذا واجبنا، ولن أبقي بريئاً مسجوناً ظُــلماً في السّجن.

تكلّم العقيد رأفت مع محامي الدّفاع، وأخبره أنهم وجدوا واقياً ذكريّاً، وتبيّن أنه ليس لأمين؛ لاحتوائه على سائل مختلف، كما أنّ المدّة الزمنيــّـة التي رُمي فيها هذا الواقي تُــقدّر بحوالي من(٣٠ إلى ٣٥ يوماً)، فهو تقريباً نفس الزّمن الذي انقضى على حدوث جريمة الاغتصاب، ووجدوا على الواقي بصمتين لإبهام وسبّابةٍ تختلفان أيضاً عن بصمتي إبهام وسبّابة أمين.

ومع التّحقيقات مع باسل وأخذ بصماته وجدوا أنّ بصماته مماثلة تماماً للبصمتين اللّتيين رُفعتا عن الواقي الذكريّ الذي كان في سلّة المهملات، فقرّروا أخذ عيّنة من السّائل المنويّ الخاص بباسل، وبعد ظهور النّــتيجة من المعمل الجنائيّ، تمّ مقارنة السّائل إذ هو نفسه، فأحضر العقيد رأفت باسل من الحجز وواجهه بالحقيقية، لكن باسل بدأ يُنكر، فضربه العقيد وهدّده، وقال له:

"لا مجال من أن تُنكر يا باسل، الأدلّة ضدّك واضحة، وقمنا بمسكِكَ متلبّساً، وتنوي فعل جريمة أخرى مشابهة أيضاً هذه المرّة".

ومع الضّغوطات عليه وضربه، قام بالاعتراف أنه من اغتصب نيرمين، وأنّ هدَفه إبعاد أمين من السّاحة لأنه لا يحبّه ويكرهه، فشرح لهم كيف سرق المفاتيح والخلويّ والورقة من جيب مِعطف أمين من دون أن يشعر، وذهب لبيته وسرق ملابسه وتنكّر بوجه المهرّج، وعاد للبيت ووضع الأدلّة لتكون ضدّ أمين، ورتّب كلّ شيء على أساس الإيقاع به، حتّى المطعم ذهب إليه وأوقع المفتاح على الأرض بعد أن قُبض على أمين، لكن لم يتوقّع أنَّ أحداً سيفتحُ سلّة المهملات ويبحث في القمامة التي بالسلّة.

هذا لأنَّ كلَّ جريمة ناقصة، ودائماً المجرم حتّى ولو كان محترفاً سيترك وراءه أثراً يدلُّ عليه.

طلب المحامي من المحكمة عقد جلسة طارئة حول القضيّة رقم (٣٢٤٥/٠٦)، وفتح ملف القضيّة لأمورٍ وتغيّرات طرأت على الجريمة، فتمّ قبول عقد الجلسة من المحكمة في صباح اليوم التّـــالي.

بقي أمين طيلة اللّيل ويده في جيبه ممسكاً بالسكّين، وبات مستيقظاً ينتظر أن يترل أبو ليلى إليه من سريره، لكن أبو ليلى كان غارقاً بالنّوم ولم يستيقظ، وكان صوت شخيره عالياً، ويبدو عليه أنه لن يستيقظ هذه اللّيلة، فقام أمين من سريره بكلِّ هدوء وقرر أن يصعد إليه ويقتله...

الفصل الثاني والثلاثون

بين طيّات اللّيل المظلمة، وصراع النفس الطيّبة، وخشونة الرّجولة المقتولة، بقي أمين معانقاً الألم النفسيّ الذي حلَّ به ومتمرّداً على الوضع..ويده في جيبه ممسكاً بالسكّين، بات مستيقظاً ينتظر أن يترل أبو ليلى إليه من سريره، لكنَّ أبو ليلى كان غارقاً بالنوم ولم يستيقظ، وكان صوت شخيره عالياً، ويبدو أنه لن يستيقظ هذه اللّيلة، فقام أمين من سريره بكلِّ هدوء، وقرّر أن يصعد إليه ويقتله....

وبدأ يضغطُ على نفسه لغرس السكّين في قلبه، لكن يده متردّدة ويشعر أنها ضعيفة لا تتجرّأ على هذه الفعلة، فيعود ويَذْكُر الطّعنة التي ذبحتْ رجولته، فتنشحن نفسه غضباً، يده ترجف أعصابه مهترئة، قلبه وكأنه قطعة ثلج في صدره وُضِعتْ على جمرة نار.

عاد لمكانه محدّثاً نفسه:"هل آخذ حقّي بيدي؟ ياربِّ ساعدني...لم أكن بحياتي مجرماً، ماذا أفعل الآن أأقتل نفساً؟ نعم سأقتله هو قتلني...إن لم أتخلّص منه سأبقى تحت رحمته...آآآآآه يا إلهي...لو أنني رجلاً لقتلته من المرّة الأولى...والله أنا أتعذّب".وبقي يتشاجرُ مع نفسه وضميره.... محاولاً شحنهما بالقوّة والغضب حتّى يتمكّن من المجرم، لكن سرعان ماداهم قلبه النّوم بعد طول تفكير حتّى غفا قُرابة الفجر وهو ينتظر نزول أبي ليلى إليه، واستيقظ في الصّباح وهو ما يزال على نيّـــة قتله، حتّى ولو أنَّ أبا ليلى لم يلتفتْ إليه أو يكلّمه؛ لأنه يريد الثأر وبأسرع وقت.

***

اتّـــفقت ريم مع هاني للذّهاب إلى المحكمة لأخذ أوراق عقد القران و طلب الطّلاق صباحاً، وبالفعل أخبرها أنه سيكون عندها حوالي السّاعة العاشرة والنّصف هذا الصّباح، فأخبرت والدها أنها تريد الذّهاب لتناول الإفطار مع صديقاتها في أحد المطاعم الجديدة، لأنها لا تستطيع إخبارها الحقيقة... بالطّبع!

أما جلسة المحكمة حول قضيّة أمين فقد بدأت هذا الصّباح في تمام السّاعة التّـــاسعة، لقد أحضروا باسلاً وحجزوه في قفص الاتّهام، وبدأ وكيل النّيابة بشرح التّطوّرات الجديدة التي ظهرت في هذه القضيّة، والدّليل الجديد الذي أدّى إلى إثبات براءة أمين من التّهمة، واعتراف باسل بأنه هو المجرم المعتدي، وأكمل محامي الدّفاع الكلام مُدافعاً عن أمين ومثبتاً براءته، وبهذا أعلنتْ المحكمة في القضية رقم (٠٦/٣٢٤٥) بتبرئة أمين شاكر غيابيّاً من التّهمة الموجّهة إليه، والحبس للمتّهم باسل سفرتيتي بالسّجن لمدّة ثمانِ سنوات، مع الشّغل والنفاذ على جريمة الاغتصاب وجريمة محاولة الاغتصاب.

خالة أمين كانت بالجلسة وما أن سمعت خبر براءة أمين أخذتْ تبكي وتضحك فرحاً، ولم تعد تتمالك أعصابها من شدّة الفرح، كانت تتمنّى لو أنّ أمين واقفاً وسمع براءته، لطار من الفرح، ولو أنّ أصحابه سمعوا براءته، لكن المحامي أخبرها أنه سيذهب بنفسه إلى السّجن ويُفاجئه بهذا الخبر السّار، فقالت له الخالة علياء: "سنذهب سويّاً لأرى السّعادة في عينه بعد سماع الخبر"، فقال

لها المحامي: "لا، أنتِ اذهبي للبيت وحضّري له طعاماً شهيّاً وجهّزي له المنزل؛ لأنه سيكون جائعاً ومتعباً، وستستقبليه في البيت هذا أفضل له ولكِ".

فوافقت الخالة وذهبت مسرعة إلى البيت، والسّعادة تغمر قلبها و فِكرها، فهي في سعادة لا توصف حقّاً، وعندما وصلت للتوّ إلى البيت رفعت سمّاعة الهاتف واتّصلت مع هاني لتخبره عن براءة صديقه، فهو ما زال لا يعلم ما جرى من أحداث وتطوّرات جديدة بالقضيّـــة.

فرنّ الهاتف المحمول في جيب هاني، كان هاني في تلك الأوقات قد انتهى هو وريم من تقديم أوراق طلب الطّلاق في المحكمة، وهما خارجان متوجّهان للسيّارة للعودة من المحكمة.فوقف هاني ليُخرج الهاتف من جيبه، وقال لريم: "على مهلكِ انتظري" فوقفت هي الأخرى.

– ألو، ردَّ هاني.

– مرحباً... يا هاني، كيف حالكَ يا عسل؟

– أهلاً خالة علياء، أراكِ سعيدة اليوم ونبرة صوتكِ يملؤها الفرح! ما السّر؟

– سأخبرك خبراً سارّاً جدّاً جدّاً، ومميّزاً... إنه خبر الموسم لهذا العام، ولا خبر ينافسه.

– هيّا قولي لقد تشوّقت.

– ماذا تعطيني مقابل هذا الخبر؟

– خالتي أرجوكِ، هيّا أخبريني لم أعد أحتمل.... لكِ ما تريدين؟

فأصبحت ريم تُشير بيدها بمعنى ماذا يجري؟ وتشُدّ بهاني ليخبرها فكان هاني يُشير لها بيده انتظري.

ثمَّ قالت له الخالة: "ماذا تتوقّع"؟

– والله لا أدري يا خالتي، فالأحزان هذه الأيام تغلب على الأفراح، ولا أستطيع تخيّل ما هو ممكن أن يكون...!

– حسناً سأخبرك... ظهرت براءة أمين اليوم.

صرّخ هاني في الشّارع بصوتٍ عالٍ وباندهاش: "ماذا؟"والابتسامة مطّتْ شفتيه حتّى أذنيه.

فأكملت الخالة: "نعم كما سمعت، وسيخرج اليوم من السجن".

–لا أصدّق؟ فعلاً خبر الموسم، كيف حصل هذا؟ يا أمين يا صديقي أنا كنتُ واثقاً منك...

– سأخبرك فيما بعد عن التّفاصيل، لكن الآن جهّز نفسك لتذهب بعد ساعةٍ وتأخذه من السّجن.

– أكيد، طبعاً سأذهب راكضاً، فعلاً ما زلتُ لا أصدِّق!! (وأخذ يُصفّق ويرقُص بالشّارع).

وبعد أن أنهى المكالمة وضع هاتفه في جيبه، ونظر لريم مبتسماً ابتسامة مشرقة يملؤها الأمل والفرح.

فقالت له ريم: "ماذا قالت لك الخالة علياء؟" هل قَلّتْ مدّة السّجن المقرّرة على أمين؟

– أفهمتِ أنتِ هكذا، لا يا حلوة، لا أبداً.

– إذن ماذا جرى؟

– لقد ظهرت براءته اليوم، ما رأيكِ؟

- براءته... أحقاً؟ أنت واثق من هذا الكلام؟

اندُهشتْ ريم أشدَّ اندهاش، وصار قلبها يخفق بسرعة.

- كما سمعتِ يا ريم، وسأذهب بعد ساعة لإحضاره.

سُرّتْ ريم لهذا الخبر المـُـدهش، لكن نظرت إلى نفسها فحزنت وغابت الابتسامة من على شفتيها، وكأنها غيمة سوداء مرّت فغطّت شعاع الشّمس الدّافئ الجميل.

فنظر لها هاني فوجد الفرحة لم تَدُمْ على شفتيها، فقال لها: "هل ندخل للمحكمة ونسحب طلب الطّلاق؟"

فردّت عليه بحزن: "الطلاق ليس هو المشكلة ؛ لأنّ كلّ الأمور اختلفت، وأكيد أمين لا يريد رؤيتي الآن على ما فعلتْ".

فقال لها: "نحن في البداية نسحب الطّلاق، ومن ثمّ نعالج باقي الأمور...لقد قلتُ لكِ لا تتسرّعي يا ريم ولا تظلميه، وكأني كنتُ أكلّم نفسي، لكن أنا للآن متعجّب من أين استطعتِ إحضار كلّ هذه الكراهية اتّــجاه أمين؟"

- هاني أرجوك،أنا لم أكرهه، لقد كنت متعبة قلقة، كلّ الأمور اختلطت في رأسي، فلم أعد أعرف ماذا أفعل،كنت أحاول إقناع قلبي أن أمين المجرم لكي أكرهه وأحاول أن أنساه، كان لابدّ من فعل ذلك يا هاني.. وتقصّدتُ أن أرسل لأمين رسالة قاسية لكي ينساني ولا يبقى متعلّقا بهذا الحبِّ الأعمى... هذه ستُّ سنوات يا هاني فعلتُ الصّواب من أجله ومن أجلي، كنتُ أدوس على قلبي، كلّ هذا خوفاً من أمي، لو وقفتْ هي بجانبي وبجانب أمين لكان الوضع مختلفاً، كنت سأنتظره الدّهر...لكن أنت رأيتَ بأمِّ عينك، أمي لا تحبّه وهو طالب هندسة متفوّق فكيف بسجين بغضِّ النّظر عن براءته أو جنايته... وكلّكم تعلمون أني أحبّه. والآن اختلطت الأمور أكثر وازدادت تعقيداً بالنّسبة لي،كيف عليَّ أن أصلح كلّ ما فعلتُه؟ وهذا الطّبيب المسكين الذي استعمله كأداة للانتقام.

ما ذنبه؟ لقد شبكتُ كلّ الأمور مع بعض، أنا غبيّة!

صار هاني يهزُّ برأسه أسفاً على تصرّفات ريم الهوجائيّـــة، وقال: "فعلاً غبيّة! ودائماً غبيّـــة... هيّا نعود للمحكمة ونرى ما نستطيع فعله".

ودخلا للمحكمة الشرعيّـــة وطلبا سحب ملف الطّلاق، لكن رُفض طلبهما؛ لأنّ طلب الطّلاق قد دخل إلى ملفات المحكمة، ولكن أخبروهما إنَّ المحكمة ستوقفُ هذا الطّلب ولن تبدأ العمل به إذا قاما بسرعة بتقديم كتاب لإلغاء هذه القضيّة وتقديمه للمحكمة ليتمّ الموافقة على إلغاء طلب الطّلاق، فقالت ريم: "لا مشكلة لنقدّم طلب إلغاء". لكن تمّ تأجيلهما للغد لتقديم طلب الإلغاء؛ لأنّ المكتب أُغلق الآن وبعد ربع ساعة ستُغلق المحكمة أبوابها، فلن تقبل الطّلبات في هذا الوقت.

فخرجت ريم حزينة، وقالت: "أرأيتْ، بدأت الأمور تتعقّد منذ البداية، وعلى الغداء اليوم سيأتي الدّكتور عمر عندنا".

- تصرّفي بطريقة طبيعيّـــة يا ريم، ولا تُبدّلي تصرّفك مع أيّ أحد.

– هيا لنعد للسيّارة ونفكّر ماذا سنفعل فيما بعد...

***

أما محامي أمين فقد ذهب مسرعاً بعد المحكمة إلى مقرّ السّجن، وجلس بمكتب المأمور منتظراً قدوم أمين ليُخبره بالخبر السّعيد.

نادى حارس السّجن على أمين، وقال له: "هيّا يا أمين تعال فلديك زيارة".

وقف أمين مستغرباً، من الذي جاء يزوره وفي غير موعد الزّيارات، فسار أمين مع الشرطيّ وأوصله إلى مكتب المأمور، دخل أمين فرأى المحامي يجلس في المكتب ينتظره، فسلّم عليه المحامي بحرارة شديدة وابتسامة متفائلة، لكن أمين لم يبتسم وبقي مستغرباً من سعادة المحامي لهذه الدّرجة، وفرحه غير المبرّر بالنّسبة له، فقال له المحامي: "ابتسم يا أمين، أراك عابساً، هل يوجد شخصٌ عابساً وحزيناً لهذه الدّرجة، وهو بريء؟"

نظر أمين للمحامي ببرودولم ينفعل من الكلام وقال له: "لم أفهم ما معنى كلامك؟ أتهزأ من الوضع الذي أنا فيه؟"

فقال المحامي بسعادة: "لا... لقد ظهرت براءتك، ولم تفهم من كلامي...غريب؟"

فقال أمين وقلبه يرتجف: "براءتي!! هل تتكلّم بجدّيّة؟"

هزّ المحامي رأسه بنعم وهو مبتسم...

فأصبح قلب أمين يخفق فرحاً، وكأنه يرقصُ ويعزف في صدره ألحاناً لتُسمع الزّمن. وصار يضحك ويضحك...لكن عيونه حمراء والدّموع تسيل على وجهه، وهو يقول: (الحمد لله، الحمد لله...أشكرك يا ربّ) وخرَّ ساجداً على الأرض سجدة شكر لله تعالى.

فقال له المحامي: "اهدأ الآن يا أمين واذهب للمهجع وأحضر جميع حاجيّاتك، وتعال لتأخذ ملابسكَ، وتُبدّل هذه الملابس التي ليست لك".

وفعلاً ذهب أمين راكضاً فرحاً وهو يصرخ: "الحمد لله...يا ربّ، كم أنت عظيم يا إلهي، الحمد والشكر لك". وأخبر جميع السجناء بالمهجع أنّ براءته قد ظهرت وهو سيخرج الآن، وأصبح يودّعهم، فجاءه أبو ليلى وقال له: "سنشتاق لك يا حلو" فنظر إليه أمين بغضبٍ واشمئزاز ولم يجبه.

قال له أبو ليلى: "بسيطة، لن أضربك لأنك خارج الآن، ولن تبقى معنا فلا داعي لتأديبك بسبب عدم ردّك عليّ"

وودّع أمين العمّ عبد الصّمد، وقال له: "شكراً يا عمّي كثيراً، أنت الذي كنت ترفع من معنويّاتي طيلة هذه المدّة الصّعبة، ومن دونك لم أكن أحتمل ولا دقيقة هنا، أشكرك مرّة أخرى ولن أنساك وسأزورك دائماً يا عمّي" فودّعه العمّ وقال له: "سأفتقدك يا بنيّ، ألا تريد أخذ أغراضِك؟"

فقال له أمين: "لا يا عمّي، لا أريد أيّ شيء يُذكّرني بالأيام السوداء التي قضيتها هنا، سأترك أغراضي وأنتم تصرّفوا بها".

فقال له عبد الصّمد: "حسناً، اسمح لي أن آخذ غطاءك هذا الذي أحضروه لك؛ ليبقى ذكرى من رائحتك عندي، فأنت بمقام أولادي تماماً يا بنيّ"

فقال أمين: "مؤكّد يا عمّ...احتفظ به" فسحب أمين الغطاء من على سريره وأعطاه لعبد الصّمد. فشكره وقال له: "أتقبل منّي يا أمين هذه السُبحة الخشبيّة كذكرى مع أنها ستُذكّرك بالسّجن"

– فتناولها أمين من يد العمّ، وقال له: "أشكرك يا عمّ بالتّـــأكيد سأقبلها، فهي ستذكّرني بالشيء الجميل والوحيد بهذا السّجن، هو أنت يا عمّي لن أنساك أبداً". وأخذها وخرج مسرعاً ليُبدّل ملابسه.

وبالفعل أخذ أمين ملابسه، القميص الأبيض المتّسخ ما زال على حاله مع البنطال الجينز والمِعطف كُحليّ اللّون، وخلع ملابس الاتّهام ولَبِس ملابسه المريحة".

كان هاني قد وصل هو وجميع الأصدقاء لاستقباله، لكن ريم لم تأت، وأسامة لأنه مسافر للإمارات، ووقفوا جميعاً ينتظرون خروجه بفارغ الصّبر، وقلوبهم تدقُّ فرحاً، فقالت منال:"يا إلهي أنا متوتّرة جدّاً" فردّت نسرين عليها: "لَمَ التوتّر"؟ فأجابتها لا أدري ربّما من الفرح...

خرج أمين من بوّابة السّجن الرّئيسة نحو الخارج..

– ها هو أمين (قال هاني وأشار إليه وهو لا يزال بعيداً). تفاجأ الأصدقاء من منظره، لقد كان هزيلاً ويبدو عليه التّعب بشكلٍ واضح، كأنه شخص آخر مختلف، حتّى ملامح وجهه تغيّرت من الضّعف خلال هذا الشّهر، فركضوا عليه جميعاً يريدون تهنئته بهذا الفوز الرائع وخروجه بالسّلامة، فظهور البراءة كفوز ونصر بعد صراع، وقفوا خمستهم حوله مسرورين، يتغنّون بخروجه وتواجده معهم، ويهتفون "النّصر...النّصر يا أمين"... و"معلش شو صار، أمين مثل النار" فوصلوا للسيّارة وقال له هاني: "هيّا أمين سيّارتك اشتاقت لك، أنت ستقود".

فقال أمين: "لا يا هاني أنا متعب، أنت ستقود كالمعتاد، بعد أن أستعيد عافيتي يوماً أو يومين سأستلمها منك".

فصعدوا جميعاً...أمين وهاني في الأمام، أمّا رامي وبجانبه أخته منال و ديالة ونسرين بالِمقعد الخلفيّ مضغوطين جدّاً، ولا يستطيعون التنّفس.

قال رامي لأمين: "ما رأيك أن نحتفل بك ونأخذك لتناول وجبة غداء شهيّ؛ لأنك من المؤكّد لم تأكل طعاماً لذيذاً في السّجن".

أجابه أمين: "لم آكل أنا أصلاً في السّجن، كانت شهيّتي معدومة، لكن أشكركم لا أريد الذّهاب إلى أيِّ مكان الآن. هاني أوصلني للمنزل فأنا مرهق وبحاجة لأخذ حمامٍ ساخن، وتبديل ملابسي هذه، ولا أريدأن آكل، أريد أن أنام فقط، آه...كم أنا متعب، ولا أحد يشعر بعمق المأساة التي كنت أُعانيها هناك".

فقالت منال: "اسمع ما رأيك أن تذهب وتستحمّ وتبدل ملابسك، وبهذا ستستعيد نشاطك ونذهب جميعاً لتناول الطّعام معاً".

فقال هاني: "فكرة جيّدة، هيا سنوصلك للبيت وننتظرك ريثما تنتهي".

فأجابهم: "لا آسف، أرجوكم أنا حقّاً بحاجة للنّوم والرّاحة، لن أكون مسروراً وأنا متعب،وأشعر أني مريض جسدياً ونفسياً، غداً أنا سأدعوكم على الغداء بمناسبة ظهور براءتي، موافقون؟"

فقالوا له: "حسناً موافقون".

وصل أمين أخيراً أمام باب بيته، كانت الخالة تنتظره بفارغ الصّبر ففتحت له الباب، فارتمى في حضنها ضاحكاً باكياً، إنه أصبح حرّاً الآن، كان ينتابه شعور غريب ممزوج بالأشواق والسّعادة والحزن والتعب والقهر الذي يحلّ على جسده.

فدخل إلى بيته يتأمّله بشوق، بدموع تغسل أيام السّجن المرّ.. وجلس مرتمياً على الكنبة في غرفة الجلوس. فقالت له الخالة: "هل شرح لك المحامي كيف ظهرت البراءة؟"

فقال لها: "نعم يا خالتي أشكركِ، لولاكِ لم تظهر براءتي أبداً".

– لا يا حبيبي، الفضل لله تعالى... فأنا أشعر بتأنيب الضّمير؛ لأني كنت دائماً أنشغل عن تنظيف بيتك، حتّى انقضى شهر وأنت مسجون، ثمّ تفرّغت لتنظيفه، لو أنني نظّفته من أوّل يوم، لمـَـــا كنتَ حُبسْتَ ولا دقيقة واحدة يا عزيزي.

– يا خالتي، هذا نصيب وقدر مكتوب عليّ، وأنا أؤمن بما كتبه الله لي، وسأحمد الله ليل نهار على إخراجي من السّجن وظهور براءتي، ولم أبقَ مظلوماً، للآن لا أصدّق... كنت أتخيّـــل أني سأقضي باقي عمري هناك ومؤبّد.

– مؤبّد يا أمين...؟لا قدّر الله.

***

عاد كلٌّ واحد من الأصدقاء إلى بيته، فجلست منال تتحدّث مع رامي فقالت له: "أتعرف يا رامي، لم أشعر أنّ أمين مسروراً بخروجه".

فقال لها رامي: "كيف لم تشعري بسروره؟! من المؤكّد أنه مسرور جداً، فهو مظلوم وظهرت براءته".

– لم يكن يضحك مثلنا، لم يبتسم كثيراً، كان جافّـــاً بالتّعامل معنا، لم يكن على طبيعته وكأنّ شيئاً ما غيّره بالسجن.

– لا يا منال، علامات التّعب والإرهاق كانت تغلب على وجهه، ومن شدّتها غطّت على ملامح الفرح والسّعادة، ألم تري كيف كان وجهه شاحباً وضعيفاً؟ إنه لم يأكل جيّداً من أوّل يوم سُجن فيه، إضافة إلى أنه كان يعيش همّـــاً كبيراً، والظّلم بحدِّ ذاته مأساة حقيقيّة. لكن أُؤكّد لكِ أنه سعيد حتّى ولم يَبدُ عليه.

– نعم، اعتقدت أنه حزين لأنّ ريم لم تكن معنا لاستقباله.

– لا أعتقد، فهو يعلم أنّ ريم تحاول الابتعاد عنه، وهي ليست له الآن.

– لكنها ما زالت على ذمّته.

– انسي الموضوع، ولا أريدكِ أن تتدخّلي بين ريم وأمين، لا نريد أن نُفَصِّل المشاكل لأنفسنا.

***

أخذ أمين حمّاماً ساخناً، كأنه نبتة تحتاج لترتوي من هذا الماء النقيّ الطّاهر،كانت الماء تنزل على جسده تغسل له أوجاع السّجن، والصّابون يُطهّر مرارة الطّعم، أما الدّموع كانت تسبق الماء المنساب على وجهه، تودّع ألماً وتغسل من الحرقة أملاً.

ارتدى ملابس النّوم المريحة النّظيفة، وحضّرت له خالته طعاماً شهيّاً وأجبرته أن يأكل قبل أن يتوجّه للنوم.

أما ريم فكانت تجلس على مائدة الطّعام بجانب الدّكتور عمر وتفكّر بأمين، حتّى أنها لم تتكلّم ولا كلمة واحدة، كان يظهر عليها المزاج المعكّر والضيّق، فلاحظ الجميع عليها، لكنَّ والدها لم تسألها ما بكِ؛ لأنها تعرف أنَّ ابنتها متقلّبة المزاج لا تستقر على حال.

أنهى أمين طعامه وقد أكل كثيراً، لقد كان جائعاً وفُتِحت شهيّته عندما بدأ بأوّل لقمة من طعام خالته علياء، فقالت له: "بصحّة وعافية يا أمين، لقد عاد الرّونق إلى وجهك وأصبح كلون التّـــفاح الأحمر، والآن بعد أن تنام ستستيقظ على أفضل حال".

فأجابها أمين: "احمرّ وجهي من كثرة الطّعام الذي تناولته الآن، لقد أصبحت أشعر بالحرِّ الشّديد".

– هذا أفضل لك، كنت شاحباً وبلا ألوان كأني كنت أنظر إلى صورة بالأبيض والأسود، والآن رجعتْ ألوانك الجميلة.

– خالتي سأذهب لأصلّي العصر وآخذ دوائي وأنام، أرجوكِ لا توقظيني، فلا يوجد لديَّ شيء مهمّ الآن سوى النّوم، فأنا متعب وأشعر بنعاسٍ شديد.

– حسناً، سأرتّب المائدة وأذهب إلى بيتي، سأقفل باب بيتكِ بالمفتاح الذي معي، أما مفتاحك فهو فوق التّلفاز.

– أشكركِ خالتي، أراكِ على خير.

فعلاً صلّى أمين العصر وركض نحو فراشه ووسادته بشوق كبير. فألقى بجسده على السّرير، وهو يشعر براحة وطمأنينة لا توصف، وأخذ نفساً عميقاً يدلّ على راحة بال وهدوء بالنّفْس، وحمد الله على هذه النّعمة التي لا تصف، لكن صُوَر متشعّبة متلاحقة بفوضى من السّجن وأثناء المحاكمة كانت تمرّ بخياله...حتّى استسلم للنّوم العميق.

بعد ثلاث ساعات يصحو أمين على صوت أقدام تسير بهدوء في منزله، خاف وانتابه شعورٌ مبدئيّ أنه أبا ليلى، صوت حذاء واضح، وسرعان ما تذكّر أنه في منزله بأمان، فأضاء النّور الذي بجانب سريره... إذ تفاجأ بريم تقف عند باب غرفته، قالت له بهدوء وحياء: "مساء الخير، وحمداً لله على سلامتك؟" نظر إليها أمين نظرة صامتة فيها نوع من العتاب، ثمّ قال لها: "كيف دخلتِ إلى هنا؟"

فقالت له: "خالتك فتحت لي الباب".

– لقد أوصيت خالتي بأن لا توقظني؛ لأنني متعب... فكيف تُدخلكِ إلى هنا؟

– أنا من ألححتُ عليها لتُدخلني، وأخبرتها أنني لن أوقظك بل سأنتظرك حتّى تستيقظ وحدك، وبالفعل أنت وحدك استيقظت...

ودخلت ريم وجلست على طرف سرير أمين، فقال لها: "ولـــمَ أتيتِ؟"

فقالت له بصوت حزين: "أتيت أطمئنّ عليك، لقد اشتقت لك كثيراً، لقد مضى شهر على فراقنا".

جلس في سريره بعدما كان مستلقياً نائماً، فطأطأ رأسه للأسفل، لا يريد النّظر بعيون ريم.

فقالت له: "ألم تشتاق لزوجتك؟"

فرفع نظره إليها معاتباً: "زوجتي؟!! وأين هي زوجتي عندما كنت بأمسٍّ الحاجة لها؟ أين كانت، عندما كنت أريد أن أشعر بالأمان بجانبها، تُهَوّن عليّ مأساتي؟ أين حبّها الصّادق الذي كان سيُخفّف عليّ أيامي العصيبة؟ لم أشعر وقتها أن لديّ زوجة، ولا حتّى حبيبة ولا صديقة، كنت وحيداً وكأني شخص غريب عليكِ، لا يهمّكِ أمره، أيجوز ذلك ؟! أنتِ أنانيّة! لم أطلب منكِ سوى زيارة واحدة...

فقالت له ريم وهي حزينة متوتّرة: "أرجوك يا أمين سامحني، آنا آسفة جدّاً، صدّقني مازلتُ أحبّك".

فردّ عليها بكلٍّ أسى: "على ماذا أسامحكِ يا ريم؟ هل أسامحكِ على عدم ثقتكِ بي، وأنك أوّل واحدة صدّقتي الكذبة، وعاملتيني كالمجرم؟ أم أسامحكِ على العريس الجديد الذي اتّخذتيه بدلاً مني، لتنتقمي من نفسكِ ومن الحبّ؟!! أم أسامحكِ على الرّسالة الجميلة الرّائعـــــــة التي أرسلتيها لي مع هاني، لترفعي معنوياتي بكلامكِ الرّقيق الحنون؟ وأنا كنتُ كالأبله أرجو من هاني أن يحضركِ معه لكي أراكِ ولو مرّة، كنت مشتاقاً لكِ وأريد أن أسمع صوتكِ لأشعر بالرّاحة، لكن صدمتني رسالتكِ، لقد شاهدت منكِ وجهاً غريباً عليّ، لم أعتد عليه منكِ... على ماذا أسامحكِ وعلى ماذا؟ ألستِ ريم ابنة اليوم كما قلتِ في رسالتكِ؟ لا تعودي لريم التي أحبَبتْ، فهي لا تناسبكِ الآن".

فأخذت ريم تبكي وقامت من عند أمين ووقفت عند باب الغرفة، وجهها لخارج الغرفة، فسألها أمين: "هل لي أن أعرف لماذا لم تطلبي الطّلاق من المحكمة حتى الآن؟ فعادت ريم ودخلت الغرفة وبقيت واقفة، فقالت لأمين بصوت باكٍ: "لقد قدمت الطلب صباحاً ولم أكن أعرف أنك ستخرج اليوم، فعدتُ لألغي طلب دعوة الطّلاق، فأخبروني أنّ المحكمة ستغلق أبوابها، وأن أعود غداً لإلغاء طلب الطّلاق"

– أتريدين إلغاءه...لماذا؟

فجاءت ريم بجانب أمين وهي تبكي، ومسكت يده وقالت له: "يا أمين، أنا كنت متوتّرة وضائعة، وحزينة مثلك تماماً وأنت بالسّجن، لم أعرف كيف أتصرّف، لقد خفت كثيراً، كنت أريد إخبار أمي أنني عقدتُ قراني عليك، فاحترتُ بتصرّفاتي، أنا أعترف لك أنني تصرّفت بغباء ربّما، لكن هذا الذي استطعتُ أن أفعله؛ لأهرّب من خوفي، وأنسى همّي وحبي وأنساك. لم أكن سعيدة بتصرّفي أبداً، بل كنت أتعذّب وأبكي طوال اليوم، لم أعرف النّوم خلال هذا الشهر، وحتّى الطّعام لم يعد له طعم، لا أعرف كيف يمكن أن أشفي غليلي لم يكن بإمكاني مشاورة أمي وأخذ رأيها، لأنها لا تعلم الحقيقة وإن عرفت ستثور بدلاً من أن تُهدّئني، لا أحد كان يستطيع

مساعدتي حتّى صديقاتي لن يستطعن، كنتُ بحاجة لأتكلّم مع أحد أسمع نصائح أحد، لكن لا يوجد أحد بجانبي، لذا أنا هِمتُ...كما أنك أخبرت هاني لكي أذهب وأطلب الطّلاق فستُّ سنوات لن ترحم حبّنا.

نعم صحيح طلبت من هاني ذلك، لكن أنتِ كانت ردّة فعلكِ قاسية، حتّى ولو زيارة واحدة لم تأتي لتثبتي حسن نيّة أو تودّعيني.

– أنا آسفة يا أمين...حقّاً آسفة، دعنا نبدأ صفحة جديدة بيضاء ننسى بها الألم والأسى، ونرمي كلَّ الماضي وراءنا، فقال لها أمين: "من سيداوي جرح القلب بعدما جرحتيني في قلبي، وتحمّلتُ أنا الألم وحدي؟

– سأداويك وأجعلك تنسى الألم، وأعوّض أيامكَ فرحاً وحبّـــاً، لن أستطيع العيش بدونك يا أمين، أنا لم أحبّ غيرك، فكلّ أمورنا كانت في تدهور أنا وأنت".

– وهذا الطّبيب المسكين ماذا ستفعلين معه وأنتِ قد وافقتِ عليه وأوقعتِ به؟ماذا سيحلّ به؟

– سأعتذر منه وأحاول أن أُفهّمه الحقيقة، وأنا لم أوقع بأحد بل ظرف الحياة الذي رماه عندي.

– يا إلهي يا ريم لقد تغيّرتِ للأسف، لم تكوني هكذا من قبل، كنتِ ريم الطيّبة الرّقيقة الحسّاسة التي لا تحب أن تخدش شعور أحد، وها أنتِ الآن قد خدشتِ شعوري وأحاسيسي، وستخدشين شعور الطّبيب المسكين لمجرد تصرّف غير حكيم من دون دراسة.

– أمين أنا أعتذر حقاً، وأحبك بصدق أرجوك سامحني، أنا لم أتغيّر بل أنا ريم ذاتها، لكن تصرّفت بحماقة وأنا أعترف، ولم أعد أعرف كيف سأصلّح أخطائي، سامحني يا أمين وساعدني، أعلم أنَّ قلبك أبيض وطيّب ومتسامح...أتأسّف بشدّة...اقبل أسفي! وبقيتْ تبكي بقهر...ثمَّ خرجت من غرفته وجلست في غرفة الجلوس.

بعد خمس دقائق قام أمين وهو متأثّـــراً من كلام ريم وتوجّه إليها، وشعر أنها هي أيضا ضحية بهذه القضية لكنه متألّم منها، وقال لها: "آه يا ريم لاتبكي كفى، المشكلة أنَّ قلبي يحبكِ، ولأني أحببتكِ بصدق لا أستطيع أن أسامحكِ، فأنا مجروح بشدّة،وأنتِ إنسانة لا تستطيع أنْ تتحمّل مسؤوليّـــة نفسها، فكيف لكِ أن تتحمّلي مسؤوليّـــة أن تكوني زوجة وأمّ في المستقبل؟"

عادت ريم للبكاء من دون أن تتكلّم، وبقي أمين ينظر لها بعيون حائرة وبائسة إلى أن مسحتْ دموعها وقالت له بنبرة باكية مخنوقة: "من أجل هذا الحبّ الذي بيني وبينك، ومن أجل كلِّ دقّة قلب دقّت فرحاً لرؤيتك سامحني...سامحني أرجوك".

فابتسم أمين دون أن يتكلّم، فقفزت ريم فرحاً وضمّته بشدّة، وقالت له:"أشكرك يا أميني أحبك، وكنت أعرف أنّ قلبك حنون وستسامحني؛ لأننا لا يجب أن نغضب من بعضنا، فأنا أعتبر حبّنا نادر الوجود هذه الأيام، والأغلب أنّ أمين هو النّـــادر هذه الأيام، بصدقه وحبّه".

– لكن لم أقل أني سامحتكِ!

– أنا أفهمك، ابتسامتك أكبر دليل.

– يا لكِ من فتاة قويّة، دائماً تتغلّبين عليّ! دموعكِ ذبحتني...

وقام أمين وأخذ ريم لمنزل خالته وجلسا سويّاً مع الخالة علياء، وشربا الشّاي بالنعناع اللّذيذ السّاخن، وعادت المياه إلى مجاريها والحبّ إلى قلوب أصحابه.

عادت ريم متأخّرة حوالي السّاعة العاشرة، فسألتها والدها عن مكان تغيبها فأخبرها ريم الحقيقة، قالت لها أنها ذهبت للخالة علياء لتطمئنّ على أمين بعدما خرج من السّجن، وأكملت: "جلسنا يا أمي بمنزل السيّدة علياء وسُررنا جدّاً بالجلسة ثمّ أتيتْ.

فجنّ جنون هند من تصرّف ابنتها وقالت لها: "ما هذا التصرّف الأحمق، أنتِ مخطوبة الآن للدّكتور عمر وتذهبين لزيارة شاب يسكن وحده، ماذا سيقول النّـــاس عنّا؟ وماذا سيقول عمر إذا عرف أنكِ ذهبتِ لزيارة هذا الشّاب؟ ألم تنسيه بعد؟ متى ستُصبحين عاقلة وتتصرّفين كفتاة ناضجة... متى؟ وفوق هذا تسهري خارج المنزل للعاشرة يا سلام..."

– أمي أرجوك دعيني أتكلّم معكِ براحة لو لدقيقة واحدة، لا تصرخي بي ولا تُعاتبيني، أصبحت أخاف منكِ وأخاف أن أسالكِ أيَّ سؤال، لم تعودي تهتمّي بأمري كالسّابق، لقد كنّا صديقتين فيما مضى، أما الآن لا أرى سوى أنكِ دائماً تصرخين بوجهي وتعاتبيني وتوبّخيني، أمي أنا أحتاجكِ بقربي، أشكي لكِ همّي وآخذ رأيكِ ومشورتكِ.

أصبحت ريم تبكي، فقالت لها أمها: "لا تبكي كالأطفال أنا دائماً أحاول التقرّب منكِ والتحدّث معكِ، لكن أنتِ التي تتهرّبين وتُغلقين باب غرفتكِ وتغرقين بالدّاخل، ولا نراكِ حتّى اليوم التالي، وإن كلّمك أحد فيا ويل له...!"

– أمي أنا أتهرّب من معاتبتكِ وصراخكِ الدّائم عليّ، قلت لكِ مئة مرّة أنا أحبّ أمين، وأنت لم تهتمّي لمشاعري وما يدور بداخلي، وأصبحتِ تفرضين رأيكِ دون أيّ ليونة معي.

– عندما تكونين مخطوبة يا ريم سأكون صارمة ولن أرضى بالخطأ، وذاك الموضوع انتهينا منه، وها أنتِ مخطوبة الآن للدّكتور عمر، وسنُحدّد موعد عقد القران بعد أسبوع، لتستطيعي التعرّف عليه أكثر وعن قرب.

– لا أريد يا أمي الدّكتور عمر، سأعتذر منه وهو سيتفهّم نفسيّتي.

– أنتِ مجنونة، لن أسمح لكِ بتصرّف غبيٍّ كهذا، الدّكتور أفضل مئة مرّة من أمين، بل لا يُقارن به أبداً.

– أمي اسمعي آخر كلام عندي... لن أستغني عن أمين.

– يا ليته بقي مسجوناً ليبقى بعيداً عن عيوننا!! لكان أفضل لنا وله.

– أمي حرام عليكِ هذا الكلام، لقد ظهرت براءته وليس عليه ذنب أبداً، كما أنني سأخبركِ بأمرمهمٍّ وحسّاس، وأتمنّى أن تفهميه ومن دون صراخ... أرجوكِ.

– هيّا قولي لنرى ماذا تُـــخبّئين من متاعب أخرى؟

توتّرت ريم وقلقت من ردّة فعل والدها، وقالت لها وهي متردّدة بالكلام وأصبحت تتلعثم: "لقد، أنا... ونحن... أنا و أمين عقدنا قراننا منذ مدّة". وسكتت تنتظر ردّة الفعل.

لطمتْ هند على وجهها، وجلست على الكنبة وقالت بعصبية: "ما هذه المصيبة التي أوقعتِنا بها يا حيوانة...عقد قران؟ أوصلتِ لعقد القران أيضاً، ماذا أفعل بكِ؟ هل أخنقكِ أم ماذا؟ ماذا

أقول للعالم والنّاس؟ ماذا سيقول الدّكتور عمر عندما يعرف أننا نريد أن نزوّجه فتاة متزوّجة؟...ماذا؟ وأخذت تصرخ بابنتها وتقول: "وتطلبين مني أن أكون متفهّمة، ولا تريدين مني أن أصرخ، كيف يُعقل هذا؟ إنَّ ذبحكِ حلال يا ريم؟"

- أمي اهدئي أرجوكِ أنا لم أرتكب جريمة، ولا وقعتُ بالحرام لا سمح الله، كل ما هنالك أننا عقدنا القران فقط وأنَّ زواجنا بقي على الورق، لم يقترب منّي ولم يمسسني أبداً.
- وكيف كنت ستتزوّجين الدّكتور عمر وأنتِ على ذمّة رجل آخر...كيف؟ أريد أن أفهم؟ ومن هذا الشّيخ الذي كتب لكِ العقد؟؟ من أفهميني؟
- لايهم الآن يا أمي...لقد ذهبتُ إلى المحكمة وتقدّمتُ بطلب الطّلاق على أساس المحكمة تُطلّقني من أمين لأنه مسجون، وبهذا سأحصل على الطّلاق وأتزوّج الدّكتور عمر، لكن الآن الأمر اختلف فأمين خرج الحمد لله وسأذهبُ غداً صباحاً لأسحب دعوة طلب الطّلاق...فلا داعي لها.
- لا بل لها كلَّ داعٍ، إيّاك أن تسحبيها أو تلغيها بل ستبقى على ما هي عليه، ونستمر بطلب الطّلاق، نحن لا نريده، وتعلمين رفضي لهذا الموضوع بشدّة، ويا ريم إذا عصيتِ أوامري سأغضبُ عليكِ إلى يوم الدّين، ولا أنتِ ابنتي ولا أنا أعرفك، هيّا اختاري.

أصبحت ريم تبكي وخرجت أختاها من الغرفة على صراخ أمهم، فقالت أخت ريم الصغرى رنيم: "أنا عندما أكبر لا أريد أن أحبَّ أحداً، ولا أريد أن أتزوّج لكي لا أُغضب ماما".

ثمّ قالت ريم لأمها وهي تبكي: "لــمَ يا أمي اخترتِ لي التّعاسة؟ لــمَ لا تتمنّين لي الفرح والسّرور بحياتي؟ هذه حياتي وأنا التي يجب عليَّ أن أختار، لا تغضبي مني وتخلقي التّعاسة والبغضاء بيننا ونخسر بعضنا، بينما بكلمة موافقة سنحِلُّ كلّ الإشكالات وأعيش بسعادة".

فأجابت والدها: "عليكِ أن تختاري يا ريم انتهينا إما أن تختاري أسرتكِ التي ترعرعت بها، وتذكري فضل والديكِ عليك، وإما أن تختاري هذا الشّاب، وتنسي أنَّ لكِ أسرة تحبكِ، وعندها لا تأتي لزيارتنا ولا ستدخلين هذا البيت، وابقي في منزل ابن شاكر كما تشائين، هيا اختاري...وإذا أردتِ اذهبي إليه من الآن أليس زوجكِ؟ هيّا...هيّا اذهبي ماذا تنتظرين؟ خذي ملابسكِ وهيّا لا أريدكِ هنا"

وظلّت ريم تبكي وذهبت كالمعتاد إلى غرفتها وأغلقت الباب، ولا تريد رؤية أحد، لقد شعرت أنَّ الدّنيا أظلمت في عينيها.

في اليوم التالي ذهب أمين للجامعة بحماس ونشاط وبكلِّ تفاؤل وأمل، مع أنّ أيام السجن المؤلمة محفورة في ذاكرته وصورة أبي ليلى تُعكّر صفو مزاجه وكلمّا تذكّره شعر بتوتّر في أعماقه وغضب كالبركان.

وفورٍ وصوله تجمّعت حوله الفتيات والشّباب ليهنّئوه بظهور براءته، وبعد فترة أتت نيرمين إليه ووقفت أمامه، وبقيت صامتة مبتسمة بتردّد، فنظر إليها أمين وقال:"كيف أصبحتِ يا نيرمين؟"

هزّت رأسها بمعنى جيّدة، ثمّ قالت له: "أنا آسفة يا أمين؟ لم أقصد أن أوقع بك الأذى؟"

فقال لها:"لا يا نيرمين لا تعتذري، أنتِ أيضاً تعذّبتِ بما فيه الكفاية، لقد ظُلمنا أنا وأنتِ ووقعنا سوياً بمصيبة لم يُحسب لها حساب، لكن الحمد لله أنَّ المجرم قد نال جزاؤه الآن، وظهرت الحقيقة".

– أنا دُمِرَت حياتي لقد دُمِّرْتُ نفسياً، وجلست بالمستشفى حوالي خمسة عشر يوماً، وأكملت باقي علاجي النفسيّ في المترل، وعُدْتُ إلى دوام الجامعة منذ يومين فقط بعدما استعدّت صحّتي ونفسيّتي. أصبحت أخشى من أيِّ شخصٍ يُسلّم عليّ فقدتُ ثقتي بالعالم، لا أحب أحداً وأكره كلّ جنس الشّباب، لا أعرف لماذا أشكو لكَ؟ ربما لأنني أشعر أنك ظُلمتَ مثلي...!

– المهم الحمد لله على سلامتكِ وانتبهي على نفسكِ يا نيرمين أكثر، وعلى لباسكِ وتصرّفاتكِ، وسأقف بجانبكِ إذا أردتِ أيَّ شيء.

غادرت نيرمين لمحاضراتها، أما أمين ذهب لقسم شؤون الطلبة ليمنحوه فرصة تقديم امتحانات نهاية الفصل الدراسيّ الأوّل، وفعلاً حدّدوا له وقتاً للامتحانات، وراعوا ظروفه.

انتظر أمين ريم بالجامعة لكي يراها، لكن بلا فائدة فهي لم تأتِ هذا اليوم، لقد تغيّبتْ عن الجامعة ولمدّة ثلاثة أيام، وفي هذه الأيام الثلاثة لم يستطع أحد من الأصدقاء أن يكلّمها؛ لأنها لا تريد أن تجيبَ على أيِّ هاتف، ولا تستقبل أيّ زيارة، فبقيت تحبس نفسها بالغرفة، كانت تخرج من غرفتها بعد منتصف اللّيل وبعد أن ينام الجميع لتأكل، كانت تُعدُّ لنفسها شطيرة صغيرة وكوب شاي، وتذهب للحمام وتعود لغرفتها، ولا تفتح بابها لأيٍّ كان، حتّى والدها حاول أن يدخل عندها فرفضت وقالت لا أريد رؤية أحد، وقرّرت أن لا تُخبر أمين بالحديث الذي دار بينها وبين والدها، وستحاول تأجيله أكثر وقتٍ ممكن لكي لا تزعجه أو تُضايقه من جديد.

فذهبت للجامعة بعد ثلاثة أيام، فتفاجأ الجميع بها وكانوا يسألونها ما الذي جرى لكِ يا ريم؟ كانت تخبرهم أنها متعبة ومريضة، أما أمين فمسكها من يدها وسحبها وقال لها: "أريد أن أتمشّى قليلاً أنا وأنتِ وتقولي لي ماذا حصل لكِ بالتّحديد بالثّلاثة أيام هذه؟ ما الذي جعلكِ تُغلقين على نفسكِ الباب ولا تريدين رؤية أحد، ولا التكلّم مع أحد؟ الموضوع ليس تعباً فقط، هناك أمر ما... هيّا أخبريني.

فقالت له: "لقد أخبرت أمي الحقيقة فجنَّ جنونها ووبّختني بشدّة، فحبستُ نفسي ثلاثة أيام حزينة غاضبة؟"

– حقيقة ماذا؟ عقد قِراننا؟

– نعم، وهذا السّبب وحده يكفي لكي أجلس حزينة في غرفتي، أليس كذلك؟

– وبالنّهاية على ماذا اتّــفقتم؟

– لا على شيء...اتفقنا؛ لأنّ الموضوع بالطّبع لم يعجبها أبداً، وصرخت بوجهي وقالت لي: اذهبي الآن لمترل أمين هيّا فأنا لا أريدكِ ابنتي، وتريد أن تتبرّأ مني...

– لا حول ولا قوّة إلا بالله....هيّا تعالي واسكني معي أنا موافق...

– أمين..!! أيــُعقل؟

– لا، طبعاً أمازحكِ فقط لتلطيف الجوّ.

– لكن الدّكتور عمر، ماذا أفعل به؟
– ألم تقولي أنكِ ستخبرينه الحقيقة وبأنك تحبّين شخصاً أخر، وهو سيتفهّم؟
– نعم، سأحاول.

لكن أمين لم يكن يعرف أنّ هند مصرّة على الدّكتور عمر، وأنها ستغضب إلى يوم الدّين، في حال اختارت أمين زوجاً لها، وبهذا ستخسر أهلها للأبد، بقيت ريم صامتة ولم تُخبر أمين الحقيقة كاملة.

***

يُنهي أمين امتحانات الفصل الأوّل بكلِّ نجاح وتفوّق، وهكذا يكون قد وصل إلى النقطة التي وصل إليها أصدقاؤه ولم يتأخّر عنهم.

يبقى الدّكتور عمر يزور ريم بالأسبوع حوالي ثلاث مرات، وكانت دائماً والدتها تُهدّدها وتضغط عليها بأن تبقى على علاقة طيّبة مع عمر، ولا تتفوّه بأيِّ كلمة واحدة وإلاّ ستخسر والدتها، فكانت ريم كلّما أرادت أن تُخبر الطّبيب عن حبّها الأوّل والحالي، تشعر بتردّد وخوف فتبقى صامتة، والحزن يضغطُ على قلبها، وهي تحاول أن تكتم في صدرها الألم والقلق، وتشعر أنها بهذا تلعب على الحبلين، لم تقل الحقيقة كاملة لأمين، ولم تُخبر الدّكتور عمر بحقيقة حبّها الأوّل، وأنها تمثّل الحبّ على الدّكتور، هذا ما قلب حياتها لتعاسة وألم، لم تعد تعرف في أيِّ طريق تسير، كيف ستُخبر الطّبيب؟ وكيف ستُخبر أمين بأمر الطّلاق الذي لم تسحبه بعد؟؟؟ أين الشجاعة لتريح بالها من أحد الموضوعين؟ فهي لا تريد أن تخسر أُسرتها التي تربّت وترعرعت بينها، ولا تستطيع كسر كلام والدتها التي لها فضل كبير عليها. وفي نفس الوقت كيف ستترك من اختاره القلب وهي تحبّه حباً نابعاً من الأعماق؟ وفوق هذا ضميرها يُعذّبها اتّجاه الدّكتور عمر الذي يعتقد أنَّ ريم تريده وتحبّه.

وفي إحدى الزّيارات أخبر الدّكتور عمر خطيبته ريم أنه سيُسافر إلى إسبانيا لمدّة شهر تقريباً؛ لعمل بعض الأبحاث المهمّة لدراسته، وسيعود على أساس أن يتّفقا على موعد تحديد عقد القران والزّفاف. شعرت ريم بالرّاحة النفسيّة بعض الشّيء لبُعد الدّكتور عمر عنها، وأنها لن تجلس وتمثّـــل دور الخطيبة أمامه.

وفي صباح أحد الأيام كان أمين يستعدُّ للخروج للجامعة إذ بباب منزله يطرُق... فذهب ليفتح، فرأى رجلاً يقف أمام الباب ومعه أوراق وملف، ويقول هذا الرّجل: "أريد المدعوّ أمين شاكر من فضلك"، فأجاب عليه أمين: "نعم تفضل أنا أمين".

فقال له: "أريد منك لو سمحت أن توقّع على إبلاغك حضور دعوة في المحكمة، رفعتها عليك المدعوّة ريم، وها هي ورقة لك وورقة لنا، وفيها تفاصيل عن موعد الدعوة".

فأخذ أمين القلم، وتفاجأ جداً واستهجن الموقف؛ لأنّ ريم أخبرته أنها ستذهب لإلغاء الدعوة، وهذا منذ فترة قرابة الشّهر أي من أوّل يوم خرج به من السّجن، ماذا يجري؟

ثمَّ وقّع على الأوراق، وتناول نسخته ووضعها بجيبه، وخرج للجامعة مسرعاً...

الفصل الثالث والثلاثون

وصل أمين للجامعة غاضباً، وفور وصوله توجّه للاستراحة ليرى إن كانت ريم تجلس مع باقي الأصدقاء كالمعتاد، وبالفعل وجدها تجلس هي وديالة ومنال، فتوجّه لطاولتهنّ ووقف أمامهنّ ويبدو عليه المزاج السيّء، فقالت له ديالة: "أمين ما بك"؟ كان أمين ينظر إلى ريم ولم يجب على سؤال ديالة، ثمَّ سألته ريم: "ما المشكلة؟ لــمَ تنُظر إليَّ هكذا؟" أخرج أمين ورقة تبليغ حضور الدعوة ووضعها أمام ريم بعصبيّـــة، وقال: "تفضّلي وانظري يا أميرة! وبعدها اشرحي لي سبب هذا التصرّف، فأنا لا أريد أن أُحلِّلَ الموقف وحدي، بل أُريد شرحاً لما يجري".

سألت منال: "ما هذه الورقة؟" وديالة قالت:"دعيني أرى يا ريم". لكن ريم بدأت عيونها تقرأ بالورقة ولم تُسمع أحد، ثمَّ قالت لأمين: "هل تحبُّ أن أشرح لك الآن أم بعد انتهاء الدّوام؟"

قال لها أمين: "معكِ ربع ساعة قبل بدء المحاضرة تستطيعين شرح وتبرير ماذا يجري وباختصار؟"

- اجلس من فضلك واسمع يا أمين، في نفس يوم خروجك من السجن ذهبتُ وتقدّمتُ برفع دعوة طلاق- وأنت تعرف هذا- ولكن بعد أن عرفت أنك خرجتْ... ذهبتُ لأسحب الدّعوة، فقالوا لي غداً، لأنّ...

قاطعها أمين بنبرة غاضبة: "هذا كلام سمعته من قبل، أريد ماذا جرى فيما بعد، اختصري؟"

- حسناً، لــمَ العصبيّـــة ما بك؟ أنا أذكّرك فقط لأكمل ما جرى، عندما أخبرتُ أمي رفضت ومنعتني أن أذهب وأسحبها، لكن لم أقل لك أنني لم أسحب طلبي، وتجاهلتُ الموضوع لكي لا أضايقك، فكنت أحاول تأجيله فقط، والمحامي سألني أكثر من مرّةٍ: لــمَ رفعت الدّعوة وطلبت الطّلاق ولم تكملي باقي الإجراءات؟ ولــمَ لْم تعودي إليّ لنكمل دراسة القضيّة؟ وأنا كنت أضع الحجج بأنني مشغولة أو متعبة، لأُبعد الموضوع وأحاول تغييره، لكن المحامي ملّ منّي واتّصل بوالدتي وسألها إلى متى ستبقى القضيّـــة مُعلّقة هكذا؟ ستسحبون الطّلب أم ماذا؟ فأخبرته نريد الطّلاق، وسنأتي أنا وريم لمكتبك لنتّـــفق على التفاصيل، وأخذتني والدتي رغماً عنّي لمكتب المحامي وطلبت منه رفع دعوة الطّلاق للمحكمة بأسرع وقت، ولم أتخيّـــل أن تصلكَ بهذه السرعة.
- وما هي حُجّة الطّلاق هذه المرّة؟ في المرّة الماضية كنتُ سجيناً، وكنتِ ستحصلين على الطّلاق بسهولة.
- لا أدري، ولا أعرف ماذا بعد، فالموضوع بالنسبة لي كابوساً لا أعرف الاستيقاظ منه.
- لا أصدِّق يا ريم، هل سنقف بالمحكمة بعد ثلاثة أيام ضدّ بعضنا كالأعداء؟ هل يروق لكِ هذا الموقف؟
- ليس بيدي شيء أفعله. (أجابته وهي منزعجة وبعصبيّـــة).

فسحب أمين الورقة من يد ريم متزعجاً غاضباً وتركها ومشى، فصارت ريم تنادي عليه: "أمين...أمين...أين ذاهب،لم أُنهي كلامي"، لكن أمين لم يردّ عليها وبقي يسير إلى خارج الاستراحة.

قالت لها ديالة: "كان يجب عليكِ إخباره من قبل، لقد فاجأتِه!"

– صدّقني ليس بيدي شيء أفعله، أنا محتارة بين أسرتي وأمين، المفروض أن أختار والخيارات صعبة جداً، بمن أضحّي يا ديالة، هل يُعقل أن أخسر أبي وأمي وأخواتي؟ أم أخسر أمين وأكسب عائلتي التي عِشْتُ معها وتربّيت؟ ووالديّ لهما أفضال عليَّ...لا أعرف؟

– إن جئتِ للمنطق، فهو يقول لا يجوز لكِ التخلّي عن أسرتكِ وأمكِ وأبيكِ اللّذان تعبا عليكِ وسهرا اللّيالي، ليرا ابنتهما قد صارت فتاة كبيرة ناضجة، ثمَّ أنتِ تُكافئيهما بالخروج من البيت والتخلّي عنهما من أجل شاب، فبذلك تكونين عاقّــة لوالديكِ.

– أعرف يا ديالة، وأنا لا أحبُّ أن أكون كذلك، لم أكن في حياتي أرفض لهما طلباً ودائماً كنت البنت المطيعة، لكن مشاعري أحاسيسي، كلَّ شيء جميل سيضيع لا أعرف ماذا أفعل، لا أحبُّ الدّكتور عمر...لا أحبّه، بل لا أتقبّله.

أنهت ريم محاضراتها وذهبت تركض مسرعة تبحث عن أمين، لكن رامي أخبرها أنه غادر قبل قليل، فانزعجت وسحبت نفسها واتّــجهت إلى بيته. عند وصولها طرقت باب بيته بحذر...فتح أمين الباب، وعندما رأى ريم قال لها: "غادري من أمام الباب من فضلك"

– أمين، أريد أن تسمعني فقط أعطني عشر دقائق.

– لا يوجد كلام آخر تخبريني إياه، لقد برّرتِ لي الموقف وانتهينا... سنتقابل بالمحكمة.

– لـــمَ أنت غاضب، ولا تريد رؤيتي؟

– لأنكِ تتصرّفين بغباء من أوّل يوم عرفتكِ به، لا أحبّ طريقة اللّف والدّوران!

– هكذا يا أمين؟ لـــمَ تحبّني إذن حتى الآن؟

– لأنني أغبى منكِ، وأعمى!

– بما أننا غبيّان دعني أدخل، أريد أن أكلّمك يا أمين أرجوك، لا يجوز أن تتركني هكذا عند الباب.

– تفضّلي واختصري... (وهو عابس)

ودخلت ريم وجلست وبقيت صامتة، فقال لها أمين: "يبدو أن لا كلام لديكِ؟"

أجابته: "أريد أن أسألك يا أمين إذا كنت أنت مكاني ماذا ستفعل؟ والدتك ستغضب عليك إلى يوم الدين إذا تزوّجت ريم ولن تعترف بك... وإذا أرضيت والديك ستخسر من تحبّ! ما الحلُّ برأيك؟"

جلس أمين وأنزل رأسه وقال: "أفّ"، لا أستطيع أن أعرف، أنا والداي ليسوا موجودين وشعوري اتّجاههما يختلف، أنا لا أرى أمامي إلا أنتِ، لأنكِ فرحي وحزني، وأرى فيكِ أسرتي كاملة وأخاف أن أفقدكِ، نارٌ اشتعلت في قلبي لحظة وصولِ دعوة المحكمة، أنا أكره المحاكم والقضايا.

- أمي مصرّة على زواجي من الدّكتور عمر، وتقول ماذا سيفعل عمر عندما يعرف أنكِ تريدين فكّ الخِطبة؟
- يا ريم علاقتكِ بالدّكتور عمر ليست رسميّـــة، بل هي مجرّد خِطبة، ويسهل عليكِ الانفصال عنه، أما أنا زوجكِ وعلاقتنا شرعيّة ولا يكون الانفصال سهلاً، بل يحتاج إلى وقتٍ وجهدٍ وعذاب، بالأخصّ أني لست موافقاً على الطّلاق ولن أرضى بذلك.

خيّم الصّمت على الاثنين، لا يوجد كلام تقوله ريم ولا حتّى أمين.

ثمَّ سألها: "ما السبب الرئيسي الذي وضعته والدتكِ لطلب الطّلاق؟"
- أنَّ عقد قِراننا باطل، وتزوّجنا بغير علم والديّ وبغير موافقة وليّ الأمر، والحجّة الثّانية أنك يا أمين مريض بالقلب وحياتك غير مضمونة، وأحضرتْ تقريراً عن وصف حالتك وأوضح لها الطّبيب في التقرير أنَّ المريض بالقلب يمكن أن... وسكتت ريم.
- ماذا أكملي يا ريم.
- لا شيء... لا يهمّ، هذا هو السبب الرئيسي.
- لا يجب أن أعرف قولي لي.
- لا تحزن أمين هي مجرد أقاويل، ممكن لمريض القلب أن يتعرّض للموت بأي لحظة فحياته ليست مضمونة.

أنزل أمين رأسه بحزن وقال: "هل تعتقدين أنَّ هذه أسباب كافية لتحصلي على الطّلاق؟"
- والله لا أعرف يا حبيبي...لا أعرف شيئاً، ولا أريد حتّى أن أعرف، أتمنّى لو أنام اللّيلة ولا أصحو إلاّ بعد عشر سنين بهذا تكون كلُّ الأوضاع هدأت وربما انتهت الإشكالات، وتزوّج الدّكتور عمر من غيري، وربّما أنتَ تزوّجت غيري؟
- لا مستحيل أنا سأنتظركِ العشر سنوات كاملة؛ لأنه عندما تستيقظين سأطلبُ يدكِ وستُـــثار المشاكل من جديد!

فضحكت ريم وقالت:"هههه أووه"، لا لن أنام إذن سأحلُّ الإشكال وأنام هذا أفضل.
- ريم حبيبتي، أنا لا أستطيع أن أجبركِ على شيء، ولا يهون عليّ أن تخسري والديكِ وأسرتكِ، لكن إذا وجدتِ منفذاً للأمل في بقاء حبنا على قيد الحياة لا تتردّدي، أتذكرين عندما كنت ترجينني وأقنعتيني أن نذهب ونعقدَ قِراننا؟ لقد كانت فكرتكِ وأنت التي كنتِ مصرّة، وأنا كنتُ أخشى من موضوع كهذا، كنت أشعر أنّ الأمور ستسوء بدلاً من أن تسير على ما يُرام. لكن الآن تبدّلت الأمور الآن أنا أرجوكِ يا ريم، حاولي أن تنسي أمر الطّلاق، لنحاول أن نجد حلاً يُرضي الجميع، فأنتِ روحي ولا أستطيعُ أن أعيش من دون روح.
- أتعرف علاقتنا مضحكة فعلاً، يوماً أنا أرجوك وأياماً أنت ترجوني، وكلّ هذا بلا فائدة، ومهما حاولت أنا أن أجد حلاً فالإشكال ما زال موجوداً، عدم موافقة والديّ لن يجعلنا نهنأ ولا لحظة واحدة، إن وجدتَ أنتَ حلاًلا تتأخّر وبادر به.
- كلمة نهائيّـــة سأقولها لكِ، أملكِ وأباكِ حافظي عليهما، وفكّري اليوم مليّـــاً بالأمر وغداً صباحاً وبعد تفكير إذا جئتِ وقلتِ لي أمين أريد الطّلاق من أجل والديّ، فأنا جاهز

وسأريحكم من عناء المحكمة، سأذهب وحدي وبدقائق سأنهي الموضوع، وهذا من أجل والديكِ، أما إن لم تقومي بإخباري بأيِّ شيء فسأعتبر أنَّ هذه تكملة لمشوارنا الصّعب...ولا تعتقدي بكلامي أنني أتنازلُ بسهولة عنكِ لكن ربّما المشوار هنا ينتهي ويبقى كلَّ شيء ذكرى جميلة نحتفظ بها.

***

أغلقت الشّمس عينها وفتح القمر عينه استعداداً لسهرة اللّيلة في السّماء الصّافية. وأمين فتح نافذة غرفته؛ ليتنفّس هواء اللّيل العليل. أما ضوء البدر الجذّاب أخذ يتأمّــله لساعات فنوره الأبيض يملأ سماء اللّيل.

استند أمين على حافّة النافذة حائراً، والنوم طار من عينه، وبعد عشر دقائق شعر بالإحباط فأغلق النافذة وذهب لسريره ووضع رأسه على وسادته، يتقلّبُ مرّة لليمين ومرّة لليسار، وأفكاراً تأخذه وأفكاراً تُعيده، وهاهو عاد يسير في رحلة جديدة من العذاب والألم، هذه الرّحلة تختلف عن الرّحلات السّابقة، فهي رحلة ستُغيّر كلَّ قوانين الحبّ التي اعتاد عليها طيلة الخمس سنواتٍ الماضية، وتفقده حلاوة الصّبر، وهو الذي طالما صبر ليصل لآخر سنّــة بالجامعة ليتخرّج وينعم بحبٍّ هادئ هانئ، وبتكوين جوٍّ أسريٍّ صغير، يُخرجه من وحدته المريرة ويروي ظمأ قلبه المتعب، هذا القلب الذي لا ينقصه ألم فوق ألمه، وليس له ذنب لكي يتحمّل عذاباً ليس له، لكن ذنب قلبِه أنه جزء لا يتجزّأ عن أمين ولا ينفصل عنه.

في ذات هذه اللّيلة، يرنّ هاتف منزل الخالة علياء ليلاً، فتجيب الخالة وكالعادة المتّصل في منتصف اللّيل هي أمل والدة أمين.

- أهلاً يا أمل، كيف حالكِ؟ لقد أطلتِ الاتّصال هذه المرّة كثيراً؟
- كنتُ يا علياء مشغولة بأماني، لقد كُسرتْ ساقها وهي تركض بالمدرسة، وكان عليَّ أن أُساعدها بكلِّ صغيرة وكبيرة، والحمد لله قبل يومين قُمنا بفكِّ الجبس عن ساقها، وقد أصبحت أفضل حالاً، وها أنا عُدتُ لموضوعي، أريد رؤية أمين يا علياء وأنا مصرّة هذه المرّة جدّاً، قلبي يأكلني عليه.
- حمداً لله على سلامة أماني، وبالنسبة لموضوع أمين أخشى يا أمل من أن ينكشف الأمر، أمين ذكّي وسيعرفكِ.
- علياء سأموتُ إن لم أره، لن يعرف صدّقيني لن يعرف.....
- ماذا أقول لكِ؟ تعالي... وأمري لله، ولكن كما اتّــفقنا، من دون أن يشعر أمين أنكِ أمّــه.
- لا تخافي لن يشعر بشيء، إذن سأرتب أموري خلال أسبوع وأحجز وآتي في الأسبوع المقبل.
- هل ستأتين وحدكِ أم مع زوجكِ والبنات؟
- لا سآتي وحدي، هذا بالإضافة إلى أنّ البنات لديهنّ دوام مدرسيّ، وزوجي عنده أشغاله، فليبقى مهتماً بالبنات.

- إذن أنا أنتظركِ بفارغ الصّبر، لقد اشتقت لكِ كثيراً، لقد مرَّ العمر يا أمل ونحن لا نشعر، وأنا بشوق لكي أرى كيف أصبحتِ بعد هذه السنين، كما أني كنتُ أتمّنى التعرّف على (أماني وأمان)
- أنا لم أتغيّر كثيراً.
- هل تعتقدين أنَّ أمين سيعرفكِ عندما يراكِ؟
- لا أعتقد، فهو كان صغيراً عندما تركته، وبما أنَّ سهاد تشبهني سيختلطُ عليه الوضع، ولن يفرّق بيننا عندما نقول له أنني خالته سهاد، كما أنكِ لم تُبقي له صورة واحدة تذكّره بي، أليس كذلك؟
- بلى، أتلفتهم جميعاً كما قلتِ لي عندما كان صغيراً، لكي لا يبقى يذكركِ ويسأل متى ستعودين.
- من المستحيل أن يتذكّر تفاصيل ملامحي.
- ربّما...لا أعرف!
- كم ستمكثين عندنا؟
- حوالي شهر واحد، فهم يحتاجونني ولا أستطيع أن أتأخّر أكثر.

فقالت علياء في نفسها: "شهر واحد وتخافين أن تتأخّري عليهم، أما أمين فتركتيه العمر كلّه" وأكملت بصوتٍ عالٍ وقالت لأمل: "حسناً يا أختي ننتظر قدومكِ بفارغ الصّبر، وسأخبر أمين أنَّ خالتك سهاد ربّما تأتيَ بعد أسبوعين تقريباً".

- لا... لا تخبريه، عندما أصل تقولي له أنّ خالتك سهاد قد جاءت، وهي مشتاقة لك وتريد أن تراك.
- حسناً يا عزيزتي انتبهي إلى نفسكِ.
- إلى اللّقاء علياء.
- مع السّلامة يا أمل أنا بانتظاركِ.

***

ذهب أمين للجامعة فوجد ريم تنتظره عند موقف السيّارات، في المكان الذي اعتاد أن يركن سيّارته به، نظر لريم دون أن يكلّمها، ولاهي كلّمته أيضاً، فساروسارتْ بجانبه، والصّمت يسير معهما، بقيا يسيران حتّى وصلا الاستراحة بصمتٍ عارم، ربّما الكلمات فقدت معانيها في مثل حالتهما، أو أنّ الكلام تجمّد بسبب البرد الشديد الذي أصاب حالة الحبّ هذه، فعند وصولهما باب الاستراحة وقفت ريم، ومسكت أمين من ذراعيه ليقف وينظرَ إليها، فالتفتَ ونظر في عينيها، فقالت له:"مهلاً يا أمين، مهما حصل إن كان سلباً أو إيجاباً لن أكون أنا السبب به، لقد رفعت يدي عن الموضوع، وتركت الظّروف هي التي تحكم علينا، ولكن... تأكد أنني لن أحبَّ غيرك مدى الحياة، حتّى الموت...لقد تعبت".

لم يستطع أمين التفوّه ولا بكلمة واحدة؛ لأنه لو تكلّم ربّما سينفجر،لكن كل ما استطاع فعله هو أنه مسك يد ريم، ثمّ فتح باب الاستراحة وأدخلها...

ثمَّ خرج وتوجّه إلى مبنى الهندسة لا يريد الجلوس مع أحد ولا الكلام مع أيٍّ كان، وفهم من كلام ريم أن يبقى الموضوع على حاله.

بقي أمين مُعكّر المزاج لا يُكلِّم أحداً، عندما يجلسون جميعهم بالاستراحة تأتي عينه بعينها يحاول أن يتحاشاها ولا يُشعِرها أنه ينظر إليها، وبقيا هكذا إلى يوم الجلسة الأولى من المحكمة.

دخل أمين من باب المحكمة وكان قلبه يرجف، لقد تذكَّر المثول الأوّل في قضيّــة الاغتصاب، وكيف حُكِم ظلماً فيما بعد، لن ينسى ذاك اليوم العصيب إلى الأبد، ثمَّ جلس لينتظر اكتمال العدد وبدء الجلسة، وبعد خمس دقائق دخلت ريم ووالديها وجلسوا. كانت علامات الانتصار والقوّة على وجه هند، أما ريم فالخوف والحزن يأكُلان ملامحها الناعمة، وعندما لمحهم أمين قد دخلوا أزاح بنظره عنهم؛ خشية شعوره بالأسى والأسف.

وافتتحت الجلسة وبدأ المحامي وكيل ريم بالحديث: "إنَّ ريم قامت بعقد قرانها شرعياً رغماً عن والديها وبِتَغَــيّبهما، مما أدّى إلى ندمها ندماً شديداً بعد ذلك؛ لأنها لم تجد أن أميناً هو الشّخص المناسب لها، ولم يتّفق قلبها مع قلبه، هذا بالإضافة إلى أنَّ ريم لم تعرف أنَّ مرض أمين ممكن أن يُهدّد حياته بالموت في أيِّ لحظة".

غضب أمين جداً من هذا الكلام الكاذب وجلس متوتّراً، وعلامات القلق تظهر عليه بشكلٍ ملحوظ.

فوقف محامي الدّفاع الموكّل عن أمين وقال: "أنا أعترض، أيريد هذا المحامي أن يقتل موكّلي الآن بكلامه...؟! هذا التصرّف لا يجوز، فكيف يحكم على شخصٍ بالموت بأيّ لحظة ومن دون أيّ أدلّة، كما أنّ مرض موكّلي غير مميت، هو عنده تضيُّق بسيط في إحدى شرايين القلب وهو يستطيع إكمال حياته طبيعيّة مع أخذ الحيطة وتجنّب الضّغوطات النفسيّــة، كما أنَّ ريم ما تزال تحبّ المدعوّ أمين ولم تندم على الارتباط به، اسمحوا لي يا سيّدي أن أسأل ريم بعض الأسئلة".

فسأل محامي الدّفاع الموكّل عن أمين: "أما زلتِ تتمسّكين بأمين وتريدين البقاء على ذمّته، أليس كذلك؟"

بقيت ريم صامتة لفترة ثمّ قالت: "لا أعرف"؟

فقال لها المحامي: "نريد إجابة واضحة... نعم أم لا".

فقالت بتردّد وصوتها يرجف: لا

تفاجأ أمين من جواب ريم، وكان كصدمة له لم يتوقّع هذا منها. ثمّ سأل المحامي مرّة أخرى ريم: "هل أفهم من كلامكِ أنك نادمة وتريدين الطّلاق؟"

فقالت ريم بعصبيّــة: "لــمَ أنا هنا إذن؟ أليس للحصول على الطّلاق؟"

فقال لها المحامي: "اهدئي أنا أتأكّد فقط، ويجب أن تكون إجابتكِ واضحة". وضجّت المحكمة بالأصوات العالية، ثمّ بعد ذلك قال لها المحامي: "يا ريم ألم يكن هناك أحد يضغط عليكِ لتنفصلي عن أمين؟".

فأجابت: "لا أعرف.. أنا أريد الطّلاق وحسب".

جميع الأصدقاء تفاجأوا من أجوبة ريم القاطعة، ولم يتخيّلوا أن تسير الجلسة على هذا النحْو، وأمين لم يُصدّق ما تسمع أذناه.

لم يبقَ شيئاً لمحامي دفاع أمين أن يقوله، بعدما أقرّت ريم أنها ترفض أمين كلّ الرّفض، وأنها نادمة، لكن بقي محامي الدّفاع يحاول إثبات أنَّ أمين يحبّ ريم ومتمسكاً بها، ويرفض الطّلاق لكن من دون فائدة؛ لأنَّ ريم قد أخذت درساً جيداً من والدها قبل الدّخول إلى قاعة المحكمة، وكانت والدها قد لقنتها مع المحامي التّعليمات والدّروس، وحفّظاها ماذا يجب أن تقول في المحكمة عند كلِّ سؤال، وهي لا تستطيع مخالفة الأوامر، لا تريد أن تُغضِب والدها وأن تفقد أسرتها، فقررت أن تضحّي بحبّها؛ لأنَّ الإنسان لا بدَّ أن يُضحّي بأحد الأمرين في حال خُيِّر أن يختار، فيضحّي لكي لا يختار.

انتهت الجلسة الأولى والأمور بصالح ريم وبصالح الطّلاق المرير على ما يبدو، ولكن لم ينطق القاضي بالحكم بعد، بل أجّل الحكم لجلسة أخرى؛ ليترك لهما مراجعة أنفسهما والتأكّد من صحّة أقوالهما، أما الجلسة الثانية فأجّلت عشرة أيام،وفي حال رغبت ريم بالبقاء على ذمّة أمين وتريده فإنّ المحامي أخبرهم أنّ القاضي سيحكم لهما رغماً عن الجميع بعقد قران جديد بحضور وليّ الأمر وبهذا يكون شرعيّاً تماماً.

***

ثاني يوم بالجامعةلم يُناقش أمين ريم بأيِّ جواب أجابت عليه، فهو يعلم أنها أجابت ذلك رغماً عنها، وكلما رآها حاول الابتعاد والوقوف في مكان آخر غير المكان المتواجدة به.

لكن بعد ثلاثة أيام مريرة على قلوبهما وقفت ريم أمام أمين وهو يمشي فتفاجأ... فقالت له: "لـــمَ تهرب مني؟ أريد أن أكلّمك".

فقال لها: "أرجوكِ ريم ابتعدي عن طريقي، لا أريد أن أكلّمكِ".

– أنت غاضب مني؟

– لا، أنا غاضب من نفسي، غاضب من الأيام الجميلة الكاذبة التي كنّا نعيشها.

– كفى يا أمين، صدّقني أنا بحاجة لأتكلّم معك، لا تَصدّني دعنا نجلس ونتكلّم.

فمسكت ريم يد أمين لكي تأخذه للاستراحة، فشدّ أمين يده منها بسرعة، لا يريد أن يُمسك يدها، فقالت له: "حسناً لا تغضب، هيّا لنذهب للاستراحة... هيّا تحرّك".

وذهبا الاثنان وجلسا معاً، فرآهما هاني وركض مسرعاً إليهما وقال: "ما الذي جرى يا ترى؟ منذ فترة ولم أرَ هذين الاثنين يجلسان مع بعضهما".

فقال له أمين: "اذهب من هنا يا هاني؟"

– سأذهب لن أعكّر صفو اثنين بقي لديهما دقائق معدودة مع بعضهما وذهب.

فقال أمين: "تفضّلي ما هو الكلام المتبقّي لديكِ لتخبريني به ألم يتنهي الكلام بعد...آآآآه والله مللتُ والله تعبتْ.

– أمين، كلّ ما قلته في المحكمة كان مجرّد كلام خارجاً عن إرادتي، وليس بكلام قلبي... فقاطعها أمين وقال: "لا تكملي يا ريم، أنا لا أحبُّ الكلام العقيم، الذي لا يُقدّم ولا يُؤخّر، لقد جرى

ما جرى وأنتِ اخترت مـــ..." قاطعته وقالت: "بل هم اختاروا لنا، أنا لم..." فقاطعها قائلا: "لا يهمّ من اختار، المهم ما الذي سيحصل؟ والذي سيحصل هو طلاقنا والانفصال، وهاهو هدف والدتكِ ستحصلون عليه وبأسرع وقتٍ، خذيه لعلّه الفرح القادم" فقالت له: "لا تقل هذا يا أمين، عن أيِّ فرح تتكلّم؟! يجب أن تبدأ بتهيئة نفسك على الانفصال".

– بصراحة، لا أعرف كيف سأكمل الشهرين المتبقيين لنا بالجامعة وأنا أراكِ كلَّ يوم، على كلِّ حال أنا أهيّئ نفسي ولم يبقَ سلاح لنحارب به، استُهلكنا بالكامل واستُنفذتْ جميع قُوانا بهذه الحرب.

– خذْ الأمور ببساطة، ولا تتخيّل أننا انفصلنا، بل سنبقى أصدقاء.

– أبهذه البساطة تقولينها...؟! لا أفهم ما طبيعتكِ يا ريم!

– لا...أنا أواسي نفسي بأقاويل كثيرة، وأقوّيها لكي أستطيع أن أكمل وأسير، ألم تعلّمني أنت هذا؟ ألم تعلّمني أن أكون قويّـــة وأن أفصل بين الإحساس والحالة، ألم تكن هذه كلماتك؟

– نعم، يظهر أنكِ تعلّمتيها جيّداً، ولا أدري بماذا أخبروكِ واستطاعوا أن يُغيّروكِ حتّى أصبحتِ قويّة!

– أنا مظلومة مثلك تماماً يا أمين...

–إن غيّرتِ رأيكِ فالقاضي سيزوّجنا رغماً عن الجميع هذا ما قاله المحامي وبعقد جديد وبتوقيع والدكِ.

– هههههه، يا إلهي مازلت تتمسّكُ بحبال الأمل؟! نعم أعلم لكن سأخسر والديّ.

– حسنا يا ريم، انتهينا لا داعي للجدال الآن فالانفصال حاصل، ومن يعلم...المرّة القادمة سنعود من المحكمة وورقة عذابي بيدكِ، من فضلكِ لا تُكلّميني منذ الآن...سلام.

وقام أمين من مكانه وخرج من الاستراحة، تاركاً ريم جالسة حول الطّاولة وحدها، غارقة بالأفكار.

فالتقى بهاني خارجاً ومشى معه فقال له هاني: "يبدو عليك الانزعاج؟" فأجابه أمين باستهزاء: "وما رأيك أنت"؟

– عندي يا أمين اقتراح ولا أعرف إن كان سيُعجبك، لكنه سيُغـــيّر مسيرة الخطّة التي وضعتها والدة ريم ويقلب جلسة المحكمة لصالحك.

– كفاكم اقتراحات فلا شيء ينفع، خمس سنوات وأنا أسير وراء اقتراحاتكم ولا تجدي بل تفشل وأنت رأس الأفعى.

– أنا رأس الأفعى يا أمين!! لا يهمّ مقبولة منك، أنت اسمع فقط وإن لم تعجبك اتركني واذهب؛ لأني لو كنت مكانك... لفعلت آخر شيء أقدر عليه.

– وما هو؟ (أمين يسأل باستهزاء)

– يجب أن تقنع ريم بأن تتزوّجا فعلياً وليس على الورق كما فعلتما. يا أمين ريم زوجتك شرعاً وحلالك، تزوّجها وسترى كيف ستتغيّر الأمور.

– فعلاً أنت رأس الأفعى، لا بل رأس الشيطان...ما بك؟! لا يا هاني، ستزداد الأمور تعقيداً، ألا تُفكّر أنت بعقلك؟
– وما المشكلة؟ افهمني هيّا؟؟
– تخيّـــل أن أتزوّجها وأعاشرها وتصرُّ والدتها على الطّلاق، وريم تقف عاجزة أمام والدتها، بهذا سأظلم ريم وستُعتبر مطلّقة بعد الدّخول، ولن تستفيد شيئاً...لا فكرة سيّئة يا مجنون.
– اسمح لي، أن أقول لك أنك إنسان غير طبيعيٍّ وبلا أحاسيس...
– لماذا...؟ أنا بلا أحاسيس!
– نعم، وأنت حجر وقلبك هذا من حجر، لو كنت مكانك لتزوّجنا وجعلتها حاملاً من أوّل دقيقة، وسأجعل والدتها ترجوني وتقف باكية أن أبقى مع ابنتها؛ لأحافظ عليها وعلى الطّفل. لا أعرف كيف بقيتَ للآن من دون أن تقبّلها ولو قبلة واحدة! حتّى وهي حلالك... لا أعرف؟ وتقول لي مشاعر وأحاسيس وحبّ؟ اذهب يا أخي لا أفهم ما هذا القلب الذي تحمله، أنت بشر أنت! أنت جماد لا تختلف عن جهاز الحاسوب الذي ينتظر منا الأوامر لكي نوجّهه.

نظر أمين لهاني بغضب وتكلّم بلهجة شديدة معه: "لا تتدخّل يا هاني أكثر، ولا تخرج عن الخطوط الحمراء، نعم...أنا جماد...أنا حجر، حاسوب، أبله..معتوه...لا دخل لك أنت". وترك أمين صديقه هاني وذهب غاضباً من كلامه.

عادت ريم للبيت بعد دوام الجامعة سيّئة المزاج وأصبحت تنادي وتصرخ، أمي أين أنتِ؟ فأجابتها والدتها: "أنا هنا في المطبخ"، ركضت ريم للمطبخ فوقفت أمام والدتها، فقالت لها أمها: "لـــمَ الصّراخ؟ أين سأكون؟ في المطبخ أحضّر طعام الغداء؟"
– أمي، أريد أن أسحب دعوة الطّلاق.
– عُدنا يا ريم لكلام المجانين.
– أمي لا أريد الدّكتور عمر أرجوكِ، لا أريد سوى أمين، أمي أنا تعبتُ من هذا الموضوع، أرهقتُ...ارحميني، حرام أن تضيع خمس سنوات بالحبّ هباءً هكذا.
– ريم حبيبتي لا المشكلة؟ لماذا تُتعبي نفسكِ وتُتعبيني قلت لكِ إذا أردتِ أمين اذهبي إليه من الآن، ولا تُريني وجهكِ خذي كلَّ أغراضكِ، هيّا فليس لديّ مانع ولا تعودي، هيّا اذهبي... فحبيب القلب ينتظر.
– يا أمي هل تهون عليكِ ابنتكِ إلى هذه الدّرجة، أمي أنا أتعذّب، أنا أحبكِ وأحبكم جميعاً، لا أستطيع أن أستغني عنكما، وأريد أمين في نفس الوقت.
– أمين لن أسمح له أن ينضمَّ إلى أسرتنا هذا ابن شاكر الحقير، لكن إذ أردتيه أنتِ اخرجي من الأسرة وانضمي إلى أمين شاكر.
– يا أمي لـــمَ تعقّدين الموضوع هكذا؟ خذي الأمور ببساطة، أمين ليس كأبيه هو يختلف تماماً.
– انتهينا يا ريم لا أريد أيّ نقاش، ستتزوّجين من الدّكتور عمر، رجل له اسمه وعائلته المرموقة المعروفة، لديه أمٌّ وأب ويعيش ضمن جوٍّ عائليّ محترم، له إخوة وأخوات ليس وحيداً مقطوعاً

من شجرة، كيف ستنمو شجرة عائلتكما إذا تزوّجتِ أمين؟ كفى يا ريم انسي أمين وابدأي الحياة من جديد لن تقف الحياة عند أوّل شاب تعرّفت عليه، واعتبري هذه المرحلة تجربة فيها السيّء وفيها الجميل، وقد استفدتِ منها أموراً كثيرة وتعلّمتِ لأنّ الحياة تجارب ومراحل، ولا تستطيعين أن تعبري مرحلة قبل الأخرى، اذهبي الآن بدّلي ملابسكِ وتعالي ساعديني في تحضير المائدة.

ذهبت ريم لغرفتها تبكي وتشعرُ بالقهر والغصّة في حلقها تخنقها، وأغلقت باب غرفتها كالعادة ولم تخرج لتأكل أو تجلس مع أحد.

كانت ريم فقط تخرج تذهب للجامعة وتعود لتغلق باب غرفتها عليها، حتّى الطّعام كانت لا تقترب منه إلاّ إذا شعرت بجوع شديد جدّاً، فأصبحت تشعر بتعب دائم وكسل في جسمها وضعف عام، وصداع مستمرٍ برأسها ودائماً تتناول أقراصاً لتهدئة الصّداع، هي لم تكلّم أمين منذ آخر مرّة جلست معه فيها بالاستراحة، ولم تعد تراه أبداً، أما أمين فحاله ليست مختلفة كثيراً عن ريم فحبوب تهدئة القلب دائماً في جيبه، وألم دائم في صدره، حتى خالته لم تعد تعرف كيف سترسم البسمة على وجهه، كانت كلّ يوم تأتي وتجلس معه بالسّهرة لكي لا يجلس وحيداً وتواسيه وتحضر له طعام العشاء.

حتّى مضت الأيام بسرعة وغداً يوم عصيبٌ على القلبين، وكان الجميع يعرف أنّ يوم غد يوماً مشؤوماً وحاسماً لأمين وريم.

فبعد أن استيقظت ريم من نومها أخذت تُفكّر وتخطّط كيف عليها مقابلة أمين، وبيوم إجازة كهذا ومن دون علم والدها كالمعتاد، لكن القيود هذه المرّة مشدّدة عليها كثيراً، فهي ممنوعة من استعمال الهاتف وممنوعة من الخروج.

فجاءت ديالة ومنال لزيارتها لكي تطمئنان عليها، شعرت ريم أنهما من الممكن مساعدتها بشيء في بالها، فرحّبت ريم بصديقتيها وأدخلتهما إلى غرفتها، وقالت لهما: "شكراً على مجيئكما، فأنا حقّاً بحاجة لمن أتكلّم معه؛ لأني أشعر بأنني محبوسة ومقيّدة وسأختنق وبصراحة لا أعرف مصيري، ولا أعرف كيف سيُثبت القاضي حكم الطّلاق غداً... بالخلع ربّما."

نظرت لها ديالة باستغراب وقالت لها: "الحكم بيدكِ يا ريم، أنتِ تستطيعين تغيير كلَّ الأمور لصالحكِ، أما أمين المسكين فهو الآن يتعذّب حتّى ساعة الجلسة، فهو يعلم كم سيكون الموقف قاسياً عليه"، وقفت ريم وهي بحالة غضب وقالت بعصبية: "أيعني أنا التي لا أتعذّبُ؟ إنني أحترق من الدّاخل، أموت ولا أحد يشعر معي، صدّقوني الموضوع ليس بيدي، لا أستطيع فعل أيَّ شيء، ولا أن أغيّر أيّ شيء كان".

منال صامتة وتسمع ما تدور من كلام بين ديالة وريم، وفي قلبها تتمنّى أن ينفصلا، وفي نفس الوقت ريم صديقتها وتخاف عليها وتحبُّ لها الخير، ولكن تقول في نفسها: أتمنّى أن تسير الأمور لصالحي، فسألعب لعبتي جيّداً بعدها؛ لأنَّ السّاحة تكون فارغة أمامي، وبهذا لن أكون سلبتُ حبَّ أحدٍ من أحد.

دائماً هكذا النفس البشريّة تحبُّ مصلحتها قبل مصلحة الآخرين؛ لأنَّ الأنانيّة صفة موجود داخل كلِّ إنسان، كالطيبة والغيرة وغيرها، لكن تتفاوت حدّتها من شخص لآخر، ولا نستطيع إنكارها من بين الصّفات فهي صفة يغلب عليها التطبّع وهذه حقيقة.

خيّم الصّمت على الصديقات، وأخذت ريم تنظر لصديقتيها وفي عينيها كلام تريد أن يُبرّر موقفها وهي لا تستطيع الكلام، فقالت لها منال: "ما بكِ يا ريم؟ لماذا السكوت فجأة؟ أشعر أنكِ تريدين قول شيء".

فأخذت ريم تدمع ولن تستطيع حبس دموعها وكأنها قنبلة موقوتة وانفجرت، وعلا صوت بكائها فأصبحت ديالة تهدّئ من روعها، ومنال قالت لها:"نحن صديقات يا ريم سنساعدك إذا كان بيدنا شيء نفعله، لا تغضبي هكذا فما زالت الأمور غير واضحة وحُكم الطّلاق لم يصْدرْ بعد، اهدئي".

فقالت ريم: "لا بل سيصدُر غداً وهذا مؤكّد، إذا كنتما تستطيعان مساعدتي حقاً أريد منكما طلباً صغيراً" وأخفضت ريم صوتها لكي لا تسمعها أمها وقرّبت رأسها من صديقتيها وقالت:"أمي ستخرج بعد ساعة تقريباً لإحضار بعض الأغراض البيتيّة، وأريد منكما أن ترتّبا لي موعداً مع أمين لكي أشرح له بالضّبط ماذا من الممكن أن يحصل غداً، وأبرّر موقفي أمامه لا أريده أن يعتقد أنَّ الطّلاق مسألة بيدي.

فقالت لها منال: "هو يعلم أنكِ مجبرة على ذلك ويعرف أنّ أمكِ تضغط عليكِ."

قالت ريم: "نعم أعلم يا منال، ولكن ربّما يعتقد أنني أستطيع تغيير الأمر، وأنا لا حول لي ولا قوّة، ولا يدَ مغيّرة لمجرى الأحداث، وأريد أن يعرف قبل صدور الطّلاق أنني مظلومة مثله تماماً وأنَّ القدر هو الذي يحكُم بيننا".

فسألتها منال: "وكيف لنا أن نرتّب لكِ الموعد يا ريم؟ وهل في بالكِ خطّة معيّنة؟"

- نعم، أجابت ريم وهي متفائلة قليلاً، "أنتِ يا منال اتّصلي مع أمين على هاتفه وقولي له أنني أريد أن أراه ضرورياً اليوم بعد ساعة تقريباً، وسيكون الموعد حوالي ربع ساعة فقط".
- فقالت لها ديالة: "لكن ما الفائدة يا ريم من أن تبرّري له الآن موقفكِ، وتُعبّري له عن حبكِ، فليس لكلامكِ معنى، وأنتِ ترفعين عليه قضيّة الطّلاق!"
- أرأيت يا ديالة هذا الذي أريد تبريره هو أنني لستُ من رفع الدّعوة بل والدتي، وهي وراء كلِّ هذا، صدّقوني موقف صعب للغاية".

فقالت منال: "لا تقلقي يا ريم، أمين يعرف تماماً أنَّ أمكِ وراء كلّ هذا، فهو يعلم جيّداً أنها تكرهه ومن المؤكّد أنه لا يضع اللّوم عليكِ لفشل هذه العلاقة".

ثُمَّ مسكت ريم يد منال و توسّلتها: "أرجوكِ...من فضلكِ يا منال أريد أن أرى أمين، وأكلّمه للمرّة الأخيرة، فهذه ستكون آخر مرّة أرى فيها أمين وأجلس معه، اتّصلي به كوني مَحضَر خير، فأنا إن لم أكلّمه اليوم أعتقد أنني سأنفجر غداً في المحكمة.

فقالت منال: "حسناً...حسناً كفاكِ توسّلاً، لو كان أمين معي لأعطيتكِ إيّاه، سأتّصل وأقول له من الضروريّ أن يراكِ".

فقالت ديالة: "لـــمَ لا تكلّمينه أنتِ من هاتف منال وتقولين له ما تُريدين دون أن تذهبي إليه وتُسبّبين لنفسكِ الإحراج".

"اسكتي يا ديالة" قالت ريم بعصبيّة، وأكملت: "أنا أريد أن أراه أيضاً لأودّعه وليس المقصد أن أتحدّث فقط، أريد أن أضرب عصفورين بحجر واحد".

أخرجت منال الهاتف النقّال من حقيبة يدها، وأخرجت رقم أمين الخلويّ من القائمة، وقالت لريم: "ها هو الرّقم، واحد... اثنان سأتـــّصل".

– لا... لا انتظري يا منال... (قالت ريم بتوتّر).

فقالت لها منال: "ما بكِ، ما كلُّ هذا التردّد؟"

– لا شيء، لكن أريد أن أذكّركِ أن لا تذكري اسمه وأنتِ تتكلّمين معه، لكي لا تسمعنا أمي بالصّدفة، مثلاً قولي له كيف الحال؟ ماذا تفعلون هكذا ودون إظهار لأحد مع من تتكلّمين.

– حسناً يا ريم هل أتّصل الآن؟ أم هناك تعليمات أخرى؟

هزّتْ ريم رأسها تقول لمنال نعم اتّصلي لا يوجد ما نضيفه.

اتّصلت منال على هاتف أمين ولكن للأسف كان الهاتف مُغلقاً، فأخذت الهاتف ووضعته على أذن ريم، فقفزت ريم من مكانها مبتعدة عن الهاتف وقالت لمنال: "لا أريد أن أتكلّم معه على الهاتف؟"

فقالت لها منال:"لا اسمعي أريد أن أُسمعكِ أنّ الهاتف مغلق حالياً، فقط".

حزنت ريم وعادت تجلس بجانب صديقاتها وقالت: "ما هذا الحظُّ السيّء؟ اتّصلي يا منال معه على منزله، هيّا".

فقالت ديالة: "ربّما كان نائماً الآن" فقالت ريم: "في هذا الوقت؟ لا أظنّ ذلك، فنحن في عزّ الظّهر...هيّا يا منال اتّصلي".

– حسناً سأتـــّصل (أجابت منال من دون أن يعجبها الوضع) واتّصلت بمنزله،ثمَّ رفعت حاجبيها مستغربة، فقالت لها ريم: "ماذا بكِ... ماذا جرى؟"

– لا يوجد أحد بالمنزل، الهاتف يرنُّ ولا أحد يجيب. فقالت ديالة: "حاولي مرّة أخرى".

– حسناً سأحاول... وحاولت مرّة أخرى وقالت: "لا أحد يجيب صدّقوني. وقفت ريم حائرة وقالت: "ماذا سأفعل؟ أين ذهب يا ترى؟ هل من الممكن أنه لا يريد أن يجيب".

فقالت لها ديالة: "اتّصلي مع هاني واسأليه إذا كان يعرف مكانه أو ربّما كانا مع بعضهما".

أخذت ديالة هاتف منال واتّصلت بهاني، فأجاب بصوت شبه نائم: "نعم... ألو".

فقالت ديالة: "مرحباً هاني كيف حالك أأنت نائم؟... فشدّت ريم الهاتف من يد ديالة بسرعة وأرادت أن تكلّمه هي، فقالت لها ديالة: ما بكِ لـــمَ أخذتِ الهاتف؟"

– مرحباً هاني كيف حالك؟... أنا ريم

تفاجأ هاني وقال: "ما الموضوع؟ الرّقم المتّصل هو منال، وديالة تقول ألو... وريم تُكمل المكالمة؟ افتتحتم جمعيّة لِتُــكلّمني؟ هل أنا محبوب لهذه الدّرجة! وتتنافسن عليّ؟"

فقالت له ريم: "هاني من دونِ مزاحك اللّطيف هذا، وكفى أرجوك يبدو عليك أنك مستيقظاً الآن، أيوجد شاب نائم لهذا الوقت من الظّهر؟"

– لقد سهرتُ البارحة وشاهدتُ ثلاثة أفلام، لذا لم أنم جيداً، وما المشكلة اليوم إجازة وأنا حرٌّ في وقتي.

– لا يهمّ... المهم أريد أن أكلّم أمين.

– حسناً، كلّميه لقد سمحتُ لكِ.

– هاني... كفاك هراءً!

– ماذا تريدين إذن، كلّميه... لو كان في جيبي لأعطيته الهاتف ليكلّمك لكن لا أعرف لم اتّصلتِ معي بالأصل؟

– يا هاني هاتفه النقّال مغلق، ولا يوجد أحد في البيت، أتعرف أين هو؟

– لا لم أكلّمه اليوم، ربّما يكون عند خالته، أو هي تعرف أين ذهب.

– لم يخطر بالي! يا لي من غبية، حسناً أشكرك يا هاني... سأكلّم خالته.

– فسألتها ديالة: "ماذا قال لكِ؟"

– لا يعرف مكانه، وسأتّصل بخالته ربّما يكون عندها، هيّا يا منال اتّصلي من فضلكِ.

فأجابت منال: "أنا لا أعرف رقم خالته".

– هاتِ الخلويّ وسأتّصل أنا... سحبت ريم الخلويّ من يد منال...

طرقت أمّ ريم على باب الغرفة في هذه الأثناء، فوضعت ريم الخلويّ بسرعة تحت الوسادة، وقالت تفضّلي أمي".

فقالت والدهما من وراء الباب: "افتحي أنتِ يا ريم فأنا أحمل الشّاي والكعك، ولا أستطيع أن أفتح، فقامت ريم وفتحت الباب لأمها "شكراً يا أمّي أتعبتِ نفسكِ"، وأخذتْ من يدها الطّبق.

فقالتْ هند: "بعد نصف ساعة سأبدّل ملابسي وأذهب لأحضر أغراضاً للمترل وأتغيّب ساعة تقريباً، وسأقفل الباب وآخذ المفتاح، فعذراً منكما يا فتيات إذا كنتما تريدان المغادرة قبل عودتي فعليكما المغادرة بعد قليل، فأنا أعرف ابنتي لا أستطيع أن أبقي معها المفتاح، فأخاف أن تتصرّف تصرّفات مراهقات؛ لأنها مجنونة.

فقالت ريم: "أمي ما هذا الكلام، أنا مجنونة!".

فقالت منال لهند: "حسناً يا خالة سأذهب لأنني لا أستطيع أن أتأخّر لساعة أخرى".

قالت ريم بانفعال "لا"، وأكملت: "نريد أن نجلس مع بعضنا أكثر فاليوم إجازة".

نظرت منال لريم وقالت في نفسها: "يالكِ من أنانية لا تريديني أنا إنما تريدين هاتفي ساعة أخرى"

فقالت ديالة لمنال: "اجلسي سنذهب سوياً بعد ساعة يا منال".

– طيّب سأكلّم والدتي وأخبرها أني سأتأخّر بعض الوقت.

وفعلاً ذهبت أم ريم وقفلت الباب وأخذت المفتاح معها، ووضعت هاتف المنزل في غرفتها وقفلت الغرفة أيضاً.

ثمّ قالت ديالة: "أنكمل يا ريم اتّصالاتنا؟ أم لا فائدة بعد أن أخذت أملكِ المفتاح؟"

فضحكت ريم وقالت: "لا تخافي عليّ فصديقتكِ ذكيّة أكثر من والدها، فأمي قبل أن تأخذ مني مفتاح المنزل الذي كان بحوزتي كنتُ قد عملتُ عنه نسخة أخرى لم يعلم بها أحد وخبّأتها، وهكذا سنرجع بسرعة أنا وأنتما ونعود وكأنَّ شيئاً لم يكن".

فقالت لها ديالة وهي تضحك: "يا لكِ من داهيةٍ كبيرة يا ريم".

– هيا نجري اتّصالاتنا بسرعة قبل فوات الوقت، فأنا مصرّة على رؤية أمين اليوم.

وأخذت ريم الخلويّ مرّة أخرى واتّصلت بخالة أمين: "ألو مرحباً خالة علياء".

– أهلاً يا ريم، ما هذه المفاجأة كيف حالكِ؟

– أنا يائسة، وأريد أن أكلّم أمين هل تعرفين أين هو؟

– لا أعتقد أنه خرج من المنزل،لم أسمع باب بيته فُتِح أو أُغلق، وبصراحةلم يدقّ عليّ الباب كالمعتاد... أكيد إنه نائماً.

– لا يا خالة هو لا يجيب على هاتف البيت والخلويُّ مغلق، أريد منكِ أن تدخلي عنده، وترَي إن كان في البيت، ولا يريد أن يجيب!.

– لا تقلقي يا ريم سأذهب إلى بيته وأعود وأتّصل معكِ على هذا الرّقم.

– شكراً يا خالة لقد أزعجتكِ.

لقد شُغِل بال وقلب ريم كثيراً على أمين، أصبح همّها أن تعرف أين هو ولماذا هاتفه مغلق؟ فليس من عادته إغلاق هاتفه حتّى في أثناء تعبه، إنما كان يُبقيه صامتاً.

***

عادت الخالة علياء من بيت أمين قلقة؛ لأنه خرج من منزله وترك المنزل وراءه غير مرتّب، في العادة يستيقظ ويرتّب سريره وملابسه، وإن كانت بعض الأواني متّسخة في المطبخ فهو ينظّفها، ويترك وراءه البيت نظيفاً، ومن ثمَّ يخرج لجامعته، لكن اليوم ترك وراءه البيت بحالة فوضى، فملابسه مرميّة على السّرير، والسّرير غير مرتب، ويوجد في المطبخ كوب زجاج مكسور على الأرض، على ما يبدو كان فيه شاياً؛ لأنَّ الأرضيّة متّسخة بشدّة من الشّاي المسكوب وزجاجاً متناثراً هنا وهناك، وبعض كتب الجامعة مرميّة على الكنبة في غرفة الجلوس وأدوات الهندسة على الأرض، وطاولة المرسم عليها ورقة كبيرة ممزّقة إلى نصفين، وسيّارته ليست موجودة أمام باب العمارة، هذا يدلُّ على أنه خرج من دون أن يشعر به أحد، فاتّصلت الخالة هاتفيّاً لتخبر ريم:"مرحباً يا ريم".

– أهلاً خالة طمئنيني.

– بصراحة أريد من يُطمئنني، هو ليس البيت، وبيته بحالة فوضى شديدة وليس من عادته تركه هكذا، وسيّارته ليست أمام العمارة، اسألي أصدقاءه عنه.

– اتصلنا بهاني وهو لا يعرف شيئاً، ومنال سألت أخاها قبل قليل عنه وقال إنه لا يدري .

قلق الجميع عليه بشدّة، وخالته لم تستطع فعل شيء، فبقيت طيلة النهار تحمل الهاتف محاولة الاتّصال بأمين، لكن دون جدوى، وريم جالسة والحزن لم يفارقها، كانت تودُّ لو أنّها رأت أمين واستطاعت محادثته قبل يوم غدٍ بالمحكمة، وبعيداً عن القاضي.

أمين...ضاقت به الدّنيا، يتمنّى الهروب إلى البعيد، فأقل من ثمانٍ وأربعين ساعة سيسمع خبر انفصاله عن أهمّ شيء يملكه في حياته، وسيسلبه الزّمن حبّه ويعود وحيداً، بعدما كان يحلم بمجرّد حلم بدنيا الحبّ الذي لا ينتهي، ريم هي كلّ عمره وحياته و آماله التي بناها، لقد كان يتنفّس الهواء ليعيش من أجل أن يراها، لكن حبّه يقف في مكان ممنوع الوقوف والتوقّف فيه، فأُجبر على دفع المخالفة والثّمن من دموع وأحزان وعذاب، وهو مؤمن أنَّ كلَّ الأمور بيد ربِّ العالمين.

استيقظ أمين حوالي السّاعة العاشرة صباحاً، ولم ينم جيّداً طيلة اللّيل، كان قلبه يُؤلمه وضيق يحبس أنفاسه في صدره، فأخذ في الصّباح حماماً ساخناً وركب سيّارته وخرج مسرعاً، إنه يختنق يريد الهروب من نفسه، وكلّما تذكّر أن غداً صباحاً سيذهب للمحكمة، تعود الدّموع تجري في مجاري الدّمع في عينيه، فيحبسها ولا يسمح لها بالخروج، فتحمرّ عيناه، ويقول لنفسه:"لا للبكاء ولا للدّموع كلا، يكفي أنَّ قلبي يبكي من الدّاخل وجرح الحبِّ ينزف من الشّريان"، وبقي يذكرُ المحاكمة التي حُكم بها ظُلماً فيعود قلبه للبكاء، ويقول في نفسه: "وغداً سأحكمُ ظلماً أيضاً، عندما يحكمون لريم بالطّلاق"، وظلَّ راكباً سيّارته يسير من دون تخطيط، إلى أن وصل إلى طريق حقل زراعي بعيداً خارج المدينة، فأوقف سيّارته ليستنشق هواء الطّبيعة العليل، فرنّ هاتفه الخلويّ بجيبه فنظر إليه لم يعرف الرّقم، ثمّ أغلق هاتفه تماماً، وقال: "لا أريد أن أكلّم أحداً اليوم، فلا يوجد أحد مهم أنتظر اتّصاله، وريم ربّما تُــحَضِّرُ لحفل زفافها على الطّبيب الآن، ريثما تحصل على الطّلاق غداً، فجلس تحت شجرة على الأرض وضمَّ ساقيه إلى صدره وأراح رأسه على ذراعه المستندة على ركبته، وأخذ يُفكّر ويسرح بالأفكار، حتّى جاء رجل كبير السنِّ صاحب الحقل، وقال له: "ماذا تفعل هنا أيّها الشّاب؟"

فنظر إليه أمين متفاجئاً وقال له: "أجلس هنا يا عمِّ أستظلّ تحت ظلِّ هذه الشّجرة".

فقال له صاحب الحقل بعصبيّة:"اذهب من هنا، لا نريد المشاكل يا ولد، سأطلب لك الشّرطة إن عدتُ ورأيتكَ ما زلت هنا".

فقال له أمين: "لا...لا سأقوم، هذا الذي كان ينقصنا فعندي ما يكفي وزيادة من المشاكل".
وركب أمين سيّارته وسار بها حتّى أصبح بعيداً جدّاً عن مدينته، وهو لا يدري أين يذهب، كان فقط يريد الابتعاد عن كلِّ شيء...الابتعاد عن الأفكار، لكن الأفكار تلاحقه أين ما ذهب وكيفما ابتعد، فقرأ على الشاخصات التي في الشّارع بلدة الشمال
(٥٥ كيلومتراً) فسرَّ كثيراً لأنه اشتاق إلى المكان الذي نشأ به، وقد حنّ إليه، لقد غاب عن بلدة الشّمال قُرابة الخمس سنوات منذ أن تخرّج من الثّانويّة العامّة، وهاهو الآن في طريقه للتخرّج من الجامعة، فوصل البلدة وأخذ يتجوّل بسيّارته في شوارعها، فمرّ بشارع مدرسته الداخليّة فركن سيّارته ونزل، وأخذ يتذكّر أوّل يوم جاء به للمدرسة مع الجدّة، وكم كان خائفاً، فوقف يتنهّد وينظر من سور المدرسة على الأطفال الذين يلعبون في السّاحة الخارجيّة.

"آه، الله يرحم أيّام زمان، آهٍ...كم بكيتُ هنا وكم لعبتُ أنا وأصدقائي، كم اشتقت لخالتي وأمي...وبيتي!! وكم كنت صغيراً وما زال في قلبي طفلٌ صغير، يريدون أن يسلبوا منه أشياءه ويُبكونه". غصّة الماضي الوحيد والبعيد عادت ذكراها في قلب أمين، وآهات الأيام ما زالتْ محفورة في داخله.

ذهب أمين واشترى الحلوى للأطفال ودخل إلى ساحة المدرسة، ووزّع عليهم الحلوى، فسُرّوا كثيراً ثمّ ذهب إلى قسم البنين لزيارة أساتذته الذين ربّوه وعلّموه، فتفاجأوا به وسَعِدوا كثيراً بوجوده، ورحّبوا به أحرّ ترحيب، وقال له مدير المدرسة: "والله فيك الخير وكلّ الخير يا أمين، أنت أوّل ابن من أبنائنا يتخرّج من المدرسة ويعود ليزور أساتذته، جزاك الله خيراً".

فأخبرهم أمين إنه الآن على وشكِ التخرّج من الجامعة، وسيتخرّج مهندساً معماريّاً بإذن الله وهو مسرور بدراسته هذه، وجلس عندهم حوالي ساعة، وقدّموا له فنجان قهوة وبعد ذلك استأذنهم للعودة لأنَّ الطّريق طويلة، وودعهم وغادر، فأخذ يقود سيّارته لطريق العودة وما زالت صورة ريم أمامه، فوصل قرابة العاشرة والنصف ليلاً لمدينته، فاتــّجه إلى بيت ريم ووقف مقابل البناية، تحت شرفة غرفتها وهو في سيّارته، يريد أن يودّعها عن بعد ويودّع الشّارع الذي تسكن فيه؛ لأنه لن يمرَّ بقربه بعد اليوم أبداً، كانت ريم تجلس في الشّرفة دون أن تُشعل الإضاءة، وكانت فقط تتأمّل أضواء السيّارات البعيدة وأضواء الشّارع، فلمحتْ سيّارة تقف تحت شرفة غرفتها تماماً، لقد أصبح قلبها يخفق بسرعة؛ لأنها تشكُّ أنَّ هذه سيّارة أمين، قالت في نفسها: "وما الذي سيُحضر أمين إلى هنا وفي مثل هذا الوقت، ومثل هذا الظّرف؟".ليس واضحاً لها في عتم اللّيل من الموجود داخل السيّارة، فهي لا تستطيع أن تناديه لكي تتأكد لأنَّ أمها وأباها يجلسان في غرفة التّلفاز، وسيسمعانها إذا تنفّست.

فقالت في قلبها:"لا أريد أن أتأكّد، فقلبي يقول لي إنه أمين، نعم إنه حبيبي أمين"، فوقفت ريم ومدَّتْ رأسها لتتأكّد من بالسيّارة، وتُثبتَ لنفسها أنها على صواب، فسرَّ أمين لأنَّ ريم على الشّرفة، لم يكن يراها وهي جالسة وفي العتمة فلاحظ أنها ليست متأكّدة منه، ففتح نافذة السيّارة وأخرج رأسه ونظر إليها، وفي عينيه نظرة الوداع، فمدّ يده ولوّح بها تلويحة بسيطة لكي لا ينتبه عليه أحد سواها، فودّت ريم لو تقفز من الشّرفة للسيّارة، لكن قلبها طار وكأنَّ له أجنحة وهدَّ على نافذة سيّارته، كانت تريد أن تكلّمه لكن لا تستطيع لبُعد المسافة، ولا تقدر التفوّه ولا بحرف واحد، حتّى لغة الإشارة لم تسعفها أبداً؛ بسبب العتمة فشعرت بأنَّ جميع الحواسِّ الخمسة قد فُقِدتْ منها، فهي لا تستطيع سماعه، ولا رؤيته جيداً ولا حتّى الكلام معه وتذوّق طعم الحبّ، ولا لمس الأحاسيس المرهفة التي تُوقد نار العشّاق، ولاأنها قريبة منه لتستنشق رائحة عطره المميّزة والتي تدلُّ على شخصيّته.

ثمّ حرّك أمين سيّارته واتّــجه إلى بيته بعد لحظة الوداع الساكنة هذه، فبقيت ريم تنظر إلى سيّارته لأبعد مسافة تستطيع أن تراها فيها، حتّى اختفت عن الأنظار بين البنايات السكنيّة البعيدة،فدخلت ريم من الشّرفة وجلست على سريرها تُفكّر كيف ستستقبل صباح غد البائس.

وصل أمين إلى بيته فكانت خالته بحالة قلق شديد، كما أنها لم تخبر عبد الرّحمن عن تغيّب أمين المفاجئ طيلة النّهار، لكي لا تزيد الموضوع تعقيداً، فما إن دخل أمين بيته وسمعتْ علياء باب بيته يُفتح ويُغلق حتى ركضت وراءه ودقّت الباب، ففتح أمين وقال:"أهلاً خالتي تفضّلي"

فقالت له الخالة بانزعاج تامٍّ: "أهلاً ؟ أتقولها بكلِّ بساطة... أهلاً؟"

– ماذا يا خالتي؟ ادخلي.

فسألته بعصبيّـــة: "أين كنت منذ الصّباح؟ ولـــمَ هاتفك مغلق طيلة اليوم؟"

– آسف خالتي، لم أقصد أن أُسبّب لكِ القلق، لم أعرف أنكِ ستقلقين عليَّ.

– كيف لا أقلق عليك وأنت في آخر فترة صاحب مزاجٍ سيّء ونفسيّة متعبة، وأيضاً صحّتك متوعّكة وتختفي فجأة من الصّباح حتّى قرابة آخر اللّيلِ وهاتفك مغلق، لقد دارت في رأسي كلّ الأفكار السيّئة، ولم أعرف كيف أبحث عنك.

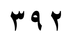
– كنت يا خالتي أريد الجلوس وحدي، لمجرّد رنة الهاتف كنت لا أريد سماعها، أريد أن أهرب، لكن إلى أين...لا أعرف ولم أعرف، فدرتُ في الشّوارع بسيّارتي، وشكوتُ لها همّي وحزني، وعادت بي الطّرقات إلى بيتي لأشهد يوم غد.

–اتّصلت ريم في ظهيرة اليوم وسألت عنك وكانت قلقة عليك لأنها لم تجدك بأيِّ مكان.

– ألم تقل لكِ ماذا كانت تريد؟

– لا، أبداً

– على كلِّ حال لم يتبقّ شيء لتقوله فالكلام انتهى بيني وبينها، وكان يجب أن تخبريها لا داعي للقلق على أمين فهو لم يعد يخصّها بشيء، ولا أدري لـــمَ تهتمَّ بأمري؟



الفصل الرابع والثلاثون

التقى أمين بريم واقفة هي ووالدها عند باب المحكمة يُريدان الدّخول، لم يكلّمهما ولمُيلقي التحيّة عليهما، وظلَّ داخلاً هو وخالته للقاعة التي ستُعقد بها الجلسة الثّانية والأخيرة، فجلس الجميع بأماكنهم المخصّصة، وما هي إلا دقائق حتّى بدأت الجلسة، فقام المحامي الموكّل عن ريم بعرض ما تمَّ مناقشته بالجلسة الأولى للتّذكير وأضاف: أيّها القاضي من وجهة نظر الشّرع عقد النّـــكاح بين أمين وريم يُعتبر باطلاً؛ لأنه على المذهب الحنفيّ ولا يُؤخذ به في دولتنا وإنما تسير قوانيننا وتشريعاتنا حسب المذهب الشّافعيّ، ولأنَّ العقد بدون موافقة وليّ الأمر وتوقيعه. ثانياً: موكّلتي المدعوّة ريم لم تعد تُريد الارتباط بأمين بسبب حالته الصّحيّـــة المتدهورة يوماً بعد يوم وتطلُب الطّلاق. لذا أيها القاضي لابدَّ أن تُظهر العدالة إبطال هذا الزّواج أو أن يصدر حكم الخلع.

فسمع القاضي من أمين رأيه بتمسّكه الشّديد وحبّه لريم، وقدم محامي أمين للقاضي أوراقاً وتقارير تُـــثبت أنَّ مرضه ليس بالخطير وباستطاعته العيش هانئاً.

وبعد عشر دقائق استراحة قال القاضي يبدو أن لا إضافات جديدة على قضيّـــة الطّلاق وكل من ريم وأمين متمسكٌ برأيه، لكن أريد أن أسأل ريم سؤالاً أخيراً للتأكد وعدم التسرّع قبل إصدار الحكم: "هل يا ريم تُريدين البقاء على ذمّة أمين شاكر أم تفضّلين الانفصال؟" نظر إليها أمين بعيونه الحائرة لكن ريم نظرت نظرة سريعة خاطفة لأمين وأزاحت بوجهها حيث يجلس القاضي، وقالت له بعد صمت مؤقت: أريد الانفصال يا حضرة القاضي.

فقال القاضي: "إذن تُريدين الطلاق وأنتِ مصرّة؟" فأجابت ريم بصوت حزين... نعم.

فقال القاضي بناء على ما تقدّم في هذه القضيّـــة سنُصدر الحكم: "حكمت المحكمة الشرعيّة بقضيّة الطّلاق رقم (٠٦/٧٨٧٨١) بطلاق ريم شاهر قمر الدّين من أمين شاكر شاكر حيث المحكمة أصدرت حكم الطّلاق بالخُـــلع قبل الدّخول وهذا بتاريخ اليوم... أغلقت الجلسة".

ظلَّ أمين جالساً على مقعده دون حراك وكأنه في حالة صدمة مغلوب على أمره، بينما النّـــاس أخذوا يتحرّكون ويخرجون من قاعة المحكمة وخرجت ريم بقلب حزين، قالت في نفسها: "ما هذا الشّعور الغريب الذي انتابني؟ أنا حزينة نعم لكن أشعر وكأنَّ أحاسيسي تجمّدت، ليس لديَّ رغبة بالبكاء ولا بالصّراخ، هل اعتاد قلبي على الحزن أم جفّتْ الدّموع من عيوني، من يراني يعتقدُ أني مرتاحة لصدور حكم الطّلاق، حقاً لا أعرف ماذا جرى للمشاعر عندي، اعتقدت أني سأنهال بالبكاء بعد صدور حكم الطّلاق، حقّاً لا أعرف ماذا حدث لي!".

جاء هاني وجلس بجانب أمين وقال له: "ألا تريد الذّهاب؟ هيّا يا أمين يجب أن نغادر" وقالت له خالته: "قمْ يا عزيزي ولا تهتم فالحياة مستمرة، وكلّ فتيات البلد يتمنّون محبّـــتك..." فقام أمين ومشى بهدوء وملل إلى خارج المحكمة، حتّى وصل للسيّارة فأعطى لهاني مفاتيح سيّارته، وقال له: "إذا سمحت يا هاني ستقود أنت؛ لأني لست بحالة جيّدة" وبالفعل قاد هاني السيّارة حتّى

وصلوا للبيت، وما أن دخل أمين للمترل حتّى اختلف اختلافا كُليّاً، وبدأ يفقدُ السّيطرة على أعصابه فصرخ في وجه هاني وقال له: "أنت السّبب يا هاني أنت الذي وضعتني بهذا الموقف" فأخذ هاني يضحك ويقول: "أنا يا أمين؟ وما ذنبي أنا لأكون السّبب؟" فأجابه أمين بصوت عالٍ يجتاحهُ الغضب: "لا تضحك، نعم أنت...أنت الذي شجّعتني على عقد القران وبقيتَ ورائي، أنا لم أكن موافقاً منذ البداية".

فقالت له خالته: "اهدأ يا أمين، كلّ شيء نصيب".

– لا أريد أن أهدأ...الكلّ يريد أن يقهر بي ويُسبّب لي العذاب، والمشاكل تتراكم فوق رأسي، وتقولون لي اهدأ....

فتناول بيده إطاراً موجوداً فوق التّلفاز يحمل صورة لريم فرمى به على الأرض بعصبيّة وقال: "لا أريد أن أراها أمامي" فتحوّل إلى حُطام من عشرات القطع الصّغيرة والفُتات، فعادت الخالة وقالت: "أمين كفاك توتّراً، هذا لن يُفيد بل سيضرُّ بصحّتك"

فأكمل كلامه بالصّراخ: "لا يهم...لا همّني صحّتي، ولا حتّى قلبي" وحمل كرسياً أمامه ورمى به لجهة أخرى من شدّة الغضب، فمسك به هاني وقال له: "أمين اجلس وتحكّم بأعصابك وانفعالاتك...كفى"فجلس أمين وغطّى وجهه بكفّيه يحاول تمالك أعصابه، فبدأت موجة الألم تغزو صدره فوضع يده على صدره يشدُّ على أنفاسه...

ركضت علياء وأخرجت له حبّة دواء للقلب وحبّة أخرى لتهدئته وإبعاده عن التوتّر، فأعطته الدّواء مع كوب ماء فتناولهما. فقال له هاني: "تعال معي يا أمين لنستريح في غرفتك، ما رأيك أن تنام قليلاً أنت مرهق، ولم تنم جيّداً البارحة، وبالفعل ساعده ليصل إلى فراشه، فاستلقى أمين، وقام هاني بفتح ثلاثة أزرار من قميصه لكي لا يشعر بأنه مخنوق، وخالته جاءت لكي تخلع له حذاءه وتغطّيه، فقال لها: "اتركيه يا خالتي سأخلعه أنا" فقالت له: "لا، اسكت أنت واسترح"، ومن ثمَّ غطّته بالغطاء، وقالت له: "هيّا نم يا أمين ولا تفكّر بشيء" وبالفعل مضتْ عشر دقائق، حتّى كان نائماً ووصل لسابع حلم، فقال هاني للخالة: "الحمد لله لقد نام ما أجملها وأسرعها من حبّة دواء مهدئ...لقد نام بسرعة، إنها حبّة نوم سحريّة".

– نعم يا هاني، فهذه مفعولها قوي، وتؤثّر على أمين بسرعة.

ثمّ خرج هاني من مترل أمين وقال للخالة علياء سأتّصل مساءً لأطمئنّ عليه كم تعذّب أمين هذه الأيام، و الزّمن لا يرحم.. إلى اللّقاء الآن خالتي.

***

بعدما كانت ريم متجمّدة المشاعر في المحكمة وصلت للبيت وحبست نفسها في الغرفة باكية، فهي تعلم أنها ليست لها أيّ علاقة بأمين بتاتاً من اليوم وإلى الأبد، لكن والدة ريم كانت فرحة بانتصارها هذا فهي تشعر أنَّ اليوم عيد بالنّسبة لها.

مضت ساعة على نوم أمين فعادت الخالة علياء لتطمئنَّ عليه في بيته، فوجدته ما يزال نائماً فخرجت وأغلقت الباب بهدوء، ودخلت إلى بيتها وكان الهاتف يرنُّ فركضت تجيب:

– ألو؟

– مرحباً علياء كيف الحال؟
– أهلاً أمل كيف حالكِ أنت؟
– بخير والحمد لله، أنا أكلّمكِ من المطار هنا، لقد وصلتُ للتوّ.
– ماذا؟ من هنا..؟ أيُعقل! لـــمَ لَمْ تُـــكلّميني قبل أن تخرجي من أميركا؟
– ما بكِ لـــمَ العتاب؟ هذا بدلاً من أن تقولي حمداً لله على سلامتكِ؟ أحببت أن أفاجئكم.
– لا أقصد يا عزيزتي، لكنني تفاجأتُ حقّـــاً، أهلا بكِ وحمداً لله على سلامتكِ.
– شكراً، لكن أريد عنوان منزلكِ لأعطيه لسائق التّـــاكسي.
– لا... لماذا التاكسي ؟! سأخبر عبد الرّحمن أن يأتي ويأخذكِ من المطار.
– لا تزعجيه سآتي وحدي.
– لا تقلقي لن أزعجه، فقط انتظري عندك فمسافة الطّريق وسيكون عندكِ.
– حسناً أنا أنتظر، لا بأس.
– لكن يا أمل كما اتّـــفقنا إياكِ أن يعرف أمين شيئاً.
– أكيد لا تقلقي.

بالفعل اتّصلت علياء بعبد الرّحمن وأخبرته أن يُحضر أمل أختها من المطار.

وقالت علياء في قلبها: الله يستر، والله أمين لا ينقصه تعب أعصابٍ بعد هذا اليوم العصيب...أتمنّى أن يمضي هذا اليوم على خير...

وصلت أمل منزل علياء فرحّبت بها علياء أشدَّ ترحيب، وعانقتها أحرَّ عناق، فمنذ أن تزوّجت أمل، لم تأتِ لزيارة أختها ولا رؤية ابنها.

فقالت علياء: "يا إلهي يا أمل لم تتغيّري كثيراً، مازلتِ جميلة وجذّابة، لقد اشتقتُ لكِ يا أختي الحبيبة، وأصبح قلبي يرقُص فرحاً لرؤيتكِ، والله لا أصدّق أنكِ أمامي يا حبيبتي"

فأجابتها أمل: "والله وأنا أيضا مشتاقة لكِ وللبلد ولشوارعها وللجميع، ولحبيبي أمين...متى سأراه، أشعر بالشّوق والنّدم لابتعادي عنه، وأشعر بلهفة كبيرة اتّجاهه، يا تُرى كيف أصبح شكله الآن؟"

فقالت لها علياء: "سترتاحين قليلاً وتأكلين بعض الطّعام، ثمَّ نذهب لأمين، مع أنَّ اليوم مزاجه مُعكّر بشدّة ونفسيّته سيّئة ولن يُعجبَكِ؟"

– لماذا؟ ماذا جرى له؟!
– أتذكرين الفتاة التي مرّة قلتُ لكِ أنه يحبها، ومن فترة عقد قرانه عليها؟
– نعم أذكر.
– طلبتْ الطّلاق فتمَّ اليوم انفصالهما بالمحكمة، فأمين حزين،لا بل غاضب على الانفصال؛ لأنه صار رغماً عنه، أي طلاق خُلعٍ وهو لا يريد الانفصال.
– يا حبيبي يا أمين؟ ولـــمَ طلبت الطّلاق هذه البلهاء ابني لا يُعوّض...
– أمها لا تحبه أبداً ؛ لأنه ابن شاكر وهي ابنة هند.

– آه...نعم، فهمت...لقد تذكّرت قلتي لي مرّة القصّة، لكن لم أجعل للموضوع أيّ أهميّـــة، هل هو موضوع كبير لهذه الدّرجة؟

– نعم، فهند عندما عرفت أنه ابن شاكر أقسمت أنه لن يكون لابنتها مهما حصل ودار الزّمن.

– يا لها من حقودة!!

– المهم أنا وصديقه هاني حاولنا تهدئـــته وأعطيته حبّة دواء ونام، يحتاج إلى ساعة أخرى لكي يستيقظ.

– هيّا يا علياء، ألم تقولي أنه يسكن بجانبكِ؟

– نعم.

– هيّا لا أريد أن أستريح، ولن أستريح إلاّ بعد أن أراه قبل كلِّ شيء.

– إنه نائم...

– سأراه وهو نائم أين المشكلة؟

– حسناً، لكن إيّاك أن توقظيه بصوتكِ، ابقي هادئة فهو متعب وقلبه يؤلمه، ولا ينقصه مأساة أخرى اليوم.

– حسناً هيّا بنا لا تخافي.

وخرجت الأختان من المنزل ودخلتا بهدوء إلى منزل أمين.

فقالت أمل: "يا حبيبي هذا منزل ولدي...ما أجمله؟"

فقالت علياء بصوت خافتٍ جدا: "قلت لكِ لا تتفوّهي ولا بكلمة واحدة"

– ما بكِ يا علياء أنا أتكلّم بصوتٍ منخفض.

فهمست علياء: "هيّا ادخلي فغرفة أمين من هنا"، وفتحت علياء باب غرفته أمين بهدوء تام ودخلتا، فقالت أمل وهي تهمس بأذن علياء: "ما شاء الله! هذا ابني أمين؟"

فقالت علياء: "اسكتي... لا نريد إيقاظه... نعم هو أمين بعينه."

فأكملت أمل كلامها وهي مندهشة ومسرورة: "أنا أرى أمامي رجلاً كم كبرت يا حبيبي! أيُعقل؟ لقد كانت محفورة في قلبي وعقلي صورة الطّفل الذي لم يتجاوز الثلاث أو الأربع سنوات فقط، لا أصدِّق هل أنا أمّ هذا الشّاب النائم..؟ أحقاً هذا ولدي؟" وأخذت تدمع وتبكي من دون صوت، وقالت: "كيف مضت كلّ هذه السنين من دون أن نشعر؟". واقتربت منه أكثر وأخذت تتأمّله بدقّة وهو نائم وتنظر إليه، وعادت تهمس لعلياء: "ابني رجل يا علياء، انظري..شعر على ذراعيه وشعر على صدره، وحتّى وجهه الطفوليّ لقد ظهر عليه شعر الذّقن، يا حبيبي يا أمين، كم أنا مندهشة! أودُّ تقبيل يده يا علياء"

فقالت لها علياء: "لا أرجوكِ، ستوقظينه" فسحبتها للخارج وأغلقت الباب بهدوء، وقالت لها: "ماذا جرى لكِ تمالكي نفسكِ، لا يُعقل هذا، لا نريد تهوّراً بأيِّ تصرّف لماذا تتصرّفي هكذا كالمجانين؟"

فأجابت أمل: "يا إلهي يا علياء، كنتُ أتخيّله قد كبر ولكن لم تكن نفس الصّورة التي رسمتها له بمخيّلتي، ما شاء الله لقد بدا لي الآن أجمل وأكبر مما تخيّـــلت".

- نعم يا أمل ماذا تعتقدين بعد كلِّ هذه السنين...! فأمين وسيم وقد أصبح شاباً رائعاً، لكن ما زال في داخله الطّفل الذي تعرفينه، فهو طيّب جداً وستحبّينه أكثر عندما تجلسين معه وتكلّمينه.
- نعم هذا أكيد... وعادت أمل للبكاء والدّموع غمرت وجهها.
- هـــــييهيي...لا تبكي... وإياكِ والبكاء أمام أمين، لا نريد أن يشعر بشيء.
- كيف تركتُ هذا الطّفل يكبُر بعيداً عني، يا خسارة لم أستمتع بمراقبة مراحل نموّ ولديّ، ولم أتعايش معه فترات عمره المختلفة، أنا حقّاً نادمة... لكن لم يكن باليد حيلة يا علياء! لقد شعرتُ الآن كم كبرت وجرى الزمن علينا.
- لا تندمي على شيء قد فات ومضى عليه الزّمن، فهذا النّدم لن يفيد؛ لأنه لن يغيّر لكِ شيئاً، واعلمي أنَّ كلَّ إنسان يأخذ نصيبه من الدّنيا كما كتب الله له. فقط اهدئي وفكّري كيف ستقابلينه بكلِّ فرح ومن دون توتّر وليس كما فعلتِ بالغرفة وهو نائم، تصرّفي بعقلانيّة.

ذهبت الخالة علياء للمطبخ لتُعدَّ وتطهو طعام الغداء، أما أمل فذهبت للفراش لأنها متعبة من السّفر، وقد قضت اثنتي عشرة ساعة في الطّائرة ريثما وصلت.

بعد ساعة استيقظ أمين ورأسه يؤلمه وجلس في سريره يحدّثُ نفسه بعدما هدأ وذهبت ثورة الغضب التي اعترته بعد وصوله للمنزل.

فقال في نفسه سأكتب ما بداخلي لأخرج الغضب المخزون على الورق، ولربما أصبحت أقوى، فتناول دفتره الأزرق الذي يكتب به كلّ خلجات ومكنونات قلبه وأخذ يكتب:

ماذا يعني إذا غابَ حُبّكِ عنّي؟
فالشَّمْسُ ما زالتْ تَسْطُعُ للعالَمينْ
وماذا يَعْني إذا انْقَطَعَ الهوى عَنّي؟
فَالــهواءُ موجودٌ لنــا أَجْمَـــــــعيـــنْ
لَــنْ أكونَ شَـــــهيدَ الحُــــــــبِّ
فما زالَ لي أَحِبّـــاءَ غَـيْــرُكِ مَوجودينْ
اذْهَبي إلـــى أَيّ مكانٍ تَشـــائينْ
أنتِ التي خَسِرْتِ حُــبّــاً كانَ كَـنـــْـزاً ثَمينْ
رَمَيـْـتِ بــه بالبَحْــرِ هَبــاءً
لكنْ، لنْ يُغْرِقَهَ بَحْرُ الــحُبِّ الحزينْ
فَيــا أَنــْتِ، لِــمَ أنتِ تَــحْزَنيـــنْ؟
أَيَــأْسَفُ الصيّــادُ على قَــتْلِ طائرٍ مِسْكينْ!
طــارَ وحَلّقَ مِــنَ الحــُبِّ ولِلحُبِّ
فاصْطَادَهُ حُــبّاً بالصّيْدِ فماتَ منَ الأنينْ
صاحَ القَلْــبُ مِــنْ أعْماقِــهِ أَلَــماً

واعْتَصَرَ مِنَ الفِراق لكـــنْ بَقِيَ مَتيـــنْ
أأعْتَـــرِفُ لَكِ حَقّـــاً أنَّ عَذابَـــكِ
ما زالَ في عُروقي هُـــو حُـــبّي الدَّفينْ
أعـــودُ وأضْعُفُ أمـــامَ العِشْـــقِ
والـــحَنيـــنْ، و أذْكُرُ عُينَيـــكِ الغائِبـــَتيـــنْ
فَحُبّـــكِ يَنْبضُ في صدْري مَهما حاولَ
صَدْرُ الزَّمَنِ أنْ يَسْلُبَ نَـــبْضَ العاشِقينْ.....

*ملاحظة: (لسماع هذه الخاطرة ملحنة ومغناة بصوت الفنان محمد شاقلدي يمكنكم الدخول على اليوتوب وسماع أغنية قلب ينبض في صدر الزمن)

شعر أمين أنه فرّغ حزنه على الورق، وهدأ قليلاً من الضّجيج الذي كان يشعر به في داخله، فقام من فراشه وغسل وجهه وتوجّه للمطبخ لإعداد شيء يشربه، إذ بخالته تدخل بيته فتجده مستيقظاً وهو أحسن حالاً بعض الشيء، فقالت له: "مساء الخير يا أمين، أراك أفضل حالاً؟"

– نعم يا خالتي، لن تقف الدّنيا أمام فتاة أحببتُها وفشلت علاقتها.
– ما هذا التغيير؟ وكيف انتهيتَ من حبّها وبهذه السّرعة؟
– لا من قال لكِ أني انتهيت أنا ما زلتُ أحبّها وسأبقى أحبّها، فهي الشيء الجميل الوحيد الذي كان في حياتي للأسف! لن أستطيع الاستغناء عنه، لكن سيبقى الحبُّ مدفوناً في داخلي، من دون أيِّ تطوّر عليه أو تغيّر، كأيِّ شيء تحبّينه فتحتفظين به في خزانتكِ في علبة من دون أن تخرجيه، فتبقَي محتفظة به للذّكرى.
– هل يعني أنك لن تحبَّ غيرها؟
– لا، هههه سأحبُّ طبعاً، لكن لن يمنع أن أحتفظ به كذكرى جميلة ومرحلة رائعة مضت أوّل حياتي.
– كفاك كلاماً عن الحبّ وعن الذّكرى، وهيّا أعددتُ لك طعاماً شهيّـــاً، كما أنّ هناك مفاجأة لك.
– وما هي؟
– أتذكر خالتك سهاد؟
– نعم بالتأكيد أذكرها.
– لقد وصلت وأنت نائم هي مشتاقة لك كثيراً، وبشوق أكبر أن ترى أمين الصّغير كيف أصبح شاباً وسيماً... بدِّل ملابسك وتعال لتسلّم عليها.
– حمداً لله على سلامتها! لقد أطالت الغياب فعلاً اشتقنا لها، كما أني لا أذكر ملامحها جيّداً، فهي كالخيال في مخيّلتي.
– لا عليك ستذكرها الآن بعد أن تسلّم عليها، لقد سألت عنك مئة مرة وأنا أقول لها أنك نائم ومتعب.
– حسناً خالتي، سأبدّل ملابسي هذه وآتي.

– هيّا لا تتأخّر نحن ننتظرك على الطّعام، أنا سأسبقك لأبدأ تحضير الطّاولة.

وذهبت علياء مسرعة لبيتها تريد إخبار أمل بأنَّ أمين سيأتي الآن لتناول الطّعام معنا، كانت أمل ترتّبُ ملابسها التي أحضرتها معها في خزانة قد جهّزتها علياء لها.

فقالت لها علياء: ماذا تفعلين يا أمل؟

– أرتّبُ ملابسي بالخزانة، ما بكِ لـــمّ تسألين؟

– اسمعي، أمين استيقظ وقلت له أن يلحق بي إلى هنا لتناول الطّعام معنا، هيّا قومي جهّزي نفسكِ؟

توتّرت أمل ولم تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول، فقالت لعلياء: "ماذا عليَّ أن أقول له؟ كيف سأتصرّف عندما أراه؟ أرجوكِ يا علياء انصحيني، أصبحتُ أرجف انظري إلى يدي؟"

– اهدئي يا أمل ما هذا؟ ألم نتّفق على أن تكوني طبيعيّـــة وتتماسكي...؟

– هيّا قولي لي ماذا أقول له عندما أراه لأوّل وهلة؟

– اذهبي إليه وسلّمي عليه وخذيه في أحضانكِ على أساس أنكِ خالته سهاد التي اشتاقت له كثيراً ولا تزال تحبّه مهما أبعدها الزّمن.

– آه يا قلبي... ربّما أموت في هذه اللّحظة، كما أشعر بتوتّر، انظري هل أبدو بمنظر جيّد هكذا؟

– نعم بالتأكيد فملابسكِ جميلة، وشعركِ مرتّب، كلّ شيء رائع لا تقلقي... سأذهب لأرتّب الأطباق وأضع الطّعام على المائدة.

وما إن وصلت إلى المطبخ حتّى طُرق الباب فسقط قلب أمل من مكانه وكأنها ستفقد الوعي من شدّة هول الموقف، فذهبت علياء لتفتح الباب إذ بعبد الرّحمن جلب معه بعض الفواكه والحلويّات، فشعرت أمل بارتياح كبير بأنّ القادم عبد الرّحمن وليس أمين، فعادت وهدأت بعض الشّيء، لكنها بقيت في غرفتها، وبعد خمس دقائق أخرى دقَّ أمين الباب ودخل لبيت خالته، ونادى... مرحباً خالتي، أين أنتِ؟

فأجابته الخالة علياء من بعيد: "أنا هنا في المطبخ سآتي حالاً".

وجاءت علياء ومعها طبق من الطّعام الشّهيّ، وقالت لأمين:"اجلس يا أمين حول المائدة؟".

فقال لها: "لا سأنتظر البقيّـــة، أين الخالة سهاد وعمّي عبد الرّحمن والأطفال؟".

– خالتك سهاد في غرفتها وستأتي حالاً، أما عبد الرّحمن فدخل ليبدّل ملابسه والأطفال قد تناولوا الطعام قبلنا؛ لأنهم جاءوا من المدرسة قبل ساعة جائعين، فقد حضّرتُ لهم غداءهم وسبقونا، وهم في غرفتهم يلعبون الآن.

– حسناً خالتي سأنتظر الجميع لأجلس معهم حول الطّاولة، هل تريدين أيّ مساعدة في المطبخ؟

– لا يا حبيبي، كل شيء جاهز.

خرجت أمل من الغرفة لتستقبل أمين، كانت خائفة ومتوتّرة وتحاول إخفاء توتّرها بابتسامة مرسومة بخوف على شفتيها، فهي خائفة من ردّة الفعل، وخوفها أن يعرف أنها أمه، فدخلت غرفة الجلوس فرآها أمين على الفور وتقدّم إليها وقال:"حمداً لله على سلامتكِ يا خالتي، اشتقنا لكِ.."

فقالت له أمل: "وأنا يا حبيبي اشتقت لك أكثر، تعال إلى حضن خالتك أريد أن أقبّـــلك" فضّمته إليها بشوق وبشدّة، وعطشٍ لحنان الأمومة التي حُرِمَتْ من أن تمنحه له، وقبّلته بلهفة واشتياق.

شعر أمين باشتياقها الشّديد هذا وبلهفتها عليه، وتفاجأ من شدّة الشّوق، ومن حبّها له ومن إظهار مشاعر الحبِّ الجيّـــاشة هذه!

ثمَّ جاء عبد الرَّحمن واجتمعوا جميعاً حول الطّاولة ليتناولوا طعام الغداء، لكن بقيت أمل طيلة الوقت صامتة ولم تتفوّه بكلمة واحدةٍ حتّى أمين كان مشغول الفكر وعاد لحزنه على فراق ريم، فتناول طعامه بسرعة واستأذن من الجميع، وقال لخالته أنه يريد الذّهاب لبيته.

حزنت أمل على مغادرة أمين بسرعة، كانت تودُّ لو يجلس معهم أكثر من ذلك. فقالت لعلياء وهما ترتّبان المطبخ: "لم أشبع بعد من رؤية أمين، حتّى صوته لم أحفظه لم يتكلّم شيئاً "

فأجابتها علياء: "أنتِ التي بقيت صامتة، ولم تبادري بأيِّ سؤال له"

– وماذا عليَّ أن أساله؟

– اسأليه عن الجامعة، عن دراسته...عن أحوال قلبه وعن حبيبته التي فقدها، أيَّ شيء يشعر أنكِ مهتمّة به وأخباره تهمّكِ.

– خفتُ أن أساله بأمور حسّاسة فيشعر بالحزن أو بالغضب أو ربّما يُحرج.

– عليكِ أنتِ أن تسأليه، وهو إن أراد سيجيب لن يُحرج من شيء.

– أرجوكِ يا علياء اذهبي لبيته اسأليه كيف وجدتَ خالتك سهاد بعد كلِّ هذا الغياب؟

– حسنا، سأذهب وآخذ له بعض الفواكه في طبق وأسأله.

وفعلاً ذهبت الخالة علياء وهي تحمل طبقاً مليئاً بالفاكهة... دقّت الباب على أمين، ففتح لها وقالت له: أتسمحُ لي بالدّخول؟

– طبعاً خالتي تفضلي... ما هذا السؤال! البيت بيتكِ؟

– اشتهيتُ لك هذه الحبّات الطّازجة من الفاكهة، تناولها فهي مفيدة ومنعشة للقلب.

– أشكركِ يا خالتي، سأتناولها بعد قليل؛ لأني الآن أشعر بأنَّ معدتي ممتلئة تماماً.

– حسناً...ها هو الطّبق أمامك، لكن قل لي كيف وجدت خالتك سهاد بعد كلِّ هذه المدّة؟

– بصراحة يا خالتي أشعر أنها قريبة إلى قلبي، أحببتها من أوّل دقيقة رأيتها بها، إنها لطيفة ويبدو لي أنها مشتاقة جدّاً لنا، لقد ضمّتني إليها بحرارة شديدة وكانت عيونها محمرّة، وكأنها تحبس دمعها، مسكينة الخالة سهاد لقد أتعبتها الغربة... كما شعرتُ أنَّ ملامحها ربّما تكون قريبة من ملامح أمي –رحمها الله– مع أنني لا أذكر جيّداً، أليس كذلك؟ أم أنا مُخطئ.

– نعم فعلاً يا أمين، سهاد وأمل تشبهان بعضهما لدرجة أنك تعتقد أنهما نفس الشّخص، ألا تريد أن تجلس معنا أكثر؟

– إن شاء الله غداً، فأنا اليوم بمزاج سيّء لا أستطيع أن أجامل أحداً، أشعر أني بحاجة إلى الجلوس مع نفسي.

– غداً ستأتي لتناول طعام الإفطار معنا، والآن سأترك مع نفسك.

غادرت الخالة علياء منزل أمين، فذهب أمين لغرفته لتبديل ملابسه وخلع القميص ورمى به على السّرير بطريقة عشوائيّة، وخرج من الغرفة دون أن ينهي تبديل ملابسه، فأخذ يسير بالبيت من غرفة لغرفة وهو مشغول الفكر يدخل المطبخ ويخرج، ويدخل غرفة الجلوس ثمَّ الحمام، ينظر لنفسه بالمرآة فيرتسم على وجهه الغضب، ثمّ يخرج ويقف في الشّرفة...إذ به يسمع هاتف منزله يرنّ فيذهب ليجيبَ على المكالمة.

– ألو؟

– مرحباً أمين كيف حالك؟

– أهلاً منال جيّد، كيف حالكِ أنتِ؟

– أنا مشتاقة... وقلقة عليك، أحببت أن أتّصل لأطمئنّ عليك.

– شكراً لكِ الحمد لله أنا أفضل.

– أمين أريد أن أقول لك شيئاً، لا تعتقد أنَّ الزّمن سيقف عندما تفقد حبك الأوّل، فهناك أناس ما زالوا يحبونك، وليس هناك أيّ إشكال إذا حاولت أن تفتح قلبك مرّة أخرى للحبّ.

– أعرف يا منال، لكن أنا ما زلت تحت تأثير ألم هذا الحبّ، اتركيني لكي أُشفى منه.

– لن أتركك لأني أنا التي سأشرف على علاج هذه الحالة، وسأحاول إبعادك عن العذاب.

– لا ترهقي نفسكِ معي يا منال، ربّما تجدين صعوبة في علاجي.

– أنت لا عليك، رشّحتُ نفسي طبيبة عليك منذ اليوم، والآن إلى اللّقاء.

أغلقت منال الهاتف وكذلك أمين، فضحك في نفسه وقال: "مسكينة منال تحبني وتحاول بأيّ طريقة التقرّب مني، أُشفق عليها حقّاً، فعذاب الحبِّ صعب عليها هي الأخرى".

في صباح اليوم التالي، طرقت هند على باب غرفة ريم، لكنها لا تريد أن تفتح ولا تريد الذّهاب للجامعة، وأمها تناديها من وراء الباب: "افتحي يا ريم... افتحي" وريم تقول: "لا أريد أن أفتح".

لم تخرج ريم من غرفتها منذ البارحة بعد جلسة المحكمة، لم تضع في فمها ولا لقمة طعام واحدة، فأصبحت تصرخ من الدّاخل وتقول: "اتركوني لا أريد الخروج ولا الذّهاب للجامعة، لا تطرقوا عليَّ الباب، ها أنا عملتُ بما يرضيكم، ماذا تريدون بعد؟؟"

لقد ساءت نفسيّة ريم بعد الفراق، وأصبحت عصبيّة المزاج وكأنها شعرتْ بحدّة الموضوع الآن، واستيقظت للعذاب النفسيّ بسبب ضياع الحبِّ.

***

علياء وأمل كانتا في المطبخ تُعدّان طعام الإفطار، وكانتا تتناقشان بموضوع أمين، وكانت تقول أمل لأختها: "أتعرفين يا علياء شعرت أنَّ أمين أحبّني، وسأحاول أنا أن أتقرّب منه أكثر فأكثر، حتّى يصبح يحبّني حبّاً كبيراً، بعدها أستطيع أن أعترف له بالحقيقة".

وقفت علياء تنظر إلى أمل بغضب وقالت لها: "مستحيل أمجنونة أنت لتعترفين له؟!!!

يُحبكِ لأنكِ خالته لكن في حال عرفَ أنكِ والدته فإنه سيتبدّل هذا الشعور ويصبح كراهية، لم نتّـــفق على ذلك يا أمل..."

– لـــمَ تقولي هكذا؟ ألم تخبريني أنَّ أمين طيّب وعاقل، إذن سيتقبلُ الموضوع... فأنا والدته.

كان أمين في هذه الأثناء يطرُق باب منزل خالته، لكن علياء لم تسمع طرق الباب؛ لأنها بالمطبخ ومنشغلة بالحديث الذي هزّها، هذا بالإضافة إلى صوت الغسّالة التي تدور وتغسل الملابس، ففتح الباب ودخل، فسمع صوت علياء تناقش خالته سهاد بصوت عالٍ وتقول: أمين طيّب نعم، لكن إذا.... فنادى أمين خالته بصوتٍ عالٍ:"خالتي أين أنتما ألم تنتهيا من تحضير الفطور؟" فقالت علياء لأمل بصوت منخفض: "يا إلهي أتمنّى أن لا يكون قد سمعنا" فأجابت أمل: "لا أظنّ"

فقالت له علياء: "نحن في المطبخ تعال يا أمين ادخل".

دخل أمين المطبخ وقال: "صباح الخير يا خالتيّ العزيزتين". أجابت أمل: "صباح الخير يا أحلا شاب في الدّنيا".

فسألهما: "سمعت اسمي وأنا أدخل ماذا كنتما تقولان عنّي؟"

فأجابت علياء: "لا شيء يا عزيزي، كنّا نقول كم أنتَ شاب طيّب لطيف، وخالتك سهاد أحبّتك، ورأت فيك مثال الشّاب الواعي".

– هكذا من جلسة واحدة تحكمين عليَّ يا خالتي؟

– نعم يا حبيبي فالشّخص يُعرف من عينه؛ لأن العين مفتاح كلِّ إنسان ومغرفة الكلام.

– ليت كلّ النّاس مثلكِ يُقدّرون، المهم أنا جائع وأريد أن آكل وأذهب للجامعة على الفور.

فقالت له علياء: "أراك أفضل حالاً اليوم، البارحة لم تأكل سوى لقمة واحدة لقد رأيتك".

– نعم لا أريد أن أُبقي الحزن أمامي، وسأعتاد فيما بعد وأتظاهر بالفرح لكي أشعر بقليل من السّعادة و أستطيع أن أكمل بقيّة يومي.

– هيّا يا أمين الإفطار جاهز، هيّا يا سهاد اجلسي.

فجلسوا ثلاثتهم على المائدة في غرفة الطّعام المفتوحة على غرفة الجلوس، وكانت أمل في غاية السّعادة لأنها تجلس مع ابنها، كما أنه أفضل حالاً، وأخذ يكلّم أمل ويسألها عن طريقة العيش في الضفّة الغربية، على أساس أنها سهاد وكانت أمل تحاول اختلاق الكلام من أجل مجاراة الموضوع، وما أن مضتْ عشر دقائق على إفطارهم ولم ينتهوا بعد، إذ يُطرقُ باب منزل علياء.

فنظر أمين إلى خالته وقال لها: "اجلسي أنتِ يا خالتي سأقوم وأفتح الباب". وبالفعل فتح أمين الباب إذ برجلٍ في أواخر الأربعينات من العمر يقف أمامه، يبدو عليه علامات الزّمن الصّعب، منظره لا يُعجب أحداً، فقال له أمين: "عفواً هل أستطيع مساعدتك بشيء؟" بقي هذا الرّجل واقفاً صامتاً يتأمّل بأمين، فأعاد أمين سؤاله: "يا عمِّ هل تريد شيئاً؟" فقال له الرّجل "أنا أسأل عن بيت شاب يُدعى أمين شاكر وقالوا لي أنه هنا في هذه العمارة، وسألت سكّان الطّابق الأرضيّ فأخبروني أنه في آخر طابق، أليس كذلك؟".

فأجابه أمين: "نعم يا عمِّ أنا أمين شاكر هل من خدمة؟ هل تقصدني بشيء ما؟"

وعاد الصّمت مصاحباً هذا الرّجل، متأمّلاً بأمين وينظر إليه نظراتٍ غريبة غير مفهومة ثمَّ قال وبكلِّ ثقة وابتسامة فرح: "أنا شاكر".

فقال أمين: عفواً من شاكر؟ ماذا تقصد؟

– أنت أمين شاكر؟

هزّ أمين رأسه بحذرٍ واندهاش ليخبر نعم أنا أمين شاكر...

– أنا شاكر يا بنيّ والدكَ.

وقف أمين مذهولاً في حالة صدمة ولم يعرف بماذا يجيب، لقد شُلَّ تفكيره.

نادت علياء من بعيد: "من يا أمين الذي على الباب؟ لكن أمين لم يستطع الإجابة".

فقال له الرّجل: "ألا تريد أن تقول لوالدك تفضّل؟" لكن أمين مازال صامتاً متحجّراً مكانه.

– ما به هذا الولد لقد عَلِقَ بالباب؟ (سألت علياء وهي تُكلّم أمل).

فقالت لها أمل: "سأذهب وأراه لا تقلقي، أنتِ اسكبي لي كوب شاي آخر، وسأرى أنا مع من علق أمين".

فذهبتْ أمل (سهاد) إلى الباب قالت لأمين: "من يا أمين؟"ومدّت رأسها لترى من بالباب، فذُهلتْ هي الأخرى وكاد أن يُجنّ جنونها، فقال شاكر: "نعم... أنت تسكن هنا مع أمك، لـمَ يقولون أنك تسكن وحدك، كيف حالك يا أمل؟"

فأجابه أمين: "هذه خالتي سهاد وليست والدتي أمل".

فقال شاكر: "بما أننا أهل سأسمح لنفسي بالدّخول" فدخل رغماً عن الجميع وجلس فقال: "ماذا يا أمل وتنكّرتِ بزيٍّ الخالة سهاد ...لا ترغبين بأن أعرف أنكِ هنا؟

جاءت علياء وهي تضع يدها على قلبها خوفاً من حدّة الحقيقة وسير الموضوع، وتفاجأتْ جداً بظهور شاكر بعد كلِّ هذه السنوات وبهذا الوقت بالتحديد، وكأنه كان ينتظر عودة أمل ليبدأ برشِّ سمومه.

أما أمين فقد كان يقف متحجّراً مكانه من دون كلام ولا حراك، يتابع هذه المسرحيّة المؤلمة أمامه، وفي عيونه نظرات ألم وأسى وشعور بالتّشويش وعدم الفهم....

فقالت أمل: "أخرج من هنا يا شاكر، لا نريد أن يشتعل بركان المشاكل الآن".

فأجابها شاكر بكلِّ برود أعصاب: "مشاكل؟ ولـمَ المشاكل – لا سمح الله – يا أمل، جئتُ إلى بيت ولدي، أليس هو ولدي كما هو ولدكِ؟"

فصرخت أمل: "لا أخرج...ليس ولدك ولا ولدي أنا سهاد، كمالم يكن ولا مرّة ولدك لأنك أنت تخلّيت عنه منذ البداية"

صرخ شاكر جئتُ ولا أريد أن أفتعل المشاكل يا أمل انسي الماضي... ولدي شاب أريد أن أتعرّف عليه... عفى الله عمّا مضى.

كان أمين ينظر إليهما بحيرة وتوتّر واندهاش شديد، ومن شدّة التوتّر أصبحت أنفاسه عميقة ويسحبها بصعوبة، ويظهر على صدره تواتر الشهيق والزفير المتلاحق، وازدادت سرعة نبضات قلبه، فتركهم وخرج مسرعاً إلى منزله، فتح باب بيته وأغلقه بشدّة وغضب، وكأنّ المنزل بأكمله اهتزّ من إغلاق الباب، ودخل ورمى بنفسه على الكنبة يشعر بأنه سينفجر، فلحقت به خالته

علياء خشية عليه، وفتحت الباب ودخلت وراءه، فقالت له: "أمين حبيبي اهدأ، لا ينفعك هذا التوتّر؟"

فقال لها بعصبية وانفعال: "عن أيِّ توتّر تتكلّمين...تقولين لي ابعد عن الضغوطات والتوتّرات وأنتم أنفسكم تزرعونها لي في كلِّ مكان...! اخرجي خالتي من هنا، أنتِ كذبتِ عليَّ منذ البداية وجئتِ لتكملي كذبتكِ هذه، والدتي هي خالتي سهاد لكي أبقى على جهل وأصدّق أنّ أمّي متوفيّة، كيف تسترون الكذب بكذب آخر لا أعرف! ما بال الحقيقة لو عرفتّها منذ البداية؟ اخرجي لا أريد أن أرى أحداً ولا أريدً أن أعرف أحداً بعد اليوم، لم يبقَ لي أحدٌ لا حبيب ولا قريب".

فجاءت علياء بجانبه لتهدّئه وتمسح على رأسه وقالت له: "سنتكلّم فيما بعد اهدأ الآن".

فازداد غضب أمين وقال: "ابتعدي عني، اخرجي لا أريد أحداً أمامي، لا أريد أن أتكلّم بشيء... العالم كلّه كاذب من حولي لم أعد أثق بأحد.. أتعرّف على أمي وأبي وأراهما أمامي في نفس اللّحظة! وهما على قيد الحياة! وأنا عشتُ طوال حياتي وطفولتي كالأيتام ومتشتّتاً، لماذا؟ أليس هذا جرم؟ لقد دُمّرت حياتي بسببهما، كلّ المشاكل التي حصلت لي بسبب استهتاركم."فوضع أمين يده على صدره من شدّة الألم، وأخذ يعتصر من الأوجاع في قلبه.

فأحضرت له خالته بسرعة حبّة دواء مهدّئة، فرفض أخذها...وأخذ يصرخ: لا أريد دواء... ابتعدي عني... فأصبح الألم يزداد فقالت له: "هيّا بنا يا أمين للمستشفى"

لكن أمين كان يرفض بشدّة، ولا يريد الذّهاب لأيِّ مكان كان.

فاضطرت خالته أن تحضر له الطّبيب للمنزل؛ بسبب عناده الشّديد، فجاء الطّبيب بسرعة، وفحص نبضات القلب فوجدها غير منتظمة، فقام بإعطاء إبرة في المغذّي الوريدي (الجلوكوز) تعمل على تنظيم ضربات القلب وتبقى بالوريد لكي تحافظ على النّبض منظّماً، وقام بإعطائه إبرة مهدّئة لكي ينام و لا يشعر بأيِّ توتّر حالي، وبالفعل نام أمين على الفور وأغلق الطّبيب عليه الباب وخرج، وقال للخالة علياء: "كان من المفروض نقله للمستشفى؛ لأنَّ حالته غير مستقرة الآن، لكن إن شاء الله مع هذا المنظّم لضربات القلب سيكون أفضل، لو تأخّرنا عليه دقيقة أخرى لدخل في نوبة قلبيّة حادّة أدخلته في غيبوبة، لكن الله لطف به، وعندما يستيقظ اتّصلي بي وأخبريني عن حالته كيف أصبح، ويا سيّدة أم يزيد أبعدوه عن التوتّر والضّغوطات، وضعه الصحيّ لا يحتمل،كلّ مرّة أقول لكم لا تجعلوه عُرضة للضغوطات".

فشكرت الخالة الطّبيب وقالت له: "سأطمئنك أيها الطّبيب شكراً لك".

جاء جميع أصدقائه ليطمئنّون عليه بعدما عرف هاني الموضوع ونشره طبعاً، لكن أمين بقي نائماً لمدّة أربع ساعات متواصلة ولم يرَ أحداً، وعندما استيقظ رفض أن يجلس ويكلّم أحداً.

المهم أنّ شاكر غادر على الفور بعدما دمّر كلّ الأمور من حوله، وأخذت أمل تبكي من شدّة قهرها على الموضوع وقلقها على أمين، والخالة علياء تهدئها.

وبقي أمين حابساً نفسه في البيت أربعة أيام متتالية لم يكلّم أحداً، ولا يريد أن يرى أحداً... حتّى جامعته لم يذهب إليها، وأصبح بنفسيّة سيّئة بعدما كان يحاول أن يتخطّى الصّدمة الأولى

ويتظاهر بالفرح وينسى قصّة الطّلاق ويبدأ من جديد، إذ بقصّة أخرى تهبُّ عليه كالعاصفة تُقلِّب كيان أفكاره ونفسيّته، يحاول أن يدرس لا يستطيع، يحاول أن يعمل على المرسم أو على جهاز الحاسوب أيضاً لا يستطيع، يشعر أنَّ كلَّ طاقاته نفدت، وليس باستطاعته فعل شيء، شعر أنه بفقدان ريم أصبح لا هدف له بالحياة، لقد كانت كلُّ حياته التي يعيش من أجلها ويحلم بالتخرّج والنّجاح ليصل إلى حبّه بتفوّق، وتكون هي هديّة التخرّج له، وبعدم وجودها أصبح طعم الحياة عنده مرير... وعاد وسرح بخياله وتذكّر ظهور والديه، فزاد وقع الأحداث على نفسيّته، فظلّ رافضاً الكلام مع خالته علياء ولا يريد رؤية أمل...



الفصل الخامس والثلاثون

قرّرت أمل أن تدخل إليه رغماً عنه وتُناقشه بالموضوع وتُبيّن له سبب تصرّفها هذا.
في البداية رفض أمين، لكن أخذت تبكي وترجوه على الهاتف، فرَقَّ قلبه فقال لها بجفاء "حسناً أنا أنتظركِ تفضّلي"، فجاءت إليه أمل على الفور. كان أمين يجلس حزيناً كئيباً نظره للأسفل ولا ينظر لوالدته، وبدأت أمل بالكلام: "أمين حبيبي أريد أن تسمعني للنهاية، ولا تقاطعني لكي أستطيع شرح حقيقة الموقف لك، وصدّقني هذه المرّة من دون كذب، لا تعتقد يا أمين أني قد تخلّيت عنك أو رميتك بل شاءت ظروف الحياة أن أبتعد، وحاولتُ يا بنيّ أن آخذك معي لكن كان الرّفض من أبيك بعدم السّماح لك بمغادرة البلد، ولهذا السّفارة الأمريكيّة كانت ترفض عمل تأشيرة الخروج لك، حاولنا كثيراً بكلِّ الطّرق والوسائط أنا وزوجي أحمد أن نُخرِجك من البلد لكن من دون فائدة، حتّى أني انشغلت في أميركا، لقد كنت أعمل وحملتُ وأنجبت حملين متتاليين، وأصبح لك أختان جميلتان لقد أسميتهما "أماني وأمان" لكي أبقى أتذكّرك كلّما ناديت إحداهما، وكان من الصعب عليّ القدوم إليكم، كنت دائماً أتّصل وأطمئنّ عليك، ودائماً أتمنّى زيارتك لكن ظروفي صعبة، كان يقول لي أحمد لا تحزني؛ لأنكِ لو ذهبتِ لتعلّق بكِ أمين، وأصبح الفراق عليه أصعب هذه المرّة، فإنك ستدمّرينه بدل أن تفرحيه؛ لأنَّ جرعة الحنان التي ستُقدّمينها له في فترة قصيرة لن تكون كافية. رأيت أنَّ كلام زوجي أحمد فيه منطق وصحيح، فقرّرت أن أخبر خالتك علياء أن تخبرك بأني توفّيت في حادث لكي لا تبقى تنتظرني، ولكي أنزع من رأسي فكرة السّفر إليك، وها أنا نادمة على هذه الفعلة، وقلت لعلياء أريد أن آتي لكي أتعرّف على أمين حبيبي وأرى كيف أصبح شكله وشخصيّته، ولم أكن أريد أن تمضي سنوات أخرى من دون أن أراك، أولم أتخيّل يوماً أن أموت من دون أن أرى حبيبي ولدي. صدّقني يا أمين نحن ظُلمنا سويّاً لا تلومني وحدي، وكلُّ شيء بمشيئة الله، لقد تعذّبتُ عذاباً لم يشعر به أحد".
فرفع أمين رأسه ونظر إلى أمّه وقال لها: "لكن أنتِ بهذا حرمتيني من صوتكِ وكان بمقدوركِ سماعي وباستطاعتي سماعكِ والتحدّث إليك، أو أن أشتكي همّي لكِ وأريح بالي وضميري عندما أتكلّم مع أمي هاتفياً، وأشعر بقربها حتّى لو من بعيد".
– هذا يا حبيبي لكي لا تتعلّق بي، أو تحزن بأنك وحيد فأنا بعيدة عنك.
– لا أعرف ماذا أقول لكِ لقد جُرِحْتُ وظُلمتْ، أشعر بأنَّ حياتي مليئة بالعذاب والألم، ولا أريد شيئاً سوى أن تتركوني وحدي، كفى مبرّرات لا شيء سيشفع كذبكِ عليَّ.
– لا يا أمين لن أتركك، أريد أن أسمع كلمة ماما من فمك بصوت حنون وبلهفة.
– لم أعتد عليها... كنت بحاجة إلى تلك الكلمة وأنا صغير، أحتاج أن أشعر بها أن أعيشها، لكن أنتِ وشاكر بأنفسكما حرمتُماني أن أعيش ضمن أسرة تملؤها المحبة والحنان. ما الفائدة من ظهوركما الآن وبعد ماذا؟ هل أحتاج لأحدكما؟ لا أظن لقد اعتدتُ أن أعتني بنفسي وحدي منذ أن كنت صغيراً، والآن أرى أن تعودي لبنتيكِ ولا تحرميهما الحنان وكلمة ماما، فهما

بحاجة لكِ أكثر مني، فأنا عندما بدأتُ أعي الدّنيا رأيتها من دون أبٍ ولا أم، فاعتدتُ على هذا وهكذا عرفتُ وجه الحياة.

- أمين حبيبي لا تقل هذا الكلام القاسي، فما زالت الحياة أمامنا وسنعوّض الذي فات.
- بالنسبة لي لا شيء سيعوّض؛ لأنَّ طفولتي كانت أهمّ مراحل حياتي وللأسف كان ينقُصها الأب والأم، لذا كيف سنعوّض هذا؟ هل سنعود للطّفولة هذا صعب!
- يا بنيّ أعطني فرصة لأكون بجانبك أنا بحاجة لك...مشتاقة إليك أريد أن أضمّك لصدري وأشعر بك يا ولدي.
- لقد كنت أتمنّى هذا الشعور منذ سنوات مضت، أن أرتمي بحضن والدتي أو أن أجلس مع والدي، كنت أشعر بغصّة في حلقي ستخنقني عندما كنت أرى ولداً يركض إلى أبيه فرحاً فيُمسك بيده ويذهبان معاً، أو أرى أمّاً تعانق ولدها بحرارة عندما تأتي لتأخذه من المدرسة وتسأله عن أخباره، أما أنا لا أحد كان يأتي ليعانقني ولا حتّى يُمسك يدي، وأيام نمت على وسادتي وأنا أبكي أريد العودة لمنزلي ولا أريد أن أبقى بالمدرسة الداخليّة، لكن من يسأل ومن يهتم؟ لا أحد، وأنا وحدي بهذه المدرسة دون أقرباء ولا أهل مع الأيتام، والله هم كانوا خير أهل وإخوة .
- حبيبي أمين أنا كنتُ كلَّ اللّيل لا أنام إلاّ والدّمعة في عيني وصورتك أمامي، لم أكن مسرورة لبعدك عني ولم أهنأ أبداً، صدّقني يا حبيبي كانت الأيام مريرة جدّاً وطعم المرارة ما زال في قلبي.
- لم أعتد يوماً على والدة بجانبي فهذا غريب بالنسبة لي... ارحلي واتركي لي إشاعة أنكِ متوفّية فهذا أفضل لي؛ لأني أصدّقُها منذ الطّفولةولن تستطيعي تغيير حقيقة زُرعتْ بفكري وقلبي منذ أن كنتُ صغيراً، هذا صعب.
- أمين حبيبي، لا تكن قاسياً هكذا، الحقيقة أنني أمك وغير متوفّية لا تخذلني يا ولدي، فقلبي سيقف لكي أسمع كلمة ماما منك أو لكي أرى بعيونك نظرة الرضا، ومهما حاولتُ التناسي فأنا أبقى أمك، يا حبيبي تعال إلى حضني حضن أمك متعطّش لكي يضمّك... أمين انظر إليّ ولا تُبقي نظرك للأسفل.

لم ينظر إليها أمين بل بقي ينظر للأرض، وقال لها: "لا أعرف ماذا أقول لكِ، لكن الشعور الذي أشعر به الآن هو أنني سأنفجر من القهر وأشعر أنّ العذاب والمشاكل ستبقى تلاحقني، ولن تتركني أعيش بسعادة وهناء، هل هذه سنة النّـــكسة أم النّـــكبة لا أعرف؟!

- أُسجن ظلماً وأنفصل عن ريم...أتعرّف على أمي وأبي في نفس اللّحظة، ومشاكل أخرى ومصائب ركضت ورائي ولاحقتني، ومن يدري ربّما ستلحق بي مشاكل أخرى، إلى أين أهرب أخبريني؟ كيف أبعد عنّي المشاكل؟ أين الرّاحة؟
- اهرب إليّ حبيبي، لا تقل أنني من ضمن المشاكل، بل يجب أن تحمد الله أنّ والدتك على قيد الحياة، الظّروف هي حرمتني منك.

- لا أقول أنكِ من ضمن المشاكل لكن ظهوركِ في حياتي وأنا بهذا العمر، هو في ذاته مشكلة؛ لأني لا أرى فيكِ أمي بل أرى إنسانه غريبة، ولا أشعر اتّـــجاهكِ بأيّ مشاعر.

فأخذت أمل تبكي من دون صوت والدّموع تذرف من عينيها، فنظر إليها أمين وقال: "أرجوكِ لا تغضبي من كلامي، لكن أنا أقول لكِ حقيقة مشاعري، لا أريد أن أكذب عليكِ لأني لا أذكركِ أمي أبداً، أشعر بسيّدة غريبة في منزلي فقط".

فقالت له أمه وهي تبكي: "لكن أنا أذكرك، أذكر عندما حملت بكَ في أحشائي تسعة أشهر، كانت مريرة جداً تعذّبتُ عذاباً نفسياً وجسديّاً لكي أحافظ عليك في داخلي سليماً، ولأرى هديّة الله لي مع أنّ أباك حاول معي بكلِّ وسائل الإجهاض لكي أتخلّص منك، تحمّلت كلَّ الإهانات؛ لأني مصرّة أن أرى وجهك الجميل يا بنيّ، أذكر ساعة ولادتك عندما متُّ مئة مرّة مع كلِّ طلقة طلقتها أثناء ولادتك، وأذكر أوّل سنتين من عمرك، وأنا أرضعكَ من صدري وأعطيك مع كلِّ رضعة حليب جرعة حنان من أعماقي، أنا أذكر... وأذكر، وتقول لي لا أشعر اتّجاهكِ بأيّ مشاعر؟ على كلِّ حال معك حقّ كيف لك أن تذكُر وقد كنتَ صغيراً، أصغر من أن تذكر شيئاً أو تشعر بشيء".

فبقي أمين صامتاً وبدأت الدّموع تغرغر في عينيه، فقالت له والدته: "هل لي أن أضمّك إليّ يا حبيبي؟" فأزاح أمين برأسه لجهة اليسار بينما والدته تجلس إلى يمينه، وأخذت الدّموع تقطر من وجهه على قبّـــة القميص، فالتفتت إليه وقالت له: "لا تبكِ يا حبيبي لا أريد أن أرى دموعك الغالية" ومسكت وجهه بين كفّيها ثمَّ ضمّته إليها وقالت: "سامحني يا بنيّ، دعنا نرى الحياة بعيون جديدة من هذه اللّحظة، قل لي سامحتكِ يا أمي".

فنظر إليها أمين بعيونه المحمّرة وقال لها: "لم تقترفي ذنباً لكي أسامحكِ عليه، لقد شاءت الأقدار أن تُبعدنا، وأنا أؤمن بقدر الله".

فأجابته بفرح يغمرها ولم تتوقّع هذه اللّيونة منه:"يا روح قلبي أعرف أنك طيّب وحنون يا بنيّ الغالي، أنا لا أصدّق ما أسمع".

فابتسم أمين ابتسامة خفيفة ممزوجة بالغرابة وكان الحزن يمنعها من الظّهور وقال لأمه: "لا بأس من اليوم نحن أسرة جديدة ظهرت على وجه الأرض يا...أمي".

قالت له: "أريدك أن تعدني أن تذهب غداً للجامعة بكلِّ همّـــة ونشاط من جديد، وترمي كلَّ الهموم والأمور السابقة وراء ظهرك، ولا تلتفت إلا لدراستك ومشروع تخرّجك، فنهاية السّنة هذه على الأبواب".

- إن شاء الله

- سأذهب لخالتك علياء وأطمئنها على الحديث المطوّل الذي دار بيننا ونتائجه المجدية، سأتركك الآن تجلس مع نفسك قليلاً، لو تعرف مدى فرحي بك يا أمين أنا أسعد إنسانة!

فخرجت والدته وذهبت إلى علياء، أما أمين فأغلق باب بيته واستند على الباب وأخذ يبكي ويجهش بصوتٍ عالٍ، وكأنَّ البكاء كان مكتوماً داخله وينتظر اللّحظة المناسبة لكي يخرجه من صدره، ليملأ فراغ الهواء بتنهّداته، يشعر أمين بتراكم الأمور والأحداث على ظهره وما أن يخرج

من دوامة يقع في أخرى... من أين جاءه موضوع والديه الآن، لم يكن يُحسب له حساب لقد شُوِّشَت أفكاره وتذكّر كلّ المآسي التي مرّ بها هذه السّنة،وكأنه شريط فيديو لحياته يُعرض أمامه ويزيده بؤساً.

ثمَّ عاد لصوابه وبدأ يحاول التفكير بكيفيّة التصرّف بحكمة لمستقبله وحاضره، دون أن يؤذي مشاعر والدته، كيف سيتعايش مع الوضع الجديد وكل الأمور أمامه غير واضحة.

***

صباح اليوم التالي نُقلت ريم للمستشفى فاقدة الوعي، لقد مرّت أيام تلو الأخرى وهي تحبس نفسها في الغرفة ولا تريد الخروج ولا تريد تناول الطّعام، إلى أن فقدت جميع العناصر الغذائيّـــة من جسمها بالإضافة إلى السوائل ونقص كبير في السّكر.

في الصباح طرقت والدتها عليها باب الغرفة، فلم تُجب وبقيت تطرق الباب حتى شُغل بالها، وحاول أبوها أن يكلّمها لكن لم تُجب، فاضّطرا إلى كسر الباب فوجداها مرميّة على سريرها بطريقة لا تدلُّ على أنها نائمة، بل يظهر أنها متعبة وفاقدة للوعي فتمَّ نقلها للمستشفى بالسرعة القصوى، وقاموا بإسعافها بالطّوارئ وإمدادها بالعناصر الغذائيّـــة المهمّة والأساسية، لكنها بقيت فاقدة الوعي مع بعض التّحسن الملموس، فقد أصبحت تُتمتم بكلام غير مفهوم وتهذي بأمين، فسأل الطّبيب أمها: "من هذا الذي تريده، يبدو أنه مهمٌّ بالنسبة لها".

فأجابت والدتها الطّبيب: " هذا كان خطيبُها سابقاً وانفصلا".

قال الطّبيب: "يبدو أنها ما زالت تحبه، لذا أريد منكم أن تكلّموه لكي يأتي ويخفف عنها، لأنَّ ريم لا تعاني من ضعف عام بالجسم فقط ومن نقص الأغذية بل تعاني من صدمة نفسيّة، وحتّى تستطيع التغلّب عليها تصحوا وتعود لوعيها يجب أن تحضروا أمين، ويبدأ يُكلّمها ويهدئها حتّى تستيقظ من هذه الصّدمة".

بالطّبع لم يُعجبها هند كلام الطّبيب، كيف ستستدعي أمين ليأتي لزيارة ريم؟ فتناولت الهاتف الخلويّ لتتصل بإحدى صديقات ريم فقامت واتّصلت بمنال وأخبرتها أنَّ ريم متعبة وبالمستشفى، وقالت لها تعالوا جميعاً لزيارتها لكي تخففوا عنها وتحاولوا إخراجها من الصّدمة النفسيّة التي تعاني منها، ولم تخبرها عن أمين شيئاً، ولم توصها أن يأتي معهم وقالت في نفسها ربّما أصدقاؤها يستطيعون حلَّ الإشكال، سنحاول معهم.

أخبرت منال جميع الأصدقاء كانوا جميعاً يجلسون في الجامعة تحت ظلِّ شجرة، وحزنوا من أجلها، فاتّفق الجميع أن يذهبوا لزيارتها بعد انتهاء دوام الجامعة، فقال لهم أمين: "سأوصلكم أنا بسيّارتي للمستشفى وأنتظركم في الموقف، فتذهبوا وتطمئنوا عليها وتعودوا وتُطمئنوني". وفعلاً ركبوا سيّارة أمين وتوجّهوا للمستشفى، وعند وصولهم قال لهم أمين: "حسناً هيّا انزلوا وأنا سأنتظر هنا".

فقال له هاني: "ما رأيك أن تأتي معنا لتطمئنَّ عليها لن يحصل شيء".

– لا يا هاني فوالدتها ستكون موجودة وربّما تطردني من غرفتها، لا أريد أن أسبّب الإحراج لنفسي، دعني بكرامتي.

– يا أمين ريم الآن متعبة وهي بحاجة إلى أن تكون بجانبها، ولا أظنُّ أنَّ والدها ستقول لك شيئاً بالمستشفى وبجوٍّ كهذا.

– لا يا هاني...لا أريد أن أتسبّب في أيِّ إشكال الآن بعدما صارت الأمور مختلفة بيننا وعلاقتي بريم مقطوعة، اذهب وأنا سأنتظركم هيّا.

فصعد الجميع لغرفة ريم ووجدوها فعلاً متعبة ووجهها شاحب، فشعر الجميع بالحزن والشّفقة من أجلها، وفي المساء بدأت تصحو من صدمتها وتتحسّن تدريجياً. وبقيت يومين بالمستشفى حتّى استقر وضعُها فخرجت .

***

أسابيع قليلة تعدُّ على الأصابع تلك المتبقية للحياة الجامعيّـــة، وبعدها ستبدأ حياة عمليّة جديدة وجديّة مختلفة عن سنين الجامعة التي كان لها طعم مختلف عند جميع الطّلاب وبدأ الكلُّ بالانشغال حول مواضيع ومشاريع التخرّج وعمل تقارير، هذا بالإضافة إلى تكثيف الدّراسة في المترل لقرب الامتحانات النهائية، كما أنَّ علاقة الأصدقاء لم تعد كالسابق ففراق ريم وأمين وانفصالهما عن بعضهما له أثر كبير في نفوس أصدقائهم، لم يعد تجمّعهم كالماضي كانوا يجتمعون جميعاً بالاستراحة ويتناولون الطّعام والشّراب، لكن الآن ساد الشّتات في مجموعتهم التي دامت متماسكة قرابة خمس سنوات، فهاني وديالة أصبحا قريبين من بعضهما ومعظم الأوقات يجلسان معاً، وأمين أصبح يلازم رامي دائماً، أما منال ونسرين وريم يجتمعن على طاولة لوحدهنَّ، وكثيراً ما نرى منال تحاول التقرّب من أمين وتنتهز أيّ فرصة لتحاول الجلوس معه ومحادثته.

***

وصل الدّكتور عمر من إسبانيا متحمّساً وبشوق كبير لخطيبته ريم، وقد أحضر لها أجمل الهدايا وفستان الزّفاف الأبيض الرّائع، كمفاجأة ومحبة لها منه، وبالفعل كان فستان زفاف رائع وأسطوري أبيض متلألئ بالزّهور اللاّمعة. وفي المساء ذهب لزيارتهم وأخذ معه كلّ الهدايا والأغراض الجميلة التي أحضرها لريم ليقدّمها لأجمل عروس.

قرّرت ريم أن تكون العروس المثالية وتحاول زرع محبة الدّكتور عمر في قلبها وتناسي أمين؛ لأنَّ الأمر الواقع يُحتِّم هذا، فاستقبلته بوجه ضاحك بشوش، فسرَّ الطّبيب واعتقد أنها اشتاقت له، ولم يعلم أنها تحاول التدرّب على حبّه وزرع الحبِّ الجديد في قلبها رغماً عنها... وفي زيارته هذه فتح الدّكتور عمر موضوع عقد القران والزّفاف، وسألهم متى ممكن أن يكون؟

فأخبره والدها أنها الآن على وشك التخرّج والسنة الجامعيّة قاربت على الانتهاء ولم يبق سوى شهر على ذلك، لذا ستنتهي ريم من امتحاناتها وستحضر حفلة التخرّج وثاني يوم سنعقد القران، وبعد التخرّج سيكون حفل الزّفاف، وبعدها أيها الطّبيب ستأخذ عروسك وتطير أنت وهي إلى إسبانيا، فوافق الطّبيب وكان مسروراً، شعرت ريم بأنّ الموضوع جادّ، وستسافر وتبتعد فضاقت الدّنيا بها، لكن قالت في نفسها: " لا مشكلة سأعتاد، سأحاول أن أحبّه هو لطيفٌ ويحبّني، سأتخيّله أمين لكي أصبح أحبه، لا...لا أبداً لا يجوز أن أتخيّل عمر أمين لأنني بهذا لن أستطيع محبّة الدّكتور عمر وسأبقى متعلّقة بأمين، يا إلهي ماذا أفعل لكي أحبّه؟؟"

وذات مرّة كانت ريم تجلس هي وصديقاتها حول طاولة في الاستراحة بالجامعة وتعرض عليهنّ عدّة بطاقات وتستشيرهنّ ليساعدنها باختيار البطاقة المناسبة لحفلة زفافها، إذ بأمين متوجّهاً لنفس الطاولة يريد أخذ أغراضه وعِدّته الهندسيّة؛ لأنه كان يجلس هناك قبل أن تأتي ريم، فلمح البطاقات فشعر بأسف، فأخذت ريم البطاقات بسرعة وأخفتهم تحت كتاب لها، قال لها أمين: "لا داعي لإخفاء ذلك، أريد أخذ أغراضي فقط وأذهب للمحاضرة بعد قليل خذي راحتك" وحمل أغراضه وخرج من الاستراحة.

فقالت ديالة: "أرأيتِ يا ريم شعر أمين بالحزن لرؤيته البطاقات؟ ما كان يجب عليكِ أن تعرضيهم هنا".

– ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لا تعتقدن أني فرحة ببطاقات عرسي فأنا حزينة أكثر منه.

فقالت منال: "سأذهب لأكلّمه وأعرف بطريقة غير مباشرة إذا كان حزيناً أو غاضباً". وقامت مسرعة من مكانها تريد اللّحاق بأمين. فقالت ريم: "تريد أيَّ سبب أو حجّة لكي تذهب وتجلس مع أمين، إنّ منال ترسم وتخطّط لكي تستمليه نحوها".

فقالت نسرين: "ولــمَ أنتِ حزينة؟ أمين لم يعد لكِ، ومنال منذ السّنة الأولى بالجامعة ونحن نعرف أنها تحبّه، وكانت تخفي مشاعرها احتراماً لمشاعركِ لكن الآن تغيّرت الأحوال وأصبحت الطّريق أمامها فارغة، لــمَ لا تحاول أن تستميله نحوها؟!

– هل تعتقدين يا نسرين أنه سيحبّها ويقع في شباكها؟

– لا أعرف يا ريم، لكن أمين بحاجة الآن لشخص حميم يقف بجانبه ويُخرجه من محنته هذه ولن يجد أكثر من منال تحبّه ليخرج من هذه الأزمة، هذا بالإضافة إلى أنَّ أهلها يُحبّون أمين ورامي صديقه.

فبقيت ريم صامتة تنظر لنسرين وفي عينيها حيرة وقلق.

لحقت منال بأمين، فوجدته يجلس على حافة الدّرج بكلية الهندسة قالت له: مرحباً أمين... أريدك بموضوع خاصٍّ من فضلك، وبقي لوقت المحاضرة حوالي ربع الساعة لكي تبدأ، هل تسمح لي بالسّير معك قليلاً لنتحدّث قبل وقت المحاضرة فلن آخذ من وقتك الكثير"

قام أمين من مكانه وقال لمنال: "تفضّلي هيا نسير وأخبريني ما هو الموضوع الخاصّ؟"

– في البداية قل لي كيف حالك؟وما هي أخبارك؟

– منال! ما بكِ أسئلتكِ ليست في محلّها، أخباري تعرفينها ادخلي بِصُلْب الموضوع مباشرة.

– بصراحة لا أدري كيف سأدخل وموقفي صعب، وأنا أشعر بقلق شديد هذه الأيام من كثرة التفكير والتخطيط لأمر ربّما يكون أوهاماً أو أحلاماً، لا أعرف... فأنا أريد المعرفة فقط وليس إلاّ... فقال لها: "هل أريحكِ من المقدمة وأدخل أنا بصُلب الموضوع؟"

– وهل تعرف ماذا أريد أن أقول؟

– ربما، سأحاول مع أنني واثق أنني أعرف ماذا تُريدين.

– هيّا قل، ماذا جئتُ أقول لك؟

– ستقولين أنا ما زلت أحبك يا أمين ولن أتخلّى عنك... والباقي عندكِ لكن هذه المقدمة ولا أعرف لـــمَ أنتِ قلقة ومتوتّرة اليوم، مع أنني أعرف هذا وليس بالشيء الجديد وأشعر به كلّ يوم.

فاحمرَّ وجه منال خجلاً ونظرت للأرض وقالت: "أحرجتني! صحيح كيف عرفت؟ لكن هناك المزيد من الكلام".

– أعرف أنَّ هناك المزيد، لذلك قلت لكِ الباقي عندك، لكن أنا فتحت لكِ المجال لموضوعكِ ولم أتركْكِ محتارة هكذا، هيّا تكلّمي وأخبريني بالباقي.

– يا أمين فقط كنتُ أريد أن أعرف هل هناك أمل بأن تحبّني يوماً ما مثل ما أنا أحبّك؟ لأني أخشى أن يكون تصرّفي خطأ، لأني دائماً أحاول أن أبقى بقربك وأجلس معك، وربّما يصبح حلمي هباءً، أخبرني إذا أنت لا تحبّني أو لا تُفكّر بي، قل لي لكي لا أشعر بالإحباط بعد ذلك وأُفاجأ أنك أحببت فتاة أخرى.

فابتسم أمين وقال لها: "أحبُّ فيكِ صراحتكِ يا منال، وتحبّين أن تتضح دائماً الأمور أمامكِ ولا تستعملين طريق اللّف والدوران، هذا الشيء الذي كنت أفتقده بريم، لقد كانت كثيراً ما تخفي عني أموراً لدرجة أنني كنت في كثير من الأيام أعتقد أنها لا تحبّني بسبب تصرّفاتها، وبطريق اللّف والدّوران تقع في المشاكل وتوقعني معها. لكن سأقول لكِ أنا أحترم شعوركِ نحوي ومحبتكِ الصادقة المخلصة التي بقيت خلال السّنوات الماضية في قلبكِ وحيدة ولم تُعزّز بحبيب يُشاركها ويقاسمها الحبّ، لكن يا منال ما زلتُ تحت تأثير الحبِّ الماضي وما زلتُ أحبُّ ريم، أنا أحاول أن أنساها لأنَّ هذا هو المفروض، لكن ليس بالوقت السريع الذي من الممكن أن تتصوّريه، فهذا حبُّ خمس سنوات لن أستطيع نسيانه بيوم وليلة ولا حتّى بأشهر قليلة، أمهليني وقتاً كافياً مع نفسي وتأكّدي أنني عندما أقرّر أن أرتبط ولو بعد حين، لن أفكّر بأيّ فتاة غيركِ يا منال؛ لأنكِ مخلصة أنتِ في حبكِ ومضحّية ولن أنسى وقوفكِ بجانبي في السّجن بزياراتك لي وتشجيعي وتقويتي، أنا لا أنكر محبتكِ، لكن ما زال حبّكِ وليداً صغيراً ولم ينمُ ويترعرع، وعندما أنتهي من حبِّ ريم سيكون حبّكِ قد احتلَّ قلبي كاملاً، هل تستطيعين إخراجي من شبح ريم الذي يُلاحقني؟

– لقد رفعت من معنوياتي يا أمين وشعرت بالأمل، وصدّقني سأبقى وراءك وأستعمل ذكائي لكي أنسيك ريم وترى أمامك منال فقط، والآن أشعر أني سأطير من الفرح.

– أنا بحاجة يا منال فعلاً لامرأة تُنسيني ريم، وأن أعيش حياتي القادمة بسعادة وهناء معها.

– لا تقلق أنا هي...

– ألم أقل لكِ أنكِ صريحة وجريئة... وأخذ أمين يضحك ثمَّ قال لمنال: "وقت محاضرتي قد بدأ" اسمحي لي بالمغادرة الآن، أراكِ في الاستراحة إلى اللّقاء.

***

عاد أمين إلى منزله بعد دوام الجامعة يحمل معه أوراقاً كبيرة ملفوفة مع بعضها، وكيساً فيه قطعٌ صغيرة وكثيرة وأدوات الهندسة، كانت رائحة الطعام الشهيّ اللّذيذ سابحة في جوِّ المنزل، فاشتمّ الرائحة وبدأت أمعاءه تتحرّك: "ياه... ما هذه الرّائحة الشهيّة! أوّل مرّة أدخل فيها بيتي

أشعر أنّ الحياة تعجُّ به، وأشتمُّ رائحة طعام مثل هذا"، فخرجت والدته من المطبخ وجاءت لتستقبله فقالت له: "أهلا أمينو، كيف حالك؟ أراك تُـــكلِّم نفسك؟"

– كنت أقول: "أوّل مرّة أدخل فيها البيت وأشعر بالحياة داخل المترل، سلمت يداكِ أمي" ومسك أمين يد أمه وقبّلها، وقال لها: "أتعرفين يا أمي ربّما حرمني الله من ريم، لكن أرسلكِ لي في الوقت المناسب لِيُنقذني وعوّضني بحبٍّ وحنان أكبر، هو حبّكِ وحنانكِ، لا تعلمين كم أنا سعيد عندما أعود لبيتي وأشعر أنَّ أحداً يحبّني ينتظرني ويهتم بي،لم أشعر بالوحدة أبداً بوجودكِ".

– يا حبيبي، يا ليتني أستطيع أن أعوّضك ما فات، وأبقى العمر بأكمله بجانبك، لكن أعدك أنني سآتي كلَّ سنّة إليك وأقضي أطول فترة ممكنة.

– في المرّة القادمة ستُحضرين أماني وأمان؛ لأتعرّف على أُختَيَّ، وأنا سأدفع لكِ مصاريف السّفر كاملة.

– إن شاء الله يا أمين، لكن الآن هيّا اذهب وبدّل ملابسك، واغسل وجهك ويديك، وتعال لتناول الطّعام الذي أعددته خصّيصاً لك.

– حسناً... سأضع أغراضي بالغرفة وآتي.

– لكن قل لي ما هذه الأغراض؟ تبدو صغيرة وجميلة فالكيس مليء بالقطع الغريبة.

ففتح أمين الكيس وقال لأمه: "انظري هذه قطع سأستعملها في تركيب وعمل المجسّم والمشروع المعماريّ الذي سأبدأ به من اليوم مشروع تخرّجي. لكن بالبداية سيكون رسماً على الورق ثمَّ على الكمبيوتر، وبعدها نُطبّقه على المجسمات".

– ستشرح لي بالتفصيل عن مشروع تخرّجك، لكن ونحن على طاولة الطّعام، هيّا اذهب وبدّل ملابسك.

وبالفعل جلس أمين مع والدته حول المائدة الشهيّة الجميلة، كان جائعاً وبدأ يأكل ويتحدّث عن مشروع تخرّجه، فقال لوالدته: "أتعلمين يا أمي بماذا أحلم أن يكون مشروع تخرّجي؟

وبصراحة أحلم بأن يكون مشروعاً حقيقيّاً، وسأسعى لتحقيقه مع الأيام".

– ماذا يا عزيزي، أخبرني ما هو حلمك؟

– إنه طموح وليس حلماً، في البداية سيكون مشروع تخرّج، ومع الزّمن سأسعى كما قلتُ لكِ أن ينقلب إلى حقيقة، سأصمّم مستشفى كبيراً وضخماً خاصاً فقط بالأطفال، ولن يكون الطّابع الذي يغلب عليه طابع المستشفيات، بل سيبدو من الخارج والدّاخل كمدينة ترفيهيّة، البناء سيكون ملوناً بألوان جميلة تلفت نظر الأطفال، والأسوار عليها رسومات جميلة وشخصيّات كرتونيّـــة محبّبة لدى الأطفال، أما حديقة المستشفى الخارجية فهي ستكون كمنتزه فيه الأراجيح والألعاب المختلفة والإلكترونية... كمدينة ترفيه كاملة، هذا بالإضافة إلى حديقة داخليّة للألعاب ومغلقة لفصل الشتاء، وأزهار ملوّنة جميلة تملأ المداخل والحدائق أما سيّارات الإسعاف ستكون بيضاء اللّون لكن مملوءة بالرّسومات الجميلة التي تلفت نظر

الأطفال جميعاً، وهذا المستشفى يشمل كلَّ المرافق العلاجيّـــة الخاصّة بالأطفال، من الأسنان والعيون والعظام والقلب وكلّ الأمراض، ولن تعجز المستشفى عن علاج أيّ طفل.

وسأصمم الهندسة المعماريّة للبناء بشكلٍ جذّاب، وفيه أقواس ملوّنة وقِباب مميّزة وأعمدة مضاءة بكلِّ الألوان، وبهذا لن يشعر الطّفلُ بالخوف أبداً من الدّخول للمستشفى ولن يُزْعج والديه بالرّفض بل سيذهب بكلِّ نشاط وحماس ومن دون خوف، وكلُّ الأطباء في هذا المستشفى سيرتدون زيّاً جذّاباً للأطفال، ما رأيكِ يا أمي؟

ابتسمت أمل وقالت:"هذا رائع يا أمين، مشروع غريب من نوعه، لكن هل يُعقل أن يُنفّذ بالمستقبل، لا أعتقد أنَّ أحداً سيكترث لمثل هذا الموضوع، وأعتقد أنَّ العلاج بمثل هذه المستشفى سيكون باهظ الثّمن"!

– لا أبداً، ستكون الدّولة متكفّلة به؛ لأني سآخذ دعماً من الحكومة للعمل بمثل هذا المشروع، ويجب أن تكون أسعاره في متناول الجميع، صدّقيني يا أمّي سيكون مشروع تخرّج مميّز لم يفكّر به أحد،لا تُحبطي من همّتي!...

وأخذت أمل تحدِّث نفسها وتقول: "لقد شعرتُ الآن كم عانى أمين من الحرمان في طفولته يُريد تعويض النّقص من الألعاب والهدايا والأراجيح بمشروع تخرّجه، ويُخرج كلّ ما هو يشعر به وبداخله بهذا المشروع، لا مشكلة ليُعوِّض نقصه هكذا... فهذا أفضل له، كم يبدو سعيداً وهو يشرح لي عن مشروع المستشفى والألعاب الترفيهيّة التي سيضعها، والأمور الأخرى التي تخصّ الأطفال... بداخلك طفل رائع يا أمين."

ثمَّ قالت له: "نعم صحيح يا أمين، ماذا تريد أن تُسمّي المستشفى وهو بهذا الطّراز الجديد؟".

– سأسمّيه المدينة التّرفيهيّـــة العلاجيّة للأطفال، ما رأيكِ يا أمي؟

– جميل...! اسم منطقيّ لمستشفى كهذا، أنا أساندك الرّأي.

***

الزّمن يركض والأيام تلحق به، والناس يُهرولون للحاق بالزّمن؛ لإنهاء أشغالهم لكن ما كانت الأشغال لتنتهي، فالشّغل يجرُّ شغلاً آخر، ولا أقصد هنا الشّغل الوظيفة...لا بل انشغال النّاس بأمور أخرى مثل الزّيارات...الدّراسة...التّرتيبات لأمر ما كمناسبة مثلاً، الغرق بالامتحانات، كلٌّ مشغول ويُغنّي على ليلاه.... أسبوع واحد بقي ليفصل الطّلاب عن الصّرح الكبير الذي عاشوا به مع بعضهم أجمل أيام حياتهم، خمس سنوات من الحبِّ والصّداقة والأخوة قاربت أن تصبح ذكرى في قلوب الأصدقاء، هل يا تُرى الصّداقة بينهم ستبقى قويّة هكذا؟ أم أنَّ الزّمن سيُفرِّق بينهم ويُغرِق كلَّ واحد منهم في أعماله الخاصّة وأشغاله؟ لكن الآن الجميع بحالة تعب وضغط نفسيّ من الامتحانات والسّهر للدّراسة، وسعادتهم لا توصف بأنهم سيتخرّجون بعد جهد جهيد، وحزن يسكنُ قلوبهم عندما يتذكّرون أنهم سيفقدون لذّة هذه الأيام الجميلة، التي تحمل الضّحكات والآهات والطّعم المميّز لكلِّ شيء كان.

اليوم هو أوّل يوم من آخر أسبوع في الجامعة، فور تقديم أمين امتحانه النهائيّ في ذلك اليوم بدأ يبحث عن ريم، يريد أن يُكلّمها لقد اشتعل الشّوق بقلبه لها، وأخذ يبحث عنها في كلِّ مكان، فلمحها من بعيد بالجامعة لكن لم يستطع اللّحاق بها، لأنها ضاعت بين الطّلبة ولم تعد تظهر،

فقال في نفسه: "لا بدَّ أنها ذاهبة للمنزل، وبالفعل وقفت ريم تنتظر سيّارة أجرة لتعود لبيتها، استقلّت سيّارة بعد خمس دقائق من الانتظار كان حظّها جيّداً. توجّهت إلى بيتها وفور وصولها دخلت باب العمارة، وتفاجأت بشخصٍ ما يقف لها عند الباب، وقالت: "أمين...! لقد أخفتني لماذا تقف هنا...؟ وما الذي جاء بك ؟ لقد اعتقدت أنك باسل؟"

- أسف يا ريم، لم أقصد إخافتكِ، وكيف اعتقدتِ أني باسل وهو سجين؟
- لا أدري، كان دائماً يقف هنا ينتظرني ليكلّمني، وأنا كنت أتجاهله، لذا اعتقدت أنه خرج وعاد لعادته السيّئة هذه، لكن قل لي ما الذي جاء بك؟
- قلبي يا ريم، نار الشّوق أحضرتني، لم أرَ إلاّ وسيّارتي تقودني لطريق بيتكِ، أنا مشتاق لكِ وأردت فقط أن أراكِ وأسمع صوتكِ.

فقالت له بنبرة حزن: "أما زلت تشتاق لي يا أمين حقّاً؟"

- هل أفهم من سؤالكِ أنكِ لم تعودي تشتاقي لي، تعتقدين أن أنساكِ بيوم وليلة؟"

"لا نريد أن نفتح موضوعاً كهذا الآن" وابتعدت قليلاً عنه وأكملت: "أنا آسفة، اسمح لي أن أغادر أخاف أن يراني أحدٌ معك يا أمين ويخبر والدتي آسفة سأذهب "

ثمَّ قال لها: "انتظري ريم أرجوكِ.."

- ماذا تريد؟
- أريد أن أدعوكِ لشرب كوباً من العصير.
- أمين...أنا آسفة، فأنا مدعوّة على الغداء، سأراك في الجامعة وتدعوني هناك، هذا أفضل والآن إلى اللّقاء.
- اسمعي يا ريم هل ما سمعته صحيح، أنَّ زفافكِ بعد حفلة التخرّج؟.

أنزلت ريم نظرها للأرض، وقالت بحزن: "هذا صحيح وسأختفي بعدها من أمامك، وربّما نستطيع أن ننسى بعضنا في سفري هذا"

وصعدت ريم الدّرج مسرعة إلى بيتها. أما أمين فاستقلَّ سيّارته شارد الذّهن حزين، لا يعرف إلى أين يذهب، لا يريد العودة للبيت فهو يشعر بالاختناق، فخطرت على باله منال، قادته سيّارته إلى بيتها، فنزل ووقف أمام البيت وهو يشعر بالأمل والقوّة، وأنَّ لديه مقدرة كبيرة باتّخاذ قرار حاسم وفوري الآن ليُعيد البسمة إلى حياته، وقال: "إنَّ الحياة لن تقف عند ريم، فالقلب ما زال ينبض إذن يستطيع أن يحبّ، فشهيّة قلبي الآن مفتوحة وأشعر بالتّفاؤل".

طرق باب منزل منال، ففتح رامي له: "أهلاً يا أمين، ما هذه المفاجأة السارّة؟ تفضّل" دخل أمين وقال لرامي: "أريد أن أطلب منك طلباً صغيراً يا رامي؟".

- تفضّل، إذا كان بإمكاني مساعدتك، لن أتأخّر ولا دقيقة .
- أين منال؟
- منال! إنها في غرفتها تدرس...أتريدها بشيء؟
- أريد أن أتقدم لخطبتها.
- الآن؟!!

- نعم، لكن في البداية أريد أن أشرحَ لها ظرفي، وسأرى إذا كانت ستوافق أم لا؟.
- ستوافق من دون أن تشرح لها شيئاً، فأنت تعلم كم هي مُغرمة بك.
- لا يا رامي سأضعها بالصّورة التي ربّما هي غافلة عنها وأوضّح لها بعض الأمور، وبعدها سأتركها لتفكّر يومين ثمّ تُعطيني الجواب، لا أريد التسرّع بشيء هذه المرّة.
- حسناً هل أناديها لك؟.
- لكن، ماذا ستقول والدتك إذا علمتْ أننا نجلس وحدنا في غرفة الضّيوف؟.
- لا تقلق سأخبرها الحقيقة، فهي تعلم أنَّ منال مجنونة أمين، وأمي تعرفك وتحبّك؛ لأنك صديق ابنها رامي وهو أنا، أتذكر؟... وذهب رامي وطرق باب غرفة منال فقالت له: "تفضّل".
- يوجد لدينا ضيف يريد أن يراكِ بالتّحديد أنتِ يا منال.
- ضيف؟! لا أريد أن أرى أحداً... أخبرهم أني مشغولة بالدّراسة، كما أنني غير مرتّبة لاستقبال أحد.
- هو ضيف مهم وجاء خصّيصاً لكِ.
وقالت باستهتار: "من هو... هيّا قل؟"
- إنه أمين، سأقول له أنكِ مشغولة، وليأتِ مرّة أخرى.
وقفت منال مندهشة مسرورة مبتسمة ابتسامة واسعة، وقالت: أمين...! يُريدني أنا؟ لا انتظر لا تقلْ له شيئاً.
- جاء لأجلكِ فقط وطلب مني أن أناديكِ، يريد أن يخبركِ بشيء وحدكما.
- يا إلهي لا أستطيع تمالك أعصابي، أشعر بتوتّر وفرح كبير، ألم يخبرك ماذا يريد أن يخبرني؟
- بدّلي ملابسكِ، وتعالي وافهمي أنتِ منه ماذا يريد...
- دقيقة و سأكون عندكما...اسبقني.
بعد برهة جاءت منال فرحة مبتسمة، وسلّمت على أمين وجلست.
فقال لهما رامي: "سأترككما تتحدّثان براحة، وأنا سأعود لدراستي"... وخرج.
فنظر أمين لمنال وهو يبتسم، وقال لها: "هل أدخل بصُلْب الموضوع، أم تريدين مقدّمات كما تفعلين معي؟"
فضحكت منال وقالت: "لا أريد مقدّمات، إلاّ إذا كان الموضوع قاسياً، فأوصل لي الفكرة رويداً...رويداً"
- لا... كلّ ما أريد قوله أنني أودُّ أن أتقدّم لخطبتكِ، وأخبركِ بـــ...
فقاطعته منال وقالت: "خِطبتي!؟ أتكلّمني بجديّة أم هذا مُزاح لطيف؟" وكانت الفرحة تُشعُّ من عينيها.
- نعم، أتكلّم بجديّة تامّة، لكن أريد أن أضعكِ بالصّورة.
- أيّ صورة ستضعني بها؟ أنا موافقة من دون تفكير لا أريد صورة ولا إيطار.
- هذا الذي أنا لا أريده، إيّاكِ والتّسرّع، هذه علاقة أبديّة ويجب أن تكون مدروسة،واسمحي لي أن أكمل ما أريد قوله.

- هيّا أنا جاهزة وأسمعك.
- أنتِ يا منال قريبة من قلبي وهذه الأيام أشعر بانجذاب كبير نحوكِ، وأشعر أنني بحاجة لأن أكون قريباً منكِ أكثر لأعرف داخلكِ ونفسيّتكِ، وحقيقةً شعوركِ بالتفصيل، وأحدّد مدى قرب علاقتنا من بعضنا البعض، لكن هناك عثرة في طريقنا أريدكِ أنتِ أن تحاولي جادّة أن تقتلعيها من طريقنا، وهي حبُّ ريم، وأنا لن أكذب عليكِ يا منال، وها أنا صادق كلَّ الصّدق، ما زلتُ أحبُّ ريم ولا أعرف كيف أخرجها من بالي، أشعر بأنها مرض أريد أن أنتهي منه ولا أقدر، ربّما بخطبتنا أستطيع نسيانها وتخرج من تفكيري وقلبي يوماً بعد يوم.
- أفهم من كلامك، أنك تريد أن تستخدمني كأداة لتتهرّب من حبِّ ريم، وأنا لا شيء إلاّ في حال خرجت ريم من قلبك، أي حبّك مصلحة.
- لا يا منال أبداً... لــمَ فهمتِ الموضوع هكذا؟ أشعر نحوكِ بمحبة وأنا لا أكذب، لكن ليس بالمقدار نفسه الذي أحببتُ به ريم، أتريدين مصارحة أكثر من هذا؟ افتحي لي المجال لكي أتعلّق بكِ وامسحي شبح ريم من أمامي، بذكائكِ ومهارتكِ، صدّقيني أنا بحاجة إليكِ لا مصلحة في هذا، فالمرأة والرّجل يُساندان بعضهما البعض ببناء الحبِّ لا للمصلحة، ومصلحتهما تكون مشتركة وليست فرديّة يا منال، فمصلحتكِ أن تحصلي على الإنسان الذي تحبّينه وتبقين معه، ومصلحتي أن أجد الإنسانة التي أحبّها وتحبّني لأكمل حياتي، هنا مصلحتنا مشتركة لنا نحن الاثنان؛ لأنها علاقة ستجمعنا معاً على المحبّة، ومع الأيام حبّكِ في قلبي سيتفوّق على أيِّ حبٍّ بالدّنيا.

نظرت له منال سابحة بكلامه وبأفكارها...ثمَّ أكمل كلامه: "أنا يا منال لا أريد منكِ جواباً الآن، فكّري يومين واسألي نفسكِ، هل أنا مستعدّة لخوضٍ مثل هذه العلاقة والنّجاح بها؟ أي أن أتزوّج برجلٍ كان يحبُّ صديقتي؟ وهل سأحاول أن أنجح معه بحبٍّ جديد وعلاقة مميّزة؟ أم أنني لن أستطيع أن أجعله ينسى حبّه القديم وستبقى ريم في باله! وهل ستكون حياتنا صعبة؟ اسألي نفسكِ هذه الأسئلة.
- سأسأل نفسي لكن أنا وحدي لن أستطيع أن أجعلك تنسى ريم، إلاّ إذا أنت ثابرت وحاولت معي.
- طبعاً يا منال، لو لم أكن أريد نسيان ريم لما جئتُ إليكِ مسعفة لي طالباً حبّكِ.
- يا أمين أنا أحبّكِ لدرجة لو أنك طلبتَ قلبي فسأنتزعه وأقدمه لك لتعيش بصحّة جيّدة، وأرتاح لأنَّ قلبي أصبح معك.
- لا تتسرّعي فكّري مليّاً بالموضوع، لا أريد الجواب الآن، تباحثي أنتِ ورامي وأنت ووالدتكِ، قرّري...ادرسي ايجابيّات وسلبيّات القرار ومن ثمَّ أخبريني، والآن اسمحي لي بالمغادرة عليّ أن أذهب وأبدأ دراستي لامتحان الغد،وشكراً لكِ على قلبكِ الطّيب وشعوركِ نحوي... فكّري جيّداً وبعقلكِ.

***

في يوم تسليم المشاريع الهندسيّـــة المعمارية قام أمين وقدّم مشروعه على الورق وشرح عنه على الكمبيوتر، وعلى مجسّمٍ ضخم جميل، أذهل الجميع بالفكرة حتّى أساتذته في الجامعة اندُهشوا

للفكرة ولجمال المُجسّم وإتقانه الدّقيق بتفاصيله الجميلة الملفتة للنّظر، فنال أعلى علامة عليه والأولى بين العلامات الأخرى.

أما هاني فكان مشروعه للتخرّج هو عبارة عن مجسّم لمطار كبير يأخذ الطّابع والطّراز المعماريّ العربيّ المزركش بزخارفه وأعمدته، ونال درجة عالية أيضاً.

أما رامي فكان مشروعه عن تصميم لمعرض سيّارات وصمّمه بطريقة جميلة وخاصّة به، وكان يحظى أيضاًعلى جماليّة ودقّة عالية، ونال هو أيضاً درجة جيّدة جدّاً.

أما نسرين فكان مشروع تخرّجها بغاية الرّوعة لقد قامت بتصميم منتجعاً سياحيّاً على البحر يحتوي على المطاعم والغرف الفندقيّة والمرافق الجميلة والحدائق، وشلاّلات المياه وبرك السّباحة بمقاسات مختلفة، وبهذا حظيت هي أيضاً على درجة ممتازة وكانت الثانية بعد أمين .

وفي النهاية ديالة فقد كان مشروعها مختلفاً نوعاً ما، لقد صمّمت مبنى كبيراً لمصنع ألبان يضمُّ ساحة خلفيّة واسعة خُصّصتْ لتكون مزرعة أبقار شاملة تخدم المصنع، ونالت علاماتٍ عالية أيضاً.

جميعهم تعبوا بالمشاريع ليُقدِّموا أفضل ما لديهم.

فالامتحانات انتهت على خير والحمد لله، وبدأ الجميع يُجهّزُ نفسه لحفلة التخرّج التي ستُقام بالجامعة بعد ثلاثة أيام من انتهاء الامتحانات، وذهب الشّباب لشراء بدلات رسميّة جديدة وقمصان... والفتيات ذهبن لشراء الفساتين الجميلة الجذّابة.

وعندما عادت ريم وصديقاتها من السّوق وجدت والدها تُجهّز نفسها للسفر إلى ألمانيا، لتحضر مؤتمراً عقدته كبرى شركات الكمبيوتر في العالم لطرح منتجاً جديداً لها بالأسواق.

فسألتها إلى أين يا أمي؟

– أنا مسافرة إلى ألمانيا ثلاثة أيام وسأعود؟

– لـــمَ لمْ تخبريني من قبل؟

– لقد أخبرتكم منذ يومين، لكن عقلكِ لم يبقَ برأسكِ هذه الأيام.

– وحفلة تخرّجي...وحفلة زفافي؟!!

– حفلة تخرّجك بعد ثلاثة أيام وهي مساء السّاعة السّادسة، وأنا أكون قد عدتُ بإذن الله في نفس يوم الحفلة ظهراً وسنحضر الحفلة، والزّفاف ثاني يوم لا تقلقي.

– لكن أنا يا أمي بحاجة إليكِ قبل الزّفاف، لا أعرف كيف سأرتّب أموري وحدي.

– لا تقلقي، كلُّ الأمور جاهزة ومرتّبة تقريباً، كما أنَّ خالتكِ ستأتي وتجلس معكم في غيابي، هذه السفرة فرصة كبيرة لنجاح شركتنا ونجاحنا لا أستطيع أن أفوّتها، وأنا بعد نصف ساعة سأغادر للمطار؛ لأنَّ الطّائرة في تمام السّاعة الثامنة ستُقلع، وأنتِ اهتمّي بنفسكِ ولا أريدكِ حزينة، واهتمّي بالدّكتور عمر جيّداً، وكفاكِ سخافات.

– سأحاول يا أمي، وقالت ريم في نفسها: "أمي لا تشعر بي أبداً، ولا تشعر كم أنا أعاني من داخلي وتأخذ الأمور بكلٍّ بساطة، وترى حبّي لأمين كأنه مزحة أو لهواً كنتُ أتسلّى به، ولا

تعرف أنّ روحي ما زالت متعلّقة به، لا أدري كيف سأتزوّج هذا الرّجل، كل الذي يهم هو أن يكونوا راضين ومرتاحين، أما أنا فلا".

ثمّ ودّعت والدها وغادرت لغرفتها، وأغلقت الباب تسمع بعض الأغاني وعيناها تدمع، ثمّ أطفأت المسجّل وحملت حقيبة يدها، ونبتة صغيرة وخرجت من غرفتها مبتسمة، فرأتها أختها رندة؛ لأنها كانت تجلس في غرفة الجلوس تشاهد التلفاز، فقالت لها: "إلى أين خارجة؟ ومن دون استئذان ولا سلام، لقد غابت الشّمس والوقت سيصبح متأخّراً".

فأجابتها ريم: "ومِنْ مَن سأستأذن؟ أمي ليست هنا ولا يهم الوقت".

– استأذني من أختكِ، أم أني لا أعجبكِ؟

– لا بل تُعجبينني يا عزيزتي لكن أنا مستعجلة وخارجة وسأتأخر... هل تسمحين لي؟ (سألتها باستهتار).

– حسناً، ولكن قولي لي أين أنتِ ذاهبة؟ ولماذا هذه النبتة معكِ؟

– سأذهب لتناول العشاء أنا وصديقاتي بالخارج، ونبتتي وأنا حرّة بها.

– لكن ماذا أقول لبابا حين عودته؟ ولخالتي عندما تأتي؟

– لا شيء مهم... قولي لهما أنها ذهبت مع صديقاتها، وأنهي الموضوع واتركي لي الباقي.

– كما تشائين يا ريم.

فاستقلّت ريم سيّارة أجرة وتوجّهت إلى منزل أمين وصعدت إلى بيته وطرقت الباب بلهفة شديدة لكي تراه وتحدّثه وتسهر معه هذه اللّيلة، لكن لم يُجب عليها أحد، فطرقت على باب بيت خالته علياء ففتحت أمل فقالت لها ريم: "مرحباً خالتي، أنا ريم، لم يسبق أن تعرّفنا على بعض، هل أنتِ والدة أمين؟"

– نعم أنا والدة أمين، أهلاً ريم تفضّلي.

– أريد أن أسأل، هل أمين عندكِ؟

– لا إنه في منزله، أنا قبل نصف ساعة كنت عنده لا أظنّ أنه خرج.

– لقد طرقتُ الباب ولم يُجب، هل تعتقدين أنه لا يريد فتح الباب لي.

– لا أظن أبداً، تعالي لنطرق الباب سويّاً ...فطرقت أمه الباب ثلاث مرّات، ولم يُجب...فقالت لريم: "انتظري ثوانٍ سأذهب لأحضر المفتاح من عند علياء، ونفتح لنرى أين هو؛ لأنه من المؤكّد بالدّاخل، فسيّارته أمام باب العمارة".

– حسناً بسرعة يا خالتي.

وعادت أمل ومعها المفتاح، فقالت ريم: "هل تسمحين لي يا خالة أن أفتح وأدخل وحدي؟"

فنظرت لها أمل باستغراب ولم تفهم قصدها، فقالت لها ريم: "لا تقلقي، أرجوكِ أريد أن أراه وأكلّمه فقط".

– لا يجوز الدّخول وحدك!

– من فضلك، عشر دقائق وأخرج.

– ها هو المفتاح...تفضّلي .

وفتحت ريم الباب بقلق وحذر ودخلت بهدوء، أخذت تنظر في أرجاء المترل يميناً ويساراً، حتّى رأت أمين يجلس في الشّرفة تحت ضوء القمر المكتمل بدراً، كان يجلس شبه مائل على الكرسيّ ويرفع قدميه على حافّة الشّرفة، جلسته تدلُّ على أنه منهك ويشعر بالملل والحزن، فخرجت ريم للشّرفة دون أن يشعر بها أمين، لأنها جاءت من خلفه فوضعت يديها على كتفيه، فلّف أمين رأسه بسرعة وبدهشة شديدة وعدّل جلسته، وبقي صامتاً يتأمّل ريم وازداد خفقان قلبه ثمَّ وقف ومسك بيديها وقال لها: "أخفتني. . وأحبكِ يا ريم، لا أستطيع نسيانكِ لا تتركيني أرجوكِ".

فتنهّدت ريم وقالت: "وأنا كذلك، أنا لن أتركك بل ستبقى في داخلي، أينما ذهبت"

– لَمَ أتيتِ إليّ؟

– أريد أن تنصحني، لا أحد يستطيع مساعدتي إلاّ أنت، لأنك أنت سبب دائي ومؤكّد سأجد دوائي عندك.

– كيف؟

– "سأتزوّج بعد ثلاثة أيام يا أمين، ولا أعرف كيف سأتزوّج من دون قلب ولا مشاعر ولا أحاسيس..."فضحك أمين من قلبه ضحكات متتالية وبصوتٍ عالٍ.

فقالت له ريم وهي تشعر بالقهر: " أتضحك يا أمين؟"

– أضحك من الأسى ومن شدّة القهر، ليس كلَّ شيء مضحك يكون مفرحاً.

– أرجوك يا حبيبي ساعدني، انصحني أنا خائفة، مستحيل أن أتزوّج هكذا!

فنظر إليها أمين وأخذ يهزُّ برأسه، لا يعرف ماذا يقول، وعقدة الحزن بين عينيه، ثمّ قال لها: "أنا أجنُّ عندما أتخيّلك زوجة لرجل آخر، أنت مهجة قلبي كيف سأساعدكِ؟ أريد من يساعدني".

– تعال لندخل لأني أشعر بالبرد.

– الجوُّ لطيف يا ريم، لكن أنتِ متوتّرة .

– نعم أعرف، أشعر بالخوف والتوتّر والقلق .

– هيّا إذن...فدخلا وجلسا في غرفة الجلوس، فقال لها أمين: "ما رأيكِ أن نشرب فنجان شاي مع الحليب؟"

– حسناً، هذه آخر زيارة أشرب فيها شايك المميز.

فذهب أمين ليعدَّ الشّاي، فرنّ هاتف مترله، فقالت له ريم: "هل أجيب يا أمين"...فقال لها من بعيد وهو بالمطبخ: " نعم أجيبي".

– ألو من؟ ...(أجابت ريم).

– مرحباً!! ماذا تفعلين عند أمين يا ريم؟

– أهلاً يا منال، جئت لزيارته هل لديك مانع؟

– لا لم أقصد...لكن أنتما انفصلتما ولم أعلم أنكما ما زلتما على علاقة.

– ما زلنا ... ولا نعرف الخروج من هذه المشكلة.

– لا يا ريم، أمين وجد الحلّ... لكن أنتِ لابدّ من أن تجدي حلاً لكِ، لتخرجي من أوهامك.

ماذا تقصدين؟

- لقد تقدّم أمين لخطبتي، لكي ينسى الحبّ القديم وينعش قلبه بحبٍّ جديد، ألم يخبركِ بعد؟....
فأجابت ريم باستغراب تامٍّ: "لا، أبداً..أحقّاً ما تقولين؟!"
- نعم يا عزيزتي، لا تحزني فمن حقّه أيضاً أن يعيش حياته، أليس كذلك؟
- بلى...
- إذن هل تسمحين لي أن أكلّم حبيبي؟
- دقيقة من فضلكِ..(كانت ريم مصدومة من كلام منال)

فذهبت للمطبخ عند أمين وهي بقمّة الحزن، وقالت لأمين: "خطيبتك على الهاتف".

فنظر إليها أمين باندهاش، وقال"من خطيبتي؟"

- منال! أم أنا مخطئة.
- نعم، لكن لم نرتبط بخطبة بعد، سأكلّمها... وأخبرك الموضوع.

فذهب أمين ليجيب على الهاتف وريم جلست أمامه، فقال: " أهلا يا منال".

- كيف حالك حبيبي.
- الحمد لله، وأنتِ كيف حالكِ؟
- أنا جيّدة، لكن لَمَ لا تقول لي كيف حالكِ يا حبيبتي، كما أقول لك؟
- ليس الآن منال، كلُّ شيء بأوانه أفضل.
- لا بل يجب من الآن، لكي تعتاد على حبّي وتنسى ريم، ألم نتّفق على ذلك؟
- نعم اتّفقنا... لكن أخبريني هل سألتِ نفسك الأسئلة ودرستِ الإيجابيات والسلبيّات؟
- أنا موافقة، لكن لديّ شرط.
- تفضّلي ما هو؟
- أن لا تقاربني بريم، ولا تقل لي كانت ريم تفعل كذا وكذا، ولا تنطق اسمها أمامي.
- ألهذه الدّرجة؟ هي صديقتكِ ولستما أعداء.
- أعرف، لكن أريد أن أبدأ معك حبّاً جديداً من دون ماضٍ، فنحن أولاد اليوم، ولن أنسى أنك ما زلت تعاني حبّها وسأفعل المستحيل لكي أحاول إسعادكَ، وأن أنسيك ريم.
- حسناً، موافق.
- حسناً...
- إلى اللّقاء الآن يا منال .

وأغلقت منال الهاتف وهي تشعر بغيظ شديد، وقالت في نفسها: "ماذا تفعل عنده ريم؟ انفصلا ولم نرتح بعد، والله أخشى أن يظلَّ يُحبّها حتى بعد أن أتزوّجه! سأجنُّ حقّاً إذا بقي يحبّها".

أمين أغلق الهاتف وبقي ينظر لريم، ويبدو على وجهها علامات التساؤل والحزن، ثمَّ قال لها: "لقد تقدّمت لخطبة منال، وهذه حقيقة لأهرب من شبحكِ الذي يُلاحقني ليل نار، ها أنتِ ستتزوّجين وتسافرين، وأنا سأفعل مثلكِ سأتزوّج، لكن المشكلة أنني خائف أن أظلم منال معي، أخشى أن أبقى على حبّكِ، ولا أستطيع منحها هذا الحبّ".

– إذا كنت لا تحبّها لَمَ تتزوّجها؟

– أنا بحاجة لها أريدها بقربي، فهي تحبّني وأنا أحتاج من يحبّني، بعدما سَرَقتِ منّي الحبَّ رغماً عنّي، وحرمتني إيّاه.

– هذا حقّك يا أمين، لكن لا أعرف لَمَ شعرتُ بالغيرة ربّما لأنّها ستحصل عليك، أعلم أنه لا يحقُّ لي، لكن أيـُعقل أن يكون قلبي معك وقلبك معي، وكلٌّ واحد يذهب إلى شخص آخر من دون قلب؟

-ألا يجوز يا ريم أن يبقى قلبكِ معي للذّكرى؟ تحرمينني قلبكِ أيضاً؟ ألا يكفي أنكِ بعيدة عني...؟سأحتفظ بقلبكِ من أجل ذكرى الحبّ التي كان بيننا، وأنتِ كذلك لكن قلبي ضعيف عامليه برفقٍ وعطف، وأبقيه ذكرى معك.

وقفت ريم وقالت: "ياه نعم ... تذكّرت، لقد أحضرت لك هديّة للذّكرى".

فسألها أمين: "ما هي؟ لم أرَ شيئاً..."

- عند باب المترل من الخارج نسيتها، سأفتح الباب وأحضرها.

وفتحت ريم الباب وتناولت نبتة ذو أوراق جميلة مزروعة بحوض صغير، وأدخلتها للدّاخل، وقالت لأمين: "هذه نبتة مترلية، أحبّها، أوراقها تشبه شكل القلوب، يقولون أن اسمها (قلب عبد الوهّاب) لا أعرف إذا كان الاسم حقيقيّـاً، المهم هي نبتتي الخاصّة كانت تعيش في غرفتي، أحضرتها لك لتبقى ذكرى عندك، فأنا سأسافر ولن أستطيع الاعتناء بها، احتفظ بها يا أمين واسقها الماء، وكلّما سقيتها تذكّرني؛ لأنك ستروي قلبي معها، وعندما أعود يوماً ما وآتي لزيارتك أريد أن أراها كبيرة".

حمل أمين حوض النبتة، وقَـبَّـلَ ورقة من أوراقها ووضعها على طاولة صغيرة، وقال لريم: "اطمئني، سأعاملها وكأنها أنتِ".

الفصل السادس والثلاثون

مضت الأيام الثلاثة، كانت ريم مشغولة في تلك الأيام بتحضير وترتيب أمور حفل الزّفاف والسفر، واليوم هو يوم حفلة التخرّج، استعدَّ الجميع لها منذ الصباح وذهبت الفتيات لمصفّفة الشعر لكي يظهرن كلّ واحدة أجمل من الأخرى.

الحفلة بدأتْ، تجمّعَ الطّلاب والطّالبات خلف كواليس مسرح الجامعة الكبير، وبعد عشر دقائقأُعلن افتتاح الحفل بآيات عطرة من القران الكريم، ومن ثمّ تحية للجمهور...وتمَّ إعلان دخول مواكب الخرّيجين واستعراضهم، كان منظرهم مذهل الكلُّ بأرواب التخرّج والقبّعات، شباب وشابّات كالورد المتفتّح. كان صخب الموسيقى وإيقاع الطّبول مصاحباً دخول الطّلبة، وكلُّ كليّة وتخصّصها على حدة،منهم من يسير بالموكب يُلَوِّح بقبّعة التخرّج.. ومنهم من يسير متراقصاً على قرع الطّبل ويهزُّ أكتافه فرِحاً...وأمين ممن يسير وذكريات حياته تسبقه أمامه بحُلْوِها القليل ومرِّها الكثير...ابتسامة خفيفة صفراويّـــة يرسُمها على وجهه ويسير بجدٍّ إلى أن جلس الطّلاب على مقاعدهم...وتلا مدير الجامعة على مسامعهم كلمة الخرّيـــجين يُهنِّئُ بها الطّلبة بيوم فرحهم هذا، ومن ثمَّ بدأ مُقدِّم الحفل يُنادي على الأسماء حسب التّخصّصات و الأحرف الهجائيّـــة، كان كلُّ طالب أو طالبة يتقدّم للمنصّة يُسلِّم على وزير التّربية والتّعليم العالي ومدير الجامعة، ويستلمُ شهادة التخرّج، الجمهور يُصفّقُ بحماس وحرارة، والأصوات تعلو والهتافات والصَّفير والتّشجيعُ كان رائعاً وهو ما يُميّز الحفل، حتّى وصل الدّور إلى كليّة الهندسة المعماريّة، كان اسم أمين رابع اسم ونادوا عليه: "الطّالب أمين شاكر" وأكمل المقدّم وقال: "وسيحصل الطّالب أمين شاكر على شهادة تقديريّة للتفوّق وحصوله على أعلى درجات بدفعته، فحيّاهُ الجميع وصفّقوا له، كانت والدته سعيدة به وفخورة وخالته علياء كذلك.

ومن ثمَّ ذُكِر أسماء باقي الأصدقاء والزملاء حتّى وصلوا إلى كلية الآداب، وقامت ريم باستلام شهادة التخرّج لكنهالم تكن سعيدة؛ لأنها كلّما فرِحَتْ تذكّرتْ أنَّ عقد قرنها وزفافها غداً، وكانت تتمنّى في نفسها أن شيئاً يحدث يُغيِّر مجرى الأحداث غداً، ولا تتزوّج".

وبعد انتهاء حفل التخرّج خرج الجميع سعداء يُعانقون بعضهم ويرقُصون ويهتِفون، وقد رموا قبّعات التخرّج في الهواء للأعلى تعبيراً عن فرحهم، وبعضهم أخذ يبكي فرحاً وبعضهم حزناً على فراق الأصدقاء، وكان ينتابهم شعوراً مختلطاً ممزوجاً بالعواطف السّعيدة الحزينة.

لم تستطع ريم أن تُسلِّم على أمين أو تكلّمه ولا تودّعه كما فعل الجميع، فغداً ستتزوّج وبعد غدٍ ستُسافر إلى إسبانيا، ومن يعلم متى ستعود، وهل سترى أمين أم لا؟.

كان موضوع وداعِه مستحيلاً وصعباً؛ لأنَّ والدها كانت موجودة في الحفل هذا، بالإضافة إلى أنَّ الدّكتور عمر حضر الحفل، وهنّـــأ عروسه النّاعمة، وبقي معها جنباً إلى جنب، أما هي فكانت عيونُها تلاحق تحرّكات أمين أينما اتّـــجه، وكانت تشعر أنها مقيّدة لا تستطيع التجوال

بحريّة، وقلبها مُعلّق بالهواء تريد أن ترميه لأمين لكي يلتقطه ويُسلّم عليه، أما أمين كلمّا نظر إلى ريم كان يراها مشغولة مع الدّكتور عمر تُكلّمه وتضحك معه، كان يشعر بغصَّة في قلبه تأخذه لعالم الغيرة والمرارة، لكن هو الآخر ليس بيده شي، هو يعلم أنَّ غداً سيفقدها للأبد، فكان يبلع الحزن ليهضمه القلب ويسكت.

منال كانت ظلَّ أمين وتلحقُ به أينما ذهب، هي التي اختارت خوض التّجربة هذه، لتُنسيه شبح ريم وتفرض حبّها الجديد عليه. فأعلن أمين أمام جميع أصدقائه خطوبته على منال وقام بإلباسها خاتم الخطوبة بيدها اليمنى، فطارت منال من الفرح ولم تعد ترى إلا أمين، وبعد الحفلة ذهب الجميع لتناول العشاء في مطعم هادئ يُكملون احتفالهم بهذه المناسبة السعيدة، وتناولوا العشاء واستمتعوا بأوقاتهم وعادوا إلى بيوتهم سُعداء، ثمَّ طلب أمين من هاني أن يأتي ليكمل السّهرة معه بمنزله بعدما قام بإيصال الفتيات إلى بيوتهنّ، فوافق هاني وفعلاً ذهب مع أمين إلى بيته، فبدّلا ملابسهما الرسمية وجلسا بالشّرفة التي يحبُّ أمين الجلوس بها، والبوح للقمر بهمومه.

جلس أمين صامتاً من دون كلام ولا حراك، فقال له هاني: "أحضرتني هنا لكي نجلس هكذا؟ نتأمّل القمر ونسمع صوت الصّراصير في هدوء اللّيل!"

فقال له أمين: "أليس الجو جميلاً يا هاني؟ اسمع الهدوء واشتمَّ رائحة اللّيل، فاللّيل رائحته مميّزة نقيّة نظيفة توحي بالرّاحة".

فقال هاني: "نعم... وماذا بعد؟"

– يا هاني أشعر بأني مهزوم مكسور عاجز"
– يييبي... لماذا كلُّ هذا الشّعور الآن؟
– نعم أنا ضعيف، ريم ستتزوّج غداً، وأنا عجزتُ عن فعل شيء، أو أن أمنع هذا الحدث، ربّما أنا جبان... لا أعرف كيف كان عليَّ أن أتصرّف.
– يا أمين ألم ننتهي من هذا الموضوع بعد؟ كلُّ شيء نصيب في هذه الدّنيا، كفاك أن تُحمِّلَ نفسك المسؤوليّة، لقد فعلت كل ما تقدر عليه حتّى عقد القران... لكن لا يوجد نصيب، لم يكتبها الله لك هي ليست لك، ليست لك يا اخي...افهم ولا تحزن.
– لماذا أحببتُها إذن؟ لماذا وقعتُ في حبّها إذا كانت لم تُكْتَب لي؟ أشعر بالقهر بل بالفشل... أشعر أني سأنفجر.
– اهدأ يا أمين... ما الذي جرى لك أخفضْ صوتك النّاسُ نيام! فأخذه هاني وأدخله من الشّرفة، فجلس أمين على طرف الكنبة متوتّراً وقال:"هل ستذهب لحفل الزّفاف غداً يا هاني؟"
– نعم يا أمين سأذهب، لقد أوصتنا ريم جميعاً أن نقف بجانبها في هذه اللّيلة، لأنّها هي الأخرى تشعر بالخوف والقلق، وتريد أن نُساندها حتّى تستمدَّ قوّتها منّا فنحن أصدقاؤها، ما رأيك أن تأتي وتفاجئ ريم وتُشعِرُها أنَّ الوضع طبيعيّ؟!!
– مستحيل، أجُننتَ أنت...!! أذهبُ لحفل زفافها؟؟ لا يمكن لا أستطيع أن أراها مع الدّكتور عمر.

- طيّب انسَ يا أمين...حاول ذلك، ولا تُضايِق نفسك وها هي منال تحبّك، واليوم في المطعم وبالسّهرة كنتما ثنائيّـــاً رائعاً، لقد كنت أنظر إليكما كان الفرح يبدو عليك وكنتَ سعيداً.
- كنتُ يا هاني أحاول الكَذِب على نفسي، أُقنع قلبي بأمر جديد عليّ أحاول أن أنسى، بل أتظاهر بالنّسيان لكي لا أبقى متعايشاً مع القهر داخلي، كان مظهري الخارجيّ يدلُّ على السّعادة لكنَّ قلبي يبكي من الدّاخل وأنا الوحيد الذي أسمعه، أما وجهي فأرغمْتُه على الابتسامة والضّحك الكاذب لأستطيع التعايش مع الجوِّ الذي أنا فيه، ريم هي حياتي وحياتي سأفقِدُها غداً، لا مشكلة سأكملُ بقيّـــة عمري بلا حياة، هل ممكن ذلك؟
- كم أنت متشائم اليوم، لا أعرف لـــمَ جئتَ بي عندك، هل لنسهر أم لنسمع مأساة العُشّاق...؟
- لا يُعجبكَ كلامي يا هاني! على كلِّ حال سأذهب للنوم وأنت اسهر وحدك.
- لا أعرف كيف أتحمّلكَ كصديق! لا يُعقل خنقتني يا أمين بتصرّفاتكَ الباردة! وسأنام أيضاً أشعر بالنّعاس الشّديد... لا تُـــفكّر بشيء ونم على الفور.
- لا مشكلة حبّة دواء واحدة، وسأنام خلال عشر دقائق، تصبح على خير أنا ذاهبٌ إلى السّرير.

***

صباح جديد مختلف عن كلِّ صباح، دخلت هند عند ريم وفتحت السّتائر والنافذة؛ لإدخال أشعّـــة الشّمس المشرقة وإيقاظ ريم، وبالفعل فتحتْ ريم عينيها وقالت: "يا أمي أغلقي السّتائر فالشمس في عينيِّ، كم السّاعة الآن؟"

- هيّا يا ريم فنهار حافل ينتظركِ اليوم، السّاعة الآن التّـــاسعة، انهضي كي تتناولي طعام الإفطار وتأخذي حماماً وتستعدّي للذّهاب إلى مصفّفة الشّعر.

فأجابت وهي متكاسلة: "ألا نستطيع تأجيل حفل الزّفاف؟ فأنا أشعر بالإرهاق والنّعاس"

فشهِقتْ والدتها وقالت: "اسمعوا ابنتي المجنونة! هيّا... هيّا كفاكِ هراءً".

فنهضت ريم من سريرها وقامت بملل وذهبت للحمّام، وبعد أن خرجت جلست حول مائدة الإفطار بشهيّة منعدمة، فمسكت قطعة خبز صغيرة وأخذت تنظر إليها بدلاً من أن تضع بها شيئاً لتأكله، فقالت لها رندة: "يقول النّاس في الصّباح... صباح الخير، ما بكِ يا ريم؟ أتوجدُ عروس عابسة منذ الصّباح هكذا، أين الحيويّة والنّشاط والتّفاؤل؟"

فقالت ريم: "أرجوكِ يا رندة اتركيني وشأني ولا تُـــكثري أسئلة."

- هيّا يجب أن تأكلي الآن؛ لأنّ نهار اليوم يعجُّ بالأعمال، الطعام سيمُدّكِ بالطّاقة لباقي النّهار وليلتكِ هذه.
- قلت لكِ كفى كلاماً يا رندة.
- آسفة... لكن أحببتُ أن أقدّم نصيحة لأختي حبيبتي في يوم زفافها.

فجاءت والدتها وقالت لريم: "هيّا يا ريم أسرعي، ألم تأكلي شيئاً بعد؟"

- سآكل يا أمي، لا تقلقي عليّ.

فشربت ريم كوب شاي وأكلت قطعة كعك بالسّمسم، وقامت لتأخذ حماماً يليقُ بعروس، ثمّ ذهبوا جميعاً لمصفّفة الشعر.

***

استيقظ أمين وقام بإيقاظ هاني، وجاءت أمل ومعها الفطور الشهيّ السّاخن، والشّاي والخبز الطّازج، فقفز هاني للمائدة على الفور، أما أمين فأخذ كوب شاي وأضاف به الحليب وجلس أمام التلفاز، لا يريد أن يأكل فشهيّته منعدمة، وأصبح يقلِّبُ محطّــات التلفاز دون أن يعجبه شيئاً، ثمَّ توقّف عند محطة كان تعرض أغنية للرّاحل عبد الحليم حافظ "مشيتُ على الأشواك"فصار يستمع إليها حتى جاء هاني وأطفأ التلفاز...

فقال له أمين: "لــمَ فعلتَ هذا؟ أنا أستمع للأغنية، فهي جميلة"

فأجابه هاني: "لا... أنت لا تتسمع، أنت تُعذّب نفسك... كفى يا أمين استيقظ من هذا الوهم الذي تعيش فيه، وتقبّل أنّ ريم أصبحت لغيرك، فهي بالأصل ليست لك وتخرَّج من الحب كما تخرَّجت من الجامعة، اترك الحب وراء أسوار الجامعة، انتهينا!!!!!!".

فبقي أمين صامتاً ينظر لهاني وهو عابس، ثمَّ قالت له والدته لتُغيّر الموضوع: "أريدك يا أمين أن تأتي معي إلى السّوق بعد قليل، أريد شراء بعض اللّوازم والأغراض".

فأجابها أمين: "ليس لديَّ رغبة بالخروج إلى أيِّ مكان، ولا أريد رؤية الشّارع، آسف اعذريني"

- لكن كيف سأذهب؟ فالسّوق الذي أقصده بعيد من هنا.
- أليس بحوزتكِ رخصة قيادة؟
- نعم، طبعاً
- طيّب خذي سيّارتيواذهبي إلى أيِّ مكان تشائين، ها هي المفاتيح فوق التّلفاز، وخذي معكِ خالتي علياء، لتدلَّك على الطّريق.
- لكن أحببت أن آخذك لتغيّر جواً عن المترل وعن الحزن الذي تحبس نفسك به.
- شكراً يا أمي، لديَّ رغبة بالبقاء داخل البيت ولا أريد الخروج.
- حسناً، لا أريد أن أضغط عليك على راحتك، سنذهب أنا وخالتك بعد ساعة، ولن نتأخّر.

فعاد أمين إلى سريره وأدار المذياع بجانبه؛ ليحاولَ أن يسلّي نفسه بأيِّ شيء يُشغله عن التفكير بريم، وبقي وحده لأنَّ والدته خرجت وهاني قد غادر.

اتّصلت منال به هاتفياً لكن لم يُجبْ على الهاتف، كان يسمعه يرنّ ويتركه، مزاجه سيّء، فتناول الدّفتر والقلم ليكتب لكن الكلمات لم تسعفه ولم يستطع التركيز، ولا حتّى أيّ بيت شعر ولا نثر نُقش معه، فأخذ يرسمُ على الورقة خطوطاً بالطّول والعرض والمائل ودوائر، ثمّ مزّق الورقة ورمى بها على الأرض هي والقلم.

***

مساءً... حوالي السّاعة السّادسة تجمّع الأصدقاء والأقارب عند مترل ريم، لحضور عقد الزّواج قبل حفل الزّفاف، وجاء الشّيخ ليكتب عقد الزّواج، فوقّع العريس الزّوج على الورق،

ونادوا العروس لكي توقّع على العقد، فجاءت ريم وجلست بجانب والدها، وطلب منها الشّيخ التوقيع على الورقة، فأخذت تتذكّر كيف كانت يدها ترتجف وهي توقّع عقد قرانها على أمين، وها هي ترتجف هنا أيضاً لكن قلقاً وحزناً وبغير رضا، كانت الابتسامة غائبة عن وجهها وعيناها حمراوتين، وكأنها في أيِّ لحظة ستذرف دمعاً منهمراً، فوقّعت على جميع الأوراق وبدأت السّيدات يزغردنَ فرحاً وسروراً، ويقُلنَ: "كُتِبَ الكتاب، ألف مبروك يا جماعة...كُتِب الكتاب...مبارك"(يتناقلن الخبر). وبعد ذلك طلب والد العروس أن يتوجّه الجميع لسيّاراتهم لأنّ العروسين سيستقلّان سيّارتهما ويتوجّهوا جميعاً إلى قاعة الاحتفالات.... بدأ الناس تخرج وأصبح الشّارع مزدحماً.

في هذه الأثناء جاء أمين بسيّارته وأوقفها بعيداً، يريد أن يرى ريم ولو لآخر مرّة، ويراقب ماذا يجري من أحداث. فشاهد أفواجاً من النّـــاس بالخارج. وبدأت السّيّارات تتحرّك وتزمّر، ثمّ دقق النّظر فرأى ريم والدّكتور عمر يخرجان سوياً، وعمر يُمسكُ بيد ريم ويساعدها على الرّكوب بالسيّارة، فصار أمين ينظر بحُزنٍ شديد وبدأت عيناه تدمع، وذابت خفقات قلبه بين الألم وأمنيات الحبِّ المسلوب، وقال في نفسه:"كنتِ يا ريم تنتظرين آخر هذه السّنة لكي نتزوّج بعد التخرّج، لكن أنتِ تزوّجتِ أما أنا فلا ".

ثمّ حرّك سيّارته وغادر قبل أن يراه أحد، لقد رأى الجميع موجودين حول ريم وكلّ أصدقائه، فشعر بالوحدة؛ لأنه هو الوحيد المحروم من أن يشاركهم هذا الفرح، والذي كان يجب أن يكون فرحه هو الآخر. فعاد للبيت مقهوراً ودخل غرفته وأغلق الباب، فلاحظت والدته أنه ليس على ما يرام فركضت وراءه ودقّت الباب ودخلت، وأصبحت تحاول تهدئته فقالت: "أتبكي يا أمين؟ البُكاء لن ينفعك بشيء، بل سيزيد حالتك سوءاً، مابك؟!! ريم ليست لك كفى حبيبي...إنك واعٍ بما فيه الكفاية ومؤمن بالله.

فأجابها أمين: "اتركيني يا أمي؛ لأني إن لم أبكي فسأنفجر وأموت من الغيظ، دعي البكاء يُطهّر لي قلبي، والدّموع تذوب الحبّ الذي لا يريد أن ينجلي من داخلي، أنا مجنون يا أمي أو مريض بمرض نفسيّ... لا أعرف ما هو، هل هو الحبّ؟! كلُّ النّاس تحبّ لكن أنا لا أحبّ أنا مريض بالحبّ،أنا لا أعرف لـــمّ أتصرّف هكذا وكأن الحبّ يتحرّك بقلبي لا إرادياً".

- لـــمَ تقول هذا؟ لا يا حبيبي سلامتك، أنت مُعافى ولا ينقصكَ شيء.
- لا بل مريض، لا أعرف مرضي، أيوجد إنسان يعشق لهذه الدّرجة، لدرجة أن يتحوّل الحبّ لمرض في جسده كالحمى أو الحساسيّة؟ لا أظن! الكلّ ينسى بسرعة ويهرب إلى عالم آخر إلا أنا مجنون وساذج، كنت أظنُّ نفسي ذكيّـــاً، أستطيع السيطرة على مشاعري، لكن اتّضح لي أنني لا شيء". وقال لوالدته: "أمي حبيبتي، أريد أن أبقى وحدي من دون رقيب عليّ، إن سمحتِ اتركيني وحدي".
- يا أمين هذا الكلام لا يفيدك بشيء، والبكاء ماهو إلاّ وسيلة لتفريغ طاقاتٍ بداخلك، لن يُعيدَ البكاء لك ريم، لذا حاول أن تُهدّأ نفسك قليلاً وتعامل مع الموضوع بكلِّ حكمة وذكاء، وها أنا سأخرج لأتركك تفرّغ طاقتك، وآتي لأراك أفضل حالاً بعد قليل.

فجلس أمين على سريره عائماً بالأفكار لا يرى الموضع بوضوح، فنظّارة الحقيقة مكسورة والصّورة ليست واضحةً أمامه، والحزن يلوّن فضاء غرفته.

***

وصل العروسان إلى قاعة الاحتفالات، وبدأت الأغاني وبدأ الناس يرقصون فرحاً، والفتيات تتمايل والمدعوّون يصفّقون، لكن ريم كانت جامدة، ترقص نعم لكن من دون ابتسامة، ومن يراها يشعر أنها متيبّسة غيرُ ليّـــنة لا تعرف الرّقص، اعتقد الجميع أنّ هذا خجلاً، وحتّى عند جلوسها على منصّة العروسين، كانت تحاول تصنّع الابتسامة، وفي حال ابتسمت مع أحدٍ تكون مجرّد مجاملة للمدعوّين، وتعود للعبوس مرّة أخرى وبسرعة.

حاول أصدقاؤها أن يُضْحِكوها فكانت تجاملهم أيضاً، وبعد عرض قالب الحلوى ذي الطّوابق العشرة وتمرير السّيف الفضيّ عليه لقطعه، أخذت ريم تدمع وهذا الظاهر أمام النّـــاس، لكن في داخلها تبكي قهراً، فاعتقد المدعوّون أنها تبكي فرحاً، فقالت إحدى المدعوّات للأخرى:"انظري إلى العروس إنها تبكي فرحاً، أرأيتِ دموع السّعادة؟ فأجابتها الأخرى:"نعم هذا شعور جميل، ودموع الفرح تكون غالية وعزيزة، لقد حصلت على أفضل عريس، هذا بالإضافة إلى أنه غنيّ".

أما أمل والدة أمين فقد احتارت به، وخالته علياء كذلك، كلّما دخلتا إلى غرفته وجدتاه هو والحزن على نفس السّرير ونفس الجلسة.

فقالت أمل لأختها علياء: "كيف سنحاول إخراجه من الوضع السيّء الذي هو فيه؟ إنه منذ الصّباح هكذا بمزاج سيّء وللأسوأ، أخشى أن يُصاب بمكروه".

– ما رأيكِ يا أمل أن نقنعه بأخذ حبّة منوّم لينام، وهكذا يُريح قلبه وفكره.

– لديَّ حلٌّ آخر، ما رأيكِ أن نكلّم منال، ونخبرها أن تأتي لكي تنسيه همّـــه، فهي خطيبته وهكذا سينسى قليلاً أمر ريم وينتبه لمنال ؛ لأنها أمامه فيجب أن تكون منال قريبة منه في محنة كهذه لكي تزداد وتقوى علاقتهما.

– فكرة جيّدة، منال تحبّـــه وستترك الحفل وتأتي فوراً.

– أنا أحببتُ هذه الفتاة فهي تحبُّ أمين وتخاف عليه، أليس كذلك يا علياء؟

– بلى، هذا صحيح.

رنّت علياء على هاتف منال ثلاث مرّات، وفي المرّة الثّـــالثة أجابت منال.

– ألو مرحباً.

– كيف حالكِ يا منال، أنا علياء خالة أمين.

– أهلا يا خالة، آسفة لم أسمع الهاتف قبل قليل فصوت الموسيقى والأغاني عالياً.

– كيف الحفل؟

– إنه جيّد، لكن ريم لا يبدو عليها السّعادة أبداً.

– ولا أمين فهو حزين ويائس، لذا أريد منكِ طلباً يا منال.

– تفضّلي يا خالة أنتِ تأمرينني.

- أريدكِ يا عزيزتي أن تأتي الآن وتقفي بجانب أمين بهذه المحنة، ليجدكِ تُسانديه وتخافي عليه، صدّقيني هو بحاجة لكِ الآن، فلا أنا ولا والدته نستطيع ذلك، هو لا يتقبّل منّــا الكلام ويطلب منا أن نتركه وحده ونخرج، فنحن خائفتان عليه من نوبة قلبيّة أو ما شابه.

- حاضر يا خالة، سآتي حالاً مسافة الطّريق وأكون عندكم.

وبالفعل ودّعتْ منال صديقتها ريم وباركت لها، فقالت لها ريم: "ما زالت السّاعة الحادية عشرة لـــمَ ستغادرين الحفلة الآن؟! لم ننتهِ بعد يا منال، ابقَي قليلاً".

فأجابتها منال: "أنا مضّطرة للمغادرة يا صديقتي، لا تغضبي منّي إن شاء الله سآتي غداً للمطار لأراكِ وأودّعكِ".

فطلبت منال من رامي أن يوصلها بالسيّارة وشرحت له السّبب، فأوصلها وصعد معها إلى منزل السيّدة علياء وطرقا عليها الباب، فرحّبت بهما، وقالت لمنال أن تدخل إلى بيت أمين فأمّه هناك، فقال لها رامي: "حسناً أنا سأغادر الآن وأعود لحفل الزّفاف، لا أريد أن أرى أمين الآن لكي لا أسبّب له الإحراج، سأدعه بهَمّه مع منال، وغداً أكلّمه لعلّه أفضل، وعندما تنوين يا منال المغادرة اتّصلي لآتي وآخذكِ ونعود للبيت".

فدخلت منال عند السيّدة أمل وسلّمت عليها وسألتها عن أمين، فقالت لها أمل:"إنه يا عزيزتي في غرفته على سريره، لم يضع الطّعام في فمه اليوم، ولا البسمة عرفت طريقه، من يراه يعتقد أنَّ حالة وفاة أصابت أحداً، ادخلي عنده وبأسلوبكِ اللّطيف حاولي أن تغيّري أجواء الحزن هذه... فهو خطيبكِ"

فطرقت باب غرفته ودخلت، فوجدته جالساً على السّرير وبيده دفتر وقلم، فغيّر طريقة جلسته عندما رأى منال، فقالت له: "هل تسمح لي أن أقضي السّهرة معك هذه اللّيلة أم أنت مشغول بالكتابة؟"

فلم يُجب وبقي صامتاً، فتقدّمت إليه ووقفت بجانبه ونظرتْ بعيونه....

فقالت له: "أكنت تبكي يا أمين؟ أيبكي الشّاب!"فقال لها: "أليس الشّاب هذا إنساناً لديه مشاعر وأحاسيس؟ أهو حرام البكاء؟ أم ممنوع؟".

- لا يا حبيبي لكن أخشى عليك، كما أنك يجب أن تكون شاباً قوياً ذا مشاعر وأحاسيس قويّة لا تُهزُّ بسهولة.

- أين السّهولة بالموضوع؟ شخص سُلِبت منه حبيبته بل هي زوجته أيضاً، وطُلِّقت رغماً عنه وبغير رضاه، وزوِّجتْ لرجل آخر، فعروسته أصبحت لغيره هل هذا كلام عادل؟ من يرضى هذا الكلام؟ من يقبلُ به؟!

- لا أحد يرضى طبعاً، لكن كلُّ شيء يعود لنصيبه، وعليك أنت أن تتناسى لكي تنسى، واكذب على نفسك بأنك أصبحت لا تحبُّ ريم وصدّق الكذبة، ألم تسمع بالمثل الذي يقول "كذّبَ الكذبة وصدّقَها"؟ وأنا جئتُ عندك لكي نسهر سوياً سهرة جميلة هادئة وأريد منك عشاء لذيذاً؛ لأني لم آكل في الحفلة بعد، تركتُ مائدة طويلة عريضة وجئتُ إليك لنأكل معاً.

فقال لها: "سنرى ماذا أعدّت خالتي وأمي للعشاء وسأحضر إليكِ".

– حسناً موافقة لا مشكلة، مع أنني كنت أطمح بطعام من المطعم بطلب خارجيّ.
– سيأتي بالطّعام طلباً خارجيّاً لا تقلقي من مترل خالتي. من فضلك منالِ أريد أن أجلس وحدي.
– نعم؟؟ سأعتبر نفسي لم أسمع.

وبالفعل أحضرت الخالة لهما الأطباق السّاخنة وكانت مسرورة؛ لأنَّ أمين يبدو على وجهه التحسّن قليلاً، لكن أمين رفض أن يأكل ولا يريد أن يضع ولا لقمة واحدة في فمه، وأصبحت منال تحاول معه جاهدة أن يأكل ولو لقمة واحدة، لكن كان يرفض بشدّة.

فجلست تأكل وحدها وهي يائسة بعدما فشلت كلُّ المحاولات بالإقناع، وطلبت منه أن يجلس معها على المائدة حتّى تُنهي طعامها، فجلس حول الطّاولة مقابلها وأخذ ينظر إليها متأمّلاً، وهي تأكل بأناقةٍ وفِكْرُه سارح.

فقالت له: "لـــمَ تنظرُ إليّ ؟!" فأجابها: لا شيء هكذا فقط. ثمَّ قام وعاد لغرفته، فلحقت به وقالت له: "إلى أين أنت ذاهب؟!" فأجابها ويبدو على وجهه التّعب الشّديد: "إلى غرفتي لكي أتناول الدّواء، أشعر بضيق في صدري، أريد النّوم".

ثمّ استلقى أمين، فجلست منال بجانبه على طرف السّرير بالقرب من وسادته، فرفع رأسه ووضعه على حضنها– بدل الوسادة– فدُهشتْ منال من تصرّفه، وبداخلها شعرت بسعادة تغمرها وأحسّت أنَّ أمين بدأ يميل إليها، فهذه بادرة حسنة بالنّسبة إليها لكنها ممزوجة بخوف.

– "آسف يا منال سامحيني...اسمحي لي". وأخذ يدها ووضعها على خدّه ليشعُر بدفئها وحبّها، وقال لها: "أشعر ببرد شديد يا منال... "

فقالت له:"لا مستحيل وجهك ساخن ورأسك كذلك!! أنت مصابٌ بالحمّى يا حبيبي، عليك بأخذِ خافضٍ للحرارة "

انهارت قواه وبدأ الإعياء يحتلُّ جسده وطرحته حمّى الحبِّ على أرض بعيدة عن الهوى.

– ناوليني الغطاء من ورائي أنا أشعر بالبرد حقّـــاً، وأشعر أنَّ جسدي يرتجف.

وسحبت منال الغطاء وغطّته وأعطته دواءً خافضاً للحرارة، فأغمض عينيه ليحاول نسيان همّـــه، والانتقال إلى عالم الأحلام، وبالفعل بعد عشر دقائق شعرتْ منال أنه استقرَّ بعض الشّيء وهدأت نفسه، فعرفت أنه نام، وشعرت بالانتصار على ريم بفوزها هي بالنهاية بأمين، وأنّ قدره رمى به في طريقها مسعفة منجدة له، فعلاً إنّ مصائب قوم عند قوم فوائد.

دخلت والدة أمين للغرفة فرأت أنَّ أمين قد هدأ ونام، فسُرّت وقالت لمنال: "أشكركِ يا منال، وقومي لنشرب شيئاً ساخناً"، وبالفعل خرجت وأغلقت الباب ثمّ ذهبت وراء أمل للمطبخ؛ لإعداد شيء للشرب، فقالت منال لوالدته: "أتعرفين يا خالة، شعرت أنَّ في الغرفة طفل صغير متعب بحاجة إلى حنان، ثمَّ غفا. كم هو مسكين وكم قلبه متعلّق بريم لدرجة كبيرة، وأشعر أنَّ الموضوع ليس بالسّهل ونسيانها صعب، لكن لن أيأس يا خالة، سأحاول وبإذن الله سأنجح مع ابني خائفة".

– حبيبتي منال أنتِ فتاة ناضجة وجميلة، وشعرت أنكِ ذكيّـــة، وبمقدرتكِ إخراج أمين من مرضه هذا، لنفرض أنّ حبّه مرض يجب أن يُشفى منه، وهذا الشّاب الذي بين يديكِ في داخله طفل

صغير حقّـــاً، ولا يغرّكِ منظره العام، ابحثي في داخله ستجدين أمين الطّفل الذي تستطيعين أنتِ إرضاءه وجذبه نحوكِ بأبسط الأمور، فهو طيّب من داخله لم يتشبّع بالحنان منذ طفولته، والحقُّ كلّه عليّ... فطفولته المشتّتة هي التي جعلته يتمسّك بأوّل فتاة أُعجب بها فأحبّها، فشعر بالأمان والحبّ والحنان بقربها. هذا لن يُمانع أن تُــكملي أنتِ مشوار هذا الحبّ إذا استطعتِ تقديم الحبّ له كما يُريده هو وبأسلوبه، افهميه يا منال وراعيه ستجدينه الحبيب المتيّم المغرم بكِ، وفي داخل كلِّ إنسان كان ذكراً أو أنثى طفل يبقى متعايشاً معنا يجعلنا نَحِنُّ لأيام الطّفولة، وأياماً نشعر أننا بحاجة أحدٍ يعطف علينا ويحبّنا وكأننا أطفال، لكن شعور كهذا تختلف حدَّته من شخص لآخر، حسب تاريخ طفولته وكيف قضى هذه الفترة التي هي من أهمِّ الفترات في حياة كلِّ إنسان، لأنها الفترة التي تبدأ بتكوين شخصيّة الفرد وبناء شخصيّته، ويبقى يبني الإنسان على أساسها أطباعه وتصرّفاته.

– كلام منطقيّ وجميل سأحاول فهم هذا الشّخص الذي أمامي، وتحليله لكي أصل إلى مفتاح قلبه، مع أني أحفظ أمين غيباً.

– طيب يا منال ما الذي يُعجب أمين بريم، ألا تعرفين؟

– ربّما شكلها أو جمالها لا أعرف أو شيء ما في شخصيّتها... أظنّ ابتسامتها، مرّة سمعته يقول شيئاً كهذا.

– اسمعي يا منال، جمال ريم فيه نوع من التميّز، فهي تتميّز بتفاصيل ناعمة ومريحة، لا أقول أنَّ ريم غير جميلة بل هي جميلة بنعومتها وبهدوء ملامحها، لكن أريد أن أعرف قليلاً عن تفاصيل شخصيّتها، وليس عن شكلها الخارجي فهذا لا يهم.

– هي حسّاسة ممكن أن تغضب بسهولة وترضى بسهولة أيضاً، وعفويّة تقول أيّ شيء يخطر ببالها دون أن تهتم إذا كان سيزعج أحداً أم لا، ثمَّ تنتبه أنها أخطأت وتبدأ تعتذر، ومع هذا فهي ليست صريحة غامضة بعض الشيء، والجميل في شخصيّتها أنها حتّى وهي حزينة تستطيعين إضحاكها بسهولة، طيّبة في التعامل، لا أستطيع أن أصف أكثر أو لا أعرف أن أصف، هي صديقتي وأنا أحبّها أيضاً لطيبتها.

– هل هي تحبُّ المزاح أم جادّة، هل شخصيّتها كوميديّة مثلاً ؟

– لا أبداً ليست كوميديّة، هي تحبُّ الضحك والمزاح لكن بحدود، وأحياناً ترينها جادّة إذا كانت ليس لها رغبة بأن يمازحها أحد، فتغضب هذا يعود لحساسيّتها الزائدة، لكن هي لطيفة مع الجميع، مؤدّبة جداً، مجامِلة جيّدة، تحبُّ بإخلاص، وحبّها لأمين لدرجة كبيرة وبصدق هو الذي جعله يتمسّكُ بها، لقد كانت متمسّكة به لأقصى درجة وهي التي أجبرته على عقد القران، لكن حبّها لأهلها وعدم قبولها بأن تكون ابنة عاقّة للوالدين هو الذي جعلها تُضحّي بحبّها، وتتزوّج من الرّجل الذي اختاراه لها. أما سيّئتها فكانت تتأثّر بسرعة بكلام والدها ضدّ أمين ويظهر هذا عليها، فتعامله بطريقة غريبة لا يفهمها أحد، وكأنها ليست هي الحبيبة المتيّمة، وكان هذا يُضايقه.

– هذا مؤسف، ما الذي استفادته هند من هذا الحرمان! لقد كانت هند صديقتي كما أنتِ وريم،

فالتّاريخ يُعيد نفسه لكن بطريقة مختلفة بعض الشيء، لا ألوم أحداً سوى شاكر على هذا التاريخ الأسود الذي عانينا بسببه جميعاً، وهند كان لها أن تعلم أنَّ القدر من عند الله عز وجل، وتؤمن بخيره وشرّه وتنسى ما كان، ولا تقف عثرة سوداء أمامهما.

وأمين المسكين ترك الآن ريم، وسيتزوّج صديقتها.

– لكن ريم غير حاقدة على زواجنا سيكون برضاها هي التي تركته لستُ أنا من سلبها منه.

– نعم أعرف، أنا قلت لكِ التاريخ يعيد نفسه، لكن مع بعض الاختلاف، والاختلاف هنا هو أنَّ ريم تركت أمين وليس هو الذي تركها، يا منال أمين يختلف كليّاً عن أبيه فهو صادق بحبّه ويتمتّع بأخلاق كريمة وعالية، لا تُشبه أبداً أخلاق شاكر السيّئة ...أخذنا الكلام يا منال وأصبحت السّاعة الواحدة فجراً سأعطيكِ ملابس للنّوم ونامي عندنا اللّيلة.

– لا، لم أخبر والديَّ، كما أنهما يعتقدان أنني ما زلت في حفل الزّفاف.

– لا مشكلة سأتكلّم مع والدتكِ وأخبرها أنني سأحجزكِ عندي اليوم ولا تنسي أننا سنصبح عائلة واحدة، فأنا حماتكِ يا فتاة، أليس كذلك؟

وفعلاً اتّصلت أمل بأمِّ رامي و بعد إصرار أمل وافقت على بقاء ابنتها عندهما في تلك اللّيلة.

فأعطتها أمل ملابس مريحة للنّوم وعادتا تتحدّثان في غرفة النّوم المجاورة لغرفة أمين، ثمّ قالت أمل:"سأطفئ الضّوء لكي ننام يا منال إذا بقي مضاءً سنبقى نتكلّم دون أن نشعر بالوقت هيّا تصبحين على خير. فأجابت: "تصبحين على خير يا خالة".

فنامت منال بسرعة لأنها مرهقة، وحماتها المستقبليّة أمل نامت وغفت بسرعة أيضاً.

وما إن أصبحت السّاعة الثّامنة صباحاً حتى فتحت منال عينيها واستيقظت، كان النوم قد هرب من عينيها لاختلاف المكان، فقامت من السّرير وذهبت لغرفة أمين لتطمئنَّ عليه، وفتحت باب غرفته بهدوء ودخلت، اقتربت من سريره فشعر أمين بوجود أحد فاستيقظ، ونظر بجانبه فوجد منال، فابتسم وقال لها: "أما زلتِ هنا يا منال؟"

فقالت له: "لقد قضيتُ اللّيلة عندكما؛ لأطمئنَّ عليك والحمد لله لقد أصبحت أفضل حالاً الآن".

– أشكركِ يا منال، لقد أتعبتكِ معي.

– لا يا أمين أنا أخدمك بأهداب عيوني، ما رأيك أن تنهضَ لشرب فنجان قهوة على الشّرفة؟

– موافق، لكن أين أمي؟

– ما زالت نائمة، هيّا يا أمين أنت اذهب واغسل وجهك، بينما أجهّز القهوة.

فقام أمين وذهب للحمام، ومنال توجّهت للمطبخ، استيقظت أمل وذهبت للمطبخ لترى من الذي استيقظ، فوجدت منال تُعدُّ القهوة، فقالت لها: صباح الخير يا منال.

– صباح الورد.

– لــمَ استيقظتِ مبكّراً.

– لقد استيقظت فجأة ولم أستطع العودة للنوم، ربّما اختلاف المكان يُشعرني بالقلق قليلاً، فهي ليست غرفتي، لذا لم أعرف النوم بسهولة.

– بسيطة، عندما تتزوّجين ستعتادين على المكان، لكن أين أمين، هل استيقظ؟
– نعم إنه في الحمّام سيخرج حالاً، سنحسب حسابك في القهوة لتحتسيها معنا على الشّرفة.
– موافقة، لكن فنجاني من دون سكر يا حلوة.

ثمَّ طُرق الباب فاستغربت أمل من الطّارق في مثل هذا الوقت الباكر، ذهبت وفتحت فدُهشت وجُنَّت من رؤية مَنْ بالباب.... لقد كانت ريم واقفة أمام الباب، فجاءت منال من المطبخ لغرفة الجلوس وهي تحمل القهوة، رأت ريم بالباب فذُهِلتْ وقالت...ريم!

فقالت لها أمل: "أهلاً يا ريم تفضّلي، قولي لي ما الذي جاء بكِ الآن؟ أليس هذا غريباً!! ألستِ عروس البارحة؟".

فقالت ريم: "جئتُ لكي أودّع أمين لآخر مرّة، فأنا اليوم السّاعة الواحدة سأسافر ولم أشأ أن أذهب دون أن أراه ولو بضع دقائق، أتسمحون لي؟!

ونظرت ريم لمنال وقالت لها: "أتسمحين لي؟!".

فأجابت منال مندهشة:"نعم...لا مشكلة" وسكتت ولم تعرف إكمال كلامها، فهي مصدومة من تواجد ريم.

ثمَّ سألت ريم: "هل جئتِ باكراً يا منال؟ "

فأجابتها أمل: "طلبتُ أنا من منال الحضور البارحة لكي تواسي أمين وتهوّن عليه الحزن والأسى الذي يُغرق نفسه به، المسكين لقد قضى ليلة البارحة والدّمعة لم تفارق عينيه، وكان عليّ أن أستعين بأيِّ شخص يُخرجه من هـــمّـــه، وبالفعل نجحتْ منال".

خرج أمين من الحمّام وتوجّه إلى غرفة الجلوس، فوقف مذهولاً هو الآخر، وقال متفاجئاً: "ريم...!! أيُعقل أن تكوني ريم...؟! لا أظن! ما الذي سيُحضر ريم في مثل هذا الوقت الآن؟!... ربّما صرتُ أهذي أو أتخيّـــل أموراً عجيبة!"

فقالت له ريم: "نعم أنا ريم، ما بك يا أمين، ألم تعرفني؟"

– أعرف ومتأكّد من أنكِ ريم... لكن السؤال لـــمَ أتيتِ إلى هنا؟ وكيف وبأيّ حجّة؟! هل حدث معكِ شيء؟
– لقد جئت لكي أودّعك، ولا أحد يعرف أنني هنا، لقد كتبتُ ورقة لعمر أنني خرجتُ لإحضار بعض الأغراض المتبقّية للسفر وسأعود حالاً، بهذا سيكون مطمئناً فهو مازال نائماً.

فتقدّم أمين إليها ومسك يدها وأجلسها وجلس بجانبها، وقال لها: "الآن أثبتّي لي أنكِ مجنونة ومتهوّرة بل حمقاء بهذا التصرّف".

ثم قالت لها أمل: "أتوجد زوجة تترك فراش زوجها في صباح اليوم التالي لليلة الزّفاف؟ لا يُصَدّق ما تفعلينه يا ريم!!"

فأجابت وهي حزينة: "أرجوكم لا تُفاقموا الأمور فعمر نائم ولم يشعر عندما خرجتْ وسأعود بسرعة، كيف لي أن أسافر من دون أن أرى أمين اليوم؟

فابتسم أمين وكان سعيداً برؤية ريم وقال: "لم أتخيّـــل أبداً ولا حتّى حلمتُ أن أراكِ اليوم، لقد كان هذا من المستحيل".

فقالت لها أمل: "لا يجوز هذا الذي تفعلينه يا ريم، وأنت يا أمين لا يجب أن تُشجّعها، فهي متزوّجة الآن".

– أنا لا أشَجِّعها، لكن لا أخفي عليكِ يا أمي أنا مندهش.

منال تنظر لأمين ورأت كيف دبَّتْ الحياة بوجهه وعادت الابتسامة بشكلٍ ملحوظ عند رؤيته لريم، وسحبت نفسها وقامت من غرفة الجلوس وذهبت للمطبخ، ثمَّ لحقتْ بها أمل، وقالت لها: "لـــمَ خرجتِ من الغرفة؟"

فأجابتها: "لا أستطيع أن أرى عيون أمين التي طارت من الفرح عندما رأى ريم، وقد غمرتْ السّعادة قلبه أيضاً، ومن الأفضل أن أنسحب لكي يجلسا سويّاً بعض الوقت فهي ستُسافر وسننتهي من هذا الموضوع.

أما أمين وريم فكانا جالسين بصمت كانت عيونهما التي تتكلّم، ودقّات قلبهما تتعانق على رغم المسافة التي بينهما، ثمَّ بدأتْ ريم تدمع، لم يأبه أمين بالحدِّ من تصرّفاته فشعر أن ريم أقرب ما يكون إليه هو الآن، فهي تمادت بالمجيء لبيته، ولم يمنع نفسه من التمادي هو أيضاً... فمسك وجهها بكفّيه وقال لها: "أرجوكِ لا تبكي لقد ذرفنا دموعاً بما يكفي".

– إذا لم أذرفُ دموعي على فراقك فلمن أذرف دمعي، لا يوجد أيَّ شيء آخر أُهديه لك إلا دموعي هذه.

فوقفت منال في الطُرقة الصغيرة الفاصلة بين غرف النّوم وغرفة الجلوس، لتسترقَ النّظر والسمعَ عليهما.

وعاد الوداع بطريقة الصّمت وكلام العيون، لا كلام يفي التّعبير من صعوبة الموقف.

فوقفت ريم وقالت: "أعرف أنني لن أكتفي بالجلوس معك، لكن يجب أن أغادر، والحمد لله أني استطعت أن أراك اليوم".

فوقف أمين وهو ينظر إليها بعيون الحزن، فتناول يدها وشدَّ عليها وقبّـــلها، فارتمت ريم إلى صدره وعانقته وعادتْ للبكاء.

فقالت منال في نفسها وهي تسترق النّظر: "يا إلهي ما هذا الجنون؟! لا أعرف كيف سأصبر على هذه الحالة المرضيّـــة، الحمد لله أنها مسافرة ولن تُسكن هنا بنفس البلد، وإلا تعبتْ أعصابي".

ثمَّ توجّهتْ ريم حيث يقع حوض النبتة (قلب عبد الوهّاب)، وقطعت منها ورقة وأعطتها لأمين وقالت له: "جفّف هذه الورقة واحتفظْ بها في دفتر ذكرياتك، فهكذا قلبي سيجفُّ بعدما أسافر من هذه البلد، لا شيء سيرويه بعد اليوم، لكن لا تنسى الاعتناء بالنبتة فهي روحي الباقية عندك". فتناول أمين الورقة وبقي صامتاً لا يعرف ما يقول، فالكلام وقت الوداع مُقيّـــد ومحبوس.

وخرجت ريم مسرعة من الباب وغادرت المكان، فبقي أمين واقفاً مكانه دون حراك، وعيناه لا تتحرّك، فدخلت منال وقالت لأمين: "هل غادرت؟"

فنظر أمين لمنال وهزَّ رأسه بمعنى نعم دون أن يتكلّم، وخرج للشّرفة مسرعاً ليرى إن غادرتْ ريم المنطقة، فرآها تسير في الشّارع وقد ابتعدت، فعاد ودخل وابتسم في وجه منال، محاولاً تغيير جوِّ الحزن، ويحاول تقمّص شخصيّـــةً لا مبالية، وأن يعيش في الأمر الواقع، فقال:"إذن أين القهوة يا منال؟"...فقالت له: "سأعود لكي أسخّنها، فقد بردت"

– لا مشكلة أشرب القهوة باردة أحضريها، ونادي أمي لنجلس سويّاً.

***

كلُّ الأصدقاء جاءوا وودّعوا ريم بالمطار إلا أمين حتّى منال جاءتْ... فأوصتها ريم أن تهتمّ بأمين وأن تحيطه بحب جديد مختلف.

حلّقتْ ريم في تمام السّاعة الواحدة على متن الطّائرة هي وزوجها الدّكتور عمر إلى إسبانيا، ليقضيا شهر العسل ويُكملا بقيّة حياتهما هناك، فالفرصة هذه جيّدة لكي تنسى الحبِّ الماضي.

حياة جديدة تنتظر ريم فقد انتقلتْ إلى عالم آخر مختلف، ومع شخص ما زالتْ تعتبره شخصاً غريباً ولم يقتحم القلب بعد. وكذلك أمين سيبدأ قصّة جديدة، هل يا تُرى ستكون ناجحة هذه المرّة وسيتوفّق بحبِّه الجديد؟ وخصوصاً أنه لم يُعطِ نفسه فترة راحة وفترة تفكير، لقد قرّر خوض معركة أخرى ليست بالبعيدة عن المعركة الأولى، لكن من المؤكّد أنَّ كلّ تجربة ستختلف عن التي سبقتها...

الفصل السابع والثلاثون

الحياة الآن لابدَّ أن تصبح أكثر جديّة وعمليّة وخاصّة وبعد التخرّج، فالبحث عن الوظيفة المناسبة أمر ضروريٌّ ومهم لكلِّ شخص تخرّج من الجامعة، والطّالب المتفوّق من الممكن أن يلعب معه الحظّ وتُتاح أمامه فرص كبيرة، فهو يكون في مقدمة الطّلبة وكله بأمرالله.

وما إن مضى أسبوعان تقريباً على تخرج أمين إذ بدكتور في الجامعة يتّصل به، ويخبره أنّ مكتباً هندسيّاً من أكبر المكاتب الموجودة بالبلد، يطلبُ شابّـــاً متفوقاً ليعمل عندهم، ويبدأ بالتدرّب على استلام المشاريع الهندسيّة المعماريّة. فطلب من أمين أن يذهب للمقابلة في هذا المكتب ويتقدّم لهذه الوظيفة الممتازة.

وبالفعل أسرع أمين متوجّهاً إلى المكتب الهندسيّ، وتقدّم للوظيفة وتـــمّت الموافقة عليه بسرعة خصوصاً عندما عرفوا أنه من المتفوّقين، وطلب منه مدير الشركة أن يبدأ بعمله من صباح اليوم التالي، فسُرَّ أمين ووافق على الفور، وعاد لمنزله فرحاً وفَرّح قلب والدته وخالته بهذه الوظيفة الممتازة.

شُغل أمين هذا أخذ منه معظم وقته، فدوامه يبدأ من السّاعة التّاسعة صباحاً ولا يعود إلاّ في التّاسعة مساءً، مع أنَّ الدّوام ينتهي في السّادسة، وعند عودته يكون مُتعباً ومرهقاً، بحيث يتناول طعام عشائه ويجلس ساعة تقريباً لمشاهدة التلفاز، ويدخل إلى غرفته لينام، هذا كلّه أدّى إلى غضب منال، فهي كلّما طلبت منه أن يذهبا ويتناولا طعام الغداء أو العشاء في مكان ما يعتذر بشدّة؛ لأنه مشغول بعمله أو متعب، وأصبحت تحتجُّ وتتذمّر على هذا الجفاء والبعد الذي يحصل بينهما. وفي إحدى المرّات اتّصلت معه هاتفياً على مكتبه وقالت له:

– مرحباً حبيبي، كيف حالك؟
– أهلاً يا منال، أنا جيّد وأنت؟
– أنا غير جيّدة، وأشعر بالغيظ.
– لماذا؟ ما الذي يزعجكِ؟
– وتتظاهر أنك لا تعلم؟ وكأنَّ شيئاً لم يحصل!
– لا تعودي وتقولي عملي يزعجكِ.
– نعم أحسنت أنت ذكي...عملك يُزعجني ويُشوّش أفكاري، شهران ونحن مخطوبان ولم أرَ وجهك سوى بضع مرّات ربّما خمس مرّات، هل هذا يجوز؟ من يقبل أن يفوته يوماً واحداً دون أن يرى خطيبته؟؟ لا أدري...!
– وما الذي تريدينه يا منال...هل أترك عملي وأجلس معكِ؟
– طبعاً لا...! لكن لو كنتَ تحبّني مثل ريم لأردتَ أن تراني كلَّ يوم وكلَّ ساعة، لكن أنا منال واتّــخذتني بديلة ولوقت الشّدائد، ولكي تُملي وقت فراغك فقط.

- ما هذا الكلام السّخيف يا منال، أنتِ الآن حبيبتي، لا تعودي وتذكري ريم مرّة أخرى، لا أريد أن أذكرها، كما أنَّ الحياة تختلف الآن عن السّابق، الآن لديَّ عمل يجب أن ألتزم به ولا يجوز مخالفته، ووقت عملي طويل ودائماً لدينا مشاريع إعمار، يجب أن نُـنهيها ونُسلّمها بوقتها المحدّد، أنا بالفعل مشغول ومازلتُ تحت التدريب والمراقبة، يجب أن أُثبت جدارتي.
- ربّما أنت تتهرّب منّي إلى عملك.
- لـــمَ أهرّب منكِ؟ لو لم أكن أريدكِ حبيبتي، لقلتُ لكِ بصراحة أنني غيّرتُ رأيي، ولن أهربَ هكذا كالجبناء، لكن الحقيقة فعلاً أنني مشغول، والعمل يأخذُ كلَّ وقتي، حتّى أصدقائي لم أعد أراهم هذه الأيام، أمي وخالتي أراهم ساعة واحدة فقط.
- يا أمين يجب أن نجلس ونتكلّم أكثر ونقتربْ من بعضنا، أريد أن أجلس معك فترة أطول لا ساعة ولا ساعتين، أريد أن تكون بقربي نهاراً كاملاً.
- نعم... تذكّرت لديّ الحلّ...يُريدون تعيين سكرتيرة تعمل على الكمبيوتر في الشّركة الهندسيّة عندنا، ما رأيكِ أن تأتي وتُقدِّم طلباً للوظيفة وهكذا سنكون قريبين دائماً من بعض، وتستطيعين رؤيتي بأيِّ وقت، وتأتين لشرب القهوة معي كلَّ صباح، هل هذا اقتراح جيّد؟
- ممتاز، أنا جاهزة من الآن، لقد فاجأتني وأسعدتَ قلبي أنا موافقة.
- حسنا، غداً السّاعة التّاسعة إلاّ ربع، سأمرُّ عليكِ وأصطحبكِ معي للشّركة، وتتقدّمين لطلبِ الوظيفة، ولعلَّ العمل يكون مناسباً لكِ.
- حسناً سأنتظرك غداً.

***

وفي المساء جلست أمل مع ولدها وقالت له: "أما آن يا أمين أن تتزوّج أنت ومنال؟" فأجابها أمين: "يا أمي هذا الكلام لم يحنْ وقته الآن، لا أريد أن أستعجل الأمور".
- هل أحببت منال كما أحببت ريم؟
- لا طبعاً.. ريم الحبّ الأوّل الذي لا يمكن أن أحبَّ واحدة أخرى بمثل هذا الحبّ، أما منال فهي إنسانة مختلفة أحبّها وأريد المزيد من الوقت لكي أحبّها أكثر قبل الزّواج.
- من أين تريد المزيد من الوقت وأنت تُهملها ولا تخرج معها كثيراً؟ ولا تراها بالأسبوع إلاّ مرّة واحدة، وبيوم إجازتك وبضع ساعات قليلة!
- يا أمي عملي مهم ويحتاج منّي وقتاً طويلاً لكي أُحقّق نجاحاً بالفعل، وأُثبت جدارتي وتفوّقي بين زملائي في هذه الشّركة الهندسيّة.
- حسناً، لن أمانع من ذلك، بل أحبُّ أن تكون مميّزاً ومتفوّقاً، لكن ليس على حساب من حولك وأصدقائك وأهلك، كما أنني قاربتُ على السّفر، ولي في هذه البلد فترة طويلة، وأخواتك أماني وأمان اشتاقتا لي، لكن أنا مصرّة على حضور حفل زفاف ولدي قبل أن أسافر.
- سأتروّى قليلاً يا أمّي بموضوع الزّواج...لـــمَ العجلة؟

– لماذا؟ منال فتاة طيّبة وتحبّك حبّاً جنونيّاً، كما أنك شاب جاهز للزّواج، بيتك مفروش، سيّارة معك، ووظيفة بين يديك، وعروس حلوة بانتظارك، وأنت تعرفها جيّداً من أيام الجامعة...أليس كذلك؟
– بلى، كلّ كلامك صحيح، وكل الأمور جاهزة إلا شيئاً واحداً.
– ما هو؟
– أنالا أشعر بالاستقرار بعواطفي، لا أريد أن أظلم منال معي، أريد أن أكون متمكّناً من هذا الحبّ الجديد، أمهليني بضعة أشهر أخرى.
– لا مستحيل، إذا لم يكن في نهاية هذا الشّهر فلن أنتظر، يجب أن أسافر يا بنيّ، فزوجي وبناتي بحاجة لي، لقد اتّصل أحمد بي كثيراً ليُؤكّد عليّ الحضور خلال هذا الشّهر.

فأزاح أمين رأسه حزيناً ولم يُعجبه كلام والدته، وقال لها: "هكذا يا أمي لن تنتظري لأنهم بحاجة لكِ... وبأيِّ ثمن تريدين أن تزوّجيني لكي تفرحي... ألا يكفيهم قربكِ بجانبهم العمر الماضي كلّه، ألا يحقُّ لي آخذ وقتاً أكثر معكِ وتبقين معي ولو لبضعة أشهر؟"

– يا أمين لـــمَ انزعجت هكذا؟ أنا لا أقصد، لكن من حبي الشّديد لك أريد رؤيتك وأنت عريس مسرور بحياتك، ويوجد معك إنسانة ترعاك وتهتمَّ بك، فتشاركها الطَّعام ووقت الفراغ وتبعد عنك شبح الوحدة التي كنت تعانيها، وتحفظ لك منزلك، وبهذا أسافر وأنا مطمئنّة عليك، ولا أكون قلقة لأنك عُدت وحيداً، قد رأيتُ كم كنتَ تعاني وحدك...

لم يجب أمين ولا حتّى ناقش والدته بل بقي صامتاً يفكّر وينظر لها.

ذهب أمين صباحاً كالمعتاد إلى عمله، وفور وصوله دخل لمكتبه، ووقف وضرب جبينه بكفّه...! تذكّر أمراً ما!

وقال في نفسه:"يا إلهي كم أنا أبله وغبيّ، أين ذهب عقلي!" ثمَّ عاد وخرج مسرعاً، وقاد سيّارته بسرعة حتّى وصل لمنزل منال، فوجدها تنتظره على الرّصيف، فتح لمنال باب السيّارة وجلست، ثمَّ قالت له: "صباح الخير يا أمين، اعتقدت أنكَ لن تأتي، لقد تأخّرتَ كثيراً أصبحت السّاعة التّـــاسعة والنصف".

– لا ياعزيزتي، ألم أعدكِ أن آتي لآخذكِ؟لكن تأخّرت في الاستيقاظ لـــمَ لمْ تتّصلي بي هاتفياً؟
– لقد اتّصلتُ مرّتين، لكن أنت لم تجب، إذا نظرتَ لهاتفك فسترى أني رننت عليك.
– آه ... نعم؛ لأنَّ هاتفي الخلويّ بوضع صامت لم أنتبه، سأحوّله الآن، آسف يا منال.

ثمّ وصلا للمكتب فرأى أحد الموظفين أمين وهو يدخل المكتب، فقال له: "أين اختفيتَ بعدما وصلتْ؟ فارتبك أمين وقال له: "لم أختفِ أنا أمامك ألا تراني جيّداً؟" ثمَّ سحب أمين منال من يدها وأسرع بها لمكتبه وأغلق الباب، لا يريد أن يُبيّن لها أنه وصل المكتب من دونها صباحاً، فقالت له:"ما بك مستعجل هكذا؟ولـــمَ سحبتني بهذه الطريقة؟".

– أخاف أن يصيبكِ هذا الموظّف بالعين، فأنا أخشى عليكِ من الحسد فأنت جميلة وجذابة.

ضحكت منال مستغربة وقالت له: "كيف إذن تريدني أن أعمل بالشّركة كسكرتيرة، وأنت تخشى من الموظّفين عليّ؟".

طلب أمين الإذن من أن يدخل لصاحب الشركة المدير العام ويُعرّفه على منال، ولتقدّم طلب التّوظيف كسكرتيرة في قسم المشاريع الإعمارية عند أمين.

وبالفعل دخلا وبعد المقابلة قال له المدير العام: "بما أنك يا أمين أنت الذي أحضرت الفتاة، وبما أنها خطيبتك، سأوافق على توظيفها. وغداً ستستلم مكتبها في قسم المشاريع الإعمارية، وستكون السكرتيرة عندكم في القسم، والآن أطلب منك يا أمين أن تأخذها جولة في أرجاء الشّركة لتتعرّف عليها، وتُعرّفَ الموظّفين والموظّفات بها، ثمّ عَرِّفها على القسم الذي ستعمل به، واشرح لها جميع الأمور والواجبات اللازم مراعاتها.

فأخذها أمين في جولة سريعة بأرجاء الشركة، كانت منال مسرورة وتفاجأت من ضخامة الشّركة وجمالها، وآخر شيء أخذها للطّابق الذي يعمل به، فقال لها: "ها قد وصلنا للقسم الذي سنعمل به سويّاً، وقد أدخلتكِ إليه حين وصلنا، لكن الآن سأعرّفكِ بالقسم وبموظّفيه بطريقة أوضح، فجاء للمكتب الأوّل وقال لها: "هذه الآنسة آلاء أبرع مهندسة مَدَنية، وتُشرف على جميع المشاريع التي نقوم نحن المهندسين المعماريّين بتصميمها، فقالت آلاء: "تشرّفتُ بمعرفتكِ يا منال، أهلاً وسهلاً بكِ في الشركة".

ثمَّ انتقل أمين إلى المكتب المجاور "وهذا مكتب المهندس تامر وهو أيضاً مهندساً مدنياً جديراً، بالإضافة إلى أنَّ الشركة من دونه تكون بحالة اكتئاب بعد خروجه من المكتب للمشروع، نشعر أننا فقدنا الضّحكة والبسمة، ويتحوّل نهارنا لجديّة، فهو يُضفي الطُّرفة الجميلة على جوِّ العمل الجامد".

فقالت منال وهي مبتسمة: "تشرّفتُ بمعرفتك يا أستاذ تامر"

- "أهلا بكِ معنا، نحن تشرّفنا بمعرفتكِ" وأضاف أمين قائلاً وهو يُكمل تجواله: "يتشارك تامر وآلاء في العمل ويُقسّمانه فيما بينهما.

يوجد غيرهما مهندسون مدنيّون، لكن بأقسام أخرى، وهما المهندسان المشرفان على تنفيذ المشاريع التي نقوم بتصميمها، أما القسم الدّاخلي في الطّابق هو لمكاتب مهندسي العمارة، وسأخبر هاني أن يتقدّم بالعمل في الشّركة أيضاً".

وأشار بيده وأكمل:"هنا خمسة مكاتب يحتلّها خمسة معماريين، الآن هم في اجتماع عمل حول مشروع ما... أما هذا المكتب الأخير فهو مكتبي، أنا هنا المسؤول عن هذا القسم، لكنّني تحت التدريب والمراقبة، وبعد فترة سأعيّن مسؤولاً رسميّاً هنا إن شاء الله، وتلك الغرفة الصغيرة هي مكتبك، وستكونين سكرتيرة مسؤول القسم، وسنجلس مع بعضنا نشرب القهوة، وأدلّك على الأعمال التي ستقومين بها أثناء العمل".

فقالت منال: "يا إلهي كم أنا مسرورة يا أمين بهذا العمل، ولم أحلم أبداً أو أتخيّل أننا سنعمل معاً وفي نفس المكتب، ونحن تخصّصان مختلفان. والمكتب جميل والأثاث يظهر عليه أنه راقياً وباهظ الثّمن".

- نعم يا منال، فهذه كُبرى شركات الهندسة في بلادنا ولها أساسها وتاريخها، وهي التي قامت بتصميم أضخم المباني الفاخرة والفنادق هنا بالعاصمة وبالمناطق السياحيّة. والحمد لله أنكِ مسرورة، وشهادة الكمبيوتر هذه أفادتكِ أكثر من شهادة الآداب.
- أرأيت يا أمين الدّنيا بالمقلوب أدرس الآداب وأتعب أربع سنوات، ومن ثمّ أدرس دورة كمبيوتر شاملة، وأعمل بهذه الشّهادة الصغيرة، والآداب ذهَبَ مع الريح.
- لا تأخذي كلامي بمحمل الجدّ، أنا أمازحكِ. يا حبيبتي في البداية يجب أن يشُقَّ الإنسان طريقه بأيِّ عمل كان؛ ليأخذ الخبرة العمليّـــة على حقيقتها وطبيعتها، لأنه مهما حاول أن يتعلّم بالجامعة ويدرس نظريّاً، فإن الواقع سيكون مختلفاً كلياً، ويبدأ بتعلّم أمور جديدة لم يكن قد اطلّع عليها من قبل أو أحاطها علماً، فالخبرة تأتي مع التجربة والمبادرة، ويجب على كلِّ شخص الخروج من قوقعته التي هي حاجز لنفسه، ولينفتح على العالم ويتعلّم الكثير، وإن شاء الله ستعملين بشهادة الآداب، ومن المؤكّد ستُتاح لكِ الفرص الجيّدة فيما بعد.

أصبح أمين يصطحبُ منال ويأخذها معه إلى العمل كلَّ يوم، وكانت الألفة تزداد بينهما يوماً بعد يوم، وصار يشعر أنّ تواجد منال دائماً بجانبه أمر ضروريٌّ وحتميّ.

والدة أمين عادت وفتحت موضوع الزّفاف مع أمين وقالت له: "يا بنيّ يا حبيبي متى ستنوي على الزّواج، لقد أتعبتنا معك، وها أنا انتظرت شهراً آخر وأنت لم تقرّر بعد، ألم تستقرَّ عواطفك بعد؟"

- يا أمي عواطفي بدأت بالاستقرار نوعاً ما، لكن ما زلتُ أريد بعض الوقت، هذا زاوج وليس لعبة فهو مشروع أبديّ.
- حسنا يا أمين سأسافر للأسف ولن أستطيع حضور حفل زفافك، ستحرمني من فرحة عمري.
- يا أمي، لا أعرف ماذا أقول افعلي ما شئتِ، لكن زواجي لن يتمَّ بهذه السرعة، يبدو أنك مللتِ من الجلوس معي.
- لا والله يا بُنيّ، هل سأمّل منك من حبيبي أمين؟! لا أبداً...لكن مسؤوليّات الحياة ومتطلّباتها تُناديني فاعذرني يا ولدي.

وبالفعل بعد يومين حجزت أمل تذكرة سفر إلى أمريكا، وسافرت عند زوجها وبناتها.

فشعر أمين بفراغ كبير؛ لأنه اعتاد على أمه بالفترة الماضية التي قضتها عنده، فعاد وتذكّر شعوره بالوحدة والفراغ بالمنزل بعد غياب والدته.

لقد مضى على زاوج ريم شهران ونصف تقريباً، وأصبح أمين يتساءل كيف تعيش ريم هذه الأيام؟ وهل أحبّت الدّكتور عمر أم أنها تُمثّل أمامه الحبّ؟ هل أصبحت حاملاً بطفل في هذين الشهرين؟ ويُفكّر ويتساءل... لكن دون أن يجد لأسئلته أجوبة.

أما العمل فما زال يأخذُ كلَّ وقته، فعمله مرهق فعلاً وهو ما زال لا يستطيع التوفيق بين عمله وإرضاء خطيبته منال، كما أنَّ منال أصبحت تشعر بالغيرة الشديدة على أمين من الموظّفات اللّواتي يعملن بالشّركة، وبالأخصّ من الآنسة التي تُدعى آلاء؛ لأنَّ آلاء دائماً تحاول التقرّب من أمين وتتودّد إليه، وتحاول إرضاءه بأيِّ شكل من الأشكال، وتختلِقُ حججاً لكي تدخل إلى مكتبه

وتجلس معه، هذا من وجهة نظر منال، لذا أصبحتْ لا تُطيق آلاء ولا رؤية وجهها.

***

زواج وأفراح ستجرُّ أفراحاً، فقد جاء هاني لزيارة أمين بعملة في الشّركة، وأحضر معه بطاقة جميلة يدعوه فيها على حفل زفافه على ديالة، فسُرَّ أمين ووعده بالحضور. ثمَّ سأله هاني عن الوظيفة الشاغرة: "أما زلتم بالشركة تُريدون مهندساً معماريّاً؟" فقال له أمين: "الآن تذكرت؟! أخبرتك أن تأتي لتتقدّم بطلب الوظيفة منذ مدّة!"

– لا...صدّقني في بالي الموضوع يا أمين، لكن كما تعرف كنت مشغولاً بترتيبات الزّفاف، والبيت وكلّ الأمور، والآن بعدما هدأت الأوضاع قليلاً قلت يجب أن أؤمنّ عملاً ممتازاً بدلاً من عملي الحالي، هيّا طمئّني.

– نعم الوظيفة ما زالت تنتظر، وتعال لتعمل معي وتُخفِّف عن عاتقي وظهري بعض المشاريع الإعماريّة، فأنا أحياناً أعمل في المكتب حتّى السّاعة الحادية عشر ليلاً لأنهي المخطّطات، فضغط العمل كبير وبالذّات العمل الذي يكون على عاتقي.

– حسناً، ما رأيك أن أتقدّم بطلبي للوظيفة الآن، وسأخبرهم أن يكون الدّوام في بداية الشّهر القادم، بعد أن أكون قد انتهيت من شهر العسل. ومن الواجب بعد أن استلم العمل أنا أن تأخذ أنت إجازة يا أمين وتستعدَّ لحفل الزّفاف، وشهر عسل مميّز أنت ومنال.

– يا هاني بصراحة لا أعرف، أشعر بأنَّ عواطفي ممزوجة، فأحياناً أرى نفسي تميل لمنال، وأقرّر أن نعقد قراننا حالاً، وقد اعتدتُ عليها دائماً بجانبي، لكن عندما أعود وأذكر ريم لا أعرف ما الذي يُقلِب كياني، أتراجع وأقرّر أن أتمهّل قليلاً بموضوع الزّواج هذا.

– أُوووفّ...ألا زلت يا أمين تفكّر بها؟ انساها يا أخي وعش حياتك، فأنت في بلد وهي ببلد آخر، والآن هي لها حياتها لقد أصبحت متزوّجة.

– ألا تعلم عن أخبارها شيء يا هاني؟

– ديالة وريم دائماً تتكلّمان مع بعضهما هاتفيّاً، وكلّ مرّة تسأل عنك وعن أخبارك، وتسأل إن تزوجت من منال أم لا، أما أخبارها دائماً تقول لا شيء جديد، هي جيّدة وعمر رجل طيّب ومتفهّم، وأهم شيء أنَّ إسبانيا بلد جميل وفي غاية الرّوعة، وهي تشعر بالرّاحة في تلك البلد، وتجد فيها أماكن تشعرك بأنك ببلد عربيّ.

– أفهم من كلامك أنها مسرورة وفرحة، وهي تحبُّ زوجها؟

– هي لم تعبر لنا عن حبّها لزوجها، ولكن عبّرت عن جمال تلك البلاد، فالله أعلم بالنّسبة للحبّ، ومن المفروض أنها أحبّته، والمهم يا أمين أن تحاول جاهداً نسيان ريم فهي مُلك لغيرك، وأنت لك حياتك الآن اهتمّ بها، كما أنَّ منال فتاة تحبّك وهـــ...

فقاطعه أمين وقال: "يا هاني كفى، فأنا أعرف أنَّ منال تحبّني وتهتمَّ بي، وهي كذا وكذا.. أرجوك يكفي، وعندما أشعر أنَّ الوقت مناسب للزّواج لن أتأخّر".

– إياك أن تكن غير مقتنع بمنال ثمَّ تتركها بعد فترة، فستُصدمْ صدمة نفسيّة.

– يا هاني ليست المشكلة بمنال، على العكس هي رائعة لقد أحببتها، لكن المشكلة داخلي أنا.

- لم أفهم،أنت شاب جيّد... لـــمَ تُريد خلق المشاكل بداخلك؟
- سأوضّح لك، قلبي يحبُّ منال ويفرح عندما يراها ويحنُّ إليها، لكن إذا تعمّقت به، وبحثت بين العروق والشّرايين الصغيرة من داخله، لن تجد منال تسير مع الدّم بالقلب، بل ستُفاجأ بأنَّ ريم هي التي بالعروق، وتسبح مع كريات الدّم البيضاء والحمراء...

فأخذ هاني يضحك بشدّة وقال لأمين: "ها ها ها... هل هذا تشريح جديد للقلب؟ أم اكتشاف جديد لتكوين ومحتويات الدّم؟ متّى آخر مرّة حلّلت بها دمك؟ قم بعمل تحليل جديد للدّم، ربّما التّحليل الذي بحوزتك قديم من زمن أيام الجامعة، وسترى...!"

- كفاك هراء يا هاني، أنت سألت وأنا أجبتك بصدق، وأوضحت لك الصّورة وما أشعر به.
- ما عليك سوى أن تبقى تنظر إلى قلبك من الخارج ولا تتعمّق بداخله وتدخل بتفاصيل الشّرايين، لكي لا ترى ريم... انساها يا عزيزييكفي، لقد مللتُ منك والجميع ملَّ منك ومن قصصك.

***

ريم لم تقل الحقيقة لأحد، كانت تتظاهر بالسّرور والفرح، لكن كان الحزن يملأ قلبها، الغربة أتعبتها، أربعة أشهر ونصف شعرت بهم ريم بكلِّ أنواع اليأس، فهي في بلد غريب بالنسبة لها، مع أنها من أجمل البلاد- مقصد جميل للسّياحة- لكن هي لم تشعر بهذا الجمال، لا تستطيع التفاهم مع من حولها؛ لأنَّ جميع الشّعب لا يتكلّم سوى اللّغة الاسبانيّـــة، ولا يستعمل الإنجليزيّة أبداً، لذا شعرت كأنها في حالة من الصمِّ والبكم، فلا تفهم ولا تستطيع التعبير، زوجها عمر الوحيد الذي تستطيع التكلّم معه...

ما زال لريم حياتها وغرفتها الخاصّة، التي لا أحد يستطيع عبور حدودها، ومع أنها في عزلة بتلك البلاد إلاّ أنها خَلَقَتْ لنفسها عُزلة أخرى داخل بيتها أيضاً، ربّما تحتاج إلى طبيب نفسيّ يحاول فكَّ رموزها لتعود لحياة طبيعيّة كباقي البشر، ويشفيها من العقدة التي هي لا تعرف أنها حقّاً بحاجة لمعالج نفسيّ يُساعدها ويخرجها منها، من سجن الحبِّ الماضي.

الدّكتور عمر طبيب مشغول بواجبه الإنسانيّ وعمله بالمستشفى، لذا ليس لديه الفراغ ليُحاول فهمها،فيتركها على حالها لعلّها ترتاح وتخرج من عُزلتها، مع أنه لا يفهم أو يعرف ما يجري داخل هذه الإنسانة التي تزوّجها، لكنه يجاريها ويتماشى معها ولا يحاول إزعاجها أبداً.

***

طرقت منال باب مكتب أمين ودخلت وقالت لهما: "أتسمحان لي بالجلوس معكما؟قال لها أمين: "طبعاً تفضّلي يا منال".

- سألت منال هاني: "كيف حالك يا هاني اشتقنا لك؟"
- الحمد لله بخير، كيف أمين معكِ؟
- أمين مُتْعِب وغارق في عمله ليل نهار، لكن ماذا أفعل؟ من يُحبّ سيتحمّل.
- فابتسم أمين وقال أشكركِ على تحمّلك لي... والمهم يا منال أنَّ هاني جاء ليدعونا على حفلة زفافه هو و ديالة بعد أسبوع.

- حقّاً! ألف...ألف مبروك يا هاني، لقد فرحتُ لكما من كلّ قلبي، سأكلّم ديالة وأبارك لها وأهنّئها على شجاعتك.
- عقبالكِ أنتِ وأمين يا منال أن تتشجّعا أيضاً، وتُقدمان على الزّواج بالقريب العاجل.
- شكراً يا هاني.

غادر هاني وعادت منال لمكتبها، فطلبت آلاء أن تدخل عند أمين؛ لأخذ بعض المخطّطات المعماريّة، فأدخلتها منال وهي غير راغبة في ذلك وأخذت تحسبُ لها الوقت، وكم ستقضي عند مكتب أمين، وبعد خمس دقائق لم تحتمل منال الانتظار، فذهبت وفتحت باب مكتب أمين بشكل فجائيّ فوجدت آلاء واقفة بجانب أمين وكلُّ تركيزهما بشاشة الكمبيوتر، وأمين يشرح لها عن شيءٍ معيّن بالمخطّط، فتفاجأ من دخول منال هكذا وقال لها: "هل يوجد شيء يا منال... ما بكِ؟"

فأجابته: "لا أبداً لكن سمعتكَ تُناديني فجئتُ مسرعة لأرى إن كنت تُريد شيئاً".

تنهّد أمين وقال: "لا لم أنادِ عليكِ، وإذا أردتُ شيئاً فسأرنُّ عليكِ بالهاتف، منذ متى ونحن نُنادي بعضنا بالمكاتب وكأننا بالأسواق!"

- آسفة يا أمين، هكذا هُيّأ لي.
- بسيطة، عودي إلى عملكِ من فضلكِ ولا تُشغلي بالكِ.

كانت منال مغتاظة وشعرت بالقهر من حديثه لها بهذا الجفاء وبالطّريقة الرّسميّة هذه أمام آلاء.

وانقضت ربع ساعة وما تزال آلاء تناقشُ أمين بالدّاخل بأمور تَخصَّ عمل الشّركة، فعادت منال ودخلت بحجّة أنها تريد بعض الملفات من الخزانة الموجودة داخل مكتبه، وبقيت حوالي عشر دقائق وهي تُخرج ملفاً وتُدخل ملفاَ، وتفتح هذا وتُغلق ذاك، حتى خرجت آلاء من عند أمين فارتاحت منال نفسيّاً، وأرادت أن تخرج وراءها فقال لها أمين: "منال انتظري" فالتفت للوراء ونظرت لأمين، فقال لها: "أغلقي الباب واجلسي". وبالفعل أغلقت الباب وجلست، فسألها:"ما هذا الذي فعلتيه؟"

- لم أفعلْ شيئاً ما بك؟
- لا تحاولي الإنكار فأنا أفهم تصرّفاتكِ جيّداً... من ماذا تخافين؟ لــــمَ كلُّ هذا القلق؟
- أشعر أنَّ آلاء تحوم حولك، لقد سمعتها قبل أيّام تقول لإحدى الموظّفات أنك تُعجبها، وهي تهتُّم بأمرك.
- لا تخافي مهما حاولتْ فقلبي لن يتّسع لأحد آخر بعد الآن، ولن تأخذني منكِ، وأنا من الأشخاص الذين لا يستطيعون تبديل حبِّهم بسهولة، فمن يدخل قلبي يصعُب أن يخرج، يا منال كوني واثقة من علاقتنا.
- كيف سأكون واثقة وأنت لا تُشعرني بحُبّك! وليس لك وقت فراغ لنخرج معاً، ونجلس بهدوء ونتحدّث عن تفاصيل حياتنا المستقبليّة، وكل ما يهمُّ الآن العمل والمشاريع المعماريّة فقط وهذا كلُّ همِّــــك، أين الحبُّ والرومانسيّة والأحاسيس...أوَ ضاعتْ وفُقِدتْ هي الأخرى بعد

أنْ غابت ريم؟ أنت أنانيّ يا أمين.

- يا منال، لا تكوني قاسية عليَّ لهذه الدَّرجة؟ هل أنا سيّء هكذا ؟!
- لا أعرف راجع نفسك، أحكمْ أنت، أنا متأكّدة لو أنك الآن مع ريم لما كان الحبُّ بينكما هكذا، ولما كان كلُّ هذا الجفاف ولا اختلقتَ الأعذار، لهربت من العمل لرؤيتها.
- اتّــفقنا ألاّ تذكري ريم أمامي، كما أنَّ شرطُكِ كان أن لا أقارنكِ بريم أو أذكُرها أمامكِ، أليس كذلك؟ لــمَ أنتِ الآن تُقارنين الأمور وتذكرينها؟
- لا أعرف... لأنني مللتُ وأريد أن أضعك بالصّورة الحقيقيّة، وأذكّرك بأنك مرتبط بواحدة اسمها منال ولا يربطُنا العمل وحسب، بل هناك شيء أسمى من ذلك.
- ما رأيكِ أن نذهب بعد الدّوام لتناول العشاء سويّاً اليوم؟ ونتحدّث أكثر عن تفاصيل حياتنا.
- تتذكّر فقط عندما أُذكّرك وتطلب اصطحابي إلى مكان ما، لكن أنت من نفسك هذا مستحيل! وقل لي عن أيِّ دوام تتحدّث؟ أنت حضرتك تبقى بالمكتب لتنهي أعمالك ولا تغادر إلا بعد الحادية عشرة حاليّاً.
- سأغادر المكتب السّاعة التّــاسعة ونذهب سويّاً، لن أتأخر بالعمل اليوم، وسنقضي سهرة جميلة حتّى آخر اللّيل، والغيرة هذه ابتعدي عنها وأخرجيها من رأسك.
- الغيرة؟ أيّ غيرة...؟!
- أنتِ تغارين من العمل... ومن آلاء... ومن ماضي ريم، أليست هذه غيرة؟
- هكذا يا أمين؟! لا أريد الذّهابَ معك إلى السّهرة اليوم، اذهب وحدك أو مع آلاء أو هل أقول لك: اذهب مع ماضي ريم.

وخرجت منال من مكتب أمين غاضبة وأغلقت وراءها الباب.

فقال في نفسه: "لــمَ كلُّ هذه الحساسيّة لا أدري! إنها غير طبيعيّة اليوم، أو ربّما أصابتها عدوى حساسيّة مثل ريم تماماً".

في نهاية الدّوام لحق أمين بمنال وقال لها:"لــمَ خرجتِ مسرعة، ألم نتّفق أن نترافق للعشاء؟"

- ألم أخبرك أن تذهب وحدك؟
- هيّا كفى يا منال، لا يجوز أن تغضبي مني، لا نريد أن نجعل تفاهات الأمور تؤثّر على علاقتنا.

فأجابته باستهزاء وعصبيّة: "والله... إذا كنتَ ترى أن هذه تفاهات فاعذرني لأنَّ عقلي صغير وأرى أنَّ الموضوع معقّد وكبير"

- لا يا منال، سنحلُّ كلَّ الأمور الآن بالسّهرة.
- كيف سنحلُّ الأمور؟ وأنت ترى إهمالك لي وابتعادك عني وانشغالك بالعمل لدرجة كبيرة تفاهات!
- لا أقصد، هيّا أرجوكِ لا ترفضي... لنقضي وقتاً جميلاً ولطيفاً.
- إذا وعدتني أننا اللّيلة سنُحدّد موعد الزّفاف سأرافقك بالسّهرة.
- موافق... هيّا بنا.

توجّه أمين وخطيبته منال لمطعم على جبل عالٍ يتميّز بجلسته الهادئة وجوّه اللّطيف، هذا

بالإضافة إلى المناظر الرّائعة السّاحرة، حيث تتلألأ أضواء المدينة من بعيد، ويبدو كأنهما ينظران إلى قطعة قماش سوداء مرصّعة بالماس، ممتدّدة على أطراف السّماء، والقمر مكتملاً وكأنه وِسامٌ على صدر الزّمن.

طلبا طعاماً شهيّاً، لكن بعدما فرِغا من العشاء طلب أمين كوبين من الشّاي... ثمّ بدأ هو كلامه حيث قال لمنال: "ماذا يعني الحبّ؟ سؤال سألتيني إيّاه مرّة أنتِ أيّام الجامعة، وأجبتكِ عليه بصدق، أما أنا فلم أسمع وجهة نظركِ حول الموضوع "

فأجابته من دون أن تفكّر بالجواب: "الحبُّ حفظ الحبيب في صندوق من الذّهب، خوفاً عليه من أيِّ شيء على الأرض".

نظر لها أمين نظرة استغراب من الجواب، ولم يُعجبه جوابها، فقال لها: "أليست هذه قسوة على الحبيب وحرمانه من متطلّبات حياته؟".

– لا أبداً يا حبيبي؛ لأني سأعمل جاهدةً أن أوفّرها له أنا وحدي، ولن يحتاج لغيري لأنني أخاف عليه، فسيبقى بأمان هكذا.
– لكن ربّما من شدّة خوفكِ عليه، ستقتلينه.
– لا مستحيل...! فالحبيب لا يؤذي محبوبه.
– أنتِ تؤذينه من دون أن تشعري.
– لا اطمئن، أنا واعية لكلِّ تصرّف أفعله، وأشعر بكلِّ الأمور من حولي.
– بهذا أفهم أنَّ تصرّفكِ وخوفكِ الشّديد هو ردّة فعل أساسها الغيرة على الحبيب؟
– لا أنكر أني أغار بحدود، ويجب عليك أنتَ ألاّ تجعلني أغار أو أشعر بشيء من هذا القبيل.
– آه يا منال...! كم أنتِ مُـــتْعِبة... أخبريني متى تجدين نفسكِ مستعدّة للزّواج؟
– أترك الموضوع لك، فأنت صاحب السّيادة.
– أفهم من ذلك أنكِ على استعداد في أيِّ وقت؟
– نعم، لكن أنت تحرّك قليلاً.
– طيّب.... ما رأيكِ بعد شهر من الآن؟
– حقّـــاً...! أنا موافقة، شهر واحد يكفيني سأبدأ خلال هذا الأسبوع بالبحث عن فستان زفاف رائع وأشتري بعض الحاجيّات الضروريّة، وعليك أنت فقط أن تحجز قاعة جميلة ونتّفق مع المصوّر.
– حسناً اتفقنا، غداً سأبدأ اتّصالاتي للتّجهيزات.
– وعندما تحجز قاعة وتُحدّد تاريخ الزّفاف، سنختار سويّاً بطاقات الدعوة لنوزّعها على أقاربنا قبل موعد الفرح بعشرة أيام تقريباً.
– أتعلمين، لا أريد سوى بضع بطاقات تُعدُّ على الأصابع.
– أيُعقل؟
– نعم، بطاقة لخالتي وزوجها والباقي للأصدقاء والجيران، فلا أقارب لي وأنتِ تعلمين ذلك.

***

أما حفل زفاف هاني وديالة، كان حفلاً جميلاً يمتاز بالهدوء والرومانسيّة والبساطة، لقد أقاموه في قاعة جميلة وبسيطة في نفس الوقت، فحضر الحفل جميع الأصدقاء، كانوا سُعداء جدّاً بهذه المناسبة وباركوا لهما على زواجهما.

وبعد حفل الزّفاف أخذ هاني عروسه وسافر بها إلى إسبانيا؛ ليقضيا شهر عسل مميّز وجميل، وقد شجّعتهما ريم على زيارة إسبانيا وأخبرتهما كم هي جميلة وتستحقُّ الزّيارة، ودعتهما إلى بيتها أيضاً ليقضيا يوماً عندها.

بدأت منال بتحضيرات فعليّة لحفل زفافها، وكانت كلَّ يوم بعد دوامها تذهب مع والدتها للبحث عن فستان زفاف مميّز ومبهر، تريد أن تظهر بأبهى حُلّة، وتُثبت للناس أنّها هي الفائزة والحائزة على أمين بالنّهاية، وتحاول التّفاخر أمام جميع الصّديقات والزّملاء.

بالفعل اشترت فستان زفاف جميل ومبهر بتصميمه، وباهظ الثّمن أيضاً، واختارت البطاقات، وحضّرت كلّ الأمور الواجب تحضيرها، وقامت بنقل كلّ أغراضها وملابسها إلى بيت أمين، من حقائب مختلفة منها الكبير والصّغير، لكنّها رفضت ترتيب أغراضها وملابسها بالغرفة، فاستغرب أمين وقال لها: "ألم تُرتّبي الملابس داخل الغرفة؟ لماذا كلُّ حقائبكِ هنا في غرفة الجلوس؟"

فقالت له: "بصراحة يا أمين لن أضعهم في هذه الغرفة، ولن أرتّبَ ملابسي هنا".

– لماذا؟ ما بكِ...!

– من فضلك قبل أن نتزوّج أريد غرفة نوم جديدة.

– غرفة نومي هذه جديدة يا منال ولم يجرِ عليها الزّمن بعد، وهي من التّصاميم الحديثة والمميّزة، كما أني اشتريتها بمبلغ محترم.

– عمرها خمس سنوات، ولم يجرِ عليها الزمن؟!... (أجابت منال باستهزاء).

– أخمسُ سنوات مدُّة طويلة؟ ما يزال أثاثها وفرشها جديدين، وأنا وحدي الذي أنام عليها فهي كما هي على حالها، لم يحصل لها شيء، إضافة أني أحبّها وأرتاح بها.

– لا أستعمل ولا أدخل غرفة كانت من الممكن أن تكون لفتاة غيري وربّما نامت عليه يوماً.

غضب أمين، لكن حاول أن يتمالك أعصابه وقال: "هي الآن غرفتكِ، وإن كنتِ تقصدين ريم فهي لم تنم بها ولم تجلس على السّرير مجرّد جلوس، من أين لكِ بمثل هذه الأفكار؟"

– ليس لي علاقة بالموضوع أريد غرفة جديدة، وإلا لن أنام هنا، أرجوك يا أمين لنبدأ حياتنا بغرفة خاصّة بنا فقط أنا وأنت، لا أريد أن تكون يوماً قد تخيّلت ريم بهذه الغرفة معك، ومن ثمَّ آتي أنا بدلاً منها، أريد شيئاً خاصّاً بي.

– يا منال لا تعودي إلى ماضٍ انتهى...انسي ريم أرجوكِ، هذا الوهم انزعيه من دماغكِ.

– من فضلك يا أمين أريد غرفة جديدة، لنذهب غداً ونشتري غرفة، اعتبرها هديّة زواجنا.

– أُوووفّ...حسناً، لكن إيّاكِ أن تطلبي تغيير أيَّ شيء آخر بالبيت، لا تعتقدي هذا بخل مني لا أبداً، لكن كلُّ شيء يعزّ عليّ وأحبّه؛ لأني اخترته بنفسي منذ أن استلمت هذا البيت وشعرتُ بالاستقلاليّة لأوّل مرّة في حياتي.

***

عاد هاني من شهر العسل، هو أسبوع عسل، لم يبقَ أحد هذه الأيام يذهبُ شهراً كاملاً، فالأشغال تنتظر صاحبها. المهم عاد سعيداً وفرحاً وذاق طعم حياة جديدة مليئة بالحبِّ والمسؤوليّة والواجبات، واليوم هو أوّل يوم له بالشّركة التي يعملُ بها أمين ومنال.

سُرَّ أمين جدّاً لوجود هاني وشعر بالفرح لأنه استلم العمل الجديد معه بهذا المكتب.

جلس هاني بمكتبه وهو يشعر بالنّشاط، فجاءه أمين وقال له: "كيف هو العمل هنا...هل أعجبك المكتب؟"

– طبعاً يا أمين، أريَح بمئة مرّة من الشّركة التي كنتُ أعمل بها، يا ليت ديالة تأتي وتعمل معنا!! ونصبح نحن الأربعة بشركة واحدة.

– ألم تقل أنَّ ديالة مسرورة بالشّركة التي تعملُ بها، ورامي يعمل هناك أيضاً، أليس كذلك؟

– نعم مسرورة والعمل يُعجبها هناك، لكن أودُّ لو تكون بقربي، وليست بقرب رامي.

– الأفضل أن يكون كلَّ واحد عمله بمكان مختلف، ليُثبتَ كلٌّ منكما جدارته بعيداً عن الآخر، هذا بالإضافة إلى الأشواق التي ستشتعل بسبب اختلاف مكان العمل والبعد، وعندها ترى أنَّ المشاعر بتجدّدٍ ونشاط مستمر.

– هل أفهم من كلامك أنَّ مشاعرك ليست بتجدّدٍ ولا نشاط لأنَّ منال معك باستمرار؟

فَوَجَّه أمين نظره للأعلى متأمّلاً السقف، يُفكّر بالإجابة، وقال بعد تنهّد: " لا أعرف!"

ذهب أمين ومنال إلى السّوق؛ لإحضار أثاث غرفة نوم جديدة، وبعد البحث الطويل والتعب، وجدت غرفة نوم أعجبتها جدّاً، فاشتراها أمين على الفور. وأخبرهم صاحب محلِّ الأثاث أنَّ غداً ستُحَمَّل إلى منزلهما...وأخذ منهما العنوان.

كانت منال بغاية الفرح لتحقيق مطالبها. وأمين قضى ليلته وهو يُفرِّغ الخزائن والأدراج من أغراضه وملابسه ووضعهم بالغرفة المجاورة، وأصبح منزله بحالة فوضى عارمة، وخالته علياء انزعجت جدّاً من تصرّفه هذا، بأنه أطاع منال بتغيير الغرفة، وبرأيها ما كان يجب عليه تنفيذ مثل هذا الطّلب، فليس له داعٍ من الأصل...، ثمَّ حاولت مساعدته بالتّرتيب، وما إن جاء الصباح حتّى بدأ العمال بفكِّ الغرفة السّابقة وتركيب الغرفة الجديدة، وبعد أن انتهوا قام أمين بتنظيف الغرفة ومسحها جيّداً من الغبار، وأعاد ترتيب الملابس والأغراض لمكانها، وقد أخذ هذا العمل منه يوماً كاملاً وكان شاقّــاً عليه ومملاً، وفي اليوم الثّاني جاءت منال لترى غرفتها الجديدة فسُرَّت بهذا الانجاز، ولم تعلم كم عانى أمين طيلة اللّيل والنّهار، وهو يُعيد تنظيف وترتيب الغرفة، وبدأت منال بإدخال حقائبها وترتيب أغراضها.

أما الغرفة السّابقة فقد طلب أمين من العمّال أن يضعوها في المخزن بالعمارة، في طابق التسوية، فهو لا يرغبُ ببيعها ولا يريد التصرّف بها، لأنها عزيزة عليه وهي أوّل غرفة اشتراها بنفسه وعلى ذوقه، وأوّل غرفة يشعر بها بالاستقلاليّــــة والحريّة....

الفصل الثامن والثلاثون

علمت آلاء أنَّ حفل زفاف أمين ومنال لم يبقَ له سوى أسبوع واحد، فشعرت بالإحباط لأنها فعلاً كانت تحبُّ أمين، وتحاول أن تجذبه نحوها وتستمليه ودائماً تدخل لمكتبه وتتظاهر بأنها تريد بعض المخطّطات أو الأوراق الضروريّة، هذه المرّة قامت باختراع حجّة لتُبقي أمين قريب منها، فدخلت لمكتبه وقالت له:"صباح الخير أيّها المهندس النشيط".

– صباح النور...(أجاب أمين وهو يُقلِّب الصّحيفة ولم يكترث لدخولها).

فتقدّمتْ آلاء عند طاولة المكتب، وقالت له: "أريد أن أطلب منك طلباً يا أمين... ممكن؟"

فنظر أمين إليها وقال: "تفضّلي"

– أريدك أن تأتيَ معي لموقع المشروع الإعماري السكنيّ رقم (١١٠).

– ولماذا أذهب إلى هناك؟

– يجب أن تزور المشروع ولو لمرّة واحدة، لترى كيف تسير الأمور.

– يا آلاء... عملكِ أنتِ كمهندسة مدنيّة مُكمّل لعملي، فعملكِ يتطّلب الدّوام بالمشروع، أما أنا فعملي داخل المكتب وحسب، ولا يَتطلّب مني الخروج للمواقع، فأنتِ تفين وتغنين عنّي.

– أريد أن أُرِيَك بعض الأمور وأتأكّد منها، أرجوك يجب أن ترافقني.

– في يوم آخر إنشاء الله، اليوم أنا مشغول جدّاً ولديّ أعمال أخرى أهم يجب أن أنهيها، كما باستطاعتكِ على المخطّطات أخذ رأيي.

– هل أقول لك بصراحة يا أمين، (كانت آلاء تُريد اختلاق أيّ حجّة ليُرافقها أمين للمشروع).

– نعم تفضّلي... قولي.

– لقد غادرت الحافلة التي توصل المهندسين، وأخذت جميع القائمين على هذا المشروع الإعماريّ، ولم أستطع اللّحاق بهم؛ لأني جئتُ متأخّرة وكانوا قد غادروا جميعاً، وأريدك أن توصلني، وفي نفس الوقت سترى المشروع بنفسك.

– ليُسامحكِ الله كيف تتخلّفين عن موعد الحافلة؟ المشروع بعيد جداً من هنا، نحتاج لساعة من الزّمن لكي نصل إلى هناك، أجميع المهندسين غادروا؟ مهندسي الكهرباء ومهندسي المياه والتّمديدات، ومهندسي الدّيكورات ألم يبقَ أحد تذهبين معه؟

– لا يوجد أحد، كلُّ المهندسين المسؤولين على هذا المشروع قد استقلّوا حافلة الشّركة، وتوجّهوا للمشروع...أرجوك يا أمين اصنع لي معروفاً، سيُخصمُ عليَّ يوم إن لم أكن موجودة.

– حسناً...أمهليني نصف ساعة فقط؛ لأنهي العمل الذي بين يدي وسنخرج.

– موافقة... وأشكرك جدّاً على تعاونك معي، سأنتظرك في مكتبي.

وخرجت آلاء مسرورة؛ لأنها أقنعت أمين أن يُرافقها للمشروع، وستغيظُ منال بأنهما سيخرجان سوياً، وبهذا سيُجنُّ جنونها عندما تراهما معاً.

خرج أمين من مكتبه ليذهب لمكتب آلاء، ويُــخبرها أنه جاهز للذّهاب للمشروع، فرأته

منال وقالت له: "إلى أين يا أمين؟"

- سأخرج للمشروع رقم (١١٠) لألقي نظرة عليه، وعندما أعود كوني مستعدّة لنتناول طعام الغداء سويّاً، وأرجوكِ دوّني لي جميع الأسماء والأرقام للأشخاص المتّصلين بي أثناء غيابي.
- حاضر يا حبيبي، لا تقلق.

وخرج أمين هو وآلاء معاً، لم يعجبها طبعاً منال خروجهما كثنائي، وقالت في نفسها: "لـــمَ لم يخبرني أنه سيذهب هو وآلاء؟ ولَمَ آلاء للآن لم تذهب للمشروع؟ هي دائماً تذهب بحافلة الشركة مع باقي المهندسين في الصّباح الباكر...هذا غريب!

استقلَّ أمين وآلاء السيّارة متوجّهين للمشروع، وأوّل عشر دقائق كان الاثنان صامتين، فقالت له آلاء: "لـــمَ أنت صامت هكذا؟ هل تُعاني من شيء؟

فقال لها أمين: "هل يجدرُ بي أن أتكلّم في كلِّ الأوقات لأثبت أنني لا أعاني من شيء؟

- كلا...لا أقصد ذلك، لكن هل يوجد سبب لسكوتك؟
- أبداً، أنا إنسان بطبيعتي لا أحبُّ التكلّم كثيراً، بل أفضّل الاستماع لتحقيق الاستمتاع، وإن كان لديكِ كلام فحدّثيني به... تفضّلي.
- ما رأيك أن نفتح المسجّل لكي نستمع لبعض الأغاني، فالطّريق طويلة ومُملّة.
- حسناً... لكِ حريّة الاختيار.
- ما هي الأغاني التي تحبُّ أن تستمع لها يا أمين؟
- لايوجد شيء محدّد...أفضّل سماع الموسيقى الهادئة.
- حسناً... سأختار لك أغنية على ذوقي، فأنا لديَّ موسوعة موسيقيّـــة في حقيبتي.

وبالفعل فتحت آلاء حقيبة يدها، كانت مليئة بسيديّات الأغاني المختلفة الحديثة، وبقيت طيلة الطّريق تضع سي دي وتُبدّل سي دي، وتُحدِّث أمين وكأنها تُحدِّث نفسها حتّى وصلا المشروع، فأخذا يتجوّلا بالمشروع لإلقاء نظرة على جميع الأمور، وبدأ من الطّابق الأرضيّ وأصبحا يصعدان طابقاً طابقاً، وكان المشروع يعجُّ بالعمّال الذين يعملون بجدٍّ وكفاح، ويحملون الطّوب والحجارة الكبيرة على ظهورهم، وآخرون يعملون بالحديد وبعضهم يقوم بخلط مواد البناء لعمل ما يُسمّى الصبّة، والكلُّ مشغول بعمله، جميعهم متعاونون على أرض مسرح البناء؛ لينتج بالنّهاية صرح كبير ناتج عن عرق وأعمال هِمَم الشّباب وعضلات أكتافهم وبهذا سيشهدُ كلُّ حجر المجهود الذي قام به شباب الهِمَم.

وصل أمين وآلاء للطّابق الرّابع وبقي طابقان، كانت آلاء تخبر أمين عن جماليّات هذا المكان وعن روعة المشهد من نافذة مُطلّة من هذا الطّابق، وما أن اقتربت من شبه النافذة غير المكتملة وأخرجت رأسها إذ بحجرٍ كبير يسقط عليها من إحدى أيدي عمّال البناء، الذين كانوا ينقلون الطّوب للأعلى، مما أدّى إلى سقوط آلاء من الطّابق الرّابع إلى الأرض.

صرخ أمين:"آلـــــــــــــــاء......" كان الخوف والقلق يغزوان قلبه عليها من هول المنظر الذي حُكم به أمامه، فقدرها أن جاء أجلها هذه الفتاة التي كانت تبتسمُ وتتحرّك قبل ثوانٍ، فتسقط بلا حِراك جثّة هامدة على مسرح المشروع، لتحوّله إلى مسرح جريمة.

ركض أمين للأسفل ليطمئنَّ عليها وهو يصرخ بأعلى صوته على العامل المهمل:"ماذا فعلت أيها الأبله...لقد سقطت المهندسة آلاء... يا جماعة...آلاء"، فتجمّع الجميع حول جثّة آلاء ينظرون إليها، فوصل أمين إليها ومسكها فوجدها قد انتهت، وقد توقّفَ الزّمن عندها، فلا صراع ولا سباق مع الزّمن لها بعد الآن، خاف أمين وتوتّر وبدأت عيناه بالاحمرار، وكانت يداه ترتجفان، ويشعر أنه لا يستطيع السّيطرة على نفسه ولا على دقّات قلبه التي أخذت تتسارع بشدّة دون أن تهدأ...

وتمَّ نقل آلاء إلى المستشفى بسيّارة الإسعاف، ومن ثمَّ تمَّ إبلاغ أهلها بهذه الفاجعة المؤلمة جدّاً. أما أمين فعاد إلى مكتبه والحزن يطفح من قلبه، وأخبر منال بالخبر المفجع المؤلم، واعتذر عن دعوته لها على الغداء، تألّمت منال على فراق زميلتها بالعمل وشعرت بالأسف الشّديد.

قرّر مدير الشّركة الهندسيّة تعطيل الدّوام لمدّة ثلاثة أيام؛ حداداً على زميلتهم المتوفّاة في هذا الحادث الأليم المؤسف وأثناء أدائها للعمل، وأغلقت الشّركة بابها فور سماعها الخبر، فأوصل أمين منال لبيتها وعاد لبيته حزيناً، ومنظر آلاء لا يذهب عن ذهنه ولا مخيّلته.

***

جذّابة جميلة مذهلة... بدت منال بفستان الزّفاف، وبالفعل من يراها يقول هي أجمل عروس، لا بل هي عروس هذا العام، جلست في غرفة الضّيوف بعدما تجهّزتْ تنتظر فتى أحلامها لكي يخطفها وينطلقا لقاعة حفلة الزّفاف، وصل أمين بزفّة شبابيّة جميلة مع أصدقائه لبيت منال، فاندُهش بجمالها وسحرها، وقام والد منال بتسليمها لأمين وركبا بالسيّارة المزيّنة بالورود، وتوجّها مع جميع الأهل لقاعة الاحتفالات حتّى وصلوا إلى هناك، كان عند الباب فِرقة تنتظرهما؛ لتزفّهما بالطّبول والدّفوف والمزامير تعزف ألحاناً رائعة، مفرحة للقلوب ومُبْهجة، وأخذوا يُهنّئون العروسين وأهلهما بهذا الفرح السّعيد، وبدأ الاحتفال وكانت منال بغاية الفرح والسّرور، بل هي لا تُصدّق أنها هي عروسة أمين وصاحبة النّصيب، ولم تتوقّع يوماً أنَّ ريم ستتركه، أما أمين فكان يشعر بالسّعادة لكن لا يظهر عليه ذلك وبقي محافظاً على اتّزانه وهدوئه، ومن ينظر إليه لا يعرف إن كان سعيداً أم لا؛ لأنَّ ملامحه كانت لا تُعبِّر عن شيء في ذلك الوقت، فقط مجرّد ابتسامة لطيفة للمدعوّين بزيٍّ البدلة السوداء الأنيقة.

انتهى حفل الزّفاف وكان على ما يرام، فأخذ أمين عروسه وتوجّه للبيت، وعند وصولهما للمنزل جلسا في غرفة الجلوس، يتأمّل كلٌّ واحدٍ الآخر بصمتٍ وتبسّم قليل، فقال أمين: "هل تُريدين شُرب شيء؟"

فأجابته منال: "كوب ماء من فضلك؟"

فذهب أمين إلى المطبخ وأحضر لها كوب ماء، فشربت منال ؛ لأنها كانت عطشى فعلاً، ثمَّ قالت له: "هل أطلب منك طلباً يا أمين؟"

- طبعاً تفضّلي...

- ما رأيك أن نُلغي رحلة شهر العسل فأنا أريد أن أقضي أيام العسل هنا في بيتنا، من دون أن نخرج إلى أيِّ مكان.

– لن أوافق لأني أشعر بملل شديد وروتين قاتل، و أرغب بتجديد الهِمَم والنّشاط، كما أني مللت الجلوس بالبيت، وليس بالشيء الجديد بالنسبة لي.
– لا يا أمين لن أشعرك بالملل أبداً وأنا بقربك، سأكون مسرورة إن بقينا هنا.
– ستكونين مسرورة أكثر بجزر الهاواي، لقد حجزنا ودفعنا المال وانتهى الموضوع، وأنا لديّ رغبة بزيارة هذه الجزر وقضاء وقتاً جميلاً معكِ هناك، كما أنّ البيت لن يهرب سنعود إليه ونقضي باقي عمرنا فيه، بصراحة لا أفهم الدّاعي لمثل هذا الطّلب الغريب!

ثمّ ابتسمت منال وقالت: "هل تسمح لي أن أذهب وآخذ حمّاماً وأبدّل ملابسي... ثمّ أسمح لك بدخول الغرفة يا حبيبي؟"

ضحك أمين وقال:"موافق، سأنتظركِ هنا في غرفة الجلوس خذي راحتكِ "

وبالفعل أخذت حمّاماً ساخناً وأعادت حيويّتها ونشاطها، وارتدت ملابساً مثيرة تليق بهذا الحدث، وجلست بالسّرير، والخجل يُلوّن وجهها، وغطّت نفسها بالغطاء النّـــاعم، ثمَّ نادت على أمين بصوت عالٍ: "هيّا يا أمين...الآن دورك اذهب وخذ حماماً" فقام وتوجّه للحمام...وعندما انتهى جلس أمينٌ بالسّرير بجانب منال، وأخذا يتحدّثان حوالي ساعة كاملة، إلى أن أصبحت الأجواء بينهما مرنة وتلاطفٌ متبادل، ومداعبة هادئة، مع أنهما في غاية التّعب والإرهاق من هذا اليوم الحافل، إلى أن وصلا بعد ذلك لفكِّ الشّيفرة وحلِّ مسألة الزّواج في هذه اللّيلة، التي تؤرّخُ عند كلِّ المتزوّجين.

حياة جديدة تنتظر هذين الشّخصين المقبلين على الحياة الزوجيّة بكلِّ صدر رحب، إلى أن انقضى أسبوع العسل هذا، كان أسبوعاً جميلاً ولا أروع. كانت منال بغاية السرور بعد هذه الرّحلة المميّزة، وقد قدّمت كلّ الحبِّ لأمين لإسعاده وجعله ينسى ريم وأيامها، وأمين كذلك لم يُقصّر بحقّها، بل قدّم لها الحبّ على طبق من ذهب، ومن دون أن يذكر ريم أمامها، ويحاول إسعادها بأيّ طريقة تُفرح قلبها.

عاد العروسان بهمّة جديدة للعمل ونشاط مختلف، إلى أن جاء اتّصال هاتفيّ عكّر صفو منال وأغضبها...لقد اتّصلت ريم من إسبانيا تريد أن تكلّم أمين فقط لتطمئنّ عليه، فطبعاً منال التي ردّت على الهاتف، قالت لها إنَّ أمين مشغول الآن، واعتذرت لها لأنه لا يستطيع الردّ عليها، فقالت لها ريم: "لا مشكلة سأكلّمه فيما بعد"، مع أنَّ أمين لم يكن مشغولاً، وكان بإمكانه الردّ لكن لم تخبره منال عن ذلك الاتّصال، وبعد ساعة عادت ريم واتّصلت فردّت منال كالعادة، وقالت لها: "انتظري سأرى إن كان أمين يريد أن يكلّمكِ"، فذهبت منال لمكتبه وقالت له: "ريم من إسبانيا على الخطّ، هل أحوّل مكالمتها إليك؟"

قال لها أمين وهو مبتسم فرح: "أحقا...! طبعاً...طبعاً حوّليها "

فغضبت منال من ردّة فعله، وتفاجأت أنه فَرِح جداً لمجرّد سماع اسم ريم.

– ألو... مرحباً يا ريم؟
– أهلاً يا أمين، كيف حالك يا عزيزي؟ اشتقتُ إليك...
– أنا جيّد والحمد لله، كيف حالكِ أنتِ، وكيف زوجكِ معكِ؟

– أنا جيّدة والدّكتور عمر رجل رائع وطيّب، لكن لا يستحقُّ واحدة مثلي فهو مظلوم معي.
– لا يا ريم، لا تُشعري نفسكِ بالذّنب لأنك لا تحبينه، سيأتي الحبُّ يوماً ما.
– قالت لي منال بأنكما تزوجتما منذ أسبوعين، مبروك يا أمين، أنا مسرورة من أجلك وغير مسرورة.
ضحك أمين وقال: "كيف تكونين مسرورة وغير مسرورة...أفهميني؟"
– مسرورة لأنك تزوّجت وبدأت بتغيير الماضي، وغير مسرورة لأنَّ العروس كانت زوجة أخرى تلك التي حظيتْ بقلبك.
– يا ريم رغم حبّي وإخلاصي لمنال...لكن أنتِ مازلتِ تحظين بمكانة في داخلي.
– أتسمح لي يا أمين أن أكلّمك من فترة لأخرى حتّى أطمئنَّ على قلبي معك؟
– أتمنّى ذلك، لكن أخشى أن تغضب منال.
– كيف هي منال معك؟
– تحاول إرضائي بكلِّ الطّرق، وكنت خائفاً أن أظلمها لكن للآن أشعر أنها راضية ومسرورة، بل الأمور تسير بتفاهم مستمر.
– جيّد، إلى اللّقاء الآن لا أريد أن أُعطّلك أكثر.
فور وصول أمين ومنال للمنزل بعد انتهاء الدّوام، بدأت أولى المشاحنات، كانت منال غاضبة والغيظ يملأ قلبها، فبدأت تحضير الطعام بعصبيّة، فلاحظ أمين عليها ذلك فقال لها: "ما بكِ يا منال؟ أشعر أنَّ مزاجكِ سيّء نوعاً ما!"
– لا أعرف، اسأل نفسك؟
– هل هناك ما يزعجكِ منّي؟
أدارت بوجهها عن أمين وأكملت تقطيع الخضار، ولم تُجبْ على سؤاله، فقال لها أمين: "يبدو الموضوع كبيراً، حتّ أنك لا تريدين النّظر إليّ ولا الردّ على سؤالي!" فأجابت بعصبية: "طبعاً كبير، لأنك جرحت مشاعري ولم تهتم لي أبداً".
– متى يا منال؟ لم ألحظْ ذلك.. أو ربّما لا أقصد، أرجوكِ أخبريني.
– عندما سألتك هل أحوّل لك مكالمة ريم؟ سُرِرْتَ وأشرق وجهك، وقلت لي طبعاً طبعاً، أنا لم أرَ وجهك فرحاً لهذه الدرجة حتى في يوم زفافنا.
– لماذا تحسبين الأمور هكذا، أنا فقط تفاجأت بها ولم أتوقّع هاتفها أبداً، لذا فَرِحْتُ... كما لا تنسي يا منال أنتِ الآن زوجتي، ولا علاقة لي بريم هي مجرّد ماضٍ وصديقة قديمة.
– أقسم لي بالله أنك نسيت حبّها، وأني الوحيدة في قلبك.
فصمت أمين وهو ينظر لمنال ومسك يدها وقال لها: "أنا أحبكِ يا منال، لا تجعلي مثل هذه الأمور السّخيفة تُعكِّر صفو حياتنا، انسي ريم كما اتّـــفقنا سابقاً"
– لم تفعل كما طلبت منك ولم تقسم بالله أنك نسيت حبَّ ريم.
– يا حبيبتي بصراحة، أنا ما زلتُ أحبّها لن أخدعكِ ولن أقسم بالله كذباً، لكن هذا لا يهم؛ لأني أحبكِ أيضاً، وأقسم بالله إني أحبكِ وأخاف عليكِ، وأريدكِ دائماً معي وبقربي.

– لا أفهم هذا، كيف لك أن تحبّ اثنتين في نفس الوقت، أنت مجنون، كيف تسمح لقلبك أن يعشق اثنتين؟

– لا أرى أنَّ الموضوع معقّد كما تتصوّرين؛ لأنَّ لكلِّ حُبٍّ حجرة مختلفة في قلبي، وأستطيع أن أحبّ أخريات إن أردت ذلك، فأنتِ مثلاً تحبّين أملكِ وأباكِ وأخاكِ وتحبّينني، وكلّه حبٌّ وبقلب واحد.

فأجابته باستهزاء لأنها ما زالت مغتاظة: "لا يا عزيزي، كلُّ هذا حبّ لكن بأنواع مختلفة، حبُّ أمي يختلف عن حبِّ أخي يختلف عن حبّك، فكلّ حبٌّ له نوعيّة خاصّة به، لكن أن تحبَّ حبّين من نوع واحد فهذا لا يجوز وليس عدلاً".

– من قال لكِ أنه من نوع واحد؟ حبّكِ يختلف تماماً عن حبّي لريم، فأنتِ زوجتي وعلاقتي بكِ الآن أقوى وأقرب من العلاقة التي كانت بيني وبين ريم، نحن متزوّجان، أما أنا وريم بقيت علاقتنا سطحيّة، حتّى وإن كنّا قد عقدنا القِران لكن لم تكن مثل علاقتنا أنا وآنتِ الآن مفعمة بالحيويّة وبيننا معاشرة... كما أنَّ حبّها مجرّد ماضٍ، وأنتِ الحاضر والمستقبل.

– إذن لـــمَ تبقى متمسّكاً بحبِّ الماضي؟ يجب أن تنساه.

– يا منال أنا أحاول ذلك لكن أمهليني، مع الأيام سأنسى ذلك وسيبقى مجرّد ذكرى عابرة...لا تعودي مرّة أخرى تسأليني هل أحبُّ ريم أم لا، انسيها أنتِ لأنساها أنا، وعودي لاتّفاقنا منذ البداية.

– إذا اتّصلتْ مرّة أخرى سأخبرها أنك بالخارج، ولن أجعلك تكلّمها.

– كما تشائين...وصمت. ثمَّ قال لها: "سأذهب لأبدّل ملابسي وأعود لأساعدكِ في إعداد الطعام".

– أشكرك.

خرج أمين من المطبخ ليذهب إلى غرفته ويبدّل ملابسه، فوقف بغرفة الجلوس أمام نبتة ريم– قلب عبد الوهّاب– مسك ورقة منها وأخذ يتذكّر ريم، وقال في قلبه للنّبتة: "تُريدني منال أن أنساكِ يا ريم وأخرجكِ من حياتي ومن قلبي، أعتقد أنَّ هذا صعباً، لكن يجب أن أحاول" وذهب للغرفة.

صباح اليوم التالي أرادت منال إخراج أيَّ شيء يتعلّق بريم خارج المنزل، فحملت نبتة ريم ووضعتها عند باب المنزل من الخارج، ودقّت على الخالة علياء ففتحت لها الخالة الباب وقالت لها: "أهلاً يا منال، كيف حالكما اليوم؟"

– الحمد لله بصحّة جيّدة، من فضلكِ أريد أن أعطيكِ هذه النّبتة لتعتني بها أنتِ، أنا لا أحبُّ النّباتات في منزلي فلديّ تحسّس.

– النباتات جميلة وتُضفي جوّاً رائعاً بالمنزل، كما أنَّ هذه النبتة عزيزة على أمين ربّما يحزن إذا أخرجتيها.

– ستكون النّبتة عزيزة عليه أكثر من زوجته؟! إذا كان يحبّني يجب أن يخرجها من البيت، لأني أنا لا أريدها.... أتحسّس من النباتات!

- لا أعرف... هاتِها سأحتفظ بها عندي، وفي حال أنه أرادها ليأتي ويأخذها.

فردّت منال بغضب: "إذا أعادها إلى البيت تأكّدي أنني سأرميها في الشّارع"

ودخلت منال لبيتها وأغلقت الباب، فوجدت أمين قد استيقظ وهو بالمطبخ يُعدُّ القهوة، فقالت له: "صباح الخير يا حبيبي".

- صباح النور، كيف أصبحتِ؟
- جيّدة.
- سمعتكِ تتحدّثين من الباب مع خالتي، هل هناك شيء؟
- لا... لماذا تسأل؟
- لأنّ الوقت مبكّر جدّاً، وغريب أن تلتقي بخالتي في هذا الوقت من الصّباح!
- لا تقلق، هيّا لنشرب القهوة ونبدّل ملابسنا للعمل.

فأخذ أمين القهوة وتوجّه لغرفة الجلوس فسقط نظره على الطّاولة التي كانت عليها النبتة، فنادى منال بصوت عال، فجاءت منال تركض وقالت له: "ما بك لَم تنادي هكذا؟"

- أين النّبتة التي كانت هنا على هذه الطّاولة؟
- لقد أعطيتها لخالتك لتعتني بها هي؛ لأننا طيلة النّهار غير موجودين بالبيت فمن يعتني بها؟
- ما هذا التصرّف الأبله؟! وهل النّبتة تحتاج لأحدٍ يهتمَّ بها طيلة النّهار؟ما بكِ يا منال، ماذا جرى لعقلكِ؟ أتحتاج النّبتة لأكثر من كوب ماء كلَّ ثلاثة أيام وضوء متوفّر؟ لا أفهم!
- بصراحة لا أريدها في بيتي.
- ماذا؟
- نعم، أنا حرّة التصرّف في بيتي ولي الحق بإزالة أيَّ شيء لا أرغب به في البيت.
- إلاّ خصوصيّاتي، لا تستطيعين التدخّل بها، غرفة النوم التي لم تعجبكِ غيّرتها من أجل إرضائكِ مع أنها عزيزة عليَّ، والآن ستبدئين بأغراض المنزل واحداً واحداً؟
- صدّقني يا أمين إذا أعدتها سأرميها خارجاً، ويجب أن تتخلّص منها لتنسى ريم، ألم تعدني بذلك؟ دعها عند خالتك وهي ستعتني بها، يا أمين هي مجرّد نبتة لا تجعلها تُعكّر صفوَ حياتنا.
- لأنها مجرّد نبتة سأعيدها ولا تبالغي أنتِ بالأمر، ولا تضعيها في بالكِ.
- إذا أعدتَها للبيت ستُثبت لي أنك تحبُّ ريم أكثر مني، وتهمّك أكثر من زوجتك.
- قلت لك مئة مرة لا داعي لذكر ريم، وكلُّ مرّة ندخلها في كلِّ المواضيع...ولاحظي أنكِ أنتِ التي تُقارنين وليس أنا، وأنتِ التي تحاولين نبش الماضي بدلاً من أن تنسيني إياه، وفي النهاية تقولين يجب أن تنسى ريم هذه سخافات! هيّا بدل هذا النقاش العقيم اذهبي وبدّلي ملابسكِ لكي لا نتأخّرَ عن العمل.
- اذهب وحدك للعمل اليوم لا أريد مرافقتك، ولا حتّى رؤيتك...سأذهب لآخذ قسطاً من الرّاحة عند أمي، وعندما تعود في المساء تعال لترجعني للبيت.
- هكذا يا منال؟ كما تشائين افعلي ما يحلو لكِ، لكن فكّري من المخطئ بحقِّ الثّـــاني.

وبدّل أمين ملابسه وخرج للعمل، لكن قبل أن يغادر العمارة طرق باب خالته وقال لها: "يا

خالتي احتفظي بالنّبتة ولا تجعلي منال تأخذها".

فقالت له الخالة: "يا أمين إذا كانت النّبتة تسبّب لمنال الغيرة وتُعكِّر صفو مزاجها، لا تعطيها أهمّيّة لهذا الحد، أنت الآن متزوّج وريم انتهى موضوعها، فزوجتك أولى بهذا الحبّ، أما آن لك أن تنتهي من هذه السّخافة وتُـكبّر عقلك؟!"

– سخافة! يا خالتي صدّقيني لا أهتم بالنّبتة بطريقة ملحوظة، كل ما هنالك أني أضع لها الماء فقط، لكن ما يضايق منال هو أنني اهتمُّ بشيء يخصُّ ريم ويذكّرني بها، ومنال تريد أن تمسح ريم من ذاكرتي تماماً وهذا مستحيل...والنّبتة مجرّد ذكرى طيّبة من ريم، وأنا وعدتها أن أعتني بها مدى الحياة إخلاصاً للحبِّ الذي كان بيننا، هذا أقلُّ شيء نستطيع أن نقدّمه لأنفسنا، وإكراماً لشيء كان يجمع بيننا يوماً ما وقد مضى. ومنال هي التي تحظى بالحبِّ وبكلِّ شيء الآن، لا أعرف لـــمَ تتصرّف هكذا كأني سأعود لريم يوماً، أو كأنها هنا وسأذهب لأتزوّجها!

– حاول أن تثبت لها بأنك تحبّها بكلِّ الطّرق الممكنة لتتأكّد من ذلك ولا تعود تسألك عن ريم أو تهتمّ للموضوع.

– آه...يا خالتي الله أعلم كيف أعاملها، أنا لا أُقصِّر بحقّها، وعلى كلٍّ سأسعى جاهداً لأثبت لها ذلك، والآن إلى اللّقاء تأخّرت على عملي.

فور خروج أمين إلى عمله توجّهت منال لخزانته، وفتحت الدّرج الخاصّ بأغراضه الشخصيّة، وقالت في نفسها: "لن أبقي لك يا أمين أيَّ شيء داخل الدّرج يُذكّرك بريم. يجب أن ينتهي كلُّ شيء بينهما، حتّى لو غضب مني سيعود ويرضى بعد ذلك" فبدأت تُخرج الأغراض بترتيب لتحاول إرجاعها كما كانت دون أن يشعر أمين أن أحداً فتح درجه، وصارت تبحث عن أشياء تخصُّ ريم أو تذكّره بها، فوجدت ثلاث صور تظهر فيها ريم، الأولى صورة جماعيّة لكلّ الأصدقاء ومع ذلك أخذتها وأتلفتها لأنَّ ريم تظهر فيها بشكل واضح، والثّانية صورة لأمين وريم يجلسان معاً بالاستراحة وطرف هاني يظهر أيضاً معهما، التقطها أسامة مرّة لهما ومنال تتذكّر ذلك الموقف جيّداً... فأتلفتها هي الأخرى، أما الصّورة الثّالثة فهي صورة شخصيّـــة صغيرة لريم فأتلفتها وهي غاضبة، وقالت: "لَمِ يحتفظ بهذه الصّور وقد أصبح زوجاً لامرأة أخرى....ياله من مخادع!" وأكملت منال البحث بين الأوراق والدّفاتر الموجودة في الدّرج، فتناولت دفتراً كان من دفاتر المحاضرات الجامعية لـــمَ يحتفظ أمين بدفتر الجامعة وقد تخرّج وانتهينا؟

فأخذت تقلّب الدّفتر حتى وصلت لآخر صفحة فيه مكتوب عليها: "أيا أسيراً مكبّلاً بالدّموع... قلبي من الفراق موجوع...موقوف عن الحبِّ وعن الرجوع....."

شعر مكتوب لريم!! لهذا السبب يحتفظ بهذا الدّفتر!

فمسكته ورمت به في سلّة المهملات ولم تهتم إذا كان الدّفتر مهمّاً أم لا، وأكملت البحث فوجدت الميداليّة التي على شكل حرف (R) التي مرّة أهدتها ريم له، وهي نفس الميداليّة التي كانت جزءاً من الأدلّة على إدانة أمين بالجريمة وحبسه، فلم يعد يحملها مع مفاتيحه لأنها تذكّره بذاك السّجن المرير والظّلم الكبير، لكن احتفظ بها أيضاً لذكراها الجميلة مع ريم. فأخذتها منال ورمت بها في سلّة المهملات، وبعد أن انتهت وأراحت بالها بما فعلت...أعادت ترتيب الدّرج كما

كان وأغلقت الخزانة، وخرجت مرتاحة، لكن في داخلها قلق حول ما سيفعله أمين إذا عرف ما فعلت بأغراضه الخاصّة.

***

ريم حزينة من أوّل يوم بعد الزفاف وللآن تعيش حياة غريبة، وتشعر بالعُزلة والغربة، زوجها الدّكتور عمر يخرج في الصّباح الباكر ويعود بعد السّاعة العاشرة مساءً. وعند عودته للبيت تحضّر له الطعام، وتذهب لغرفتها تُقفل على نفسها الباب.

عمر رجل طيّب متفهّم، وريم حالتها النفسيّة سيئة جدّاً، لدرجة أنها لا تسمح لعمر أن يقترب منها أو يلمسها، ودائماً تضع حجّة أنها ليست مستعدّة نفسيّاً لخلق أيّ علاقة مع أيّ شخص، وقد أخبرته أنَّ أمها أجبرتها على الزّواج وهي كانت ترفض.

تحمّل الدّكتور عمر هذه الصدمة، ودائماً يحاول التلاطف معها لعلّ وعسى أن تتغيّر نفسيّتها... لكن هي دائماً في حالة نفور، حتّى اعتاد على ذلك ولم يعد يطالبها بشيء أو يحاول معها. وفي يوم من الأيام جاء عمر باكراً ليجلس أطول وقت مع ريم، ويجرِّب حلَّ العقدة التي تعاني منها، فتفاجأت ريم من مجيئه مبكّراً، حوالي الساعة السابعة مساءً على غير العادة، وقالت له: "أهلاً يا عمر أراك عدت باكراً اليوم...!"

فقال لها: "لقد جئت يا ريم من أجلك، أشعر أني مقصّر في حقّكِ، أخرج منذ الصّباح ولا أعود إلا في المساء، ويكون الوقت قد تأخّر، وتبقين أنتِ محبوسة في المترل، فقلت في نفسي يجب أن آخذكِ لنسهر خارجاً ونتناول طعام العشاء في مطعم يليق بامرأة جميلة مثلكِ.

– لا تُتعب نفسك يا عمر، فأنا اعتدت على البقاء بالبيت، لست متضايقة ولستَ أنت المقصّر في حقّي، بل على العكس أنا المقصّرة.
– بصراحة أريد أن أحدّثك وتحدّثيني وتفتحي لي قلبكِ؛ لأني أرى أمامي إنسانة تُخفي داخلها همّاً أكبر من عمرها...لعلني أساعدكِ، هل تقبليني صديقاً لكِ؟ أنا أطلب فقط صداقتكِ، وانسي أننا متزوّجان الآن، أصدقاء فقط... أموافقة؟

ابتسمت ريم وقالت له بخجل: "موافقة".

– ستخبريني بأسراركِ وتفتحين لي قلبكِ في هذا المشوار.
– نعم، أنا موافقة.
– هيّا بدّلي ملابسكِ وارتدي شيئاً جميلاً؛ لأني أريد أن تكون صديقتي رائعة الجمال، ولنخرج فوراً.

بالفعل ذهبا وجلسا بمطعم يُطِلُّ على منطقة بغاية الجمال ومنظر طبيعيّ على سهل أخضر مزهر، كانت السّاعة الثّامنة عند وصولهما والشّمس ما زالت مرتفعة فوق الجبال؛ لأنَّ الشّمس في إسبانيا لا تغرب قبل حوالي السّاعة التّاسعة والنصف، فالوقت عندهم كأنه وقت ما بعد العصر عندنا، وبدأ الدّكتور عمر يحدّثها عن حياته وعن فتاة تعرّف عليها وهو يدرس بجامعة إسبانيا، وهي إسبانيّة الأصل لكن لم يشأ القدر أن يتزوّجا، لأنَّ أهل عمر لم يوافقوا على زواج ابنهم من فتاة أجنبيّة، وأهل الفتاة رفضوا الفكرة أيضاً، فابتعد عمر عن الموضوع وأزاح الفكرة من رأسه،

حتّى التقى بريم في إحدى المناسبات الكبيرة للعائلة والأصدقاء فأعجبَ بها، وطلب يدها من أهلها.

ثمَّ سأل ريم: "وأنتِ يا حبيبتي هل يوماً ما أحببتِ شخصاً معيّناً ولسبب ما تركتيه؟"

قالت له ريم: "هل أخبرك بصراحة يا عمر؟ وأخبرك بشيء أوّل مرّة ستعرفه بحياتك... اعتبره سرّي وأُخفيه عنك"

– من المؤكّد ياريم فالأصدقاء لا يُخفون الأسرار عن بعضهم أخبريني وأعدكِ أن يبقى سرّاً.

ضحكت ريم وقالت: "لكن إن أخبرتك إيّاه لن يبقى سرّاً، ربّما تغضب غضباً شديداً، يجب أن تعدني بالبداية أن لا تغضب وتأخذ الموضوع بكلِّ صدارة رحب".

– هيّا لقد شعرت بالقلق، أخبريني لن أغضب وصدّقيني إذا كنتِ بحاجة لمساعدة سأحاول أن أساعدكِ.

– لقد أحببتُ شاباً من أوّل سنة لي بالجامعة، كان حبّاً صادقاً محترماً...(وشرحت له بالتفصيل ماذا جرى بين والديها وبين الحبّ البائس، وجعلها تترك حبيبها رغماً وكرهاً عنها، وعن حالتها النفسيّة التي مازالت تسوء؛ لأنها لم تستطع نسيان أمين) وأكملت حديثها وهي ترتجف وبكلامها رعشة وخوف: "لهذا يا عمر لا أستطيع منحك نفسي وجسدي، بصراحة لا زلت أحبُّ...أمين، ولا أرى أمامي إلاّ هو، وقد بنيت كلَّ أمالي ومخيّلتي بالماضي على أنه هو زوجي، وهو الوحيد الذي يحقُّ له لمسي، فصدّقني الموضوع صعب عليّ، أنا أعاني بشيء ما بداخلي لا أعرف ما هو، لا أقدر صدّقني...صعب أن أسمح لأيِّ أحد كان أن يقترب مني ربّما هي عقدة نفسيّة عندي....أنا أعترف، أنا مرهقة ومتعبة من التفكير، وكلُّ شيء من حولي يُتعبني، كما أشعر بتأنيب الضّمير اتّجاهك، وأنا عاجزة أن أمنحك نفسي كزوجة، صدّقني أودُّ أن أُشفى من هذا الدّاء تعبت"وصمتت ريم.

كان الدّكتور عمر يسمع قصّتها وهو مندهش، ولم يتخيّل أبداً أنها تُعاني لهذه الدّرجة، فقال لها: "لقد فاجأتيني بهذه القصّة، لــمَ أمكِ تقسو عليكِ لهذه الدّرجة، يجب أن تراعي مشاعركِ واهتماماتكِ، وألاّ تجبركِ على رجل لا تريدين الزّواج به، بهذا تظلمكِ وتظلمني أيضاً.

– أنا آسفة جدّاً يا عمر، وأعلم أني ظلمتكَ معي، وأنت تتحمّلني وأنا عبء عليك، وربّما تعتبرني مخادعة.

– لا يا ريم، ليس الذّنب ذنبكِ لا ألومكِ ولا أحمّــلكِ المسؤوليّة... كلُّ الحقُّ على والديكِ، وأخصُّ والدتكِ التي خطّطت لكِ مستقبلكِ ورسمته على هواها، أنا مسرور لأنكِ فتحتِ لي قلبكِ وتكلّمتِ معي أخيراً، كان يجب أن تخبريني من البداية.

– أنا التي أشكرك لقد شعرتُ بالرّاحة الكبيرة وكأنَّ جبلاً كان على ظهري وقد زال.

– لكن أخبريني ماذا جرى لأمين بعدما حصلتِ على الطّلاق رغماً عنه.

– ياه...يا عمر، لن تتخيّل كيف كانت حالته، أمين يحبّني حبّاً ليس له مثيل، لقد عانى وتعب وساءت حالته جدّاً، بالأخصّ أنَّ قلبه ضعيف، لقد تعرّضت حياته للخطر لكن الحمد لله الذي يُعافي ويشفي ويُعين.

– ما الحل برأيكِ يا ريم؟ نحن الآن متزوّجان وصديقان وعلاقتنا فيها ثغرة لا نعرف كيف نسدّها؟ هل نبقى هكذا، كلّ واحد بغرفة وكأننا شخصان مستأجران نفس المنزل، وكلّ واحد له حياته الخاصّة؟ أم نحاول الاندماج شيئاً فشيئاً؟
– لقد عرفتَ حالتي يا عمر وفهمتَ الأزمة التي أعاني منها، ما رأيك أن تمنحني فرصة أخرى لأحاول أن أتقرّب منك وحدي وأنسى أمين، لكي لا أظلمك.
– أنا موافق سأمنحك وقتاً كافياً لكي لا أظلمكِ أنا أيضاً، لقد تفهّمتُ عذركِ وقبلته، لم يَعُدْ لي أيّ تساؤل حول الموضوع.

***

مضى شهران على زواج منال وأمين، لكن المشاحنات كانت تزداد يوماً بعد يوم، ومنال لا تستطيع نسيان ريم، وبدلاً من أن تحاول تهدئة الأمور وجعل أمين ينساها تقوم على العكس وتحاول خَلْقَ أيَّ شيء يجعل أمين يتذكّر ريم، فمثلاً مرّة رنّ هاتف المنزل فركض أمين مسرعاً للهاتف ليُجيب، فتساءلت منال: "لماذا ذهب بكلِّ هذا الحماس كي يردَّ على الهاتف، نعم من المؤكّد أنه ينتظر مكالمة من ريم، ولا يريد أن أسبقه؟" فبقيت تسترق السّمع لكلامه وهي بالغرفة المجاورة، لكن لم تفهم من المتكلّم، وبعد أن أغلق الهاتف جاءت مسرعة وقالت له: "من هي التي كانت تُــكلّمك؟" فأجابها أمين باستغراب: "إنه رامي أخوكِ وليست بواحدة، ألم تسمعيني كيف كنت أتكلّمُ معه بصيغة المذكّر، كيف حالك؟ ماذا تفعلْ، وهكذا...
– نعم سمعت، لكن ممكن أن تكون فتاة وتُــكلّمها بصيغة المذكّر، لكي لا أعرف.
– منال من فضلكِ، أبعدي هذه الشكوك من عقلكِ.
– ألم تكن ريم على الهاتف؟ أنا أعرف!
– ريم؟ ولـــمَ ريم التي على الهاتف؟ كفى يا منال، لقد أغلقنا هذا الموضوع منذ مدّة، واتّــفقنا على نسيان الفتاة التي تُدعى ريم، أرجوكِ لا تُثيري أعصابي... إلى متى ستبقى الغيرة تُؤثّر على تفكيركِ؟!

وفتح أمين الباب وخرج ليذهب لمنزل خالته اختصاراً للمشاحنات.

منال أصبحت أكثر عصبيّة هذه الأيام، تشعر دائماً بتوتّر، حتى أنها تشعر بتعب عام في جسدّها وتتكاسل للذّهاب للعمل، وفي صباح أحد الأيام استيقظت منال متعبة لا تعرف ماذا حلَّ بها وجلست بالسرير متكاسلة من النهوض، وعندما استيقظ أمين وفتح عينه قالت له: "أتحبّني يا أمين؟ نظر إليها وقال لها:"في البداية صباح الخير، ثانياً لن أجيبكِ على هذا السؤال، لأنَّ الجواب عندكِ" وقام من الفراش وذهب للحمام.

وعندما عاد وجد منال جالسة على السّرير تبكي بحرارة، فقال لها: "ما بكِ؟ كلُّ هذا البكاء لأني لم أجب على سؤالكِ؟"

فأجابته: "نعم لا تحبني...ما زلت تحبُّ ريم؟ أنا أكرهها أنا لا أحبّها؛ لأنها تأخذك منّي وهي بعيدة".

فجلس بجانبها وقال لها: "حبيبتي والله أحبكِ... هذه المرّة المئة التي أخبركِ ذلك، أرجوكِ أن تنسي شبح ريم الذي هو وهم يُلاحقكِ وتصدّقينه وتعيشينه، لقد طلبت منكِ بالبداية أن تُبعدين عنّي هذا الشّبح، لكن يبدو الآن أنَّ الشّبح نفسه يُلاحقكِ، وأنتِ لا تستطيعين الخلاص منه، يا منال من فضلكِ لا تذكري لي ريم كلّ يوم، هذا يكفي نريد أن نعيش أنا أنتِ فقط بالمترل، وليس أنا وأنتِ وذكرى ريم، لا تشعري بالغيرة من ماضٍ انتهى، ماذا لو كانت ريم تعيش هنا في نفس البلد، ما الذي كان سيحصل لكِ؟ الفتاة في عالم آخر، وتغارين كلَّ هذه الغيرة...!"

فعادت منال للبكاء وقالت له: "أنا تعبت يا أمين، أصبحت أكره ريم كلّما أراك أشعر أنك ما زلتَ تحبّها، أنا مرهقة ومتعبة، هل أطلب منك طلب؟

– نعم أكيد، ماذا تريدين؟

– خذني إلى الطّبيب أشعر بوعكة صحيّـــة، ولا أعرف سببها.

– هذا مجرّد لأنكِ تُفكّرين كثيراً، وتقلقين من أمور ليس لها أصل من الصحّة، ماذا سنقول للطّبيب...منال تعاني من الغيرة؟

– لا يهم خُذني للطّبيب من فضلك أشعر بتعب أو ضعف.

– حسناً، سنبدّل ملابسنا وأتّصل بالشّركة لأخبرهم أننا سنتأخّر قليلاً، ومن ثمّ نذهب.

فذهبا إلى الطّبيب المعتمد لدى عائلة منال (طبيب الأسرة)، فطلب منهما عمل فحص مخبريّ للدّم، وقال لهما أنَّ منال تعاني من تعبٍ وضعف عام وربّما فقر دم، سنعرف سبب هذا الضّعف العام بعد ظهور النتائج.

فتوجّها للمختبر وقامت منال بعمل الفحوصات المطلوبة، وجلسا ينتظران نتيجة الفحص ليعودا للطّبيب ويطمئنهما، وفعلاً بعد نصف ساعة أخذت منال النّتيجة وتوجّهت هي وأمين للطّبيب، فقرأ النتيجة وقال لهما: "لا تقلقا الموضوع بسيط جداً وليس بالمخيف، منال تُعاني من ضعف بالدّم، فنسبة دمها حوالي ٩ درجات وهذا لسبب واضح، لأنها حامل"

فنظرت منال مبتسمة إلى أمين لترى ردّة فعله، أمين كان مُتفاجئاً ومسروراً أيضاً لأنه ابتسم، وقال للطبيب: "هل أنت متأكّد أيها الطّبيب من النتيجة؟"

– نعم... أجاب الطّبيب وأكمل: "النّتيجة واضحة أمامي، ألف مبروك".

فقال أمين"ليبارك الله فيك أيّها الطّبيب شكراً".

– سأكتب لمنال مقوّ عام وحديد لكي تستطيع تفادي الوقوع بفقر دم أكثر، ويجب أن تصل قوة الدّم إلى نسبة (١٢) لتكون بصحّة جيّدة و نشاط.

فأعاد أمين منال للبيت وقال لها: "ارتاحي حبيبتي ولا داعي أن تذهبي للدّوام اليوم ولا غداً، سأطلب لكِ إجازة مرضيّة، ومبروك لنا" ثمَّ ذهب هو للعمل، أما منال فشربت كوب حليب وذهبت للفراش، لأن النّوم يُسيطر عليها هذه الفترة بسبب الحمل.

الفصل التاسع والثلاثون

فأعاد أمين منال للبيت، وقال لها: "ارتاحي حبيبتي ولا داعي أن تذهبي للدّوام اليوم ولا غداً، سأطلب لكِ إجازة مرضيّة، ومبروك لنا الحمل" ثمَّ ذهب هو للعمل، أما منال فشربت كوب حليب وذهبت للفراش؛ لأنَّ النّوم يسيطر عليها هذه الفترة بسبب الحمل.

استيقظت بعد ثلاث ساعات على رنّة الهاتف، فأجابت:

– ألو، نعم. (بصوت شبه نائم)

– مرحباً منال أنا ريم، كيف حالكِ؟

– ريم! ماذا تريدين، ولـــمَ تتّصلين بنا دائماً كفى كوني عاقلة؟

– ما بكِ يا منال؟ يبدو أنكِ كنت نائمة، وفي نفس الوقت عصبيّة المزاج...منذ شهرين اتّصلتُ آخر مرّة ولم أتـــّصل بعدها، لقد اتّصلت الآن بالشّركة لأتكلّم معكِ ومع أمين، واطمئنَّ عليكما، فأخبروني أنكِ متعبة ومجازة، أما أمين فقد غادر المكتب، فقلت في نفسي سأكلّمكِ على البيت وأطمئنَّ عن أخباركِ وصحتكِ.

وبنبرة غاضبة جداً قالت منال: يا لكِ من كاذبة تُريدين الحديث مع أمين، أرجوكِ اخرجي من حياتنا يا ريم لا تُعكّري صفو حياتي، حرام عليكِ، لا تعودي وتتكلّمي مع أمين، أنا أحاول جاهدة أن أُنسيه الماضي الأليم، وأنتِ تظهرين كالغيمة السوداء من فترة إلى أخرى.

– لا تنسي يا منال أنكِ صديقتي وأنا أحبكِ وأشتاق وأحن لأيامنا سويّاً، فأنا لا أتّصل من أجل أمين، أنا أعيش في غربة هناك، اشتقت لكِ صدّقيني..

– هذه حجّة صداقتنا أبعديها جانباً، تستعملينها لتسمعي صوت أمين هذا واضح...قلت لكِ أنا أدرّبه على نسيانكِ، أرجوكِ ابتعدي...

غضبت ريم من هذا الهجوم وقالت: "أنا بعيدة ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

كما أنكِ لن تستطيعين أن تنسيه حبّي؛ لأني مزروعة في قلبه وقد وعدني أن يبقى يحبّني للأبد، ويحتفظ بحبّي كذكرى كانت تجمعنا يوماً ما، أتعتقدين أنه إذا تزوّجكِ فهذا يعني أنه نسيني؟"

فأخذت منال تصرخ بريم وقالت لها: "كفى...كفى أيتها المجنونة، أمين زوجي ويحبّني أنا، وهو لا يريد سماع اسمكِ أصلاً في البيت، لقد أصبح يكرهكِ، ونحن ننتظر مولودنا الأوّل بإذن الله لأني حامل بابن أمين، وكفاكِ نبش الماضي و تذكّر ليالي الحبّ لأنها انتهت بالنسبة لأمين". وأغلقت منال سمّاعة الهاتف في وجه ريم وهي غاضبة.

فأخذت ريم تبكي لأنها مازالت تحبّ أمين، وتفاجأت بحمل منال وأخذت تسأل نفسها:"هل أمين فعلاً نسي حبّي وهو مسرور بمنال وبحملها؟"

في هذا الأثناء عاد أمين للمترل من عمله يحمل معه طعاماً أحضره من المطعم، لكي لا يُتعب منال بتحضير الطّعام، فقال لها: "ما بكِ يا منال سمعتكِ تصرخين مع من كنتِ تتكلّمين؟"

أجابت: "لا أحد كان الاتّصال خاطئاً، قد اتّصلوا عدّة مرّات فصرختُ بوجههم لكي أُؤَدِّبهم".

– لا تُتعبي نفسكِ يا عزيزتي ولا تقلقي يجب أن تحافظي على هدوئكِ من أجل صحّتكِ.

جلس أمين ووضع الطّعام على طاولة غرفة الجلوس وجلس بجانب منال ليتناولا الطّعام، فسقط نظره على كاشف أرقام الهاتف فقرأ الرّقم المدوّن، فرأى أنه رقم خارجيّ وليس من داخل البلد، فقال لمنال:"كان المتّصل من خارج البلد؟"

– لا أعرف ربّما...(أجابت منال وهي متردّدة خوفاً من أن يعرف أمين الرّقم) لكن أمين لم يعرف أنَّ هذا الرّقم هو رقم ريم، فلم يهتمَّ بالأمر.

أما في المساء عندما أرادا النّوم، وأدار كلٌّ واحد بوجهه للجهة الأخرى لكي ينام، قالت منال لأمين: "هل غفوتَ يا حبيبي؟"

– لا ليس بعد حبيبتي، هل تُريدين شيئاً؟

– أريد أن أسالك يا أمين... هل صحيح أنك وعدتَ ريم أن تبقى تحبّها للأبد؟

– نامي من فضلكِ يا منال.

– أجبني...

– لا لم أعد أحداً بشيء... من فضلكِ نامي.

– أنا لا أستطيع النّوم، أشعر بالقلق.

– لا تُفكّري بأمور تافهة كهذه وستغفين بسرعة.

– هل ستحبُّ ابننا القادم يا أمين؟ أم لو كان ابنك من ريم ستحبّه أكثر؟

فقام أمين من السّرير وخرج من الغرفة وهو يتأفّــف، وقال لمنال:"سأنام في غرفة الجلوس؛ لأتركَكِ تُفكّرين بريم وحدكِ".

– لا، آسفة أرجوك تعال عُدْ إلى السّرير... أمين... أمين لم أقصد أن أزعجك.

فلم يُجب عليها وبقي متوجّهاً إلى غرفة الجلوس، ونام هناك حتّى الصباح.

استيقظت منال صباحاً فلم تجد أمين لأنه خرج إلى عمله، فدُهشتْ كيف ذهب من دون أن تشعر به أبداً وهو يبدّل ملابسه أو عندما خرج من المترل.

بعد وصول أمين بنصف ساعة لعمله طلبهم المدير العامّ للشّركة لاجتماع هام، وطلب من جميع المهندسين المعماريّين والمدنيّين التوجّه إلى قاعة الاجتماعات.

وبالفعل اجتمع الجميع في القاعة ودخل المدير العام ليفتتح الاجتماع، حيث قال لهم: "في البداية أريد أن أشكر جميع المهندسين على جهودهم القيّمة، ولتفاعلهم المستمر والفعّال بالعمل، وأودُّ أن أُؤكد أنّ الجميع يعمل بكلِّ همّة ونشاط، أما سبب الاجتماع المفاجئ ومن دون إعلان مسبق، هو أنَّ رسالة وصلتني عبر البريد الإلكترونيّ تدعونا فيها لحضور الدّورة التدريبيّة المتقدمة في فنِّ العمارة الإسلاميّة العربيّة، وبالأخصّ العمارة الأندلسيّـــة في إسبانيا.

بدأت علامات الاندهاش تظهر على وجه أمين لسببين...الأوّل أنها صدفة غريبة كيف تكون الدّورة في إسبانيا حيث تسكن ريم، والسّبب الثّاني هو أنه معجب بل مولع بالعمارة الأندلسيّة،

حيث قام بعمل بحث كبير عن هذا الفنِّ المعماريّ الأصيل في إحدى سنوات الجامعة ونال عليه أعلى علامة.

أكمل المدير العام حديثه وقال: "هذه الدّعوة مقدّمة فقط لشخصين، المطلوب مني ترشيحهما حسب الكفاءة والتفوّق بالعمل، والمفروض أن أرسل مهندساً معماريّاً والآخر مهندساً مدنيّاً. مدّة الدّورة أسبوع ستكون فيها ساعات تدريبيّة نظريّة وعمليّة، حيث سيتمُّ اصطحابهما مع أكبر المهندسين إلى الأماكن الأثريّة التي تحظى بمعالم مرموقة، مثل قصر الحمراء الذي يُعتبر من أجمل إبداعات الفنِّ المعماريّ الأندلسيّ، وسوف أُقدِّم للمرّشحين جدول الدّورة بعد أسبوع من الآن، حيث نكون قد أعلنا المرشّحين. أما بالنّسبة للترشيح فسوف أُقـيّم المهندسين خلال هذا الأسبوع وبناءً على التفوّق والإنجاز سأختار".

وخرج الجميع من القاعة والحماس قد اشتعل بهم وروح المنافسة أصبحت جاهزة.

في المساء عاد أمين إلى المنزل فوجد منال نائمة، فبدّل ملابسه وأخذ حقيبته الرّياضيّة وذهب للنّادي ليُجدّد نشاطه ويُقوّي قلبه، وقضى هناك ساعة ونصف، وعاد للمنزل فوجد منال متعبة وتبكي وتشكو من ألم في أسفل بطنها، فأخذها إلى المستشفى على الفور، وبعد المعاينة قال لهم الطّبيب: "يجب عليها أن تستريح قدر المستطاع؛ لأنَّ الحمل ضعيف بعض الشيء، ويجب أن تبقى مستلقية على ظهرها خلال فترة الأشهر الأولى من الحمل، هذا بالإضافة إلى أنها يجب أن تأخذ حُقَناً مثبّتة للحمل لكي تحافظ على الجنين. "وقام الطّبيب بإعطائها حقنة تثبيت، وقال لها: "يجب أن تأخذي ثلاث حُقَنٍ أخرى لنضمن سلامة الجنين".

عادت منال حزينة للبيت فقال لها أمين: "لـمَ أرى الحزن في عينيكِ يا حبيبتي؟ الحمد لله على كلِّ شيء، وإذا أراد الله لهذا الجنين أن يخرج للدّنيا ويرى النّور فسيحفظه لنا، وإن لم يشأ فسيُعوّضنا بغيره، قوّي إيمانكِ بالله".

- ألم تنزعج إذا فقدنا هذا الطّفل؟
- لا...لَمَ أنزعج؟ سيكون هذا قدره، لا تقلقي المهم أنتِ لا تُجهدي نفسكِ، وخصوصاً بالتّفكير في الأمور السّخيفة، فقلَقكِ و توتّركِ هذا هو الذي يُؤثّر سلباً على سلامة الجنين، فالحالة النفسيّة للأم تلعب دوراً مهمّاً على صحّة الجنين، فعليكِ التحلّي بروحٍ مرحة، ومن دون أيّ ضغوطاتٍ على نفسيّتكِ.
- إن شاء الله...
- هيّا لكي تستلقي على ظهركِ كما أوصانا الطّبيب، وسوف أقدّم لكِ طلب إجازة مفتوحة من دون راتب، ريثما تستطيعين العودة للعمل.
- موافقة، أنا حقّاً بحاجة للرّاحة والجلوس بالبيت والهدوء قليلاً مع نفسي، كما أشعر بالتّـكاسل في كلِّ شيء.

***

مرّ أسبوع على الاجتماع الذي عقده مدير الشّركة بخصوص الدّورة التدريبيّة، واليوم هو يدعو جميع الموظّفين لاجتماعٍ آخر لإعلان النتائج وترشيح المهندسَين اللّذين ستكون الرّحلة من نصيبهما.

قال المدير: "الكلُّ والحمد لله أثبت لي أنه يستحقُّ هذه الدّورة، والكلُّ عَمِل بجدٍّ ونشاط ومن دون تقصير، أشكركم جميعاً وأنا فخور بكلِّ المهندسين العاملين لدى شركتنا، لكن هناك تفاوت بسيط بين جميع المهندسين في بذل الجهد والاجتهاد بالعمل، لذا هما شخصان يستحقّان هذه الرّحلة بجدارة وهما...المهندس المدنيّ تامر... هو يعمل بكلِّ جدٍّ، ويداوم على إشراف المشاريع من دون تَسيُّب أو استهتار، ويأتي مبكّراً مع العمّال ويغادر معهم أيضاً، وخلال النّهار يتنقل من مشروع لآخر، فهو فعلاً مهندس مُـــجدٌّ.

أما المهندسُ المعماريّ هو... المهندس أمين وهو الآخر يعمل بجدٍّ، ويداوم ساعات إضافيّة فوق دوامه، ولا أشعر أنه كَلّ أو ملّ، ويُشعرني أنه يعمل بحب....أرجو أن يكون الجميع موافقين على هذا الترشيح، ومن له أيُّ اعتراض أنا جاهز لكي أسمع. وألف مبروك للمرشّحين على هذه الرّحلة والدّورة التدريبيّة، وأتمنّى التّوفيق للجميع".

لم يعترض أحد على ترشيح تامر وأمين لهذه الدّورة، بل على العكس باركوا لهما لأنهما فعلاً يستحقّاها.

بعد انتهاء الدّوام عاد أمين لمنزله ليخبر منال عن هذه الدّورة والفرحة تغمره، وجد منال مستلقيةً على ظهرها في غرفة النّوم، وكانت تقرأ كتاباً حول الأمّ الحامل. فقال لها: "مرحباً يا منال...كيف حالكِ اليوم يا حبيبتي؟"

– ممتازة، لكن تعبتُ من كثرة الاستلقاء على ظهري.
– تمشّي قليلاً ثمَّ عودي للسّرير.
– فعلتُ ذلك، لكن أشعر بالتّعب والملل.
– ما رأيكِ لو أُحضر تلفازاً وأضعه أمامكِ في غرفة النّوم، فهذا سيُقلّـــلُ منْ حدّة الملل وينسيكِ التّعب؟
– موافقة، فكّرة جيّدة.
– أتعلمين يا منال... لقد رشّحني مدير الشّركة أن أحضر دورةً تدريبيةً حول الفنِّ المعماريِّ الإسلاميِّ الأندلسيّ؛ لأنّي أكثرُ المهندسين المعماريّين اجْتهاداً، والمهندس تامر من المهندّسين المدنيّـــين.
– هذا رائع يا حبيبي...احضرها ولا تفوّتها عليك.
– نعم، أُمنيتي أن أرى الفنَّ الأندلسيَّ، وأسافر...فالرّحلة الأسبوع المقبل.
– ماذا قلت...؟ ستُسافر... إلى أين؟
– إلى إسبانيا؛ لأنَّ الدّورة التَّدريبيَّة هناك، وسندرس هذا الفنّ على الواقع.
– إسبانيا...! هل ستذهب حقّاً لتلك البلد؟
– نعم وما المشكلة؟ هي فرصة جيّدة لأرى فيها بلداً آخر، وأتعرّف على عالم آخر.

– آه... وفرصة لتقابل ريم، وتذهب إليها وتتعرّف على عالمها هناك.
– عدنا لنفس الموضوع! كلُّ كلامٍ أتحدّث به معكِ تُدْخِلين ريم بالموضوع! يا منال لا تجعلي ريم الهاجس الوحيد في حياتكِ، كفى مللتُ من هذا الحديث.
– أيُعقل أن تذهب إلى إسبانيا ولا تقوم بزيارة ريم؟
– إذا كنتِ تريدين أن أراها... فسأفعل (ممازحاً منال)
– طبعاً لا...لا أريدكَ أنْ تصل إسبانيا أصلاً.
– لا يا منال، أتقفينَ بطريق مستقبلي من أجل أوهام في بالكِ فقط؟!
– سأذهب معِك، ما رأيك؟
– لا مشكلة لكن اسألي الطّبيب إذا كانت صحّتكِ وصحّة الجنين تسمح بذلك، فأنا لا أمانع.
– حسناً سأتّصل به الآن لنجزم الموضوع.

وفعلاً قامت واتّصلت بهذا الخصوص، فأجابها الطبيب "لا يمكن أن تسافري، حيث أوصيتكِ مسبقاً بأن تستلقي طول النّهار فالسفر مرهق...السّير في المطارات وركوب الطّائرات سيُعرِّض حياتكِ وحياة الجنين للخطر، نخاف من حدوث نزف أو إجهاض

– لا قدّر الله– لذا ستضعين نفسكِ بوضع حرج صحّياً".
– حسناً أشكرك.

فسأل أمين: "ماذا قال الطّبيب؟"

عادت منال للسّرير والحزن على وجهها وقالت: "السفر خطر على حياتي وعلى الجنين..."

– منال لا تُرهقي نفسكِ بالتّفكير حول ريم، أنتِ الآن حياتي كلّها، فسبق وقلت لكِ أنَّ العلاقة بيننا أقوى وأكبر من العلاقة التي كانت تجمعني بريم، فأنتِ زوجتي الآن ومستقبلنا واحد وحياتنا واحدة...وها نحن ننتظر طفلنا الصّغير الذي سيُملي حياتنا فرحاً، نحن أولاد اليوم والماضي انتهى وذهب مع الذين ذهبوا. وسأعدكِ يا حبيبتي أنني لن أذهب لأرى ريم... ولن أسأل عنها، بالأصل سنكون منشغلين بالدّورة التدريبيّة، فجدول الدّورة لا يوجد به ولا ساعة فراغ واحدة، سوى فترة تناول الوجبات وستكون داخل الفندق...الدّورة مكتظّة بالمحاضرات وورشات العمل.
– هل أعتبر وعدك هذا لي صادقاً، أم فقط لتجعلني أسكت...!
– طبعاً وعدٌ صادق...أليس لديكِ ثقة بي وبكلامي؟
– لديَّ ثقة...
– إذن انتهينا، نحن نتعامل مع بعضنا بثقة تامّة.

في المساء ذهب أمين وهاني للنّادي الرياضيّ، وأخذا يلعبان بنشاط ويتحدّثان بمواضيع عدّة، حتّى وصل بهما الحديث لرحلة إسبانيا، فقال هاني: "هل أنت مسرور ومتشجّع لهذه الرّحلة؟"

فأجاب أمين وهو يسير على جهاز المشي: "نعم جدّاً، فهي فرصة ممتازة لأرى الفنَّ الأندلسيَّ الأصيل"

فقال هاني باستهزاء: "فرصة لترى الأندلس...أم لترى حبيبة القلب؟"

– ماذا دهاك أنت الثّاني؟ الفتاة متزوّجة وأنا لديَّ زوجتي، كما أني وعدتُ منال ألاّ أكلّم ريم ولا أقوم بزيارتها بهذه الرّحلة.

– يا لك من غبيّ... ستذهب لإسبانيا ولا ترى ريم؟ سأعطيكَ رقم الهاتف وأنت اتّصل بها، واتّفق معها أن تراها في أيِّ مكان، هي مجرّد زيارة ولن تؤثّر على أحد، ولن تؤثّر عليكما بل ستُسرُّ بك ريم المسكينة المنفية التي تسكن بالغربة، لا تعلم كم كانت فرحتها كبيرة عندما ذهبنا إليها أنا وديالة في شهر العسل. اسمع منّي واذهب إليها وارفع من معنوياتها، واسترجع الذّكرى الجميلة التي كنتما تعيشانها، لن تخسر شيئاً، ومنال لن تعرف أبداً أنك ذهبت إليها. غداً عندما سنذهب للمكتب سأعطيك رقم هاتفها في إسبانيا، وستّتصل بها فور وصولك لتلك البلد.

– لا أعرف ماذا أقول لك يا هاني... أخاف أن تعود المشاعر وتشتعل من جديد، فهذا سيؤثّر على حياتي مع منال سلباً، فأنت تعرف أنني مازلت أحبّها.

– لا أظنّ، فكّر جيّداً وسيكون الرّقم معك.

قبل السفر بيوم عاد أمين من دوامه مبكّراً بحدود السّاعة السّابعة مساءً، ليقضي أطول فترة ممكنة مع منال قبل أن يُسافر غداً صباحاً. فأخذها ليتناولا العشاء خارج المترل وقضيا وقتاً ممتعاً وبعدها عادا وجلسا سويّاً لمشاهدة فيلم أجنبيٍّ على التّلفاز. وبعد متابعة ساعة منه... قام أمين من جانب منال وتوجّه مسرعاً لغرفة النوم.

قالت له منال:"إلى أين يا أمين؟"

– سأعود حالاً

– ألم يعجبك الفيلم...؟

– بل أعجبني لكن أنا مشغول الفكر قليلاً أريد أن أبحث عن شيء وسآتي.

فقالت في نفسها: "يا ترى عن ماذا يبحث؟ كأنه فتح درجه الذي في الخزانة...!هل يا ترى فقدَ صور ريم التي أتلفتها وباقي الأغراض؟ ربّما يبحث عنهم، لا...لا أعتقد فهو لم يلحظ أنَّ أحداً فتح درجه. "ثمَّ قامت من مكانها وذهبت إلى غرفة النوم فوجدت أمين منهمكاً بالبحث عن شيء بدرجه فعلاً، فخافت منال وبدأ قلبها يدقُّ قلقاً، فقالت له: "هل أساعدك يا أمينو؟ هل تبحث عن شيء معين؟" تريد أن تثبت حسن النيّة له.

– أبحث يا حبيبتي عن دفتر قد كتبتُ به يوماً بحثاً عن فنِّ العمارة الأندلسيّة من أيام الجامعة، أريد أن أسترجع بعض المعلومات التي دوّنتها في هذا البحث، لكي أنعش ذاكرتي قليلاً حول هذا الموضوع.

– أتذكر لون أو شكل الدّفتر؟

– نعم رماديّ اللّون، لكن لا أعرف أين اختفى...أذكر أنه هنا.

أيقنت منال أنه الدّفتر الذي أتلفته منذ فترة مع الصّور والميداليّة، لأنها وجدت على الصّفحة الأخيرة شعراً بحبِّ ريم.

ثمَّ قال لها أمين: "من فتح الدّرج يا منال وعبث بالأغراض؟"

– لا أدري من سيكون، لا يوجد إلا أنا وأنت بالبيت، وأنا لم أمسك شيئاً.

– كانت توجد ميداليّتي القديمة حرف(R) هنا، على يمين الدّرج فوق شهادة التخرّج، أظنّ أنكِ تذكرينها من أيام الجامعة، وهي ليست موجودة أيضاً.

"لا... لا أعرف... ولا أذكر..." (قالتها بتردّد).

– بل تعرفين...أنا رتّبتُ دُرجي بيدي وأذكر كلّ قطعة فيه، هيّا قولي أين أخفيتهم؟

– بصراحة... يا...أمين... ومن دون أن تغضب...

– هيّا تكلمي.

– أنا بالصُدفة كنت أريد أن أرتّبَ الخزانة... ففتحت الدّرج بسبب فضولي وحبّي الشديد لك، أريد أن أعرف ماذا يحوي درج خصوصيّاتك، فوجدت هذه الميداليّة والدّفتر وثلاث صور لريم...فقمت بإتلافهم جميعاً.

نظر إليها أمين باستغراب شديد وقال لها بعصبيّة: "أتلفتيهم...؟! لماذا؟ لا أعرف ما هي طريقة تفكيركِ! وكيف تتصرّفين بأمور لا علاقة لكِ بها؟!"

– كيف ليس لي علاقة! ألستُ زوجتك...؟

– زوجتي يعني أن تُلغي خصوصيّاتي وتسيطري عليّ سيطرة كاملة؟ وأريد أن أفهم ما دخل دفتر البحث بالموضوع لكي يُتلف؟!

– عليه شِعر كنتَ قد كتبته لريم...

فظهرت علامات الغضب على أمين من دون أن يتكلّم، وأغلق درج الخزانة والباب بعصبيّة وخرج ليجلس بالشّرفة، وقضى طيلة السّهرة جالساً وحده لا يُكلِّم منال.

أما صباحاً أمين يستعدُّ للسّفر، فهو يحضّر حقيبته ومنال تساعده وهي قلقة وحزينة، فقالت لأمين:"انتبه إلى نفسك حبيبي، أرجوك لا تتأخّر"

– لن أتأخّر الرّحلة معروفة أسبوع واحد يا حبيبتي، لا تقلقي وانتبهي على نفسكِ وعلى الطّفل الصّغير الذي تُخبئينه داخلكِ، تغذّي جيّداً وارتاحي قدر ما تستطيعين، ولا تَبقي وحدك بالمنزل اذهبي عند أهلكِ هذا أفضل، ولاداعي للأفكار السيّئة والتوتّر... عِديني.

– سأعدك... وسأشتاق لك.

– وأنا كذلك... لا تجعليني أقلق عليكِ.

فرنَّ الهاتف الخلويّ الخاصّ بأمين، فقال لها: "ها قد وصل تامر ليصطحبني معه للمطار، انتبهي إلى نفسكِ، وإلى اللّقاء يا حبيبتي" فقبّلها من رأسها وعانقها...ودقَّ الباب على خالته وودّعها أيضاً، ثمّ حمل حقيبته وخرج مسرعاً.

ركضت منال لتودّعه بنظراتها من الشّرفة، حتّى ركب السيّارة وغادر. فذهبت إلى غرفتها تبكي وأخذت تُحدِّث نفسها:"لـــمَ أنا أبكي؟ هل لأني سأفتقد أمين في هذا الأسبوع؟ أم لأني أخاف من أن يكذب عليَّ ويقابل ريم هناك؟... وإن قابلها ما المشكلة؟ أنا زوجته وسيعود لي بالنهاية...لا هي مشكلة كبيرة؛ لأنَّ معنى ذلك أنه يحبّها ولا يحبّني" فعادت تبكي قهراً. ثمَّ مسحتْ دموعها وذهبت مسرعة إلى الهاتف، لقد خطر ببالها فكرة، اتّصلت بالشّركة الهندسيّة لمكالمة هاني، فقام موظّف المقْسَم بتحويل مكالمتها إليه.

فأجاب: "هاني يتكلّم معك أهلاً وسهلاً"
– مرحباً هاني، كيف أصبحت؟
– أهلاً...أهلاً، هذا أنتِ يا منال؟
– نعم، أريد أن أسألك عن شيء.
– حسناً، لكن في البداية أخبريني هل ذهب أمين للمطار؟
– نعم بالتأكيد.
– بالسّلامة إن شاء الله، نعم ماذا كنتِ تُريدين؟
– أريدك أن تجاوبني بصدق يا هاني، فالموضوع بالنّسبة لي حسّاس جداً.
– تفضّلي أسمعكِ.
– هل طلب منك أمين عنوان ريم في إسبانيا؟
– لا، لم يأخذ العنوان ولم يطلبه.
– أأنت متأكّد يا هاني؟ أرجوك كن صادقاً معي.
– ما الذي يهمُّك إن أخذ العنوان أم لا؟
– يا سلام! ما الذي يهمّني؟ طبعاً من المهم أن أعرف إذا هو أخذ العنوان.. أليس كذلك؟
– بصراحة يا منال هو لم يطلب العنوان، بل أنا من أعطاه رقم هاتف منزل ريم.
– تُعطيه رقم الهاتف! لماذا؟ أتشجّعه على الخيانة؟
– خيانة! لا سمح الله... إنها ليست مسألة خيانة يا منال كوني عاقلة، إذا قام بمجرّد زيارة لصديقة قديمة تعتبرينها خيانة؟
– طبعاً وما الدّاعي كي يزورها وليس له علاقة بها الآن؟ لكن قل لي هل قَبِل الرَّقم منك واحتفظ به؟
– بصراحة...نعم، لكن قال لي ربّما لن يستخدمه، لكن سيحتفظ به للاحتياط.
– احتياط...! هذا يعني سيزورها أنا متأكّدة.
– لا يهم، لا تجعلي للموضوع أهميّة.
– على كلِّ حال يا هاني شكراً لك لأنك أعطيته الرقم من دون أن يطلب منك، فعلاً أنت نعم الصديق، هذا بدلاً من تُعَقِّله وتوجّهه للصّواب.
– أمين عاقل ولا يحتاج لنصيحتي، فقط كوني أنتِ العاقلة.
– هكذا إذن يا هاني...!!

وأغلقت الهاتف وهي غاضبة من هاني، وبدأت الوساوس تدور في عقلها.

أما هاني قال في نفسه: "ليكن الله في عونك يا أمين يبدو أنَّ منال تغار جدّاً وتضغط على أنفاسك".

ركب أمين هو وزميله المهندس تامر بالطّائرة وأقلعت متوجّهة إلى إسبانيا، صار أمين يشاهد المناظر المذهلة من نافذة الطّائرة، وهو مسرور جدّاً ومعجب وكأنه ينظر على أطلس الخرائط، حتّى ارتفعتْ الطّائرة بسرعة كبيرة وأصبحت فوق الغيوم البيضاء الكثيفة، مما أدّى إلى صعوبة

رؤية أيِّ شيء بالأسفل، فاندهش من قدرة الله عز وجل على تسيير هذه المركبة الكبيرة سابحة بالسّماء بعظمته وقدرته. وأخذ يُسبِّح الله في قلبه، ثمَّ اعتدل في جلسته وأبعد رأسه عن النّـــافذة، و تناول مجلّة من أمامه وأخذ يُقلّبها.

***

حوالي السّاعة الحادية عشر والنّصف تقريباً قبل الظّهر، سمعت الخالة علياء طرقاً على باب بيتها، ففتحتْ إذ بها تُفاجأ بظهور شاكر مرَّة أخرى، بعد ظهوره منذ أشهر ثمَّ غاب، فقابلته بجفاء وسألته بصوت غاضب وجدّيّ: "لماذا جئتَ وماذا تريد؟" فأخبرها أنه يريد رؤية أمين ويستسمحه؛ ليأتي ويعيش مع ولده بالبيت، فزاد غضب علياء وأخبرته أنَّ أمين مسافر حالياً وغير موجود، ولو كان موجوداً فهو لن يعترف به كأب على ما فعله به، ورمى به منذ طفولته. فأخذ شاكر يتذلّلُ ويشتكي ويترجّى، يريد أن يُشعرها بالشّفقة، ويظهر عليه أنه ممثّل بارع أيضاً، وأخبرها أنه يعمل في محل كيٍّ وغسيل الملابس بعدما خرج من السّجن، وقد كان طيلة السنوات التي مضت مسجوناً بتهمة اختلاس أموال الشّركة التي كان يعمل بها، وهو الآن مكسور الخاطر يتقاضى أجراً بخساً، ولا يعرف أين يبيت وكلَّ يوم يقضيه بمكان مختلف، يوماً يقضي ليلته في محلِّ تنظيف الملابس ومرّة عند صديق قديم له منذ أيام السّجن. وطلب منها أن تُقنع أمين بأن يبيتَ عنده ويُشاركه شقّته، فرفضت علياء وغضبت، وقالت له: "ابحث عن مكان آخر بعيد عنا وعن أمين، فهو الآن متزوّج وليس لديه أيّ مكان لك"، وأغلقت الباب في وجهه بعدما اشتمّت منه رائحة كريهة، تدلُّ على أنها رائحة مشروبات روحيّة مثل الخمر وما شابه، وقالت في نفسها: "إنَّ مثل هذا الرّجل بحياته لن يتعلّم أو يتوب أو حتّى يَعْتَبر".

فعاد ودقَّ الباب، لكن علياء لم تفتح له لقد اشمأزّتْ منه ومن رائحته ومنظره المقزّز.

***

تامر قال لأمين وهما جالسان بالطائرة: "أتعرف يا أمين لم أقرأ الكثير عن الأندلس وعن قصر الحمراء، ومعرفتي بهما سطحيّـــة جداً، هل تعلم أنت عن تلك البلاد أيّ شيء؟

فأجابه أمين متفاجئاً: "أحقّاً لا تعرف عن الأندلس شيء! ولا عن قصر الحمراء؟"

– ليس الكثير، لـــمَ أنت مستغرب هكذا؟

– لأنه تاريخ مهمٌّ في تاريخ العرب والمسلمين وتغنّى به كثير من الشّعراء، مثل ابن سفر المريني، ووصف الأندلس بأبيات شعريّة جميلة، وأيضاً الشّاعر نزار قبّاني وغيرهما.

وهو مكان معروف في غرناطة يقصده السُيّاح من جميع البلدان، حيث أنّ الفتح الإسلامي قد وصل الأندلس في أواخر القرن الأوّل للهجرة ولم يتوقّف عندها، بل عبر أماكن أخرى امتدّتْ إلى فرنسا. ليست إسبانيا الحديثة هي التي تجذب الناس، وبالذّات الإنسان العربيّ، لكن هي تلك الرّبوع الخلابة واسم الأندلس، والزّخم التّاريخيّ الذي تتصاعد منه الأعمدة والزّخارف والطراز الأندلسيّ الأصيل، الذي كُتبت من أجله القصائد، ولأجل هذا يظلُّ العربيُّ مشدوداً إلى الأندلس القديم والحضارة التي أبدعها العرب في ذلك المكان.

– يبدو أنك تعرف الكثير عن الأندلس وعن تاريخها؟

– أنا يا تامر قرأت مرّة عن الأندلس وأنا في الخامسة عشر من عمري، فأعجبتُ جدّاً بهذا المكان، وكانت أمنيتي أن أسافر وأرى المكان على الطّبيعة، ومرّة في إحدى سنوات الجامعة طُلب منا عمل بحث عن مكان مشهور له اسم مرموق وتاريخ عريق، وبنفس الوقت يتميّز بهندسة معماريّة مميّزة، بعض الطّلاب مثلاً كتبوا عن برج إيفل، وبعضهم كتب عن برج بيزا المائل، ومواضيع أخرى مختلفة، مثل تاج محلّ والأهرامات...لكن ما لفت نظري هو عمل بحث عن قصر الحمراء بالأندلس وعن طرازه المعماريّ، والحمد لله حصلت على أعلى درجة بالمجموعة.

– رائع، وهل استعنت بعدّة كتب لإتمام البحث؟ أم كتاب واحد كان وافياً؟

– استعرت بعض الكتب من الجامعة وقرأتها، كما وحصلت على كلِّ المعلومات الهامّة من الإنترنت، كانت وافية وقيّمة ومدعّمة بالصّور الجميلة، التي أخذتُ منها عدداً وأضفتها للبحث فكان كاملاً ومميّزاً، وبهذا زاد تعلُّقي بالمكان، وأشعر بقربه على قلبي عندما أقرأ عنه، وبالحسرة والأسف على تلك البلاد التي سقطت من يد العرب.

أربع ساعات ونصف تقريباً حتّى وصلت الطّائرة إلى مطار إسبانيا، وأعلنت الـــمُضيفة عن وصول الرّحلة والاستعداد للنّزول. وبدأ الجميع يغادرون المقاعد، نزل المهندسان عن متن الطائرة وأخذا يسيران في الممرِّ الطّويل الذي يُؤدي للقاعة الرئيسة للمطار، كانت دقّات قلب أمين تتسارع فرحاً لوصوله، وشعورٍ آخر لا يعرف من أين انتابه، فقد شعر أنه قريب من ريم لكونه في نفس البلد، وأنه بإمكانه رؤيتها بأيِّ وقت، حتّى ولو بعد ساعة، فأخذ يكلّم نفسه في سرّه وكأنَّ ريم أمامهُ ويُكلّمها فقال: "ها أنا يا ريم قريب منكِ جداً، لا أصدّق أني بنفس البلد، أتمّنى رؤيتكِ لكن... يا ليت الصّدفة تضعكِ أمامي وأراكِ فجأة في إحدى الطّرق، أو عند موقف الحافلات أو حتّى بالسّوق لأراكِ بمحض الصّدفة ولستُ متعمّداً، يا ليت... آهٍ لو تعلمين أني قريب... لكن ما الفائدة؟"

كان تامر في هذه الأثناء يتحدّث مع أمين، لكنه لم يسمع أيّ كلمة بسبب انشغاله بالحديث الوهميّ مع ريم.

استلما حقائبهما واستقلّا سيّارة أجرة للذّهاب للفندق، وفور وصولهما للغرفة ارتمى كلٌّ واحد منهما على سريره ليستريح. فتناول أمين هاتفه الخلوي، ليتحدّث مع منال ويطمئنُها، ويطمئنَّ على حالتها وصحّتها.

رنَّ هاتف منال، كانت مستلقية على ظهرها في منزل والدها فقامت وتناولت الهاتف الخلويّ، فسُرَّتْ عندما رأت رقم هاتف أمين، فأجابته على الفور: "أهلاً يا أمين، هل وصلت يا حبيبي؟"

– نعم لقد وصلنا قبل قليل، وها نحن بالفندق، كيف حالكِ؟

– حمداً لله على سلامتك، أنا جيّدة الحمد لله، وأنت؟

– كلُّ شيء على ما يُرام، انتبهي إلى نفسكِ.

– لا تقلق، لكن أريد أن أذكّرك بالوعد.

– أيَّ وعد؟

– ما بك يا أمين؟ لقد وعدتني أن لا تزورَ ريم أو تتكلّم معها.
– آه...، ألا توجد بيننا ثقة متبادلة؟
– توجد، لكن أخاف أن تسحبك الأشواق القديمة بما أنك أصبحت قريب منها وفي نفس البلد.
– منال...لا تشغلي نفسكِ، اقضي هذه الأيام بهدوء وراحة، ولا تقلقي... إلى اللّقاء الآن، أريد أن أرتاح قليلاً؛ لأنَّ في المساء لدينا حفل عشاء للتّعارف على المسؤولين في الدّورة التدريبيّة والمهندسين المشاركين.
– حسناً إلى اللّقاء.

بقيت منال متوتّرة الأعصاب، لم تَثِق بكلام أمين، هذا بسبب شكوكها الزّائد وعدم ثقتها هي بحُبِّهِ لها.

أما مدير الشّركة الهندسيّة فقد اتّصل بمنال أيضاً وسألها عن المدّة التي ستغيبها في هذه الإجازة؛ لأنَّ الأعمال بدأت تتعطّل وتتراكم، فهم بالشركة بحاجة إلى سكرتيرة. فأجابته منال أنها ستأخذ حوالي شهر ونصف إجازة؛ لأنها ما زالت متعبة وحالة الحمل غير مستقرّة، ونصحها الطّبيب بعدم بذل أيِّ مجهود، فأخبرها مدير الشركة الهندسيّة أنه سيوظّفُ سكرتيرة مؤقّتة لحين انتهاء فترة الإجازة، لكي لا تتعطّل الأعمال. فسُرَّتْ وشكرت مدير الشّركة لأنه متعاون ومتفهّم لظروف موظّفيه. وفعلاً على الفور وظّف المدير سكرتيرة جيّدة وجميلة تُدعى (راما) وأخبرها أنَّ عملها هنا مؤقّت، ولكن في حال أصبح في الشّركة أيَّ شاغر ستكون الأولويّة لراما.

فصعدت راما لقسم الهندسة المعماريّة بالشّركة كما قال لها المدير، حيث أخبرها أن تقابل المهندس هاني ليشرح لها طبيعة عملها بالمكتب وطبيعة تعاملها مع المهندسين. بالفعل توجّهت للقسم وسألت عن المهندس هاني، فأخبروها أنه ذلك الشّاب الذي يجلس هناك أمام جهاز الحاسوب، فتوجّهت إليه وقالت له: مرحباً يا مهندس هاني.

فنظر هاني إلى جانبه فوجد الآنسة راما بابتسامتها المشرقة، فقال لها: "هل من خدمة يا آنسة؟"

– أنا السكرتيرة الجديدة المؤقّتة بدل السيّدة منال، قد عيّنني مدير الشّركة اليوم، وطلب مني أن أصعد إلى حضرتك للمكتب لتشرح لي طبيعة عملي.
– آها...، أهلا وسهلاً، لم يخبرني المدير بأمر كهذا...غريب! لكن لا عليكِ تفضّلي. لم أتعرّف باسم حضرتكِ؟
– اسمي راما.
– راما... اسم جميل، الآن تفضّلي لأُعرّفكِ على مكتبكِ، وعلى الموظّفين وطبيعة العمل.

فأخذها هاني جولة بين الموظّفين والمهندسين في المكاتب، وعرّفها عليهم وأخبرها أنَّ في الطّابق هنا مهندس مدنيٌّ يُدعى تامر، وفي قسم العمارة المسؤول والمهندس المعماريُّ أمين، وهما مسافران الآن.

الفصل الأربعون

بدّلا أمين وتامر ملابسهما وارتديا ملابس رسميّة، ونزلا إلى القاعة الكبرى حيث حفل التعارف والافتتاح للدّورة التدريبيّة هذه، كانت القاعة جميلة جداً مبهرة تمتاز بجوِّها الهادئ، وأضوائها الرومانسيّة الملوّنة التي تتغيّر كلَّ دقيقة لترسم لوحة بتصميم رائع وتشابك من الأضواء المنسجمة، أما المياه المتراقصة على الموسيقى فقد كانت على جانبي القاعة تعلو وتهبط وتشتدُّ وتهدأ وكأن لها أُذناً موسيقيّة، تجعلها تثور وتنسجم مع الموسيقى، فكان المنظر مذهلاً.

فقال تامر: "هل نجلس هنا عند هذه الطّاولة؟"

أجابه أمين: "لا أجئنا لنجلس! تعال لنتمشّى ونشاهد جمال هذه القاعة السحريّة، انظر إلى السقف ما أعلاه، وكأنه قبّـــة فلكيّة، هيّا دعنا نتجوّل ثمَّ نجلس عند بداية الحفل" وبالفعل بعد ربع ساعة جاء عريف الحفل ليفتتح الحفلة بكلمات التّرحيب.

فالتفت أمين ليبحث عن طاولة يجلسا حولها هو وتامر والحمد لله وجد طاولة قريبة، مع أنَّ القاعة أصبحت مليئة بالمدعوّين، فجلسا على الفور.

بدأ عريف الحفل بكلمةِ ترحيبٍ باللّغة الإسبانيّةلم يُفهم منها شيء من قبل المدعوّين العرب، ولكن جاء بعده أحد المسؤولين عن الدّورة وقام بالتّرحيب باللّغة الإنجليزيّة، وأخبرهم أنَّ من قام على هذه الدّورة هو مهندس معماريٌّ عربيُّ الأصل عاش في إسبانيا حوالي خمس عشرة سنة، وعمل مهندساً بإحدى الشركات الهندسيّة في هذه البلاد الجميلة. وقد عاد لوطنه الأم وهي المغرب حيث لا تختلف أبداً عن المعالم المعماريّة الأندلسيّة هنا، وهو الآن لديه أكبر شركة هندسيّة بالوطن العربيّ، يستقطب إليها أمهر المهندسين الشّباب العرب؛ ليعملوا في شركته لأنها شركة كبيرة وتصمِّم مشاريع لمختلف دول العالم ولا تقتصر على المغرب فقط، بل قامت بتصاميم مشاريع لدولٍ مختلفة مثل دبي، مصر، السّعودية، الكويت، فرنسا، إسبانيا وغيرها من دول مختلفة. وستعمل هذه الشّركة جاهدة على تدريب أكبر عدد ممكن من المهندسين الشّباب وتختار منهم الأفضل لتضمّهم إليها، وستعقدُ كلَّ سنة دورة تدريبيّة مثل هذه الدورة، وكلّ عام في بلد مختلف؛ ليحظى المهندسون بخبرة أوسع وتتّسع آفاقهم وخيالاتهم.

ونوّه هذا المسؤول أنَّ هذه الدّورة لهذا العام بالتعاون مع مؤسسة التراث الأندلسيّ الإسبانيّ. وقدم شكراً خاصّاً للسيّد (كلاوديو ترثيودور) المستشار التنفيذي الذي ساهم في هذا العمل.

وطلب من الجميع أن يُرحِّبوا بالمهندس الكبير المغربيّ صاحب شركة (كوما ريس للتّصاميم الهندسيّة المعماريّة الإنشائيّـــة) السيّد عبد القادر الهجراوي القائم على هذه الدّورة.

وقام السيّد عبدالقادر بإلقاء التحيّة على الحضور بالإسبانيّة ثمَّ الفرنسية وبعدها بالإنجليزيّة ولم ينسَ التحيّة بالعربيّة أيضاً، وأكمل كلامه بالإنجليزيّة لأنها الأسهل للجميع، حيث شرح لهم وجهة نظره حول هذه الدّورة والفائدة المرجوّة منها، وبيّن لهم سبب اختيار الأندلس أوّل حضارة

لعقد دورة تدريبيّة بها، حيث كان مقصده أن يُعرِّف المهندسين الشّباب على بلاد المجد المفقود وتاريخها، وأكمل قوله: "إنَّ الأندلس لها سحرها الخاص، وهي كتاب تاريخ بالثّقافة الإنسانيةيُقدّم لنا سلسلة التلاحق للثّقافات والأجناس، حيث استطاعت إنجاز نقلة نوعيّة في مجالات العمارة والأدب والموسيقى والفكر والعلوم وأنماط العيش، وما كان للحضارة هذه أن تتحقّق لولا التقاء عبقريّة الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوج عطائها وإبداعها وعبقريّة الأندلس أرضاً وشعباً وثقافة، مما نتج عنه فردوس ساحر. وقد تكون رسالة هذه الدّورة التدريبيّة(العمل جنباً إلى جنب شعباً عربياً من مختلف دول الوطن العربيّ وإسبانيّين أندلسيّين للبحث عن مستقبل أفضل، والاستمتاع بجمال وعظمة الإنجازات الفنيّة والمعماريّة لتاريخنا المشترك وتبادل الخبرات) وسأخبركم لمحة سريعة عن الأندلس:

هي إحدى مقاطعات إسبانيا، واسمها بالأصل (وندلوسيا) نسبة إلى الوندال أو الفندال، الذين استوطنوها بعد الرّومان، وبعدما فتحها العرب سُميّت الأندلس...

وأكمل السيّد عبد القادر حديثه باختصار عن الأندلس وجمالها المعماريّ. وبعد ذلك دعاهم للعشاء حيث قام الجميع للبوفيه المليء بأشهى المأكولات والحلويّات.

من خلال هذا الحفل السّاهر دخلت على المسرح فرقة فنّية للرّقص الشعبيّ الإسبانيّ المميّز، وقدّموا للجمهور عدّة رقصات جميلة بملابس زاهية الألوان ورقصات بألوان فاقعة، كاللّون الأحمر المشهور لدى الإسبان، كانت سهرة جميلة مميزة وأمين وتامر كانا سعيدين جدّاً، وعندما انتهى الحفل عاد الجميع إلى غرفهم بالفندق.

استغرق أمين ساعة قبل النّوم وهو يُفكّر بريم، هل يا تُرى يُكلّمها ويذهب ليراها أم يحافظ على وعده لمنال، ولا فائدة من رؤية ريم؟ هو حائر، قلبه يشدّه إلى ريم وأشواقه تضعف أمام رقم الهاتف لكن عقله يُخيفه وضميره يؤنّبه، إلى أن غفا وهو يحاور نفسه ولم يصل إلى نتيجة أو قرار.

أما في صباح اليوم التالي استيقظت ريم وصورة أمين لا تفارق مخيّلتها تشعر بشوق كبير له، فقرّرت أن تتّصل هاتفياً بالشركة وتكلّمه، وبالفعل رنَّ الهاتف أمام السّكرتيرة الجديدة راما....

"آلو الشركة الهندسيّة الكبرى تفضّل".

– مرحباً، هل لي من فضلكِ أن أكلّم المهندس أمين.

– المهندس أمين مسافر، من حضرتكِ؟

– مسافر! إلى أين؟....(أجابت ريم مستغربة جداً)

– بصراحة أنا لا أعرف، فأنا جديدة هنا، هل أحوّلكِ إلى أحدٍ آخر؟

– أين منال؟

– أنا السكرتيرة راما هنا بدلاً من منال لأنها في إجازة، هل أستطيع أن أخدمكِ بشيء؟

– أهي مسافرة أيضاً مع أمين؟

– كلا، هي في إجازة مرضيّة.

– من فضلكِ، هل أكلّم المهندس هاني؟

– حسناً ثوانٍ، لكن من أقل له؟

– قولي له ريم، لكن بسرعة لأني أتكلّم من خارج البلد.
– حاضر.

أجاب هاني على هاتف ريم وكان متفاجئاً، يعتقد أنَّ أمين ذهب إليها لذا هي اتّصلتْ به، لكن عندما سألته إلى أيِّ بلد سافر أمين؟ عرف أنه لم يكلّمها بعد، لكن أخبرها أنَّ أمين هو جارها الآن؛ لأنه بإسبانيا منذ البارحة. وقد أعطاه رقم الهاتف وسيحاول الاتّصال بها قريباً، ففرحت ريم لهذا الخبر، في البدايةلم تُصدِّق كانت تعتقد أنَّ هاني يُمازحها، لكن أكّد لها أنه في ذات البلد، فأغلقت ريم سمّاعة الهاتف وبدأت تترقّب الاتّصال.

لكن قرار أمين الأخير الذي اتّخذه صباحاً هو أن لا يُكلّم ريم؛ لأنه لن يستفيد شيئاً سوى الإحساس بالقهر واشتعال ماضٍ ليس له داعٍ الآن، فأخذ الورقة المكتوب عليها الرقم من جيبه وأتلفها لكي لا يعود للتفكير بالموضوع.

استعدَّ المهندسان لمغادرة الغرفة والتوجّه إلى قاعة الإفطار ليتناولا طعامهما، ويستعدوا جميعاً لرحلة قصر الحمراء. فأولى المواضيع المجهّزة في برنامج الدّورة هو قضاء نهار كامل هناك، وتسجيل أهمِّ الملاحظات الدّقيقة التي تلفت نظر المهندسين، وكلُّ مهندس له دفتره الخاص يدوّن ملاحظاته الخاصّة به، وفي اليوم التالي يتمُّ مناقشتها بقاعة المحاضرات، وهذا بإشراف كبار المهندسين على هذه الدّورة التدريبية.

أخذ أمين آلة التصوير معه ليُصوّر جماليّات هذا القصر والدّفتر لتدوين الملاحظات كما هو متّفق.

وصل الجميع إلى الحمراء وصاروا بطريق تُعرف بطريق "قوماليس" تنتهي بباب ضخم خشن الهندسة، نُقش في أعلاه ثلاث رمّانات متفتّحة، رمز مدينة غرناطة واسمها بالإسبانية "جرانادا" ومعناه الرّمانة.

كان الجميع مبهورين بجماليّات وروعة المكان، ورائحة أشجار البرتقال المزهرة والورود بأشكالها، وكأنّهم دخلوا إلى جنان عدنٍ والفردوس، فأسرع تامر وأمين ليسيرا بالمقدّمة شوقاً للوصول إلى المناظر الأجمل، لكنهما اكتشفا أنَّ كلّ مكان أجمل من غيره ومن الذي سبقه. حتّى ارتفعت أمامهما غابة ذات أشجار عظيمة متشابكة، ويخترقها ممرٌّ ضيّق مُتعرّج يتلاشى في أعماقها، وهناك ظلٌّ جميل ونسيم رقيق ينشر بالجوِّ رائحة زكيّة مع سكون مهيب، يقطعه خرير المياه المنسابة على طرفيّ الطّريق الصغيرة المتعرّجة، وزقزقة العصافير وكأنَّ الطّريق سحريّة، هي التي تشدُّهم إلى الدّاخل، وتجذبهم لاكتشاف هذا المكان العريق، حتى وصلا إلى باب يبلغ ارتفاعه حوالي ستّة أمتار ذي قوس بشكل حدوة فرس وهذا المدخل يُعرف باسم (باب العدل) وهو أحد مداخل الحمراء.

كان أمين يُصوّر كلَّ شيء، ويُسجّل كلَّ الملاحظات حول المشاهد الهندسيّة المميزة. ودَوَّن أنَّ هذا الباب منقوش على أعلاه رمزاً لقواعد وأركان الإسلام الخمسة، ومفتاح كبير يدلُّ على أنَّ هذا الباب هو مفتاح القلعة.

ثمَّ ساروا في طريق ضيّق انتهى في ساحة مغروسة بالأشجار تُدعى "ساحة الجبِّ" لأنَّ فيها بئراً ذات مياه عذبة للغاية. وهنا بقيّة آثار، منها باب يُسمّونه الإسبان "باب الخمر" وهو بناء بني نصر، وساروا حتّى وصلوا إلى حدائق أخرى وجنان، وصلوا إلى برج يُدعى"فالا" يزيد ارتفاعه عن ستة وعشرين متراً، تبدو مدينة غرناطة وسهلها بمنظر رائع مهيب، ومن الجهة الأخرى "جبال السيارا"، وفي وسط سهول غرناطة شاهدوا الهضبة المعروفة باسم "سوبيرو دلمورو" هناك وقف الأمير الفتى أبو عبد الله الصّغير وقفته المفجعة ملتفتاً نحو فردوسه الضّائع، نحو غرناطة الحمراء، في هذا المكان بكى أبو عبد الله بكاء الثكلى على ضياع هذا العرش منه بأكمله، فقالت له والدته كلمتها المشهورة: "ابكي اليوم كالنساء... مُلْكاً لم تحافظْ عليه كالرّجال".

إنّها لساعة قاسية حينما كان الأمير التّعيس ينسحب مغلوباً على أمره، لكنها بلا شكٍّ ساعة سرور واعتزاز "لفرديناند وإيزابيلا" عندما أصبح الحمراء مُلْكاً لهما، وراية الكاستيل تخفق فوق أعلى برج بالحمراء.

تلك مأساة من تاريخ آخر ملوك الأندلس، لا تخلو من عبرة وذكرى مؤلمة لجميع العرب إلى يومنا هذا. (هذه المعلومات كانوا يأخذونها من الدّليل السيّاحي العربيّ الذي كان يُرافق جميع المهندسين المشتركين بالدّورة).

أخذ أمين يتنهّد بسرّه على هذه المدينة الجميلة الرّائعة، وأكمل سيره إلى أن وصلوا إلى ساحة الريحان المعروفة باسم "ساحة البِركة" وتبدو في دار الرّيحان العبقريّة الشرقيّـــة باهرة، وتشعر بسحر غريب يمتلكك، وهذه السّاحة أوسع ساحات القصر، وأخذ أمين يُدوِّن ملاحظاته حول ما رأى فيها "ساحة آية من آيات الفنِّ المعماريّ فيها بساطة وتناسق عجيبان، أربع جدران بسيطة وبِركة، وهذه السّاحة من الرّخام الناصع والنّقوش الـــمُدهشة، التي نُقِشتْ على الأقواس والقيشان البديع، وأعمدة من المرمر كالشّموع، وساروا وانتقلوا حتّى وصلوا إلى (قاعة السفراء) حيث تقرّر فيما مضى لكريستوفر كولمبوس المساعدة للقيام برحلته التّاريخية. قاعة مزركشة بنقوش فسيفسائية عجيبة ونجوم وأزهار وخطوط كوفيّـــة بشكلها المزخرف، بما فيها من حِكم وآيات وشعر رقيق، أما السّقف من خشب الأرز ذي الخطوط والرّسوم الهندسيّة الموشّح بالعاج والمحلّى بالأبنوس".

أخذ أمين يتأمّل ويُصوّر مذهولاً من هذا التّصميم الرائع، حتّى أنه عجز عن تدوين ملاحظاته، وشعر أنه لا يفي المكان حقّه بالوصف، وأكملوا طريقهم إلى أن وصلوا إلى (ساحة الأسود) المشهورة فهي ساحة مبهرة الجمال، دخل أمين وشعر أنه مسحور بهذا الجمال وكلَّ شيء به يجذبه، وقال: "سبحان الله على هذا الإبداع الذي أودعه في نفوس هؤلاء القوم من نبوغ وعبقرية بالغة" وأصبح يٌدوّن ملاحظاته: "تقذف الأسود المياه من أفواهها في أفنية رخاميّة مسطّحة وكلٌّ ساعة تقذف المياه من فم أسد مختلف، وهناك أبيات شعريّة منقوشة على أطراف بركة الأسود منها:

(ومنحوتة من لؤلؤ شفَّ نورها تحلّى بمرفض الجمان النواحيا).

وأُحيطت هذه السّاحة برواق تعلوه أجمل الأقواس على أعمدة من المرمر النّاصع، وهي بأشكال متنوّعة تظهر كأنها غابة هندسيّة طبيعيّــة، وكلمّا زاد المرء تأملاً بها رأى أشياء وتفاصيل جديدة، فجمالها لا يُمَل، وفيها فنٌّ معماريٌّ لا ينضب، وساروا ومشوا في القصر ودخلوا غرفاً مزخرفة وقاعات جميلة وحدائق يميناً ويساراً، وبرك ماء تسبح فيها الأسماك بألوان مختلفة.

يا له من فردوس جميل!! حتّى قُضيت السّاعات وانتهى الوقت ومرّت كلُّ ساعة كأنها دقيقة، وغروب الشّمس أضاف جمالاً آخر.

ودَوَّن أمين في آخر ملاحظاته: "آمنتُ بفنِّ الحمراء وسحره"، وخرج مودّعاً هذا المكان الساحر الذي يتعلّق به أيَّ قلب عندما يزوره ويحزن لوداعه، ويتمنّى أن يقضي أياماً أخرى فيه. لكن التّاريخ انتهى والحمراء لم تعد لأبي عبد الله.

ركب الجميع بالحافلة التي ستنقلهم للفندق، لم يتكلّم أمين ولا كلمة واحدة طيلة الطّريق حتّى وصلوا الغرف، فقال له تامر "لم أسمع رأيك بالمغامرة" فأجابه أمين وهو يستلقي على السرير: "طيلة المغامرة ونحن نُعبِّر عن اندهاشنا ورأينا بالمكان وما زلتُ للآن مندهشاً بالمكان الذي كنّا فيه... لكن أتعرف ما الذي شعرتُ به وأنا داخل هذا القصر الجميل؟"

- ماذا شعرت؟
- هو شعور خاص انتابني شعرتُ أنَّ هذا هو بيتي الذي افتقدته من أيام الطّفولة، وشعرتُ بالحنان بين جدرانه وحدائقه الجميلة.
- يا أخي هذا ليس شعور بل أمنيات، كلّنا تمّنينا لو عِشنا في ذاك القصر العظيم.
- لا، ربّما لم تفهم قصدي...، لا مشكلة سأحتفظ بشعوري لنفسي.
- ألا تريد الذّهاب للعشاء يا مهندس أمين!
- سألحق بك بعد قليل، أجري مكالمة هاتفيّــة، ثمَّ تراني أمامك بالبوفيه.
- حسناً، سأسبقك لأني متُّ من الجوع ومعدتي تعتصر.

فتح تامر الباب وخرج مسرعاً للعشاء، أما أمين اتّصل بمنال فأخبرته أنها بخير وهي تقضي وقتاً ممتعاً في بيت أهلها ولا تشعر بالملل، المهم أنها لم تسأله عن ريم أبداً.

في كلِّ لحظة تمرُّ في إسبانيا كان أمين يتمنّى رؤية ريم ولو للحظة واحدة وبالصدفة مثلاً، حتى أنه لا يعرف بأيِّ مدينة تسكن، قريبة أم بعيدة، لكن خياله يجعله يشعر أنها تسكن في البيوت القريبة من الفندق، فيبقى يُراقب النّوافذ والمداخل لعلّه يراها هنا أو هناك. لكنه سيبقى محافظاً على وعده لمنال. أما ريم بقيت طيلة النّهار تنتظر هاتف أمين، لكنها للأسف لم تحصل على مُناها.

***

الفتاة الهادئة المهندسة نسرين، وفِّقتْ بابن الحلال الذي تقدَّم لِخطبتها، وهو شاب بالثلاثين من عمره ذو أخلاق حميدة، وصاحب مشاريع إسكانيّة مميّزة في البلد. تَعَرّف عليها بإحدى الشّركات الهندسيّة، عندما تقدّم للشّركة وطلب منهم التعاقد مع مهندس آخر لاستلام وتصميم المشاريع القادمة، فوقع اختيار مدير الشركة على نسرين، حيث تمَّ إخبار صاحب المشروع ويُدعى نادر أنَّ هذه المهندسة متميّزة ولها حسٌّ فنيّ، إضافة إلى براعتها في الهندسة، وبالفعل تمَّ

الاتّفاق بينهما على استلامها المشاريع الجديدة والبدء بالتّصميم الأوليّ هي وفريق عمل مميّز تحت إشرافها.

هذا المشروع هو الذي جرّهما للمشروع الكبير، وهو الزّواج بعدما أعجب كِلاهما بالآخر، فتمَّ عقد قران نادر ونسرين، واتّفقا أن يكون حفل الزّفاف بعد ثلاثة أشهر، لحين تتمّ التّرتيبات على أكمل وجه.

***

كلُّ يوم ينقضي في إسبانيا كان الأجمل من الذي سبقه، لم تكن الدّورة التدريبيّة جامدة أو جافّــة بل مشوِّقة، والحديث مع المهندس عبد القادر الهجراوي ممتع جداً، هو عبارة عن موسوعة تاريخيّة وكتاب علميّ مفتوح، لقد كان يُشرف على أيام الدّورة بنفسه، وبجانبه مهندسون ضليعون بالعمارة.

أما ريم ومع معرفتها أنَّ أمين في هذه البلاد فلا نوم أصبح يراودها، ولا هدأ لها بال، كلّ يوم يمضي تحزن بشدّة، كيف يصلُ أمين إسبانيا ولا يكلّمها؟ لماذا لم يتّصل ويُحدّد موعداً لمقابلتها، هل حقّــاً نسيها؟ ولم يعد يهمّه بعد الآن حبّها، هل هي ماضٍ انتهى منه؟! أسئلة كثيرة تجلس وتسأل نفسها بها كلّ يوم من الصّباح حتّى ينقضي النهار. لقد كرِهتْ نفسها لأنها ما زالت صادقة بحبّها، وهولم يعد مهتمّــاً ولو بإجراء مكالمة هاتفيّة، وأخذت تبكي وتُعاتب أمها في نفسها: "لــمَ حرمتيني هكذا؟ لماذا يا أمي؟ هذه حياتي أنتما لا تشعران بوجعي ووحدتي والمرارة التي أعيش بها الآن، أنا مقطوعة عن العالم، حتّى بهذا الزّواج حرمتماني من رؤيتكما وأبعدتماني عنكما، يا ليتني تزوّجت أمين ولم أُطع كلام أحد، لو أني تركت المنزل وذهبت إلى منزل زوجي أمين، لكان أفضل حالاً من الوضع الذي أنا فيه. أمي قالت أنها لن تتعرّف عليّ ولن تجعلني أدخل المنزل، لكن أنا الآن بعيدة ومنفيّة وببلد آخر، لا أحد يعترف بي... لو تزوّجت بأمين لبقيت في نفس البلد وقريبة من باقي أهلي وناسي وصديقاتي اللّواتي أعرفهنّ جميعاً، لن يتبرّى الجميع مني هذا أكيد! والمؤكّد أيضاً أنَّ أمي ستغضب في البداية ثمَّ نعود ونتصالح مع بعضنا وتتقبّل أمين، لكن أنا غبيّة لم أعرف كيف أفكّر... لو تزوّجت منك يا أمين ما المشكلة؟! على الأقل كنت أعيش الآن مع الشّخص الذي أحب، أهلي بعيدون وأنا في عالم غريب، وزوجي ليس بزوجي...آه، أنا المجنية عليها فقط".

انتهت دورة إسبانيا وركب أمين الطّائرة هو وتامر للعودة، لكنَّ حُزناً شديداً يضغط على قلبه، سيغادر البلد الذي قلبه فيها ولم يرَ ريم، فأخذ يضحك وهو جالس بالطّائرة قبل الإقلاع بدقائق. فقال له تامر: "ما الذي يُضحكك؟ لا أرى ما يُضحِك أمامك! "

– بل أنا المضحك، لأني تخيّلتُ أنَّ الصّدفة وحدها تكفي ليرى الإنسان من يحبّ، وهو في عالم آخر.

– لا أفهم قصدك يا أمين! (تامر لا يعرف قصّة أمين وريم)

– لا يهمّ... إني أمازحك.

***

تَخْرُج وتدخل إلى الشّرفة تنتظر قدوم أمين من المطار، كان الطّقسُ حارّاً جدّاً، والسّاعة حوالي الثّـــانية ظهراً، لكنها بقيت على هذا الحال حتّى وصل أمين بسيّارة تامر، فأوصله وغادر، فركضت منال للباب لتفتح له وهي بشوق كبير. وصل أمين المترل ووضع حقيبته جانباً، فارتمت منال بين ذراعيه شوقاً لتعانقه: "لقد اشتقت لك يا حبيبي".

– وأنا كذلك يا حبيبتي، طمئنيني عنكِ.

– الحمد لله أصبحت أفضل حالاً، والحمل بدأ يثبُت بشكلٍ طبيعيّ.

– هذا جيد، لكن هذا لا يمنع من أن تبقي مرتاحة ولا تُجهدي نفسكِ.

– نعم مؤكّد.

وجلسا في غرفة الجلوس فجلست منال بجانبه تماماً، ووضعتْ رأسها على كتفه وقالت له:"قل لي يا أمين كيف كانت دورتك التدريبيّة، وإسبانيا وأهلها وجوّها العام، كيف وجدها؟"

– على مهلكِ يا منال، كلُّ هذه الأسئلة مرّة واحدة!

– أريد أن تحدّثني بكلِّ شيء، وكلِّ صغيرة وكبيرة إيّاك أن تنسى أيَّ شيء، وكلّ خطوة خطوها هناك، ومن شاهدت، لكي أشعر أني كنت معك وسافرت لإسبانيا.

– لا تخافي سأخبركِ بكلِّ شيء، لكن سأذهب لأسلّم على خالتي ومن ثمّ آخذ حمّاماً ونجلس لنتحدّث طويلاً.

– لكن خالتك ليست هنا، إنها في زيارة لبيت أهل زوجها عبد الرّحمن.

– آها...حقاً؟ طيّب سأذهب للاستحمام ونجلس نشرب معاً شاياً مع الحليب ونتحدّث.

– هيا اذهب للحمّام فالماء ساخن، وأنا سأعدُّ الشّاي.

ذهبت منال للمطبخ لإعداد الشاي وبدأت تدور الأفكار في رأسها، هل يا تُرى أسأله إذا ذهب لريم أو كلّمها؟ أم أرى إن كان سيُحدّثني هو بمفرده؟ لا، ربّما لن يذكر لي شيئاً كهذا؟ لا بدّ أن أسأله أنا.

خرج أمين من الحمام منتعشاً وقد حلق ذقنه وكانت رائحته فوّاحة وعطرة، بل جذّابة، وقد ارتدى سروالاً قصيراً (شورت) وقميصاً قطنياً (فانيلا)، فقال لمنال: "هاتِ الشّاي لغرفتنا هنا، سنجلس على السّرير ونستند ونتحدّث".

سكبت منال الشّاي مع الحليب وقدّمت له الكوب، وسكبت لنفسها واحداً أيضاً، وقالت له: "نعم يا عزيزي، صِفْ لي جمال تلك البلاد وما هو شعورك عندما وصلت إلى هناك؟"

– يا منال البلاد جميلة جدّاً طقسها رائع، ماذا أصفُ لكِ؟ خضارها الذي يُغطّي كلّ مكان، فخامة وبساطة البنيان الذي رأيناه، لقد صوّرت لكِ كل الأماكن التي زُرها، ستُعجبين بها فهي مذهلة وجذّابة وساحرة.

– من هذه؟

– إسبانيا! وبالأخصّ غرناطة.

نظرت منال نظرة تشكيك بأمين وقالت له: "ألم تصوّر لي ريم أيضاً بسحرها وجمالها؟"

– ريم! أعدنا لذات الموضوع يا منال؟ أنا أحدّثكِ عن شيء وأنتِ بشيء آخر.

- لا تُضيّع الموضوع، وتكلّم معي بوضوح فسؤالي واضح.
- ما هذا الأسلوب يا منال؟ أشعر وكأني بمحكمة ولستُ مع حبيبتي.
- أعدنا لتتهرّب من السّؤال!
- لا أهرّب! لماذا أهرّب أصلاً، سؤالكِ غير منطقيٍّ أبداً سبق وأن تكلّمنا، ووعدتكِ أنني لن أكملّها وأنا كنت عند وعدي وصدقتُ معكِ.

وباستهزاء أجابته منال: "ستُقنعني أنك لمْ تقابلها ولا اتّصلت معها هاتفيّاً؟ لا أُصدِّقك!"

نظر لها أمين بغضب وصمت ولم يُجب على سؤالها، ووضع كوب الشّاي من يده بجانب السّرير وخرج من الغرفة، وجلس في غرفة الجلوس... أضاء التلفاز وأخذ يُقلِّب بالمحطّات، لا يعرف على أيّ قناة يُثبِّت لأنه متوتّر.

فجاءت منال وأخذتْ المحوّل من يده وأطفأت التلفاز، وقالت له: "أنت إنسان لا مبالٍ، أنا أتحدّث معك وأنت تتنحّى عنّي وتجلس لتتابع التّــــلفاز".

- اسمعي يا منال إذا بقيت هكذا على غيرتكِ وهذه الأوهام، فإنكِ ستنهارين وتقضين على الحبِّ الذي بيننا، وهذه ليست المرّة الأولى التي أُخبركِ بهذا الكلام، كفاكِ شكوكاً، هذا مرض أرجوكِ تخلّصي منه، أنا لم أرَ ولم أكلّم ريم أبداً، صَدّقتِ أم لم تُصدِّقي هذا يعود لكِ. وليس لديّ رغبة أن أكلّمكِ أيضاً.
- أولاً أنا لست غيّورة، (وبدأ يعلو صوت منال وكأنها تتحدّث بلهجة الصّراخ) ثانيا: طبعاً لن أصدّق أبداً أنك لم ترَها أو تكلّمها فهذا مستحيل، أنت وحبيبة القلب في نفس البلد، وبعيداً عن كلِّ الناس، وتريدني أن أصدّق أن اللّقاء بينكما لم يتم؟ هذا لا يُصدّق!
- يظهر أنَّ الثّقة بيننا معدومة...يا خسارة يا منال، لا تجعليني أندم لأني صُنْتُ الوعد والحبَّ الذي بيننا ولم أخلف بوعدي لكِ، ولو سمحتِ أخفضي صوتكِ وأنتِ تتكلّمين، وابتعدي عن وجهي.
- أثبت لي أنك لم تقابلها.
- لا داعي لكي أُثبت، أنا صادق وحسب.

فقام ودخل إلى غرفته وبدّل ملابسه بسرعة قصوى وخرج، لحقت به منال وقالت له: "إلى أين؟"

- سأذهب للمكتب، وشكراً على هذا الاستقبال الرّائع والاحتفال الذي استقبلتيني به.

فقالت له مستهزئة: "كم أنت حسّاس ولا تتحمّل أيّ حديث، وعصبيّ المزاج".

- أنا كذلك؟!... وخرج منزعجاً.

وصل أمين الشّركة وذهب للمدير لكي يُسلِّم عليه ويحّدثه عن الرّحلة والفائدة المجنيّــــة منها، فاستغرب المدير من قدومه للدّوام، وأخبره أن يعود لمترله لكي يرتاح وغداً يبدأ دوامه، لكن أمين أخبره أنه اشتاق للجميع وللعمل والشركة، وهو يشعر بسعادة شديدة وهو بين زملائه بالعمل، فسُرَّ المدير منه.

ثمَّ قال له أمين:"سأصعد إلى مكتبي وأسلّم على جميع زملائي بالعمل ثمَّ أعود للمترل"

وفعلاً صعد إلى طابق المكاتب الذي يعمل به، فرآه هاني وتفاجأ به، قال له: "حمداً لله على

سلامتك، متى عُدتَ يا أمين؟"وسلّم عليه بحرارة.
- لقد عُدتُ اليوم قبل ساعتين تقريباً.
- ولــمَ أنت هنا؟ أنت مجاز اليوم، اذهب إلى زوجتك يا أخي.
- كنت بالمترل وجئت لكي أسلّم عليكم، لقد اشتقت للجميع وبالأخصّ لك أنت يا هاني.
- وأنا أيضاً يا صديقي، المكتب ملل شديد من دونك وشعرنا بفراغ كبير.

ثمَّ دخلت السكرتيرة راما عند هاني، تحمل أوراقاً كثيرة وضعتها على المكتب، وقالت له: "عذراً سيّد هاني، هذه الأوراق بحاجة إلى تدقيق من حضرتك، ألا تُعيرها اهتمامك قليلاً لأنها مهمّة؟"

- حسناً، هاتِها.

وضعت الأوراق وأدارت وجهها لتخرج، لكنَّ هاني قال لها: "راما انتظري قليلاً أريد أن أعرّفكِ بمدير القسم هنا"وأشار على أمين وقال: "المهندس أمين شاكر مدير قسم العمارة بالشّركة"، وقال لأمين: "هذه الآنسة راما، السكرتيرة المؤقّتة بدل السيّدة منال".

ابتسم أمين في وجهها وقال لها: "أهلا وسهلاً يا راما فرصة سعيدة، هل أنتِ مرتاحة بالعمل عندنا؟"

ابتسمت راما وقالت:"نعم بالتأكيد يا سيّد أمين، كلّ الأمور والأعمال جيّدة ومريحة بالنسبة لي".

- هذا جيّد يا راما، لكن أرجوكِ لا داعي لكلمة سيّد فأنا لست كبيراً لدرجة أن أكون سيّدكم، أنا مسؤول إداريٌّ هنا بالقسم ومهندس كباقي المهندسين وزميل للجميع بالعمل، وبالنهاية نحن موظّفون بنفس الشّركة، ولا داعي للتّسييد.
- حاضر، لكن بماذا أناديك؟ لا أستطيع أن أقول الاسم من دون لقب أنا معتادة هكذا، هل أقول يا أستاذ أمين بدل سيّد؟

ضحك أمين وقال لها: "أصعب عليكِ أن تقولي أمين من دون ألقاب؟ "

- لا أستطيع، وليس من اللائق أن أناديك أمين أمام الزّبائن أو الضّيوف، سأقول أستاذ أمين، ما رأيك؟
- حسناً كما يحلو، لكن من دون سيّد هذه.
- حاضر يا أستاذ...وخرجت لمكتبها.

فنظر هاني لأمين وقال له: "نعم ما رأيك؟"

- بماذا؟
- مابك يا أمين... بالفتاة طبعاً.
- تبدو عليها جيّدة ونشيطة وتحبُّ عملها.
- يا إلهي لا أقصد ما رأيك بها كسكرتيرة...! كفتاةٍ ما رأيك؟
- جميلة ولطيفة.
- جميلة ولطيفة...! (ههhe أخذ هاني يستهزئ بكلام أمين).

– ما بك أنت يا هاني...! لا أفهم قصدك! أنت متزوّج وأنا متزوّج على أساس ماذا تقيس رأيك بالفتاة؟ أم تريد أن تتزوّج واحدة ثانية؟ أو ربّما أعجبتك كصديقة!!
– ألم تتأمّلها جيّداً؟ أنت غير طبيعيٍّ اليوم أبداً.
– نعم رأيتها لم أجد فيها شيئاً مميّزاً، تبدو أنك أنت أُعجبت بها، مسكينة يا ديالة لو تعرف ما يجري.
– كلا... لستُ معجباً بها، لكن ألم تجدها تشبه أحداً ما تعرفه أنت وتحبّه.
– آآه .....أتقصد ريم؟
– آآآ... هذا جيّد بدأت تستوعب، أريد أن أرى إذا كنت تستطيع التشبيه أو لاحظت ذلك.
– تُشبهها ربّما، لكن ريم أجمل وأنعم، هي تشبهها بالشّعر والطّول، وبنفس حجم الجسم.
– وجهها أيضاً، انظر جيّداً في المرّة القادمة.
– ليس كثيراً ريم أجمل، هذه ابتسامتها ليست ساحرة، بل لها ابتسامة تُشعِرك بالنّعاس!
– نعم، لا أنكر... لكن فيها شيء من ريم.
– يا سلام يا هاني، لو رأتها منال ماذا تتخيّل أن يحصل لي من غيرتها؟
– لا شيء، لأنها ليست ريم.
– بتصوّرك لا شيء، لكن الحقيقية غير ذلك.
– لقد لاحظت أنَّ منال تشعر بالغيرة، لكن قل لي... هل قابلت ريم؟
– أبداً، ولا حتّى سمعتُ صوتها.
تفاجأ هاني من أمين، وقام وقال له: "لماذا؟ ألم يكن معك الوقت الكافي؟"
– بلى... لكن وعدتُ منال من عدم زيارتها أو الاتصال بها، ولا أحبُّ أن أكسر حاجز الثّقة بيني وبين أحد.
– ياه...على هذا الإخلاص، فعلاً اسمك يناسبك، يا لك من أمين!
– أتهزأ بي؟
– لا، ولكن الموضوع لا يحتاج إلى كلِّ هذه الأمانة والوعود، أنت لن تخون منال هي مجرّد زيارة لزميلة كانت معنا بالجامعة...اعتبرها هكذا.
– فعلت الذي يُريحني وهو الصّواب، لا داعي لإعطائي النصائح، على كلِّ حال جئت لأسلّم عليكم وسأعود للبيت، أراك غداً إن شاء الله، إلى اللّقاء.
– إلى اللّقاء، مع السلامة يا أمين.

بعد خروج أمين من الشركة بحوالي ربع ساعة اتّصلت ريم من إسبانيا تسأل عنه، فأخبرها هاني أنه قبل قليل كان هنا، فحزنت جداً عندما علمت أنه عاد ولم يأتِ لزيارتها، أو اتّصل معها هاتفياً، فسألت هاني عن السبب، لكنه أخبرها أنَّ أمين لم يجد الوقت المناسب، لقد كان مضغوطاً بالوقت في هذه الدّورة التدريبيّة.

فقرّرت الاتّصال به على منزله لتسأله عن السبب؛ لأنَّ جواب هاني لم يقنعها فبقيت في حيرة من أمرها، وعلى الفور اتّصلت بمنزل أمين.

كانت منال مستلقية على السرير والهاتف بجوارها، أما أمين فكان يستلقي على الكنبة في غرفة الجلوس وكلاهما لا يكلّم الآخر. تناولت منال سمّاعة الهاتف لتجيب فتفاجأت بصوت ريم، فقامت وجلست على السرير والغضب يجتاحها، لكن في البداية تظاهرت أنها لم تعرف من المتكلّم، مع أنَّ ريم سألتها بكلِّ لطف وود: "كيف حالكِ يا منال؟ لقد اشتقتُ لكِ كثيراً"، أجابتها منال بكلِّ جفاء: "عفواً...من المتكلّم؟ "فقالت لها: "أنا ريم، ما بكِ يا منال ألم تعرفي صوتي!"

– أهلاً، ماذا تريدين ولماذا تتّصلين؟

أحسّت ريم بكراهيّة من منال نحوها وصلتها عبر أسلاك الهاتف فصمتت.

– قالت منال: أما زلتِ على الهاتف؟

– نعم، أنا حقّاً متفاجئة منكِ، ألسنا صديقتين حميمتين؟ لـــمَ تُكلّميني هكذا؟!

– لأنكِ تسرقين قلب أمين منّي وأنتِ بعيدة.

كان أمين من بعيد يستمع لحديث منال بالهاتف، لكن في البدايةلم يعلم مع من كانت تتكلّم، وعندما سمعها تقول:"أنتِ تسرقين قلب أمين"، أيقن أنها ريم المتّصلة. فأعار سمعه الانتباه أكثر، يريد أن يسمع ماذا ستقول منال لها.

وريم أجابتها: "لا يا عزيزتي، أنا التي يجب أن تكون حزينة، وأن أشعر بالغيرة منكِ، أمين الآن لكِ، وأنا من ضاع عمري وقصفتْ زهرة شبابي، وابتعدتُ عن كلِّ النّـــاس الذين أحبّهم".

– الحمد الله أنكِ ابتعدتِ وارتحنا منكِ.

– أبهذه السهولة تقولينها؟ –سامحكِ الله– لم أتوقّع هذا القول من صديقتي! لا تعلمين كم أنا أُعاني هنا، على كلِّ حال كنتُ أريد الحديث مع أمين لكن بعد هذه الكراهية فأنا لا أجرؤ أن أطلب منكِ أن تناديه لأكلّمه، لم أعلم أنَّ الموضوع حساس جداً بالنّسبة لكِ، آسفة على الإزعاج.

– هذا أفضل، وإياكِ أن تقومي بالاتّصال مرّة أخرى... مع السّلامة.

وأغلقت السّماعة بغضب وعادت واستلقت في سريرها متوتّرة جدّاً.

أما أمين لم يعجبه أسلوب منال بالحديث مع ريم، ولم يذهب لمنال ويناقشها بالموضوع، بل بقي مكانه صامتاً، لكي لا تزداد المشاحنات، لكن بقي فِكْره مع ريم وتمنّى لو سمع صوتها.

منال لم تستطع الجلوس صامتة دون افتعال المشاكل والمشاحنات، وكأنَّ شيئاً ما يدفعها لخلق أيِّ نزاع، فبعد نصف ساعة قامت من سريرها وجاءت لغرفة الجلوس عند أمين، فوجدته يتابع برنامجاً ما، فبدأت حديثها: "ريم اتّصلت قبل قليل"

لكن أمين نظر إليها وبقي صامتاً، وأعاد نظره إلى التّلفاز، ثمَّ قالت له: "ألم تسمع ماذا قلت؟" فقال لها: "بلى، أرجوكِ ابتعدي من أمامي قليلاً لأنكِ تحجبين رؤية التلفاز "

– اسمع يا أمين إذا اتّصلتْ ريم مرّة أخرى وطلبت الحديث معك، سأذهب عند والدها وأخبرها أنها ما زالت على علاقة معك وتحبّك، لكي تؤدّبها أمها أو تخبر زوجها ليعاقبها على طريقته.

تأفّف أمين وقال لمنال: "أوووف...حرام عليكِ يا منال، تؤدّبينها أكثر من هذا؟ لقد زوّجتها أمّها برجل لا تحبّه ويكبُرها عُمْرَاً ونفتها إلى بلد بعيد، وتريدينها أن تعاقب أيضاً، أهذا لا يكفي؟"

- لا أبداً لأنَّ المنطق يقول أن لا تبقى فتاة متزوّجة على علاقة بشاب كانت قد أحبّته يوماً، وهو متزوّج أيضاً الآن، فهذه قلّة الأدب بعينها وعدم احترام لزوجها ولي أيضاً.
- منال لا تهوّلي الأمور، أين هي العلاقة أمجرّد اتّصال هاتفيٍّ يعني علاقة؟ كوني عاقلة... كيف لولم تكوني بالصّورة منذ البداية؟ ألم أسألكِ أن تُحَكِّمي عقلكِ قبل الارتباط بي؟ وأن تكوني قادرة على معالجة الأمر؟
- كيف سأتحمّل وحدي وأنت لم تتغيّر؟ (أصبح صوت منال يعلو وهي تتكلّم وكأنها تنوي الشجار، استفزّت أمين جدّاً)

فقام من مكانه وقال لها بعصبيّة: "لم أتغيّر!!... كيف لم أتغيّر؟ أقصّرْتُ معكِ بشيء...؟

من الذي يذكر ريم مئة مرّة باليوم؟ ألستِ أنتِ؟ وأنا أخبركِ لا أريد أن أسمع اسم ريم في بيتي، كفى يا منال أنتِ تضعين هذا الوهم أمامكِ الذي اسمه ريم، وتبدئين الشّجار... كفى أنا مللتُ من هذه الحالة، أريد أن أعيش في بيت هانئ سعيد، لا تذكّريني بريم. أنتِ اختلفتِ مئة وثمانين درجة بعد الزّواج، ما الذي حصل لكِ؟ أين الحبّ الذي كنتِ تَدَّعينه؟ أذهبَ أم كان وهماً؟ قلتِ لي سأجعلك تنسى ريم، لكنّكِ تزرعينها لي في كلِّ يوم وبكلِّ المواضيع.

أخذت منال تصرخ: "أنت لا تحبّني، أنت لا زلت تحبّ ريم ".

فقال أمين بكلِّ هدوء: "أنتِ مخطئة، أنا أحبكِ... لكن لا تقتلي حبّي لكِ بالهواجس المرضيّة التي تُعاني منها وكوابيس اليقظة".

- أنا لست مريضة ولست مجنونة لكي أعاني من هواجس، لكن إذا كنتُ بنظرك هكذا، فأنا أريد العودة إلى بيت أهلي والانفصال، أنا لا أريد هذا الحبِّ المغمس بالمشاكل.

سحب أمين منال من يدها ليهدّئها وأجلسها بجانبه وقال لها:"ما هذا الكلام يا منال... أتفكّرين هكذا حقّاً! من أين أتيتِ بهذه الفكرة السيّئة؟ لا أريد أن أسمعها مرّة أخرى، أرجوكِ فكّري بنفسك وبي وبطفلنا القادم، لا نريد تدمير حياة أسرة صغيرة. ربّما تكون يوماً ما من أنجح وأفضل العائلات، أنا أكره التشتّت لا أريد أن يتفكّك شمل ومحبّة عائلة حديثة بسبب أوهام، لن أسمح لطفلي أن يذوق الحرمان والوحدة التي ذقتها في طفولتي... أحبكِ يا منال أنتِ دنياي وكلّ عائلتي".

بقيت منال صامتة دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، وأخذت تُحدِّق بأمين ثمَّ قالت له: "لكنّك ما زلت تحبّ ريم". نظر لها أمين وهزّ رأسه بمعنى نعم، وبعيونه نظرة حزينة.

فقالت له بعصبية: "اكذب عليَّ يا رجل، قل لي لم أعد أحبّها، كلمة ما زلتَ تحبّها تستفزّني وتحرق أعصابي، أنا موافقة أن تكذب عليّ فقط لأرتاح".

- لن أكذب؛ لأني إن كذبتُ عليكِ لن أستطيع الكذب على نفسي، وفي نفس الوقت أحبّكِ بصدق.
- أريد أن أذهب الآن إلى بيت أهلي لقد تعبت أعصابي منك ومن هاتف ريم، سأقضي اللّيلة عندهم.
- وماذا سيقول والداكِ عندما يعرفان أنكِ ستقضين اللّيلة عندهما واليوم قد جئتُ من سفري،

كما أنكِ كنتِ عندهم طيلة الأسبوع الماضي.

- لا مشكلة لا تقلق لن أخبرهما على شجارنا هذا، وسأخبرهما أنك مشغول جدّاً بأعمالك، لذا جئتُ لكي أقضي وقتاً عندهما.
- تريّثي قليلاً واهدئي، لا داعي للذّهاب.
- كلا، بل أريد أن أذهب لبيت أهلي، حقّاً أنا متوتّرة.

نظر لها بصمت وهو عابس، ثمّ قال: "هل أوصللكِ؟"

- كلاّ، سأكلّم رامي ليأتي ويأخذني، أنت استرح.
- لكن عودي غداً للمترل، فلا أطيق بعدكِ.

ابتسمت ابتسامة جافّة وكاذبة وقالت له: "سأحاول".

***

الفصل الحادي والأربعون

في إحدى اللّيالي استيقظت منال خائفة، سمعتْ طرقاً شديداً على الباب، كانت السّاعة قُرابة الواحدة والنصف صباحاً، قالت لأمين: "استيقظ يا أمين الباب يُطرق... أمين أرجوك... قم استيقظ".

استيقظ أمين متفاجئاً: "ماذا يجري... هل ستلدين؟"

– كلا، بل هناك أحدٌ يطرق على الباب...توجّه أمين لباب المترل ثمَّ قال: مَنْ؟

– أنا يا أمين، افتح.

لم يعرف أمين صوت مَنْ هذا؟ لكنه سمعه قبل ذلك، أو ربّما سمع صوتاً شبيهاً، فأعاد السؤال من الذي يطرق الباب؟

فكانت الإجابة: "أنا شاكر يا أمين... افتح؟

قلق أمين وقال في نفسه:"ما الذي جاء بهذا الرّجل الآن" ثمّ فتح له الباب وقال له: "نعم... ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت؟"

– كيف حالك يا بنيّ؟ أتسمح لي بالدّخول؟

كان أمين مرتبكاً من أبيه وغير مرتاح، فقال: "بأيِّ صفةٍ أُدخل رجلاً غريباً إلى بيتي؟ أهي زيارة في منتصف اللّيل؟ أم لا تجد مكاناً تبيتُ فيه؟"

– هل أنا غريب يا أمين؟ أليس اسمك أمين شاكر؟ ها أنا شاكر.

– أنا أمين شاكر فقط بالاسم، لكن لم أعرف رجلاً بحياتي يُدعى شاكر، من فضلك للبيت حرمته ولا أستطيع إدخالك هنا.

– فقط اليوم، أريد أن أختبئ في مترلك فالشّرطة تبحث عني، وإن قضيت اللّيلة هنا فلن يجدوني؛ لأنّهم كما أعتقد لا يعرفون أنَّ لديَّ ولد وله مترل هنا.

– أتريدني فوق هذا كلّه أن أخفي لصّاً أو مجرماً، لا آسف اذهب من حيث جئتْ، أو ربّما أفضل لك أن يقبضوا عليك لتجد مكاناً تنام فيه.

– كم أنت قاسٍ لدرجة كبيرة، وبلا رحمة، ولا قلب.

– لقد تعلّمتُ القسوة منك، أين كان قلبك عندما أردتَ أن تتخلّص مني؟ أين كان قلبك عندما حرمتني من والدتي كلّ أيام طفولتي ومنعتني من السّفر معها؟ هل هذه رحمة؟! لقد عشتُ طيلة حياتي كالأيتام مع أنَّ لي أباً وأماً، لكن بسببك وطيشك أنت عشتُ أنا حياة محرومةمن .... اذهب أرجوك ولا تعود وإلاّ اضطررتُ للاتّصال بالشرطة لتسليمك.

– هكذا يا أمين؟!

– نعم، وآسف على هذا التصرّف أنت الذي جعلتني أتصرّف هكذا معك.

فأغلق أمين الباب بعد أن ذهب شاكر وقد توتّر بشدّة، فأخذ يبكي بصمت من القهر، جاءت إليه منال وقالت له: "لماذا تبكي يا أمين، لم أفهم؟ على ماذا حزنت؟ تصرّفك كان سليماً هكذا مع أبيك، وما كان عليك أن تُدْخِله".

نظر لها وقال: "ما يحزنني أنَّ أبي أمامي وكأنه عدوّي، وهو الذي رمى بي من أوّل يوم في حياتي، وكيف تدور الأيام والسنين وها أنا أرمي به للخارج ولم أدخله بيتي!! ذهب مكسور الخاطر، من المفروض أن يكون هذا أبي، لكن... فقاطعته منال: "أنت لم تَرْمِ به يا حبيبي؛ لأنه لم يكن عندك وأخرجته، لكن هو الذي رماك، لأنك أنت الذي كنت عنده في أوّل حياتك ولم يحضنك كأبٍ ويرعاك، لا تحزن عليه يا أمين هو لا يستحقُّ كلمة أب، ولا أن يكون والداً لأحد".

– أعرف يا منال، أسفي على وضعنا هذا، التشتّت الذي حصل من سنين وجعه ممتـــدٌّ للآن، عند مواجهة أمي كان الوضع صعباً، وعند مواجهة أبي والتعرّف عليه كان الوضع أشدّ وأصعب، والمفاجأة الكبرى التي لم أتخيّلها أبداً عندما عرفتُ أنَّ أمي على قيد الحياة، وعرفت أبي في نفس الوقت، فكلّما أذكر هذا الموقف أشعر بشعور غريب وأخاف، وأرى كم الحياة قاسية، وهَا هو أبي مؤكّد سيكمل بقية حياته بالسّجن؛ لأنه أولاً على آخر سيُقبض عليه، وهذا بفعل يده هو الذي قسا على نفسه، فقست عليه الحياة ولم ترحمه، ولو كان يسير منذ بداية الطّريق بالصّواب، لما ضعنا نحن كأسرة كاملة وتفرّق شملُنا...لكن أعود وأقول قدَّر الله وما شاء فعل.

– هيّا يا أمين، انسَ الماضي ودعنا نعود للنّوم، كفاك وجع قلب.

***

منال لم تغيّر طبع الغيرة الغريب الذي اعتبره أمين مرضاً يجب أن تُعالج نفسها منه، ففي يوم رأت أمين يسقي نبتة "قلب عبد الوهّاب" مع أنَّ النّبتة في بيت خالته فأخذت النّبتة ورمت بها. لم يقل لها أمين شيئاً بل راعى مشاعرها، وقال في نفسه لا يهم، مع أنه حزن من تصرّفها الهوجائي، ومرّة ذهبت للشركة فتعرّفت على السكرتيرة راما فثارت أعراض الغيرة عندها، مما أدّى إلى رجوعها للعمل كسكرتيرة عند أمين بدلاً من أيِّ فتاة، وتمَّ نقل راما إلى قسم آخر في الشركة، كانت منال تُـــقـــيِّد أمين جدّاً بتصرّفاتها، وفي كثير من الأحيان لا يستطيع التنفّس بسبب غيرتها الشديدة وملاحقتها له، وإذا كان خارج الشّركة تتّصل على هاتفه الخلويّ خلال ساعة خمس أو ست مرات، لتعرف أين يجلس ومع من وماذا يفعل، وأمين ما زال يراعي مشاعرها ويقول في نفسه: "ربّما بعد الحمل والولادة تتحسّن معنوياتها ونفسيّتها، ربّما الحمل يؤثّر عليها سلباً" وهو صابر ومتحمّل ويضغط على نفسه لدرجة أنه في أيام كثيرة يذهب متضايقاً إلى العمل بسبب مشاحنات تافهة، فيعود الوجع إلى صدره وقلبه. كان هاني يلاحظ عليه أنه غير مرتاح، فكان يسأله لكن أمين لا يُجيب بشيء بل يخبره أنه مجرّد إرهاق وسيزول. وفي إحدى المرّات رأى هاني أمين على غير طبيعته أبداً فهو متضايق ويضع يده على صدره، كأنه يشدُّ على أوجاعه، فقال له هاني: "أرجوك يا أمين، قل لي بصراحة ما بك؟ أنت صديقي وأنا أعرفك، لقد لاحظت عليك

أنك غير مرتاح ومنذ فترة طويلة وغير سعيد، منذ شهر وأنت على غير عادتك ومزاجك سيّء، لا تقل لي إرهاقاً، بل أخبرني بصراحة ماذا يجري؟"

– آه يا هاني ماذا أخبرك؟ بعض الإشكالات في المنزل تتحوّل أحياناً إلى نزاعات ومن ثمَّ إلى أوجاع قلب.

– فَسِّرْ لي يا أمين ما هذه الإشكالات، ربّما أساعدك.

– منال مازالت تغار بشكل كبير، حتى من الهواء تشعر بالغيرة إذا قلت يا الله ما أجمل الهواء العليل!! فتبدأ أسئلتها لماذا أعجبك الهواء اليوم وما الذي حصل؟ لـِمَ أنت مسرور لهذه الدّرجة؟ وإذا رنَّ الهاتف بالخطأ وأُغلق من دون أن يجيب أحد، تبدأ بالأسئلة مَنْ يا ترى؟ هل هو لك من إحدى الفتيات؟ هل هي ريم أغلقت الهاتف عندما سمعت صوتي...وهكذا وأكثر! ماذا تريدني أن أفعل؟ أأبقى مسروراً؟ هي عادت للعمل من أجل أن تبقى تراقبني طيلة النهار، مع أنها تعود متعبة جداً، والحمل يرهقها بشكل كبير خصوصاً أنها قاربت على إنهاء شهرها السادس، وحملها أصبح واضحاً ودائماً تشكو بثقل في قدميها. أطلب منها أن تترك العمل وتستريح، بلا فائدة وكأني أكلّم جماداً لا يسمع... من يراها تراقبني يعتقد أني كلّ ساعة مع فتاة مختلفة، ولا يعلم أنَّ عملي يأخذ مني كلَّ وقتي، وأحياناً ساعات من نومي.

– ياه... يا أمين! أنت بحاجة إلى إجازة من الزّواج والعمل في آن واحد.

– أتعلم! أتمنّى لو أذهب لبلد بعيد لا يوجد فيه أحد، أهرب من كلِّ العالم وأجلس وحدي، ثمَّ أعود عندما أشعر أني اشتقت فعلاً للعودة، مللت يا هاني من كلّ شيء حولي...والله مللت.

– أنا لديّ فكرة ربّما تكون صائبة؟

– ما هي؟

– بعد أن تلد منال وتستريح اعرض حالتها على طبيب نفسي؛ لحلِّ مرض الغيرة هذا عندها وستأخذ العلاج اللازم وستتحسن الأوضاع، لأنه من الصّعب الاستمرار على هذه الحال.

– وهذا الذي سأفعله بالتأكيد لعلّني أستطيع، تصوّر يا هاني أنها ذكرت لي موضوع الانفصال أو الطّلاق أكثر من مرّة بسبب عدم استطاعتها العيش بهذه الطريقة، وأنا لا أستطيع تخيّل الموضوع أو التّفكير فيه.

– هل أسألك سؤالاً يا أمين وتجيبني بصدق؟

– اسأل طبعاً.

– هل تعامل منال بحبٍّ؟ أم أنك لا تُشعرها بهذا؟

– كيف سأشعرها بالحبّ مع تواجد المشاكل ليل نهار؟ هي لا تفسح لي المجال، صدّقني أحاول دائماً وأمسك أعصابي كثيراً، وأحاول الابتعاد عن الغضب، لكن لا يوجد مساحة للحبِّ في بيتنا، المساحة كلَّ يوم عن يوم تصغر.

– لا يا أمين أنت مخطئ، اخلق أنت أجواء الحبِّ والرّومانسية، كلُّ بيت يحتاج لدفء الحبّ، ويجب عليك أنت أن تبدأ وليست هي.

– يا هاني، أنت ترى العمل يأخذ كلّ وقتنا، نعود السّاعة التّــاسعة منهكين، نحتاج لمن يخفف عنّا عناء النهار، أعود لأبدأ مشاحنة جديدة، فكيف عليَّ خلق الحبِّ وقتها؟
– الحياة ليست هندسة وعمارة فقط هناك أمور أخرى، فمثلاً أنا و ديالة بعد العاشرة مساءً، نذهب ونسهر في أحد المطاعم الهادئة ونتناول العشاء، ونشعر أننا خرجنا عن نطاق المألوف والجفاء الذي ترسمه لنا الحياة اليوميّة، ونُنْعش بذلك الحبّ الذي بيننا، أنا لا أقول لك كلَّ يوم بل من فترة إلى أخرى، خذها واسهر معها في مكان ما أو اذهبا للسينما، أو سهرة جميلة في البيت بهدوء على أضواء الشّموع، كلّ هذا جيّد يكسر الرّوتين المملّ ويُشعرها بحبّك واهتمامك.
– حسناً، سآخذها اليوم إلى مكان ما لتناول العشاء ونرى المفعول.
– أريد أن أسألك سؤالاً ثانياً يا أمين، لكن لا تعتقد أني أتدخّل بأمورك الشّخصية أوحياتك السريّة الخاصّة؟
– عن ماذا ستسأل؟
– هل... تُشعِران بعضكما بالحبّ أثناء العلاقة الخاصّة؟ أم هي مجرّد واجب على كلاكما؟
فنظر أمين لهاني وبقي صامتاً دون أيِّ تعبير. فقال له هاني: "لم أفهم معنى صمتك؟ وسؤالي ليس بالمحرج".
– أحياناً أحاول بكلِّ إحساسي أن أثبت لها حبّي، لكن كثيراً ما أشعر أنها تتصنّع الحبّ وتمثّله،لا أعرف.... عندها أرى أنَّ الخلود للنّوم أفضل الحلول.
– لا أعتقد إذن أنها تحبّك حبّاً حقيقيّــاً، ربّما حبّها وهميّ بل غيرة من ريم من أيام الجامعة.
– علينا أن نتعايش مع الوضع الحالي، فهي حامل بطفلي ولا أريد أن تسوء الأمور، عُدْ الآن إلى مكتبك يا هاني، فمن المؤكّد أنّ وراءك أعمال كثيرة، وأنا كذلك.
عندما عاد أمين حوالي السّاعة التاسعة من عمله اقترح على منال أن يصطحبها لقضاء سهرة عشاء هادئة في أحد الأماكن الجميلة، لكن منال رفضت؛ لأنها تعود من عملها السّاعة السّادسة وتشعر بالإرهاق والتّعب الشديد، ولا تريد أن تخرج لأيِّ مكان كان فقط تريد أن تستلقي وتنام، فتركها أمين على راحتها، ثمَّ تناولا طعام العشاء الذي أعدّته منال فور وصولها وذهبا للفراش، فجلس أمين يتحدّث مع منال، قال لها: "انظري إلى نفسكِ يا منال؟ كم أنتِ مرهقة، لـــمَ العمل الآن وأنتِ بحاجة للرّاحة، لجسدك عليكِ حقّ أريحيه واستريحي من عناء العمل، الذي لا داعي له".
استندت منال على حافّة السّرير بعدما كانت مستلقية، فقالت له: "سبق يا أمين وتكلّمنا، أنا أُسلّي نفسي بدلاً من أن أقضي طيلة النهار بلا فائدة بالبيت، هاأنا بقربك طوال النّهار، فأنا لا أقدر على تحمّل الأشواق".
– الابتعاد مفيد أحياناً، يجب أن تشعري بالاشتياق لكي تتجدّد المشاعر بيننا، لكن عندما أبقى في وجهكِ طيلة النهار، فإنكِ ستشعرين بالملل مني.

– سأترك العمل من الشركة بعد الولادة لأهتمّ بالطّفل، أما الآن فلا، أريد أن أبقى بقربك، وتصبح على خير... وأدارت وجهها لتنام.

***

الكلُّ يعمل بنشاط هذا اليوم،وأمين استلم مشروعاً معماريّاً جديداً هو وفريق المهندسين المهرة، وهو عبارة عن مجمّع تجاريّ كبير مع مجموعة مطاعم كبيرة ومشهورة في داخل هذا المجمّع، واليوم هم مشغولون جداً، والكلُّ غارق بالعمل لأذنيه، كما أنه بداية شهر جديد، فالعمل يكون مكثّــفاً.

كانت منال تقف عند الاستقبال، وتحمل مخطّطات وأوراقاً كثيرة ستدخلهم عند أمين، ليُلقي نظرة أخيرة عليهم ويوقّعهم، إذ تقف فجأة أمامها فتاة جميلة اندُهشت منال لرؤيتها أمام وجهها مباشرة وارتبكت.

– صباح الخير يا منال... كم اشتقتُ لكم كثيراً.

وضعت منال الأوراق على الطاولة وسلّمت عليها بحرارة، وقالت لها: "لا أصدّق أني أراكِ يا ريم، لقد فاجأتني جداً، متى وصلتِ؟"

– جئتُ من إسبانيا قبل أسبوع، وسوف أسافر غداً، لكني أحببت أن أراكم قبل أن غادر، لقد اشتقتُ إليكم كثيراً، واشتقتُ لكِ أنتِ بالذّات يا منال، وبصراحة كنت خائفة من استقبالكِ لي؛ لأنكِ كنتِ دائماً على الهاتف عصبيّـــة المزاج معي.

– آسفة يا ريم، لكن أنا دائماً متوتّرة من ضغط العمل والحمل يُتعبني كذلك، لكن عندما رأيتُكِ عادت بي الذّكرى والحنين لأيام الجامعة ومغامراتنا سوياً، كما أنكِ لم تتغيّري أبداً بل ازددتِ جمالاً.

– أشكركِ يا منال هذا لطف منك...وأنتِ ما شاء الله لقد أصبح الحمل واضحاً عليكِ، لكنكِ بقيت جذّابة، أنا متأكّدة أنَّ أمين يحبكِ جدّاً وينتظر الطّفل بشوق.

– نعم بالتأكيد، اجلسي لتشربي شيئاً ما...هل تُفضّلي شراباً ساخناً أم بارداً؟

– لا، أشكركِ لا أريد شرب شيء، فقط أتيتُ لأسلّم عليكِ وعلى هاني وأمين كذلك، وأغادر فوراً، ومن ثمَّ سأذهب لأرى ديالة.

– حسناً سأخبر أمين أنكِ هنا، لكن هاني خرج مع المدير العام لإحدى المشاريع.

– لا مشكلة، سأزور هاني في بيته هو وديالة.

فقالت لها منال: "ابقي دقيقة هنا لأخبر أمين، وأناديك إن كان غير مشغول بشيء".

جلست ريم بالاستقبال وقالت في نفسها: "حتّى لو كان مشغولاً فمن المؤكّد سيقابلني".

أخذت منال هاتفها الخلوي، وضعته في جيبها وذهبت لأمين ودخلت إلى مكتبه، ثمَّ قالت له: "أمين... يبدو أنك مشغول أليس كذلك؟"

– نعم يا منال، نوعاً ما... هل تُريدين شيئاً؟

– جئت لأخذ ملف التّقارير اليوميّـــة للمشاريع.

– حسناً، ها هو على أحد الرفوف ورائي بالمكتبة.

اتّـــجهت منال وراء أمين ووضعت هاتفها الخلوي على أحد الرّفوف، وقد فتحته وضغطت على زر التّسجيل، لكي يُسجّل الحديث الذي سيدور بين أمين وريم بعد كلِّ هذه المدّة، فوضعته بطريقة لا يظهر لأحد بين الملفات، ثمَّ قالت لأمين:

– صحيح، أتعلم من جاء لزيارتنا في الشّركة؟

نظر أمين باستغراب وقال لها: "من سيكون؟"

– إنّها ريم، وتريد أن تقابلك.

– من ريم؟

– ألم تعرف!؟ ريم إسبانيا، ماذا جرى لعقلك؟

– أجاءت من إسبانيا...!

كان أمين سيقفز من الفرح ويطير من مكانه، لكنّه تمالك نفسه خصوصاً أمام منال، وقال لها بهدوء وهو يُقلب بعض المخططات: "حسناً أدخليها".

فخرجت منال من المكتب وقالت في نفسها: "الحمد لله لا يبدو على أمين الفرح الزائد، أو السعادة المختلفة، لابدَّ أنه لم يَعُدْ يهتمُّ لأمرها"، وذهبت لريم وقالت لها:"أمين بانتظاركِ في الداخل، ادخلي من هنا مكتبه يا ريم، ومن ثمَّ على اليمين".

– شكراً يا منال.

ذهبت ريم على الفور وهي بغاية الفرح والسرور، ونبض قلبها يتسارع كأنّها كانت تجري سريعاً، طرقت باب المكتب ودخلت: "صباح الخير" قالتها بكلِّ هدوء وخجل، فوقف أمين مكانه لا يُصدِّق عينيه من الفرحة، ثمَّ جاء أمامها وسحبها من يدها لتجلس:

– اجلسي يا ريم من فضلكِ (كان قلبه سيقف من رؤيتها بعد هذه الأشهر).

وجلسا على كرسيين متقابلين أما طاولة مكتبه، ثمَّ قالت له: "أنا مشتاقة لك يا أمين". صمت أمين وأخذ نفساً عميقاً وقال بتردّد وأنا كذلك، بُعدكِ عني عذاب...(لم يستطع أن يكفَّ النَّظر في عينيها، وكأنه لا يُصدِّق أنّها أمامه).

– لم أستطع نسيانك يا أمين، أحاول لكن لا أقدر، أشعر دائماً أني بحاجة لك.

– ريم حبيبتي يا ليتني أستطيع أن أسلِّم عليكِ بشوق وأضمّكِ إلى صدري... عندما رأيتكِ شعرت أني لم أحبّ أحداً غيركِ....ثمَّ تنهّد وقال: "أسف جداً... كيف زوجكِ؟"

– زوجي رجل ممتاز، لكنه لا يستحقُّ زوجة مثلي، فأنا لست المناسبة له، هو مظلوم معي، للآن... لا...(وسكتت)

– ماذا؟ أكملي أسمعكِ.

– انسَ لا شيء مهم، أنت... كيف حياتك مع منال؟

– منال... أحبّها فهي أمُّ طفلي الآن وهي تحبّني، لكن من كثرة حبّها فإنّها تخنقني، وحبّها نار وغيرة تحرق.

– لم أفهم، لماذا نار تحرق يا أمين؟

– لأنه عذاب بحدِّ ذاته.

– أعذابه كما كنّـــا نتعذّب أنا وأنت من الحبّ أيام الجامعة؟
– لا... عذاب حبِّكِ له طعم خاص، عذاب مزروع بين خفاياه الأمل، لكن حبُّ منال متعب وممل، لقد أتعبتني صديقتكِ ياريم...أتعبتني!!
– أما زلت تحبّني إذن؟

نظر إلى عينيها وقال: "أوّل حبٍّ في حياتي من الصعب نسيانه أبداً، وأنا بشوق دائم لكِ، لم يُكتب لنا أن نكون معاً لكن لن يستطيع أحد مسح حبّكِ من قلبي يا ريم، حتّى أنا نفسي مهما حاولت لا أستطيع.

– نحن مساكين الحب، أنا نادمة لأني قبلتُ وتزوّجتُ من الدّكتور عمر، كان يجب عليَّ أن أكون أقوى وأعنف.
– لا تندمي يا ريم على شيء، بل عيشي أيــامكِ كما هي الآن، الذي يذهب لن يأتي غيره، فالزّمن يركضُ ونحن نركضُ وراءه لنلحق به، هذه هي الدّنيا، لا تستحق أن نضع الهموم أمامنا ونحزن، نحن نريد والكلُّ يريد والله يفعل ما يريد.
– حسناً أمين، اسمح لي أن أغادر الآن، مع أني كلي شوق وحنين لك، لكن لا أريد أن أعطِّلك عن أعمالك.

مدّت يدها لتُسلِّم عليه، فمسك يدها بين راحتي كفّيه وشدَّ عليها شوقاً ووداعاً، وقبّل يدها بكلِّ حبٍّ وهدوء، منال شاهدت هذا الموقف فغضبت وثارت أعصابها.

لم يشعر بها أمين عندما دخلت المكتب؛ لأنه بالأصل حاولت الدّخول بهدوء تام، فقالت بصوت مرتفع: "لقد أخذتما راحتكما كثيراً، لكن الحقُّ عليّ لم أضع لكما حارساً".

فقالت ريم:"سأذهب إلى اللّقاء"، وخرجت مسرعة متوتّرة من منال.

ثمَّ قالت منال لأمين: "ما هذا يا أمين؟ أيــُعقل؟ تُقبّل يدها لماذا؟!"

– آسف... إني أودّعها فقط.

ذهبت منال للمكتبة خلف كرسيّ أمين وتناولت هاتفها الخلويّ، حيث وضعته على أحد الرّفوف بين الملفات، فقال لها أمين: ماذا أخذتِ؟

فأجابته: "لقد نسيتُ هاتفي الخلوي على الرّف، بعد أن أخذتُ ملف التّقارير اليوميّة قبل قليل، وجئت لأسترجعه"

خرجت مسرعة متلهّفة لسماع الحديث الذي دار بين أمين وريم، أغلقت باب مكتبها ثمَّ فتحتْ على التسجيل وبدأت تسمع، فأخذ يــُجنُّ جنونها، لقد سمعت أنَّ أمين مشتاق لريم وأنَّ بُعدها عذاب، وهو يختنق من حبِّ منال ويتعذّب، ومازال يحبّ ريم ولا أحد سيمسح حبّها من قلبه، وباقي الكلام...، لقد أحسّت منال بكلامه إهانة لها، وشعرت أنَّ أمين لا يحبها أبداً، فذهبت إليه غاضبة والنار تشتعلُ في صدرها، قالت له بطريقة غاضبة:"ماذا دار بينك وبين ريم من حديث؟"

فأجابها:"لا شيء مهم، اهدئي يا منال لـــمَ يبدو عليكِ الغضب؟

– أتذكر ماذا قلت لها، أم أُذكّرك؟

– ماذا جرى يا منال؟

– اسمع، هذا هو حديثك أنت وريم، أيها الزّوج المثاليّ.

وفتحت له على التسجيل ليسمع، فأصبح يسمع وينظر لمنال بقلق وشعر أنَّ وجهه أسود أمامها، وبعد أن انتهى الحديث مسكتْ منال الهاتف ورمت به بعصبيّة على أمين، وصرخت بصوت عالٍ: "لا أريد أن أرى وجهك أيها الخائن أنت أكذب رجل رأيته بحياتي" وخرجت مسرعة فلحق بها إلى مكتبها، لكنها تناولت حقيبة يدها، وأخذت تركض ولا تُجيب على أمين، خرجت من الشركة فصادفت هاني عائداً من المشروع هو والمدير العام، فسألها هاني: "ما بكِ على عجلة يا منال؟" لكنهالم تُجبه وبقيت تسير بسرعة، حتّى استقلّت سيّارة أجرة.

وقف أمين بجانب البوّابة عابساً، فصادفه هاني عند مدخل الشركة، وسأله عن الذي حصل فأخبره باختصار شديد، ثمَّ قال له: "أرجوك يا هاني انتبه للمكتب سأذهب للبيت، لأرى منال وأصحّح الخطأ".

كلُّ موظفي الشركة أخذوا يتحدّثون بموضوعهما، وتفاجأوا من الذي حصل، وحديثهم دار حول صراخ منال على أمين بالمكتب، وكَثُرَتْ الأقوال والإشاعات وأصبحا حديث الموظّفين.

وصل أمين للمنزل فوجد منال تُرتِّب أغراضها في الحقيبة، تُريد الذّهاب لبيت أهلها، فقال لها: "منال أرجوكِ اهدئي، لا تتصرّفي هكذا بغضب وعصبيّـــة".

ودار بينهما حديث بمنتهى الغضب والعصبيّـــة...

– ابتعد عني لا أريد أن أراك بعد الآن، لـــمَ تزوّجتني لا أعرف! ربّما تُريد خادمة للبيت.

– ما هذا الكلام؟ اجلسي لكي نتكلّم ونتفاهم.

– آسفة، لقد تحمّلت الكثير، وفي النهاية أعرف أنَّ حبّي مملٌّ ومتعب، هذا أروع شيء أسمعه وأفضل مديح. (كانت تردُّ عليه باستهزاء)

– يا منال...أنا آسف لا أقصدها بصريح العبارة، والله أعتذر... كفى... اجلسي، أريد أن أكلّمكِ، أبرّر لكِ كلامي...

فأخذ أمين يشدُّ الحقيبة من يدها لتجلس ويتحدّث معها، فأصبحت تصرخ "اتركني دعني أذهب، لا أريد العيش معك، أترك حقيبتي، سأتركك مع ذكرى ريم وخذْ راحتك، أما أنا فلا مكان لي هنا أيّها المخادع!"

– ما كان عليكِ أن تتسمّعي إلينا، يجب أن تحترمي خصوصيّـــة الآخرين.

– الحمد لله أني سمعت وعرفتُ الحقيقة، ولم أعدْ مغشوشة بحبّك، ياه كم أنت ممثّـــل وكم أنا غبيّـــة!!

– لم أكذب عليكِ يوماً، منال لا أريد أحداً سواكِ، لا تفهمي الموضوع خطأً.

– لا... الأمور واضحة وأنت أكبر كاذب بل منافق تعرّفت عليه.

وسحبت الحقيبة بشدَّة من يد أمين وركضت نحو الباب فتحته لتخرج بسرعة، فوقفتْ أمام المِصعد لكي تنزل للأسفل، فلحق بها وقال لها: "ادخلي يا منال لا تذهبي الآن". فوقفَ أمامها ليمنعها من دخول المصعد، فتركته وأخذت تنزل على الدّرج مسرعة، لكي لا يستطيع اللّحاق

بها، فصار أمين يناديها ومن السّرعة التي تركض بها وعدم الانتباه، سقطت على الدّرج بقوّة مُخيفة، لقد ضُرب بطنها في إحدى الدّرجات من جرّاء السقوط الشّديد وأخذت تصرخ، فركض أمين وراءها وهو يرجف خوفاً عليها، وقلبه سيقف من الرُّعب، ثمَّ خرجت علياء وقالت: "ما الذي يجري لـــمَ كلُّ هذا الصُّراخ" فناداها أمين للأسفل: "خالتي... أرجوكِ يا خالتي.... نحن هنا وكان متوتّراً جدّاً".

فوجدتْ أمين جالساً على درجةٍ يُسند منال على حضنه ويُمسك بها بشدّة، وفي عينيه رُعب شديد، والدِّماء بدأت تملأ المكان تحتها وأصبحت مصفرّة الوجه.

شهِقت الخالة من المنظر وسألت وهي مُرتعبة: "ما هذا؟ ما الذي جرى لمنال؟ سأطلب الإسعاف".

– لا، خالتي أحضري مفتاح السيّارة من البيت لننقلها للمستشفى، هيّا...هيّا بسرعة فلا وقت لانتظار الإسعاف نحن أسرع.

فحملها أمين وركض بها للسيّارة ورافقتهما علياء، أصبح يقود سيّارته كالمجنون؛ ليصل بأسرع وقت للمستشفى، فهو خائف ويشعر بالذّنب اتّـــجاهها وبتأنيب الضّمير، لشعوره أنه تمادى بتعبيره عن أحاسيسه أمام ريم.

فقالت له علياء: "يا أمين أرجوك كفاك توتّراً، لن نصل هكذا، اهدأ فالسّرعة أسرع طريق للموت وليس للمستشفى" لكن أمين لم يتكلّم وأعصابه مشدودة جدّاً، وعندما ينظر لمنال يزداد توتّراً وتفيض عيناه بالدّموع، فوجهها أصبح شاحباً مُخيفاً وما زالت تنزِف، حتّى وصلوا للمستشفى فركض للطّوارئ، وطلب سريراً نقّالاً لحمْلها.

وبالفعل أدخلوها الطّوارئ، وتمَّ فحصُها بسرعة كبيرة، وقرّر الطّبيب إدخالها إلى غرفة العمليّات لإيقاف النّزيف وإعطاءها وحدات دم؛ لتعويض النّقص الشّديد بسبب النّزف.

اتّصل أمين برامي وأخبره عن الحادث الذي حصل ليُخبر هو بدوره والداها بالموضوع؛ لأنَّ أمين لا يستطيع نقل مثل هذه الأخبار السيّئة.

فجلس الجميع ينتظرون خروج منال من غرفة العمليّات، كان أمين يجلس حزيناً ومرهقاً، لا يعرف لمن يوجّه اللّوم، هل يلوم نفسه على الذي حصل؟ أم هو قدوم ريم السبب، أم حساسيّة منال الزّائدة وغيرتها غير الطّبيعية، هي التي أدّت إلى مثل هذا الحادث؟ والشّكوك ووساوس الشّيطان سبباً لكل شيء، ولا نُـــنكر أنَّ قضاء الله نافذ.

أما والدتها فقد كانت تجلس وهي مرتبكة: "وتضع كلَّ اللّوم على أمين، وكلُّ لحظة تقول له: "الحقُّ عليك يا أمين ما كان لك أن تُغضبها، كان يجب أن تسمح لها بالذهاب، لا أن تمنعها، ويجب ألاّ تدعها تخرج غاضبة من البيت".

أما أمين لم يُـــجبْ ولم يردّ، كان يسمع وينظر فقط دون التكلّم مع أحد، خصوصاً أنه يشعر بضيق. خرجت بعد ثلاث ساعات من العمليّات وهي ما زالت غير واعية تماماً، وطمأنهم الطّبيب عن حالتها، وقال لهم: "إنَّ منال أفضل حالاً، لقد أوقفنا النّزيف وأعطيناها وحدتين من الدّماء، لكن حالة الجنين غير مستقرة، لقد فقدت منال كلَّ الماء المحيط حول الجنين بالرحم، مما جعلنا

نولّدها ولادة قيصريّـــة، والطّفل الآن بالحاضنة الخاصّة "بأطفال الخداج".

فقالت أمُّ منال:"يا إلهي لقد دخل الجنين قبل يومين بشهره السّابع، إنه صغير جداً، هذا يعني أنه أنهى فقط ستة أشهر في رحم أمه، هل سيعيشُ أيها الطّبيب؟ "

فأجاب الطّبيب: "العلم عند الله، على الأغلب... وبصراحة لا؛ لأنه صغير، لكن حتى الآن هو حيٌّ ويتنفّس جيّداً، وقلبه ينبض طبيعيّـــاً، سنراقب حالته طوال الوقت. لكن الحمد لله على سلامة منال فهذا الأهم الآن، لا تقلقوا"

أمين كان يقف ويستمع للطّبيب وهو حزين، دون أن يتكلّم أو يسأل سؤالاً واحداً، وكأنه مصدوم.

ثمَّ قال الطبيب للجميع: "انتظروا منال في غرفتها؛ لأنها عندما تستيقظ سنُحضرها للغرفة، الآن دعوها تستريح قليلاً، فهي نائمة من أثر البنج".

جلس الجميع بالغرفة قلقون ويريدون الاطمئنان عليها، فقالت والدتها لأمين: "ألا تُريد أن ترى ابنك يا أمين؟"

نظر أمين إليها وكأنه لم يستوعب أو يفهم ما قالته حماته، وبقي يُفكِّر بالموضوع، فأعادت عليه السؤال: "ألا تريد أن ترى الطّفل؟"

فقال لها: "بلى، سأذهب...أتأتين معي؟"

– نعم، هيّا بنا.

وقام أمين وحماته وتوجّها إلى غرفة الأطفال حديثي الولادة، ألبستهما الممرضة المشرفة روبين معقّمين ونظيفين، وفي أقدامهما لكلٍّ واحد خفّين من قماش معقّم وقبّعتين خفيفتين، لعدم تساقط الشعر في المكان، ودخلا... فقالت لهما الممرضة: "ذاك هو طفلكم" كان في غرفة زجاجيّة صغيرة (الخداج)، وموجّه عليه ضوء مستقطب خاص؛ لحماية المولود من الاصفرار، وجهاز لقياس نبض قلبه، وجهاز التنفّس. نظر له أمين بشفقة وقال: "يا إلهي إنه مجرّد قطعة لحم صغيرة، يا له من مسكين!!"

أما والدة منال وقفت تتأمّله وهي حزينة عليه وعلى ابنتها: "يا حرام...كيف سينمو هذا الطّفل؟ كم يحتاج إلى الرّعاية... هل أحببته يا أمين؟"

– إنه يُثير الشّفقة، وخاصة مع وجود هذه الأجهزة الموصلة به وبقدمه الصّغيرة، أتعلمين يا خالة حجمه كحجم الدّجاجة الصّغيرة، يستطيع النّوم على راحة كفّي، فهي تكفيه.

ثمّ سألت والدة منال الممرضة: "كم هو وزن الطّفل؟"

– إنه يا سيّدتي كيلو واحد ونصف تقريباً.

– يا إلهي... ما هذا الوزن؟!!

فقالت الممرضة:"هذا وزن جيّد بالنّسبة لطفل أنهى الشّهر السّادس في رحم أمه... لا بأس قد جاء الطّبيب اختصّائي الأطفال وأجرى له فحصاً كاملاً، وكتب بالتّقرير أنَّ هناك مشكلة صغيرة، هي عدم جاهزيّة الرّئتين للبدء بالتنفّس الصحيح، فسيبقى على جهاز التنفّس مدّة ريثما تُصبح رئتاه جاهزتين".

فقال لها أمين: "إنَّ لونه غير طبيعيٍّ، ويبدو ضعيفاً".

– نعم، هذا لأنه وُلِد قبل أوانه بكثير.

ثمَّ خرجا من قسم الأطفال وعادت والدة منال للغرفة، أما أمين ذهب لاستراحة المستشفى، اشترى علبة عصير برتقال وجلس، وذهنه سارح بأمور عدّة، قلقٌ على منال وعلى الطّفل، ومحتار كيف سيحلُّ إشكاله معها ويوضّح لها الصّورة، ويحزن عندما تُسيء فهمه، ولا تستوعب أنها هي الأساس في حياته الآن وهي حبّه الفعليّ الذي يعيشه يوماً بيوم وليس وهماً أو أحلاماً، والماضي مجرّد ذكرى لا يستطيع الهروب منه. ريم ما هي إلاّ خيالات أمام أمين وليست علاقة باقية كما تتصوّر منال، أو خيانة كما في نظرها، لكن المشكلة الوحيدة هي القلب، فماذا عساه يفعل؟ منال لم تنجح بإخراج ريم من قلبه، بسبب الغيرة المزروعة في قلبها.

صعد أمين لغرفة منال، وقد تمَّ إحضارُها من قِبل الممرّضات، كانت مستيقظة لكنها متعبة. فجلس بجانبها، وقال لها: "حمداً لله على سلامتكِ يا حبيبتي"

فأجابته بنبرة ممزوجة بالتّعب والألم:"أرأيت ماذا حصل بسببك؟! اخرج لا أُريد أن أراك"

فمسك يدها وقال لها بعيون الأسف: "لا يا منال، لا تضعي اللّوم عليّ".

– اترك يدي... واخرج، أنا متعبة أريد أن أنام.

فوقفت أمها بجانبها وقالت: "اهدئي يا منال، لا داعي لمثل هذا الكلام الآن، يجب أن تستريحي"

قام أمين من جانبها وخرج من الغرفة، فلحق به رامي وقال له: "لا تغضب يا أمين من منال، فنفسيّتها سيّئة بعد الولادة، وخصوصاً أنها مُفاجئة لها بعد هذه الحادثة، كن صبوراً وطويل البال"

– يا رامي، أنا صبور لدرجة لا تتخيّلها، لكن هل سأرى نتائج مختلفة بعد الصبر؟

لا أعرف!

– أنت يا أمين مخطئ وبشكل كبير أيضاً، وتسجيل الكلام الذي سمعته بخلويّ منال كان قاسياً.

– من أين لي أن أعرف أنها كانت تُسجّل حديثنا؟ وما كان عليها أن تفعل هذا. هل أقول أنها وقعتْ بشرِّ أعمالها؟!

– يبدو عليك الغضب اهدأ لنعرف التحدّث معاً، ولا تحاول تبرير موقفك السيّء بأعمال منال، كان يجب أن تحترم زوجتك بغيابها وأن لا تحدّث ريم عنها وعن سلبيّاتها.

– مشاعري يا رامي لم أستطع إخفاءها عن الإنسانة التي تعنيها، ولم أخرج عن حدود المنطق والأدب لدرجة الخيانة كما تتّهمني منال، لم أفعل شيئاً خاطئاً بل الخطأ أن تتجسّس هي وتسمع كلاماً ليس موجّهاً لها، انظر ما الذي حدث... كما شعرتُ أنني أريد الفضفضة عندما رأيت ريم الانسانة التي يرتاح قلبي لها. هذا بالإضافة إلى أنَّ ردّة فعل منال مبالغ بها. والآن لا تريدني أن أدخل لكي أطمئنَّ عليها، وتطرُدني من الغرفة!

– ردّة فعلها طبيعيّـــة بنظري أنت المخطئ يا أمين...اذهب أنت الآن واسترح، وغداً صباحاً تعال لزيارتها لعلّها تكون أفضل حالاً، وربّما هدأت وخفَّ الخلاف. وأنا بدوري سأحاول الكلام معها وأُفهمها.

خرج أمين من المستشفى وعاد للمكتب، كانت السّاعة حوالي السّابعة مساءً، لديه عمل كثير يجب إنهاؤه، ومشاريع يجب تسليمها غداً.

فور وصوله المكتب رآه هاني، وكان يبدو عليه الإرهاق من كثرة العمل، فقال لأمين: "أين كنت كلَّ هذه المدّة؟ لقد اتّصلنا بالمنزل لم يُجب أحداً، وهاتفك الخلويّ مغلق، سأل عنك المدير حوالي عشرين مرّة"

بقي أمين واقفاً ينظر لهاني دون التفوّه بأيّ كلمة، وكأنه غارق في بحر من الأفكار فقال له هاني: "لقد عملتُ اليوم عن ثلاثة أشخاص، عنك وعن منال، وعملي أيضاً، كدتُ أموتُ وحدي من العمل... مابك واقفاً كالصّنم؟ أين كنت؟ ماذا حصل بينكما؟"

فجلس أمين على كرسيٍّ مقابل طاولة مكتب هاني، ورمى بمفاتيحه على الطّاولة أمامه، وقال: "كنتُ بالمستشفى، لقد أنجبت منال الطّفل"

– ماذا ؟! لم أفهم شيئاً؟ كيف أنجبت الطّفل بهذه السرعة، أذهبتَ لحلِّ سوء الفهم بينكما أم لتوليدها؟

– هذا الذي حصل.

– لا، أفهمني القصّة كاملة، ألم تقل قبل يومين أنها أنهت الشّهر السّادس، وبقي ثلاثة أشهر على الولادة؟ هل قمتَ بحذفهم لها؟!

– لقد سقطتْ على درج العمارة عند البيت، ونزفت ونقلتُها للمستشفى فاضّطر الطّبيب توليدها؛ لأنَّ الجنين فقد كلّ السّوائل المحيطة به في الرّحم.

– يا إلهي... حادث مؤسف، وكيف حالتها الآن؟

– إنها متعبة...

– والطّفل يا أمين، ما الذي جرى له؟

– الحمد لله، يقول الطّبيب حالته جيّدة نوعاً ما، لكنه صغير جدّاً، وزنه كيلو ونصف.

– إذن مبروك يا أمين، أصبحت بابا الآن منذ ساعات.

ابتسم أمين ابتسامة جافّة صفراويّة، ثمَّ قال: "لعلَّ الأمور تتحسّن وتسير على ما يرام".

فقال هاني: "لكن لم تقل لي كيف سقطت؟"

فشرح له أمين القصّة باختصار، لكن بالنهاية قال هاني بأسف: "مسكينة منال على هذا الحادث... لكن الحقُّ عليك يا أمين".

– وأنت كذلك يا هاني تقف ضدّي؟ ما الجرم الذي ارتكبته؟

–ارتكبت جرمين عن غير قصد، الأوّل المبالغة بأحاسيسك أمام ريم، والثاني كان عليك أن تترك منال تذهب هذا أفضل لها ولك، وعندما يهدأ الوضع سيعود كلُّ شيء لمجراه، وهي ستعود.

– يا هاني... لم أكن أريد أن تتفاقم الأمور، بسبب موضوع لا يستحقّ.

فقال له هاني وهو يرتدي معطف بدلته: "لكن انظر ماذا جرى، تفاقمت الأمور، لا بل وساءت"

– أنا متضايق يا هاني، وأشعر أني تائه ولا أحسن التصرّف، هل أنا المذنب حقّاً؟ صدّقني لم يعد بإمكاني الحكم على الحالة، من المذنب؟ لا أدري، هل يوجد ذنب أصلاً؟

كان هاني يُرتِّب أغراضه والأوراق التي على طاولة مكتبه، وأطفأ جهاز الحاسوب وقال لأمين:"تعال اليوم عشيّة عندي للمنزل، وسنتكلّم بالموضوع ونتباحث حول المذنب، أما الآن سأذهب للمنزل، أشعر بتعب شديد وجوع أشد، لا تنسى أنهي عملك وتعال، إلى اللّقاء "... وخرج.

– إلى اللّقاء....

ثمَّ توجّه أمين لمكتبه ليُـــكمل باقي أعماله، وقال في نفسه:"سأعمل ساعتين، وبعدها أغادر".

ومرّت ساعتان فعلاً، فأطفأ الأنوار وخرج من المكتب، لم ينجز من أعماله الكثير؛ لأنَّ ذهنه مشتّت ويشعر بالإرهاق، تكلَّم مع هاني هاتفيّاً وأخبره أنه لن يستطيع الحضور إليه، بل سيذهب مباشرة للبيت، لأنه يحتاج للراحة، فوصل بيته ومدّد جسده على السّرير دون أن يُبدِّل ملابسه غارقاً بالموقف الذي حصل والمصيبة الكبرى التي حلّت عليه وعلى زوجته....



الفصل الثاني والأربعون

أما في الصّباح حوالي السّاعة التّــاسعة توجه أمين فوراً للمستشفى للاطمئنان على منال، دخل المستشفى بعد أن اشترى باقة ورد بألوان جذّابة حمراء وبيضاء، وطرق باب الغرفة وفتح ودخل، لكن أوّل ما رأته منال وقبل أن تفسح له المجال ليقول صباح الخير، أخذت تصرخ بصوت عالٍ، وبغضب: "لا أريد أن أراك، لماذا عُدتَ إلى هنا؟ اخرج...
ألا تفهم؟

أنت السبب في كلِّ هذه المصائب... وتلك التافهة ريم، أنتَ الذي قتلته، لقد مِتُّ مئة مرّة في أشهر الحمل الستّة تلك لكي أحافظ على الجنين، وها هي النتيجة...اخرج اذهب... خذ طفلك وافعل به ما شئت...وطلّقني".

وقف أمين بلا حِراك أمام الباب مصدوماً، لا يعرف لما كلُّ هذا الصّراخ، وما قصدها خذْ طفلك وطلّقني، فسحبه رامي للخارج؛ لأنه رأى أنَّ التوتّر ساد بالغرفة، ومنال أخذت تبكي بشدّة، وأمين حبس القلق في عينيه، وشفتاه لم تستطع التفوّه بكلمة واحدة.

ثمّ قال أمين: "لم أفهم قصد منال يا رامي، ماذا..."

– تعال نجلس هناك، وسأقول لك.

وخرجا الاثنان وجلسا على كراسٍ مخصّصةٍ للزّوار، فقال له رامي: "أنا آسف يا أمين، لأقول لك أنَّ الطّفل قد توفّي اليوم السّاعة السّادسة صباحاً"، نظر أمين بعيني رامي دون أن يرتدَّ طرفه، ولا استطاع الكلام، واحمرّت عيناه، وشعر أنَّ الدّنيا تضيق عليه وتنقله من سوء لأسوأ، وزمنه يركض وهو لا يستطيع لحاقه، ثمَّ طأطأ رأسه للأسفل، وقال بعد نفس عميق وتنهّد:"مات الطّفل... ومات حبُّ منال لي، لم أرها يوماً هكذا، وماتت الأحلام وماتت الابتسامة...، كيف مات؟"

– الطّفل حجمه صغير جداً، لا يستطيع التأقّــلم مع الحياة، إضافة أن تنفّسه ليس سليماً بسبب عدم اكتمال رئتيه، لا تحزن يا أمين هذا متوقّع للطّفل، ما زال غير مكتملاً، وأنت تعلم هذا سيعوّضكما الله غيره إن شاء الله.

ثمَّ وقف أمين، قال له رامي: "إلى أين؟"

فأجابه بنبرة حزن ووجه عابس: "لا أدري يا رامي، أشعر أني أختنق، أنا مشوّش، ماذا بعد ذلك؟"

– الطّبيب قال يجب عليك أن تستلم الطّفل، ثمَّ تقوم بدفنه.

نظر أمين بدهشة إلى رامي وقال له: "أستلم الطّفل...وأقوم بدفنه؟! مستحيل لا أستطيع! وأين سندفنه؟"

– يا أمين لا نريد أن نهوّل الأمر، سنأخذ الطّفل أنا وأنت، ونوقّع على أننا استلمناه متوفّياً مع شهادة وفاة من المستشفى، وبعدها سنصلّي عليه معاً وندفنه في حديقة مترلنا الخلفيّـــة، لا داعي لأنْ نذهب للمقبرة.
– ما هذا الهراء؟ لماذا لا تأخذه المستشفى وتتصرّف هي به؟
– الطّفل طفلنا، وكان على قيد الحياة وتوفّي، وأنت أبوه تكفّل بدفنه.
– هل رأته منال؟
– لا، هي طلبتْ أن تراه لكن أنا رفضتُ وأخبرتها أنَّ الطّبيب لا يسمح بإخراجه، خوفاً من أن تزداد حالتها النفسيّة سوءاً، هي بمجرّد أن علمتْ بالخبر جُنَّ جنونها، فما بالك لو رأته؟
– أريد أن أراها يا رامي، حاول أن تُـــخبرها أنَّ أمين يريد أن يجلس بجانبكِ ويكلّمكِ... فالطّفل طفلنا وأريد أن أطمئنَّ عليها وأن أواسيها، وأواسي نفسي بها، أخبِرها أني أريد أن أعتذر منها وأطلبَ السّماح إن كنتُ قد أخطأت في حقّها.
فأجابه رامي وهو متشكّك من الموافقة: "سأذهب إليها وأخبرها بكلامك، وأخرج لأخبرك"
– حسناً...ها أنا أنتظر هنا خارج الغرفة.
لكن منال رفضت بشدّة لا تريد أن ترى أمين فهي غاضبة، ترى أنَّ كل هذا الذي حصل بسبب حبّه لريم، وعدم احترامه لها، وأخبرت رامي أنَّ ريم هي المسؤولة عن هذه الحادثة أيضاً؛ لأنها جاءت عند أمين، ولن تسامحها أبداً ولن تسامح أمين، وقالت لرامي "أرجوك قل لأمين أن يخرج من المستشفى، ويتوجّه فوراً إلى المحكمة الشرعيّـــة، ويوقّع ورقة الطّلاق، وهذا آخر كلام عندي".
فخرج رامي من غرفتها متزعجاًلم يستطع إقناعها، وأخبر أمين بكلِّ شيء، لكن بأسلوب مهذّب، فتضايق أمين وخرج مسرعاً، متّجهاً للمكتب لا يعرف لمن يشتكي همّه، ومن الذي يستطيع المساعدة بمثل هذه المواقف الحسّاسة.
ضغوطات الحياة ومشاكلها تُرهق قلبه وتُتعبه، ويشعر أنه لم يفهم الدّنيا كما يجب؟ ويسأل نفسه، لــمَ كلُّ هذه المشاكل تُلاحقني...؟
وصل إلى الشّركة ولم يُلقِ السّلام على أحد، بل بقي ماشياً إلى مكتبه بعجلة، وأغلق الباب وجلس وراء طاولة المكتب، تناول ورقة وقلماً وأخذ يُخربش ويُفكّر...ويرسم رسومات ليست مفهومة أغلبها خطوط متشابكة، فبدأ يشكي همومه للورقة والقلم، بأسلوبه الخاص، ويُفجِّر حزنه بالكتابة... فتلقائياً بدأ يكتب خاطرة نثريّة:

أنا الذي تحـــلـّـى بالأســى، وتــملّـــح بــدمــعِ الأحـــــــزانِ...
اعتقدتُ الحياة تبتسم لي، لكنّها رفضتني وابتعدتْ عني
لا ألومكَ يا قلبي... لو أحسست بالتّعب، ولا أعرف من الجاني
أيا دنيا... ما الذي تريدينه مـــــــنّي؟ أفهميني ....
مات برعمٌ لم يتفتّــح بعد... ولــم يــذقْ طــعــم الحـــبِّ والحـــنـــانِ

لـــم يعد الإبحارُ بإمكاني... أمواجُ بحركِ كسّرت شراع زورقي
تذكّريني وأشفقي عليَّ فقد أهــــلكني الــــزّمان...
عامليني بحبٍّ... فأنا ضَيفُكِ يا دنيا، ويوماً سأرحل عنكِ
وأترك لكِ أفراحي لتهديها لغيري..
لكن أرجوكِ لا تذيقيه أحزاني...
مشاعر حـــبٍّ... ونبــــض قـــــلبٍ أتركها بصمةً مني للحياة الآتية
يومها تذكّري أنَّ إنساناً...مــشـــى مــشواركِ وخاض الامتحان
صعباً ممـــتنعاً... وما أكثر الآهاتِ بالاجاباتِ....
ربِّ أعنـــّي على الأيـــّــــــام ...ولا تـــــترك للأعداء هــــوانـــي.
* * *

أما منال فكانت متوتّرة ومترعجة، فاضّطر الطّبيب لإعطائها إبرة مهدّئة لتنام، وتكُفَّ عن البكاء؛ لأنَّ هذا سيؤثّر على صحّتها وعلى جرح العمليّـــة القيصريّة، فيجب أن تبقى هادئة، وأقرَّ لها أن تبقى ثلاثة أيام في المستشفى، لحين يتحسّن جرح العمليّـــة قليلاً وتتحسّن نفسيّتها، وتستطيع القيام من السّرير بجهد أقل، وطلب من أمين عدم زيارتها إلاّ بعد أن تخرج من المستشفى، ريثما تهدأ الحال.

أما ريم فلم تعرف بالمشكلة التي حصلت بعد زيارتها لأمين ومغادرتها؛ لأنها سافرت صباح اليوم التّـــالي، ولا حتى استطاعت زيارة ديالة وهاني في مترلهما، فسافرت وهي سعيدة جداً لأنها رأت أمين، وبلّلت قلبها بالحديث معه قليلاً، واطمأنــّـت أنه ما زال يحبّها حتّى ولو من بعيد، فهي تعيش حبّه في إسبانيا وحدها وتتعذّب لفراقه، ولا تستطيع نسيانه، أما زوجها عمر المسكين، فما زال ينتظرها لتصبح جاهزة ومستعدّة لتَقَبّلِه زوجاً لها، وقرّر أن يُفاتحها بالموضوع مرّة أخرى لعلها تكون قد غيّرت أفكارها بعد زيارة أهلها وعودتها إلى إسبانيا.

جاءت ديالة زيارة للشّركة عند هاني، كانت في إجازة من عملها، فجلست عنده حوالي نصف ساعة، واستأذنته لتسلّم على أمين بمكتبه، فتوجّهت إلى مكتب أمين وطرقت الباب، ثمّ شقّت طرفه وقالت: "أتسمح لي بالدّخول؟"

وقف أمين على الفور وقال: "أهلاً... أهلاً يا ديالة، ما هذه الزّيارة المفاجئة؟ تفضّلي.

دخلت وسلمت عليه وجلست ثمَّ قالت: "جئتُ لزيارة هاني لأني مجازة اليوم، ولم أستطع إلاّ أن أسلِّم عليك، لأني مشتاقة لك فعلاً يا أمين".

– وأنا كذلك، لم نعد نراكِ منذ أن تزوّجتي من هذا الذي يُدعى هاني، ما الذي حصل؟ أيحرمُكِ من الخروج؟!

ضحكت ديالة وقالت: "لا أبداً، لكن المتطلّبات الزّوجيّـــة والمترليّـــة هي التي تمنعني من الخروج. بالإضافة إلى العمل المتواصل بالشّركة الهندسيّة التي أعمل بها".

– نعم هذا مؤكّد، ليكن الله بعونكِ.

- وأنت يا أمين ما هي أخبارك؟ أخبرني هاني أنَّ منال قد أنجبت الطّفل ألف مبروك، سأذهب لزيارتها اليوم للمستشفى، وأطمئنَّ عليها.

سحب أمين نفساً عميقاً ممزوجاً بالألم والآهات، وقال لها: "آه يا ديالة... ماذا أخبركِ...؟ أريد أن أطلب منكِ طلباً لعلّكِ تستطيعين مساعدتي".

- نعم تفضّل، لقد قلقت ما الذي حصل؟
- الطّفل مات و....

قاطعته ديالة مستغربة ومتسائلة: "مات؟!! كيف ذلك..؟ لا أُصدّق...!"

- إنه صغير لدرجة أنه من الصّعب أن يعيش. لكن المشكلة أنَّ منال لا تُريد أن تراني، ولا تُــكلّمني حتّى على الهاتف، وتطلُبْ الطّلاق...، أنا لا أريد أن أخسرها يا ديالة، هي دائماً تفهم الأمور بالمقلوب، بادرتُ بالاعتذار لها عن أيِّ خطأ بدر مني، وأريدها فقط أن تنسى ما سمعتْ؛ لأنه مجرّد كلام بلا أفعال ومجرّد ماضٍ اشتعل لحظيّاً، والخطأ لا يقع عليَّ وحدي، بل هي من أخطأ أيضاً بالتصرّف غير المسؤول.
- شرح لي هاني القصة، لكن يا أمين أيُعقل أنّ أيّ إنسانة أو زوجة تسمع زوجها يقول إنه يختنق من حبّها وحبّها ممل، وتريد أن ترضى بسهولة، وتعود بكلِّ رحابة صدر؟!
- ديالة... صدّقني هذه هي الحقيقة، غيرتها الشّديدة خنقتني، هذا بالإضافة إلى أني كنتُ أتكلّم مع ريم بحريّة لأني أعلم أن لا أحد يسمعني، فقط كنت أشكي همّي لها، فهي ما زالت أقرب واحدة إلى نفسي.
- على كلِّ حال يا أمين، سأذهب لزيارتها وأسمع منها، وأعرف ما الذي يُضايقها، ولماذا تطلب الطّلاق، وأحاول إقناعها أنَّ الموضوع لا يستحقُّ الانفصال.
- حاولي... وسأكون شاكراً لكِ.
- سأذهب إليها اليوم للمستشفى لأطمئنّ عليها، لكن لن أكلّمها بشيء، وعندما تعود للمنزل سأجلس معها ونتحدّث بالموضوع، أما الآن فمن غير المنطق فتح الحديث معها، دعها تستريح.

بعد الظّهيرة عاد أمين للمستشفى، ليستلم البُرعم الذي مات قبل أن يتفتّح، وقبل أن يفرح والداه به، فالتقى برامي يجلس بالاستراحة مع والدته، فسلّم عليهما وقال له: "تعال معي لنستلم الطّفل ".

وفعلاً ذهب الاثنان للإدارة وطلبا جثّة الطّفل الصّغير، فتمَّ إعطاؤهما ورقة موقّعة تسمح لهما باستلام الطّفل من قسم ثلاجات الموتى، فنزل الاثنان إلى الطّابق الثّاني تحت الأرضيّ (التّسوية ٢) حيث قسم ثلاجات الموتى، وقدّما هذه الورقة لمسؤول القسم من النافذة، فطلب المسؤول أن ينتظرا خارجاً عند كراسي الانتظار وسيُحضر لهما الجثّة، ثمَّ ذهب مسؤول القسم وأخرج الجثّة الصغيرة الهامدة من الثّلاجة، وحملها وخرج متوجهاً عند أمين. نظر أمين للرّجل مسؤول القسم وهو يُحضر له الطّفل فشعر برهبة كبيرة تعصر قلبه من مأساة الموقف، كيف سيحمل بين ذراعيه ابنه الصغير وهو بلا روح فاقداً للحياة، كان الطّفل ملفوفاً بقطعة قماش غير مشدودة، بل تلفُّ

حول جسده الصّغير برقّة وراحة، يبدو وجهه صغيراً جداً وتفاصيل وملامح ناعمة تبرز من بين قطعة القماش الأبيض، مَنْ ينظر إليه يرقّ قلبه ويقشعرُّ بدنه، هذا بالضّبط ما حصل لأمين ورامي.

فقال مسؤول القسم لأمين: "تفضّل هذه هي جثة الطّفل" شعر أمين أنه يقولها من غير قلب، أو كأنه يُقدِّم أيَّ شيء غير جسد هامد يخصُّ إنساناً أو طفلاً قبل أن تغادره الرّوح. حمله أمين وألم وحزن غصَّ في حلقه، يحبس دموعه ويتظاهر بالقوّة.

ثمّ قال لهما المسؤول: "لقد غسّلناه وهو جاهز للدّفن بعد الصّلاة عليه"لم يستطع أمين الكلام بل بقي حاملاً الطفل بين ذراعيه ينظر إليه، أما رامي فقال لمسؤول القسم: "شكراً لك والسّلام عليكم".

وخرجا وصعدا بالمصعد للطّابق الأرضي، وتوجّها لمواقف السيّارات حيث يوقف أمين سيّارته، وما إن جلس أمين بالسيّارة حتّى ضمَّ الطّفل إلى صدره وأخذ يبكي بقهر، فقال له رامي: "يا أمين! أرجوك لا داعي لهذا الحزن الشّديد، هذا هو عمر الطّفل، اختار الله له الأفضل ربّما لو عاش فإنه سيعيشُ بعلّة ما؛ لأنه ولداً صغير، ونزل بغير أوانه..."

نظر أمين لرامي وقال له: "ما ذنب هذا الصّغير أن يموت ويفقد الحياة بسبب خلاف تافهٍ بين أمه وأبيه؟! أنا فقدتُ حلاوة الحياة في طفولتي بسبب المشاكل بين أبي وأمي، لكن طفلي فقد حياته كاملة! هل أنا فاشل مثل والدي؟ أشعر بمرارة وحُرقة، كنت أتمنّى لو استطعت أن أكون أباً صالحاً، أعوّض نفسي وابني من حرمان الأب الذي افتقدته منذ طفولتي، انظر إلى النّتائج يا رامي، تاريخ مؤلم يُعيد نفسه بطريقة أشنع".

فأخذ رامي جثّة الطّفل من بين ذراعيه، وقال له: "لا يا أمين الموضوع مختلف، الذي حصل قضاء وقدر من الله، سيعوّضك الله بإذنه بنين وبنات وترعاهم وتكون لهم نِعْم الأب الصالح، أنت يا أمين تختلف كُليّاً عن أبيك. لا تلوم نفسك ولا تضع اللّوم على أحد، وابدأ صفحة جديدة مع منال بعد أن تهدأ الأوضاع بينكما، هيّا أدر محرّك السيّارة وانطلق إلى بيتي، لندفنه في الحديقة الخلفية لمترل جدِّ الطفل".

قاد أمين السيّارة متوجّهاً لبيت حماه دون أن يتكلّم ولا كلمة واحدة في الطّريق، وحوّل المذياع بالسيّارة على إذاعة القرآن الكريم، حتّى وصلا للمترل، وضع رامي الطّفل على طاولة غرفة الطّعام، وذهبا ليتوضّأا وما إن أنهيا وضوءهما حتّى وصل أبو رامي من عمله، بعدما ذهب لزيارة منال بالمستشفى، فوجد رامي وأمين يتجهّزان ليُصلِّيا صلاة الميّت على روح الطّفل الملائكيّة الطّاهرة، فطلب منهما أن ينتظراه ليصلِّي معهما، فتوضّأ ثمَّ صلّوا ثلاثتهم، وقَبَّل الجدُّ الطّفل من جبينه وغطّى وجهه، وناوله لأمين فحمله وتوجّه هو ورامي للحديقة الخلفيّة، فحفر رامي حفرة صغيرة بعمق نصف متر، ثمَّ قال لأمين: "هيّا هات الجثّة وضعها هنا".

لكن أمين ظلَّ يتأمّل بالطّفل وبالقبر والحزن ساد عليه كأنه سحابة سوداء أخفت ضوء الشّمس، لا يستطيع وضع الطّفل في أسفل القبر وهو بين ذراعيه، فأعطاه لرامي وقال له: "ضعْه أنت" فأخذه رامي ووضعه في القبر جهة القبلة، وتمَّ إغلاق القبر الصغير، وقرأوا الفاتحة على روحه الطّاهرة، ثمَّ قال رامي: "سأزرع غداً بجانب القبر شجرة زيتون مباركة، علامة على مكان

القبر؛ لأننا لا نريد أن نضع شاهداً عليه ونُعلن أنَّ هنا قبر هذا الطّفل، لكي لا تتأثّر منال كلّما تراه، أتوافقني الرّأي يا أمين؟"

– نعم، هذا جيّد والأفضل ألاّ تخبرها أنه دُفن هنا...

عاد أمين لبيته ويشعر بيأس وحزن وأحداث اليوم لا تفارق ذهنه، وكلّما تذكّر وجه الطّفل الهادئ كأنه نائم شعر بغصّة تخنقه، لكنّه تناول دواءه المنظِّم لضربات القلب وذهب للفراش، مع أنه يشعر بجوع شديد، إلا أنه لا يوجد لديه شهيّة للأكل، كما أنَّ وراء ظهره مشاريع وأعمال يجب إتمامها بأسرع وقت، لكن من أين سيخترع الوقت الإضافيّ؟ تمنّى لو أنَّ اليوم أكثر من أربع وعشرين ساعة ؛ ليستطيع إتمام أعماله، إضافة إلى أمنية راحة البال.

***

مرّتْ ثلاثة أيام بهدوء، حيث خرجت منال من المستشفى أفضل حالاً، كان أمين يسأل رامي عنها يوميّاً عبر الهاتف ليطمئنّ على صحّتها النفسيّة والجسديّة، وعندما علم أنها أصبحت في منزل والدها اتّصل على الفور بديالة، وطلب منها أن تذهب إليها وتحاول إقناعها بأن تنسى أمر الانفصال لأنّ أمين يُحبّها، وسيأتي ليُعيدها لمنزلهما في أيِّ وقت تشاء.

وبالفعل في المساء اشترت ديالة هديّة لمنال، تُعبِّر لها عن خروجها بالسّلامة من المستشفى، وذهبت إليها.

فاستقبلتها منال فرحة في غرفة عُزوبيّتها السّابقة، وقالت: "بعد إذنكِ يا ديالة سأجلس بالسّرير لأني متعبة فعلاً، وجُرْحُ العمليّـــة ما يزال يؤلمني".

أجابتها ديالة: "لا عليكِ" وهي تُمسك بيدها لتوصلها للسرير؛ لأنها تسير ببطء شديد، وتحني ظهرها لا تستطيع الوقوف وقفة مستقيمة، فما زال جرح القيصريّة يُؤلم وكأنه مشدود، وإذا رفعت ظهرها تشعر أنَّ أسفل بطنها ستتمزّق، فأجلستها بالسرير وتوجّهت لباب الغرفة لكي تُغلقه، لتستطيع أن تتكلّم معها براحة وبدأت كلامها: "الآن يا منال يبدو عليكِ أنكِ أفضل حالاً من ناحية نفسيّة، وإن شاء الله ستُصبح صحّتكِ الجسديّة أيضاً أفضل، لكن ما أريدأن أقوله لكِ هو إعادة النّظر بحساباتكِ وقراراتكِ حيال الانفصال عن أمين بالطّلاق، ولا..."فقاطعتها منال قائلة: "أرجوكِ يا ديالة لا أريد نصائح شكراً لكِ قراري اتّخذته هذا من قبل وأكّدته وأصرُّ عليه، وعندما مات الطّفل انتهى كلُّ شيء يربطني بأمين".

فجلست ديالة بجانبها، وقالت:"وهل بموت الطّفل تنتهي الرّوابط بينكِ وبين أمين؟!"

– هذا الذي أراه أنا، وأشعر به يا ديالة.

– وأين ذهب حبّكِ له؟

– اسألي أمين نفسه أين الحب؟ كيف كان يقتله يوماً بعد يوم.

– لا يا منال، أنا سمعتُ أمين، وأريد أن أسمع منكِ أنتِ لأحكم على الموضوع بأمانة، ولأعرف الحقَّ مع مَنْ، وعلى مَنْ؟

تنهّدت منال وأخذت نَفَساً عميقاً، قالت وهي عابسة: "ماذا تريدين أن تعرفي؟ "

– قولي لي يا منال... هل من الممكن حلُّ الإشكال الذي حصل وسوء التّــفاهم هذا؟

- هذا ليس سوء تفاهم، هذه خيانة للحبِّ والزّواج، (بدأت منال تغضب)...هل أستطيع أن أُرجع الطّفل؟ ستة أشهر وأنا أعاني من حمل متعب جدّاً وصعب، وما أن قاربْتُ على الولادة وانقضت معظم المدّة وهانت...إذ بي ألدُ قيصريّة ويموت الطّفل!! مَنْ في نظرِكِ المسؤول؟
- اهدئي يا منال لا أريدكِ أن تغضبي، سنتباحث بالموضوع بهدوء تامٍّ. أولاً يا عزيزتي موت الطّفل قضاء من الله، لا نستطيع أن نضع اللّوم على أحد، هكذا أراد ربّكِ، وأنتِ قُلْتِ من البداية أنَّ الحمل كان صعباً، وربّما مات طفل بعد الشّهر السّادس من دون هذه الحادثة، لكن تعدّدتْ الأسباب والموت واحد هكذا نصيب الطّفل.

ثانياً: بالنّسبة للمشكلة الأصليّـــة والتي أنتِ غضبتِ من أجلها فهي مجرّد مشكلة عابرة فقط، ماذا يعني إذا مازال أمين يحبُّ ريم؟ هذا ليس بالجديد وأنتِ تعرفين الموضوع منذ سنين وقبل أن يُحبّكِ أو يتزوّجك، وليست بالخيانة؛ لأنكِ وافقتِ على الزّواج به وأنتِ تعلمين أنه لا يزال يحبّها، وهو لم يتركها بإرادتهِ بل رغماً عنه والجميع يعرف هذا، لكن في حال أنه تعرّف على فتاة أخرى وأحبّها بعد أن تزوّجك... هنا تستطيعين القول بأنها خيانة.

- يا ديالة إلى متى هذا الحبّس يستمر؟ متى سأشعر أنه لي وحدي، أشعر بالقرف من الموضوع؟
- منال... يا عزيزتي، عن أيِّ حبٍّ تتكلّمين؟! ريم ليست في نفس البلد وعلاقتهما مقطوعة تماماً، لا يُـــكلّمها ولا تكلّمه، هو يدفن الحبّ بقلبه ولا يُظهره لأحد، كما أنه لا يُشعركِ أبداً بذلك، أليس كذلك؟
- بلى، لكن عندما أسأله أما زلتَ تحبُّ ريم؟ يـــُجيبني بنعم، هذا الذي يَقتلني! لا أريد أن يـــُخبرني الحقيقة لماذا لا يكذب عليِّ لأرتاح؟؟ كلمة نعم هذه تُـــثير أعصابي وتستفزّني، أتعرفين يا ديالة قصّة فتاة بياض الثّـــلج؟
- أعرفها، وما علاقتها بموضوعنا؟
- أنا أشعر تماماً بها!
- ببياض الثّلج؟!
- كلا أبداً بل بزوجة الملك عندما كانت تسأل المرآة وتقول: "يا مرآتي من أجمل أنا أم بياض الثّـــلج؟"، تقول المرآة: "أنتِ جميلة جدّاً لكن... بياض الثّلج أجمل منكِ بكثير. فيُجنُّ جنون تلك المرأة من المرآة الغبيّة الصّادقة، وأصبحت تكره بياض الثلج. ما المشكلة لو أجابت المرآة بأنها الأجمل؟ أليس هذا أفضل. أبقيتْ زوجة الملك تحبُّ بياض الثّـــلج بنظركِ؟!! هكذا أنا أسأل أمين أتحبّني؟ يجيب نعم، بعد فترة أسأله أما زلتَ تحبُّ ريم؟ يجيب بصدق نعم أحبّها. لماذا لا يكذب عليّ لأرتاح؟؟
- أنتِ غريبة جدّاً يا منال،لم أرَ واحدة تتمنّى أن يكذب زوجها عليها، وهو يقول لكِ الصّدق، لأنّ بنظره أنتِ تعرفين الموضوع من الأصل، إذن انتهينا لا نريد أن نُعيد ونزيد.
- لا يُشعرني أنه يحبّني يا ديالة، خذي هذه النّـــقطة بعين الاعتبار.
- أتشرحين لي أكثر لأكون على علم، وأعرف كيف سأواجه أمين!

دخلت والدة منال ومعها عصير لضيافة ديالة، فانقطع الحديث بسؤال أمِّ رامي عن أحوال ديالة وعن عملها وزوجها هاني، فأجابتها وهي مبتسمة، وأخذت تشرب العصير، وما إن خرجت أم رامي حتّى عادت ديالة وقالت لمنال: "ماذا كنّـــا نقول؟"

أجابتها منال: "ما رأيكِ لو نُنهي الموضوع؟ لأنّ الكلام لن يُقدِّم أو يُؤخّر شيئاً. قراري اتّـــخذْته وانتهى كلُّ شيء ".

وضعت ديالة كوب العصير على (الكومودينة) بجانب السرير وقالت لمنال: "لا سنكمل حيث وقفنا، لا أريدكما أن تخسرا علاقتكما خصوصاً أنكِ أنتِ يا منال كنتِ تتمنّين أمين زوجاً لكِ وعملتِ المستحيل لِلَفتِ انتباهه".

– هذا كان ماضٍ ونسيته بل محته الأيام، لقد حصلتُ عليه كزوج ولا أريده الآن،لم يُعجبني بعد التّجربة.

– يا إلهي كلامكِ غير منطقيّ أبداً! أهو زوج أحذية لتقولي عنه لم يعجبكِ بعد التّجربة؟! أمين الشّاب الوسيم اللّطيف المؤدّب لم يعجبكِ؟ لا أفهم كيف! وكيف لا يُشعركِ بحبّه؟

– يهتمّ بعمله أكثر مني طيلة النّهار بالمكتب، وأصبح نادراً ما يأتي ليتناول طعامه وقت الغداء، وعند المساء يأتي بعد السّاعة التاسعة يتناول عشاءه بسرعة ويتوجّه لطاولة الرّسم أو جهاز الحاسوب، ويبدأ بإكمال المشاريع المعماريّة، هذا الذي جعلني أعود للعمل كسكرتيرة لكي أخرج من الوحدة... شيء مُقرف...أووُف... لقد مللت... روتين قاتل أصبحت الحياة في منزلنا، وكأنني غير موجودة، هو بصراحة معتاد على جوِّ الوحدة بالمنزل ويُشعرني أن لا أحد معه بالبيت، ولا أشعر أني زوجته أبداً، إلاّ في...

– إلاّ في ماذا؟ أكملي لماذا صمتِّ؟

– بصراحة... في الفراش.

– هل هذا يُزعجكِ إذن؟

– كلا على العكس... بل أشعر بكياني وأنوثتي وقتها، أشعر بأني زوجته حقّاً.

– طيّب ما المشكلة؟ هل يُعاملكِ بقسوة أو بأنانيّـــة لذاته، أو يُشعركِ بأنه واجب عليه تأديته، وليست المسألة حبّاً متبادلاً؟

– كلا أبداً، لا تفهمي قصدي خطأ، بل هو إنسان لطيف لكن انتهينا... لا أريده!

– لستِ على طبيعتكِ، بل أنتِ أصبحتِ مجنونة حقّاً! وأنا لا أرى مبرّراً كافياً لتنفصلا.

– أريده زوجي طيلة النهار واللّيل، وأن أشعر به طوال الوقت وليس بالفراش فقط، أريد قلبه بأكمله لي وليس مناصفةً مع أخرى.

– اسمعي يا منال، الحياة ليست فقط حباً ولهواً، ولا أضع اللّوم على أمين أبداً، بل الذّنب ذنبكِ وعليكِ أن تنتبهي عليه أكثر وتحافظي عليه، واخلعي الغيرة هذه من عقلكِ ومن أوهامكِ، كما أنَّ متطلّبات الحياة تحتاج أن يعمل الإنسان ليل نهار، ليستطيع سدَّ احتياجاته اليوميّة فقط. فكّري جيّداً وكوني عاقلة، أنتِ حقّاً تخنقينه بحبّكِ، ولن أذهب إليه لأعاتبه لأني أرى الحقَّ معه. أمين يُحبّكِ وقد قالها مئة مرّة وقال أنه سيعتذر لكِ عن أخطائه، لكن أنا أرى من الواجب أن

تعتذري له أنتِ عن الإرباكات التي فعلتها بسبب صِغَر عقلكِ، وهو ليس مخطئ أبداً، ماذا يعني لو بالغ قليلاً بمشاعره، لن تُدمّر الدّنيا! بل أنتِ بالغتي بِردّة فعلكِ ودمّرتِ كلّ شيء، لا يجدر بكِ عند أوّل خلاف أن تطلبي الطّلاق...

– هكذا إذن يا ديالة، أنا التي يجب أن تعتذر! وتقفين بجانب أمين...!

– نعم فكّري جيّداً، وأنا الآن أريد أن أغادر. وسأكلّمكِ غدّاً لأرى إن كان كلامي قد فعل معكِ شي... إلى اللّقاء.

وخرجت ديالة مسرعة لتتكّلم مع أمين من الخلويّ بعيداً عن منزل منال. رَنّت على هاتفه فأجاب بسرعة؛ لأنه كان قلقاً ينتظر جوابها. فقالت له ديالة إنها لن تخبره شيئاً بالهاتف، وأنها ستأتي لتراه وتجلس لتكلّمه بالحديث الذي دار. فدعاها أمين لشرب فنجان قهوة في استراحة قريبة من الشّركة الهندسيّة، بعدما طلب الإذن من هاني باصطحاب ديالة معه، وبإذن من مدير الشّركة بالمغادرة ساعة من الزّمن.

وبالفعل التقيا في استراحة وقهوة الصنوبرة، وطلب أمين قهوة له أما ديالة فطلبت كوب شاي بالنّعناع. وقال لها: "هيّا أخبريني ماذا دار بينكما من حديث؟"

فوجّهت ديالة نظرة عتاب لأمين وقالت له: "أتعرف يا أمين أنك أنت المخطئ بحقِّ منال، وهي مسكينة تتحمّل الكثير منكَ وصابرة عليك".

نظر لها أمين باستغراب، وقال لها: "ماذا قالت لكِ وأقنعتكِ؟ أنا المذنب؟!"

– يا أمين الشّخص لا يستطيع أن يرى أخطاءه التي يرتكبها عن غير قصد، بل الذين حوله يرونها على الفور ويَنقدونها؛ لأنَّ الأشخاص من حولك مرآة لك، وأنت لا مرآة أمامك إلاّ منال.

– ما هي أخطائي؟ هاتِ ما عندك...

– أنت لم تعد كالسّابق تعيش وحيداً بالبيت، تزوجت منا، لتمحو شبح الوحدة من حياتك، وتعلم كم هي مريرة، أليس كذلك؟

هزَّ أمين رأسه متّفقاً مع كلام ديالة، وقال لها: "نعم، هذا أكيد"

فأكملت كلامها: "حسناً... لماذا زرعت الوحدة في حياة منال؟"

– كيف؟

– تتركها طيلة النّهار بالبيت، وعندما تعود للمنزل أيضاً تتركها وتتوجّه لعملك، هي لا تشعر بكيانها معك، ولا تُشعرها بحبّك نحوها، لذا هي دائماً تضع هاجس حبّك لريم، وأنك لا تهتم بها أو تحبّها، لا تشعر بأنها زوجتك بل قطعة أثاث في البيت.

– يا ديالة لا أستطيع أن أترك عملي وأجلس بقربها في النّهار واللّيل، أنتِ تعرفين كم طبيعة عملنا تحتاج إلى وقت وجهد مضاعف، لكي نقوم بإنشاء وإتمام المشاريع على أكمل وجه.

– اسمعني يا أمين، المرأة الحامل تحتاج لمن يُشعرها بالرّعاية، والحبِّ والدّلال، لأنها تبدأ تفقد ثِقَتها بنفسها، بسبب التغيّرات الفسيولوجيّة التي تطرأ عليها وعلى مظهرها.

لا يكفي أن تقول لها استريحي استلقي نامي، هذا ليس دلالاً ولا حباً... بالإضافة إلى أنَّ ذاك الحمل كان الأوّل لها وصعب عليها أيضاً.

– كنتُ دائماً أراعي مشاعرها ونفسيّتها المتعبة التي أتعبتني، ولا أكلّمها خوفاً من أن تختلق المشاكل؛ لأنّ كلّ موضوع أحاول الحديث به كانت تضع ريم بالوسط. فقلت في نفسي يجب أن أختصر الكلام معها، لذا كنت أتوجّه لعملي بعد العشاء.

– إذا أردتَ أن تكسب منال حاول أن تغيّر من أسلوب حياتك قليلاً، انسَ العمل بعد نهاية الدّوام، أعطها وقتاً كافياً.

– سأحاول، لكن يا ديالة نحن نحتاج لسنوات خبرة بالعمل وجهد أكبر، لنبني مستقبلنا كما يجب. كيف سأفتح مكتباً هندسيّاً إذا لم أعمل جاهداً منذ بداية حياتي، وأنا في عزِّ قوّتي وشبابي؟

– أنت يا أمين لست بحاجة لبذل الجهد لفتح المكتب الهندسيّ، رأس مال ولديك ما شاء الله، لِمَ التعب لا أعرف؟ وتتحمّل ضغط العمل المرهِق وضغوطات المدير العام، وأنت تستطيع أن تكون مدير عملك ومكتبك، منذ اللّحظة التي تريد.

– اسمحي لي أن أقول لكِ أنكِ مخطئة جدّاً، المكتب الهندسيّ وأيّ مكتب كان لا يحتاج لرأس المال فقط لكي يُفتح، بل يحتاج للخبرة العمليّـــة.

– أنت مهندس بارع وخبرتك تساوي أيّ مهندس يعمل منذ خمس سنوات، وكنتَ دائماً من المتفوّقين في الجامعة.

– الخبرة العمليّـــة مطلوبة لنجاح المكتب، لأسباب كثيرة من أهمّها أن يكسب المهندس زبائناً ويصنع علاقات جيّدة مع أصحاب المشاريع، من هو أمين شاكر ليفتح مكتباً هندسيّاً الآن؟ اسمي ما زال غير معروف عند أصحاب المشاريع الضّخمة. لكن عندما أتعب على نفسي قليلاً وأعمل حوالي ست أو سبع سنوات في شركة هندسية كبرى، وأتحمّل كلّ ضغوطات العمل، بعدها أخرج من هذه الشّركة مهندساً معروفاً، أفتح مكتباً خاصّاً بي، ومن يسأل عن المهندس أمين شاكر يرشدوه إلى مكتبي؛ لأنّ نجاح المكتب لا يكتمل بالمال فقط، بل يحتاج إلى خبرة عمليّـــة وعلاقات اجتماعيّة حسنة.

– كلامك منطقيّ.

– لذا يجب على منال أن تصبر قليلاً معي، لنصعد سلّم النّجاح معاً، فأنا وحدي لا أستطيع أحتاج من يقفُ بجانبي ويُشجّعني ويُساندني، وصدّقيني أنا لن أقصّر في حقّها، وسأعدها أن لا أعمل بالبيت، مع أنَّ عملي بالبيت ليس متكرّراً، بل هو حالات نادرة عندما أكون مضغوطاً بالمكتب. ألا تسمعين بمقولة وراء كلِّ رجل عظيم امرأة؟!

– نعم أسمع.

– أنا لا أطلب من منال أن أكون عظيماً، لكن أطلب منها أن تفسح لي المجال لأكون ناجحاً، ولا تضغط عليّ وتخنقني بأوهامها.

– أنت اهتمَّ بها جيّداً وأظهر لها حبّك بطريقة أو بأخرى ولا تُهملها، عندها ستنسى الوهم الذي يُدعى حبّ ريم، لكن بما أنك لا تُشعرها بالحبِّ ستبقى تضع هذا الوهم حجّة، لتلْفِتَ نظرك وانتباهك نحوها، وتجعلك تقول لها أحبّكِ بكلِّ الطرّق لتُرضيها، هي تتصرّف هكذا عن غير قصد صدّقني، هذا شعورها الدّاخلي يأمُرها به بعفويّة، مما يؤدّي بالنهاية إلى إشكالات

وخلافات كبيرة بينكما. راجع كلامي وراجع نفسك وسترى أنك مخطئ بحقّها، ما ذنبها أنك مازلت تحبّ ريم...هي زوجتك الآن مشاعرك فقط لها افهم ذلك أرجوك أمين.

– حسناً، لكن ماذا قالت لكِ بعد أن أنهيتِ حديثكِ معها؟

– لم تقل شيئاً، لكن قلتُ لها سأكلّمها غداً مساءً وأرى إن غيّرت رأيها بموضوع الطّلاق.

– أخبريها أني أريد أن أراها، وأكلّمها.

– لا تقلق سأخبرها. والآن دعنا نذهب لكي لا نتأخّر.

غادر كلاهما الاستراحة، فقال لها أمين: "هل تأتين معي للمكتب عند هاني؟ أم لديكِ أعمال؟"

– سآتي معك وأجلس عند هاني قليلاً، ثمَّ أعود للبيت، لقد أخذتُ إجازة اليوم خصّيصاً من أجلك أنت ومنال، للتّفرّغ لحلِّ العلاقات الاجتماعيّـــة المعلّقة.

ضحك أمين وقال لها: "أشكركِ أيّتها المرشدة الاجتماعيّـــة، هّيا بنا إلى المكتب".

* * *

اتّصلت أمل بأختها علياء للاطمئنان على منال وأمين، وخصوصاً عن حمل منال.

لكن فاجأتها علياء بقولها: "أنَّ الطّفل قد مات، وأمين ومنال في حالة توتّر بالعلاقة بينهما، وربّما ينفصلان".

فجُنَّ جنون أمل على هذا الموضوع ولم تُصدِّق كيف يتزوّج شخصان قبل سبعة أشهر تقريباً، ويطلب أحدهما الانفصال بعد هذه المدّة القصيرة، وتذكّرت زواجها الأول من أبي أمين وكيف كانت تتمنّى الطّلاق من أوّل شهر في زواجهما. فقالت: "لا بدَّ أنَّ هناك مشكلة كبيرة حتى أنَّ منال لم تعدْ تتحمّل العيش مع أمين؟" لكن علياء أخبرتها أنَّ إشكالهما لا يحتاج إلى الطّلاق بل إلى التّفاهم، وعلى ما يبدو أنَّ شخصيّة منال لا تنسجم مع شخصيّة أمين، لذا تبقى المشاكل ملازمة لهما كلَّ يوم.

بالطّبع أمل لم يُعجبها هذا الكلام ولم تقتنع بالسبب، فأخبرت علياء أنها ستحاول أن تأتي لعلّها حاولت تغيير أيّ شيء. لكن علياء أخبرتها لا داعي لإرهاق نفسكِ فجيل هذه الأيام لا يسمع سوى من نفسه، يتزوّج ويُطَلّق على هواه، ولن يُقَدِّم حديثكِ شيئاً معهما، الذي في رأسهما سيفعلانه.

مساء اليوم التالي تكلّمتْ ديالة مع منال لتعرف ما آخر قراراتها، وهل فكّرت بالكلام لكن كان ردُّ منال قاسياً جدّاً، وقالت لديالة: "أخبري أمين أنني أريد الانفصال وبأسرع وقت. لقد فكرت...وفكرت طيلة البارحة لم أستطع النوم، أنا وأمين لا نصلح معاً، إجمالاً أنا لا أناسبه وأنا المخطئة منذ البداية، كنت أركض دائماً وراءه، وأكثر من مرّة أخبرته أنني أحبّه وهو كان يرفض ويقول لي انسي يا منال، وعندما ترك ريم ذهبتُ إليه كالبلهاء أريد أن أُنقذه من وحدته وأخبرته أنني سأعوّضه عن كلِّ شيء، لكن أيضاً كان ردّه لا يريد الارتباط بأحد فهو غير مستعدٍّ نفسيّاً، ولأني غبيّـــة ولا أقدّر قيمة نفسي بقيت وراءه حتّى أقنعته بخطبتي، ومنذ الخِطبة وأنا أشعر بجفاء شديد، أتعرفين السّبب يا ديالة؟"

– قولي أنتِ... لا أعرف!
– لأني أنا من أردته لي رغماً عنه أقنعته بي، كان يجب أن أتزوّج شاباً يركض ورائي ويُقدِّم المستحيل لكي يطلب يدي ويتزوّجني، لا أن أسعى أنا لكي يتزوّجني، لقد أعماني الحبّ وكنت أراه حبيباً لي من خلال ريم، وأتصوّره يُـــحبّني بنفس الأسلوب، لكن عندما صار زوجاً لي لم أعلم كيف سيكون حبّه لي... الخلاصة يا ديالة أخبريه أن ينسى هذه الفترة من حياته؛ لأنها تجربة وانقضت لم يكن لها داعٍ بنظري، ولو اختصرتُها منذ البداية لتفادينا كثيراً من الأمور والعواقب، وأخبريه أني أعتذر له لأني دخلت عالمه الخاصّ به بلا داعٍ.
– سمعتكِ للنهاية يا منال، لكن بنظري لا داعي أنتِ لهذا الكلام كلّه، ما زلتِ زوجته الآن وليس الجرم مَنْ ركض وراء مَنْ، المهم أنكما تزوّجتما، ولو كان هو بالبداية لا يُريدك لما تقدّم لخطبتكِ، ولن ترغميه على شيء، وربّما...

قاطعتها منال متّسرعة: "كفى... كفى أرجوكِ يا ديالة لا أريد المزيد من الحديث بهذه القصّة، لو لم أبقَ وراءه ليل نهار ولم أقف معه وأجلس معه باستراحة الجامعة... لكان حتى الآن غير متزوّج أو تزوّج واحدة غيري...أرجوكِ انتهينا أخبري أمين أن يُباشر بأوراق الطّلاق. أنا نادمة جدّاً على هذا الزّواج ومتعبة وأريد أن أنام، إلى اللّقاء وشكراً لكِ يا ديالة.

أغلقت ديالة سمّاعة الهاتف وهي تشعر بحزن، وتفكّر بكلام منال، وترى من الممكن أن يكون منطقيّـــاً، ففعلاً هي التي كانت دائماً تُلاحق أمين وعندما كان على علاقة مع ريم أيضاً، لكن كيف ستخبره بالذي حصل؟ والقرار النهائيّ!

خرج هاني من الحمّام وهو يحمل منشفة يُنشِّف رأسه بعدما أخذ حمّاماً ساخناً، فرأى ديالة سارحة بالأفكار، فقال لها: "ديالة...مابكِ؟ إلى أين وصلتِ بالخيال؟"
– أتعرف يا حبيبي، لم أصل إلى شيء، وضع صديقك لا يَسُرُّ الخاطر.
– ماذا جرى...؟
– منال مصرّة على الطّلاق، وأنا لم أخبر أمين بعد.
– لا تخبريه تناسي الموضوع.
– مستحيل، هو ينتظر الردَّ مني الآن.
– هاتِ هاتفي الخلويّ، سأكلّمه أنا.
– ماذا ستقول له؟
– لا تقلقي، ستسمعين الآن.

ناولته ديالة الهاتف واتّصل هاني به على الفور، وقال له:"مرحباً يا أمين...ماذا تفعل؟"
– أهلاً هاني، لا أفعل شيئاً مهماً، أقلي بيضاً للعشاء تفضّل وشاركني.
– لا أشكرك، لقد سبقتك بالصّحة والعافية... لكن أريد أن أخبرك أنَّ ديالة اتّصلت بمنال، وجواب منال لم يختلف، عندي اقتراح...أن تُنهي طعامك ثمَّ تذهب أنت مباشرة إلى بيتها، تجلس مع رامي قليلاً أو مع والدها وتطلب أن تراها، وتجلسا لتتفاهما.
– هي لا تريد أن تراني.

– ضعها تحت الأمر الواقع يا أخي، تصرّف قل لأهلها لن أذهب إلا عندما أراها، واجلس معها للتّفاهم. لا أحد يستطيع حلّ مثل هذه المواضيع إلا أنت وهي مباشرة من دون وسائط، أتفهم؟ هيّا تحرّك.

– حسناً، سأذهب إلى اللّقاء.

وضع هاتفه الخلوي بجيبه وأطفأ الغاز تحت البيض، وتحت الماء الذي يغلي للشّاي، وأغلق ضوء المطبخ وخرج مسرعاً. قرّر أن يذهب ثمَّ يعود ليأكل.

فوصل عند باب مترل أهل منال، قرع الجرس ففتح له أبو رامي، كان مسروراً لرؤيته، وأدخله إلى غرفة الجلوس، كانت منال بغرفتها تقرأ مجلّة، أما رامي فكان خارج المترل، جلس أمين يتحدّث إلى عمه أبو رامي بمواضيع مختلفة، عن العمل والسّوق، وبعد ربع ساعة جاء رامي، فتفاجأ من زيارة أمين.

– أهلاً يا أمين، منذ متى وأنت هنا؟

أجاب أمين بابتسامة خفيفة: "حوالي ربع ساعة"...وجلس رامي بجانبه وقال له: "أتريد مقابلة منال؟"

– نعم، أريد أن أجلس معها للتّفاهم، وحلِّ أيِّ إشكال بعد إذن عمّي.

فقال أبو رامي: هذا مؤكد يا أمين نريد حلَّ الموضوع. قال رامي:"سأناديها لك انتظر".

وذهب رامي وطرق باب غرفة منال، وقال لها:"ممكن أن تفتحي الباب قليلاً؟"

فقالت له:"آسفة، لا أريد أن أرى أحداً ".

– أمين هنا...

– لقد سمعت، أخبروه أني نائمة .

أخفض رامي صوته وقال لها:"هيّا يا منال لا تتصرّفي كالأطفال، اخرجي واجلسي معه في غرفة الضّيوف وحدكما وتفاهما.

– آسفة، اعتذر منه لا أريد أن أخرج.

– يا إلهي كم أنتِ عنيدة! عيب أن تتركي زوجكِ جالساً وحده خارجاً، وأنتِ تحبسين نفسكِ هنا.

– لا تتركوه وحده، هو صديقك أيضاً اجلس معه.

– كم أنتِ مجنونة...!!

تركها رامي وذهب لغرفة الجلوس. وقال أمين:"آسف يا أمين، منال لا تريد الخروج من الغرفة، ولا تريد الجلوس مع أحد".

نظر أمين بقلق وشعر بالقهر وقال: "ألهذه الدّرجة تكرهني...ولا تريد أن تراني!!"

فقال أبو رامي: "هي لا تكرهك، بل ممكن أن تكون متعبة قليلاً".

– هذا لا يمنع أن أجلس معها ولو ربع ساعة، دعني يا رامي أطرق باب الغرفة عليها، لربّما فتحت لي.

قال رامي:"تعال معي لا مشكلة".

ذهب رامي وأمين ووقفا عند باب غرفة منال، فطرق أمين الباب، فقالت منال:"قلت لك لا أريد أن أرى أمين، ألا تفهم؟ اذهب وقلْ له ذلك".

قال لها أمين من وراء الباب وفي عينيه مرارة: "أنا أمين يا منال...من فضلكِ افتحي الباب"

ارتبكت منال وقالت له:"أمين...! ماذا تريد؟"

– تسألين ماذا أريد من وراء الباب؟ افتحي طيّب...

– اذهب من فضلك، لا يجوز أن تراني.

تأففّ أمين وقال: " أفّ...ولماذا؟ ألستِ زوجتي على ما أذكر؟

– لقد حرّمتُ نفسي عليك.

نظر أمين لرامي نظرة استغراب من كلام منال وقال: "ماذا جرى لعقلكِ يا منال؟"

– قلت لك أنت محرّم عليَّ، انتهينا!

– أستغفر الله العظيم...لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ماهذا الكلام؟ افتحي أرجوكِ.

فجاء أبوها ووقف خلف الباب، وقال بصوت حادٍّ وعصبيّ: "افتحي الباب يا منال وكفى هراءً، عيب عليكِ أن تتركينا ننتظر كرملكِ وراء الباب هكذا، هيّا وإلاّ كسرت باب غرفتكِ عليكِ".

قال أمين: "اهدأ يا عمي لا داعي للعصبيّة، هي بمزاج سيّء، لا نريد أن يسودَ التوتّر بالمترل، أنا جئت لحلِّ أيِّ إشكال لا لاختلاق مشاكل أخرى"

ففتحت منال الباب وذهبت تجلس على طرف السرير.

فقال أبو رامي:"ادخل يا أمين للغرفة واجلسا لتتفاهما ونحن ننتظركما في غرفة الجلوس".

دخل أمين لغرفة منال بهدوء تام، كانت الغرفة مظلمة ومنال كانت تجلس بالغرفة بضوء خافتٍ، فجلس أمين بجانبها على طرف السّرير وأخذ نفساً عميقاً ليستطيع الكلام، نظر إلى عينيها فوجدها تبكي وتذرف دمعها. فقال لها: "لـــمَ تبكين؟"

"لا شيء" هزّت برأسها.

فقال لها بكلِّ هدوء: "أنا أحبكِ "....فازدادت بكاءً ثمَّ مسك يدها وقال:"ما الذي يُبكيكِ؟"

سحبت يدها ومسحت دموعها بكفّها، وقالت: "أبكي لأني بلهاء غبية، لأني أحبّك حقّاً... ولا أستطيع أن أكمل معك مشوار الحياة"

– آه ...!! لماذا يا منال؟

– لأني أحبّك

– منال! لا أفهم ما المنطق الذي تتكلّمين على أساسه؟

– هذا منطقي أنا وحدي، خمس سنوات بالجامعة وأنا أحبّك وحدي ولم أعتد أن تكون معي، لكن عندما أصبحنا زوجين، رأيت للحبِّ طعماً مختلفاً غير الذي كنت أرسمه أيام الجامعة في خيالي، الطّعم السّابق أطيب، وأنا على ما يبدو اعتدتُ أن تكونَ حبيبي من بعيد فقط، صدّقني أنا اقتنعتُ أنك لستَ لي، لنعد كما كنّـــا أصدقاء وزملاء مثل أيام الجامعة أفضل.

نظر إليها أمين لا يعرف ماذا يجيب عليها، لقد فاجأته فجوابها هذا غير مقنع بالنّسبة له وسخيف. فازداد حيرة وقال لها: "لكن الآن الوضع صار مختلفاً عن أيام الجامعة يوجد بيننا عِشْرة أتبيعينها بهذه البساطة؟"

– أنا لا أبيع ولا أشتري، انسَ هذه الفترة من حياتك، وابدأ من جديد.

– أبدأ من جديد! عن أيِّ فترة تتكلّمين؟ ولماذا أنا المجبور الذي يجب أن ينسى دائماً؟ وفي كلِّ مرحلة من حياتي تقولون انسَ؟!! ريم قالت لي انسَ وابدأ من جديد، وأمي عندما عادت قالت لي أرجوك انسَ الماضي ولنبدأ من جديد ثمَّ عادت وابتعدت، لا أعرف متى سأبدأ أنا، إذا كان الكلُّ يريدني أن أنسى وأبدأ من جديد! ما رأيكم لو أشطب تاريخ حياتي كاملاً وأنساه وأبدأ من جديد؟ من لحظة الصفر! أو أن ألغي شخصيّتي كاملة، وأتركها على هواكم، لتسيّروها على راحتكم؟

– أمين أنا لا أقصد ذلك، لأني أحبّك صدّقني قلت لك انسَ هذه الفترة.

– ريم كذلك تحبّني وتركتني وأنتِ تحبّينني وسوف تركتيني، وأمي تحبّني و... ألا يجوز العيش معي؟ أم أنا إنسان لا يجب أن أهنأ بعيش؟ ويجب أن أنسى وأتحمّل! لماذا؟ لماذا يجب أن أبقى وحيداً طيلة عمري؟

– هذه هي الحياة يا أمين... يجب أن تتعايش على هواها.

– هذه هي الحياة...!!! كلا ليست الحياة هكذا نحن من نجعلها سوداء فنضع اللّوم عليها، الحياة مستمرة لكن يجب علينا أن نعرف كيف نمشي طريقها السّليم، الطّريق المضيء، لا أعرف لماذا نختار طريق الظّلام، ونُتعب أنفسنا؟

– ربّما نحن يا أمين ما زلنا لا نفهم الحياة، على كلِّ حال أنا آسفة...لا مجال لعودتنا...أنا مجروحة وجرحي مازال يترف.. لن يلتئم بسهولة...

– اعتذرتُ لكِ وأكرّر اعتذاري سامحيني. وهذه المرّة أنا أقول لكِ لنبدأ معاً من جديد أعدكِ، لقد تعلّمت درساً قاسياً كان ثمنه طفلنا الذي مات، وأنا إنسان جديد الآن، أمين وأيام الجامعةلم يعد موجوداً.

– أنا التي تعلّمت درساً بعد وفاة طفلي... ربّما رسالة الله لي بموت الطّفل هو أن أبتعد عنك هذا أفضل، فلم يعد هناك شيء يربطنا، قراري الأخير لا رجعة عنه...وفّقك الله بحياتك القادمة.

وقف أمين وهو ينظر إليها بحزن وفي داخله غضب، وقال لها: "هكذا إذن؟! لا تتخيّـــلي أن أرجوك أكثر، ويبدو أنّ هذا آخر كلام لديكِ".

هزّت رأسها بمعنى نعم، ولم تتكلّم وطأطأت رأسها للأسفل، لا تستطيع النّـــظر في وجهه.

فقال لها: "أنا آسف أيضاً لأني سببت لكِ الألم" فانسحب من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس، يريد أن يغادر لكن رامي أوقفه وقال له: "ماذا جرى؟" لكنَّ أمين لم يُـــجبْ، وتوجّه على الفور لباب المنزل، فمسكه رامي من ذراعه وقال له: "أما زالت على موقفها؟" أجاب أمين: "نعم ".

فقال له رامي: "إلى أين؟ أمي تحضّر العشاء"

– شكراً لست جائعاً...وخرج مسرعاً إلى سيّارته.

أغلقت منال باب غرفتها لكي لا يناقشها أحد بالذي دار بينهما، ولا تريد أن يؤثّر عليها أحد بالقرار النهائيّ الذي اتّــخذته.

أما أمين فور عودته لمترله بدّل ملابسه وذهب للفراش، ولم يتناول العشاء لقد نام وهو جائع، وظلَّ البيض على الغاز حتى الصّباح، والخبز أصبح كالخشب على طاولة المطبخ....

الفصل الثالث والأربعون

عاد السكون إلى حياة أمين، وجوّ هادئ ساد في نفسيّته، أصبح عمله هو كلُّ شيء في حياته الآن وقرّر عدم الارتباط بأيّ فتاة حالياً ربّما لفترة طويلة، لا يعرف إلى متى؟ ممكن بعد عمر الأربعين، لقد ارتاح من الحبِّ وعذاب الحبِّ وأوجاع الرّأس والقلب. وها هو الآن قد مضى عليه ثلاثة أشهر منفصلاً تماماً عن منال، ولا يعرف عن أخبارها وأحوالها شيئاً؛ لأنها تركتْ العمل كسكرتيرة بشركة الهندسة بعد الطّلاق على الفور... ثلاثة أشهر انقضوا وهو يشعر براحة تامّة وهدوء في حياته وبعمل جادٍّ وتفوّق.

لكن... أيُعقل أن يبقى أمين بلا حبٍّ يُدمّر حياته كما قرّر بعد انفصاله عن منال؟

طبعاً لا يستطيع! فالحبُّ في دمه، لقد تغيّر كلُّ شيء وتشقلب كيان أفكاره عندما طُرق باب مترله في أحد الأيام وفتح الباب، فكانت فتاة جميلة كاد أن يُغمى عليه عندما رآها! وبقي واقفاً أمامها دون أن يتكلّم وهو مذهول.

فقالت له وهي مبتسمة: "مرحباً، هل أزعجتك؟"

– لا طبعاً لكن لم أتوقّع أبداً...! لقد اعتقدتُ أنَّ خالتي علياء عند الباب...تفضّلي.

دخلت وبقيت واقفة تشعر بالإحراج والخجل.

أحضر أمين قميصه ذا اللّون الأخضر ولبسه؛ لأنه كان في قميصه الدّاخلي الأبيض، ثمَّ قال لها: "متى جئتِ من إسبانيا؟ أنا حقّاً مندهش! "

– البارحة وصلت... لكن هل جئت في وقت غير مناسب؟

– لا أبداً يا ريم، على العكس أنتِ تأتين في أيِّ وقت تشائين، ادخلي واجلسي ما بكِ واقفة عند الباب، أهلاً بكِ.

– بصراحة أشعر بالإحراج، لم أحبّذ أن آتي إلى مترلك وأزعج منال، لأني أعرف أنها تتحسّس من وجودي، لكن طريقي من هنا فلم أستطع إلاّ أن أصعد وأسلِّم عليكما، وأذهب على الفور لا أريد الجلوس.

ابتسم أمين وأدرك أنها لا تعلم بانفصاله عن منال، فقال لها: "لا تقلقي، منال ليست هنا، إنها في مترل أهلها".

– صحيح... نسيت أن أبارك لكما! مبارك يا أمين.

اندهش أمين وقال: "مبارك...! على ماذا؟"

– على الطّفل لا بدَّ أنَّ منال قد وضعت الطّفل منذ فترة قصيرة، هذا مؤكّد لقد انقضت الثّـــلاثة أشهر المتبقيّـــة للحمل، أليس كذلك؟

– للأسف مات الطّفل، بعد الشهر السّادس من الحمل.

شهقت ريم متفاجئة: "هـــــا !! آسفة! يا إلهي... كيف مات؟ وما السبب؟

– انسي يا ريم فهي قصّة طويلة، لا داعي لخوض التّـــفاصيل،لم يُـــكتب له عمراً. اتركي أخباري

وطمئنيني عن أخباركِ أنتِ.

نظرت بحزن وقالت: "أخباري لا تسرُّ كثيراً لكن هذا اختياري، أنا أشعر براحة نفسيّة أكثر الآن"

– ما قصدكِ بهذا؟

– لقد انفصلت عن الدّكتور عمر منذ أسبوع، وأحضرت كلَّ أغراضي، وعُدتُ على الفور.

تفاجأ أمين من الخبر لم يتوقّعه أبداً. فقال لها:"لماذا انفصلتما؟ ألم تقولي أنه إنسان رائع ومتفهّم؟"

– نعم، لكن أنا لست متفهّمة، وغير رائعة بالنّسبة له.

– أنتِ غير متفهّمة؟ وغير رائعة...لا أفهم!!

– هل أقول لك لماذا وأُفهمك يا أخي؟

ضحك أمين وقال: "يا أخي!! هذه جديدة منكِ... أتآخينا وأنا لا أعلم؟! كلُّ الفتيات أخواتي إلا أنتِ يا ريم. لكن أريد أن أعرف السّبب... نعم أخبريني!

أنزلت نظرها للأرض ولم تستطع النّظر بأمين، وقالت بصوتٍ منخفض: "أنا لم أتزوّج فعليّـــاً فقط عقد قران...فما زلت...آنسة "واحمرَّ وجهها حياءً.

بقي أمين صامتاً يحاول استيعاب الكلام الذي سمعه. وبعد لحظة صمت قال بكلِّ هدوء وحذر: "هل لي أن أعرف السبب؟!"

بقيت ريم تنظر للأرض وقالت بكلِّ خجل وهي تتلعثم، وبدأ التوتّر يظهر عليها:"لم أستطع... أن...أجـــ... أجعل... أيّ شخص آخر... يلـــ...مسني أو يقترب مني، كنتَ أنتَ فتى أحلامي وما زلت... كان كلّما اقترب مني عمر شعرت بأني سأموت، وأني أختنق بين يديه، فأهرب منه وأذهب إلى غرفتي خائفة، وأُقفل عليَّ الباب، حتّى أصبحنا في المنزل كالإخوان، ولم أشأ أن أظلمه معي أكثر وطلبت منه الطّلاق، مع أنه حاول أن يصبر عليّ لكن بلا جدوى. أنا ما زلتُ أحبّك، ولا أريد أن أتزوّج أبداً وأظلم أحداً معي.

– حبيبتي ريم... أيُعقل هذا الكلام! وكلُّ هذا الإخلاص...؟

– ألم نتّفق أن أحتفظ بقلبكَ معي؟ احتفظتُ به وبقي يُؤثّر حبَّ قلبك عليّ.

ابتسم وقال لها: "ما رأيكِ لو أعرّفكِ على شاب يطلب الزّواج، وأزوّجكِ له؟"

– أمين...أنت حقاً مجنون... أقول لك أنني لم أتزوّج بعُمر وانفصلت عنه، لتجدَ لي زوجاً آخر!! لا، مستحيل.. لا أريد أن أتزوّج نهائياً.

– لماذا؟!

فقالت ريم بغضب: "هكذا لأني معقّدة من أوّل حبٍّ".

– لا يا ريم، صدّقيني هذا الشّاب سيُعجبكِ.

– اسكت أمين من فضلك لا تُـــثير أعصابي، مجنون! أقول لك أني أحتفظ بحبّك على مدى سنة كاملة وأنا على ذمّة رجلٍ آخر، والآن بكلِّ استهتار بأحاسيسي تُريد أن تزوّجني؟!

– لو أنكِ تعلمين من هو الشّاب، لما قلتِ هذا الكلام.

استدارت ريم للباب تريد أن تغادر وأجابته بحساسيّة: "لا أريد أن أعرف، وما كان عليَّ أن آتي إليك، أنا المجنونة...وأنا...

– فقاطعها:"حتى ولو كان الشّاب هو أمين، ورغماً عن الجميع؟

– أنت؟...أنت يا أمين! يا ليتك أنت ولكن...

– ولكن ماذا ؟ لقد انفصلت عن منال منذ ثلاثة أشهر، منذ أن توفّي الطّفل.

بدأت ريم تبكي لا تُصدِّق كلام أمين، شعور مختلف أصبح ينتابها، هل هي تبكي فرحاً أم تبكي مصدومة من الخبر؟ وكأنها لا تُصدِّق هذه الصّدفة التي من الممكن أن تُعيدهما إلى بعضهما، بعد فراق كان رغماً عنهما.

قال لها أمين: "اهدئي، ماذا حصل لكِ، لـــمَ كلُّ هذا التوتّر؟"

– لا أعرف، أشعر أنَّ قلبي سيقف وأشعر ببرد شديد، وخوف من هذا الزّمن الذي لفَّ بنا كعقارب السّاعة، وأعادنا حيثما كنا سنبدأ.

– أهذا أزعجكِ لأنَّ عقرب الزَّمن دار بكِ وأعادكِ إليّ؟

عقرب الزَّمن لدغني وأعادني للبداية...مع ذلك أنا فرحة وبشكل لا يوصف، حقّاً مفاجأة عمري، مفاجأة غير متوقعّة وفي مثل هذا الوقت. لكن لا أعرف لــمَ دار الزّمن بنا هكذا وجعل قلوبنا تنبض بعيدة عن بعضها كلَّ هذا البُعد، وكأنَّ قلبي لم يكن ينبض في صدري.

– لا عليكِ يا حبيبتي... ما زال الزّمن ينتظرنا، ولن أركض وراءه حتّى آخذكِ معي، لنمشي سويّـــاً مشواره.

– أحقّاً يا أمين ستبقى يدي بيدك على طول المشوار؟

– أنا الذي محتاج إلى يدكِ لتبقى بيدي وتدفئ قلبي الذي بقي بارداً منذ أن ابتعدتِ عنّي.

وبقي الاثنان يجلسان بصمتٍ وعيونهما تُعاتب بعضها عتاب الحنين والشوق. إلى أن ضحك أمين ضحكةً لا توحي بالفرح.

– ما بك تضحك؟

– أضحك من القهر! أراجع في عقلي آلام الماضي وعذاب القلب الذي تحمّلناه، وكلُّ لحظة مرّت، أشعر أني فعلاً سأبكي...أما عينا ريم فقد غرقت بالدّموع.

ودّعته ريم وذهبت مسرعةً إلى بيتها؛ لتنقل لأمها هذه المفاجأة الغريبة. وصلت إلى البيت فوجدت والدتها تتكلّم بالهاتف، فجلست بجانبها تنتظرها لكن هند أطالت المكالمة حوالي ربع ساعة وهي تشرح عن شيء يخصُّ عملها، لقد شعرت ريم بالرّبع ساعة وكأنها سنة من شدّة تلهّفها للموضوع. فأنهت والدتها الحديث وقالت لها:"ما بكِ يا ريم منذ أن جلستِ بجانبي وأنتِ تُريدينني أن أنهي المكالمة، وتشيرين لي إشارات بيدكِ غير مفهومة".

– أمي... أقول لكِ بالإشارة أن تُنهي كلامكِ بسرعة، لديّ موضوع ضروريّ يجب أن تعلميه.

– نعم، ها أنا أسمعكِ ما هو الضّروريّ؟

– لقد أطعتُ أوامركِ ولم أغضبكِ، وتزوّجت الرّجل الذي اخترتيه لي أنتِ وأبي وكان زواجاً فاشلاً... وقد رأيتِ ما حصل.

- لو أنكِ وضعتِ عقلكِ برأسكِ وكبّرتيه قليلاً، لكان زواجاً ناجحاً، لكن ماذا أقول عنكِ وعن تفكيركِ؟
- المهم يا أمي موضوعنا ليس هنا. أريد أن أخبركِ بموضوع آخر...
- ما هو؟
- من دون مقدّمات. ومن دون رفض أرجوكِ... سأتزوّج أمين!

أخذت والدتها تُـــحدّق بها، وقالت لها: "أعدنا لنفس القصّة؟ من أين يظهر لنا هذا المُعَقّد؟! ألم ينتهي موضوعه بعد؟"

- لا، لن أتنازل هذه المرّة، أريده...يعني أريده.
- أليس متزوّجاً من منال؟
- لقد انفصلا منذ ثلاثة أشهر.
- ألم تعرفي السّبب؟
- لا يهم، المهم أنه غير مرتبط... وباقي التّـــفاصيل لا تهمّني، أمي أرجوكِ لا تقفي في طريق سعادتي وكوني راضية.
- سأفكّر، لكن... هل أبوكِ سيوافق؟
- أبي ليس بالمشكلة سيوافق على الفور، أرجوكِ لا تضعي حججاً، وقولي موافقة.
- سنتناقش أنا وأبوك بالموضوع، ونعطيكِ رأينا.
- لا مشكلة، على كلِّ حال أنا سأتزوّجه تناقشا على راحتكما.

جلست ريم مساءً مع والدها ووالدتها، لتخبرهما أنها ستتزوّج أمين وإلا لن تتزوّج طيلة عمرها، أو ستذهب إلى بيته رغماً عنهما.

وبعد نقاشات طويلة وافق والداها، وقالت لها أمها:"ستتزوّجينه لا مانع، لكن هناك شروط يجب أن نتباحث بها عندما يأتي ليخطبكِ رسميّاً من والدكِ".

- لا مانع يا أمي، أمين طيّب وسيوافق على شروطكِ، متى أقول له أن يأتي؟

قال أبوها: "لا مشكلة في أيِّ وقت يشاء".

- يا إلهي... سأخبره أن يأتي غداً مساءً بعد عمله.

نظرت لها والدتها وقالت: "أراكِ مستعجلة جدّاً يا ريم!"

- جدّاً يا أمي، أنا متلهّفة أيضاً فات ما فات والآن وقت الجدِّ ... انتهينا.
- كوني عاقلة، لأنَّ التروّي أفضل بكلِّ الأحوال.
- آه ... يا أمي...لم يبقَ وقت للعقلانية!

ذهبت ريم على الفور وتكلّمت على الهاتف مع أمين، لتخبره وهي بغاية السعادة، والفرحة لا توصف بين عينيها.

- كيف حالك يا أمين؟
- أهلاً يا حبيبتي، اشتقتُ لكِ.
- ماذا تفعل؟

- أكوي ملابسي ليوم غد.
- يا عزيزي إن شاء الله سأريحك بالمستقبل، وأحضّر لك ملابسك أولاً بأول.
- لا يهم، هذه الأمور اعتدتُ عليها وأعتبرها من واجباتي.
- يا حبيبي غداً مساء تفضّل لخِطبتي، فأبي وأمي موافقان.
- حقّـــاً! وافقا بهذه السّرعة؟ يا ليتهما وافقا من البداية بدل اللّفِّ والدّوران
- أميني، نحن أولاد اليوم...
- لكن بصراحة غير متشجّع من مواجهة والدتكِ، لا أحب ذلك، ما رأيكِ لو أقابل والدكِ وحده؟
- لا يا أمين الماضي انتهى وكلُّ شيء أصبح مختلفاً هذه الأيام، أنا نفّذتُ أوامرهم وقد شاهدا النتيجة بعينهما...لذلك لا تخف.
- أنتِ متأكّدة من والدتكِ؟
- نعم يا حبيبي لا تقلق.
- طيّب غداً بعد السّاعة الثّـــامنة والنصف، أنا وخالتي سنكون عندكم، هل هذا جيّد؟
- بل ممتاز، لا مانع أبداً أنا أنتظرك من الآن.
- انتبهي إلى نفسكِ حبيبتي.
- وأنت كذلك، تصبح على خير يا أميني.

***

في الصّباح أخبر أمين خالته القصّة كاملة فوافقت أن تأتي معه لخطبة ريم. لكنها غير مرتاحة للزّيارة، وتشعر أنَّ والدة ريم لن تكون متجاوبة معهما بسهولة.ف طمأنها أمين وأخبرها أنّ الأمور اختلفت هذه الأيام.

تمام السّاعة الثّـــامنة والنصف كان أمين وخالته يطرقان باب مترل عائلة ريم. فتح لهما والدها وسلّم عليهما وهو مبتسم، وأدخلهما إلى غرفة الضّيوف. وبعد لحظة دخلت للغرفة ريم ووالدها وألقت الوالدة سلاماً عاماً وجلستا، جلست ريم بجانب والدها على يمين أمين، أما هند جلست على كرسيٍّ مقابل أمين تماماً.

فبدأ والد ريم بالحديث وقال لأمين: "نحن نعلم يا أمين كم أنت تحبُّ ريم وكذلك ابنتنا تحبك، ولولم تكن تحبّـــك لدرجة كبيرة لما عادت من بلد بعيد، بعدما حاولنا أن ننسيها حبّك وزوّجناها هناك".

قال أمين "يا عمّي تأكّد أني أبادلها نفس الشعور والحبِّ الطيّب، وسأحفظها في عَيْنَيِّ للأبد".

فقالت هند: "نعم نعرف يا أمين أنك ستحافظ عليها، لكن الذي يـــُحب يجب أن يُضحّي من أجل حبيبته أليس كذلك يا أمين...؟ أم لكِ رأي آخر يا علياء؟" بقيت علياء تسمع ولم تـــُجب، وتنظر باستغراب.

نظر أمين لوالدة ريم نظرة لم يفهم منها معنى السؤال المقصود ولم يفهم قصدها، فأجابها: "أنا مستعدٌّ أن أضحّي بأيِّ شيء من أجل حبيبتي".

أما ريم نظرت لوالدها باستنكار! لا تعرف ماذا تنوي أن تطلب منه.

فأكملت الوالدة كلامها: "بما أنك مستعدٌّ للتّضحية من أجل ريم، ومن أجل أن تضمن لها حياة هادئة وهانئة معك، لَدَينا شرط واحد بسيط تُقدِّمه لها، لا نريد ذهباً ولا مالاً ولا شيء كهذا، نحن ابنتنا ابنة عزٍّ ودلال ولا تحتاج لأموالك كلّها.

– تفضّلي وقولي أنا مستعدٌّ أن أقدِّم لها أيَّ شيء تطلبه حتّى ولو طلبت قلبي مهراً سأقدّمه لها.

قالت هند: "وهاذا هو المطلوب، أنت ذكيّ اختصرت عليّ كلاماً كثيراً".

فقالت ريم: "أمي ما الذي تريدينه بالضّبط؟ أنا لا أريد شيئاً من أمين سوى أمين نفسه".

أجابت والدهما: "أعرف، وأنا لا أريد أن أطلب منه شيئاً سوى قلبه، ألا تريدين قلب أمين؟ وهو بنفسه قال أنه سيُقدِّم لكِ قلبه مهراً".

فنظرت الخالة علياء مستهجنة كلام هند، لكن لم تتكلّم ولا كلمة واحدة، حتّى أمين لم يفهم قصدها.

أكملت هند كلامها وقالت: "نعم لا تستغربوا، ليبقى أمين بجانب ريم مدى العمر وهذا الذي يريدانه، يجب أن يخضع لعمليّـــة قلب، وينتزع العلّة التي تؤثّر على قلبه وتُتْعِبه، لا سمح الله يُصاب بنوبة قلبيّـــة تودي بحياته فتفقد ريم زوجها، هذا وارد وأنا أتكلّم ضمن الواقع، وأتمنّى أن لا تنزعجوا من كلامي وصراحتي، فهذا لمصلحة الجميع".

تغيّر لون أمين ولم يعجبه كلام هند أبداً، وكأنّها صفعته هذه المرّة أيضاً على وجهه، وبقي صامتاً دون أيِّ تعليق.

ريم قفزت وقالت: "لا يا أمي لا داعي للعمليّـــة أمين جيّد، هكذا أنا أحبّه بقلبه هذا، ومن دون أيِّ تغيير".

فأجابتها والدهما: "لا تفهمين أنتِ يا ريم، و لا تُدركين مصلحتكِ ".

أما خالة أمين قالت: "لا مستحيل، أمين لن يُجري العملية فهي خطرة وغير مضمونة، هكذا قال الطّبيب مرّة. ولو أنّها ستفيده لأجراها من قبل، لكن هو يتناول أدويته باستمرار ولا يشعر بأيِّ سوء. كما أنَّ الأعمار بيد الله يا هند، لا تحكمي على الموضوع من وجهة نظركِ أنتِ".

فقالت هند:"على كلِّ حال هذا شرطنا الوحيد إذا أردتم ابنتنا، وإلا فنحن آسفون".

فأخذت ريم تبكي وتصرخ: "لا، أنا التي سأقرّر..أريد أمين،لا يهمّني قلبه هكذا يُعجبني".

وقفت الخالة علياء وقالت لأمين: "هيّا...لا نريد شيئاً منهم دعنا نذهب، يريدون قلبك...يا سلام! طلب غريب".

بقي أمين جالساً غارقاً بالأفكار التي تراوده...

أخذ والد ريم يُهدِّئ الوضع ويقول: "يا جماعة لن نختلف، اجلسي يا سيّدة علياء سنتفاهم، لا تسير الأمور هكذا".

وبقيت ريم تبكي ووقفت بجانب الخالة علياء، وشدّتْ على يدها وقالت لها: "أرجوكِ يا خالتي اهدئي... دعينا نُـــكمل الموضوع بهدوء، أرجوكِ اجلسي" ثمَّ مسكتْ يد أمين وقالت له والدّموع تغرغر عيونها: "أمين من فضلك لا تغادرا دعونا نتفاهم!"

نظر أمين بعيونها والحيرة والخوف يتلألأن بمقلتيها...يشعر أنَّ لسانه مربوط.

ولِفَضّ الخلاف والفوضى التي دارت في غرفة الضيوف وإسكات الجميع، قال أمين بصوتٍ واضح: "أنا موافق سأجري العمليّـــة".

نظر له الجميع، فقالت له خالته: "أحقّاً تريد إجراءها! لا... ليس كلاماً منطقيّـــاً"

- نعم، قلبي مهر لريم ولن أغيّر كلامي، ولكن أنا لديّ شرط أيضاً.
- تفضّل يا بنيّ (قال أبو ريم).
- سأعقد قراني على ريم قبل العمليّـــة، ونؤجّل الزّواج بعد أن تتحسّن صحّتي من العمليّـــة، وأعود طبيعيّـــاً".

فأجاب أبوها: "حسناً يا بنيّ نحن موافقون"...لكن أم ريم لم يُعجبها الكلام أبداً، وبقيت صامتة لكي لا تكسر كلام زوجها أمام الضّيوف.

ريم أشرق وجهها بابتسامة ملوّنة بلون قوس قزح لم يذكرها وجهها منذ مدّة.

ثمَّ قال والد ريم: "يا أمين سأترك لك حريّة اليوم الذي تختاره لعقد القران، ولكن أخبرنا قبل ذلك بيومين ليكون لدينا علم".

شكر أمين والد ريم وطلب منهم الاستئذان والمغادرة، خرج هو وخالته وهو يشعر بتوتّر شديد من الزّيارة وعدم الرّاحة. لم يتكلّم طيلة الطّريق بل كان يفكّر بالكلام الذي قيل بالزّيارة، مع أنَّ خالته طيلة الوقت بالسيّارة كانت تتكلّم وتحدّثه لكن دون أن يُـــجيب.

أما هند فقالت لزوجها بعدما خرج أمين من عندهم: "ما كان عليك أن توافق بعقد القران الآن. كان يجب بعد إتمام العمليّـــة، لنضمن أنه بصحّة جيّدة وقادر على الزّواج".

- يا هند لا تُضخّمي الأمور، ألم تَـــرَي كيف أصبحت ابنتكِ تبكي تريد الشّاب، لا تضغطي عليهما أكثر لقد اصفرَّ وجه أمين من الطّلب الذي طلبتيه، أحببتُ أن أجبر بخاطره، بعدما تلّون خوفاً".
- لكن افرض أنه عقد القران ولم يُـــجرِ العملية، وبعد فترة أخذ ريم واختفى!
- لا يهم، ليأخذها إلى أيّ مكان شاء، في البداية كانت زوجته ومنعناه عنها، وزوّجناها برجل رغماً عنها، عادت بعد سنة كما هي محتفظة بحبِّ أمين، عذراء لا تريد الزّواج من أحد. يا هند لا نريد أن نُـــعَقّد الفتاة دعيها تختار وحدها، كما أنَّ أمين شاب لا يُعاب، وهو قال لكِ سأعقد قراني وبعد العمليّـــة سنتزوّج، يبدو عليه صادقاً بكلامه...لا تقلقي...أريد أن أرى الفرحة على وجه ابنتي.
- حسناً، سأرى ماذا ستستفيد من ابن شاكر.

***

وصل أمين للمنزل، فقالت له خالته: "اسمع يا أمين، أريد أن أكلّمك..."

- تفضّلي خالتي ادخلي.

جلس أمين على الكنبة ويبدو عليه القلق، فجلست بجانبه خالته وقالت له: "يا حبيبي... العملية خطيرة ونسبة نجاحها لا تصل إلى ٩٠%، ربّما تفشل لا سمح الله، لا تخاطر يا أمين، أتذكر عندما سألنا طبيبك مرّة قال لا يوجد لها داعٍ وأنَّ الدّواء كافٍ لك".

فقال أمين بنبرة حزن: "خالتي أعلم أنها خطيرة لكن لا أريد أن أخسر ريم مرّة أخرى، ولا أريد أن أقع بالمشاكل كالسّابق، أنا بإمكاني أن آخذها وأعقد قراني عليها الآن؛ لأنها موافقة، لكن سأقع بمشاكل كما في الماضي، ونُتعبْ قلبينا ونوجع رأسنا بكلام نحن بغنى عنه. سأجري العمليّــة وأنتهي من المشاكل بإذن الله وأريح قلبي ورأسي معاً، سأذهب غداً صباحاً للطّبيب لأسأله عن العمليّــة وما هي الإجراءات اللازمة والفحوصات المطلوبة، وبعدها سآخذ إجازة من عملي وأبدأ بالفحوصات".

– لست مسرورة أبداً لما ستفعله، وسأخبر والدتك بما يجري.

– خالتي أرجوكِ لا تزرعي القلق في قلبها، دعي الأمور تتضّح وبعدها نخبرها بما جرى.

في الصّباح اتّصلت ريم هاتفياً بأمين تأسف منه من هذا الطّلب الرّهيب، فقال لها أمين:"مستعدٌّ أن أضحّي بحياتي كاملة من أجل عينيكِ يا ريملا بقلبي فقط، المُهم أن تكوني لي بالنهاية، وسأقاتل إذا اقتضى الأمر ذلك، لن أتخيّــل أنني سأفقدكِ بعد اليوم، هذه معركتي"

قضى أمين فترة الصّباح في مكتبه بالعمل، لكن بعد الظّهيرة أخذ إذناً للمغادرة من عمله، وتوجّه إلى عيادة طبيب القلب المختصّ والمشرف على حالته المرضيّة منذ البداية. فأخبره بأنه يريد إجراء العمليّــة الجراحيّة لتغيير الشريان الضيّق في قلبه، وتبديله بشريانٍ طبيعيٍّ من دون أيِّ علّة، فقال له الطّبيب: "سأجري لك الفحوصات الأوليّــة اللازمة، لأرى إن كنتَ فعلاً بحاجة إلى العمليّــة الجراحيّة أم لا تحتاج".

وبالفعل كشف الطّبيب على أمين، وقاس نبضه وسرعة دقّات قلبه وكميّة ضخِّ الدّم في القلب، وقاس الضّغط إضافة إلى قياس التنفّس، فوجد أنه أفضل حالاً مما سبق؛ لأنه يُداوم على الأدوية التي تعمل على توسيع الشريان ويحافظ على طعامه. فقال له الطّبيب: "يا أمين لا أجد داعٍ لهذه العمليّــة الآن، أنت أفضل حالاً إلا إذا كنت دائماً تشعر بضيق في صدرك وألم بين أضلعك".

فأجابه أمين: "أنت واثق أيها الطّبيب بأني أفضل حالاً ولا أحتاج للعملية! هل الدّواء كافٍ؟"

– نعم هذا رأيي، لا تستعجل بالعمليّــة وخذ وقتك بالتّفكير، مادام وضعك أقرب للطبيعيّ ولا يوجد ألم.

– يا دكتور من ناحية الألم فالأوجاع تأتي من فترة إلى أخرى، حسب ضغوطات الحياة والعمل والأمور المحيطة. وأنا آخذ دوائي فيخفّ الألم بالإضافة إلى المسكّنات القويّة.

– على كلِّ حال يا أمين فكّر جيّداً واسأل ثمّ قرّر، أنا لا أريد منك أن تعمل أيَّ شيء بغير اقتناع أو بغير إرادتك؛ لأنَّ العامل النفسيّ يؤثّر جدّاً على نجاح العمليّــة أو فشلها، وتأكّد أنَّ كلامي حقيقي مئة بالمئة، كن مقتنعاً عند أخذ القرار وبنفسيّــة مرتاحة.

– أشكرك أيّها الطّبيب، سأفكّر بالأمر.

ذهب أمين على الفور إلى بيت ريم مسروراً لإخبارها وإخبار والدتها بقول الطّبيب. فتحت له هند الباب وقالت له: "تفضّل يا أمين" بكلِّ رحابة، وأدخلته إلى غرفة الضّيوف، ونادت ريم لتستقبله كانت ريم فرحة لأنَّ والدتها تعاملتْ مع أمين بلطفٍ واستقبلته، وكأنها ليست

هي التي كانت تكرهه.

فقال أمين لريم: "عدتُ الآن من عند طبيب القلب وأجرى لي عدّة فحوصات، قال أنه لا داعي للعمليّـــة الجراحيّة حالياً، وأن وضعي الصّحيّ أفضل من قبل بسبب مداومتي على الدّواء وبفضل الله أولاً وأخيرا".

– هذا ممتاز، كنت خائفة من العمليّة وغير مرتاحة للموضوع بأكمله.

فجاءت أمُّ ريم وقالت لهما: "عن ماذا تتحدّثان؟"

فقالت ريم: "جاء أمين من عند طبيب القلب وأخبره أنه لا داعي للعمليّـــة في مثل هذا الوقت، فقلبه بتحسّنٍ مستمر".

فقالت هند:"وكيف يحكم هذا الطّبيب وحده، ويُشخِّص الحالة؟"

أجابها أمين: "لقد أجريت عدّة فحوصات وأظهرت النّــتائج أنّ وضعي الصّحيّ أفضل، والطّبيب الذي أتعامل معه معروف وجدير".

فوجّهت هند كلامها لأمين وريم وقالت: "على كلِّ حال يجب أن تأخذ رأيَ أكثر من طبيب وتسأل وتستفسر، وبعدها تقرّر، لن نستفيد من رأيٍ طبّي واحد. ما رأيكِ يا ريم؟"

– لا أعرف، لكن من وجهة نظري أن لا يُشتّتْ نفسه هنا وهناك وبأكثر من طبيب، يجب أن يعتمد طبيباً واحداً.

فقالت هند: "غداً أنا سآخذك إلى طبيب معروف جدّاً، هو جرّاح قلب ومختصٌّ بالشّرايين والأوردة، ونرى رأيه بالموضوع يا أمين، لكن أنت أحضر جميع التّــقارير الطبيّة القديمة لنقارنها بالفحوصات التي ستبدأ بها غداً في المستشفى الذي سنذهب إليه".

فقال أمين: "لقد أجريت فحوصات كاملة قبل قليل".

– لا يهم...غداً سنُجري لك غيرهم ونرى الفرق.

– يا سيّدتي إجراء الفحوصات متعب جدّاً ويأخذ من وقتنا الكثير، سأحضر الفحوصات التي أجريتها اليوم ونعرضها على الطّبيب الذي تعرفينه، لن تتغيّر بهذه السّرعة، وهذا لنختصر وقتاً وجهداً.

– حسناً، أحضرهم معك غداً وفي حال طلب الطّبيب فحوصات أخرى، فستجريها!

قالت ريم بحزن: "أنا أشعر بالقلق، أرجوكِ يا أمي ليس هناك داعٍ للعملية، هكذا قال طبيبه، لماذا نؤخّر زواجنا؟"

– ريم من فضلكِ كفى كلاماً بلا فائدة.

***

الفصل الرابع والأربعون

صاحب القلب المتعطِّش للحبِّ سيخضع للعملية الجراحيّة لتبديل شريان قلبه الضيّق بشريان آخر بديل، سيتمُّ أخذه من ساقه، العملية خطيرة بالإضافة إلى أنها باهظة الثّمن، الطّبيب الجرّاح الذي ذهب إليه هو وهند أجرى له فحوصات كثيرة جداً، وأقرَّ بعدها العملية، حيث أقنع أمين أنَّ من الأفضل إجراء مثل هذه العملية في عمره هذا بدل أن يحتاج لإجرائها بعد فترة في عمر كبير؛ عاجلاً أم آجلاً سيضّطر لخوض هذه العمليّـــة، ولأنه بعد فترة سيصبح الدّواء غير كافٍ وحده مع تقدِّم السّن، وفي عمر الشّباب يكون الجسم أقوى ويتحمّل ويتجاوب مع العمليّـــة أسرع.

فتمَّ حجز غرفة العمليّات له بعد أسبوع، يصادف يوم الخميس الـــمُقبل.

توجّه أمين فوراً للشركة وأخذ يكتب طلب إجازة مدّتها شهران، حسبما أقرَّ الطّبيب في التقرير وتشخيص الحالة، ومدّة النّقاهة بعد العمليّة.

جلس هاني أمام طاولة مكتب أمين وأخذ ينصحه لكي لا يتسرّع، لكن أمين مستعجل ولا يريد أن يسمع من أحد شيئاً، حتّى أُثيرت أعصاب هاني من لامبالاة أمين بروحه، فغضب منه وأخذ يشدُّ ورقة طلب الإجازة من يده، لكي لا يذهب ويُقدِّمها للمدير العام، وقال له: "لن تخضع للعمليّة يا أمين، أنت هكذا بصحّة جيّدة"

فقال أمين:"لا دخل لك أنت يا هاني يجب أن أجريها الآن بدلاً من أن أحتاج لإجرائها في سنٍّ متقدّمة، كفى اتركني، دعني أقدِّم طلب الإجازة للمدير، هيّا ابتعد عني".

ثمَّ ترك هاني وذهب للمدير فقدّم له هذا الطلب. المدير العام اندهش من طول مدّة هذه الإجازة، وقال لأمين:"كلُّ هذه المدّة إجازة مرضيّـــة! لماذا ما بك؟"

فقدّم له أمين صورة من التّقرير الذي يُبيّنأن على أمين إجراء عمليّة القلب هذه، فقال له المدير بالبداية: "سلامتك يا أمين ومعافى إن شاء الله، لكن يا عزيزي مدّة شهرين إجازة هذا شيء مستحيل ستتعطّل معظم المشاريع وتتأخّر، ولدينا عمل كثير خلال هذه الأشهر، وأنت تعلم هذا لإنك بنفسك وقّعت واستلمت مشاريع الأشهر المقبلة. فماذا عساي أن أفعل دونك؟ لا أستطيع أن أكثّف العمل على باقي المهندسين، فالشّغل بالأصل مضغوط وكثير، فما بالك لو اختفى أحد المهندسين المهمّين من الشّركة ولمدة شهرين؟"

فقال له أمين: "وما عساي أن أفعل وأنا سأجري العمليّة بعد أسبوع؟"

أجاب المدير بآسف:"سأضطر يا أمين إلى تعيين مهندس آخر مكانك، وأنت للأسف ستفقد عملك وعليك بتقديم الاستقالة".

– لا مستحيل يا سيّدي، أبهذه البساطة تستغنون عني؟ ألا يصحُّ أن تحضر مهندساً بديلاً مؤقّتاً لاستلام المشاريع؟

- لا يا أمين، مهندس بديل لا يصح ليس بسهولة السكرتيرة، أي سكرتيرة تستطيع أن تُسَيّر عملها، لكن المشاريع الهندسيّة تحتاج لمهندس قدير وبارع لاستلامها، ولا أستطيع أن أجد خلال الأسبوع هذا مهندساً ماهراً يستلم مكانك.
- لا عليك يا سيّدي سأحضر لك مهندسة ماهرة تعمل مكاني، وشُغلها لن يختلف عن شغلي؛ لأنها كانت زميلتي في الجامعة وتخرّجنا بنفس السّنة، هذا بالإضافة إلى أنها زوجة هاني، فسيتعاونان بكلِّ راحة بالعمل.
- وهل ستوافق بأن تترك عملها وتستلم مكانك؟
- أنا سأحاول معها، وأخبرك اليوم مساءً إن شاء الله.
- حسناً، حاول جاهداً.

عاد أمين لمكتبه وهو يُفكّر وقَلِقاً جداً، ثمَّ قام ودخل لمكتب هاني، فجلس أمامه وقال له: "أريد مساعدتك يا هاني "نظر هاني له وقال: "لا تتكلّم معي، لا أريد أن أكلّمكَ أنت بالذّات!"

-أرجوك يا هاني، أنت صديقي ويجب أن تقف معي.
- أقف معك بالصّواب لا بالتّهور، أنت هكذا ستُدمّر حياتك بسبب الحبّ، ماذا جرى لك ولعقلك؟ أين هدوءك واتّزانك؟ أنت لم تعد تُفكّر بحكمة ولا بعقلانية، بل تُفكّر بعواطفك فقط من اللّحظة التي عادت بها ريم للبلد وأنت غير طبيعيّ، حتّى عملك أصبحت مُهْمِلاً به، وساعات المغادرة أصبحت كثيرة في وقت الدّوام، اهدأ يا أمين وعُدْ لصوابك، لم أعهدك هكذا!!
- يا هاني أنا حقّاً مشوّش، لكن هذه الفترة فقط وبعدها سيهدأ كلُّ شيء، وتعود الأمور لطبيعتها عندما أتزوّج ريم إن شاء الله.
- أنا أقول لك لا داعي للعملية، وخالتك أخذت تبكي البارحة وهي تُقنعك بأن لا تُجريها، وأنت بلا إحساس.
- أَتَكَلَّمتْ معك؟
- نعم اتّصلت معي هاتفياً منذ الصّباح، وطلبت مني أن أقنعك بأن لا تتسرّع بأخذ الإجازة المرضيّة لإجراء العملية، وهي ليست مهمّة كما أوضح طبيبك.
- هاني أرجوك دعني وشأني أنا أجد أنها مهمّة، وأريد أن أريح قلبي من كثرة المشاكل، أما آن لقلبي أن يرتاح؟
- هل بإجراء العمليّة سيرتاح قلبك؟
- نعم، سأتزوّج ريم ولن أسمع بعدها شيئاً: لو أنك ...ولو فعلت... ولو أجريت العملية هكذا أفضل لي.
- أنت حقّاً اختلفت، أشعر أني لا أكلّم أمين الحذر الذي يُفكّر مئة مرّة قبل البدء بأيِّ شيء، ماذا دهاك؟
- هذا الموضوع انتهى يا هاني، العمليّة الخميس المقبل، وأريدك أن تسأل ديالة إذا كانت تستطيع استلام العمل مكاني خلال هذه الفترة.

- آسف، لن أسألها ولن أساعدك بشيء.
- هكذا إذن، لا مشكلة سأسألها أنا، لا داعي لمساعدتك.

واتّصل أمين من هاتفه الخلويّ على ديالة، فأجابت: " أهلاً يا أمين ... كيف حالك؟

- جيّد الحمد لله.. (كان يتكلّم بملل شديد)
- ما هذه الأخبار السيّئة التي سمعتها عنك منذ الصباح؟
- أخبار ماذا؟
- العمليّة الجراحيّة، وما أدراكَ ما العملية؟

لم يجاوبها أمين وقال لها:"ديالة، أريد منكِ خدمة!"

- ما بك يا أمين؟ أشعر من نبرة صوتك أنك لست على ما يُرام، هل هناك شيء؟
- هل تستطيعين العمل مكاني بالشّركة مدّة شهرين؟
- بصراحة يا أمين لا أستطيع أن أترك عملي هنا، فأنا أمسك أكثر من مشروع، ولا أعرف بالضّبط متى يمكنني أن أنتهي، فالمشاريع في بدايتها ومن الصّعب التخلّف عنها الآن.
- أشكركِ على كلِّ حال... إلى اللّقاء.

وأغلق أمين الهاتف بسرعة واختصار شديد بالكلام.

- ماذا قالت لك ديالة ؟ (سأل هاني)
- لديها أعمال كثيرة. سأكلّم رامي وأسأله.
- تكلّم من مكتبك... اذهب من عندي.
- أرجوك يا هاني لا تكن فظّــاً.

اتّصل أمين أيضاً برامي، لكن التي أجابت على هاتفه الخلوي كانت منال:" ألو ...مرحباً "

- مرحباً، أليس هذا هاتف رامي؟
- نعم، وأنا منال يا أمين ألم تعرف صوتي؟
- منال ...! آه....أهلاً كيف حالكِ؟!
- أنا جيّدة.
- آسف لأني لم أميّز الصّوت، توقّعت أنّ رامي سيُجيب على الهاتف.
- لا عليك، كيف حالك أنت؟
- الحمد لله، لكن أين رامي؟
- رامي! لقد سافر للعمل بقطر ألم يخبركم؟
- سافر؟! يا له من صديق فاشل هكذا يُسافر من دون أن يودّعنا أو يُــخبرنا! ما بال النّــاس هذه الأيام؟ باع الصّداقة بكلِّ سهولة!
- والله اعتقدت أنك تعلم، لقد سافر منذ شهر تقريباً.
- لا،لم يخبر أحداً على ما يبدو، ها هو هاني أمامي ومستغرب من سماعه للخبر.
- لا تقلق، سأوجّه له كلمة عتاب مبعوثة منك عندما يكلّمنا بالهاتف. بماذا كنت تريده؟
- كنت أريده أن يعمل مكاني بالمكتب.

– مكانك! لماذا؟
– لأني سأجري الخميس المقبل عمليّة بالقلب، وأريد أحداً يُغطّي مكاني لمدّة شهرين.
– لا... يا إلهي! ما بك يا أمين؟... سلامتك...هل أنت متعب لهذه الدّرجة؟
– كلا، لكن يجب أن أجري العمليّة لأتفادى مخاطر النّوبات القلبيّة عند تقدّمي بالسّن.
– يا أمين أنت ما زلت شاباً، أتخاف من تقدّم السّن من الآن؟
– الاحتياط واجب يا منال.
– سلامتك ألف سلامة، هل أخدمك بشيء؟
– أشكركِ، لا داعي أن ترهقي نفسكِ معي.
– على كلٍّ حال الخميس المقبل سأراك بالمستشفى قبل وبعد العمليّة، لكي أطمئنَّ عليك إن شاء الله، سلامتك.
– ليسلّمك الله، إلى اللّقاء.

أغلقت منال سمّاعة الهاتف وقالت في نفسها: "لابدَّ أنه تَعِبَ من فراقي، كم أنا قاسية كيف تركته هكذا وحده؟! لا.... قد فعلنا الصّواب هكذا أفضل".

أغلق أمين الهاتف ولم يستفد شيئاً وفي عيونه الحيرة.

قال له هاني: "رامي مسافر؟ إلى أين؟"

– إلى قطر، يا له من غريب الأطوار؟ لا أعرف لماذا لم يخبرنا لكُنّـــا قد ودّعناه وقمنا بالواجب.
– ماذا ستفعل الآن يا أمين، إن لم تجد أحداً ينوب مكانك؟
– سأذهب لأقدّم استقالتي...

خبط هاني بكفّه على طاولة المكتب وقال لأمين:"حقّاً أثبتَّ لي أنك غير طبيعيّ! ما هذا الذي أسمعه منك؟ لستَ أمين الذي أعرفه، أريد أن أفهم ما هذا الإصرار الشّديد على هذه العمليّة! وكأنها ستفتح لك نافذة للسّماء وتُنير لك ليلة القدر!

– كفاك هراءً يا هاني، لا توجع قلبي بكلامك، أنا متعب من دون كلامك هذا.
– أرأيت! أنت نفسك غير مرتاح للعمليّة... أليس كذلك؟ لا تُنكر أنا صديقك وأفهمك على الفور، من النّظر بعيونك.

تنهّد أمين وقال: "لا لست مرتاحاً، لكن أشعر بشيء يشدّني لكي أجريها، وأشعر أنها جدّاً ضروريّة ومهمّة لي".

– ستخسر عملك... وصحّتك... هذا بالإضافة إلى أنها باهظة الثّمن، لماذا السّير بالظّلام؟ باستطاعتك أن تتزوّج ريم، وتؤجّل العمليّة فيما بعد!!
– تكلّمتُ بالموضوع بما يكفي العمليّة يوم الخميس، إذا أردتَ أن تأتي لزيارتي وتقف بجانبي أكن لك شاكراً.
– لا لن آتي، أنا لست راضياً عن هذه العمليّة، اذهب وحدك واعتمد على نفسك.
– أشكرك يا هاني لوقوفك بجانبي، يبدو أنَّ العمليّة ستجعلني أخسر أصدقائي أيضاً، وليست وظيفتي وحسب.(قالها باستهزاء)

– هذا الذي اخترته أنت بنفسك وربّما ستخسر أشياء أخرى فيما بعد.

خرج أمين حزيناً من مكتب هاني وتوجّه إلى مكتبه، وقام بكتابة الاستقالة ابتداءً من يوم الأربعاء المقبل قبل العمليّة بيوم، كان يكتبها وهو يشعر بضيق شديد يعتصر قلبه، وحزن اجتاح كلَّ مشاعره.

توجّه على الفور لمكتب المدير العام وقدّمها له. فرآها المدير ونظر لأمين بحسرة وأسف، وقال له: "أتعلم يا أمين سأوقّع على هذه الاستقالة لكن أشعر أني سأوقّع على فقدان أفضل مهندس بارع لدينا بالشّركة، وليست مجرد استقالة وحسب، غيابك عن الشّركة خسارة كبيرة لنا، على الصّعيد العملي والصّعيد الاجتماعي، فنحن أحببناك لنفسك ولشخصك ولالتزامك بالعمل الجادِّ الدّؤوب، ولو أنَّ الاستقالة غير ضرورية لما وافقت عليها أبداً".

– يا سيّدي... أشكرك على تقديرك لي وتعاونك معي، وإن شاء الله سأسعى جاهداً أن أقوم بتسليمك المشاريع التي بين يدي جاهزة وأنهيها قبل يوم الخميس، لأكون قد أنهيت عملي على أكمل وجه، وأبرّئ ذمّتي أمام الله.

– والله يا أمين أعرف أنك لا تقصّر بالعمل، لكن لا تجهد نفسك وتحمّلها فوق طاقتها.

– حاضر يا سيّدي سأعمل ما بوسعي. اسمح لي أن أعود للمكتب.

– تفضّل اذهب، فليساعدك الله.

عاد أمين لمكتبه واتّصل بريم وأخبرها بأنهم لم يوافقوا له بالشّركة على إجازة مدّتها شهران، فاضّطر لتقديم استقالته من أجل العمليّة، حزنت ريم لأجله لأنها أحست بنبرة صوته حزناً عميقاً يُـــخفيه ويتظاهر أنه على ما يرام.

وطلب منها أن يقوما بعقد القران غداً مساءً ليستمتعا بالأسبوع اليتيم هذا قُبيل العملية... فأخبرته أنها ستستشير والداها وتخبره بالنتيجة، أما هي فلا تمانع أبداً.

ذهبت ريم لوالدتها بالمطبخ وهي تُعدُّ الطّعام وكانت تُقطّع البطاطا، وقالت لها:"أمي اتّصل أمين معي الآن وطلب أن نقوم بعقد قراننا غداً مساءً، أنا موافقة ما رأيكِ؟"

بقيت أم ريم تُقطِّع البطاطا، وقالت بلهجة رفض:"هكذا بهذه السرعة؟ ألم نطلب منه أن يُـــخبرنا قبل يومين؟"

– أمي لا داعي لليومين، فالوقت ضيّق وعمليّته يوم الخميس.

– وما المشكلة إن عقد قرانه قبل العمليّـــة بيوم واحد؟

– أمي! يوم واحد؟... وماذا سنفعل بهذا اليوم؟

فغضبت هند وقالت:"وما الذي حضرتكما تخطّطان أن تفعلانه بالأصل حتّى أنَّ اليوم لا يكفي؟"

– أمي يا حبيبتي لا شيء معين، لكن قال لي أمين لنستطيع أن نستمتع قليلاً هذا الأسبوع قبل العمليّـــة.

زاد غضب والدها وأصبحت تقطّع البطاطا بعصبيّـــة وقالت:"ماذا؟ تسمتعان..؟ اقتراح الأستاذ أمين هذا؟ أيريد أن يستمتع بكِ؟ يا لكِ من غبيّـــة هو كأبيه لم يختلف! يستمتع ويرمي ويستهزئ ببنات العالم والنّـــاس".

– أمي لماذا هذا الكلام الآن، ألم نتفق على عقد القران؟ كما أنه لا يقصد أن يستمتع بي بل لنستمتع سوياً ونذهب ونخرج ونسهر معاً، لا تأخذكِ أفكاركِ بعيداً.
– ريم لا تجعليني أضربكِ، اذهبي من أمامي لأنكِ أثرتِ أعصابي وغضبي... فصرخت هند، آخ...آه... لقد جرحت إصبعي، اذهبي من وجهي يا ريم هيّا لا أريد أن أراكِ، جرحتُ إصبعي بسببكِ.

ذهبت ريم حزينة إلى غرفتها وقرّرت أن لا تخبر أمين بشيء الآن، إلى أن يأتي والدها وتأخذ الموافقة منه.

بقي أمين حتّى السّاعة العاشرة مساءً بالمكتب وهو يحاول إنهاء أحد المشاريع، فأنهى واحداً منهم وجهّزه لتسليمه غداً صباحاً للمدير العام ويوقّع على استلامه. وعاد لمنزله متعباً للغاية، تمدّد على الكنبة في غرفة الجلوس يُفكّر:"لماذا يا ترى ريم لم تتّصل بي لتردَّ على طلبي؟ هل والداها لم يوافقا؟ لا...لن أتّصل بها... لقد وعدتني أن تكلّمني مساءً".

فطرقت خالته علياء باب منزله لتطمئنَّ عليه؛ لأنها قلقتْ بسبب تأخّره، فسحب جسده المتعب للباب وفتح لها ثمَّ عاد وجلس بملل "تفضّلي خالتي"

– يبدو عليك الإرهاق الشديد...هل أكلت شيئاً؟
– شربتُ حوالي خمسة فناجين قهوة... وأربعة أكواب شاي...وكوب عصير برتقال منذ الصّباح للآن.
– ما هذا؟ ومن دون طعام؟
– من دون طعام؟ (قالها بملل وتعب)

غضبت خالته وقالت له: "ألا تعلم أنَّ كثرة القهوة والشّاي يؤثّران على قلبك سلباً، ولماذا للآن بدون طعام؟"

– يا خالتي القهوة تُنشِّط عضلة القلب، لقد كنت مشغولاً ولم أجد وقت فراغ للأكل.
– هيّا... هيّا ادخل بدّل ملابسك وصلِّ العِشاء، أكون قد حضرت لك طعاماً، لتقول لي ماذا فعلت بموضوع الإجازة؟

بعد تناوله للعشاء ذهب أمين على الفور لسريره، مع أنه أخذ حبّة دواء إلا أنه لم يستطع النوم. كأنَّ الحبّة عملتْ ردّة فعل عكسيّ وشعر بالقلق، وأحسَّ بألم وضيق بصدره، يبدو أنَّ سيرة العمليّـــة أثّرت على نفسيّته سلباً، وشعوره بفقدان عمله أضاف حزناً عليه. رنَّ هاتف منزله فقام من السّرير وهو يشعر بدوار من الدّواء، جلس وتناول سمّاعة الهاتف بيده، كانت السّاعة الثانية عشرة في منتصف اللّيل، والدته أمل على الهاتف تريد الاطمئنان عليه وعلى أخباره، اعتقد أنَّ المتّصل هي ريم بالبداية لكنها أمه، فأخبرها بكلِّ التّطوّرات التي حدثتْ معه باختصار، والتي ستحدث في الأسبوع المقبل فغضبت هي الأخرى وقلقتْ جدّاً، وانزعجت لأنه لم يخبرها من قبل،

فكان ردّه بأنَّ الأمور كانت تسير بسرعة والعمليّة تقرّرت أيضا بسرعة. فأخبرته أنها ستحاول المجيء وقت العملية لتكون بجانبه، فرح أمين لأنَّ أمه ستكون موجودة.

وما أن أنهى مكالمته مع والدته إذ بريم تتّصل به أيضاً، رفع سمّاعة الهاتف متلهّفاً وقال: "ألو..."

– مرحباً أمين هل أيقظتُك؟

– لا، أنا مستيقظ لم أنم بعد (وأخذ يتثاءب وهو يتكلّم من شدّة النّعاس والإرهاق، كما أنه يضع يده على صدره ممسكاً الألم).

فقالت ريم:"بعد نقاش طويل دام ساعتين ونصف قررنا أن يكون عقد القران بعد يومين، أي يوم الثلاثاء".

– لكن اليوم السبت يا ريم.

– اليوم قد انتهى يا حبيبي، انظر للسّاعة هي الثانية عشرة وعشر دقائق، الأحد والاثنين سنقوم بترتيبات كثيرة من أجل حفلة عقد القران ولا نستطيع عقده قبل يومين.

– سنقيم حفلة؟

– نعم... أمي تريد أن تدعو جميع الأقارب لتعلن لهم أنَّ ابنتها قد تمَّ عقد قرانها ولا يكون زواجنا بالخفاء. كما أنَّ أبي طلب جاهة لطلب يدي في نفس يوم عقد القران.

– جاهة يا ريم؟...من أين سأحضر الجاهة؟

– أنا قلت لهم هذا؟ لكن أبي قال لا بدَّ أن يكون لديه أقرباء ليقفوا معه بهذه المناسبة؟

– مستحيل... ليس لديَّ أعمام ولا جدّ ولا حتّى خال واحد، كلُّ الذين أعرفهم هم زوج خالتي عبد الرّحمن وهاني صديقي ومدير الشّركة والموظّفين، هل هذا يجوز ويُرضي أبوكِ؟

– لا أعلم، سأعود وأخبر والدي بأن يستثني الجاهة من الموضوع، لكن غداً صباحاً ستبدأ أمي بدعوة الأقارب لحفلة الثلاثاء.

– هذا يعني أنَّ يوماً واحداً لنا فقط قبل العمليّـــة، بل نصف يوم يا ريم.

– لماذا يا أمين؟

عصر الثلاثاء سنعقد القران ويضيع الوقت بالحفلة، ويوم الأربعاء ظهراً سأذهب للمستشفى لأبدأ بالتّحضيرات قبل العمليّـــة، وأقضي ليلتي هناك، والخميس صباحاً عمليّـــتي.

– يا أمين بعد العمليّة معنا العمر كلّه سأقضيه معك، ولن أبتعد عنك أبداً.

– ألا نستطيع أن نؤجّل الحفلة بعد شهر أو شهرين أكون قد أصبحت أفضل حالاً، لا أشعر بالرّاحة الآن ولا رغبة للجلوس بجوِّ الحفلات، أنا متوتّر جدّاً ومشوّش هذه الأيام، إضافة إلى ذلك لديَّ أعمال كثيرة يجب أن أنهيها قبل العمليّـــة، ألا نستطيع إلغاء هذه الواجبات الاجتماعيّـــة إلى وقت آخر؟

– لا يا أمين، لا أريد أن أعود وأحتدَّ مع أمي وأتنازع، هي تغضب وتثور بسرعة، هكذا هي راضية.

صمت أمين للحظة على الهاتف ولم يُعجبه كلُّ الكلام. ثمَّ قال لريم: "دعينا ننام الآن تصبحين على خير".

– تصبح على خير يا حبيبي.

أغلق أمين الهاتف وبدأ يُفكِّر بكلِّ الضّغوطات من حوله، إلا أنَّ الغفوة كانت أسرع إلى جفونه ونام حتّى الصّباح على الكنبة في غرفة الجلوس.

إنه صباح الأحد، استيقظ أمين مبكّراً للتوجّه إلى الشركة ليُنهي أعماله المتبقيّة قبل الموعد المحدّد، وبقي غارقاً بالعمل حتّى انقضى النّهار بأكمله. وما شعر على نفسه إلا السّاعة التّاسعة والنصف وهو متعب جداً، فأحضر هاني له طعاماً وتناولا معاً العشاء، وبقي أمين بالمكتب للسّاعة الثانية عشرة بعد منتصف اللّيل، وبعدها عاد لمنزله وأخذ حماماً ساخناً ونام.

صباح الاثنين أيضاً بدأ أمين عمله بنشاط وسلّمَ للمدير الأعمال التي انتهى منها، وبقي بين يديه مشروعاً واحداً، قرّر أن ينهيه في هذا اليوم حتّى ولو سهر اللّيل بطوله؛ لأنه غداً سيكون غارقاً بأمور عقد القران ولن يستطيع أن يداوم بالشّركة إلا ساعات معدودة في الصّباح.

طلبت ريم رؤيته لأنها مشتاقة له لكنه رفض ودعاها غداً للغداء قبل موعد الحفلة وعقد القران، وأخبرها أن تأتيه للشّركة السّاعة الواحدة ظهر الثلاثاء للذّهاب سويّاً للغداء في مطعم مرموق. فوافقت وكانت مسرورة جداً.

أما هذا اليوم فقد قضاه طيلة النهار بالعمل وسهر اللّيل بأكمله حتّى السّاعة الثالثة فجراً وأنهى آخر مشروع بين يديه. ساعده هاني وسهر معه لكن للسّاعة الواحدة بعد منتصف الليل وذهب.

أمين ضغط على نفسه أكثر من اللاّزم لإنهاء العمل فأرهق جسده وقلبه لدرجة كبيرة،

مع أنَّ الطّبيب نصحه بالرّاحة التامّة قبل العمليّة بأيام، ليكون جسمه قويّ ونشيط ويتحمّل جهد العمليّة.

عاد فجراً لمنزله، وما إن وصل إلى البيت حتّى ألقى بنفسه على السرير من دون أن يُبدِّل ملابسه. وبقي نائماً بسبات حتّى الصّباح. فاستيقظ على صوت الهاتف حوالي السّاعة الثّامنة صباحاً، المتّصل ريم أرادت أن توقظه ليكون نشيطاً ومستعداً ليومه هذا، هي لم تعلم أنه سهر حتّى الفجر بالمكتب لإنهاء عمله. استيقظ أمين والتعب وعناء السّهر والعمل يبدوان عليه، والإرهاق حول عينيه، ويشعر أنَّ كلَّ قطعة من جسده تؤلمه. لكنه أخذ حماماً دافئاً ليستعيد نشاطه ولبس ملابسه وذهب لعمله لتسليم المشاريع وإنهاء الأمور العالقة بالعمل. فلا عودة للشّركة بعد ذلك.

زيارة مفاجئة من منال لأمين في مكتبه، حيث كانت السّاعة تُقارب الواحدة والرّبع، وبقي ربع ساعة وستحضر ريم لتذهب هي وأمين لتناول الغداء، لكن استقبَلها بكلِّ رحابة صدر وفرح، وطلب لها كوب شاي فجلست منال تتأمّل بأمين وهو يعمل دون أن يتكلّما مع بعضهما، ثمَّ قالت له: "يبدو على وجهك التّعب يا أمين ما الذي جرى؟"

– إني أسهر بالمكتب ساعات طويلة لأنهي عملي، فأنا قدَّمتُ استقالتي بسبب العمليّة الجراحيّة.

– يا خسارة، وهل العملية تحتاج لوقت كبير لتتعافى حتّى قدّمتَ استقالتك؟

– أحتاج لشهرين فترة نقاهة بعد العمليّـــةلأستعيد عافيتي.

– يا أمين... تبدو العمليّة صعبة!

– لا مشكلة ادعوا لي فقط بالشّفاء وبنجاحِ العمليّـــة.

– إن شاء الله، لا تقلق سنبقى بجانبك دائماً، وجئت فقط لأطمئنَّ عليك اليوم، وأسألك إذا كنت تحتاج لأيِّ شيء.

– هذا لطفٌ منكِ يا منال، أشكركِ... صدّقيني لا أحتاج لشيء، لا تُتعبي نفسكِ.

– سأشرب الشّاي وأغادر لا أريد أن أعطّلك.

طرقت ريم باب مكتب أمين وفتحت ودخلت، تفاجأت منال بها جدّاً، وقالت لها:"ريم؟! أنتِ هنا بهذه البلد؟ حمداً لله على سلامتكِ".

– أشكركِ يا منال، نعم أنا هنا عُدتُ من إسبانيا ولن أرجع أبداً.

– هذا جيّد، هل استقرَّ عمل زوجكِ هنا.

– كلاّ يا منال... لقد انفصلنا أنا والدّكتور عمر... ألم يخبركِ أمين؟

نظرت ريم لأمين، وقالت له: "ألم تُـــخبرها بالقصّة"... هزَّ رأسه أمين من دون أن يتكلّم بمعنى لا... لم يخبرها، وكان مشغولاً بكتابة شيء ما، ولم يرفع نظره عن الأوراق التي بين يديه.

فقالت منال:"ما القصّة أخبراني"؟

أجابتها ريم بكلِّ حماس: "اليوم هو حفل عقد قِراننا أنا وأمين".

فنظرت منال لأمين مندهشة وقالت له:"أحقّاً ما تقوله ريم؟"

رفع رأسه عن الكتابة وأجاب منال: "نعم صحيح... هل هناك مشكلة؟"

– لا، لكن تفاجأتْ، مبروك (وقالتها بغير نَـــفْس).

ثمَّ قالت ريم: "السّاعة الواحدة يا أمين، لا نريد أن نتأخّر هيّا، لديّ مئة شيء أفعله بعد الغداء".

– هيّا لقد أنهيتُ كلَّ شيء والحمد لله، سأطفئ جهاز الحاسوب ونستعدُّ للذّهاب، هل تأتين معنا يا منال؟قالت له منال:"إلى أين ستذهبان "

– سنذهب لتناول الغداء.

– لا شكراً، فأمي تُعدُّ اليوم سمكاً مشوياً، وأنا أحبُّ هذا الصنف من الطّعام، لكن أوافق إذا تكرّمتما بإيصالي للبيت، فالجوُّ أصبح ماطراً وبارداً، ومن الصّعب أن أجد سيّارة أجرة الآن.

أجابها أمين: "لا عليكِ، هيّا تفضّلي معنا".

ركب ثلاثتهم السيّارة، ريم بجانب أمين ومنال بالخلف، لقد كانت منال حزينة، فقالت في نفسها: "يا سبحان الله قبل ثلاثة أشهر كنت أجلس أنا في الأمام بجانب أمين، والآن اختلفتْ الأحوال أصبحت أجلس بالخلف! وهل يُعقل أنا وريم مع أمين وبنفس السيّارة؟ يا إلهي لا أتصوّر هذا!! وكيف حصل"

قال أمين لمنال: "ماذا تفعلين يا منال هذه الأيام؟"

فأجابت منال: "فرص العمل هذه الأيام قليلة. ولا أريد العمل كسكرتيرة في إحدى الشّركات، لقد عملت كسكرتيرة في السّابق فقط من أجل أن أبقى بجانبك، لكن الآن الوضع اختلف، أريد أن أعمل في مجال دراستي، فأصبحت أعمل وحدي".

فسألها: "هل يعني أنكِ أصبحتِ سيّدة أعمال حرّة؟"

ضحكت منال وقالت: "لا طبعاً، أعمل مدرِّسة خصوصيّة بالمنزل، أُدرّس اللّغة العربيّة لجميع المراحل الدّراسيّة".

– هذا رائع، جيّد أن يجد الإنسان له عملاً خاصاً به، دون أن يتعاقد مع أحد، وهل هذا العمل يُدِرُّ دخلاً جيّداً عليكِ؟

– بشكل جيّد يا أمين، والحمد لله أنا مرتاحة جدّاً، وقتي مُلكي.

– يوفّقكِ الله يا منال.

فسألت منال صديقتها ريم وقالت لها: "لماذا أنتِ صامتة، ولا تتكلّمين يا ريم؟ ".

– لا يوجد ما أقوله، أنا أسمع لكما فقط.

– هل أخبركِ أمين عن سبب انفصالنا؟

فقال أمين: "لا أعتقد يا منال أنَّ هناك داعٍ لنبش شيء مضى وانقضى وغير ضروريٍّ ذكره".

– كيف غير ضروريّ؟ هذا السبب قَلَبَ حياتنا وهو الذي جعل ريم تجلس بقربك الآن، وستصبح زوجتك بعد ساعات.

فقالت ريم وهي قلقة: "أيوجد شيء سرّيٌّ مثلاً لا تريدني أن أعرفه يا أمين؟ أخبراني من فضلكما ما هو سبب انفصالكما؟"

فقال أمين: "أمر تافهٌ لا داعي لذكره".

غضبت منال وقالت: "أتسمّي سبب انفصالنا أمراً تافهاً يا أمين؟!"

– من فضلكِ يا منال سبق وأن تناقشنا بالموضوع كثيراً، وأنتِ التي كنتِ مصرّة على الطّلاق، لا السّبب الذي في بالكِ!

– لكنه يا أمين من العوامل التي أدّت إلى طلاقنا.

فقالت ريم: "أرجوكما أخبراني ما الذي جرى؟ "

قالت منال:"يا ريم، أنا ما زلتُ أحبُّ أمين، لكن أنتِ كنتِ السّبب في وفاة طفلنا، أو بالأحرى قتلتيه بعدم احترامكِ للآخرين".

قالت ريم بقلق وحيرة: "أنا...! أيُعقل؟ كيف تتّهميني بهذه التّهمة الخطيرة؟ ليس لي علاقة بالموضوع".

أصبح أمين ومنال يتكلّمان في نفس الوقت ولا أحد يسمع للآخر، وصار الوضع فوضى عارمة بالسيّارة من النقاشات الحادّة. هو يقول كفى يا منال ويبرّر موقف ريم، وهي تُصرُّ على اتّهام ريم، وتحمّلَها سبب وفاة الطّفل والطّلاق.

فغضبت ريم وصرخت بصوتٍ عالٍ: "كفى يا أمين، قف هنا من فضلك" فأوقف أمين السيّارة بجانب الرّصيف على اليمين، فتحت ريم الباب ونزلت وهي تبكي وقالت: "تناولي طعام الغداء أنتِ وأمين يا منال، ما دمتِ تحبّينه وغاضبة لأنه طلّقكِ سأتركه لكِ".

نزل أمين فوراً وراء ريم ليُعيدها للسيّارة، لكن بقيت رافضة لا تريد، وقالت له:"أرجوك اتركني يا أمين دعني وشأني"

– يا ريم... كفى... أرجوكِ لا تكوني حسّاسة. منال لا تقصد كما أنها هي بطبيعتها تحبُّ إثارة المشاكل وتشعر بالغيرة منكِ. أنا سأشرح لكِ سبب الطّلاق والحادثة بالكامل والتّفصيل فيما بعد، لا تقلقي لستِ أنتِ السّبب كوني مطمئنة، وامسحي دموعكِ وتعالي لنعود للسيّارة، ليس من اللاّئق أن نبقى هكذا بالشّارع والمطر يُبلّلنا، هيّا سنُصاب بالبرد".

وعادا إلى السيّارة، فقالت ريم: "انظر يا أمين... منال غادرتْ السيّارة، ستتركها تسير وحدها تحت المطر هكذا؟ "

قال أمين: "ادخلي أنتِ للسيّارة وأنا سأركض أناديها".

ركض أمين حوالي ٥٠ متر فوصل لمنال وقال لها: "هيّا يا منال، لا داعي للسّير تحت المطر، أنتِ وريم صديقتان لا تجعلي هذه الأمور تفقدكما صداقة السنين".

قالت بعصبيّة:"أنت يا أمين تُدافع عن ريم وتجعلني أنا المخطئة أمامها، والسّبب الأساسي أنها هي المشكلة ".

– تعالي إلى السيّارة الآن انظري لقد ابتللنا بالكامل، وسأعتذر لكِ أمامها، هيّا لا نريد أن نخسر بعضنا.

– لا، سآخذ سيّارة أجرة وأكمل طريقي للمنزل.

– من فضلكِ يا منال تعالي...هيّا، لن تجدي بسهولة سيّارة أجرة الآن، كما أنَّ المطر غزير ستمرضين، لقد ابتللنا هيّا...

بقيت واقفة غاضبة لا تريد العودة للسيّارة معه، فسحبها أمين من يدها رغماً عنها، وقال لها: "سأتحمّل المسؤوليّـــة أنا إن بقيتِ هكذا تحت المطر وتعرّضتِ للبرد فلن أسامح نفسي، هيّا معي"...فرجعت معه للسيّارة وجلست في الخلف وجلس أمين وراء المقود، سحب مناديل ورقيّة وأخذ يُنشّف وجهه من المطر الشديد وأدار التدفئة الكهربائيّة في السيّارة لكي تُنشّف ملابسهم من بلل المطر والبرد الذي تخلّل إلى أعماقهم. ثمَّ قال: "أدعوكِ يا منال لتناول الغداء معنا اعتذاراً عن الموقف السّخيف هذا، ما رأيكِ؟"

–لا أرجوك يا أمين من فضلك أوصلني للبيت، وأنا التي أعتذر لكما عن هذه الفوضى التي بدرتْ بسببي.

فقال لها: "لا عليكِ يا منال سنتناول الطّعام وبعدها أوصلكِ".

– أشكرك،حقاً لا أريد، فأنا مشغولة وسبق أن أخبرتك أنني أريد أن أتناول السّمك المشويّ مع عائلتي.

أوصلها أمين إلى منزلها فنزلت وودّعتهما وباركتْ لهما بعقد القران. بقي أمين واقفاً أمام بيت منال سارحاً في خياله.

فقالت له ريم: "ما بك يا أمين؟ منال قد دخلت لمنزلها، ماذا تنتظر بعد؟"

– أتعرفين يا ريم...طفلي الصّغير مدفون هنا، بحديقة منزل أهل منال، لقد تذكّرتُ اللّحظة التي وضعنا فيها قطعة الجسد الصّغير بالقبر الذي حفره رامي، كانت لحظة حزينة وصعبة على نفسي".

–يا إلهي...مخيف الموقف صعب، لا تحزن يا أمين إن شاء الله سيُعوّضك الله بأطفال غيره، ما زال الزّمن معنا.

الفصل الخامس والأربعون

توجّه أمين هو وريم إلى مطعم يُقدِّم أطيب الأكلات المشهورة الشّرقية والغربيّة. فجلسا وطلبا الطّعام، وقضيا وقتاً ممتعاً معاً، ثمَّ اصطحبها بعد الغداء لمحلِّ بيع الذّهب، لشراء خاتم الخطبة الذي سيُلبسها إيّاه في الحفلة.

وبعد ذلك أوصلها لمترلها حوالي السّاعة الرّابعة إلاّ ربع، كانت والدهما تنتظرها للذّهاب إلى مصفّفة الشعر فموعدهم عندها في تمام السّاعة الرّابعة، عاد أمين لمترله وأخذ حمّاماً ساخناً وحلق ذقنه، وقام بِكيِّ قميصه وجهّز ملابسه ليرتديها قبل أن يخرج، ونظر إلى السّاعة فوجدها الخامسة والنّصف مساءً، أما الموعد المحدّد فهو تمام السّادسة.

ركض للغرفة ليرتدي قميصه الرّماديّ وبدلته سوداء اللّون، مع ربطة عنق جميلة تعكس لون الفضيّ مع الإضاءة، وصفّف شعره ورفعه بمثبِّت الشّعر للأعلى، ووضع عطره المفضّل الذي لا يُبدّله أبداً ذا الرّائحة المميّزة المثيرة، وجلس في غرفة الجلوس ينتعل حذاءه الأسود الأنيق اللاّمع.

انتهى وبقي يُراقب السّاعة لينطلق في الوقت المناسب، ثمّ أخذدفتر كتاباته الخاصّ ليكتب خاطرة عن الفرحة التي تغمره اليوم...فصار يُفكّر كيف يبدأ...؟ فكتب خاطرة نثرية:

بعد قليل سأروي عطشي من الحبِّ...
بعد قليـــل ســأروي قصّتي للبشـــرِ

***

دروب عمري ســتتفتّح كلون القمـــرِ
ربيـــع عـــمري سيُزهر بعد الصّبــرِ

***

سأهديكِ روحي وأقدّم لكِ قلبي مهراً
سألتكِ بالله لا تردّي من جـــاءكِ بهديّته عُمْــراً

***

مشـــيتُ دربي بقلب لم أعلم أنه مُلْكـــاً لغيري
لكن بما أنه لكِ، لن أمانع إذا نَبـَـضَ بغير صدري...

أنهى كتابته وحمل الدّفتر ووضعه فوق التّلفاز، وصل هاني عنده ففتح له ودخل...

فقال له: "بسم الله وما شاء الله. رائع ما هذا الجمال يا أمين؟"

– حقّاً هل أبدو جيّداً؟

– طبعاً، رائع جدّاً... هيا بنا سنتأخّر عن الموعد، أمازلت واقفاً هيّا...

– هيّا أنا جاهز... ها هو الحلويّ في جيبي ومفاتيح السيّارة... وها هما الخاتمان، وكلُّ شيءٍ تمام، سنطرق الباب على خالتي لنرى إن أصبح الجميع جاهزين... أين ديالة؟

– لقد سبقتنا.

كانت خالته جاهزة للخروج وعبد الرّحمن كذلك والأطفال. فنزل الجميع وركبوا بسيّاراتهم. وصلوا قرابة السّاعة السّادسة أمام منزل ريم. كان قلب أمين ينبض بسرعة من شدّة الفرح، فرحّب بهم أبو ريم وأدخلهم لغرفة الضّيوف، كانت مليئة بالرّجال، ثلاثة أعمام لريم وخال واحد وجَدُّها، فجلس أمين بجانب الجدّ، ثمَّ جاء الشّيخ بعد لحظة من قدومهم حيث أجلسه أبو ريم في صدر البيت، وطلب من أمين أن يجلس بجانبه، فقال لهم الشيخ: "أسمعوني الفاتحة على نيّـــة التّوفيق". فقرأ الجميع الفاتحة بسرِّهم وبعضهم بصوتٍ منخفض، ثمَّ فتح الشّيخ دفتره واستعاذ بالله من الشّيطان الرّجيم، وسمّى بالله.

ثمَّ قال:" أأنتم مستعدّون؟"

– قال والد ريم: "تفضّل يا شيخ نحن جاهزون" .

طلب الشّيخ بالبداية العروس؛ لأخذ موافقتها وإيجابها للموضوع.

فناداها والدها لتأتي وتوقّع على عقد القران، كانت تجلس بالغرفة المجاورة – غرفة الجلوس – مع باقي النّساء، فدخلت إلى غرفة الضّيوف، كانت ترتدي شالاً فضيّاً على أكتافها فوق الفستان الأسود الرّسميّ لتستر أكتافها.

ألقتْ التحيّـــة وجلست بجانب والدها، فقال لها الشّيخ: "نريد إيجابكِ وقبولكِ على هذا الزّواج يا ابنتي".

فقالت للشّيخ بابتسامة لطيفة:"أنا موافقة".

هذه المرّة ليست كأيِّ مرّة، فنظرت إلى أمين بخجل ووجهها محمرّ وهي مسرورة ومبتسمة. أما أمين فكانت الفرحة تغمره إلى أذنيه، فوقّعا على جميع الأوراق.

وتمّ بحمد الله عقد قرانهما على خير بفرح وسرور. وغادر الشّيخ مباركاً لهما الزّواج.

جلست ريم بجانب أمين فهمس في أذنها وقال:" أنا لا أحبّكِ"

فقالت له ريم وهي تبتسم: "كاذب!!" ضحك أمين وقال: "أنا أعشقكِ"

ما إن صارت السّاعة السّابعة حتّى بدأ المدعوّون يأتون للحفلة، وبدأت الموسيقى تعلو والفتيات تتمايل وترقص فرحاً، وأمين وريم يجلسان يضحكان ويتحدّثان. لكن أمين بعد ساعتين بدأ يشعر بإرهاق من تراكمات السّهر في العمل وقلّة الاهتمام بطعامه، ولم يَعُدْ باستطاعته أن يسمع ضجيج الحفلة، فقال لريم: "متى ستنتهي حفلة الخِطبة برأيكِ يا حبيبتي؟ "

فنظرت ريم للسّاعة وقالت له متى تشاء ننهيها... الآن السّاعة التّـــاسعة.

– حسناً، يجب أن أقدّم لكِ خاتم الخِطبة، وبعدها ننهي الحفلة.

فأشارت ريم لوالدتها فجاءت إليها قالت لها:"سنُلبس الآن خاتما الخطبة وبعدها نحاول إنهاء الحفلة، أمين يشعر بالإرهاق فهولم ينم جيّداً منذ ثلاثة أيام من ضغط العمل".

فقالت لها والدتها: "حسناً، سأطلب منهم وضع موسيقى هادئة ليجلس الجميع، ويقوم هو بإلباسكِ الخاتم".

وبالفعل قدّم لريم خاتم الخِطبة وألبسها إياه، وهي كذلك ألبسته خاتمه الفضيّ، فأصبحت الفتيات يزغردن ويهتفن: "نريد رقصة... نريد رقصة".

فقالت ريم لأمين: "أتريد الرّقص على هذه الأغنية الهادئة؟"

– لا أشعر بالرّغبة في الرّقص، أنا جدّاً... متعب.

– يا حبيبي الأغنية هادئة، سنجاملهم قليلاً ونجلس.

فجاءت والدة ريم وسحبت أمين وريم من أيديهما ليرقصا سويّاً على هذه الأغنية الرّومانسية الهادئة، فوقفا بالوسط بين المدعوّين. فمسكها من خصرها الرّقيق وهي وضعت يديها على كتفيه، وبدأ الاثنان بالرّقص بكلِّ هدوء مبتسمين.

فقالت له ريم: "أتعلم ماذا تذكّرتْ؟"

فقال لها: "أتذكّرتِ عندما رقصنا سويّاً في بيتي بعد أن عُدْنا من عند الشّيخ الذي عقد قراننا أوّل مرّة؟"

– بالضّبط! هذا ما تذكّرته هذه اللّحظة، هي لحظة مشابهه لكن كنّا نحتفل وحدنا من دون علم أحد، أتعلم كان للموقف جوُّه الخاص ولذّته المميّزة.

– صحيح، كنتُ وقتها مرتبكاً جدّاً.

– والآن يا أمين؟

– الآن يا حبيبتي متعب جداً ... مسرور جداً.

– ماذا سنفعل يا أمينو عندما يغادر المدعوّون؟

نظر أمين إلى عينيها وقال لها: "سآخذكِ لنتناول طعام العشاء بمكان هادئ".

– أين؟

– لا، لن أقول لكِ هو مفاجأة.

– لكنّك متعب! لا أريدك أن تُرهِق نفسك أكثر.

– لا تقلقي المكان هادئ ومريح، ويُشعركِ بالأمان.

– حسناً أنا موافقة. لكن هل والديّ ستوافق؟

– وما المانع الآن؟

انتهت الأغنية والرّقصة كذلك فصفّق الجميع لهما، انتبه أمين أنَّ الأغنية انتهت، وريم قالت: "أتعلم... لم أنتبه للأغنية ونحن نرقص".

فقال لها: "أخذنا الحديث، وربّما لم ننتبه كيف كنّا نرقُص"

ضحكت ريم وقالت: "ربّما كنّا نتمايل فقط على الألحان ".

جاءت هند إليهما، فقالت لها ريم: "متى سيذهب المدعوّون يا أمي؟ "

– ما بكِ يا ريم؟ عيب أن نقول لهم غادروا...!

لكن الموقف أنقذ نفسه بدأت النّـــاس تُسلّم على العروسين وتخرج. فلم يبقَ إلا قلّة من المقرّبين...

قال أمين لحماته هند: "أتسمحين لي يا خالتي أن آخذ ريم ونذهب لنتناول العشاء بمكان ما".

نظرت للسّاعة وقالت له: "السّاعة الآن العاشرة والوقت متأخّر، اسهرا هنا وسنُحضر لكما طعام العشاء".

- من فضلكِ، أرغب أن نذهب سويّاً... لن نتأخّر.
فقالت ريم: "أرجوكِ يا أمي، لن نتأخّر".
- حسناً اذهبا وإيّــاكما أن تتأخّرا، اذهبي يا ريم وارتدي مِعطفكِ فالجوُّ بارد بالخارج.
- حاضر يا أمي (وركضت ريم لغرفتها مسرورة سعيدة لأخذ مِعطفها).
لحقتها والدتها للغرفة وقالت لها: "اسمعي يا ريم إن طلب منكِ الذّهاب إلى بيته، فارفضي ولا توافقي، هذا لا يعني أنكما إذا عقدتما القران أنكما تأخذان راحتكما كثيراً، وتجلسان بخلوة".
- وما المانع أن نجلس سويّاً، هو زوجي الآن؟
- يا جاهلة... بقي أمامنا حفل الزّفاف، وبعدها خذي راحتكِ معه كما تشائين.
- لــمَ التشدّد هذا وكأنه غريب؟
- يا ريم المفروض أن تفهمي عليِّ... لا أريد أن ينفرد بكِ ويتزوّجكِ فعلياً الآن. فما زال المشوار طويلاً أمامه، وبعدها نُحدّد.
عبست ريم وقالت: "أمي... ما هذا الكلام الآن؟ لا تقلقي لن يحصل شيء، سنذهب لتناول العشاء فقط"... ولبست ريم معطفها وهي تحدّث نفسها: "يا إلهي، تخاف عليَّ كثيراً وكأني تحفة أثريّة، حتّى من أمين من زوجي حبيبي، لا تريدني أن أجلس معه وحدي، أيُعقل؟".
خرجت ريم وقالت لأمين: "هيّا أنا جاهزة يا حبيبي".
فسلم أمين على الجميع ومسك يد ريم وغادرا المترل، فتح لها باب السيّارة وجلستْ بجانبه.
- الطقس بارد جداً، هلاّ أدرتَ التدفئة من فضلك؟
- طبعاً يا حبيبتي.
- بدأ أمين يقود سيّارته بهدوء وهو صامت... فقالت له ريم: "لــمَ كلُّ هذا الصّمت؟"
- أنا سعيد جدّاً وأشعر أنني أملك العالم بأسره، لذا لا أستطيع أن أعبِّر عن شيء بالكلام.
- لقد نظرتُ لخالتك علياء قبل أن نخرج من مترلنا، كانت عيناها تدمع.
- نعم أعرف، لقد قبّــلتُها وعانقتها فأصبحت تبكي، وقالت لي إنها مسرورة من أجلنا كثيراً وخائفة عليِّ أكثر، فقلت لها يا خالتي مسرورة وأنا معكِ، لكن خائفة لماذا؟ فقالت لي لا أدري ربّما لأني أحبّك كثيراً، فقلبي عليك ومعك.
- إلى أين سنذهب أراك أصبحتَ قريباً من مترلك. (سألت ريم)
- نعم، سآخذكِ إلى بيتي؟
- إلى بيتك...؟!
- لماذا تفاجأتِ؟ هو بيتنا وليس بيتي وحدي، لا يوجد مكان أهدأ وأفضل من البيت لنكمل به سهرتنا.
- لكن يا أمين...؟
- لكن ماذا؟
- ألم تقل لي أننا سنذهب لتناول العشاء؟ أنا جائعة!

- هذا مؤكّد وأنا جائع أكثر. لقد أخذ هاني مفتاح البيت وحضّرَ لنا طعاماً شهيّاً، وهيّأ لنا جوَّ المترل وقام بتدفئته، وقال لي بأنه سيُفاجئنا بترتيبات هذه السّهرة، فهي هديّة من هاني لنا من طعام وكلّ شيء، لنذهب ونرى ماذا أعدّ.

فتذكّرت ريم كلام والدها قبل أن تخرج مع أمين، لكن مشاعرها وعواطفها وشوقها لأمين منعتها أن ترفض الذّهاب معه للمترل، بل وافقت على الفور.

كان هاني قد جهّز لهما المترل من أجمل ما يكون، حضّر لهما الطّعام على الطّاولة في غرفة الجلوس والعصير بأنواعه، وحلويات بعد العشاء، وأشعل لهما مئة شمعة في البيت بأطوال مختلفة وروائح زكيّـــة. ونثر لهم الورود في كلِّ مكان، حتّى في غرفة النّوم شموع مضاءة بجانب السّرير. وقد أدار موسيقى هادئة، أما الجوُّ العام للبيت كان دافئاً جدّاً؛ لأنَّ التدفئة تعمل منذ فترة، رغم أنَّ الجوَّ خارج البيت بارد....

فتح أمين باب المترل فتفاجأ هو وريم بسحر المكان، فقالت له ريم: "ما أجمل المترل! الشّموع تُضيء المكان بأكمله... كما أنَّ الرّائحة عطرة، أشعر وكأني في الجنّـــة خصوصاً مع وجود الورد بكلِّ مكان.

قال أمين: "ما أحسن هاني، يُريد إسعادنا بأيّ طريقة".

فقالت ريم: "حقّاً شكراً لك يا هاني".

- لا تقلقي سأشكره عندما أراه مباشرة.

ثمَّ جلست ريم على إحدى المقاعد في الغرفة، فقال لها أمين:"هل آخذ معطفكِ وأعلّقه، الجوُّ هنا بالبيت دافئ".

فخلعت معطفها وناولته لأمين، وهو كذلك خلع مِعطف البدلة وعلّقهما. ثمَّ جلس بجانبها وأخذ ينظر في عينيها بكلِّ هدوء وشوق.

وقال لها: "أتعرفين أنَّ فستانكِ جميل بل مبهر، أو ربّما جسدكِ النّـــاعم الرّقيق هو الذي جعل الفستان يبدو جميلاً.

ابتسمت ريم ابتسامتها السّاحرة ولم تتفوّه بكلمة واحدة، بل احمرّت خجلاً، خصوصاً لأنَّ أمين أخذ يتحسّسُ شعرها النّـــاعم، الذي يتدلّـــى كالحرير على كتفيها.

كان فستان ريم جميلاً حقّاً، مع أنَّ معظم النّـــاس في الحفل انتقدوها عليه؛ لأنه ذو لون أسود، فكان الجميع يقول: "أعروسٌ وتلبس في خطبتها فستاناً أسوداً...!"لكن هذا الفستان الذي أعجبها ولم تهتمَّ للألوان. الفستان كان من القماش النّـــاعم المخمل الأسود من عند الرّقبة حتّى الصّدرمن دون أكمام، أما من أسفل الصّدر إلى نهاية الخصر من القماش الشّفاف الأسود (الشّيفون) الملتصق حول خصرها فيصف الجسد بكلِّ وضوح، ومن نهاية الخصر إلى آخر القدمين أُخيط من قماش الساتان النّـــاعم بتفصيلة ضيّقة ترسم ملامح الجسد.

اقترب منها أمين أكثر فشعر بجمود ممزوج بخجل في ملامحها، فقال لها:"ما بكِ يا ريم؟ أهذه أوّل مرّة نعقد قِراننا فيها...؟!"

ضحكت ريم من قلبها وقالت: "لا...المرّة الثانية أو الثالثة إذا أردتَ أن تحسبها هكذا... لكن لا أعرف لماذا أشعر بالخجل وكأني أوّل مرّة أجلس معك". ابتسم أمين بفرح هادئ وقال لها: "لأنَّ هذه المرّة تختلف عن كلِّ مرّة... لكن في المرّة السابقة كنتِ أجرأ من الآن، وأنا الذي كُنتُ أتصبّب عرقاً من الخجل... وكنتُ سأنفجر كالبركان...لا أنسى ذلك الموقف كم كان فظيعاً"

– آه...يا ريم... لا تعلمين مدى الشّوق الذي في قلبي لكِ... نار مشتعلة، وحرقةُ صبر على مدى زمنٍ مرير".

ساد الصمت فجأة...فبدأ أمين يتحسّسُ وجهها النّـــاعم بيده على أنغام الصّمتِ الدّافئ، حتّى وصلت أصابعه إلى شفاهها الطريّة، فمرّرهم بهدوء وحذر، أصبحت تتفادى نظراته من شدّة خجلها، ولا تسمح لعيونها بالنّظر إلى عينيه المتلألئة التي تحمل نظرات هادئة مريحة بكلِّ معاني الحبّ...فعانقها بحرارة وشوق يحمل ذكريات الحبِّ وحنين الماضي، فوضعت رأسها على كتفه غارقة بحبّه، تُثيرها رائحته الجذّابة وأحاسيسه الصّادقة... اقترب من وجهها وأخذتْ شفتاه تلامس شفتيها دون أن يقبّلها... فشعرتْ بأنفاسه الحارّة على شفتيها، وبنبض قلبه على صدرها لانعدام المسافة بينـــهما...

لقد شُلَّ تفكيرُها وتصادمتْ أحاسيسُها، حتّى بدأ يرسم قُبلته الأولى، فأصبحت لا تشعر بشيء من حولها إلاّ بنكهة القُبلة الممزوجة باللّذة... إلى أن أنهى قُبلته بهدوء وهو مازال يحتضنها بين ذراعيه. فقال لها: "أنأكل...؟"

هزّتْ رأسها بنعم وهي مبتسمة. ثمَّ انتقلا للطّاولة حيث الطّعام.

فكَّ أمين ربطة عنقه وأوّل زرٍّ من القميص، وبدأا يأكلان بشهية ونهم، ولم يشعُرا أبداً بالوقت من كثرة الأحاديث، وتناولا الذّكريات الجميلة والحزينة، التي كانت كأصناف طعام أخرى على المائدة.

انهيا طعامهما وأحاديثهما التي لا تنتهي...فذهبت ريم لتغسل يديها، وعندما انتهت لمحتْ غرفة نوم أمين في طريقها، فدخلت وقالت لأمين:"جميل...رائع لقد زيّن لنا هاني غرفة النّوم أيضاً... السّرير مليء بالورود، والشّموع مضاءة على جانبيّ السّرير".

فدخل أمين للغرفة وقال لها: "ياه...ما أجمله !! لقد تكلّف كثيراً من أجلنا ".

– أراك يا أمين أرجعت أثاث غرفة النّوم السّابقة...؟

– تلك الغرفة كانت على ذوق منال فهي التي اختارتها، أما هذه فهي غرفة أحلامي وأرتاح فيها نفسيّاً.

– لكن متى استطعتَ فِعْل هذا والتبديل بهذه السّرعة؟

– لقد تكفّلتْ خالتي بالمهمة كاملـــــةوأحضرتُ نجّاراً ليفكّ ويُركّب، وهي التي قامـــت بالتّرتيب وحدها، ولو لم يكن الوقت ضيّقاً ولست مضغوطاً بالعمل، لفعلتُ هذا أنا ولم أُتعبها.

جلست ريم على طرف السّرير وقالت:"كم أنا متشوّقة لأرتّب أغراضي وملابسي بالغرفة.. متى أبدأ بإحضارهم؟"

أجابها بفرح: "في أيِّ وقت تشائين يا حبيبتي، فالبيت بيتكِ، وعندما أجري العمليّة وأتحسّن بإذن الله سأساعدكِ بكلِّ شيء، ولن أترككِ تُتعبين نفسكِ".

رنَّ هاتف أمين الخلويّ، فرأى أمين الرّقم... قال لريم: "هذا رقم منزلكم، أجيبي أنتِ من المؤكّد والدتكِ المتّصلة".

أجابت ريم على الفور:"ألو... نعم؟"

والدتها المتّصلة بالفعل، فقالت: "لقد أصبحت السّاعة الثّانية عشرة...سيبزغُ الفجر أين أنتِ للآن... نريد أن ننام!"

أجابت ريم بتوتّر: "حاضر يا أمي...مسافة الطّريق وأكون بالبيت."

– أين أنتما الآن؟

– يا أمي نحن بالطّريق... بالسّيّارة... لا تقلقي سآتي حالاً.

فأغلقت الهاتف وتناوله أمين من يدها، وقال لها: "لماذا كذبتِ عليها يا حبيبتي وقلتِ أنكِ بالسيّارة؟ لا داعي للخوف الآن، فأنا زوجكِ ولستُ صديقكِ أو زميلكِ".

– أعلم يا حبيبي... لكن والدتي وأنت تعرفها ربّما تغضب إذا علمتْ أني في البيت معك، هل توصلني الآن حالاً؟"

– الآن...؟ ألا تريدين قضاء هذه اللّيلة عندي؟

– مستحيل...! لقد وعدتُ والدتي أن أعود مبكّراً...وها هي السّاعة الآن الثّـــانية عشرة.

مسك أمين بيديها متوسّلاً: "ما المشكلة لو اتّصلنا معها هاتفياً، وطلبتُ منها أن أبقيكِ معي هذه اللّيلة...أنا حقّـــاً أحتاجكِ بقربي... حبيبتي... أرجوكِ..."

سكتت ريم لحظة طويلة وأنزلت نظرها للأرض، فقال لها أمين: "ما بكِ يا ريم...؟ هل أنتِ خائفة من شيء أم ماذا؟ أم هذه نظرة حزن عابرة تسلّلتْ بين فرحتنا؟ لا أريد أن أرى حزناً بعينيك بعد اليوم أبداً، الأحزان انتهت، أرجوكِ عديني...لا أقصد بكلامي مضايقتكِ".

– لا، لم تضايقني أبداً يا حبيبي أمينو، لكن والدتي حتماً ستغضب إذا طلبتُ منها هذا الطلب، أرجوك لا تسبّب لي الإحراج... الأيام القادمة كثيرة ولن نفترق".

– أريدكِ بقربي وحسب.

–أمين من فضلك لا تضغط عليِّ.

– حسناً على راحتكِ، هيّا نرتدي معطفينا وأوصلكِ.

فأطفأ أمين الشّموع في غرفة الجلوس، وكأنه أخذ يُطفئ ليلة الفرح هذه معلناً عن نهاية الأفراح... ثمَّ خرجا وأوصلها إلى بيتها وقال لها: "هل سأراك غداً؟"

أجابته ريم: "هذا مؤكّد سآتي معك للمستشفى وأقف بجانبك، وأتابع سير الفحوصات المطلوبة والتّجهيزات"

– ممتاز، سأحضر أغراضي الضروريّة للمستشفى غداً صباحاً، سآخذك معي وأنتِ ستعودين بالسيّارة مع خالتي وأبقيها معكِ، لأني سأنام في المستشفى منذ ليلة غد ليستطيعوا تحضيري للعمليّـــة مبكّراً.

بلهجة قلق وحيرة قالت ريم: "أحسستني بالقلق والخوف عليك يا أمين...!"
– لا تخافي توكّلي على الله.

قبّلته على خده قُبلة سريعة خاطفة وقالت له: "تصبح على خير" وخرجت مسرعة من السيّارة إلى بيتها.

عاد أمين لمنزله حالماً بريم يشعر بالسّعادة، دخل غرفة نومه فرأى أنه نسي إطفاء الشّموع في الغرفة فنفخ كلٌّ واحدة على حدة بهدوء لإطفائها، وسحب غطاء السّرير الممتلئ بالأزهار والورود ووضعه جانباً وقال في نفسه: "خيال هاني واسع جداً...وأحلامه ورديّة!"فبدّل ملابسه واستعدّ للنّوم....

الخاتمة

والدة أمين اتّـــصلت هاتفياً بعلياء، أخبرتها أنها حجزتْ للسّفر منذ أسبوع لتأتي من أمريكا وتطمئنَّ على أمين أثناء العمليّـــة، وأخبرتها أنها ستصل حوالي السّاعة الثّـــالثة مساء يوم الخميس، ويكون أمين بإذن الله قد اجتاز العمليّـــة بخير.

وها هي الآن أمل تُـــحلّق بالطّائرة العائدة من أمريكا منذ مساء الثلاثاء لتصل الخميس بالوقت المحدّد.

علياء نسيت إخبار أمين أنَّ أمه أصبحت بالطّريق بسبب الأشغال الكثيرة التي كانت تلاحقهم هذه الأيام. لكنّه توقّع قدومها حسب مكالمتها له.

وصل أمين للمستشفى هو وريم وخالته علياء، كان يحمل بيده حقيبة صغيره قد حضّر فيها بعض الملابس الدّاخلية، وبعض الأغراض التي يحتاجها بالمستشفى، فأخذته الممرّضة لترشده إلى غرفته ليضعُ أغراضه فيها ويُبدِّل ملابسه، لقد أعطته الملابس الخاصّة بالمرضى الذين يخضعون للفحوصات وهي عبارة عن ثوب أزرق مفتوح من الخلف، وله ثلاث ربطات لإغلاقه.

فقالت لهما الممرضة: "من فضلكما انتظرا أمين خارجاً ريثما نستطيع تبديل ملابسه"

قال أمين للممرّضة: "ما رأيكِ لو تنتظرين بالخارج معهما؛ لأني أستطيع أن أبدِّل ملابسي وحدي، فأنا مازلتُ بوعيي".

فقالت له: "كنت أريد أن أساعدك!"

ضحك أمين وقال: "لا، شكراً..."

جاء الطّبيب وقام بفحص قلب أمين فحصاً دقيقاً بأكثر من جهاز لإجراء فحوصات القلب المختلفة، وطلب من الممرّضة عمل باقي الفحوصات المخبريّـــة والتّحاليل وصور الأشعة وغيرها.

كان نهاره مرهقاً، هذا بالإضافة إلى تعبه من قبل بسبب ضغوطات العمل وقلّة النّوم والتفكير المستمر. أصبحت السّاعة الخامسة مساءً وبدأت الشّمس بالغروب فأنهى أمين جميع فحوصاته، وقال لريم وهو مستلقٍ على السّرير: "ما رأيكِ يا ريم لو تأخذين خالتي وتذهبان لكي تستريحان، لقد أتعبتكما معي اليومَ كثيراً، وغداً يا خالتي ستأتي ريم وتصطحبكِ معها للمستشفى"

فقالت له خالته: "لا يُطاوعني قلبي أن أتركك هنا وحدك...!"

– يا خالتي أنا اليوم بخير سأقضي باقي الوقت بمتابعة التّـــلفاز، فلن أشعر بالملل، لكن غداً أرجوكما لا تتأخّرا عليّ، فأنا أريد أن أراكما قبل أن أدخل إلى غرفة العمليّات.

أجابته خالته: "طبعاً يا حبيبي مستحيل أن نتأخّر عليك، منذ الصّباح الباكر سنكون بجانبك".

ريم كانت تجلس بجانبه تمسح له على رأسه وقالت له: "لا تقلق يا حبيبي، إذا أردت سأنام اللّيلة عندك بالغرفة على هذه الكنبة"

– لا يا ريم، ليس المكان جيّداً للنوم فالكنبة صغيرة... ولو كان بسريري مكان لوضعتكِ بجانبي، لكن كما ترين سأبقى طيلة اللّيل موصولاً بهذه الأجهزة ليتمَّ مراقبة نبضات القلب والتّنفس

والضّغط؛ ليروا إن كانت القراءات المأخوذة متشابهه أم مختلفة خلال هذه اللّيلة..هيّا لا تقلقا توكّلا على الله واذهبا للرّاحة.

– أأنت متأكّد أنك لا تريد منّـــا شيئاً قبل أن نغادر؟

– نعم خالتي... طبعاً أريد منكما شيئاً...!

قالت ريم: "تكلّم، ماذا تُريد...؟"

– أريد منكِ قبلةً ومن خالتي قبلةً أخرى... وسأسمح لكما بالمغادرة.

ابتسمت ريم وقالت:"طلب مختلف...وغير عاديّ"

فتقدّمت خالته علياء وقبّـــلته من جبينه قُبلتين، وقالت له: "بالشّفاء يا حبيبي نراك غداً"

وقالت لريم: "سأسبقكِ إلى السيّارة... لا تتأخّري". وخرجت.

قالت ريم وهي مبتسمة: "ومن أيِّ نوع تريد القُبلة؟"

فقال لها: "أتركها لذوقكِ الرَّفيع يا أميرتي" فاقتربت من وجهه بهدوء ثمَّ طبعتْ بشفتيها قُبلة هادئة سريعة على خده وأبعدت وجهها، فابتسم أمين وقال: "حبيبتي لا تتأخّري عليّ غداً".

– يا حبيبي لا عليك، أنت نمْ جيّداً لتكون غداً مستعدّاً للعمليّة بجسد مرتاح ونشيط، إلى اللّقاء الآن خالتك تنتظرني.

طيلة اللّيل لم يستطع أمين النّوم، لقد أصيب بحالة قلقٍ شديد وطلب من الممرّضة أن تُعطيه أيّ حبّة دواء ليستطيع النوم لكنها رفضت، فعاد وطلب منها مرّات عدّة؛ لأنه أصبح متعباً جداً وعيناه لم تغفُ بعد، وهو معتاد على المنوّم، فسألت له الطّبيب إذا كانت تستطيع إعطاءه قرصاً منوّماً، قال لها الطّبيب: "لا تعطيه شيئاً سيغفو وحده بعد فترة، الآن لا نريد إعطاءه أيَّ منوم، غداً صباحاً سيأخذُ المخدِّر للعمليّة، واللّيلة سنريح جسده من الأدوية والمهدِّئات فلا داعي إلاّ للضّرورة القصوى".

انزعج أمين لدرجة كبيرة؛ لأنه لا يستطيع النّوم وقد تراكم إرهاق الأسبوع بأكمله على قلبه، ولم يغفُ إلاّ بعد السّاعة الخامسة فجراً، أما عند السّاعة السّابعة صباحاً طرقت الممرّضة باب غرفته تريد إيقاظه لتجهيزه للعمليّـــة، موعد العمليّة في تمام التّاسعة صباحاً، استيقظ أمين رغماً عنه ويشعر أنه سينهار من كثرة التّعب، فقال للممرّضة: "مازال الوقت مبكّراً للعمليّـــة... لـــمَ توقظيني الآن؟ فأنا لم أنمْ جيّداً بعد...حرام عليكِ!"

يجب أن تكون جاهزاً ومحضّراً قبل ساعتين...هيا سأفتح لك النافذة لتستعيد نشاطك."

– نشـــــــــــــــاطي...!أيَّ نشاط هذا؟

السّاعة الثّـــامنة والنّصف صباحاً، وللآن ريم والخالة علياء لم تأتيا للمستشفى بعد، حزن أمين لتأخّرهما، كان يتوقّع مجيئهما منذ السّابعة، لكن بعدما علم أنَّ الوقت المتبقي للعمليّة نصف ساعة شعر باليأس وأيقن أنه لن يراهما.

مازال أمين في غرفته وممرّض وممرّضة عنده يُـــجهّزانه للعمليّـــة يُريدان نقله لسرير نقّال متحرّك لسحبه إلى غرفة العمليّات، وأصبحت الممرّضة تَفُكّ عنه جهاز القلب و الضّغط، لاحظ

عليه الممرّض أنَّ دقّات قلبه قد زادت وبدأ بالتوتّر، فقال له: "ما بك يا أمين؟ كن شجاعاً، لن تشعر بالعمليّـــة، ستعتقد نفسك نائماً وتبدأ تحلم... لـــمَ القلق؟"

لكن أمين لم يجب وبقي صامتاً، فانتقل إلى السّرير النقّال وبدأ يسحب به الممرّض، وصلت خالته وريم ودخلتا الغرفة بعجلة شديدة لتتمكّنا من رؤيته، فتفاجأ بهما وقال لهما بحزن ومزاج سيّء: "لماذا تأخّرتما؟ اعتقدتُ أنكما لن تأتيا..."

فقالت له خالته: "أيُعقل أن لا نأتي..! لكن يزيد كانت درجة حرارته مرتفعة جدّاً، ولم أستطع أن أتركه أو أتحرّك من جانبه... وقلبي عليك وعليه في نفس الوقت، وما إن تحسّن قليلاً واطمأننت عليه جئتك فوراً، أما ريم المسكينة فهي منذ الصّباح الباكر تنتظرني".

فقالت ريم للممرّض الموجود: "من فضلك اتركه خمس دقائق معنا بالغرفة، وعُدْ بعد قليل، نريد أن نراه".

أجابها: "يا أختي...الطّبيب الجرّاح ينتظر بغرفة العمليّـــات ولا نستطيع تأخيره"

فقال أمين للممرّض وهو متمدّد على السّرير النّقال في وسط الغرفة: "أرجوك خمس دقائق أريد أن أملي نظري منهما قبل أن أدخل تلك الغرفة".

- حسناً سنعود لنأخذك بعد خمس دقائق فقط. (وخرجا من الغرفة) نظرت له ريم وقالت له: "ما بك يا حبيبي وجهك مُتعب...!"
- لم أنم طوال اللّيل، شعرت بالقلق ولا أشعر بالرّاحة اتّجاه العمليّـــة.
- يا حبيبي... لا تخف من شيء، نحن معك وسندعو الله لك بالشّفاء ونجاح العمليّـــة.
- يا ريم إذا رأيتِ هاني سلّمي عليه بالنّيابة عنّي واشكريه على السّاعتين الجميلتين اللّتان قضيناهما بالبيت برومانسيّة بفضل ترتيباته وتجهيزه لكلِّ الأمور... كانت من أجمل ساعات حياتي حقّاً"
- حسناً حبيبي سأشكره لـــمَ أنت مستعجل... وعندما تتعافى اشكره بنفسك أيضاً.
- ربّما لن أراه قريباً... قال لي أنه لن يأتي لزيارتي بالمستشفى؛ لأنه غير موافق على العمليّة فهو غاضب مني.

قبّلته خالته وقالت له: "ها هو الممرّض عاد لأخذِك، ادخلْ بنفسيّة مرتاحة ولا تقلق" .

ومسكت ريم يده وشدّت عليها بحرارة وقبّـــلتها، فسحب الممرّض السّرير وقال لريم: "من فضلكِ يا آنسة ابتعدي قليلاً عن السّرير، الطّبيب ينتظر".

بقيتْ عينا أمين اللّتان تتلألآن خوفاً تنظران لريم كأنه يطلب الاستغاثة، حتّى أُدخل إلى غرفة العمليّات، أخذ ينظر حوله على أرجاء الغرفة، فأنيرت الأضواء السّاطعة فوق رأسه تماماً فشعر برهبة، وناجى الله في سرّه وبقلبه المستسلم: (اللّهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدل فيّ قضاؤك، اللّهم إنَّ قلبي بين يديك فارحمه رحمة من عندك يا أرحم الرّاحمين، واجعل فيه نوراً يا نور السماوات والأرض، فوّضتُ أمري إليك واستودعت قلبي وروحي أمانة عندك يا مُحي يا مميت، اللّهم اختر لي الخير حيث كان، أستغفر الله العظيم، حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكّلتُ وهو ربُّ العرش العظيم، اللّهم صلِّ على سيّدنا محمد، بسم الله...بسم الله...) وعلى الفور قبل أن يتكلّم كلمة واحدة جاء طبيب التخدير ومسك يده، وقال له: "أتعملُ

مهندساً يا أمين؟" ومع أنه سمع السّؤال إلا أنه لم يستطع الإجابة؛ لأنه دخل بنوم عميق... لقد تمَّ تخديره بالكامل... بدأت العمليّــة حوالي السّاعة التّــاسعة وعشر دقائق...

بقيت ريم والخالة علياء بالخارج تجلسان على كراسي الانتظار، والقلق والحيرة تُداهمهما. فقالت ريم للخالة: "كم ساعة سيبقى أمين تحت العمليّــة؟"

– قال الطّبيب من أربع إلى خمس ساعات تقريباً.

– والله يا خالة مدَّة طويلة جدّاً.

* * *

انقضت ساعة من العمليّة ولم يخرج أحدٌ يُطمئنهما عن أحوال سيرها، تفاجأت ريم بوصول منال للمستشفى، فسألت عن أحوال أمين وعن العمليّة فأخبرتها الخالة علياء أنَّ الأمور غير واضحة، وما زال الوقت باكراً للسّؤال عن التفاصيل فالعملية في بدايتها.

ديالة كذلك جاءت وجلست بجانبهم وسألت عن الأوضاع لكن كان الجواب ذاته، القلق يعمُّ المكان والقلوب، وخالة أمين بقيت تُمسك القرآن بيدها وتقرأ له سورة يس لتُخفّف عنه.

وبعد ثلاث ساعات انقضت شعر الجميع بالتّعب من طول الانتظار والجلوس، فقالت ريم: "ما رأيكم يا جماعة أن نذهب للاستراحة لشرب شاي وتناول وجبة خفيفة، إني أشعر بجوع شديد". فقالت علياء: "أخاف أن يخرج أحد الممرّضين من العمليّــة ولا نستطيع أن نراه، أريد أن أطمئنَّ على الوضع، أنا قلقة وقلبي غير مطمئن".

فقالت ديالة: "أنا لا أشعر بالجــّوع لقد تناولت فطوري في الصّباح، اذهبن أنتنَّ وأنا سأخبركنّ إن رأيتُ أحداً أو عرفتُ شيئاً".

وافقت الخالة وتوجّهت هي وريم ومنال للاستراحة لتناول شيء خفيف، ورجعن بعد الانتهاء بسرعة.

قالت ريم لديالة: "هل عرفتِ شيئاً؟"

– لا أبداً، لم يخرج أحد منذ أن تركتموني، الوضع على حاله.

وما إن انقضت أربع ساعات حتّى خرجت ممرّضة من غرفة العمليّات، فركضت إليها الخالة علياء وقالت لها: "كيف سارت العملية؟". فأجابت الممرضة: "مبارك، لقد كان المولودة بنتاً".

صرخت الخالة علياء وقالت: "أنا أعصابي مشدودة وأنتِ تمازحينني؟"

نظرت الفتيات لبعضهن ولم يستطعن أن يُسيطِرْنَ على أنفسهنَّ من الضّحك.

فقالت الممرّضة: "لا أمازحكِ صدّقيني، ولدتْ قيصريّة وأنجبتْ فتاة مثل القمر"

قالت علياء بغضب: "أنا لا أسألكِ عن السيّدة، بل عن أمين داخل غرفة العلميّات لإجراء عمليّة القلب".

فقالت الممرضة:"آه... أنا آسفة، وراء هذا الباب يا سيّدتي يوجد أربع غرف عمليّات، وأنا كنتُ بالغرفة رقم (٣) المخصّصة للعمليّات الخفيفة مثل القيصريّــة. قد خرجت للتوّ من عند تلك السيّدة ولا أعلم من بداخل غرف العمليّات الأخرى، اعتَقَدْتكِ تسألين عن الأم.

– لكن هل تستطيعين الدّخول لمعرفة ماذا يجري بغرف العمليّات الأخرى؟

– آسفة يا سيّدتي، فهذا ممنوع ولا أستطيع أن أدخل بلا سبب وأقتحم غرفة العمليّات لأحاول أخذ أيِّ معلومات.

– حسناً، شكراً لكِ.

ذهبت هذه الممرّضة وبعد عشر دقائق خرجت ممرّضة أخرى وكانت مسرعة، فأوقفتها الخالة علياء وقالت لها: "هل أنتِ كنتِ في الغرفة التي يُجري بها أمين عمليّـــة القلب".

أجابت الممرّضة بعجل: "نعم... نعم، وأخذت تركض مسرعة، فلحقت بها علياء متوتّرة جدّاً وقالت لها: "انتظري أريد أن أطمئنَّ، كيف أمين؟"

فقالت الممرضة: "الوضع جيّد للآن لا تقلقوا، لكن نريد الاستعانة بطبيب آخر، ونُفضِّل المشرف على حالته أصلاً، سأذهب لأتّصل به على الفور؟".

ذهبت مسرعة وتركت الخالة واقفة بدهشة، فعادت علياء لتجلس مع الفتيات، جاءت بجانبها ريم وقالت لها: "ماذا قالت لكِ؟"

– لم أفهم يا ريم، عسى أن يكون بخير، قلبي غير مطمئن.

فقالت منال: "يا خالة، ماذا قالت لكِ بالتّحديد".

– يريدون الاستعانة بطبيبهِ المشرف على حالته بالأصل، هذا الكلام أقلقني وأخافني! لماذا يريدونه يا ترى؟

قالت ديالة: "لا تقلقي يا خالة لعلّهم يُريدون استشارة معيّنة أو سؤالاً معيناً عن حالة أمين السّابقة، هل أخبرتكِ عن صحّته؟"

– قالت إنَّ الأمور جيّدة، ولم تخبرني بشي آخر أوضح.

أصبح القلق والتوتّر يسيطران على الجميع، فريم لم تَعُدْ تستطيع الجلوس، وأخذت تسير من مكان لمكان قَلِقة، والخالة علياء كأنَّ ناراً اشتعلت بداخلها وأصبح رأسُها يُؤلمها من كثر ما ضغطت على نفسها، وديالة ومنال تجلسان حزينتين بلا كلام، لقد أصبحت السّاعة الثّـــانية بعد الظهر، أي خمس ساعات انقضت وأمين تحت العمليّـــة.

خرجت الممرّضة ذاتها التي كانت قبل ساعة، فقفزت ريم إليه ولحقتها علياء ووقفت منال وديالة تُريدان سماع ما سيقال.

سألتها ريم: "من فضلكِ أخبريني كيف سارت العمليّـــة"

– العمليّـــة لم تنته بعد، وطبيب أمين قد جاء قبل ساعة وها هو يتعاون مع الطّبيب الجرّاح الذي بدأ بالعمليّـــة.

فقالت علياء: "لكن لم نره دخل للعمليّـــات".

– لقد دخل من باب آخر ليُغيّر ملابسه ويرتدي الملابس المعقّمة، ويُعقّم يديه ويدخل للعمليّات من باب مخصّص للأطبّـــاء.

– آه فهمت... لكن ما هي أحوال أمين، أخباره، احكي لنا أرجوكِ؟

– بصراحة لا أستطيع أن أصرِّح بشيء الآن، والمعلومات مع الطّبيب فقط... فهو أعلم بالحالة منا، لا أستطيع أن أخبركنَّ بشيء.

قالت لها ريم: "لماذا أحضروا طبيبه ألا يكفي الطّبيب الموجود؟"

– حسناً، سأخبركنّ... لكن... أرجوكنَّ لا تخبرن أحداً أنني من أخبرتكنّ، وعلى كلِّ حال بعد العمليّة سيشرح لكنَّ الطّبيب كلَّ شيء.

قلقت الخالة وقالت: "هيّا أرجوكِ أخبرينا".

ثمَّ قالت ريم: "هل هناك أمر خطير مثلاً –لا سمح الله– أخبرينا؟"

قالت ديالة: "اسمعي يا ريم ولا تستبقي الأحداث"

* * *

قرَّر هاني أن يُنهي الأعمال التي بين يديه ويذهب للمستشفى للاطمئنان على أمين، فنظر إلى السّاعة فوجدها الثّانية وعشر دقائق بعد الظّهر، فقال في نفسه: "لابدَّ أنَّ أمين خرج من العمليّات الآن، سأذهب لأراه فهو صديق عمري الغالي، يجب أن أقف بجانبه.

أما الممرّضة فوجّهت كلامها للخالة علياء لأنها أكبرهنَّ سناً، وقالت لها: "لقد أجرى الطّبيب العمليّة الجراحيّة وعاد قلب أمين يدقُّ طبيعيّاً لمدّة خمس دقائق، لكن بعد ذلك توقّف نبضه واختفى ورفض القلب كليّاً القطعة البديلة أو ما يُسمّى بالشّريان الصّناعي البديل الذي زرعه الطّبيب بدل الشّريان الأصلي المتضيّق".

فسألت الخالة وهي ترتجف ومتوتّرة جدّاً: "يااا إلهي...أيّ قطعة وأيّ صناعي؟!! لقد قال لنا الطّبيب أنه سيأخذ له شرياناً بديلاً من ساقه اليُسرى ويضعه للقلب، ما الذي جرى؟ ياربي أُلطف!!!"

– لم يشأ الطّبيب أن يفتح جرحين بجسد أمين، واحداً في صدره والآخر في ساقه، لذا وجد من الأفضل لأمين أن يضع القطعة الصّغيرة جدّاً والطّريّة المصنوعة خصّيصاً من مواد شبيهة بالشّرايين بدل شريانه الضيّق الملتصق، وكثير من الحالات يوضع لهم مثل هذه القطعة وتنجح العمليّة نجاحاً مُبهراً، لكن قلب أمين رفض هذه القطعة وبدأ جسده يصنع أجساماً مضادة لها بسرعة فائقة، فاعتُبرت العملية غير ناجحة، فاستعنا بطبيب أمين المشرف على حالته وقرّروا أن يأخذوا له شرياناً من ساقه اليُسرى وها هي العملية لم تنتهِ بعد، إن شاء الله ستسير الأمور على ما يُرام فالشّريان المأخوذ من الساق مضمون ولا يرفضه القلب لأنه من نفس الجسد.

تنهّدت الخالة بحسرة: "آآآآه... يا حبيبي يا أمين عَمَلوا منك حقل تجارب، رحمتك ياربي"

فقالت ريم:"يا الله... وإلى متى ستستمرُّ العمليّة؟"

– حوالي ساعة أخرى بإذن الله لا تقلقن، وأرجوكنَّ لا تخبرن أحداً أنني من قام بإخباركنَّ، وإذا جاء الطّبيب ليُخبركنَّ بشيء تظاهرن أنكنَّ لا تعلمن شيئاً، لكن أنا أحببت أن أخبركنّ لآني رأيتكنّ متوتّرات جدّاً، وتقفن منذ الصّباح أمام باب العمليّات.

فشكرت الخالة علياء الممرّضة على صراحتها وأنها لم تُـــخْفِ عليهنَّ شيئاً، لكن ازداد قلق الخالة على أمين من هذه الأخبار وخافت، وغضبت كذلك من تصرّف الطّبيب. أما ريم فجلست بلا حِراك شاردة الذّهن تسند رأسها على الحائط، وديالة تجلس بجانبها وهي عابسة، أما منال فذهبت تحضر بعض العصير ليشربن، فقد جفّت الحناجر من هذه الأخبار.

وصل هاني للمستشفى فرأى الجميع يجلسن بملل يخالطه القلق والحزن، فقال لهنَّ: "مساء الخير، ما بكنّ، ألم يخرج أمين من العمليّات بعد؟".

هزّت ديالة رأسها بمعنى لا، وقالت علياء: "تعال اجلس يا هاني فصديقك ما زال محجوزاً تحت رحمة الأطبّاء، يصنعون منه حقل تجارب".

قال هاني مستغرباً: "لقد تأخّر بالدّاخل، ما الذي يجري؟ كيف تسير الأمور؟"

فشرحت له علياء القصّة الدّراميّة التي روتها الممرّضة، فجُنَّ جنونه وغَضِب، وقال: "لماذا تسكتون على هذه الجريمة، أيـُعقل أن يُـجري عمليّتين جراحيّتين بوقت متواصل!!"

فقالت له ريم: "العمليّة الثّانية هي لإنقاذ العمليّة الأولى وإنقاذ حياته، لقد توقّف قلبه عن النبض، لا بدّ من فعل شيء سريع".

– كان يجب أن يتصرّف الطّبيب بذكاء منذ البداية، لا أن يحجز المريض تحت المِشرحة نهاراً كاملاً، انظري إلى السّاعة أصبحت الثّالثة ولم يخرجوه بعد، هذا من المؤكّد انه أُعطي جرعات مخدّرة إضافيّة وهذا خطير!!

فقالت ديالة: "لا تغضب يا هاني، كلامك صحيح لكن ما عسانا فاعلين؟ ما علينا إلاّ الانتظار".

وما إن انقضت نصف ساعة أخرى وأصبحت السّاعة الثّالثة والنصف، حتّى خرج الطّبيب وقال: "حمداً لله على سلامة أمين لقد نجحت العمليّة، وها هو قلب أمين ينبضُ بنبضٍ منتظم وتسارع صحيح منذ نصف ساعة تقريباً، وقد أخرجناه من العمليّات ووضعناه في وحدة العناية الحثيثة، وما زال تحت المراقبة، والأجهزة تأخذ له قياسات بين الوقت والآخر".

فقالت الخالة: "الحمد لله، كيف نستطيع أن نراه؟"

– إذا أردتم رؤيته فإنكم تستطيعون فقط من وراء الزّجاج، ولا نستطيع أن نُدخلكم إليه الآن، فما زال تحت تأثير البنج (المخدِّر).

فسأل هاني: "لماذا يا دكتور استغرقت العمليّة كلَّ هذا الوقت؟"

قال له الطّبيب: "تعال معي للمكتب وسأشرح لك تفاصيل العمليّة".

وفعلاً ذهب هاني مع الطّبيب إلى مكتبه وأخذ يشرح له كيف كان مخطّط العمليّة، وكيف رفض جسد أمين وقلبه القطعة الصّغيرة وتوقّف النّبض، وحاولوا إعادة نبضه بالصّعقة الكهربائيّـــة لكن بلا فائدة، فحاولوا إنقاذ الموقف الحـــَرِج بإجراء عمليّة أخرى سريعة.

وقف الجميع وراء نافذة زجاجيّة ينظرون إلى أمين بعد العمليّة، كان منظره يدلُّ على أنه متعب جدّاً، فوجهه أصفر شاحب وتحت عينيه هالات سوداء، وجهاز التنفّس على أنفه وفمه، وقياس نبض القلب موزّع على صدره المغطّى بالقطن والشّاش، حزنت ريم على منظره والدمعة تنزل من عينيها، واصفرَّ وجهها خوفاً عليه. وقالت للخالة: "انظري يا خالتي لقد كان في الصّباح كالوردة المتفتّحة، أما الآن فهو كالوردة الذّابلة المصفرّة".

– إن شاء الله بعد ساعة يستعيد وعيه ونستطيع أن نكلّمه ونُخرِجَه من ألمه هذا...ليحفظك الله ويحميك يا أمين، والله مسكين على هذه العمليّة!

رنَّ هاتف أمين الخلويّ في حقيبة علياء فأجابت على الفور. لقد وصلت أمل للتوّ من أمريكا، فقالت لها علياء: "أمين خرج من العمليّة قبل قليل، ويقول الطّبيب إنَّ العمليّة ناجحة، وحمداً لله على سلامتك يا أمل وسلامة ابنك أمين".

فسُرّتْ أمل جدّاً وقالت لعلياء: "سأنهي إجراءات المطار سريعا، وآتي فوراً للمستشفى لأرى أمين، ربّما أحتاج لساعة تقريباً مع مسافة الطّريق".

استيقظ أمين بعد ساعة تماماً كما قال الطّبيب، لكنه يشعر بألم شديد في صدره وبين أضلعه، فجاءت إليه الممرّضة وقالت له: "حمداً لله على سلامتك يا أمين".

رفع أمين يده ببطء شديد وهو يشعر أنها ثقيلة جدّاً، وأشار للممرّضة أن تنزع له كمّــامة الأكسجين... لا يريدها. فقالت له: "سأنزع لك هذه الكمّــامة لكن إن شعرتَ أنك تحتاج لها ولا تستطيع التنفّس بدونها، أشرْ لي بيدك".

فسحبتها عن وجهه ووضعتها جانباً وقالت له: "كيف تشعر؟" فهزَّ برأسه بحركة خفيفة، بمعنى أنه جيّد.

قالت له: "حسناً، بعد قليل ستصبح أفضل حالاً، ويخفُّ هذا الثّــقل في أطرافك ولسانك، هذا كلّه بسبب المخدّر الثّقيل الذي أخذته".

كان أمين لا يشعر بثقل وحسب بل بألمٍ شديد ولا يستطيع أن يخبر الممرّضة عن ذلك، فأصبح يئنُّ من الألم الشّديد؛ لأنه مجرّد أن يسحب نفس قصير يشعر أنَّ صدره يتمزّق وأضلاعه تتكسّر. فقالت له الممرضة: "هل تشعر بألم؟" فحاول أن يتكلّم وقال بصوت خفيف وثقل...نعم، فأعطته مسكّناً عن طريق الوريد".

وخرجت من عنده الممرّضة لتُخبر أقرباءه أنه استيقظ، وبعد قليل ستسمحُ لهم بالدّخول إليه لكن واحداً... واحداً.

بعد ربع ساعة عادت إليه وسألته: "كيف تشعر ياأمين الآن؟"

أجابها بصوت متعب: "أشعر...بوجع...في صدري... وضغط شديد على قلبي".

فقالت له: "بسيطة، هذا من أثر العمليّة، لكن أرى أنك بدأت تتكلّم، وخفَّ الثّقل الذي بلسانك، هذا يعني أنك ستتحسّن".

قال لها والألم يعتصره: "أريد أن أرى... ريم".

– الآن سأدخل لك أقرباءك، واحداً واحداً ليطمئنّوا عليك، فالجميع بالخارج يريدون رؤيتك.

– أريد...ريم...أوّل واحدة (كان الكلام يخرج بصعوبة منه).

– حسناً، سأخرج وأنادي ريم .

فخرجت الممرّضة لغرفة الانتظار وقالت لهم: "مِن فضلكم مَن هي ريم؟" فوقفت ريم بلهفة وقالت:"ماذا؟ أنا ريم"

– استيقظ أمين وطلب أن يراكِ أوّل واحدة، هل تأتين معي؟

– طبعاً، هيّا فأنا بشوق كبير لأراه.

فذهبت ريم مع الممرّضة لغرفة أمين بالعناية الحثيثة، وأدخلتها الممرّضة بهدوء وقالت لها: "أرجوكِ... لاتكثري عليه الأسئلة ولا تُرهقيه".

- لا تخافي... فأنا أخاف عليه أكثر منكِ.

وقفت ريم بجانبه، فنظر إليها نظرة متعبة، وفي عينيه إرهاق شديد، فقالت له: "كيف حالك حبيبي؟".

قال لها بصوته المتعب المبحوح: "أحسُّ بألمٍ فظيع، وببرد قارس".

- الغرفة دافئة جدّاً.

"أنا بردان يا ريم، أعطني يدك لأدفئ قلبي"...فمسكت يده وشعر بحرارة شوقها وخوفها عليه.

أما أم أمين (أمل) فقد وصلت للمستشفى للتوّ وسلّمت على الجميع وعلى علياء بحرارة وقالت: "أين أمين؟ أريد أن أراه".

فقالت لها الممرّضة: "أمين في وحدة العناية الحثيثة ولا نسمح لأكثر من شخص أن يدخل إليه، عندما تخرج ريم سأدخلكِ على الفور". وبعد برهة جاءت هند لتطمئنَّ على خطيب ابنتها، رأت أمل تجلس على أحد الكراسي فثارت أعصابها، ولم تُسلِّم عليها أبداً، لكن أمل قالت لها: "كيف حالكِ يا هند، أيُعقل أنكِ لم تعرفي صديقتكِ؟"

فقالت هند ببرود "آه...عرفتك، أهلاً أمل" فبقيت أمل صامتة مع أنها اغتاظت من هند ومن قلبها الحجر الذي لايعرف النّسيان أو التّسامح.

عادت الممرضة لريم وقالت لها: "كفى من فضلكِ...هل تخرجين؟ فالكلُّ يريد أن يرى أمين بالخارج".

قال أمين: "لا أريد أحداً...سوى ريم الآن، سيدخلون هم بعد قليل؟" (خرجت الممرّضة)

ثمَّ قال أمين لريم: "كم السّاعة الآن؟"

- إنها حوالي الخامسة إلاّ ربع تقريباً.
- ياه،كلُّ هذا الوقت استغرقت العمليّة؟
- المهم الحمد لله على سلامتك يا حبيبي.
- أحبكِ يا ريم، لا تبتعدي عنّي..
- ها أنا بقربك يا حبيبي... لا تقلق.
- قلبي الآن يا ريم مهراً لكِ، حافظي عليه...لقد ذاب من كثرة الأحزان التي مضت، لم يَعُدْ يتحمّل الأنين.

وبدأت عينا أمين تدمع وصار يبكي بحرقة من دون صوت.

فقالت له ريم: "أمين لا تتكلم، صوتك متعب وضعيف، أرجوك لا تبكي... لـمَ هذه الدّموع؟ يجب عليك أن تفرح الآن وتضحك؛ لأنك خرجت من العمليّة بسلام وبنجاح".

- ها أنا أضحك، لكن ضحكتي من دموع.

– أيـــُعقل أن يكون الضّحك من دموع! ما هذا الكلام؟ أتريد أن تُبكيني يا حبيبي؟ أفضل لك أن تصمت فصوتك غير واضح ومتعب، ومبحوح...استرح الآن...

تحاول ريم أن تتماسك وتُخفي بكاءها في حلقها وتحبس الدّموع.

– كم تمنيتُ أن تكوني لي يوماً، لكن حبّنا حلم بالنّسبة لي، وذكرى جميلةستظلُّ لكِ.

– أمين من فضلك اسكت لاترهق نفسك بالكلام، ألا ترى كيف يخرج صوتك مقطّعاً وضعيفاً، لا أريد أن أسمع المزيد، أنا لك على طول الدّرب ولن أبعد عنك أبداً.

فمسكتْ يده وقالت له: "فعلاً يدك باردة جدّاً، سأدعكُها لك كي أحرِّك فيها الدّم فتسخن...

– اخرجي ريم لا أريد أحداً..

– لماذا ألم تقل أن أبقى بقربك؟

فخيّم الصّمت ثوانٍ وبدت على أمين علامات اضطراب... وأصبح يُشير لريم بيده المتبعة المرتجفة أن تخرج فهو لم يستطع الكلام...

ثمّ قالت لأمين: "مابك؟ لـــمَ تنظر إليّ هكذا؟ لـــمَ تُحدِّق بي يا أمين، أأنت معجبٌ حتّى وأنت متعب؟". فقالت بهدوء مرّة أخرى: "أمين...أمين حبيبي" فنظرت إلى جهاز النّبض فرأت أنَّ النّبض سار بخطٍّ مستقيم، توتّرت بشدّة وخافت وأخذت ترتجف، فمسكت يديه الاثنتين وقالت له وهي تصرخ بصوت عالٍ: "أمين...أجبني يا حبيبي، أمين..."

نظرت إلى يده اليُمنى كان إصبعه الشّاهد مرفوعاً (السبّابة)، فصرخت تنادي: "لا أعرف ماذا جرى لأمين!! "وفاضت عيناها بالدّموع.

فركضت الممرّضات والجميع نحو غرفة أمين عندما سمعوا صوت ريم يعلو...وصوت جهاز القلب ينذر أن هناك خلل ما، وطلبوا الطّبيب فوراً.

انهارت أعصاب ريم وجلست بأرض الغرفة تبكي وترجف، أرجلها لم تعد تحملها وصارت تقول: "الآن كان يكلّمني، قال لي أنه يُـــحبّني...لا أعرف ما الذي حصل، لقد كان ينظر لي بشكلٍ طبيعيّ... ساعده أيها الطّبيب لا بدّ أنه فاقداً للوعي، إنه على قيد الحياة، هيّا قل له أن يستيقظ....آههه ...".

كان الطّبيب يحاول صعقه بالكهرباء لإعادة النّبض، لكن بلا فائدة فالقلب توقّف تماماً.

أمه جُنَّ جنونها وأصبح منظرها كالتائهة بلا وعي، لقد جاءت من آخر العالم لترى ولدها قد فارق الحياة، ممدّداً على سرير المستشفى، جسد على الأرض ...وروح في السّماء، وقلب ضاع بين الحبِّ وصراع الزّمن.

ومن دون أن يُلقي تحيّـــة الوداع غادرت روحه الطّاهرة، طالبة قرب الرّحمن فقُرْبَ الله أرحم من قُرْب العباد الذين يزعمون أنهم يختارون له الصّواب. لقد اختار الله له الموت بدل هذه الحياة، فالله وحده أعلم أنَّ موته أفضل وخيرٌ له، وهو قبل العمليّـــة بثوانٍ فوّض أمره لله، فالله اختار له الخير.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ **[سورة آل عمران آية: ١٨٥]**.

إنّـــا لله وإنّـــا إليه راجعون....لقد غَيّبه الموت عن مسيرة الحياة وهو مازال في بداية المشوار ...فالموت لا يعرف صغيراً أو كبيراً... (وكفى بالموتِ واعظاً) .

مهما حاول الإنسان أن يُنكرَ كلّ شيء ويتمرّد على كلِّ شيء فليس بوسعه أنْ يُنكر أنَّ الموت حقٌّ، والقلوب لا تدوم على حال واحدة، قد يموت القلب الحيُّ بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، ويحيا بالعلم واليقين والإيمان والذكرى الحسنة بعد موته.

إلى الوداع يا أميـــــــــــــــن...

خالته جلست تبكي...وتبكي بجانبه، ولم تعد أرجلها تحملها هي الأخرى، لا تُصدِّق ما ترى عينها.

أما هاني أخذ يبكي كالأطفال الصّغار بصوت عالٍ على صديقه الغالي الذي فقده بلمح البصر، وقبل ساعات لم يكن عليه حرج كان يتنفّس ويتحرّك ويبتسم.

قال هاني: "يا ليتني جئت باكراً يا أمين قبل العمليّة لأراك، وأودّعك يا حبيبي، أنا لم أكن راضياً عن العملية أبداً أرأيت لماذا يا أمين؟ أرأيت؟ وغضِبتَ مني لأني عاتبتك وقلتُ لك لن آتي، آه... يا ليتني جئت..." وأخذ هاني يحضن ديالة ويبكيان معاً.

منال أصبحت تبكي بشدّة وحرقة وألم، وذهبت لريم لتساعدها وترفعها عن الأرض، بعدما انهارت وجلست أرضاً تبكي.

هند جاءت إلى أمل لتواسيها على مأساتها الصّعبة، فقد حزنت عليها بشدّة، وشعرتْ بالحرج والأسف؛ لأنها هي من أخذت أمين وأصرّت أن يُجري العمليّة، وهي بحقدها وسخطها لن ترى طعما للهناء والراحة، فأين ستهرب من العدل الإلهي.

أعلن الطّبيب وفاة أمين رسمياً وطلب من الجميع الخروج من الغرفة، وقراءة الفاتحة على روحه. خرج الجميع بالبكاء والنّحيب على فراق أطيب الشّباب قلباً، أما ريم لم تَعدْ تعرف ماذا تقول جرّاء الصّدمة أخذت تصرخ مشوّشة بصوت عالٍ كالمجنونة: "مات بسبب طلبكِ يا أمي، أنتِ قتلتيه...!! كان أمين بأفضل حالاته، لقد سرقه الموت مني، مات وهو يحلُم أن نكون معاً".

وأخذت تركض... وتركض بالمستشفى، حتّى خرجت من الباب الرئيسيّ كالثّور الهائج، وأصبح هاني يلحقُ بها لكي لا تتصرّف من دون تفكير، فمسكها وقال لها: "اهدئي يا ريم...إلى أين ذاهبة؟"

فقالت له وبالبكاء يسبق الكلمات: "أريد أن اذهب وأسكن في بيت زوجي أمين، ولا أريد الخروج منه، أريد أن أبقى أشمّ رائحته في كلِّ مكان، لقد أهداني قلبه مهراً، وسأبقى محافظة على حبّه وإخلاصه، إلى مدى الحياة حتى أموت، لا أريد أن أتزوّج أحداً... أرجوك يا هاني أوصلني إلى بيته فأنا يجب أن أبقى هناك، لقد تمنّى أن أقضي ليلة معه، لكن للأسف كنت أنانيّـــة وقلت له أن يوصلني للبيت، يا ليتني بقيت معه! يا ليته ارتوى من العشق! لقد مات وهو يحلُم بالسّاعة التي تجمعنا سويّاً. "وأكملت كلامها وهي تبكي: "صحيح... قال لي أن أشكرك على الورد والشّموع والجوِّ الجميل الذي أهديتنا إيّاه، ربّما كان يشعر أنه لن يراك، لذا أوصاني أن أشكرك بالنّيابة عنه".

دموع هاني تسيل وقلبه يختنق..."كفى يا ريم اسكتي لا أريد أن أسمع المزيد".

وأخذ الاثنان يبكيان في وسط الشّارع.

فقالت ريم: "هيّا أوصلني يا هاني أرجوك لا أريد أن أرى أحداً، لقد مات أمين... مات... آآآآه... آه".

أخرجت ريم مفاتيح سيّارة أمين ليوصلها هاني بها. فقالت: "لا أصدّق أنّ أمين لن يقود سيّارته مرّة أخرى، لا أصدّق أننا بالسيّارة من دونه! إلى أين ذهب وتركنا...؟؟ لماذا ترك أغراضه أمامناً...؟؟ هل لنتعذّبَ ونتذكّره كُلّما رأيناهم؟"

– كفى يا ريم.... لنقرأ الفاتحة له بدل البكاء هذا قضاء الله وقدره (بقي هاني يُهدّئ بها، ويبكي بقهر).

فوصلت للبيت وفتحت الباب بهدوء وألم، فقال لها هاني"أتسمحين لي بالدخول معك..؟"

– ادخل يا هاني... وعادت للبكاء.

فدخلت تتأمّل البيت، كان الجوُّ موحشاً وخانقاً، وكلّما نظرتْ إلى شيء تغصُّ المرارة في حلقها، توجّهت لغرفة نومه فوجدتْ ملابس نومه مطويّة على طرف السّرير، فحملتهم وأخذت تشتمُّ رائحته وتبكي...

وقالت لهاني: "لن أغسل هذه الملابس أبداً، سأبقيها على السّرير كما هي وأرتّبها كلّ يوم".

وأعادها إلى السّرير وقالت:"سأنام اليوم هنا وكلّ يوم... على فراشك ووسادتك يا أمين، لكن ما الفائدة بدونك يا حبيبي...آآآآه...قلبي سيقف".

ودخلا المطبخ فقالت له: "انظر هاني كيف صفّف الأكواب والصحون قبل أن يغادر البيت، ترك كلّ شيء نظيفاً ومرتّباً، يا حبيبي...سأشتاق إليك كثيراً"والبكاء سيتفجر من عينيها.

قال لها هاني: "هذا يكفي يا ريم لن أدعكِ هنا بالبيت، إذا بقيتِ على هذه الحالة ستموتين وراءه، يجب أن تعودي لمترل والديكِ".

– كلا...اخرج أنت من هنا أنا سأبقى، هيّا اخرج لا أريد أحداً معي... سأبقى أنا وقلب أمين وحدنا بالبيت. هذا بيتي ولن أخرج منه.

وأخرجته رغماً عنه وأغلقت الباب، فرأتْ دفتر أمين الخاصّ بكتاباته وذكرياته، فأصبحت تقلّبه وتبكي وتقرأ وتتذكّر، فقرأت آخر صفحة كتبها وكان تاريخ عقد قرانهما مدوّناً عليها، فعرفت أنه كتبها قبل يومين، فقرأها وبكت؛ لأنه كتب فيها أربعة أسطر بقيت على دفتره أمنيات لم تتحقّق، وسطور أخرى لربّما كان يشعر بهما ...لقد كتب:

بعد قليل سأروي عطشي من الحبِّ...

بعد قليل سأروي قصّتي للبشر...

دروب عمري ستتفتّح كلون القمر...

ربيع عمري سيُزهر بعد الصّبر...

سأهديكِ روحي وأقدّم لكِ قلبي مهراً...

سألتكِ بالله لا تردّي من جاءكِ بهديّته عمراً

مشيتُ دربي بقلب لم أكن أعلم أنه لغيري...

لكن بما أنه لكِ،لا مانع أن ينبض بغير صدري...

***

فبكت بحرارة وقالت: "نعم...لقد أهداني قلبه وروحه وعمره، لكن ما الفائدة؟ لن أَرُدَّ هديّتك ولن أنساك يا أمين، أشكرك...فهذه أغلى وأثمن هديّة قُدِّمَتْ لي، للأسف....".

لقد مات أمين مات القلب الذي لطالما كان ينبض لأجل أن يلحق بالزّمن، كان ينبض بالحبِّ، ينبض للحياة وينبض ليحيا، مع كلِّ نبضة ذاق طعم مرارٍ مختلف... أحبَّ بصدقٍ. قلبه بقي يحمل طابع الطّفل الصّغير ولم يحتمّل التّغيير، فتوقّف نبض قلبه في صدره وترك باقي المشوار لغيره، ليركضوا هم وراء الزّمن ويلحقوه، لقد ركض بما فيه الكفاية، فهم مازال مشوارهم طويل، ومشواره انتهى وساعة الزّمن وقفت عنده، قد أعلن قلبه الاستقالة واستراح.

فما بعد الرَّاحة إلا الرّاحة، وأسلم الرّوح لخالقها مالك الكون الخالق الحيّ الذي لا يموت، ليطوي دفتر المرارة بين عقارب الزّمن اللاّدغة. وحبيبة قلبهِ بقيت عروسة الحبِّ العذريّ تسمع صدى قلبه ينبضُ في صدر الزّمن...

تـــمَّتْ بحمد الله

مع تحيّات رانيا دروزة